شمس الله تشرق على الغرب

فضل العرب على أوروبا



تأليف

د. سيجريد هونكه

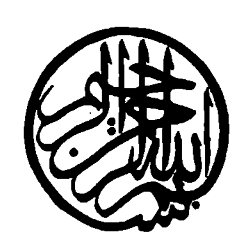
ترجمه وحققه وعلق عليه

أ. د. فؤاد حسنين علي



شمس الله تشرق على الغرب

فضل العرب على أوربا





٢ شارع امتداد رمسيس (١) ـ مدينة نصر ـ القاهرة

تليفاكس: ٢٤٠٢٤٦١٢ ـ ٢٤٠٥١٤٩٨

e. mail: af _ madkour@yahoo.com

الطبعة الأولى: يناير ٢٠٠٨ م/ المحرم ١٤٢٩ هـ

الطبعة الثانية: أغسطس ٢٠١١ م/ رمضان ١٤٣٢ هـ

■ رقم الإيداع: ٢٥٣٢٧ / ٢٠٠٧

■ الترقيم الدولي: ٩٧٨ ـ ٩٧٧ ـ ٦٢٧٦ ـ ٨١ ـ ١

شمس الله تشرق على الغرب

فضل العرب على أوربا

تأليف
الدكتورة سيجريد هونكه

ترجمه وحققه وعلق عليه
الدكتور فؤاد حسنين على



مقدمة الطبعة الثانية

للأستاذ الدكتور فؤاد حسنين على

شمس الله

هذا هو الاسم الذى أطلقه مريدو «سيجريد هونكه» عليها بعد أن تقدمت الصفوف وحملت لواء العروبة عاليًا خفاقًا فى كل مكان. إن كتابها «فضل العرب على أوربا» أو «شمس الله على الغرب» قد انطلق كالمارد عبر القارات والمحيطات متحديًا أعداء العروبة وخصومها؛ ففتحت له الجامعات أبوابها وحفلت مكتباتها ومكتبات المعاهد والمدارس بالعدد الوفير منه، كما ازدهت به قصور الملوك ورؤساء الدول ومشايخ الإسلام ورجال الإفتاء، وفاضت الصحافة العالمية فى مختلف لغاتها وأوطانها بالحديث عن العرب وفضلهم، وعن حبيبة العرب وعلمها الغزير. ولم يكتف الكتّاب بعرض الكتاب ومحتوياته، بل عنوا بتقديم الصور الناطقة لشمس الله فى قاعة بحثها، والتى هى عبارة عن متحف عربى يضم الكثير من آثار العروبة وتراثها، وعلى كل قطعة من هذا التراث إهداء عظيم من عظماء العرب ورجالاتهم، وتقع هذه الدار التى أصبحت مزارًا لكثير من رجال السياسة والقلم فى شارع «ناهيه فيج رقم ٢ Nahe Weg 2» فى العاصمة المؤقتة لألمانيا. ومن الصور الطريفة أيضًا لشمس الله وهى بين أفراد أسرتها وتضم غير زوجها ابنًا وابنتين، أو هى تعزف على رباب عربى قديم، وقد أهداها إليها حاكم «زاجورا»

ببلاد المغرب أو غيرها من الآلات الموسيقية العربية المختلفة، أو وهى فى المطبخ حيث تعد «الكسكسى» أو «المصقعة». وشهرة شمس الله لا تقل أهمية عن رؤساء الجمهورية الألمانية فهى أنى تحل موضع الحفاوة والتكريم. ويدهش «سيجريد هونكه» انتشار كتابها فى العالم العربى وذلك لأنها تعتقد أنها لم تضعه للعرب بل للأوروبيين، وذلك لأنها كما تقول فى صراحة ألمانية: «إن موقف أوربا من العرب منذ نزول الوحى المحمدى موقف عدائى بعيد البعد كله عن الإنصاف والعدالة، والتاريخ وقتذاك كان يملى ويصنع ولم يكن المملى هو الضمير بل التعصب الأعمى..» وتزداد إعجابًا من كثرة اللغات التى ترجم إليها، فإلى جانب العربية نجده فى الفرنسية والإيطالية والتركية والإندونيسية ولغات أخرى كثيرة. والواقع أن كتاب شمس الله من أهم العوامل التى تساعد على بلورة الشخصية العربية وبعثها وحيًا خلاقا، وقد تنبه زعماء العروبة للمؤلفة فأولوها عنايتهم واهتمامهم فدعوها لزيارة بلادهم سواء فى شرق العالم العربى أو غربه.

وإذا ذكرنا «شمس الله» يجب ألا تفوتنا الإشارة إلى زوجها الفاضل الكريم «بييتر شولتزا Peter Schulze» أو كما يطلق عليه سكان شمال إفريقيا «الشيخ محمد الطويل» فقد عشق العروبة والعربية فى مختلف لهجاتها، وتطوع مشكورًا لتلقين بعض أبناء المسلمين القرآن الكريم فى بلاد المغرب، وقد كان وقتذاك من كبار موظفى القنصلية الألمانية العامة فى الرباط، حيث تعرف إلى شريكة حياته فالتقى قلبان ينبضان حبًا للعروبة وأبنائها. وهو اليوم يمثل العروبة فى إدارة الإعلام الألمانية. وتهوى «شمس الله» إلى جانب التأليف والرحلات فى البلاد العربية وبواديها، التصوير السينمائى والإخراج وما سجلته للعرب فى كتابها كلامًا مقروءًا أخرجته فيلمًا مصورًا ناطقًا يعرف باسم «على هدى العرب "Aufden Spuren der Araber"» ولها غير هذا الفيلم أفلام أخرى لكثير من البلاد العربية وهى تعرضها فخورة بمآثر العرب وأياديهم البيضاء على الإنسانية، وحريصة على نعته «تراثنا العربى» تعنى ما ورثته أوربا عن العرب.

وصديقة العروبة فى السراء مخلصة لها وفيه فى الضراء، فهى لم تكد تعلم

بالنكسة التى حلت بنا حتى سارعت وضاعفت من نشاطها فشحذت همم الألمان لمناصرتنا ومد يد المساعدة لخلاصنا من كبوتنا؛ فخطبت وكتبت وأذاعت وحشدت خيرة القوم من أصدقاء العروبة من الألمان، وساهمت فى إقامة معرض شعاره «الأرض المقدسة العدالة للأردن» يصور حالة اللاجئين العرب، وقد أقيم المعرض فى قاعة بيتهوفن الموسيقار الخالد، وكان ذلك فى شهر يونية ١٩٦٨، وأشرفت على تنظيمه جمعية الصداقة الألمانية الأردنية بالتعاون مع مكتب الإعلام والسياحة الأردنى فى مدينة فرنكفورت.

وشاهد الزائر فيما شاهد صوراً للحرم الشريف فى القدس والكنائس فى بيت لحم، وألقت «سيجريد هونكه» خطابًا جامعًا استعرضت فيه بطولات العرب وحسن سجاياهم إذ ضربوا المثل الأعلى فى المروءة والتسامح، وساقت لذلك مثلا موقف العرب عند فتح مصر والاستيلاء على الإسكندرية عام ٦٤٢م فقد منعوا التخريب أو التدمير وقدموا لرعاياهم الضمان الأكيد لحرية العقيدة وعهداً نصه:

«هذا عهد أمان يشمل جميع المسيحيين والقسيسين والرهبان والراهبات جميعًا، وهو يضمن لهم شرفهم ويضمن لهم حمايتهم أينما كانوا ويضمن حماية كنائسهم ومزاراتهم، وكذلك زوار هذه المناطق من الجيورجيين والأحباش واليعقوبيين والنساطرة وجميع الطوائف التى تؤمن بالنبى عيسى وجميع هؤلاء يستحقون الرعاية، ذلك لأنه سبق للنبى محمد أن أمنهم بعهد عليه خاتمه وأوصانا فيه بأن نكون رحماء بهم وأن نكفل لهم الأمان».

وأشارت الخطيبة أيضًا إلى الاضطهاد الذى تعرض له اليهود فى أسبانيا على يد المسيحيين قبل مجىء العرب الذين حرروهم ومكنوهم من الحياة الإنسانية الكريمة، وبعد ضياع الأندلس. وهذا التسامح ما زال حتى يومنا هذا من أخص سجايا العرب. ثم انتقلت إلى القدس العربية فذكرت تاريخها وما تمتعت به من سلام واستقرار.. هذا إلى توطيد علاقات الود والمحبة بين العرب والقيصر الألمانى فريدريش الثانى الذى عشق العروبة والعربية فنظم فيها الشعر وسال قلمه بالنثر

العربى الفنى، ونختم خطابها بمقابلة بين الوضع الحالى للأراضى المقدسة ووضعها إبان السيادة العربية.

وفى عام ١٩٦٤ نشرت «شمس الله» بحثًا طريفًا حول الآداب الشرقية، وقابلت بينها وبين الآداب الأوروبية، وذلك ضمن معجم الناشر فيشر[(١)] أضافت فيه الشىء الكثير إلى معرفتنا عن العرب وآدابهم.

وأرجو صادقًا لمنصفة العرب وزوجها الكريم حياة علمية طويلة زاخرة بالبحوث الطلية إنصافًا للحق ونصرة للإنسانية. إن شمس الله خير من هذه الجعجعة التى تصم آذاننا ولا نرى طحنًا.

---

(١) Das Fischer Lexikpom. & itceratur 1. Herausgegben von Prof. Dr. Wolt- Hartmut Fric-drich und prof Dr. Walther Killy Fisscher Buecherei 1964.

مقدمة المؤلفة

من خطل الرأى أن ننظر إلى أوربا على أنها هى وهى فقط العالم الحديث، ومن الحماقة أن نقول إن تاريخ أوربا هو تاريخ هذا العالم، وذلك لأنه مما لا شك فيه أن سائر القارات التى يتكون منها عالمنا هذا ساهمت وتساهم فى تكييف الأحداث العالمية التى تخضع لها شعوب المعمورة، ويكفى أن ننظر إلى خريطة عالمنا هذا فى العصور الوسطى لنرى كيف يحاصر البحر المتوسط جنوب القارة الأوربية، ويخضعها للسلطان الثقافى لأثينا وروما. أما اليوم فقد شاء الله أن تزول هذه الغشاوة عن أعيننا وأن يتسع صدرنا للحقيقة فلا نغمط الشعوب الأخرى التى ساهمت فى إيقاظ الوعى الإنسانى وبعث ثقافة إنسانية رفيعة أثرت وتؤثر حتى يومنا هذا لا فى أوربا فقط بل فى مختلف أرجاء العالم المتحضر. وشاء الله أن يظهر من الأوربيين من يجرؤ وينادى بهذه الحقيقة فلا نغمط العرب حقهم فى أنهم حملوا رسالة عالمية، وأدوا خدمة إنسانية للثقافة البشرية قديمًا وحديثًا. إن هذا النفر من الأوربيين المنصفين لا يأبه لتحدى أولئك المتعصبين الذين أعماهم تعصبهم الدينى فحاولوا جهد طاقاتهم طمس معالم هذه الحضارة العربية أو التقليل من شأنها.

إن أوربا تدين للعرب وللحضارة العربية، وإن الدَّين الذى فى عنق أوربا وسائر القارات الأخرى للعرب كبير جداً، وكان يجب على أوربا أن تعترف بهذا الصنيع منذ زمن بعيد، لكن التعصب الدينى واختلاف العقائد أعمى عيوننا وترك عليها غشاوة حتى إننا نقرأ ثمانية وتسعين كتابًا من مائة فلا نجد فيها إشارة لفضل العرب وما أسدوه إلينا من علم ومعرفة، اللهم إلا هذه الإشارة العابرة إلى أن دور العرب

لا يتعدى دور ساعى البريد الذى نقل إليهم التراث اليونانى . أما العربى فلم يأت بجديد ولم يحقق رسالة . إن النهضة العلمية الحديثة كشفت الغطاء عن حضارات الشرق القديم ، وبخاصة مصر وبابل وأشور ، ولم يعد سراً أن مصر هى الوطن الذى بزغ فيه فجر الضمير وأن هذا الشرق العربى القديم هو وطن الوحى ومبعث الفنون والعلوم والآداب . وإذا ما انتقل الباحث إلى بيزنطة ليقفز منها إلى المسيحية فى العصور الوسطى ، فالعصور الحديثة ، ازداد شكه فى اليونان وروما وأيقن أن أوربا بأثينا وروما لا تستحق كل هذه العناية ، وأن ما يحاول المغرضون خلعه عليها ما هو إلا سراب لا يقوى على البقاء أمام شمس الشرق العربى إذا ما سطعت وبددت ضباب الغرب وسحابه ومطره وثلوجه . إنها سبة أن يعلم أهل العلم من الأوربيين أن العرب أصحاب نهضة علمية لم تعرفها الإنسانية من قبل ، وأن هذه النهضة فاقت كثيراً ما تركه اليونان أو الرومان ولا يقررون هذا . إن العرب ظلوا ثمانية قرون طوالا يشعون على العالم علمًا وفنًا وأدبًا وحضارة ، كما أخذوا بيد أوربا وأخرجوها من الظلمات إلى النور ، ونشروا لواء المدنية أنى ذهبوا فى أقاصى البلاد ودانيها سواء فى آسيا وإفريقيا أو أوربا ، ثم تنكر أوربا على العرب الاعتراف بهذا الفضل .

إن المذاهب الإنسانية الحديثة أصبحت غير مذاهب العصور الوسطى ، وشعار الأوربى اليوم محاولة فهم عدو الأمس وتحويله إلى صديق ، وذلك بالاعتراف له بمكانته العالمية وما أسداه للأوربيين وغيرهم من معرفة وألا يسعى الأوربى جاهداً إلى طمس هذه المكانة وإخفاء معالمها .

إن موقف أوربا من العرب منذ نزول الوحى المحمدى موقف عدائى بعيد كل البعد عن الإنصاف والعدالة ، والتاريخ وقتذاك كان يملى ويصنع ، والمملى لم يكن الضمير بل التعصب الأعمى . إن مثل هذا الوضع كان مفهومًا فى عصر كان فيه الشعور السائد هو إغماط حق كل فرد يخالف الأوربيين عقائديًا ، ومما يؤسف له حقًا أن هذه النظرة القديمة التى كان مبعثها الظن فى أن الاعتراف للعربى بالفضل خطر يهدد العقيدة المسيحية ، ما زالت قائمة حتى اليوم والتعصب الدينى ما زال

جاداً فى إقامة الحواجز بين الأوربيين والشعوب الأخرى إذ ينظر الغربى إليهم كما لو أنهم مجرمون وثنيون وسحرة. ومن آثار هذه النظرة أيضًا هذا النزاع الذى نشب، فى عصرنا هذا، حول نشأة الغزل الغنائى، فالمتعصبون من الأوربيين يشق عليهم الاعتراف بالفضل لصاحبه، وأن يقولوا إن هذا الفن عربى الأصل. أليس من العجيب حقًا أن تظهر هذه النعرة فى القرن العشرين؟!

إن هذه النظرة الأوربية دليل على ضيق أفق الغربيين وخشيتهم قول الحق والاعتراف للعرب بفضلهم، وبخاصة أنهم غيروا وجه العالم الذى نعيش فيه.

إن هذا الكتاب يتحدث عن «العرب» و«الثقافة العربية» لا عن الإسلام. وذلك لأن نفرًا من غير المسلمين قد ساهموا فى هذه الثقافة إلا أن هؤلاء كانوا عربًا، وقد وضعوا كتبًا عارضوا فيها المتزمتين من المسلمين، كما أن كثيراً من صفات الحياة العقلية العربية يحمل طابع العصر الجاهلى.

ثم لا يفوتنا أن نذكر أن هؤلاء العرب الذين ذكرهم هيرودوت والذين بسطوا سلطانهم على شعوب كثيرة، مهدوا للمغلوبين الطريق للاندماج فى المجتمع العربى لغة وأدبًا وعلمًا ودينًا، وأصبح الخلق العربى والطبيعة العربية والثقافة العربية والعقيدة الإسلامية مثالا يحتذى.

إن هذا الكتاب يتحدث عن الثقافة العربية كما نتحدث الآن عن الثقافة الأمريكية، ولا يطلق على عالم مثل الرازى أو ابن سينا أنهما من أبناء الفرس؛ وذلك لأنهما انحدرا من أسر عاشت أجيالاً متعاقبة فى المجتمع العربى وتثقفوا ثقافة عربية إسلامية، ومثل هذا النوع من الرجال مثل «دويت د. إيزنهاور» إنه أمريكى ولا يمكن أن يقال عنه إنه ألمانى.

إن هذا الكتاب يهدف أيضًا إلى تقديم شكر كان يجب أن يقدم إلى العرب منذ عصور قديمة، فالألمان يدينون للعرب بالشىء الكثير، وليست اللغة الألمانية بمستثناة. هذا، مع الإشارة إلى أننا لا ننكر آثار الشعوب الأخرى كاليونان والرومان والصينيين والهنود.

إن الأيدى التى نسجت هذا النسيج كثيرة تستحق الشكر.

مقدمة المترجم

ما فتئ كثيرون من الأوربيين الذين يعنون بنشأة الثقافات يزيفون التاريخ؛ فيجملون القبيح ويشوهون الحقائق مدفوعين بعامل الهوس القومي والجنون الوطني والتعصب الديني، وجارى الغربيين بعض أذنابهم من الشرقيين فأنكروا على العرب فضلهم ونسبوا كل ما بلغه العالم من حضارة ورقي إلى اليونان وذهب هؤلاء الحانقون على العرب بعيدًا، فافترضوا باطلاً وقالوا زورًا وافتروا بهتانًا وادعوا أن العرب من التفاهة والغباء بحيث إن الفضل في تجويدهم للعربية شعرًا ونثرًا يرجع إلى اليهود. وقد تغاضت السيدة الدكتورة «سيجريد هونكه» مؤلفة هذا الكتاب عما صدر عن هؤلاء الشرقيين من أخطاء أو وقعوا فيه من هفوات، وشغلت نفسها بأبناء جنسها من الأوربيين، وذلك لأنها كما تقول في مقدمة كتابها:

«إن موقف أوربا من العرب منذ نزول الوحي المحمدي موقف عدائي بعيد البعد كله عن الإنصاف والعدالة. والتاريخ وقتذاك كان يملي ويصنع، ولم يكن المملي هو الضمير بل التعصب الأعمى. إن مثل هذا الوضع كان مفهومًا في عصر كان فيه الشعور السائد هو إغماط حق كل فرد يخالف الأوربيين عقائديًا، ومما يؤسف له حقًا أن هذه النظرة القديمة التي كان مبعثها الظن في أن الاعتراف للعربي بالفضل خطر يهدد العقيدة المسيحية، وما زالت قائمة إلى اليوم، والتعصب الديني ما زال جادًا في إقامة الحواجز بين الأوربيين والشعوب الأخرى. لذلك ينظر الغربي إليهم وكأنهم مجرمون وثنيون وسحرة. . إن هذا الكتاب يهدف أيضًا إلى تقديم شكر كان

يجب أن يقدم إلى العرب منذ عصور قديمة، فالألمان يدينون للعرب بالشيء الكثير وليست اللغة الألمانية بمستثناة. . . ».

فإذا كانت العربية لم تهن على بعض العلماء الأحرار في ألمانيا فأبناء العروبة أسبق إلى رد حق العرب المسلوب إليهم ولا سيما أن نفراً من الحانقين من الأوربيين ضلوا وحاولوا أن يضلوا الآخرين. فمثلا يحلو للدكتور طه حسين أن يتحدث عن اليهود واليهودية إذا ما عرض للغة العربية وأدبها. ويحلو له الحديث عن اليونان إذا ما تعرض للحضارة العربية الإسلامية، وقد تكررت منه هذه النغمة وذكرها أكثر من مرة ولم يسكت إلا بعد أن تغيرت الأوضاع في العالم العربي. ففي الجامعة المصرية كان يحلو له التشدق بهذا الرأي فيها يلقيه على مستمعيه من محاضرات، وقد سجلت له صحيفة الجامعة المصرية في عددها الأول من سنّها الثالثة عام ١٩٢٥ محاضرة هي حلقة من سلسلة محاضراته تحدث فيها عن اليهود وما لهم من أثر فعال لا في الحياة العربية فقط بل في الحياة الأدبية أيضًا، ويستطرد فيقول: «وبعد ذلك كله يمكننا أن نخلص إلى ثلاث نتائج خطيرة من أثر اليهود:

١ - أن اليهود أثروا في الأدب العربي أثرًا كبيرًا جنى على ظهوره ما كان بين العرب واليهود.

٢ - أن اليهود قالوا كثيراً من الشعر في الدين وهجاء العرب وقد أضاعه مؤلفو العرب.

٣ - أن اليهود انتحلوا شعرًا لإثبات سابقتهم في الجاهلية على لسان شعرائهم وشعراء العرب».

وانتقلت الجامعة الأهلية إلى الدولة وانتقل معها الدكتور طه فأخذ يكرر نفس الآراء ويدعو لها، وأبى إلا أن يذيع دعواه خارج الجامعة فأصدر «في الشعر الجاهلي»، ولما صادرته الدولة عام ١٩٢٦ أعاد نشره مهذبًا بعض التهذيب تحت عنوان: «في الأدب الجاهلي» عام ١٩٢٧.

وفي تلك الفترة أعد الصهيوني إسرائيل ولفنسون (المشرف على البعوث

الإسرائيلية إلى إفريقيا الآن) رسالة تحت إشراف الدكتور طه موضوعها «تاريخ اليهود فى بلاد العرب فى الجاهلية وصدر الإسلام» قدم لها الأستاذ المشرف بمقدمة جاء فيها :

«والموضوع فى نفسه قيم جليل الخطر بعيد الأثر جداً فى التاريخ الأدبى والسياسى والدينى للأمة العربية فليس من شك فى أن هذه المستعمرات اليهودية قد أثرت تأثيراً قوياً فى الحياة العقلية والأدبية للجاهليين من أهل الحجاز، وليس من شك فى أن الخصومة كانت عنيفة أشد العنف بين الإسلام ويهودية هؤلاء اليهود وفى أنها قد استحالت من المحاجة والمجادلة إلى حرب بالسيف انتهت بإجلاء اليهود عن البلاد العربية».

وهذه الرسالة التى نال بها إسرائيل ولفنسون لقب الدكتوراه من الجامعة المصرية والتى استحق صاحبها من المشرف عليها أن ينعته بقوله : «فإذا كان عالمنا الشاب قد وفق إلى الخير فى هذا الكتاب الذى قدمه إلى الجامعة المصرية ونال به شهادة الدكتوراه، والذى أقدمه أنا الآن إلى القراء سعيداً مغتبطاً فتوفيقه مضاعف ذلك لأنه وفق إلى تحقيق أشياء كثيرة لم تكن قد حققت من قبل، ووفق بعبارة موجزة إلى أن يبسط تاريخ اليهود فى البلاد العربية قبل الإسلام وإبان ظهوره بسطاً علمياً أدبياً لذيذاً ممتعاً فى كتاب كانت اللغة العربية فى حاجة إليه فأظفرها بهذه الحاجة».

وإنى أوافق السيد المشرف فى أنه ظفر بهذا البحث اللذيذ؛ لكن أحب أن أقول له إن هذا البحث حلقة من حلقات كتب الدعاية الصهيونية التى كانت الشعبة الثقافية للمؤتمر الصهيونى بإشراف (مارتن بوبر) تدعو إلى نشرها، وما نقله إسرائيل ولفنسون فى رسالته من آراء كان القصد منه إطلاع اليهود الشرقيين وقراء العربية على ما جاء فى المصادر الأجنبية التى يجهلها القارئ العام فى الشرق. ثم أى شيء من اللذة ومن الدقة فى البحث ما يذكره الباحث، ويقره المشرف، وفى رسالته ص١٢ :

«لم يظهر شيء من النبوغ والعبقرية فى يهود بلاد العرب مطلقاً ولم تشتهر من بينهم شخصية واحدة فى كل عصورها بالرقى الفكرى، وإن كان اليهود بوجه عام

أرقى وأقرب إلى المدنية من بقية العرب، هذا مما لا يشك فيه أحد من مؤرخى العرب وعلماء الإفرنج».

ليس الأمر كما يعتقد المشرف أو يريد أن يعتقد فهذه الرسالة التى أشرف عليها مشحونة بالأخطاء التى لن تصدر عن طالب مبتدئ فى البحث وهى صدى لهذه الآراء التى كثيراً ما رددها فى الجامعة فضلا عن أن المراجع العبرية لا تمت إلى البحث بصلة، والسيد المشرف لا يعرف العبرية وأخذ بالنتائج التى ينسبها الباحث إلى هذه المراجع العبرية دون التحقق منها ودون الاستنارة ببعض الذين يجيدون هذا النوع من الدراسات، والأمانة العلمية كانت تقتضى غير هذا.

إن البحث العلمى يجب ألا يصبغ بصبغة القومية المتعصبة، كما لا يتخذ وسيلة وسائل الدعاية السياسية أو الكسب المادى الرخيص، ويجب أن يسمو عن كل هذا وينظر إليه كقضية عالمية.

والحقيقة التى يجب أن يؤمن بها الجميع أن الباحث لن يخلط بين المثل العليا التى ينشدها وبين الحقيقة، وبخاصة إذا علمنا أن ما جاءنا عن اليونان أو ما يعرفه أولئك الأوربيون أو أتباعهم عن اليونانية لا يكاد يتعدى المسائل السطحية بخلاف الحال مع الشرق العربى وحضاراته وما انحدر لنا منها. فالمشرق العربى هو مركز الموجات الثقافية العارمة التى أدت إلى هذه الأحداث التاريخية العالمية، والتى غيرت وجه الوجود فنقلته من البدائية إلى الإنسانية ومن الأنانية إلى الإيثار. ففى مصر بزغ فجر الضمير ومنها أخذ اليهود ما أخذوا[1]، وفى بابل وأشور شريعة حمورابى وفيها الشىء الكثير من هذا التراث الذى نقله واضعو سفر التثنية، ولما عاد اليهود من السبى نقلوا معهم عن العرب البابليين الشىء الكثير مما نجده فى كتابهم المقدس[2]، وعند المعينيين والسبئيين العمارة وهندسة الرى والتجارة، وقصة ملكة سبأ والدور الذى تلعبه فى تاريخ الإسرائيليين وحياتهم الاقتصادية لا يخفى على أحد[3]. ومن

---

(١) من الأدب العبرى للدكتور فؤاد حسنين على، ١٩٦٣، جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العالية.

(٢) التوراة. عرض وتحليل للدكتور فؤاد حسنين على، القاهرة ١٩٤٦.

(٣) التاريخ العربى القديم. تأليف ديتلف نيلسون. فرتز هومل. ل. رودوكاناكيس وأدولف جرومان. ترجمه واستكمله الدكتور فؤاد حسنين على، القاهرة ١٩٥٨.

هذه الأقطار العربية مجتمعة خرجت فكرة الدين التوحيدى فظهر «إخناتون» وتلاه سائر الأنبياء الذين دعوا إلى اليهودية والمسيحية والإسلام، واستتبع ظهور هذه الديانات تفتق العقل البشرى فأنتج أدبًا وشعرًا ونثرًا وقصصًا وفلسفةً وحكمًا وأمثالاً والترانيم الدينية . وطوف الخيال العربى وجاءنا بالأساطير الخالدة وكان من نتائج هذه الثورات العربية العقلية والروحية أن رمت العروبة ببعض أبنائها شعوب العالم القديم من شرقيين وغربيين فحطموا مخلفاتهم العفنة البالية وأقاموا على أنقاضها هذه الدول الفتية التى جاءت بالمعجزات . فالعرب لا اليونان ولا اليهود هم الذين بعثوا العالم من حالة الجمود إلى حياة أفضل مكنته من التحكم فى مصائر الكون فأطلق العربى الأفكار من عقالها وحررها من جمود رجال المعبد اليهودى والكنيسة المسيحية فظهرت طائفة القرائين حيث أنكر أولئك التلمود وتعاليمه، كما انكمش سلطان الكنيسة وتوارت وراء البخور . وقد مهد هذا التطور بدوره إلى ظهور حركة الإصلاح الدينى وبعث النهضة العلمية .

ومما عاون العرب على الاضطلاع بهذه الرسالة تسامحهم ومبادئهم الإنسانية التى أزالت الفوارق بين الشرق والغرب كما أنهم لم يمكنوا اللون من أن يكون عاملا من عوامل التفرقة والتميز العنصرى والحط من القيم الإنسانية .

إن العرب يؤمنون سواء فى الجاهلية أو الإسلام بالحقوق الإنسانية كاملة غير منتقصة لكل فرد من أفراد المجتمع البشرى . فالدين الإسلامى الذى ثبَّت أسس هذه المبادئ يقرر فى صراحة ووضوح : «ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى»، و«إن الله لا ينظر إلى وجوهكم بل إلى أعمالكم» . لذلك نجح العربى فى تحقيق ما عجز عنه اليونانى والفلسفة اليونانية أعنى مذهب «الإنسانية» Humanism .

إن هذا المذهب لم يقو ولم ينتصر إلا بفضل العرب، ولم تعرفه أوربا إلا فى العصور الوسطى وعلى يد العرب، وبعد أن تتلمذت أوربا على العرب فى العصر الإسلامى حيث بلغ العرب مكانة اجتماعية لم تدانهم فيها الشعوب الأخرى، كما شرع الإسلام لمعتنقيه وغيرهم تشريعات أخرجتهم من الظلمات إلى النور .

إن الحانقين على العرب والإسلام والناسبين التراث العربى إلى اليونان واليهود

يضللون أنفسهم وغيرهم والعكس هو الصحيح . العرب هم أصحاب الفضل على اليونان واليهود، ولست أنا فقط الذى يقرر هذا بل يشاركنى نفر من الأوربيين المنصفين مسيحيين كانوا أو يهوداً هذا الرأى . فالتاريخ اليهودى يحدثنا أن العرب أحسنوا معاملة اليهود عندما كانوا يهربون من وجه الطغاة من حكامهم فى فلسطين أو فزعًا من اضطهاد اليونان والرومان، فقد نزل أولئك اليهود الجزيرة العربية فوجدوا أهلاً وسهلاً، فهذه القبائل اليهودية التى كانت تنزل يثرب وخيبر ووادى القرى، وفد أفرادها على العرب بعد أن أفقدتهم القرون التى مرت بهم منذ زوال دولتهم ولغتهم المقدسة، تذوق اللغة العبرية وتجويدها حتى أصبح من المألوف لدى اليهودى أن يعبر عن أفكاره وشعوره فى لغة ركيكة هى خليط من العبرية والكلدانية واليونانية فحالت ظروفه هذه دون خلق آداب عبرية، فما كان أولئك ا ليهود بمستطيعين قول الشعر أو إجادة النثر، فغير نزولهم بين العرب هذه الأوضاع وبخاصة أن العربى معجب بلغته معنى بها نثراً وشعراً حريصًا على المحافظة عليها فصيحة نقية .

أخذ اليهود عن جيرانهم العرب فن الكلام والنطق الصحيح وفصاحة التعبير، فلما رحل بنو قينقاع والنضير وقريظة ويهود خيبر ووادى القرى وغيرهم إلى العراق والشام وفلسطين كانوا يتكلمون لغة عربية ويتأدبون بأدب عربى ويتطبعون بطباع عربية كلها شجاعة ووفاء وكرم وإباء، يقولون الشعر فى مختلف فنونه ويعبرون عن خواطرهم فى لغة هى لغة أهل الحجاز . نزل أولئك اليهود فى أوطانهم الجديدة فأثروا فى أبناء ملتهم تأثيراً قويًا، ولم يمض نصف قرن من الزمن على تحرير العرب ليهود فلسطين والعراق وغيرهما حتى أصبح فى استطاعتهم التحرير فى اللغة العربية .

ولم يقف أثر العرب والعربية فى اليهود عند اللغة وآدابها بل تعدى العربية الأدبية إلى عربية القرآن الكريم والحرص على المحافظة على كتاب الله، وهذه ظاهرة جديدة لم يكن لليهود بها عهد فى عصورهم القديمة حتى فى فلسطين، وإبان قيام دولتهم وحياة لغتهم العبرية المقدسة، وقد حببت هذه الظاهرة إلى اليهود اقتفاء أثر العرب ومجاراتهم فى طريقة دراسة القرآن الكريم، وحاول اليهود الحرص على

نطق أسفار العهد القديم نطقًا صحيحًا، فدفعهم هذا إلى التفكير فى إعجام أسفارهم وإعرابها مقلدين العرب وناقلين عنهم.

وتأثر اليهود بالعرب أيضًا فأوجدوا ما يعرف فى الأدب العبرى بالشعر العبرى الحديث أو (البيوتيم) فهذا الفن صورة من الشعر العربى وزنًا وقافية.

ولم يقف الأثر عند الشعر بل تعداه إلى النثر فبينما نجد يهوذا بن قريش (آخر القرن التاسع وأوائل العاشر الميلادى) يستشهد كثيرًا من مؤلفاته بالشعر العربى إذ بابن جناح القرطبى وأمثاله ينسجون على منوال نحويى العربية ولغوييها[١] كما ترجم العالم اليهودى الحريزى مقامات الحريرى إلى العبرية وقلدها فأدخل فنًا جديدًا فى الأدب العبرى لم يكن معروفًا من قبل. كذلك الأمثال العربية وجدت طريقها مع البيان والبديع إلى اليهود ولغتهم، فقد وضع يهوذا بن تبون مثلا كتابه المشهور «حكم العرب» وترجمت أسرة تبون وغيرها كثيرًا من أمهات الكتب العربية سواء فى الفلسفة أو الطب أو الرياضيات أو القصص الشعبية إلى العبرية، وليس هذا بمستبعد فالعرب ليسوا هم أصحاب فكرة المعزل (جيتو) فقد فتحو أمام اليهود دور العلم على مصراعيها ولم يفرقوا بينهم وبين غيرهم، لذلك استطاع اليهود القيام بدور الرواة من الشعراء إذ انسابوا فى بعض البلاد المسيحية وأخذوا إلى جانب بعض العلماء العرب يلقنون الأوربيين ما انتهت إليه معرفتهم[٢].

ويحدثنا التاريخ اليهودى إن الإسلام أحسن معاملة اليهود حتى أولئك الذين اضطر النبى والخلفاء الراشدون إلى إجلائهم عن قلب الجزيرة العربية تأمينًا لرسالة الإسلام وأتباعه، أقطعهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب والإمام على كرم الله وجهه الأراضى الواسعة بالقرب من الكوفة وعلى ضفاف الفرات مما دفع المؤرخ اليهودى الشهير «جريتز» إلى الإشادة بعدالة العرب وإنسانيتهم فى كتابه «تاريخ اليهود»[٣] فقال:

---

(١) التوطئة فى اللغة العربية للدكتور فؤاد حسنين على، القاهرة ١٩٤٠.

(٢) من الأدب العبرى لنفس المؤلف.

(٣) H. Graetz: Volkstumliche Geschichte der Juden 1. III Bande.

«إن تاريخ اليهود فى بلاد العرب فى القرن السابق للنبوة المحمدية وإبان حياة الرسول صفحة ناصعة فى التاريخ اليهودى».

وذكر فى موضع آخر:

«لقد وزع عمر أراضى اليهود على المسلمين المحاربين، وعوض اليهود المطرودين - وهذه هى العدالة - أخرى بالقرب من الكوفة على الفرات حوالى ٦٤٠م. حقًا رب ضارة نافعة. إن سيادة الإسلام نهضت باليهودية من كبوتها»[١].

وإذا تركنا الخلال العربية جانبًا، هذه الخلال التى بوأت العرب هذه المكانة الممتازة والتى جعلتهم أهلاً ليكونوا رسل حضارة وثقافة للناس كافة، وقابلنا بين الإسلام وتعاليمه وبين اليهودية، أدركنا الفرق الشاسع اجتماعيًا وعقائديًا بين الملتين، لذلك سرعان ما وجدنا المرأة اليهودية مثلا تفضل الالتجاء إلى المحاكم الشرعية الإسلامية للفصل فى قضايا الأحوال الشخصية. وقد هدد هذا الوضع الجديد المجتمع اليهودى بالزوال فقرر علماء التلمود تغيير بعض أحكامه مجاراة للشريعة الإسلامية، لكن تغيير بعض الأحكام التلمودية لم يقف عند هذا بل زعزع العقيدة فى قدسيته وصحة ما جاء فيه، وبخاصة تلك الأحكام التى لا تستند على نص قوى فى الكتاب المقدس.

وكانت النتيجة المحتومة لهذه الحركة الإصلاحية أن ظهرت فى سوريا جماعة من اليهود النازحين من الحجاز، والذين اعتادوا حياة أفضل من تلك التى يحيونها تحت ظلال التلمود، فرفضوا العمل بتعاليمه، وبذلك مهدوا لظهور فرقة القرائين.

هذه هى بعض حسنات العرب على اليهود، فالعرب هم الذين أهدوهم العربية بعد أن كانوا يرطنون خليطًا لا شرقيًا ولا غربيًا ولا ساميًا ولا هنديًا أوربيًا، والعرب هم الذين هذبوا ذوقهم اللغوى، ورفعوا مستواهم الأدبى فمكنوهم من خلق ملكة أدبية.

---

(١) نفس المرجع السابق.

وثالثًا وليس أخيرًا احتذى اليهود حذو المسلمين مع القرآن الكريم فعنوا بدراسة كتابهم وشرعوا فى وضع نحو للغتهم صيانة لها من اللحن والضياع.

هذه هى الحقيقة العلمية أسوقها للدكتور طه وتلميذه الدكتور إسرائيل ولفنسون.

والآن بعد أن استكملت ما تركته السيدة المؤلفة فى هذا الموضوع بالذات أنتقل إلى الحديث عنها وعن مؤلفها الذى نقلته إلى العربية: السيدة المؤرخة الدكتورة «سيجريد هونكه» كريمة تاجر كتب مشهور، وقد ولدت فى «كيل» ودرست فى جامعات «كيل» و«فريبورج» و«برلين» الفلسفة ونفسية الشعوب والتاريخ، وبعد دراسة دامت ست سنوات حصلت على إجازة الدكتوراه فى الفلسفة من جامعة برلين، وقد عالجت فى رسالتها الأثر العربى فى الشعر الغنائى الأوربى، ثم مضت المؤلفة عامين مع زوجها الذى تذكر عنه أنه يجيد العربية فى مراكش، كما قامت بعدة رحلات فى الشرق تعرفت فيها على شعوبه وطبيعة بلاده وثقافاته. وفى عام ١٩٥٥ ظهر أول كتاب لها فى تاريخ الثقافة عنوانه: «فى البدء كان رجل وامرأة»، وقد عرضت فيه المؤلفة أيضًا للثقافة العربية، ثم نشرت كثيرًا من المقالات حول العلاقة بين العرب والأوربيين فى الصحف والمجلات والبرامج العربية الإذاعية الألمانية. أما كتابها «شمس الله تشرق على الغرب» أو «فضل العرب على أوربا» فهو نتيجة عمل شاق استنفد من حياة المؤلفة سنوات كثيرة فطلع على القراء وهو يمثل خير كتاب ظهر فى هذا الموضوع، فتلقفته أرقى اللغات الأجنبية ونقلته، كما قرظته الصحف والمجلات العلمية فى ألمانيا وخارجها.

وقد عالجت المؤلفة مختلف نواحى النشاط العقلى العربى فى ست وسبعين وثلثمائة صفحة فضلا عن كثير من الصور واللوحات. ونقل هذا التراث إلى العربية ليس بالأمر السهل، فهناك مفردات عربية الأصل بعدت الشقة بينها وبين صيغها فى اللغات الأوربية حتى أصبح الرجوع بها إلى أصولها العربية يتطلب بحثًا وجهدًا، فضلاً عن أن معاجمنا اللغوية العربية لا تسعفنا فى مثل هذه الحالات، فهى ليست

معاجم تاريخية، كما أن هذه المفردات غالبًا ما دخلت أوربا عن طريق إسبانيا فهى عربية أندلسية لم تعرها معاجمنا التى بأيدينا أهمية خاصة.

وإذا علمنا أن الكتاب كتب للغرب لا للشرق العربى أدركنا السر فى عدم ذكر المراجع العربية والتى لابد من الرجوع إليها عند نقل الكتاب إلى العربية، وبعض هذه المراجع تحت يدى والبعض الآخر ينقص المكتبة العامة، كما أننى اضطررت أحيانًا إلى الاستعانة بالمخطوطات وبخبرة الكيميائى الشاب السيد حسنين فؤاد بجامعة توبنجن بألمانية فى فهم المصطلحات الرياضية والفيزيائية والكيميائية، فإليه أقدم خالص الشكر على الجهد الذى بذله معى فى إنجاز هذا الكتاب.

ولا يفوتنى أن أذكر هنا أن هذا الكتاب ليس هو الأول من نوعه فى اللغة الألمانية إلا أنه أشملها وأوفاها، فقد سبقها المستشرق الراحل جورج يعقوب Georg Iacob وعنى منذ صغره بالدراسات الشرقية على جمهرة من مشاهير المستشرقين الألمان فى ذلك العصر أمثال: «رويس» و«نولدكه» و«فليشر» و«ألورد». وكانت الفكرة السائدة فى ذلك الوقت عن الشرق العربى لا تتفق وماضينا السعيد وعصورنا الذهبية، فالجامعات الأوربية كانت تمهد أو تخدم الرغبات الاستعمارية، وجرفها تيار السياسة فغفلت أو تغافلت عن البحث العلمى الصحيح المجرد من الغايات، اللهم إلا هذا النفر القليل من بعض المستشرقين الألمان الذين تتلمذ عليهم «جورج يعقوب» وتأثر بآرائهم. فقد أدرك أولئك العلماء أن الشرق وإن دبت فيه عوامل الضعف والانحلال، وأصبح نهبًا بين الدول الأوربية الاستعمارية إلا أنه كان فى العصور الوسطى معلم أوربا وإليه يرجع الفضل فى النهضة الأخيرة. لذلك نجد «جورج يعقوب» يأخذ على عاتقه العمل على دراسة هذا الموضوع، وإيفاء كل ذى حق حقه، وقد لاقى خصومات شديدة من المستعمرين أولاً وأنصار الدراسات القديمة الذين كانوا يهدفون قبل كل شىء إلى تحرير اليونان من السيادة التركية ثانيًا، وتكتلت أوربا فى سبيل الوقوف فى وجه الشرق والشرقيين فكان ما كان من الأحداث التى تعرضت لها مصر فى القرن التاسع عشر وخلق المسألة الشرقية.

وافتتح «چورج يعقوب» حملته فنشر كتابه «التجارة العربية فى العصور

الوسطى»، وقد نقلته إلى العربية ونشرته لجنة البيان العربى عام ١٩٤٦ . ثم واصل حملته فنشر الكثير من المؤلفات القيمة.

وغير «جورج يعقوب» أو الشيخ جورج يعقوب، كما عرف إبان حياته نجد أمثال: «أنوليتان» و«ر. باريت» و«أوتو شبيث» وغيرهم من كبار المستشرقين الألمان ومؤرخى الحضارة أمثال «فيديمان»، فردوا للعروبة اعتبارها، وأنصفوا الإسلام والمسلمين.

الكتاب الأول

البهـار اليـومى

أسماء عربية لمنح عربية

أتسمحين لى أيتها السيدة الفاضلة أن أدعوك إلى هذه القهوة[٢]؟ إنك ميتة[٣]؟ اخلعى من فضلك الشك[٤] وخذى مكانًا هناك على الصفة[٥] ذات المطرح[٦] الأحمر القرمزى[٧]. إن القناد[٨] بالمستقة[٩] الجامدة وقطنيته[١٠] البيضاء سيحضر سريعًا طاسًا[١١] من قهوة البن[١٢] وبها قطعتان من السكر[١٣] أو أتفضلين غرافة[١٤] من عصير الليمون[١٥] المثلج ما لم تستحسنى الكحول[١٦]؟ لا؟ وإلى جانب ذلك ترغبين فى كعكة من الفواكه محلاة بالبرقوق[١٧] والبنان[١٨].

بدهى يا صديقى أنك الآن ضيفى لتناول الطعام، والآن اسمح لى أن أقدم لك شربات[١٩] النارنج (البرتقال)[٢٠] والخرشوف[٢١] المحشو سيعجبك لأنه منبه للطعام، وما رأيك فى ديك محمر فى برد[٢٢] ومعه أرز[٢٣] مبهر وقليل من السبانخ[٢٤]؟ وبعد ذلك أنصحك وألح فى النصح أن تأكل لقمًا بالقرفة[٢٥] مغموسة فى شراب العرق[٢٦] وأخيرًا طاسًا (من قهوة) مخا[٢٧] واسترح على الديوان[٢٨].

إنك تشعر الآن أنك فى المنزل فكل ما يحيط بك وكل الذى أقدمه لك أصبح منذ زمن بعيد من مقومات حياتنا ولو أننا استعرناه من عالم أجنبى، من العرب. فالقهوة التى تنعشنا يوميًا والبن الذى نطحنه جيدًا، وحتى الطاس التى نتناول منها هذا الشراب الأسود، والسكر الذى لن تستطيع بدونه صنع أى نوع من الطعام، والليمون، والغرافة، والقطنية، والشك، والمستقة، والمطرح؛ قد عرفناها جميعها

عن طريق العرب، وليست هذه فقط بل أسماؤها المستخدمة فى أوربا وفى جميع أنحاء العالم عربية. والقند الذى يصنع منه القناد فى مصنع القند التسفتشجين[٢٩] والبيج ارمودى[٣٠] والتاريخ المقند.

نعم إنكم تدعونها فواكه الجنوب لأنها مستوردة من الجنوب شأنها شأن الكثير من المشروبات والمأكولات، فلماذا؟ أليست من الشرق، أوَليست محفوظة فى غلائلها الشرقية؟

وإذا أعياك التعب رغبت فى الاستراحة على الصفة أو الديوان[٣١] أو العثمانى[٣٢] أو فى القبة[٣٣] إن كل طفل يستطيع أن يتبين أن هذه المفردات دخيلة على لغته. أو لا تعلم أنك مضطر إلى استخدام تعبير عربى إذا ما رغبت فى لعبة الشاه[٣٤] (الشطرنج)! لقد أهدى العرب هذه اللعبة إلى أوربا أيام شارلمان الأكبر وعلى يد رسل هارون الرشيد، وكلمة ـ شاه ـ أى (ملك) ولفظ ـ مات ـ فى التعبير المستخدم فى هذه اللعبة (شاه مات) تعبير عربى. أو لا تعلم أيها الأوربى أنك تضحك حتى اليوم أو تغضب من استخدام لفظ (شيكيش)[٣٥]! وهو مركب من لفظ (شاه) وقد أضيفت إليه علامة النسبة فى اللغة الألمانية، أى متلون تلون لوحة الشطرنج.

أو لا تعلم أن القفة[٣٦] الموجودة فى واجهة الحانوت إلى جانب الكيس المصنوع من جلد صفى[٣٧] والحقيبة المجهزة من جلد مراكشى[٣٨] وكذلك زوج الجدامس[٣٩] وغيرها من الأشياء التى تنتظر المشترين تحمل طابع العرب المولعين بالأسفار والتنقل. أما الجدامس فنسبة إلى الجلد المجهز فى مدينة جدامس بطرابلس الغرب بالقرب من حدود الجزائر!

ثم تأمل وسائل الجلاء[٤٠] فى واجهة هذا المحل الذى تزينه الأقمشة الجميلة أليست آية فى الفن؟ فغير قماش البركان[٤١] الجميل والقطنى[٤٢] الرقيق والموصلى[٤٣] والموخيّر[٤٤] الصوفى السميك، ولك أن تختار بين الشف[٤٥] الرقيق والزيتونى[٤٦] والتفت[٤٧] كساء الوجهاء والموخير والأطلس[٤٨] والدمشقى[٤٩] العظيم صناعة دمشق التى منحت ألمانيا لفظ ـ زفتشكة ـ[٢٩] كما نجد

تشكيلة من الألوان من الأصفر الزعفرانى[٥٠] إلى الأرنج[٢٠] إلى القرمزى[٧] حتى الليلا[٥١]، وعندما نتمتع بارتداء هذه الأقمشة الجميلة التحضير الزاهية الألوان يجب ألا ننسى العرب وفضلهم علينا.

وهل تعلم أنك إذا قصدت هناك صيدلية وهنا حانوت ترياق[٥٢] إنما تطلب اختراعات عربية؟ وتجارة الترياق كما نتبينها فى القوارير والعلب هى: جوز الطيب[٥٣] والقرفة والجنزبيل والكمون[٥٤] والطرخون والزعفران[٥٥] والكافور[٥٦] والبنزين[٥٧] والقلى[٥٨] والنطرون[٥٩] والصداع[٦٠] والبورق[٦١] والسكرين[١٣] والعنبر[٦٢] وأنواع أخرى كثيرة من الترياق العربى يستخدمها الإنسان فى حياته اليومية. وهل تعلم أيضًا أن اللك[٦٣] الذى يستخدمه العالم اليوم لتلميع إفريز أرض الغرفة أو أظافر الأصابع وكذلك ألوان النيل[٦٤] والقز[٦٥] والطلق[٦٦] والبطن[٦٧] ما زالت تعرف حتى اليوم بأسمائها العربية؟

مفردات عربية منتشرة فى كل ناحية من نواحى اللغات الأوربية فهى أسماء كثير من عناصر الحضارة والمدنية التى يستعملها الأوربيون فى حياتهم اليومية، وقد جاءتهم عن العرب، وقد جملت هذه الأشياء الدخيلة، الحياة الأوربية اليومية، كما أضفت عليها جميع مظاهر البهجة والأبهة والحياة الرفيعة الراقية التى يحياها العالم المتمدين اليوم. وإذا كان العالم الحديث يتمتع بقسط وافر من النظافة والقواعد الصحية فالفضل فى ذلك يرجع إلى العرب وما أعاروه لأوربا.

أوربا تقاسى الحرمان لموقفها السلبى من التجارة العالمية

وفى عام ٩٧٣م اتجهت سفينة مقابل الساحل الغربى الفرنسى حيث رأس «جرى نيه» شمالا شرقيًا إلى بوردو وروين وأوتريشت وشليزفيج حيث أفرغت حمولتها الثمينة، زيتًا أندلسيًا وشبًا قسطيليًا للدباغة وتينًا ونبيذًا مالقيًا وفلفلا وحبال سفن. وعلى ظهر هذه السفينة بعثة الخليفة الحكم الثانى وقد أقبلت من قرطبة تحت رئاسة سيدى إبراهيم بن أحمد الطرطوشى قاصدة بلاط الملك الرومانى الشهير «هوتو» فى سكسونيا. ومن ثم إلى «كويدلنبرج» فى الهارز حيث قيصر الدولة الرومانية المقدسة «أوتو» الأول، والذى عاد أخيراً من روما بعد حفلة زفاف ابنه إلى ابنة القيصر اليونانى «تيوفانو» وعقب حفلة تتويجه الشاقة. فالقيصر أوتو الأول هو المنتصر فى «ليشفلده» وباعث القيصرية الغربية، وهو الذى أقبل عليه صولجان القوة والسطوة فقصدته وفود الدول تخطب وده. فنجد سفراء الدنمارك وبولندة وبلاد الصقالبة وبوهمن ومندوبين عن اليونان والبلغار والمجر والإيطاليين حيث اصطفوا جميعهم فى ميدان القيصر فى «كويدلنبرج» لكى يقدموا أجل فروض التكريم لأكبر حاكم للغرب.

وفى أول أبريل قرر القيصر نقل مكان اجتماع بلاطه إلى «مرسبرج» حيث وصل وفد أمير المؤمنين تحت رئاسة إبراهيم بن أحمد الطرطوشى قادمًا من أسبانيا لتحية أمير أمراء المسيحيين، فاستقبل القيصر «أوتو» الأول الضيوف العرب وأحسن

وفادتهم كما تقبل الهدايا الثمينة التى لم ير مثلها من قبل شاكراً، ولم تمض بضعة أيام حتى فارق قيصر سكسونيا العظيم الحياة فى «ميمليبن» فكان استقباله للبعثة العربية هو آخر عمل سياسى قام به.

أدى الوفد العربى الرسالة التى كلف بها وعاد براً إلى أسبانيا. أما الطرطوشى فقد سلك طريقًا مر فيه بمدن «سوست» و«بادربورن» و«فولدا»، ولما دخل مدينة «ميتز» شاهد شيئًا ذكره بوطنه، ففى هذه المدينة الواقعة فى أرض الإفرنج (فرنكن) وعلى نهر الرين قدم له أحد تجارها بعض الدراهم العربية، فقرأ الطرطوشى مستغربًا الكتابة الكوفية واسم من صكت باسمه النقود وتاريخ ضربها (٣٠١ و٣٠٢هـ)، وأيقن الطرطوشى أن قطع العملة الذهبية التى بيده من سمرقند، وقد ضربت منذ ستين عامًا، ورجح أنها من النقود التى تحمل اسم نصر بن أحمد السامانى. ومما أدهشه أيضًا أنه عثر هناك على توابل لا توجد إلا فى الشرق الأقصى بينما تقع «ميتز» فى أقصى الغرب، ومن هذه التوابل: الفلفل والجنزبيل والقرنفل والناردين والبلسم والخلنجان.

هذا قليل من كثير من التوابل الشرقية التى فرضت نفسها على أوربا فرضًا، فهناك قائمة محتويات مخزن دير «كوربى» الواقع على نهر «سوم»، أى بالقرب من نهاية أطراف المعمورة، فهذه القائمة التى يحتفظ بها الراهب مدير المخزن تحتوى على التوابل الضرورية جداً لمطبخه الكائن فى مدينة «كمبراى» مدينة الأسقف والواقعة على بعد سبعين كيلو متراً. إن هذه القائمة لو اطلع عليها الطرطوشى لاستولت عليه الدهشة ففيها يقرأ:

٦٠٠ رطل شمع	١٠ أرطال خلنجان
١٢٠ رطل فلفل	١٠ أرطال راوند
١٢٠ رطل كمون	١٠ أرطال إسفنج
٧٠ رطل جنزبيل	١٠ أرطال خيار شمبر
١٠ رطل قرنفل	٣ أرطال لبان
١٥ رطل قرفة	٣ أرطال ورنيش

١٠ أرطال نردين	١٠ أرطال أوراق شجرة سليفا
١٠ أرطال بخور	٣ أرطال نيلة
١٠ أرطال مستكة	٢ أرطال سعتر
٣ أرطال مر	١٠ أرطال ميعة
١٠ أرطال بلسم	

وحتى المراهم والكثرة المطلقة من التوابل والعقاقير والنباتات الطبية والبخور التى كانت تملأ مخزن الدير حملها التجار من الشرق الأقصى وقطعوا آلاف الأميال حتى جاءوا بها إلى أقصى الغرب، إن هذه البضائع كانت ضرورية للاستعمال اليومى فهى ضرورية للطعام ضرورية للشراب ضرورية للعلاج، وللكنائس أيضًا وحتى رهبان الأديرة، فقد رق ذوقهم وطاب مذاقهم وصفت نفوسهم حتى أصبح من العسير عليهم الحياة بدونها.

أما قائمة دير «كوربى» هذه فقديمة جدًا أقدم من رحلة الطرطوشى بنحو ثلاثة قرون وهى ترجع إلى عصر ملوك المرنجيين[٧٥]. ومنذ حكم أولئك الملوك حتى رحلة الطرطوشى تعرض العالم لكثير من الأحداث التى كانت ذات أثر فعال فى تطويره، فحوضا الرين والسوم تعرضا فى تلك الفترة لكثيرمن الهزات التى لم يريا مثلها فى القرون السابقة؛ فالجرمان أقبلوا بجحافلهم من الشمال وقضوا على الدولة الرومانية، لكن زوال الإمبراطورية العالمية لم يغير كثيرًا من الأوضاع العالميةوبخاصة فى ذلك الجزء من العالم، وذلك لأن الحياة فى تلك العصور كان يقررها البحر الأبيض المتوسط، فالشعوب الشمالية لم تستطع تقويض الأنظمة العتيقة وتفتيت حدة الثقافة القديمة، فالذى حدث أن الجرمان اندمجوا فى شعوب جنوب أوربا واختلطوا بهم وأصبحوا عنصرًا من عناصرها فمدوا فى أجلها. فقد ظل الدين كما كان بالرغم من زوال الإمبراطورية الرومانية وقيام الشرقية. وما يقال عن الدين يقال أيضًا عن الحياة الاقتصادية حول البحر الأبيض المتوسط.

فإذا تركنا الغرب واتجهنا إلى الشرق وجدنا النقيض من هذا، فتجارة الشرق التى

كانت تأتى عن طريق «أوستيا» إلى المدينة العالمية روما، وتنتهى فى ميناء مرسيليا، هذه التجارة ازدادت ازهاراً وشقت طرقًا أخرى جديدة لم تعرفها من قبل، فعبرت الألب واخترقت بلاد الغال حتى «كمبراى»، ومن ثم أخذت تتغلغل حتى بلغت أواسط ألمانيا. نعم لم تصبح روما هى السيدة بل بيزنطة، ومما هو جدير بالذكر أن العالم القديم كان وقتذاك قد تصدعت جوانبه وانتابته العلل وإن بدا فى مظهره صحيحًا قويًا.

ولعل أهم عامل من عوامل تقويض أوربا ظهور النبى العربى، والروح الجديدة التى بعثها الإسلام فى العرب، فلم تمض أعوام قلائل إلا وكانت القبائل العربية تتدافع فى موجات متلاحقة غامرة شواطئ البحر الأبيض المتوسط، ولا تقف عندها بل تواصل زحفها حتى تبلغ شواطئ المحيط الأطلسى. وهكذا نجد العرب ينتزعون شرق وجنوب وغرب العالم القديم من هذه الحالة الجامدة الراكدة ويهيئون السكان لحياة أفضل بعد أن ظلوا قرابة ألف عام يتيهون فى بوادى الجهالة والجمود. فانتصار الإسلام قسم العالم إلى شرق وغرب. شرق وثاب وغرب قابع، شرق حر طليق وغرب مكبل بالأغلال، أسدل على نفسه ستاراً كثيفًا واكتفى بحياة النسك والزهد والعزلة. أما الدولة العربية العالمية الجديدة فقد ثبتت أقدامها فى الأقاليم المفتوحة. وللمرة الأولى فى تاريخ العرب يظهرون على مسرح التاريخ كشرق يغلب الغرب على أمره فيختفى ويتوارى منطويًا على نفسه.

لقد نجح الإسلام فيما فشلت فيه الغزوات والهجرات الجرمانية، لقد فتت هذا الجمود الذى فرضه البحر الأبيض المتوسط قرونًا عديدة على هذا القسم من العالم، وهذا هو الحدث الهام فى التاريخ الأوربى منذ الحروب البونية، إذ أغلق صفحة تاريخ العالم القديم وفتح الصفحة الجديدة صفحة العصور الوسطى فى الوقت الذى كانت تتحول فيه أوربا إلى بيزنطة[٦٨].

ومما زد الطين بلة على أوربا وأسدل عليها الحجب الكثيفة التى حالت دونها ودون رؤية النور المنبثق من الشرق هذه الأوامر التى كانت تصدرها روما والقسطنطينية محذرة المسيحيين الأوربيين من زيارة مصر وسوريا. ولكن من حسن

الحظ أن نقرأ أن الحجاج الأوربيين لم تثنهم هذه التحذيرات وقصدوا الشرق العربى المسلم وحجوا إلى الأماكن المسيحية المقدسة فلم يتعرضوا لخطر ما، فقد حدث فى ذلك العصر أن الخليفة هارون الرشيد الذى كان يقدر شارلمان ويجله أرسل إليه عن طريق بطريرك القدس الذى كان يباشر وظيفته ويقوم بطقوسه الدينية دون تدخل من الحاكم وفى حرية كاملة مفتاح المدينة المقدسة ومنحه حق السيادة عليها، وقد وقع هذا فى الوقت الذى كان فيه غير المؤمنين يواصلون تخريب وتدنيس المدينة المقدسة إثارة للخوف وإدخالا للفزع فى نفوس أبناء ملتهم من الحجاج والسياح. وبينما نجد هذه القيود تفرض على المسيحيين الأوربيين إذ بنا فى الشرق العربى نجد سياسة أخرى حكيمة رشيدة، فلا تحديد إقامة ولا عقبات وحواجز تحول دون السعى فى مناكب الأرض وتبادل المنافع. فالتاجر العربى كان يتنقل حراً طليقًا فى أرجاء الشرق قاصيها ودانيها فهو يتاجر مع الهند والصين وسائر الأقاليم وليس فى حاجة لأن يصدر إلى أوربا التى ضربت على أهلها الذلة والتقشف، فسادت الفرقة بين الغرب الأوربى والشرق العربى بخيراته وأضوائه وأصبحت شواطئ البحر الأبيض المتوسط المسيحية مزاراً لا للتجار بل للقراصنة ومهربى البضائع. فالموانى خربة خالية بعد أن كانت تعج بخيرات الشرق وكنوزه والمخازن خاوية خالية حتى دير «كوربى» فقد تعرض للتقشف والحرمان، وكانت الشربة التى تقدم لنزلائه عبارة عن طبق من الكرنب لا طعم ولا نكهة لها تشرب ولا تذاق فلا بهار ولا فلفل ولا زنجبيل ولا مختلف أنواع التوابل التى أصبحت عنصراً هامًا من عناصر مطبخ الدير. وحتى النبيذ أصبح خبراً بعد عين وكذلك الحرير. وترتب على اختفاء هذه الأصناف أن أغلقت المحال التى كانت تتجر فيها وعبست الحياة بعد أن ابتسمت زمنًا طويلا وعادت التجارة إلى حالتها البدائية الأولى وحلت المبادلة محل البيع والشراء.

وحتى الكنائس أصابها الحرمان فخلت من البخور والخمور والزيوت لإضاءة المشاعل والثريات؛ مما اضطرها إلى الاستعاضة عن الزيوت بالشمع المستخرج من عسل نحل الغابات وقنع صاحب الخان بما يصله من الأصدقاء فى روما من هدايا قليلة. فمرة يصله قليل من البخور وأخرى بعض القرفة أو قطعة من البلسم التى قد

يحضرها تاجر يهودى من الشرق العربى لبيعها فى العاصمة المسيحية. وذلك لأن اليهودى فقط هو الذى كان همزة الوصل بين الشرق المسلم والغرب المسيحى، وكان تاجر الجملة ورسول الكارولينيين. فأين المكان على سطح الأرض الذى لا يوجد فيه اليهودى الذى يسارع إلى مساعدة ابن ملته؟

ويحدثنا ابن خرداذبة فى كتاب المسالك والممالك عن مسلك التجار اليهود الراذانية حوالى عام ٩٠٠م «الذين يتكلمون العربية والفارسية والرومية والإفرنجية والأندلسية والصقلية، وأنهم يسافرون من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق براً وبحراً يجلبون من المغرب الخدم والجوارى والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسمور والسيوف، ويركبون من فرنجة فى البحر الغربى فيخرجون بالفرما ويحملون تجارتهم على الظهر إلى القلزم وبينهما خمسة وعشرون فرسخًا، ثم يركبون البحر الشرقى من القلزم إلى الجر وجدة ثم يمضون إلى السند والهند والصين فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدارصينى وغير ذلك؛ مما يحمل من تلك النواحى حتى يرجعوا إلى القلزم ثم يحملون إلى الفرما. .»[٦٩].

فهذه الأشياء لا تصل أوربا الآن إلا بقدر وقدر ضئيل جدًا ولا يستطيع الرجل العادى أن يشتريها من السوق السوداء لارتفاع أسعارها، فلا عجب إذا رأينا الطرطوشى يبدى استغرابه عند رؤيتها فى مدينة «ماينز» الغربية. والواقع أن البلاد المسيحية كانت وقتذاك متخلفة جدًا فى التجارة الشرقية التى كانت تمر ببحر الخزر؛ ومن ثم تسير على امتداد نهر الفولجا ثم شمالا حيث الشعوب الوثنية.

لذلك لا عجب إذا رأينا أنوار الحضارة الشرقية تضىء البلاد الشمالية وسائر الجزر المنتشرة فى البحر الشرقى كما نتبين هذا من آلاف آلاف القطع من النقود العربية التى ترجع إلى الفترة الممتدة من القرن التاسع إلى الحادى عشر الميلاديين، وإن دلت هذه النقود على شىء آخر عدا نقل الثقافة العربية إلى تلك الأصقاع النائية فهذا الشىء هو تحرر التجارة العربية من التعصب الدينى، وقد تجاوب مع العرب فى تأدية هذه الرسالة وإنجاحها كثير من الشعوب الجرمانية الشمالية أعنى الفيكينج أو النورمانيين الذين نزحوا من النرويج وإيسلندة والسويد والدنمارك وواصلوا

أسفارهم حتى بلغوا شرق أوربا، وقد نجحت هذه الشعوب الشمالية فى إقامة دول على طول الطريق التجارى الذى كانوا يقطعونه ذهابًا وجيئة ومن بين هذه الدول التى أسسوها تلك التى أقاموها فى البلاد المعروفة باسم روسيا فهذه الدولة ما زالت محتفظة حتى الأيام الأخيرة باسم مؤسسيها وهم «هروس» أو «روس» وهو اسم الوطن الأصلى فى بلاد السويد. وقد اضطر أولئك التجار المحاربون إلى تأسيس محطات تجارية على طول الطرق التى يقطعونها فشيدوا مثلا «نوفوجورود» و«كيف»، كما تاجروا فى الأقمشة واللباد والحلى الفضية والأصداف الكورية والأسلحة وسهام الصيد ومختلف أنواع العطارة من مختلف البلاد العربية حتى مدينة تولية القاصية وكانوا يعودون من أقصى البلاد العربية محملين بالكهرمان وأسنان الحيتان وغراء السمك وخشب الصنوبر والبلوط والصقور الحية للصيد وطواقى من فراء الثعلب الأسود للعرب وكثير من مختلف أنواع الفراء لا سيما السمور الأسود والهرملين والثعالب التى يحكى لون فرائها لون الياقوت فيضىء ما حوله وكأنه الشمس تبدد غياهب الظلمات.

لكن بين دولة الروس والدولتين العربية والرومانية والشرقية كانت تقوم دولة الخزر، وهى بمثابة الإسفين فى كيان هذه الدول، فمنذ عدة قرون كانت بلاد الخزر تفتح ذراعيها لليهود الهائمين على وجوههم والفارين من مختلف بلاد العالم، وبخاصة من الشرق الأدنى، والسر فى هذا أن سكان هذه البلاد الخزرية كانوا خليطًا من اليهود والمسيحيين والمسلمين والوثنيين ويحكمهم ملك يهودى، وكانت حياتهم الاقتصادية تعتمد على تجارة المرور بسبب موقع بلادهم التجارى، فعاصمتهم «إيتيل» كانت مشرفة على مصب نهر الفولجا فى بحر الخزر.

ومما غير مجرى الحوادث فى التاريخ الاقتصادى للقارة الأوربية وشق للتجارة الشرقية طرقًا جديدة امتدت حتى وصلت شمال أوربا نجاح القيصر «أوتو» الأول فى تطهير القارة من العصابات المجرية التى كانت تعيش على السلب والنهب وقطع الطرق مما حال دون وصول التجارة العربية إلى شمال أوربا. أما الآن وقد عبدت الطرق واختفت عصابات النهب والسلب، فقد تغيرت الأوضاع وواصلت القوافل

التجارية سيرها مخترقة بلاد الخزر والروس النورمانيين حتى أقصى الشمال مزودة على طول الطريق مدن أواسط أوربا والأديرة، بواسطة الدرب التجارى المؤدى إلى «براج»، كما يحدثنا اليهودى إبراهيم بن يعقوب الذى جاء من رحلة قام بها فى بلاد الصقالبة ولما وصل «ميرزبرج» حظى بمقابلة ملك سكسونيا الملك «هوتو»، واتفق أن وصوله وافق مجىء سفراء الحكم الثانى. ومدينة براج هذه كانت مقصد كثيرين من التجار، فالروس كانوا يفدون إليها من مدينة «كراكاو»، وغير الروس كان يفد إليها الصقالبة أيضًا، كما أقبل عليها من البلاد التركية المسلمون واليهود وغيرهم يحملون مختلف أنواع البضائع مثل: الرقيق والقصدير والفراء والنقود.

وقد يكون أولئك الروس أو أهالى براج هم الذين زودوا «مينز» بمختلف أنواع التوابل والعطارة والنقود العربية التى رحبت بمقدم الطرطوشى وزيارته عام ٩٧٣م.

البندقية تحطم الحصار

وفى تلك الفترة ظهرت فى ناحية أخرى من اليابسة مدينة لم يشعر بها أحد من قبل، وسرعان ما أصبحت ذات سيادة، وحصدت خيراً كثيراً. وهى تدين فى كل ما بلغته إلى موقعها وطبيعتها فهى مجموعة ألسنة يابسة ممتدة فى البحر الأدرياتيكى كادت تأتى عليها الحروب الداخلية وتجرفها أمواج البحر. هذه المدينة القابعة على جزر ريالتو والتى نعرفها تحت اسم البندقية، كانت تعيش فى حماية قديس سرقته من مصر وهو القديس مرقس الذى أعيد جثمانه أخيراً إلى القاهرة. وقد فرضت عليها جغرافيتها أن تعيش على التجارة، والتجارة البحرية بصفة خاصة، فبدأت بالملح والسمك، ومن ثم أخذت تتطور حتى علا شأنها واتسع أفقها وخرجت من محيطها الضيق واتصلت بالشرق العربى وشعوبه فلم يمض زمن طويل حتى أثرت من وراء صلاتها التجارية مع العرب ثراء عظيماً حسدها عليه الغرب شعوباً وحكومات.

فالبندقية كانت القنطرة بين الشرق والغرب وكانت تنعم بخيرات الشرق وكنوزه وحاصلاته التى حرمت منها أوربا زمناً طويلا بسبب تعصبها الدينى وأوامر الكنيسة التى تحذر من الاتجار مع المسلمين. لكن البندقية بما أوتيت من مهارة تجارية وسعة فى التفكير بفضل اتصالاتها بالعرب استطاعت أن تتغلب على دسائس خصومها، فسياسياً كانت تابعة لبيزنطة، وظلت هذه السيادة قائمة طالما كانت بيزنطة حرة قوية متسلطة على البحر، طريقها الوحيد إلى البندقية، ومن ثم ظهر لبيزنطة فى تلك المياه النائية منافس جبار وهو قيصر دولة الإفرنج وطمع القيصر فى البندقية وحاول

الاستيلاء عليها وعلى ثرواتها الكثيرة، وأدركت البندقية الخطر الذى تتعرض له، فراوغت خصميها المتنازعين المتنافسين ونجحت فى الإيقاع بينهما وتحريض كل منهما على الآخر بينما أخذ أميرها (الدوج) يظهر بغتة على المسرح العالمى ويخاطب حكام العالم مخاطبة الأنداد.

وبعد أن تحققت للبندقية أمنيتها ونجت من مخالب أعدائها وتحررت من بيزنطة أخذت تفكر جادة فى الاستعمار تأمينًا لأسطولها التجارى وأسواقها الخارجية وتحدت الكنيسة وتاجرت مع المسلمين ووثقت علاقاتها التجارية مع العرب. ولم تكن البندقية هى الوحيدة فى إيطاليا التى وقفت من العرب هذا الموقف الودى، ولم تتردد فى مساعدة العرب عند غزوهم صقلية، ألم تعقد «بيزا» مع المسلمين معاهدات واتفاقيات ضد جنوه؟ كما وقفت نابولى إلى جانب المسلمين ضد منافستها «أمالفى» وانضمت سفن «أمالفى» إلى الأسطول العربى عند مهاجمته الشواطئ الرومانية بالرغم من تهديد الكنيسة لسكان «أمالفى» بالحرمان وإعلان البابا هذا التهديد. ولعل السر الذى دفع هذه المدن الإيطالية إلى محالفة المسلمين ومعاونتهم متحدين بموقفهم هذا البابا وكنيسته، الرغبة الصادقة فى المحافظة على حرية التجارة وسلامتها ولا صلة فى الواقع بين التجارة والعقيدة ثم ما شأن البندقية هذه الدولة البحرية الناشئة وذلك الكهل القابع على ضفاف البوسفور؟!

ثم هل كان من السهل على أهالى البندقية الرضوخ لقرار القيصر «يوحنا تزيميسكيس» القاضى بتشكيل لجنة تتخذ من جزيرة «ريالتو» مقراً لها لتفتيش سائر السفن باحثة عن الأسلحة والخشب؟ لا شك فى أن القيصر كان فى حالة يرثى لها عندما قرر الانتقام من أهالى البندقية وذلك لكثرة الهجمات العنيفة التى شنها عليها الخلفاء الفاطميون، وعاونهم سكان البندقية بالأسلحة والخشب اللازم لبناء السفن الحربية، وغالى القيصر فى تهديداته فقرر حرق جميع السفن التى تضبط عليها مواد محرمة بمن فيها فغضب أهالى البندقية لمثل هذا القرار ورغبوا عنه وعن تنفيذ رغبات القيصر؛ لأن الرضوخ لمثل هذا القرار معناه الرجوع بالحياة الرغدة السعيدة إلى الوراء؛ فاضطر القيصر إلى الإسراع فى إصدار قرارات أخرى تعاقب بالموت، ذلك

الذى يضبط متلبسًا ببيع أسلحة إلى المسلمين. وفيما يتعلق بتجارة الخشب فقد أباح بيعه على ألا يتجاوز طول اللوح خمسة أقدام ونصف القدم، كذلك أجاز بيع الخشب المعد لصناعة الطشوت أو الأطباق أو الملاعق، إلا أن «دوج» البندقية رفض الإذعان لمثل هذه الإجراءات وأصبحت هذه القوانين معطلة وخاطب أمير البندقية أعضاء اللجنة قائلا: ألم تكن تجارة الخشب من الأهمية بمكان لأهالى البندقية؟ أو لم يفكر القيصر فى أنها مساعدة نافعة ضرورية للخليفة! والذى حدث أنه قبل وصول اللجنة لمباشرة عملها أقلعت ثلاث سفن محملة بالخشب اثنتان وجهتهما «مهدية» فى تونس والثالثة إلى طرابلس الغرب، وقد صرح الدوج بشحن هذه السفن رحمة بعمال الشحن المسيحيين الفقراء. أما دول شرق البحر الأبيض المتوسط من آسيا الصغرى حتى مصر فلن يصلها شىء من هذا الخشب، ويذكر الكتاب العرب فى القرن العاشر الميلادى كثيرًا حول تجارة البندقية وأملفيس وبالرمو ومسينا مع عرب شمال إفريقيا. فالسفن العربية كانت تصل محملة بالستائر الحريرية الثمينة وأغطية المذابح والأقمشة السوداء الجميلة والملابس ذات اللون الأزرق السماوى وجميعها ترد إلى أوربا من القيروان وسوسا وجابس، كما وجدت الأقمشة العربية النادرة طريقها إلى «مونت كاسينو» والأديرة والكنائس الموجودة فى شبه جزيرة إبنين، ومن المستطاع مشاهدتها حتى يومنا هذا.

والشىء الجدير بالذكر أن هذه التجارة العربية ظلت زمنًا طويلا محصورة فى البلاد الواقعة جنوب جبال الألب ولم تستطع عبورها إلا بعد أن وقعت أحداث تاريخية هامة كانت بعيدة الأثر فى الحياة الاقتصادية الشرقية الغربية، ومن هذه الأحداث أن بيزنطة استطاعت عام ٩٦١م الاستيلاء على جزيرة كريت من العرب فأصبح الطريق إلى الشرق العربى مفتوحًا وعجزت القوة القيصرية أو البابوية عن الحيلولة دون قيام علاقات تجارية مع العرب فى الشرق والاستفادة من تجارة العرب العالمية وثرائهم المتدفق. أما الحادث الثانى فكان عام ٩٩١م عندما أرسل دوج البندقية وهو بطرس الثانى أو رسيولو سفراء إلى جميع الأمراء العرب محببًا إليهم البندقية وداعيًا إلى إقامة علاقات تجارية بينهم وبين بلاده، ولم يمض زمن طويل حتى أصبحنا نجد السفن التجارية تقلع من ليدو وجنوه بانتظام إلى سوريا ومصر؛

مما دفع الخليفة الفاطمى المستنصر الذى اشتهر بصداقته للمسيحيين إلى تعيين قسم خاص من القدس لإقامة الحجاج والتجار المسيحيين.

وكانت قوافل السفن تقلع عادة من موانيها الأصلية فى أوائل سبتمبر وتصل إلى الشرق بعد أربعة أو خمسة أسابيع، وفى الربيع تعود إلى موانيها الأصلية ثانية. أما الشتاء فكان التجار يقضونه فى الشرق متنقلين بين فلسطين وسوريا وبغداد والخليج الفارسى أو يذهبون مباشرة إلى القاهرة والإسكندرية حيث توجد التوابل الجيدة التى ترد عن طريق البحر من الهند ومدغشقر وتدر على التجار الأرباح الطائلة لرخص النقل وقلة التكلفة، وهذا مما دفع الصليبيين فيما بعد إلى غزو فلسطين فى مصر.

أما التجار الذين كانوا غير مقيدين بالعودة على ظهر السفينة التى أقلتهم إلى الشرق فكانوا ينتهزون فرصة وجودهم فى البلاد العربية ذات الحضارة العالية والثقافة الرفيعة، وعند عودة التاجر يحمل معه كثيراً من الأقمشة القطنية السورية والكتانية إنتاج مصانع أنطاكية، وبضائع زجاجية وأخرى من القيشانى صناعة مدينة صور، ومختلف أنواع السكر فى حقائب من صنع طرابلس الشام. هذا بالإضافة إلى الفلفل وجوز الطيب والكافور والكباب والبخور والمر والنيلة والعود وخشب الصندل والخشب البرازيلى وغيرها من الأصناف التى كانت تزدحم بها الأسواق المصرية.

فالتجارة بين الشرق والغرب أعادت الصلات بين العالمين سيرتها الأولى، وبخاصة عندما قضت معركة المجر عام ٩٥٥م فى «ليشفيلد» على قبائل الغجر التى كثيراً ما كانت تغير على القوافل التجارية وتعمل فيها سلبًا ونهبًا وتقتيلا. أما الآن، بعد أن استتب الأمن، فقد أخذت التجارة تتدفق عبر الألب وشجع على ازدهارها القيصر الذى منح السوق والنقود حقوقًا وامتيازات فى جميع الأماكن الواقعة قبل الألب حول «بودينزيه» وأسافل حوض الرين، كما أصبح الطريق مفتوحًا لتصريف البضائع المخزنة فى البندقية فى شمال أوربا. لكن بينما كان الإيطاليون يحملون هذه البضائع إلى «بورجوند» وفرنسا والأراضى المنخفضة

إذ يصبح من النادر رؤية أحدهم فى ألمانيا، كما أخذ اليهود فى الاختفاء تدريجيًا كتجار جملة واكتفوا بتجارة التجزئة مهتمين بالتوزيع والصيرفة والربا والخيول والماشية والبضائع والملابس المستهلكة أو المستعملة، كما أخذ التاجر الألمانى فى الظهور عابرًا سان برنارد الكبير إلى سهل نهر ألبو متاجرًا فى البضائع الشرقية. لذلك كانت قبلة التجار الألمان جمهورية القديس مرقس (البندقية) وكانوا يصلون إليها قادمين من «كرنستنس» و«شافهوزن» و«رافينزبرج» و«ريجينزبرج» و«نيرنبرج» و«أوجبرج»، ثم «أولم»، ومن «كولونيا» للاتجار فى أثمن المنتجات الشرقية.

وقد بلغ عدد التجار الألمان من الكثرة بحيث إن حكومة البندقية أعدت لأولئك التجار القادمين عبر جبال الألب مكانًا خاصًا للاتجار والإقامة أسوة بما فعله من قبل السلطان المصرى للتجار المسيحيين فى الإسكندرية حيث أوجد لهم الفنادق الخاصة. وقد أخذت البندقية عن العرب والعربية هذا اللفظ وأطلقته على الأبنية المشابهة فنجد الفندق الذى كان مخصصًا فى البندقية للتجار الألمان يسمى «فندق دى تيديشى»، وهو يحتوى على ستة وخمسين سكنًا بالأسرة عدا أماكن الراحة والاستقبال والأماكن الأخرى للمواشى. وكان فى هذا الفندق فرن خاص لصناعة الخبز وحوانيت للصناعات الضرورية المختلفة، كما زود بمخازن للبضائع وأماكن للبيع خاصة بهذه الجالية الصغيرة المستقلة.

ولا غرابة فى هذا فالبندقية كانت المحطة النهائية التى يبلغها هذا القطار التجارى. وهنا فقط استطاع التاجر «كونراد إيسفوجل» وهو أحد أبناء مدينة «نيرنبرج» الإقامة حيث يبيع بضائعه النحاسية والحديدية والفراء والأقمشة البرابنتية. وفى البندقية كان يدفع الضرائب المستحقة - وقد أخذ هذا النظام عن العرب وكان يشرف على جميع هذه الإجراءات الموظف المعروف باسم السمسار[٧٠]، وهو الخبير فى تثمين البضاعة وتحديد سعرها، وفى حضور هذا المثمن الرسمى كان التاجر الألمانى يدفع الثمن المتحصل فى بضائع أخرى، وبخاصة التوابل، والعقاقير المختلفة، والأقمشة، والثياب المزخرفة بالحرير والخيوط الذهبية.

فالاتجار مع البندقية كان يتطلب نظامًا خاصًا، فالتاجر «كونراد إيسفوجل» كان له الحق فى أن يأخذ معه وإلى «نيرنبرج» بضائع لكن لا يسمح له بالخروج بنقود من البندقية وكان له الحق فى مشاهدة قلاع السفن القادمة من صور والإسكندرية والمهدية وكويتا من شرفات فندقه ولا يسمح له بالاقتراب من السفن أو الحصول على قليل جداً من الفلفل أو تبادل العبارات مع ركابها وملاحيها. كذلك الحال مع تجار «بورجوند» أو «بيمن» أو «ميلانو» أو «فلورنسا» فكان محرمًا عليهم الاقتراب من السفن مسافة سمع الأذن. ومقابل هذه الاحتياطات تتعهد البندقية ألا تشترى بضائع ألمانية خارج الألسنة الأرضية الممتدة فى البحر ولا تعرض للبيع بضائعها فى الأراضى الألمانية. واستطاعت البندقية عن طريق جزرها الكثيرة المنتشرة فى البحر الأدرياتيكى احتكار التبادل التجارى بين الشرق والغرب وكان الأجانب مطالبين باحترام هذه القوانين وتنفيذها، وهذا سر قوة البندقية.

أما جنوه فقد كان موقفها من التجارة يغاير موقف البندقية فجنوه من أنصار حرية التجارة؛ لذلك نجد هنا تجارة الشرق ليست حكراً للدولة بل حرة فى متناول جميع التجار، فكانت جنوه سوقًا رائجة للصادر والوارد ومقصداً للتجار الذين يصدرون إلى أسبانيا وشمال إفريقيا والشرق.

والآن يبدو لنا أن خيرات العرب كانت أساس الإثراء والرخاء لا فى الشرق فقط بل فى الغرب أيضًا، كما أن هذه التجارة العربية هى القوة الاقتصادية ذات الأثر الفعال فى أوربا وأن رفع المستوى الاجتماعى فى الغرب إنما مرجعه القفف العربية الملأى بالفلفل، لذلك كان حرمان الأسواق الأوربية من هذه القفف سببًا رئيسيًا فى القضاء على التجارة الداخلية أولاً، وإفلاس التجار ثانيًا، وصهر الذهب المتداول ثالثًا. ففى اللحظة التى قطعت فيها الصلات بين الشرق والغرب تحولت أوربا إلى بلاد زراعية فرجعت القهقرى وانحط مستواها الاجتماعى، وحرم الأوربيون من فلفل الشرق وجوز طيبه وسكره، واضطروا إلى أكل الكرنب دون بهار وغصت أسواق أوربا المحلية لا بالتجار بل بالفلاحين يعرضون حبوبهم والأوانى الفخارية المصنوعة فى منازلهم والسراويل المجهزة من القماش المنسوج فى بيوتهم، واستمر

الحال كذلك حتى استؤنفت العلاقات التجارية بين الشرق والغرب بعد أن خفت حدة التعصب الدينى، هذا التعصب الذى كان يحول دون الاتجار مع المسلمين. أما وقد عادت المياه إلى مجاريها وأخذت تجارة الشرق تتدفق على أوربا فإن صورة الحياة التجارية سرعان ما تغيرت وفتحت الحوانيت أبوابها وامتلأت بأقمشة الشرق وبهاراته وسائر خيراته وحاصلاته، كما حرص التجار على إجابة مطالب الطبقة الراقية فأحضروا كثيراً من كماليات الشرق ومقومات الأناقة والذوق الرفيع، وترتب على هذا التطور أن خطت المدن الأوربية بخطوات واسعة نحو حياة أفضل، وظهرت فى أوربا ثورة اجتماعية بيضاء.

وتدين البندقية فى تطورها ورقيها وثرائها إلى الاتجار مع العرب، فلولا القرفة والكمون ومختلف أنواع الصباغات بما فيها النيلة، وكذلك التوابل والبهارات، ما استطاعت البندقية أن تتزعم النهضة الاقتصادية الأوربية التى ساعدت على ازدهار الغرب وتقدمه. ولم يكن مجهود البندقية مقصوراً على الاتجار فقط بل ساهمت حتى فى نقل القوات الصليبية إلى الشرق فبدت فى رأى الغرب وكأنها تساهم فى تحرير الأراضى المقدسة.

ثم ولت أيام المستنصر وعهده الذى اتصف بالتسامح وكرم الأخلاق وحسن معاملة المسيحيين، وابتلى الله الشرق العربى بقبيلة تركية اتصفت بالقسوة والجفوة والتعصب الشعوبى، وهذه القبيلة هى التى تعرف فى تاريخنا الإسلامى باسم الأتراك السلاجقة، ونجحوا فى الاستيلاء على القدس وهددوا بيزنطة بالغزو فكانت هذه الأحداث إنذاراً بهجوم أوربا المسيحية على الشرق الإسلامى وسرعان ما ساءت العلاقات بين المسلمين والمسيحيين بعد أن عاش المسلمون والمسيحيون متآخين متحابين فى فلسطين حتى أيام المجنون الحاكم بأمر الله. أما الآن فقد تحول البحر الأبيض المتوسط فجأة إلى معارك متصلة بين أصحاب العقيدتين، وقد دامت هذه الحروب عدة قرون.

واستتبعت حالة الحرب إصدار القرارات البابوية التى تحرم على المسيحيين

التعامل مع المسلمين أو الاتجار معهم كما نصت هذه القرارات على توقيع عقوبة الحرق على كل من يصدر أن ينقل خشبًا أو أسلحة إلى المسلمين، لكن جميع هذه القرارات ذهبت أدراج الرياح ولم تثن الجمهوريات البحرية الإيطالية عن تثبيت صلاتها التجارية وتدعيمها مع المسلمين، وذهبت هذه الجمهوريات بعيدًا فى صداقتها مع المسلمين فتولى بعض بحارتها قيادة السفن الحربية الإسلامية. كما أن سلطان مراكش طلب مرة معونة جمهورية جنوه فأمدته بأسطول يتكون من ثمان عشرة سفينة حربية مساعدة لأمير المؤمنين للقضاء على أعمال القرصنة التى كان يقوم بها الصليبيون.

ولماذا لا يسلك أهل جنوه هذا المسلك؟ أليسوا تجارًا وصفة التاجر الماهر أن يستفيد من جميع الفرص السانحة له. لقد تاجر البندقى فى كل شىء حتى فى نقل ما بين عشرين وأربعين ألف محارب صليبى فى جيش الرب، وقد تجمعوا فى ميدان القديس مرقس ينتظرون ترحيلهم إلى عكا ودمياط، فكسب أهالى البندقية من عملية النقل ماديًا وروحيًا إذ ساهموا مساهمة طيبة فى نصرة القضية المسيحية. وانتصرت البندقية عام ١٢٠٣ على بيزنطة انتصارًا فاصلاً، إذ توجهت حملة صليبية تحت قيادة البندقية فنكلت ببيزنطة تنكيلاً لم يصبها على يد المسلمين من قبل، فقد وصف كاتب مسيحى هذه الحملة الصليبية والجرائم التى اقترفتها فى بيزنطة المسيحية وصفًا لا عهد للإنسانية به من قبل، فقد سلب أفرادها ونهبوا كل ما وصلت إليه أيديهم، فقد سرقوا الكنوز القديمة ودنسوا المقدسات فحطموها وخربوها وأحرقوا الكتب ومزقوها فكان انتصار هذه الحملة على بيزنطة انتصارًا للبندقية وغيرها من الجمهوريات الإيطالية لتهديدات بيزنطة المتواصلة لها، فكانت هذه الجمهوريات هى الوحيدة التى انتصرت على بيزنطة أولا وعلى سائر الدول المنافسة لها، وبخاصة المسيحية عن طريق هزيمة وفشل الحملات الصليبية ثانيًا.

فقد استنفدت الدول المسيحية كل قواها دون تحقيق أهدافها: فالصليبيون كما يذكر الفرنسيسكانى الأسبانى «رامون ليلل» لم يحققوا طيلة القرون التى قضوها فى الحروب شيئًا، فلم يصلوا إلى قبر المسيح، ولم يقضوا على الوثنية (الإسلام)!! أو

يحولوا الوثنيين (المسلمين) إلى مسيحيين ولم يفلحوا فى الاستيلاء على الأراضى المقدسة.

أما البندقية الحكيمة فقد خرجت من جميع هذه المشاكل سليمة قوية، وبفضل اتجارها مع العرب ازدادت ثراء وقوة حتى إن خبيرًا راح فى أوربا فحواه أن أهالى البندقية لم يحزنوا لهذه النهاية السيئة للصليبيين فقد كان الأهالى على استعداد لاعتناق الإسلام لو اقتضى الأمر هذا، فهم الذين اتخذوا من هزيمة الملك القديس لويس ملك فرنسا عيدًا للمسخرة.

فى مدرسة العرب

إن انتصار البندقية كان، لحد ما، انتصاراً لأوربا، فالبندقية هى همزة الوصل بين الشرق والغرب اقتصاديًا وعلميًا وأدبيًا، وإليها يرجع الفضل فى هذه النهضة الإيطالية الشرقية، ومن ثم أخذت بيد الألمانية فالفرنسية. فتجارة الأراضى المنخفضة، ونجحت البندقية فربطت بينها جميعها وكونت شبكة قوية شملت المدن والشوارع ومختلف الطرق حتى بلغت إنجلترا والبلاد الإسكندنافية الشمالية فنهضت هذه الدول نهضة غير متوقعة.

ثم نجد التجارة العربية تتخطى جبال الألب وكما كان الحال قديمًا فى إيطاليا كذلك هنا عبر الألب حيث نجد خامات الأقمشة العربية وعليها الطرز العربية وقد صنعت صناعة حديثة، فمثلا القطن الذى أدخل العرب زراعته إلى أسبانيا وصقيلة هو الذى يصنع منه هذا القماش الناعم الرقيق وتصدره سوريا وخراسان إلى مختلف الأسواق العالمية. فحوالى عام ١٢٠٠م نجد الفاتنات الغانيات اللواتى تشيد بهن أغانى «نيثارت فون روينتال» يلبسن البركان[٧١] المجلوب إلى أسواق شمال ألمانيا من ميلان. وبعد ذلك بقرن نجد صناعة البركان تنتشر وبسرعة فى «كونستنس» و«بازل» و«أولم» و«أوجسبورج» فى جميع إقليم «سوابيا».

وبعد ذلك بقرن أيضًا هاجر نساجان لقماش البركان من قرية «ليشفيلد» إلى «أوجسبورج» وأكبرهما سنًا كان «أولريش» الذى قتله مبيضو القماش. أما الأخ الآخر «منز» فلم يقنع بعملية النسيج وتولى هو بيع بضاعته الجيدة كما نجد بالات

القطن السورى والقبرصى تصل إلى مصنع أبنائه، وتخرج منه البركان الحديث لصناعة القطنية(١٠) والشك(٤) والجبة(٧٢).

لكن ننبه الأبناء إلى أن انتشار التوابل والكسب الكثير الذى تدره على أصحابها أجدى لهم من النسيج، فأقبلوا على الاتجار فى بالات القطن العربى وقفف الفلفل العربى، فلم يمض زمن طويل حتى أثرى أولئك العمال وأصبحوا قوة خطيرة يحسب لهم حساب فى عالم المال وعرفوا باسم «فوجر». فعن طريق البهارات والقطن والحرير وما يصنع منهما من أقمشة وضع مؤسسو أسرة «فوجر فون دير ليلى Fugger Von der Lilie»، كما سمى هذا الفرع الناجح من الأسرة نفسه، الأساس لهذه الثروة الطائلة التى دخلوا عن طريقها التاريخ، فقد بلغوا من السلطان والجاه أنهم كانوا يولون القياصرة والملوك ويمدون البابوات بالأموال كما ساعدوا الفقراء والمعوزين والذين غلبهم الحياء وهم فى أشد الحاجة إلى المعونة، ويدين الإخوة «أولريش» و«مكس» و«يورج» و«يعقوب فوجر» بثرائهم إلى زهرة الليلك التى انتسبوا إليها وتبرعوا بالإنفاق على زواج ابن قيصر «هبسبورج» وهو مكسيمليان بوريثة «بورجوند» وهى «مارى». وعن طريق هذا الزواج تمكن الملك الفرنسى من الحصول على بلاد وزوج لابنه الذى لم يتجاوز السابعة من عمره.

وتدين هذه الأسرة لهذا الاسم أيضًا بما أوحى إليها من ثقافة عربية، وحضارة عربية، وتقاليد عربية، وذلك لأنها اتخذت منه شعارًا لها ورنكًا يميزها. وقد أعجب الصليبيون بهذه الفكرة ونشروها عام ١١٥٠ فى فرنسا وعام ١١٧٠م فى ألمانيا. فعن الفرسان العرب نشأت العادة الجرمانية، وهى اتخاذ صور الحيوانات إشارات للقوات والحروب، ومن ثم استخدمها الأوربيون أوسمة شرف للفرسان؛ ومن ثم تطورت إلى رنوك مدنية لها فنونها الخاصة ولغتها التى تتميز بها.

وكذلك الرنك الذى أهداه القيصر فريدريش الثالث ولد مكسيميليان لأسرة الفوجر اعترافًا بفضلها وأياديها البيضاء، كان عبارة عن زهرة الليلك الزرقاء والذهبية. والليلك هى الزهرة المحبوبة عند العرب وبخاصة فى شرق البحر الأبيض المتوسط، وقد انتقلت فيما بعد إلى الرنك الفرنسى حيث نشاهد زهرة الليلك الجميلة.

وأخذت أوربا عن العرب عارية أخرى هامة جداً وهى التى اتخذتها القيصرية الألمانية والملكية النمسوية المجرية والقيصرية الروسية شعاراً لها، وأعنى بذلك «النسرين». فهذه الشارة شرقية قديمة نجدها فى الآثار السومارية والحيثية كما نجدها فيما بعد على النقود العربية. وفى أوائل القرن الثانى عشر الميلادى اتخذها سلاطين السلاجقة شعاراً لهم على رنوكهم، وبغتة يظهر النسران فى القرن الرابع عشر فى الرنك الخاص بقيصر ألمانيا.

* * *

وكان الشرق يذخر بالآيات الباهرة ثقافيًا وصناعيًا وكان كل ما فيه يوحى لدعاة الإصلاح بإدخال الشىء الكثير إلى أوربا رغبة فى الأخذ بيدها وتقدمها. ففى القرن الثانى عشر مثلا عاد نفر من الحجاج المسيحيين من زيارة قاموا بها لقبر الرسول «يعقوب» فى «سنتياجو ده كومبستيلا» فى أقصى شمال غربى أسبانيا. عاد هؤلاء الحجاج ومعهم أول ورقة إلى أوربا جاءوا بها من الأندلس العربية، وذكر أولئك الحجاج أن العرب يستخدمون الورق للكتابة الجميلة وتدوين الكتب المقدسة ويدرس هناك كل كاتب الخط الجميل فهو الخط الوحيد الذى يستخدم للكتابة على الورق الجيد هذا الورق الذى كان يوجد بكثرة بحيث يسمح لاستخدامه فى الأغراض التجارية كلف البضائع مثلا.

وحدث فى ذلك الوقت أن غزت أوربا توابل ممتازة وروائح عطرية قوية وثياب أنيقة من القطيفة والحرير، وسرعان ما غمرت هذه البضائع أسواق الغرب وقلوب الغربيين؛ لأن مثلها قوى الرغبة فى حياة الأبهة والترف ودفعها إلى الأمام بخطوات واسعة سبقت الإقبال على العلم والحرص على تحصيله. ولعل السر فى هذا الانصراف عن الاهتمام بالعلم ندرة وسائل الكتابة منذ وقف الاتجار من قبل مع العرب. ففى عصر الماروفنجيين كان الكتبة فى المحال التجارية والخبراء والأديرة يستخدمون ورق البردى. ففى مرسيليا كانت تفرغ السفن بدون انقطاع شحناتها من ورق البردى المصرى، إلا أن تحريم الاتجار مع الشرق استنفد جميع هذه الكميات فاضطر الناس إلى الاقتصاد فى استخدام ما تحت أيديهم، وكثيراً ما كانوا يمحون ما

على الورق القديم لإعادة استخدامه ثانية. واستتبع اختفاء الورق ندرة الكتَّاب الذين يجيدون الخط وظل الحال كذلك عدة قرون حتى أحضر بعض الحجاج من أسبانيا هذا النوع الجديد من ورق الكتابة والذى كان يستخدمه العرب فى جميع مراسلاتهم التجارية وغيرها. وما كاد القوم فى أوربا يرون هذا الورق حتى تهافتوا على استيراده فسافرت وفود تجارية من «نورنبرج» و«رافينز برج» و«بازل» و«كونستنس» إلى برشلونة ومنها إلى بلنسية حيث تقوم فى ضواحيها أكبر وأحسن مصانع للورق، وقد قال فيه الرحالة العربى الجغرافى الشهير بالإدريسى: إنه لا يوجد فى العالم ورق يضارعه جودة.

وفى عام ١٣٨٩ نجد تاجر التوابل المشهور «أولمان شترومر» أنشط أبناء الأسرة التجارية المعروفة بهذا الاسم فى «نورنبرج» والذى كان يتولى تجارة الزعفران ونقله إلى أسبانيا يقرر إدخال صناعة الورق إلى وطنه فأسس فى ذلك العام بالقرب من «نورنبرج» أول مصنع للورق فى ألمانيا مستعينا ببعض العمال من إيطاليا التى كانت قد سبقت وأسست أول مصنع ورق فى أوربا عام ١٣٤٠م.

لكن ألم تدون قبل قرنين ونصف قرن أول وثيقة على الورق فى دولة مسيحية أوربية وكان ذلك عام ١٠٩٠؟ أو أن المؤرخ لا يعتبر جزيرة صقلية التى انتزعت حديثًا من العرب وسكانها المسلمين، وآلت إلى النورمان جزءًا من أوربا؟

ففى عام ١١١٥ تأكد تجديد أحقية روجر الثانى فى عرش صقلية بناء على وثيقة من والده الجراف الأكبر روجر عام ١٠٩٠ بحجة أن هذه الوثيقة مدونة على ورق بالرغم أنه من هذا النوع الرقيق المصنوع من القطن فى القيروان والذى كان من الصعب الاحتفاظ به فى حالة جيدة، وجرت العادة أن تدون الوثائق على الورق القوى. والسبب فى هذه الصعوبة التى اعترضت أحقية روجر الثانى فى العرش تمزيق هذه الوثيقة وتشويهها مما أشكل على القارئ قراءتها مع وجود بعض التغيير فيها، لذلك ظل الملك روجر الثانى طيلة مدة حكمه مشغولا بفحص وثائق آبائه ووثائقه وإعادة كتابتها. ومن بين هذه الوثائق التى أعاد كتابتها تلك التى دونت عام

١١٠١ ، وفيها تهب والدته الأميرة «أديلاسيا» دير القديس «فيليبو» مصنعًا للورق شيده العرب، والدافع إلى تغييرها عام ١٠٠٢ هو كتابتها على الورق.

والشيء الجدير بالذكر هنا أن صناعة طواحين (مصانع) الورق كانت من اختصاص العرب وعنهم أخذها الغرب كما أخذت أوربا كذلك طواحين الماء والهواء وغيرها. وصناعة الورق لم تظهر إلى الوجود بين عشية وضحاها فالورق قبل أن تعرفه أوربا قطع طريقًا طويلاً محفوفًا بالمتاعب والمشاق. ولعل من أهم الدوافع التي دعت إلى اختراعه الحاجة الملحة إلى مادة للكتابة في متناول مختلف طبقات الشعب ولا سيما أن أسعار الحرير الصيني الذي ظل زمنًا طويلا مستخدمًا للكتابة كانت خيالية مما اضطر المفكرين إلى إيجاد حل لهذه المشكلة، ففي عام ١٠١٠م وفق «تساي لون» مدير المصانع الحربية القيصرية إلى حل هذا اللغز، ولعل سرجًا من اللباد أو شعر الماعز أو البقر والذي تخصص فيه الأتراك الرحل الشرقيون، هو الذي أوحى إلى «تساي لون» فكرته الجديدة وشرع توًا في تنفيذها فاستغل قشور الشجر والحلفاء والخرق وشباك الصيادين القديمة فقطعها إربًا. فكان له هذا الورق الذي استغنى به عن الحرير الغالي الثمن.

وحدث أن أنزل العرب عام ٧٥١م عددًا كبيرًا من أسرى الحرب الصينيين في مدينة سمرقند وخيروا الأسير بين العتق والرق وجعلوا ثمن العتق مباشرة حرفة من الحرف فاتضح أن عددًا كبيرًا من أولئك الأسرى الصينيين يجيد صناعة الورق فأعتقهم المسلمون وشيدوا لهم المصانع الضرورية فنشروا صناعة الورق في العالم الإسلامي، ومع مضي الزمن تقدمت هذه الصناعة باستخدام الكتان والقطن في صناعة الورق الأبيض الناعم الجميل الذي وجد أسواقًا رائجة في مختلف أنحاء العالم الإسلامي وبخاصة في عاصمة الدولة العباسية بغداد، ومن ثم اقتبست أوربا هذه الصناعة، كما اقتبست غيرها من العرب. فالورق صفحة من صفحات الفخار للعروبة والعربية.

وأدرك الخليفة المنصور (٧٥٤-٧٧٥م) أهمية هذه الورق وكثرة الحاجة إليه في مختلف الدواوين والمعاهد العلمية، وتهافت عليه العلماء والنساخ والتجار وغيرهم

مما اضطر الخليفة إلى التوسع فى صناعته خدمة للاقتصاد واستغناء عن البردى المصرى، كما أصدر مرسومًا يحرم استخدام البردى فى الأعمال الحكومية وطالب الموظفين وغيرهم باستخدام الورق الرخيص فقط. ولما تولى هارون الرشيد بالغ تشجيع الورق وصناعته حتى إن الوزير البرمكى يحيى بن خالد أقام عام ٧٩٤م أول مصنع لصناعة الورق فى بغداد، وهكذا نجد المصانع فى دمشق وطرابلس الشام وفلسطين ومصر وتونس ومراكش وأسبانيا. وعن صقلية وأسبانيا أخذت أوربا صناعة الورق الذى هو أهم ركن من أركان الثقافة الإنسانية. فالورق يختم عصرًا من عصور تاريخ الحضارة كما أن انتشاره قضى على عصر احتكار العلم والمعرفة وبعد أن كانت الحكمة ملكًا لطائفة بعينها أصبحت اليوم للجميع وهى ترحب بكل من يخطبها. الورق هو العمود الفقرى للمعرفة الإنسانية وهو من أهم الوسائل لنشرها فى مختلف الطبقات والأصقاع بالرغم من أننا نعيش فى عصر الراديو والكهرباء. واستتبع ظهور الورق اختراع الطباعة لا فى أوربا فقط بل حتى عند الصينيين والعرب. ففى الغرب نجد أمثال «كوستر» الهولندى و«جوتنبرج» الألمانى وقد ساهم كلاهما فى هذا الحدث العظيم مساهمة كبرى.

والآن نتساءل: ما هى الوسائل التى استخدمها وزير الخليفة عبدالرحمن الثالث لإعداد أكثر من نسخة من الوثائق الرسمية التى كانت توزع على الدواوين الحكومية فى الأندلس؟ هذا ما نجهله، لكن المعروف الثابت أن العرب أوجدوا بعض وسائل الطباعة التى استخدموها فى طباعة أوراق النقود وأوراق اللعب، وقد انتقلت أوراق اللعب هذه مع غيرها مثل الشطرنج والضامة. والتى ما زالت تحتفظ باسمها حتى اليوم فى أوربا من أسبانيا إلى الغرب.

* * *

وفى أوربا فكرة سائدة تقول: إن مخترع البوصلة هو «فلافيو جيويا» وهو أحد أبناء «أمالفى». والواقع أن فلافيو هذا ليس هو مخترعها وليس هو أول من جاء أوربا بها فأصحاب الفضل فى إيجادها هم العرب. وحقيقة اتجاه إبرة البوصلة المغنطيسية إلى الشمال قد عرفها الصينيون فى أواخر القرن الأول قبل الميلاد، ويقرر

الصينيون فيما جاءنا من وثائق أن استخدامهم للبوصلة فى الملاحة أخذوه عن أجانب، وكان ذلك فى القرن الحادى عشر الميلادى وهو العصر الذهبى للأسطول العربى التجارى وأسفاره وبخاصة فى المحيط الهندى ودولة الصين فيتبادر إلى أذهاننا أن هؤلاء الأجانب الذين أخذ الصينيون عنهم استخدام البوصلة فى الملاحة كانوا العرب ولا سيما أن بعض المصادر العربية التى ترجع إلى تلك العصور تؤكد استخدام العرب للبوصلة فى هذا الغرض. وعن العرب أخذها الصليبى «بطرس فون ماريكورت» وأهداها إلى أوربا. وكان «ماريكورت» مدرسًا لروجر بيكون ومن ثم توجه «ماريكورت» إلى فرنسا حيث كان قد ألم بالمغنطيسية والبوصلة وأدخلهما إلى أوربا وكان ذلك عام ١٢٦٩، وذلك عن طريق رسالته حول المغنطيسية. وبعد ذلك بمدة تبلغ نحو ثلاث وثلاثين سنة أى حوالى عام ١٣٠٢م بدأ هذا الإيطالى من «أمالقى» يهتم بالبوصلة. والشىء الجدير بالذكر أن «أمالقى» هى أول ثغر يجرى بجوار البندقية، وكانت تقوم بدور هام فى تجارتها مع أصدقائها العرب، كما كان لهذا لثغر الإيطالى جاليات كبيرة فى مختلف الموانى العربية شرقًا وغربًا، وبالرغم من أن عصر «أمالقى» الذهبى كان قد ولى وانتهى إلا أن سكانها حتى عصر فريدريش الثانى كانوا أذكى وأحسن تجار وملاحين فى جنوب إيطاليا، ومن أولئك الأبناء «فلافيو جيويا» الذى نجح فى الحصول على هذه المعلومات من العرب ومن الشرق. لكن الأوربيين يحرصون على نسبة اختراع البوصلة إلى هذا الإيطالى، ولما أعجزهم الدليل وثبت للعيان أنه جاء بالبوصلة من العرب قال ذلك النفر المتعصب من الأوربيين إن «فلافيو» هذا أدخل على هذه البوصلة بعض التعديلات، وبعد ذلك قدمها لأوربا لاستخدامها فى الملاحة ولا يستغنى عنها فى البحار العالية والشواطئ الجديدة.

* * *

واليوم نقف حيارى لا نحير جوابًا أمام هذه الصواريخ التى تنطلق فى الفضاء وتجوب أرجاء الكون وتعود من حيث بدأت، فهل فكر أحد وقد أخذنا بهول وعظمة ما نشاهد فيمن يجب أن نقدم له الشكر لهذا الاختراع؟ ثم أليس من المحتمل

أن الأوربيين ليسوا هم أول من فكر فى اختراعه؟ لقد ثبت أن الفكرة الخاصة بإطلاق قنابل عن طريق قوة متفجرة من البارود هى فكرة صينية، وقد نفذت عام ١٢٣٣م فى معركة نشبت حول «بين كيننج» بين الجيشين الصينى والمغولى، وكادت تدور الدائرة على الصينيين لولا أن فاجأوا العدو بهذا الاختراع وهو عبارة عن سهام تطلق عن طريق مادة محترقة تحتوى على ملح البارود. وحوالى عام ١٢٧٠م استخدم المغول نفس السلاح مستعينين بقوة التفجير الناتجة من ملح البارود، وللمرة الأولى فى تاريخ الحروب نجد هذه الصواريخ تلعب دوراً هامًا فى كسب المعارك أو فك الحصار المضروب كما وقع فعلا عند القضاء على الحصار المضروب حول مدينة «فان تشينج». وبفضل هذه الصواريخ انتصر المغولى «كوبلاى خان» على الصينيين وقضى على مقاومتهم. لكن هل انتصر المغول على الصينيين دون تلقى مساعدة أجنبية؟ وإن كان للمغول حليف فمن هو هذا الحليف الذى استغاث به «كوبلاى خان» وأجابه إلى رجائه وأعانه على القضاء على الصينيين؟ يحدثنا المؤرخ رشيد الدين حديثًا يثير دهشتنا فهو يذكر فى سياق كلامه عن السلطان العربى أنه علم من حاشيته أن السلطان استجاب إلى طلب «كوبلاى خان» وأمر أن يرسل إليه المهندس الذى حضر من بعلبك ودمشق، وأبناء هذا المهندس وهم أبوبكر وإبراهيم ومحمد بنوا بمساعدة الفنيين الذين رافقوهم سبع آلات كبيرة وتوجهوا بها إلى المدينة المحاصرة، فهل سبق أن ساهم المهندسون العرب فى فك الحصار المضروب حول مدينة «بين كينج» عام ١٢٣٢ أيضًا؟ وهل هذا السلاح العجيب الذى استخدم هو بعينه الذى استخدمه القائد المصرى فخر الدين، صديق فريدريش الثانى، عند ضرب جيش الإفرنج وملكهم لويس المقدس عام ١٢٤٩ حيث دارت رحى المعركة الصليبية للحملة الخامسة، واستخدم فيها القائد المصرى فخر الدين نيرانًا عربية جديدة؟ وقد أثار هذا السلاح الجديد الخوف والفزع فى صفوف الصليبيين حتى إن المؤرخين الأوربيين يذكرون أن كل مرة كان يطلق فيها الصاروخ المصرى يشعر ملك فرنسا بخيبة عظيمة ويصرخ يا حبيبى يا سيد يا يسوع المسيح نجنى واحمنى ورجالى!

ورب ضارة نافعة فقد تكتلت أوربا ضد العرب المسلمين وشن المسيحيون حربًا لا هوادة فيها؛ مما اضطر سلاطين الإسلام إلى تجنيد العلماء العرب فى القرن الثانى

عشر الميلادى وبخاصة أولئك الذين يهتمون بالدراسات الكيماوية وأرسلوهم إلى مصانع المفرقعات حيث نجحوا فى إيجاد مادة مفرقعة كاوية حارقة. وفى النصف الثانى من القرن الثالث عشر استكملوا خلق مادة مفرقعة دافعة للصواريخ واستخدموها فى حروب المسلمين ضد الصليبيين. ففى كتاب الحرب لحسن الرماح وبعض المؤلفات الأخرى الخاصة بالحروب فى ذلك العصر نجد ذكر كثير من المواد المفرقعة والأسلحة النارية وهى: بيض يندفع تلقائيًا ويحرق، وهى تطير نافثة اللهب، وهى تحدث صوتًا مثل الرعد... وهكذا، فالعرب هم أول من صنع لغمًا تقذفه الصواريخ.

والآن استطعنا أن نتوصل عن طريق بعض التراجم اللاتينية على معلومات دقيقة حول هذا الخليط العربى العجيب الذى يحدث رعدًا وبرقًا، وأن هذا الخليط قد وصل إلى بعض علماء أوربا أمثال «روجر بيكون» و«ألبرتوس مجنوس» والجراف الألمانى الواسع الاطلاع «فون بولشتدت»، وقد يكون الأخير هو الذى اتصل أثناء تجواله بذلك الذى يدعى أنه مخترع البارود ألا وهو الفرنسيسكانى «برتولد شفرز» فى فريبورج وأخبره عن هذا الاختراع العربى.

ثم حدث أن انتقلت النظرية إلى التجارب العملية التى هزت كيان العالم؛ فالعرب فى الأندلس هم أول من استخدمه فى أوربا. فالعرب الأندلسيون هم صانعو القنابل من البارود فى أوربا وقد استخدموها فعلا فى كثير من حروبهم. فالتاريخ يحدثنا أن المدفعية العربية قذفت بقنابلها فى الأعوام ١٣٢٥ و١٣٣١ و١٣٤٢م مدنًا مثل: «بازا» و«أليكتنا» و«الجيكيراس» فأحدثت هذه القنابل ذعرًا شديدًا فى صفوف الأعداء حتى إنهم اعتقدوا أن الساعة قد اقتربت وأذنت الدنيا بزوال. وفى عام ١٣٤٦ دارت معركة طاحنة هى المعروفة باسم «كريسى» فأصلت فوهة المدفعية العربية، التى أطلق عليها الأوربيون وقتذاك فوهة الشيطان، العدو نيرانًا حامية واستولى الرعب على الإنجليز الذين كانوا فى «الجزيرة» كما نكل العرب بالفرسان الفرنسيين تنكيلا عظيمًا وأحرزوا عليهم نصرًا مبينًا. والنتيجة المحتومة لهذا السلاح الجديد أنه نقل فنون الحرب من مرحلة إلى أخرى إذ كان هو نقطة

التحول فى الذخيرة والعتاد، وما زال منذ الحرب العالمية الثانية يطلع علينا بالعجائب.

ثم دارت عجلة الزمن واضطر العرب أن يتركوا مكانهم لغيرهم سواء فى الثقافة أو التجارة إلا أنهم أبوا أن يتنازلوا عن مكانتهم إلا بعد أن يتركوا للعالم آثاراً ناطقة بمجدهم وعظمتهم وفضلهم على العالم. فمن هذه الآثار الاصطلاحات الخاصة بالملاحة والتى ربطت بين تجارة البلاد المطلة على البحر الأبيض المتوسط وبين بقية الدول الأوربية فنحن نجد مثلا أسماء أنواع كثيرة من السفن مثل: «داو»[٧٣] و«دنجى»[٧٤] و«قربلة»[٧٥] و«فلوكه»[٧٦] «الشراع» و«الميزان»[٧٧] و«الحبل»[٧٨] و«دار الصناعة)[٧٩] و«أمير البحر»[٨٠] و«قلفاط)[٨١] و«قلفاطي»[٨٢]، وهو الذى يساعد نجار السفن بمطرقة القلفطية التى يصلح بها الأجزاء التى أصابها عطب فى السفينة حتى لا تتعرض لعوارية[٨٣]. ومن آثار العرب أيضًا شكل الجندول البندقى والجندول هو ذكرى حب البندقية للشرق العربى.

ومن مخلفات العرب أيضًا الحمام الزاجل فهو: أسرع من البرق وأنجز من سحابة؛ فقد كان يستخدمه العرب فى خدمة البريد ونقله وبخاصة الأخبار السرية، ومن ثم اقتبس الصليبيون هذا النظام وأدخلوه أوربا، وما زال الخطاب فى منقار الحمامة إلى يومنا هذا رمزاً للحب. كما تزين أوربا كعكة الأطفال برسم الحمامة عليها. ومن آثار الشرق على الغرب أيضًا الحدائق والعناية بها فالحدائق الأوربية تدين لا للعرب فقط بل للشرق قاصيه ودانيه أيضًا، وذلك منذ عدة قرون فقد أخذ الأوربيون النباتات المفيدة للطعام مثل الخيار والقرع والبطيخ والشمام والخرشوف والسبانخ[٢٤] والكبر[٨٤] والليمون[٨٥] والبرتقال[٢٠] والخوخ والتسفتشجين[٢٩] والأرز[٢٣] والزعفران وقصب السكر[١٣]. وأخذت أوربا أيضًا نباتات الزينة وأزهارها مثل الكستناء والبجلة وهى هذه الشجيرة ذات الأزهار البيضاء أو الحمراء والياسمين[٨٦] والورد[٨٧] وخيرى البر[٨٨] والكاميليا والأسليح[٨٩] والفورسيسيا[٩٠] والسوسن، وعلاوة على هذه النباتات وتلك الزهور أخذت أوربا عن العرب طرق الرى حيث كان العرب ماهرين فى هذا الفن منذ أقدم العصور.

وخلف العرب وراءهم أيضًا أثرًا حتى فى الكنائس مثل استخدام السبح فى الصلوات، فقد جاءت السبحة من الهند واقتبسها الإسلام، ومن ثم أهداها إلى الكنيسة الرومانية وأجهزة الطقوس الدينية والمباخر والبخور والمر، كما نجد بعض الأقمشة العربية الحريرية والموشاة بالخيوط الذهبية والفضية تستر المذابح ورجال الكهنوت فتترك بجمالها أثرًا بعيدًا فى الطقوس الدينية بالكنيسة الكاثوليكية، كذلك البلدشين[٩١] العربى الذى نشاهده حتى اليوم يزين المذابح ويشهد لبغداد بالمكانة التى بلغتها فى العصور الوسطى.

ولا أدل على تغلغل الأثر العربى فى أوربا من النظر إلى الملابس التى يرتديها الأوربيون حتى يومنا هذا سواء كانت هذه الملابس شعبية قديمة متوارثة عن العصور الوسطى أو حديثة تشكلها الحضارة وتوحى بها الأذواق. فهذه الملابس مصنوعة من أقمشة عربية الخامات عربية النسج عربية الذوق عربية الاسم عربية الوطن، فهاهى «المستقة»[٩] تناسب كرنرادين فى قطنيته[١٠] الجميلة والبلوزة[٩٢] التى ترتديها [ريا] تحت شكة[٤] الكسوة الأنيقة. وفى البيت يرتدى الوالد جبة[٩٣]، وجبته الإنجليزية القديمة عندما يريد غسل سيارته، ثم الجبة الصغيرة التى يرتديها الطفل، وتلك التى ترتديها السيدة الأنيقة، وهى قطعة من الملابس الداخلية التى أعارتنا إياها المدنية الفرنسية.

وفضل العرب على المرأة وزينتها وأناقتها يتجلى لنا أيضا فى غير ملابسها، يتجلى فى المساحيق والعطور، فشهرة الشرق فى البخور والعطور وإعدادها قديمة جدًا. ولم تقف وسائل الزينة والتبرج على النساء بل تعدتها إلى الرجال، فالرجل المسلم قد اقتدى برسول الله صلى الله عليه وسلم ويتزين بإطلاق اللحية، ثم اتصلت أوربا بالمسلمين فى الحروب الصليبية فاقتبسها الرجال وأصبحت حتى اليوم من العادات المستحبة عند الغربيين.

وهناك عادة هامة بالنسبة للعربى احتفظ بها الأوربى ألا وهى عادة الاستحمام وخلع الملابس. فالجرمان المخشوشنون اعتادوا كما يحدثنا (تتسيستوس) الاستحمام صباحًا وغالبًا بالماء الساخن عقب قيامهم من النوم، وكان الجرمانى

يعتبر الاستحمام رياضة يومية، ويذكر (قيصر) أن الجرمانى كان يستحم بالرغم من قسوة البرد فى الأنهار، كما كان الجنسان يستحمان معًا دون خجل. ولما زار الطرطوشى بلاد الفرنج لاحظ شيئًا آخر، فكان وهو المسلم الذى يتوضأ قبل كل فرض من فروض الصلاة الخمسة يستنكر حال القذارة التى يحياها الشعب؛ لذلك صور هذه الحالة التى شاهدها بقوله إنه لم يشاهد فى حياته أقذر منهم لا يغتسلون إلا مرة أو مرتين كل عام وبالماء البارد. أما ملابسهم فلا يغسلونها بعد أن لبسوها لكيلا تتمزق، والسر فى هذا التحول العظيم فى عادات الشعب الجرمانى هذه التعاليم الجديدة التى تقول إن تجريد الجسد من الملابس مدعاة لإثارة الغرائز الجنسية والفوضى الخلقية؛ لذلك عدلوا عن الاستحمام وخلع الملابس ولجأوا إلى غرف صغيرة لتغيير ملابسهم، فاتهمتهم التعاليم الجديدة بالفسق والدعارة، بينما القذارة مظهر من مظاهر العفاف.

ثم اندلعت نيران الحروب الصليبية وأقبل الصليبيون على الشرق فشاهدوا الحمامات فى كل مكان، فنحن نعلم مثلا أن بغداد وحدها كان فيها فى القرن العاشر الميلادى آلاف الحمامات الساخنة والحمامون والمدلكون والحلاقون للرجال والنساء للعناية بالجسد لا أسبوعيًا فقط بل يوميًا أيضًا، وقد لمس الصليبيون هذه الحياة العربية وأدركوا أثر الحمامات بما فيها من وسائل الراحة والنظافة والزينة فهاموا بها كما هام أولئك الغربيون الذين شاهدوها فى إسبانيا وصقلية فألحوا جميعهم فى إدخالها إلى أوربا بالرغم من المعارضات الشديدة وصرخات الاستنكار التى دوت فى كل مكان.

وهكذا أخذت قلاع الدفاع التى شيدتها أوربا المسيحية فى وجه العرب والإسلام والحضارة العربية تستسلم الواحدة بعد الأخرى، وذلك بفضل القنطرة التجارية التى أقامتها الجمهوريات الإيطالية مع العرب وبفضل التجار والمسافرين والصليبيين، واندفع تيار الحضارة العربية يكتسح ما أمامه من عوائق فأفاقت أوربا من نعاسها وأدركت أثر الجهالة التى تغط فيها ونهضت بفضل العرب والعروبة والحضارة العربية.

الكتاب الثانى

الكتابة العالمية للأعداد

ميــراث هنــدى

لماذا يتعثر فى ألمانيا وبصفة خاصة كل تلميذ مبتدئ عند محاولاته الحسابية الأولى، وبخاصة عندما يتدرج من الآحاد إلى العشرات؟ فكتابة العدد (٢٣) على السبورة تتطلب من التلميذ أن يقفز خانة ليكتب فى التى تليها العدد (٣) ومن ثم يعود إلى الخانة التى تركها ليكتب العدد (٢)، ولو نسى فى سرعة الكتابة أن يترك خانة ويكتب الأعداد حسب ترتيبها وسمعها ونطقها لخرج من (٢٣) إلى (٣٢) ومما يزيد فى تعريض التلميذ للخطأ كتابة المئات، فلو اعتاد أن يكتب (٨٥) من الخلف إلى الأمام أعنى من اليمين إلى اليسار مثل (٨٥) فإن التلميذ عند كتابة (١٢٣) يبدأ أولا بالعدد الدال على المئات (١) ثم بغتة (٣) ثم يعود مرة أخرى إلى خانة العشرات حيث يكتب (٢) ومن ثم تجده وقد استولت عليه الحيرة عندما يجد شعوبًا أخرى لا تقفز هذه الخانات؛ فالفرنسى يكتب العدد منطقيًا ومعقولا فمن المئات إلى العشرات ثم الآحاد فهو يقول للتعبير عن العدد [٢٣] [فين تروا vingt, trois] والإنجليزى [تونتى ثرى twenty. three] والروسى (دودزتى ترى dwadzatj. tri). أما الألمانى فيقول دراى أوند زوانسيج (drei. und zwanzig) ولا يقول (زوانسيج دراى zwanzig. deri). وهنا يتفق الألمانى مع العربى الذى يكتب من اليمين إلى اليسار ويلتزم اليمينية مع الأعداد من (١ - ٩٩) وعن العرب أخذت سائر الشعوب المثقفة لا الألمان فقط هذه الأعداد وكان (كارل) الأكبر (شارلمان) يقول (زينزوج فنفسيج انتى تربو) = (مائة وخمسون وثلاثة)، بينما ظل الأمر زمنًا طويلا اختلط فيه ترتيب العشرات والآحاد. فألمانية المرتفعات المتوسطة فضلت قديمًا استخدام

الآحاد ـ عند إدخال استخدام الأعداد العربية، ومن ثم مع مرور الزمن أخذ الألمان يعتادون استخدام التعبيرات العددية المطابقة للاستعمال العربى .

واستخدام الأعداد العربية ليس مقصوراً على الألمان فقط بل نجدها عند جميع الشعوب المثقفة ولولاها ما استطاع العالم إصدار التذاكر أو تدوين أثمان الأشياء ولا طبع دليل تليفون أو تقرير سوق الأوراق المالية، ولولا هذه الأعداد العربية ما قام هذا البناء الشامخ الخاص بالرياضيات والطبيعيات والفلك أو الطائرات أو السفن عابرات المحيطات كذلك الطبيعة النووية وغيرها . وتقديراً لفضل العرب على الإنسانية خلد العالم اسمهم بتسمية هذه الأعداد : الأعداد العربية .

إلا أن العرب ما زالوا يعترفون إلى اليوم بأن هذه الأعداد هندية الأصل، فهى تعرف عندهم باسم الأعداد الهندية .

والآن سنستعرض قصة الأعداد العربية مبتدئين بأصلها الهندى حتى غزوها أوربا فسائر أنحاء العالم مبينين خط سيرها والعقبات التى اعترضتها وانتصارها؛ لأنه لا يجول بخاطرنا اليوم ونحن نكتبها ونفكر فيها كما لو أننا نفكر فى لغتنا القومية ونجهل تمامًا المراحل التى مرت بها هذه الأعداد والمجهودات التى بذلها الكثيرون فى سبيل تمكينها من النصر الذى أحرزته .

اختلفت الشعوب ذات الحضارات القديمة فى حوض البحر الأبيض المتوسط فيما بينها فى التعبير عن العدد؛ فقدماء المصريين استخدموا للإشارة إلى الأعداد من (١ – ٣) خطوطًا عمودية، بينما الخط الأفقى يعبر عن العدد (٤)؛ لذلك كان الخطان الأفقيان فى مصر القديمة يعبران عن العدد (٨)، وقد وصلتنا مجموعات من خطوط أفقية وعمودية ونقط تربط بينها إشارات خاصة هيراطيقية للتعبير عن الأعداد (١٠) و(١٠٠) و(١٠٠٠) فالعدد فى مصر القديمة نشأ عن الهيروغليفية .

أما البابليون فقد استخدموا للتعبير عن العدد ثلاث إشارات، وهى عبارة عن أسافين أفقية وعمودية وزوايا وكانت تعبر عن مختلف الأعداد بواسطه ترتيبها ووضعها .

أما اليونان فقد استخدموا منذ عصر صولون حتى القرن السابق للميلاد أوائل حروف أسماء الأعداد، ثم كانوا يرتبونها ترتيبًا خاصًا صعبًا ويكونون من الآحاد العشرات ثم المئات، ومن هنا كان نطق العدد يختلف اختلافًا بينًا عن كتابته. وحوالى عام ٥٠٠ ق. م طرأ على العدد اليونانى نظام جديد استخدم فى أول الأمر فى الرياضيات كما استخدم حروف الأبجدية الأربعة والعشرين بعد أن أضاف إليها ثلاث إشارات سامية الأصل. والواقع أن اليونان قد أخذوا الأبجدية وترتيبها واستخدام حروفها للدلالة على الأعداد عن الساميين.

ونحا نحو اليونان الرومان فقد استعانوا بحروف الأبجدية للتعبير عن العدد مع ملاحظة أن التقارب بين رسم الحرف ودلالته العددية جاء عفوًا، فالرومانى استخدم أصلا إشارات تشير إلى أغصان وكانت تكون خطوطًا عمودية وترتب سويًا بحيث إنه إذا أراد أن يعبر عن العدد ثمانية جاء بثمانية أغصان ووضعها إلى جوار بعضها وإذا أراد التعبير عن العدد عشرة جاء بعشرة أغصان وثقبها بطريقة صليبية (X) ونصفها (٧) أو (٨) = (٥). وهنا تتفق الأعداد الرومانية مع الإتروسكية والأومبرية مع ملاحظة أو الرومانيين استخدموا النصف الأعلى من الإشارة الدالة على العشرة أعنى (٧) للدلالة على العدد (٥) بخلاف الإتروسكيين الذين اختاروا الجزء الأسفل (٨) للتعبير عن (٥) وهكذا عن طريق التصليب والتدوير والتنصيف تكونت بقية الأعداد حتى الألف. والشيء الجدير بالملاحظة أن هذه الإشارات الإيطالية - مع بعض الفوارق الطفيفة - ترجع إلى عصر أقدم من معرفة الإيطاليين بالأبجدية، ومع مرور الزمن نجد الإشارات الدالة على الأغصان تأخذ شكل الحروف مثلاً (١) = (١) و(٧) - (٥) و (x) - (١٠) و(L) = (٥٠) و(C) = (١٠٠) و (D) = (٥٠٠) و(M) = (١٠٠٠).

أما الشبه القوى بين الإشارتين الدالتين على العددين (١٠٠) و(١٠٠٠) وبين الحرف الأول من لفظ (سنتوم centum) أى مائة والحرف الأول من كلمة (ميل mille) أى ألف فقد وقع بمحض الصدفة، وهذا الشبه هو الذى سهل الانتقال إلى استخدام الأبجدية التى شاع استعمالها فى العصور الوسطى.

والآن نتساءل ما الفرق بين كتابة العدد وتسميته والنطق به؟ إن كل عدد بل حتى الواحد يتكون من أجزاء كما تشتمل علبة الحساب على وحدات عددية مجتمعة وتعد فرادى كما يعد الإنسان نقوداً متساوية القيمة، وبينما يقول الروماني: (كوادر ينجنى أو كتوجينتا سبتم أي: أربعمائة وثمانين وسبعة إذ به يكتب «مائة. مائة. مائة. . مائة. خمسين، عشرة عشرة عشرة خمسة واحد. واحد». فالإشارات الرومانية الدالة عليها هي (cccclxxxvli). فلغة العدد واضحة منتظمة نظيفة ومتصلة من حيث النطق. أما كتابتها فمضطربة وإجراء العملية الحسابية البسيطة بها يتطلب جهداً كبيراً لصعوبتها. فلهذه الكتابة العددية حدودها لأنها لا تملك من الإشارات ما يمكنها من التعبير عن كل القيم الحسابية. فالزائر للفوروم الروماني في روما يشاهد على الأعمدة السفن القرطاجنية التي استولى عليها الرومان في أول معركة بحرية انتصروا فيها عند (ميليه) على القرطاجنيين عام ٢٦٠ق. م، وللتعبير عن العدد (٢٢٠٠٠٠٠) استخدم الكاتب ما لا يقل عن (٢٢٠٠٠٠٠) إشارة وقد حفرت كل واحدة منها إلى جانب الأخرى، وهذا العدد هو أقصى ما عرفه الرومان والحساب الروماني والإشارات الرومانية.

وفي نصف الكرة الغربي كان الهنود هم الشعب الوحيد الذي ارتقى عن مستوى استخدام الطرق البدائية الحسابية العددية فلا تصفيف ولا ربط بين أجزاء متفرقة، فقد قسموا كل وحدة من وحدات الآحاد التسع كما تفعل ذلك اللغة أيضًا، وأوجدوا لكل جزء من العدد الإشارة الخاصة الدالة عليه، وبذلك يكون الهنود قد توصلوا إلى اختراع من أهم الاختراعات التي توصلت إليها الإنسانية. فهذه الآحاد الثابتة غير المتغيرة اكتسبت داخل حدود العدد قيمتها كآحاد وعشرات ومئات وآلاف وهَلُمَّ جَرًّا؛ لذلك أصبح ميسراً للهنود كتابة أي عدد مهما عظمت قيمته.

أما الصينيون فبالرغم من أنهم كانوا يستخدمون كذلك نظام الخانات أعني الآحاد، العشرات، المئات الآلاف و. . . إلا أنهم كانوا يكتبون إلى جانب العدد الخانة التي يدل عليها مثلا العدد (٣٩٥٢) كانوا يكتبونه هكذا (٢ أحاد ٥ عشرات ٩ مئات ٣ آلاف).

كذلك نجد الرومانيين يكتبون الأعداد حسب خاناتها أعنى (I) = (١) و(X) = ١٠ و(C) = (١٠٠) و(M) = (١٠٠٠) ثم نجد أنصافها (V) = (٥) و (L) = ٥٠ و(D) = (٥٠٠)، وهى تلتزم ترتيب العملة أعنى الترتيب التنازلى فالعدد (٣٩٥٢) يكتبه الرومانى هكذا: MMMDCCCCLII. فمن هذا العرض يتبين لنا أن الصينى كانت يكتب إلى جوار العدد قيمته العددية أى أنه من الآحاد أو العشرات أو المئات كما رأينا سابقًا، وقد استخدمت هذه الطريقة أوربا قبل أن تتمكن من الأعداد الهندية إذ نجد الهندى بخلاف الصينى والرومانى يكتفى بالخانات فقط وهى تنطق بالقيمة العددية، وقد شارك الهنود فى هذه الطريقة شعب «مايا».

وهذا العمل الجبار لم ينهض به فرد بعينه لأن بلوغ هذه المرحلة يتطلب ولا شك تطوراً خطيراً يقطعه الشعب تطوراً فى الرياضيات حتى يصل بها إلى هذه المنزلة العالمية، ولا شك أن هذه الإمكانيات قد توافرت للشعب الهندى بعد أن أتت عليه مئات السنين، وليس معنى هذا أن الهند لم تمر بالمراحل الأولى مراحل الاستعانة بالعصى وجمعها، ومن ثم أخذت حوالى عام ٣٠٠ ق. م. تحول هذه الإشارات إلى أعداد وإن ظلت زمنًا طويلا ملتزمة نوعًا بعينه من كتابة الخانات شأن الهند فى ذلك شأن الصين. وحوالى القرن السادس الميلادى احتفظت الهند فقط بالأعداد الدالة على ١ - ٩، كما أوجدت نظام الخانات.

وتحدثنا المصادر التى بأيدينا أن هذه الأعداد الهندية قد شقت طريقها خارج حدود وطنها، ففى عام ٦٦٢م نجد الراهب السريانى «سيفيروس سيفوخت» الذى كان رئيسًا لأحد الأديرة وناظراً علي مدرسة عالية على الفرات يذكر فى صدد الحديث عن الأعداد الهندية: أن أهم شىء فى الحساب الهندى والذى يميزه على ما عداه فى العالم الإشارات التسع: وهذا هو أول مدح قيل فى الهند؛ فبواسطة هذه الإشارات الجديدة استطاع «سيفيروس» أن يؤدى عملياته الحسابية بطريقة جديدة، وهى استخدام صفوف من الإشارات تعبر عن أعداد لا نهاية لها إلا أنه كانت تنقصها إشارة خاصة للتعبير عن عدد بعينه فهذه الإشارات تدل على أعداد خاصة فقط؛ فمثلا العدد (٣٩٥٢) نجد فيه العدد (٢) يعبر عن (اثنين) بينما العدد (٥) يعبر

عن (خمسين) والعدد (٩) هو (تسعمائة) والعدد (٣) يساوى (ثلاثة آلاف)، ولكن عند كتابة العدد (أربعمائة وثمانية) يجب أن توجد إشارة تبين خانة العشرات حتى لا يختلط العدد بالعدد (٤٨). وهنا أظهر الهنود، لسد هذه الخانة أو الإشارة إليها، عبقرية جبارة أثبتت كمال الأعداد الهندية. لقد أوجد الهندى ما يسمى بالدارة أو النقطة والتى تعرف فى الهندية باسم «سونيا» أو «سونيا بندا»، أى الفراغ، كما عبروا عن هذه الإشارة فى الهندية أيضًا بكلمة «كها» ومعناها الثقب.

فهذه الدارة (٥) تدل أصلا على النقص فى نظام الخانات فى الحساب الهندى، ثم بعد ذلك استخدمها الهنود فى حسابتهم كعدد مستقل، لكن الراهب السريانى «سيفيروس»، يعرف الدارة فى هذا الاستعمال، ولا نعلم كيف ا ستخدم هذا السريانى العدد الهندى بدون مساعدة الدارة.

وأول مرة شوهدت هذه الدارة فى الكتابات الهندية كان عام ٤٠٠م، وقد ذكر الفلكى الهندى الشهير «براهما جوبتا» والذى ولد عام ٥٩٨م فى رسالته المشهورة «سدهتنا» والتى وضعها وهو ابن ثلاثين عامًا، وقد عالج فيها النظام الفلكى فتحدث فيما تحدث عنه عن بعض قواعد الحساب والإشارات الخاصة بالأعداد التسعة، ثم ذكر الصفر كعدد خاص.

وفى عام ٧٧٣م وفد على الخليفة المنصور (٧٥٤ - ٧٧٥م) فى بغداد فلكى هندى آخر يدعى «كنكاه».

ثم نجد الفلكى العربى المشهور بابن الآدمى يضع جدولا يعرف باسم «عقد اللآلئ»، وقد خدم شعبه خدمة جليلة. وقد ذكر أنه فى عام ١٥٦هـ حضر إلى المنصور رجل من الهند متضلع فى نوع الحساب الذى كان سائدًا فى الهند وقتذاك ويعرف باسم «سند هند»، وهو يتصل بحركات النجوم ومأخوذ عن كتاب «كارداجاز» والذى يحمل اسم الملك «فيجار» فأمر الخليفة المنصور بترجمة هذا الكتاب إلى العربية، واعتمادًا عليه يجب أن يؤلف آخر يعرف العرب حركات الكواكب، وأسند هذه المهمة إلى العالم محمد بن إبراهيم الفزارى الذى اعتمد على الكتاب الهندى اعتمادًا كبيرًا. أما كتاب «سند هند» فمعناه فى اللغة الهندية «البقاء

الخالد»، وكان هذا الكتاب مرجعًا هامًا لسائر علماء ذلك العصر حتى زمن الخليفة المأمون (٨١٣ - ٨٣٣م).

وقد أعيد تأليف هذا الكتاب من جديد على يد محمد بن موسى الخوارزمى وقد استعان عند وضعه بالجداول المختلفة التى كانت متداولة فى العالم الإسلامى، وقد قدر الفلكيون الذين استخدموا طريقة كتاب «سند هند» هذا الكتاب حق قدره ونشروه فى أوسع الآفاق.

أما الكتاب الذى أحضره العالم الهندى إلى بغداد وأثار به إعجاب الخليفة، فهو «براهما جوبتاز سيدهنتا»، وقد نقل إلى العربية تحت اسم «سند هند» وانصرف العلماء إلى دراسته بنشاط وهمة، كما لقى رواجًا عظيمًا بين القراء، وأوحى بقيام دراسات فلكية مستقلة مبتكرة شجعها الخلفاء وناصروها.

وبفضل هذا الكتاب تعرف العرب إلى الأعداد الهندية. ففى عام ٧٠٦م تجد الخليفة الوليد الأول. وقد امتد سلطان العرب فى عصره حتى بلغ أسبانيا يصدر أمرًا بتحريم اليونانية فى الدواوين وبخاصة فى المالية، وقرر استخدام العربية مستثنيًا الأعداد فقط لعدم وجود ما يفضلها ويحل محلها إذ كان العرب قد رجوا وقتذاك على استخدام الأبجدية اليونانية للتعبير عن الأعداد. والذى حدث أن الأعداد الهندية أخذت فى ذلك الوقت فى الظهور فشقت طريقها إلى المجالات العلمية والحكومية والاقتصادية.

ولم يكن استبدال نظام بآخر من الأمور السهلة الميسرة. فإدراك قيم الخانات والصفر فى الحساب من الأمور الهامة التى تتطلب كثيراً من الجهد والعناية وبخاصة إذا كان النظام الجديد قد خلقته عقلية أجنبية لها تفكيرها الرياضى الخاص. ولكى ندرك مدى العناء الذى قاسته أوربا مثلا يكفى أن نرجع إلى تاريخ دخول هذه الأعداد أوربا.

فى الشرق العربى نجد عالمًا من خيرة العلماء يتولى تبسيط هذا الحساب الجديد إلى قراء العربية وبخاصة موظفى المصارف والتجار والمساحين، وهذا العالم هو

الخوارزمى الذى تناول كتاب «سند هند» وصاغه صياغة جديدة مبسطة جعلته فى متناول القارئ، كما اهتم بمسألة الميراث فى القرآن الكريم وعالجها علاجًا سهلا مفهومًا، كما ضرب كثيرا من الأمثلة والقواعد شارحًا المواريث وعتق الرقيق.

ولا شك فى أن الخوارزمى من أشهر العلماء الذين عرفهم العالم الإسلامى فى تلك الفترة من الزمن وقد وقع عليه اختيار نصير العلم والعلماء الخليفة المأمون فقربه إليه وحنا عليه فوضع له كتبًا كثيرة فى الجغرافيا والفلك، وقد ترجمها إلى اللاتينية بعد مضى ثلاثة قرون على تأليفها الإنجليزى «أتيلهرت فون بات» فيسر بترجمته هذه لعلماء أوربا الاطلاع عليها والاستفادة منها. لكن المؤلفات التى خلدت ذكرى الخوارزمى كتاباه فى الرياضيات أحدهما وهو «الجبر والمقابلة» ويعالج المسائل المتصلة بحياتنا اليومية. وقد ترجم فى العصور الوسطى إلى اللاتينية إلا أن المترجم اختصر اسمه العربى واكتفى بلفظ «الجبر»، وما زالت هذه الترجمةمعروفة حتى اليوم باسم «الجبر».

أما الكتاب الثانى الذى يخلد ذكرى الخوارزمى فهو كتاب صغير فى الحساب الهندى وهو يشرح فيه الأعداد والحساب من جمع وطرح وضرب وقسمة، وكذلك الكسور والتنصيف والتضعيف.

وقد وجد هذا الكتاب طريقه إلى أسبانيا حيث ترجم فى أوائل القرن الثانى عشر الميلادى إلى اللاتينيية، وفى نفس القرن ظهرت الطبعة الأولى للترجمة اللاتينية لهذا الكتاب فى ألمانيا، وأقدم مخطوطة توجد فى مكتبة فينا وهى ترجع إلى عام ١١٤٣، كما توجد نسخة أخرى فى دير «سالم» محفوظة تحت اسم «ليبر الجوريزمى» أى كتاب الخوارزمى، وهو اليوم فى «هيدلبرج».

ثم نجد لفظ «الجوريتمى» يصبح علمًا على رجل يسمى «الجوريسموس»، كما ازدادت الدعوة إلى استخدام الأعداد الهندية والحساب الهندى، وقد تفنن القوم فى الدعوة إلى هذا حتى صاغوا فى ذلك شعراً لاتينيًا، فقد وصلتنا قصيدة تعرف باسم «كرمن ده الجوريسمو» أى قصيدة اللوغاريتم، وهى للمؤلف «ألكسندر ده فيلا داى» وهو من أبناء القرن الثالث عشر الميلادى.

إن الخوارزمى لم يتكلم فقط ، فاسم هذا العالم العربى الذى علم أوربا الأعداد الجديدة وطريقة الحساب أصبح علمًا على الطريقة الحسابية الجديدة «تكرار الخمسة الأعداد» ، وعلى العلم المعروف اليوم باسم «اللوغريتمات» . وقد وجد لهذا العلم الأنصار الذين كافحوا من أجل استخدام طريقته فى الحساب فى أسبانيا وألمانيا وإنجلترا وفرنسا وتغلبوا على خصومهم الذين كانوا يناصرون الطريقة القديمة حتى اشتهروا باسم «الأبجديين» (الباسيتين) ، كما عرف أنصار الخوارزمى الذين بشروا بطريقته الحسابية واستخدام نظام الخانات والصفر باسم «اللوجريتميين» .

لكن الشىء الذى يؤسف له أن التاريخ سريع النسيان ، ففى القرن الثالث عشر تبين فى القصيدة اللاتينية «كارمن ده الجوريسمو» أن أصل ومدلول كلمة «الجوريسموس» قد ضاع ، وليس هذا فقط بل حتى أولئك الذين يعنون بالبحث عن أصول المفردات ومدلولاتها وبخاصة تلك التى تتصل اتصالا وثيقًا بالحضارة الإنسانية يتجاهلون العرب ودورهم الخطير فى الحضارة الإنسانية ، لذلك لا يهتمون بالرجوع إلى العربية إذا ما أرادوا معرفة أصل الكلمة ومعناها . فمن الأوربيين من ذهب إلى أن لفظ «الجوريسموس» يتركب من كلمة «اليوس» أى «أجنبى» أو «دخيل» ولفظ «جوروس» أى «إدراك» أو «معرفة» اعتقادًا بأن هذه الكلمة تشير إلى أنها ملاحظة أجنبية دخيلة . وآخر يصر على الاعتقاد بأن فى الكلمة لفظ «أرجيس» وهو لفظ يونانى ولفظ «موس» أى عادة ؛ فاللفظ يدل على عادة يونانية . ونجد ثالثًا تردى فى الخطأ أيضًا فقال إن الكلمة مشتقة من «أريس» أى «قوة» و«ريتموس» أى «عدد» . وجاء رابع بفكرة أخرى تقول بأن فى لفظ «الجوريسموس» نجد الكلمة اليونانية «الجوس» ومعناها الرمل الأبيض وكلمة «ريتموس» أى عدد فكلمة «الجوريتموس» معناها الحساب على لوح مغطى برمل أبيض ، كما جرت العادة قديمًا . ونجد خامسًا يفسر هذه الكلمة التى كثر حولها الجدل بأنها من «الجوس» أى «فن» و«رادوس» أعنى «عددًا» فمدلول الكلمة «فن العدد» . «أما القصيدة «كارمن ده الجو ريسموس» ، فقد قالت برأى آخر وهو أن خالق هذا الفن هو الملك «الجوروس» من الهند ، ونسبه آخرون إلى ملك مسيحى خرافى يدعى «الجور» وكان ملكًا على كستيليا . ورأى آخر يدعى أنه فيلسوف . وفى رحلة طويلة حول

هذا اللفظ ومدلوله ظهر أخيراً رأى جديد أقرب من كل ما سبق إلى الحقيقة، فقد اعتمد صاحب هذه الفكرة الجديدة على ما ورد مرة فى كتاب منسوب إلى بطليموس وهو مكون من ثلاثة عشر جزءًا، وقد نقل إلى العربية مع تعريف اسمه تعريفًا عربيًا فأطلق على المترجم لفظ «الماجست» وهذه تسمية مركبة» تركيبًا مزجيًا، وقياسًا على هذا لماذا لا يكون لفظ «الجوريسموس» أيضًا من العربية «أل» والكلمة اليونانية «أريسموس» أى العدد؟ أما الحرب «ج» فهو مقحم على الكلمة ولا يستحق التفكير. ففى الترجمة من اليونانية إلى العربية أو من العربية إلى اللاتينية كثيراً ما يتعرض المترجم لمثل هذه الأخطاء وتلك الاحتمالات. وظل الحال كذلك حتى جاء القرن التاسع عشر واهتدى الفرنسى «ريناند» عام ١٨٤٥ إلى وجود اسم الخوارزمى فى لفظ «الجوريسموس».

ومن حسن الحظ أن دليلا قويًا يقوم على أن الأعداد العربية وجدت طريقها إلى أوربا عن طريق كتاب الخوارزمى الأول الذى عالج فيه الأعداد الجديدة التى أولاها العرب كل اهتمامهم، وشرعوا فى كتابتها كعادتهم فى لغتهم من اليمين إلى الشمال مبتدئين بالآحاد فالعشرات، كما نتبين هذه الظاهرة من كتاب الخوارزمى وحيث يبسط لنا الصفر واستخدامه فى الجمع والطرح، فقد ورد:

$$\begin{array}{r} ٣٨ \\ - ١٨ \\ \hline ٢٠ \end{array}$$

فإذا كان الباقى لا شىء فيقرر الخوارزمى كما جاء فى الترجمة اللاتينية: وجوب وضع دارة حتى لا تظل الخانة خالية، ومكان الدارة هو هذه الخانة؛ وبذلك يتجنب الوقوع فى الخطأ واعتبار خانة العشرات كما لو أنها خانة آحاد ولا يتأثر الإنسان بخلو الخانة، ويعتبر العدد (٢) أنه فى الآحاد مع ملاحظة أن كتابة العدد تبدأ من اليمين إلى اليسار: ومن العبارة الأخيرة يفهم أن الصفر يوضع على يمين العدد ووضعه على يساره (٠٢) لا يغير قيمته.

وبالاطلاع على المصادر الأخرى يتبين لنا أن مترجمى المراجع العربية قد راعوا الحرفية عند نقلها إلى اللاتينية، كما اقتبسوا مع هذه الترجمة الطريقة العربية فى الكتابة، أعنى من اليمين إلى اليسار؛ فالأعداد العربية قد نقلوها مكتوبة على الطريقة العربية.

أما الخوارزمى فلم يكن أول من عرف أوربا بالأعداد العربية فقد سبقه بنحو قرن ونصف قرن، أعنى فى القرن العاشر الميلادى أوربى نقلها عن العرب إلى أوربا وحاول جهده التوفيق فى كسب أنصار لها فلم يوفق. وقد نشأ هذا الأوربى فى أسرة متواضعة، ومن ثم أخذ يكد ويتعب حتى أصبح محور الحركة العقلية فى بيئته فاكتسب صداقة ثلاثة من قياصرة ألمانيا كما أن المسيحية اختارته بابا.

وقبل ظهور هذا العالم لم تكن لأوربا دراية ما بالعلوم الرياضية وحتى اليونانية الهللينية قد ذبلت وأصبحت فى خبر كان، والسر فى هذه النكسة التى أصابت العلوم اليونانية الهللينية فى أوربا ظهور المسيحية وموقف رجال الكنيسة منها، فقد شك أولئك اللاهوتيون فى كل ما هو وثنى وحاربوه، ولم ينجح فى الوصول إلى الأديرة إلا علم الحساب لضعف صلته بالعلوم اليونانية. وقد كتب علم الحساب العالم «بوتيوس» أحد الرومانيين المتأخرين، وكان موضع ثقة الملك «ثيوديريش»، ثم اتهم بالخيانة فأعدم ومن ثم جاءت العصور الوسطى فأعلنته قديسًا. وقد بلغت ندرة الكتب التى وضعها بعض المؤلفين الرومانيين حدًّ أن الرهبان فى الأديرة كانوا يقيدونها بسلاسل حتى لا تفقد. وكان جل اهتمام الأديرة بالتدريس ينصرف إلى الحساب الابتدائى بواسطة الطريقة الرومانية القديمة التى كانت مستخدمة قبل معرفة الأعداد التسعة والإشارة الدالة على الصفر، وكانت هذه الطريقة الرومانية المعروفة باسم «أباكوس» عبارة عن إطار تمتد فيه أسلاك تجرى فيها كرات تشبه هذه الطريقة المتبعة إلى اليوم لتعليم المبتدئين، كما درس الرهبان أيضًا الألغاز العددية الفيثاغورية واهتموا بتحديد مواعيد عيد الفصح واتجاه فريق مغنى الكنيسة تجاه الشرق. أما أمثال: «إيزيدور» و«بيدا» و«ألكوين» و«هرابانوس موروس» و«فالافريد سترابو» فلم يخطوا بالعلوم خطوة تذكر.

وإذا كان الحال كما صورنا فهل من المستغرب أن تتخلف أوربا وتعجز عن إشباع الرغبة العلمية لأبنائها؟ لقد ظهر فيها نفر تواق إلى التحصيل والمعرفة أمثال «جربرت فون أوريلاك» الذى كان حريصًا على طلب العلم أنى وجد، كما شغف بالاتصال بالعلماء مهما اختلفت عقائدهم وأوطانهم راغبًا فى الاستفادة والإفادة، لذلك التف حوله الطلاب فحرص على تشويقهم إلى الرياضيات فنجح فى خلق بيئة علمية أخلصت للعلم والنسخ والترجمة، فكان كالربيع الذى غمر الأرض بعد شتاء طويل.

البابا يمارس الحساب العربى

وحدث عام ١٩٤٥م أن عثر رهبان دير فى «أوفرنى» أمام باب الدير على طفل حديث الولادة ملفوف فى قطعة من القماش ولا يعرف أحد والديه؛ فأخذه الرهبان وتولوه بعنايتهم وأسموه «جربرت» فنشأ تحت رعاية الدير حتى كبر وترعرع فى الدير المسمى «أوريلاك». وحدث لما بلغ العشرين أن زار الدير المارك جراف «بوريل» البرشلونى فلفت نظره ذكاء جربرت، وصرح رئيس الدير له بمرافقة الجراف إلى بلده الواقع على الجانب الآخر من جبال البرنات.

والجدير بالذكر أن هذا المارك جراف الأسبانى كان كغيره من أمراء الأسبان قد غامر أكثر من مرة فى حرب ضد أمراء العرب وخرج منها جميعها مهزومًا ومدحوراً، وانتهى أمره كما انتهى أمر سائر الأمراء المسيحيين الذين سلكوا مسلكه أمثال أمراء: «كستيليا» و«ليونز» و«نافاراس»، واضطر الجراف كما اضطر أولئك إلى إرسال رسل إلى أمراء المسلمين فى قرطبة طالبًا الصلح.

وشارك الأمراء المسيحيين سوء العاقبة الأسقف «هتو» معلم «جربرت»؛ فقد أصابه ما أصاب غيره من ويلات الحروب فاضطر أن يخنع ذليلا حقيراً أمام «الحكم» الثانى واضطر نيابة عن سيده أن يرجو الخليفة هدم جميع الحصون والقلاع القائمة على الحدود الأندلسية، وبهر «هتو» ما شاهده من أبهة وعظمة القصر الملكى الذى يكاد يشبه قصور القصص؛ لذلك طالما ألح «جربرت» على «هتو» أن يقص عليه من أخبار المسلمين وحياة هذا الأمير المسلم الذى لم يكن عالمًا فحسب بل كان أيضًا محاربًا جباراً ومؤرخًا عظيمًا. ولم يبخل هذا العالم الكهنوتى على «جربرت»

بمعلوماته التى جمعها عن الحياة الإسلامية والعلماء المسلمين والشعراء وغيرهم الذين كانوا كالسوار حول معصم الحكم، كما حدثه أيضًا عن أعيان المسيحيين الذين كانوا يقطنون قرطبة، هذه المدينة العظيمة وكيف أن المسيحيين هناك كانوا يتمتعون بكيانهم التشريعى، فلهم رئيسهم الدينى وقاضى القضاة، وكانوا جميعهم يتزيون ويتكلمون مثل العرب ويتمتعون بكل الحقوق التى يمارسها العربى كما فتحت أمامهم دور العلم فاغترفوا منها ما شاءوا من رياضيات وطبيعيات، وكان حظهم من هذه الثقافة لا يقل عن حظ أساتذة الجامعات الإسلامية.

وهكذا نجد «جربرت» يقبل على الأسقف «هتو» ويروى ظمأه العلمى مما اغترفه هذا الأسقف من ينابيع المعرفة العربية الإسلامية فحصل على يديه الكثير، وبخاصة الرياضيات والفلك ومعلومات أرى لا يعرفها أحد فى بلده، أعنى الأعداد العربية.

وفى عام ٩٧١م رافق «جلبرت» المارك جراف الأسقف إلى روما حيث تمت هناك المقابلة التى تعرف فيها على أسرة القيصر الألمانى «أوتو» العظيم وحرمه القيصرة «أدلهيد» وابنها وكذلك الحفيد، فاتخذ أوتو الثالث من هذا المعلم العجيب أستاذًا له ومستشاره الخاص فى القصر القيصرى كما جعله كبير أساقفة «رافينا». وفى عام ٩٩٩م عينه تحت اسم «سيلفستر» الثانى خلفًا لبطرس فكان هذا الرقى المفاجئ معجزة العصر ولغزًا للأحداث التى وقعت وقت ذاك.

فشخصية الرجل ومعرفته أثارت إعجاب معاصريه، فقد استعان بالعلوم الإسلامية الشيطانية «كذا» للتدخل فى علم الله ومخلوقاته، لذلك بدا هذا العالم أمام هؤلاء القوم سرًا غامضًا وساحرًا كبيرًا، فقد بلغ ما بلغ من علوم ومعرفة عن طريق العرب فقط ومن سوى العرب كان يهيمن على هذه العلوم وتلك المعارف غير المسيحية؟ فقد كان «جربرت» يسترق الزمن ليهرب من الدير خفية إلى أسبانيا - هكذا تحدثنا القصة - راغبًا فى دراسة الفلك وغيره من العلوم على يد العلماء المسلمين. فهناك تعلم السحر وإحضار الجان الأسود من جهنم وغيرها وكذلك سائر الكائنات الضارة والنافعة، وفى أسبانيا أيضًا حصل عن طريق حيلة من الحيل من ساحر عجوز على كتاب فى السحر كان الشيخ يحافظ عليه ويعنى به كثيرًا، فما

كان من «جربرت» إلا أن وهب نفسه للشيطان حتى لا يستطيع الساحر العجوز أن يصيبه بأذى انتقامًا منه، واعتقد «جربرت» بحصوله على هذا الكتاب أنه ربح شيئًا كبيرًا من أعداء المسيحية.

و«جربرت» هو أول أوربى استخدم الإشارات التسع التى تعلمها على الحدود الإسبانية. وفيما يتعلق بطريقة الحساب اليونانية والرومانية وهى الطريقة الابتدائية المعروفة باسم «أباكوس» والتى هى عبارة عن لوح خاص للحساب فقد ترك «جربرت» القوم وشأنهم يفعلون ما يشاءون. وإطار الحساب هذا كان مقسمًا بخطوط عمودية تقسم الإطار إلى خانات للآحادث والعشرات والمئات وهلمَّ جرا. وفى هذه الخانات كانت توجد علامات للحساب من الحجر والزجاج أو المعدن حسب عدد الآحاد والعشرات والمئات وعن طريقها يستطيع الإنسان الجمع والطرح، والشخص الماهر فى الجمع يستطيع عن طريقها الضرب أيضًا، وذلك أنه عن طريق تكرار عمليات الجمع يصل إلى العدد النهائى. لكن الشخص الذى كان يستصعب هذه الطريقة فى استطاعته أن يقرأ واحدًا وواحدًا وواحدًا فى واحد فى الجداول الجاهزة.

لكن ما الداعى إلى كثرة أكوام الأحجار هذه والتى يجب أن تحصى أحجار كل كومة على حدة علاوة على ما فى هذه الطريقة من تعب؟ أما إذا رسم الإنسان فى خانات الحساب الأعداد الجديدة فيكفى أن ينظر إلى خانات الآحاد ليجد (٥)، وفى خانة العشرات (٦) فيقرأ فى يسر (٦٥).

وطلب «جربرت» إلى أحد صانعى التروس أن يصنع له لوح حساب من الجلد وكلفه، كما جرت العادة. أن يعبر فى الخانات الدالة على الآحاد والعشرات والمئات على الأعداد الراسية بالإشارات الرومانية الدالة على (واحد) و(عشرة) و(مائة) أعنى (I و × وC). أما الإشارات الدالة على الألف فقد طلب إليه أن ينحتها من القرن ورسم عليها إشارات جميلة جدًا وجديدة لم يرها أحد من قبل.

وكما أن هذه الإشارات كانت عجيبة فى أشكالها كذلك كانت فى أسمائها حتى إن «جربرت» نفسه لم يذكرها.

ومن حسن الحظ أن أسماء هذه الإشارات جاءتنا فى مخطوطة متأخرة ترجع إلى القرن الثانى عشر «رودولف فون لاون» وهى كالآتى :

١ = (ايجين) و٢ = (أندرس) و٣ = (أورميس) و٤ = (أربس) و٥ = (كويماس) و٦ = (كلكتيس) و٧ = (زينيس) و٨ = (تمنياس) و٩ = (زيلنتيس).

ويلاحظ أن اللفظ الدال على العدد (٤) هو العربى (أربعة)، كما أن (٥) هى (خمسة)، وكذلك (سبعة) و(ثمانية).

ومجرد النظر إلى هذه الألفاظ العجيبة فعلا يطلعنا على مدى التحريف الذى طرأ على أسمائها العربية، فقد شوهت حذفًا وتغييراً حتى أصبح الاهتداء إلى أصولها من الأمور العسيرة، وزاد «رودولف» المسألة تعقيداً فنسب أصولها إلى أنها انحدرت عن الكلدانية مما سبب للعلماء المتأخرين كثيراً من الاضطراب. وظل الأمر كذلك حتى أدرك نفر من العلماء أن كثيراً من المواد التى ترجع إلى بلاد العرب البعيدة قد نسبها القوم خطأ إلى الكلدانيين والألفاظ الدالة عليها كلدانية.

ويذهب «رودولف» بعيداً وينسب إلى الكلدانيين خطأ اختراعهم للطريقة الابتدائية للحساب والمعروف باسم «أباكوس».

ولم يقف الأثر العربى عند الإشارات الدالة على الحساب الهندى بل أعطى أوربا أيضًا الطريقة العربية لكتابتها، أعنى من اليمين إلى اليسار شأن العرب فى كتابتها شأنهم فى الكتابة العربية. ويذهب «رودولف» بعيداً فيذكر عند الحديث عن جدول حسابه الخطأ الذى تردى فيه المخترعون إذ هم يكتبون من اليمين إلى اليسار، وأنهم لهذا السبب كثيراً ما وقعوا فى أخطاء كثيرة.

وهناك تلميذ لرودولف يدعى «برنليوس» وقد نشر مخطوطة أستاذه الخاصة بالحساب وجدوله، كما ألف كتابًا حول الطريقة البدائية «أباكوس»، وهو يشرح كيف أن الإشارات التسع الجديدة للأعداد لم تنتشر خارج محيط العلماء ولم تجد طريقها إلى الشعب. فالإنسان لا يستطيع استخدامها لا فى الكتابة ولا فى الحساب. وقد نسخ «برنليوس» الأعداد العربية الموضوعة على الخانات الحسابية

فوق «أباكوس» إلا أنه فى الأمثلة الحسابية التى ذكرها فى كتابه وجد من الضرورى استخدام الأعداد الرومانية؛ وعلة هذا أن «جربرت» لم يعرف «الصفر». ففى جدول الحساب عند كتابة العدد (١٠٠٢) تظل خانات العشرات والمئات خالية وعندما تنقصها أحجار الحساب لا يقع الإنسان فى الخطأ حسب الطريقة الرومانية ويقرأها (١٠٠٢) لكن ترك خانات العشرات والمئات بدون صفر يجعل كتابته مستحيلة، وبدون معرفة الصفر ما كان فى استطاعة «جربرت» وتلاميذه فهم الطريقة الجديدة لكتابة الحساب، وكانت هذه هى الصعوبة الأولى التى اعترضته ووقفت حجرًا فى طريقه وفى تطور هذه الكتابة واستخدامها. فما أشبه هذه التمثيلية القصيرة وهى على مسرح الحساب الرومانى بفرقة أجنبية تفرض عليها تمثيلية بعينها أجنبية عليها فهى لابد فاشلة فى أدائها.

والشىء الجدير بالذكر أن «جربرت» والذين تخرجوا عليه أخذوا يقومون بدعاية قوية للتفكير الرياضى محاولين نشر حساب العمد فوق الأباكوس الرومانى، لذلك عرفوا باسم «أباكوسين». أما الأعداد الأجنبية التى حاول «جربرت» نشرها فلم تتعد دائرة العلماء فقط، لذلك ظلت سيادة الأعداد الرومانية قائمة، وبعد قرن من ذلك التاريخ نشبت معركة بين الأباكوسين أى العموديين والخوارزميين الذين كانوا فى تلك الفترة قد تدربوا على طريقة الحساب الجديدة وهى (٢ فى ٥)، وقد انتهت هذه المعركة بفشل العموديين.

لكن كيف فات «جربرت» عند دراسته على الحدود الأسبانية إدراك الإشارة العددية العاشرة أعنى «صفر»؟

والواقع أن الصفر لم يكن فى عصره معروفًا فى غرب العالم الإسلامى فالأندلسيون كانوا يكتبون أعدادًا مركبة من أكثر من أحاد، وذلك بوضع نقطة أو أكثر على العدد الدال على الآحاد أو العشرات أو المئات وهلمَّ جرًا، وبهذه الطريقة فقط كانوا يتغلبون على الصفر، وعندما تعلموا عن العرب الشرقيين طريقة الخانات أضافوا إليها الصفر، أعنى أضافوه إلى طريقتهم القديمة التى كانوا يستخدمونها.

أما كتابتهم الصفرية فإننا نعلم أن الإشارات العددية التى أخذها «جربرت» عن

العرب الغربيين، فقد كانت أقدم من الإشارة العاشرة التى جاء بها الخوارزمى وتختلف جزئيًا من ناحية الشكل عن تلك التى كانت مستعملة فى شرق العالم الإسلامى وقبل مجىء الفلكى الهندى «كنكاه» إلى بغداد حيث أحضر الأعداد الهندية العشرة كانت الإشارات التسع والتى كانت تعرف باسم أعداد جوبار، قد جاء بها غالبًا تجار من الهند إلى الإسكندرية ومنها انتقلت إلى غرب البحر الأبيض المتوسط.

والآن نتساءل: متى حدث هذا، ولماذا تنقص هذه الإشارات العددية تلك الإشارة الدالة على الصفر؟ هل جاء بها العرب إلى أسبانيا وبصورتها الأصلية، هذه الصورة التى عرفها بها «سفيروس سابوكيت»؟ أو أن الصفر لم يدرك قيمته ووظيفته أولئك الأجانب الذين أخذوا الإشارات العددية، لذلك ضاعت تلك الإشارة الدالة على الصفر وضاع معها مدلولها؟ إن سر عدم وجود الصفر ما زال إلى اليوم غامضًا.

واختلاف هذه الإشارات العددية لم يكن مقصوراً على العالم العربى فقط، فالهند وطن هذه الإشارات لم توحدها، فهناك خلاف فى أشكال الحروف الكتابية كما نجد فروقًا بين الإشارات الدالة على الأعداد حسب الزمان والمكان، وهذه الحقيقة نعرفها عن الرياضى العربى البيرونى (٩٧٣ - ١٠٤٨م) وقد كان معاصراً لـ«جربرت». والبيرونى كما نعلم من تاريخ حياته كان هاويًا الأسفار وخاصة إلى الهند؛ لذلك ألمَّ بلغاتها وعلومها، وهو يذكر أن العرب أخذوا عن الهند الأعداد التى توافقهم فقط غير مكترثين بأشكالها طالما يدرك الإنسان القيمة الذاتية للإشارة العددية.

ويذكر الخوارزمى أيضًا بهذه المناسبة أن العرب كانوا يستخدمون نوعين من الإشارات العددية الهندية فالإشارات الدالة على الأعداد (٥) و(٦) و(٧) و(٨) تختلف فى كتابتها عن أخرى، ثم يضيف قائلا: ولا توجد فيها صعوبات.

وحتى يومنا هذا تجد كتابة الأعداد فى شرق العالم العربى تختلف عنها فى سائر الأقطار العربية الأخرى. أما الطريقة المتبعة فى غرب العالم العربى فقد اندثرت بعد أن قدمت لأوربا النماذج المعروفة التى تستخدمها اليوم فى: الأعداد العربية.

و«جربرت» صاحب فضل عظيم على الأوربيين فهو أول من هداهم إلى الأعداد

العربية ولو أن شهرته أخذت تتوارى تدريجيًا مدة تبلغ نحو ثمانية قرون؛ وذلك بسبب كتاب «الهندسة المنسوب إلى بوتيوس» وكان مثار إشكالات عديدة حتى إنه لو صدر اليوم لكان موضوع قضية أمام المحاكم، ومن حسن الحظ أن «ألكسندر فون هومبولدت» هو العالم الذى يرجع إليه الفضل فى تقدير هذا الكتاب من الناحية العلمية. وينسب للمؤلف «بوتيوس» كتاب فى الحساب مقتبس من كتاب «نيكوماخوس»، وقد كان كتاب «بوتيوس» فى الحساب هو السبب فى الغض من منزلة «جربرت» وفضله العلمى فى إدخال الإشارات التسع الدالة على الأعداد الهندية بينما يعتقد العلماء أن «بوتيوس» فى كتابه قد استخدم نفس الإشارات؛ مما يفيد أن أوربا عرفت هذه الإشارات إبان حياة «بوتيوس»، أعنى فى القرن الخامس الميلادى إبان حكم «ثيودريش» لإيطاليا، والنتيجة الثانية لانتشار هذا الرأى الخاطئ أن أوربا المسيحية عرفت الأعداد الهندية قبل العرب بزمن بعيد ثم حدث أن نسيتها أوربا حتى أعادها العرب إلى الأوربيين فى القرن الحادى عشر. والواقع أن هذا الرأى الثورى القائل بأن «بوتيوس» كان محيطًا بالأعداد الهندية قد فسرها «هومبولدت» فى «كوزموس جـ٢ ص ٢٦٣» تفسيرًا آخر وهو احتمال ظهور نظام الأعداد الهندية فى موضعين فى العالم، وفى كل موضع مستقل عن الآخر، أعنى ظهر فى الشرق وفى الغرب. لكن جميع هذه الاحتمالات قد ذهبت أدراج الرياح فالكتاب المعروف باسم هندسة بوتيوس ثبت أنه مزور وليس صحيحًا، إذ إنه يرجع فى الواقع إلى القرن الحادى عشر الميلادى وليس إلى الخامس وكان يظهر كما لو أنه من تأليف عالم رومانى، وأن المؤلف أغفل ذكر مراجعه، وأن هذه المراجع ترجع إلى عصور متفاوتة فى القدم، ومن بينها مؤلفات «جربرت»، وعنه أخذ قواعد القسمة ومعلومات أخرى عن الأعداد العربية.

وتتصل معرفة العرب بالأعداد وكتابتها اتصالا وثيقًا بثلاثة أسماء: «سيفيروس سابوخت» و«براهما جوبتا» والخوارزمى وقد ارتبطت بهذه الأسماء الثلاثة من أوربا، وإنها لظاهرة تاريخية عجيبة حقًا أن نلحظ أن الأعداد الهندية فى طريقها إلى غزو العالم اعتمدت على ثلاث محطات فى العالم العربى، ونفس الظاهرة وقعت أيضًا فى أوربا فحتى فى هذه الظاهرة قلدت أوربا العرب.

فأول مدرسة أوروبية هى تلك التى تتمثل فى «جربرت» معلم مدرسة «ريمس» والأستاذ البابوى للرياضة، فهو من هذه الناحية يشبه تمامًا «سيفيروس سابوخت» وهو فيما يعتقد أول من نقل إلى العرب الإشارات الحسابية الهندية التسع، إذ كان إلى جانب وظيفته اللاهوتية رئيسًا لمدرسة الدير الواقعة على الفرات. ويتفق «جربرت» مع «سفيروس» فى أن كلا منهما كان يجهل الإشارة الدالة على الصفر.

ويتفق الأوربيون مع العرب فى الاستعانة بكتاب فى الحساب يعنى بتعليم الأعداد الجديدة وشرحها؛ ففى عام ٧٧٦م أى بعد «سيفيروس» بنحو ١١٤ سنة نجد فى الشرق العربى كتاب «سيد هنتا» للمؤلف الهندى «براهما جوبتا»، وقد ترجم هذا الكتاب إلى العربية مشتملا على الإشارات العشر كاملة، وكان يسير على نهج العلماء العرب حتى حكم الخليفة المأمون. وإذا تركنا العرب إلى أوربا وجدنا بعد وفاة «جربرت» بنحو قرن تراجم لاتينية لكتاب الخوارزمى فى الحساب، وقد انتقل هذا الكتاب إلى الغرب عن طريق إسبانيا فقامت فى أوربا مدرسة علمية جديدة تهتم بدراسة علم الحساب الجديد بأعداده التسعة والصفر، وتعرف هذه المدرسة باسم مدرسة الخوارزميين.

حقًا إن هذا العلم الجديد شق طريقه إلى العالم العربى وتخطى حدود الفلكيين والرياضيين، لكن كانت معرفته محصورة فى الأوساط العلمية، وظل كذلك حتى ظهر العالم الفذ الذى نجح فى نقله إلى الشعب فى أسلوب سهل مبسط وفى لغة تساير الحياة اليومية وحاجات الشعب الاقتصادية، وهذا العالم هو الخوارزمى الذى كان يعيش فى عصر المأمون، وقد كان لأوربا «براهما جوبتا» العرب.

كذلك الحال فى أوربا فإن فن كتابة الأعداد قد جاءها من وراء جدران الدير، ومن ثم انتشر بين الأهالى، وقد جاءتنا وثيقة مكتوبة تؤيد هذا القول وهى عبارة عن قصيدة شعرية فى اللغة الألمانية القديمة لمؤلفها «توماسين فون زركلير» وهو رئيس كاتدرائية «إكويليا» الواقعة فى «فينتين»، وكان يحب الألمان كثيرًا وقد أعجب بأخلاقهم، فوضع لأمرائهم وفرسانهم كتابًا فلسفيًا أخلاقيًا فى لغة الشعر الألمانية وأهدى كتابه هذا إلى الأمة الألمانية.

وقد شرع «توماسين» فى وضع قصيدته عام ١٢١٥م وكان يبلغ من العمر الثامنة والعشرين، وبعد شهور من تاريخ البدء أتم قصيدته فى أوائل عام ١٢١٦م، وقد بلغت اثنى عشر ألف بيت. وفى نفس العام رسم له أحد أصدقائه عدداً من الصور الملونة التى زين بها مخطوطته، ومن بين تلك الصور واحدة تصور الفنون الحرة السبعة وأخرى تعرض «فيثاجوراس» مع «أريسمتيكا» فى ملابس ترجع إلى العصر الرومانى وهما يشيران بالسبابتين إلى لوح مصغر على شكل سلم. وعلى هذا اللوح نجد الأعداد «١ و٣ و٩ و٢٧» مكررة فى الأعداد العربية وبنفس الطريقة نجد الأعداد الواقعة بينها على صورة «موسيقا» والسنة ١٢١٦م.

ومما لا شك فيه أن الرسام البارع كان كما يتبين لنا من العوامل التى راعاها، ومن بينها الأفكار الدينية التى كانت سائدة فى وسط رجال الدير من غير رجال اللاهوت، وقد استخدم عام ١٢١٦ وتجنب الأعداد العربية مستخدماً أخرى كما لو أنها من اختراعه.

لكن استخدام الإشارات الخمس مرتين لم يكن خاصًا بالعلماء فقط بل ألمَّ به الشعب أيضًا. ثم ظهر الرجل العظيم الذى دعا لاستخدام الأعداد العربية ووفق فى دعوته حتى إنها سادت العالم، وهذا الرجل هو «ليوناردو فون بيزا» الذى لم يتلق علمه فى الأديرة، كما أنه لم يؤلف ما ألفه للرهبان، وهو يعتبر بحق أول رياضى مفكر فى أوربا ومن أشهر رياضييها حتى القرن الثامن عشر فقد كان عالمًا مجتهداً دءوبًا، وقد اكتسب أصول معرفته عن طريق أسفاره ورحلاته ومن مصادرها الأصلية، ومن ثم أخذ ينشرها ويعلمها لمختلف الطبقات لاستخدامها فى حياتهم اليومية.

وهكذا نجد جداول المعرفة تتدفق من إسبانيا إلى أوربا، ومن ثم أخذت تتجمع حتى كونت سيلا جارفًا غمر أوربا مبتدئًا من إيطاليا من مركزها الثقافى، ومن قصر الملك الأشتوفى فريدريش الثانى. لقد وجدت أوربا الخوارزمى الأوربى.

تاجر يعلم أوربا

ولد «ليوناردو» حوالى ١١٨٠م فى «بيزا»، وهى وطن خليط من السكان وقد أسسها الأتروسكيون عند مصب نهر «أرنو»، وتأثرت هذه المدينة فى تاريخها الطويل بالرومان والغوط واللنجو برديين وكذلك الإفرنج. كما أننا نجد راهبًا من رهبان القرن الثانى عشر يرتعد خوفًا من الوثنيين وحوش البحر وهم الأتراك والليبيون والبارثيون والكلدانيون الأقذار، هكذا كان يطيب له تسمية العرب ونعتهم أولئك العرب الذين كانوا يسيرون فى شوارع «بيزا» بوجوههم البغيضة القاسية!!

وقد اشتهرت «بيزا» الواقعة على نهر «أرنو» بالصيد والانتصارات التى أحرزها أبناؤها على عرب سردينيا وتمكنوا من قوة صقلية وثرواتها. ثم نجد «بيزا» تستغل فكرة الحروب الصليبية وتتوسع فى عمليات الشحن فازدهرت الملاحة وأخذت سفنها تشتغل فى نقل التجارة بين الشرق والغرب واستولت على أهم القواعد التجارية الواقعة على الشواطئ، كما شيدت فنادقها على امتداد شاطئ البحر الأبيض المتوسط من استنبول إلى صور فالإسكندرية حتى باجه وكويتا.

والشىء الجدير بالذكر أن رئيس الجالية التجارية من أبناء بيزا فى باجه الواقعة على ساحل الجزائر الممتد على البحر الأبيض المتوسط كان والد «ليوناردو» ولم يصلنا شىء أكثر عن اسم أسرته، وكل الذى جاءنا عنه اسمه الأول ألا وهو «بواكيو» أى «الطيب». أما ابنه «ليوناردو» فقد ألف بعض الرسائل والكتب ومن

أشهرها «كتاب أباكى Liker abaci»، وقد ذكر الابن فى كتابه أنه ابن «بوناكيو». فصاغ منها «ليوناردو» الاسم «ليوناردو فيبوناكى»، وهو الاسم الذى اشتهر فيه فى التاريخ ابن بيزا العظيم.

والذى حدث أن استدعى الوالد ابنه من بيزا إلى باجه وكان الوالد بحكم عمله ككاتب بيزى فى الجمرك على اتصال كبير بتجار الجلود والفراء فى الصحراء وبلاد المغرب، مما اضطره إلى تعلم اللغة العربية والحساب العربى مثله فى ذلك مثل زملائه العرب الذين يعملون فى الجمارك البحرية. فانتهز فرصة حضور ابنه الذى يمارس هذه التجارة ونجح فيها وسلمه إلى يد معلم عربى لتثقيفه وتعليمه الحساب، وأعجب الشاب «ليوناردو» بعلم الحساب هذا الذى يستخدم الأعداد الهندية التى يسرت السبيل أمام المحاسبين فى حل كثير من المشكلات الحسابية.

والآن نتساءل: ما قيمة الأعداد الرومانية، وما هى الفائدة التى قد نحصل عليها من استخدامها؟ يكفى للرد على هذا السؤال أن نقوم بعملية حسابية نشيطة كعمليات الطرح مثلا لنتبين مدى الصعوبة التى سيعانيها المحاسب بخلاف الحال مع الأعداد الهندية والتجارب الحسابية الكثيرة التى قام بها العرب، وقد أدرك «ليوناردو» البون الواسع بين الطريقتين. فاستخدام الحساب العربى ييسر القيام بعمليات الضرب وليس فقط عن طريق الأعداد الصحيحة، بل الكسور أيضًا (من العربية ـ كسر ـ) كما يطلق سيدى عمر (السيد المعلم يعبر عن الصلة بين عددين بهذه الوسيلة). فقد شرح لتلميذه الذى كان غارقًا فى التفكير كيف أن أساتذة المدارس العليا فى بغداد والموصل كانوا يكسرون بين العددين المكتوب أحدهما فوق الآخر عن طريق خط بينهما فالخط مثل الكسر فى الشىء. وقد تعلم «ليوناردو» كذلك حساب الأس (٢٢ = ٢ فى ٢ = ٤ فالاثنان ا س اثنين) وحساب الجذور مثل ٢ هى جذر ٨ أو ٤، وتعلم أيضًا المعادلات والتربيع والتكعيب كما وضعها أبو كامل وعمر الخيام وابن سينا والبيرونى وغيرهم. وهكذا نجد «ليوناردو» يلهو بالأعداد بينما أقرانه ولداته يتسلون باللعب فى الحوارى وعلى أرصفة الموانى وبين دور الصناعة والمخازن.

وقد لازم حب الأعداد والحساب «ليوناردو» حتى صار تاجرًا وأسند إليه والده بعض الأعمال التجارية، وكان لا يخفى شغفه بالحساب حتى فى أسفاره إلى مصر وسوريا واليونان وصقلية وأسبانيا وصور وكورنسه وكويتا وتونس بل حتى فى مكاتب المحاسبة، إذ رأى زملاءه التجار يعدون على الأصابع. وانتهز «ليوناردو» فرصة وجوده فى الشرق العربى وزار دور الكتب فى دمشق والإسكندرية كما تناقش مع علماء القصر فى القاهرة. وعنى بالتجارة كعلم من العلوم فدرس كل شىء يخدمها ويفيدها سواء كانت تلك المعلومات فى المخطوطات أو متداولة بين المتعلمين وبخاصة المتضلعين فى العلوم الرياضية ومقارنتها، ولم تفته المقابلة بين العلوم الرياضية كما عرفها الهنود واليونان والعرب.

وإذا تركنا الشرق إلى الغرب، والعرب إلى اللاتين وجدنا جهلا تامًا بالأعداد الهندية وطرق الحساب العربية حتى أتاح الله لأوربا «ليوناردو» فوضع وهو لم يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره كتابًا باللغة اللاتينية حول الطريقة الحسابية التى تعرف باسم «أباكى»، وقد كان هذا الكتاب سببًا فى شهرة مؤلفه وقد أدهش كثيرين من المعاصرين مثل «موريس كنتور»، إذ قدر الجهد القيم الذى بذله المؤلف فى وضعه؛ مما اضطر «موريس» إلى التعليق عليه بقوله: نعرف عددًا كبيرًا من الرياضيين السابقين والذين ألفوا فى لغات مختلفة، لكن أحدًا منهم لن يجارى «ليوناردو». قليلون أولئك الذين قد نعجب بهم، لكن وضع كتاب مثل هذا فى القرن الثالث عشر ووجود من يقدرونه حق قدره فى القصر القيصرى مما يثير الإعجاب حقًا.

ولا عجب فى أن يستولى هذا الكتاب على لب القيصر الأشتوفى، فقد كان خير الكتب التى ظهرت فى ذلك العصر، وقد أعجب به فريدريش الثانى وهو الضليع فى الرياضيات العربية وعلوم العرب الطبيعية، ولم تكد تظهر الطبعة الثانية من الكتاب عام ١٢٢٨ حتى أهداها المؤلف إلى فيلسوف القصر «ميخائيل سكونوس» الذى كان متضلعًا أيضًا فى العلوم العربية فقويت الصلات بين «ليوناردو» والقيصر، وكثيرًا ما كان يحل ضيفًا عليه وتدور بينه وبين فريدريش الثانى أحاديث علمية كثيرًا ما نالت رضاء القيصر وإعجابه.

وفى عام ١٢٢٠ وهو عام تتويج القيصر الأشتوفى ألف «ليوناردو» استجابة لرغبة فلكى القصر القيصرى «دومينوس هيسبانوس» كتابًا فى الهندسة أثار إعجاب القيصر، الذى كان قد عاد من ألمانيا لنبوغ صاحبه وعبقريته، وقد نظم فيلسوف القصر وهو «ماجستير يوحنا فون بالرمو» استقبالا عظيمًا فى القصر القيصرى فى «بيزا» إعجابًا منه بالكتاب الذى ألفه «ليوناردو». فالفيلسوف يوحنا كان ملمًا ببعض المعلومات الرياضية إلا أنه لا يرتفع إلى مستوى ابن «بيزا». وكان بين علماء القصر عالم عربى اسمه تيودور الأنطاكى، وقد درس فى الموصل على يد العالم العربى الشهير كمال الدين بن يونس أشهر الكتب للرياضيين العرب، كما سمع فى البلاد العربية عن شهرة وعظمة إمبراطور الإفرنج، لذلك رافق أحد رسل القيصر فريدريش الثانى وهو أحد أبناء الشرق وتبعه إلى جنوب إيطاليا. وهناك نجد العلماء مع قيصرهم يتناقشون ويتجادلون، ويتجلى نبوغ هذا الشاب وعبقريته فى قائمة بالأسئلة الرياضية الصعبة أعدها بنفسه.

وكان حضور «ليوناردو» هذا الاجتماع نصرًا عظيمًا له ولنبوغه، إذ أدرك الحاضرون عبقرية ابن تاجر بيزا، وكيف أجاب على المسائل الرياضية التى عرضت ولم يدركها إلا القيصر وتيودور تلميذ ابن يونس، والذى درس كتب الفارابى وابن سينا وإيكليد وكتاب الماجست لبطليموس. وقد أدرك الحضور عبقرية ليوناردو وإحاطته بعلوم اليونان والعرب. وقد سجل ليوناردو هذه المقابلة مع سيده القيصر فى رسالتين رياضيتين تحدث فيهما عن كل ما دار فى هذا الاجتماع. لقد ذكر المسائل التى عرض لها فى المجلس وشرحها كما شرح القواعد التى اعتمد عليها، وبالرغم من هذا فإنه حتى اليوم لم يتوصل إلى حل جميعها، أعنى هذه المسائل التى تعرض لها وأدلى فيها برأيه وهى مسائل تدهش الرياضة الحديثة.

وقد كتب المؤرخ «كنتور» عن الرسالتين ما ترجمته: وبعد أن عرضنا لرسالة ليوناردو اعتقدنا أننا عبرنا بما فيه الكفاية عن إعجابنا بالعالم ليوناردو. أما الآن فإننا نعتذر، إذ إننا لا نجد الكلمات التى تعبر عن تقديرنا العظيم للمؤلف ليوناردو بعد الاطلاع على رسالتيه.

فى حضوركم يا صاحب الجلالة فريدريش أيها الأمير العظيم: هكذا كتب ليوناردو إلى القيصر عند أول زيارة له لقصر القيصر فى بيزا، لقد تحدث معى فيلسوفكم العالم يوحنا فون بالرمو عن الأعداد، وقد أفرد ليوناردو الفصل الأول من كتابه «الباكى» للحديث عن الأعداد التى تعلمها على يد الأستاذ العربى الذى أخذ عنه علم الحساب العربى وطرق استخدامه فى أسفاره التجارية الطويلة والإشارات التسع الدالة على الأعداد عند الهنود وهى:

9 8 7 6 5 4 3 2 1

فهذه الإشارات التسع مضافًا إليها الإشارة (0)، أى «صفر» فى العربية تعبر عن أى عدد من الأعداد.

أما ترتيبها فعجيب جدًا فالصف يبدأ عادة بالعدد (9) وينتهى بالعدد (1) حسب طريقة الكتابة الأوربية. أما العرب فيكتبون من اليمين إلى اليسار وحتى العدد الكامل إذا صاحبه كسر يكتب هكذا (١ -) أى واحدًا ونصفًا، هكذا يذكر ليوناردو كما علمه مدرس الحساب العربى مراعيًا النظام العربى فى الكتابة، وقد اتبع نفس الطريقة مع الأوربيين فعلمهم كتابة الأعداد التسعة الجديدة مع الإشارة (0) والتى تسمى فى العربية «صفرًا».

أما تاريخ الصفر فهام جدًا وهو يستحق الشىء الكثير من الاهتمام. استخدم الهنود هذه الدارة كإشارة للتعبير عن نقص شىء من الأشياء أعنى «لا شىء»، ويعبر عنه فى الهندية «سونيا» أى «فراغ» فلما عرف العرب هذه الإشارة ومدلولها ترجموها بلفظ «صفر» أى «خالى» أو «خلو»، ثم جاء ليوناردو وتتلمذ على العرب فى الحساب فأخذ اللفظ العربى كما هو واستخدمه كما استخدمه العرب وإن كان قد صاغ لفظ «صفر» صياغة لاتينية فأصبح «صفرم Cephirum»، وعرفه بقوله: Cum hoc Signo O quod arabice ccphirum appellatur

ومعناها بالعربى: هذه الدارة (0) تعرف فى العربية بلفظ «صفر».

وإذا انتقلنا إلى إيطاليا وجدنا فى آخر كتاب ليوناردو لفظ «صفرم» يكتب «زفرو

zefero» ثم «زيرو zero»، فقد تعرضت هذه الكلمة لشىء من التغييرات الصوتية التى تعرضت لها كلمات أخرى مثل «ليفرا levrea» التى أصبحت «ليرا lira». أما فى فرنسا فقد تحولت كلمة «صفر» العربية إلى لفظ «شفر chiffre» الذى استخدم أيضًا إلى جانب دلالته العربية للتعبير عن «إشارة سرية»، ثم ذهبت اللغة بعيدا فضاعت من الاسم فعلا هو «شفريرن chiffriceren» فى الألمانية مستخدمًا فى المعنيين، لذلك اضطر القوم إلى استعمال الصيغة الإيطالية «زيرو» كما نجد فى إنجلترا «صيفر cipher» و«زيرو» وفى ألمانيا «تزيفر ziffer».

والواقع أن الدارة كانت أصلا هى الإشارة المعبرة عن الصفر إلا أن انتشار الأمية بين عامة الشعب اضطرهم إلى تعلم أسماء الأعداد التسعة عن طريق السماع فقط؛ ولذلك أصبح لفظ «صفر» لديهم شيئًا غامضًا إن دل على شىء فى مفهومهم فعلى اللاشيئية أو الإشارة الأجنبية. ففى القرن الرابع عشر نجد الإشارات الدالة على الأعداد العشرة تسمى «أصفارًا»، وهذا من باب التعميم وإن احتفظت فرنسا بلفظ «شيفر» وإنجلترا بكلمة «صيفر» واستخدمت الألمانية الكلمة الإيطالية «زيرو» للتعبير عن هذه الدارة المعروفة فى العربية بلفظ «صفر». فهذا التطور فى التسمية أدى إلى شىء كثير من الاضطراب كما تعدت هذه البلبلة التسمية إلى الأعداد ذاتها وأصبح العلماء فى حيرة. وأخيرًا استقر الرأى على استخدام الإشارة العاشرة المعروفة باسم «شيفر» الدالة على الدارة. أما سائر الإشارات الأخرى فقد أطلقوا عليها التسمية «فيجورين Figuren» أى أشكال. لهذا نجد عام ١٣٥٧م عالمًا يذكر فى رسالة وضعها فى هذا: هل يجب على هذا الشعب أن ينساق وراء الأميين ويستخدم لفظ «تزيفرن» للدلالة على الأعداد العشرة التى يجب أن يعبر عنها بلفظ «فيجورين» لا «تزيفرن»؟

إن الإشارة الدالة على الصفر لا تشير بتاتًا إلى عدد ما، ومن هنا أطلق العرب عليها لفظ «صفر». أما العلماء الأوربيون فقد اضطروا رغم أنوفهم إلى مجاراة العامة وعمموا لفظ «تزيفر» على سائر الأعداد الدالة فى الواقع على قيم حسابية وميزوا الإشارة العاشرة على سواها بعبارة «نوللا فيجورا Nulla figura»، ومن ثم اختصرت إلى «نوللا Nulls» وأخيرًا «نل Null».

حـرب الأعـداد

من إيطاليا شقت هذه الأعداد طريقها إلى أوربا ورافقها فى هذه الرحلة مسك الدفاتر الإيطالى الذى كان فى ذلك الوقت المثل الأعلى للتجار فعبرت الأعداد وهذا الفن جبال الألب حيث حملها التجار والمسافرون إلى مختلف البيوتات التجارية، لكن التجار والعملاء لم يقبلوا على الأعداد فى شىء من الرضا واليقين، وذلك لأن الإنسان لا يأمن الغش مع هذه الأعداد فمن السهل مثلا أن يحور الإنسان الدارة الدالة على صفر إلى العدد الدال على (6) أى ستة، كما أنه من السهل إضافة العدد إلى آخر، ومن العسير على الإنسان أن يميز بين الصحيح والمزور ولا سيما أن وسائل الغش متوافرة والطريق إليه سهل معبد. نعم، إن هذه الأعداد مفيدة جداً للتجار، وقد أبيح لهم استخدامها إلا أن احتمال الغش حرم استخدامها فى العقود.

لكن لم يمض زمن طويل حتى رأينا هذه الأعداد تفرض نفسها فى مختلف المناسبات، وأصبحنا نجدها فى الكنائس وغيرها من المبانى العادية، إذ استخدمها القوم فى تاريخ البناء الذى كان مألوفًا لديهم، وقد دون فى أربعة أعداد، ومن ثم حفرت على شواهد القبور وعلى النقود وفى حسابات الدولة وبعد ذلك فى الكتب حيث أخذت تحل محل الأعداد القديمة فى ترقيم الصفحات، وذلك لأن كتابة العدد (٩٩٨) فى هذه الصورة أوجز وأوضح من كتابته بالطريقة الرومانية: DCCCCLXXXXVIII، والجدير بالذكر أن استخدام الأعداد العربية لم تتقبله

أوربا دون مقاومة، فاحتدم النزاع بين أنصار القديم وأنصار الجديد واستمر هذا الجدال قرونًا عديدة.

فالحروف الرومانية كانت هى الأعداد الحكومية الرسمية واستمر الحال كذلك زمنًا طويلا، ولم يقف الأمر عند هذا بل نجد فرق الاحتلال الرومانية والتجار الرومان يعلمون الجرمان استخدامها كما وصلتنا على الآثار وعلى النقود. ثم نجد الأديرة تساهم فى تعميم الأعداد العربية فتنقلها من جديد عبر الألب وتأخذ طريقها إلى الشعب حيث تحل محل الأعداد البسيطة التى اعتادها الشعب إلا أن العامة استخدموا الأعداد العربية مبسطة تبسيط أعدادهم التى اعتادوها، وحيث يتحتم التعبير عن الأعداد كتابة بالكلمات غلبت عادة استخدام الأعداد الرومانية حتى اعتبرت وكأنها ليست أجنبية دخيلة. فكان الجرمانى ينظر إلى الأعداد الرومانية وكأنها ألمانية، كما تعصب لها وقاوم الأعداد العربية.

لقد كان من الصعب على القوم حفظ الإشارات العشر الأجنبية وتعلم رسمها وطرق استخدامها؛ لذلك تفنن بعضهم فى ابتداع وسيلة تعين على استذكارها فصاغوها فى أبيات شعرية وخلطوا بها الأعداد الرومانية وحرصت هذه الأبيات الشعرية على عرض الأعداد الجديدة فى هيئة صور:

الآحاد (1) تعطيك اللسان، والعكازان (2) يشيران إلى الاثنين، وذيل الخنزير (3) يعبر عن الثلاثة، واللحم المحفوظ أربعة (4)، والعدد خمسة (5)، وقرن الوعل ستة (6)، وسبعة (7)، والسلسلة (8) تشير إلى الثمانية، والتسعة (9)، والدارة (0)، زائد اللسان الصغير للدلالة على العدد عشرة، وإذا لم يرسم اللسان فالدارة تعبر عن لا شيء.

لكن أحدًا لم يوجه مجهودًا لحفظها عن ظهر قلب أو كتابتها؛ لذلك لم توفق فى الانتصار على الرومانية، ومما زاد فى صعوبتها أن الذى أراد استخدام الأعداد العربية كان لابد من أن يغير طريقة تفكيره فهو مطالب هنا بمراعاة الخانات وتركيبها IVXLCDM، ولم يكن تحت تصرفهم إلا الآحاد فقط، وهى حسب موقعها أو موضعها قد تصير عشرة أمثالها أو مائة.

فقد جاء فى مخطوطة من مخطوطات العصور الوسطى ما يفهم منه أن كتابة الأعداد الجديدة تتطلب قبل كل شىء معرفة قيمة وموضع الخانة التى يوضع فيها العدد، والفهم الصحيح لقيمة الخانة من أصعب الأمور على الإنسان وبخاصة المبتدئين؛ لذلك تستخدم كتب الحساب التى توضع للشعب مختلف الوسائل لشرح الخانات وتبسيطها، وبالرغم من ذلك فإن قيم هذه الأعداد وخاناتها تختلط فى تفكير الإنسان كما تمتزج الأعداد القديمة مع الجديدة وتضطرب الخانات وتلتبس على الإنسان، وبخاصة فنحن نعلم أن الأعداد الرومانية توضع إلى جوار بعضها بعضا بخلاف الحال فى الأعداد العربية حيث تراعى قيم الخانات. فالإنسان يكتب مثلا العدد ١٤٨٢ هكذا MCCCCG 811 وتاريخ سنة ١٥١٥ يكتب هكذا 15 X5 و١٥٠٤ كالآتى 151111.

وفى مخطوطة ترجع إلى عام ١٢٢٠ نجد المؤلف يشير إلى نظام قيم الخانات، لأنه قد سمع عنه ويحاول إدخاله على النظام الرومانى إلا أن المؤلف عجز عن التخلص من الأعداد الرومانية كلية، لذلك فهو يكتب العدد ٢٨١٤ هكذا II DCCCX IIII.

إن الإنسان ليعجب حقًا بنظام الخانات إلا أن الأعداد الألمانية العادية من الصعب جدًا على الألمانى تركها اللهم إلا أولئك الذين يجرون وراء كل جديد، هذا رأى أبداه كاتب إلى الكنيسة خجلا عندما أراد أن يكتب العدد الدال على ١٥٠٥؛ فقد رسم الصفر الذى لا ينطق كما لم يفهم الإشارة الصغيرة الدالة على المائة Ivcv.

فالإشارة الدالة على الصفر وهى الدارة كانت بالنسبة للقوم مشكلة شاقة لفهم كتاب حساب الخانات فهمًا صحيحًا. ألم يكن الصفر هو الذى يشير إلى لا شىء من ناحية وله من القوة ما يمكنه من التعبير عن العشرات والمئات والآلاف من ناحية أخرى؟! إن الصفر كان لغزًا حقًا!

نعم إن الصفر كان عددًا وفى نفس الوقت ليس عددًا، مثله مثل الدمية التى تحاول أن تكون كائنًا حيًا نسرًا أو حمارًا أو أسدًا، أو القردة ملكة، هكذا سخر فرنسى فى القرن الخامس عشر وقال: أراد الصفر أن يكون عددًا! وذكر مؤلف

ألمانى: أن الصفر عدد خارج الأعداد التسعة ويسمى (نللا) أى دارة أو لا شىء بينما الأعداد الأخرى لها قيمها، والصفر يظل صامتًا هادئًا كنكرة من النكرات بالرغم من ذلك يباشر قوته السحرية ولو أنه لا ينطق بتاتًا.

تنبـــه الأعـــداد تســـعـــة

وجــمــيــعــهــا تنطق بلا صــعــوبة

ثم مــعــهــا تنبــه لما (أقــول)

الـصــــفــــر لا يـنـطـق

دارة وتـشــــبـــــه الـ (٥)

وهــو دائــمًـــــــا هــكــذا

لـو ســبــقــه العـــدد واحـــد

تصــيــر قــيــمــتــه عــشــرة

وبهـــذا العـــدد تســـتطيع أن ترقـم

وجــمــيع الأعــداد تنطق وتســتــخــدم

وكلما تكرر رسم الصفر على يمين عدد ما ارتفعت قيمة العدد عشر مرات حسب قابلية العدد. كذلك نجد المبتدئين فى العصور الوسطى يتعلمون كتابة الأعداد ويكتبونها كما تكتب اللغة العربية. فمثلا عند كتابة العدد (٢٠) يكتبون أولا (٠) ثم (٢) وكذلك الحال مع ٢٣ مثلا فأولا (٣) ثم (٢) لكى نقرأ (ثلاثة وعشرين).

وهذا الصفر الذى لم يكن موجودًا من قبل والذى ظهر بغتة وأخذ يقوم بدور خطير هو شىء غامض حقًا؛ لذلك كان موضع التفكه والسخرية عند الكثيرين، وحتى فى المسائل الخاصة بما وراء الطبيعة فإن دلالته الثنائية مثار للدهشة. ففى الترجمة التى عثر عليها فى دير «سالم» هذه الترجمة اللاتينية لكتاب الخوارزمى فى علم الحساب التى ترجع إلى عام ١٢٠٠ م ذكر المترجم بعض آرائه الخاصة:

«كل عدد يتركب من (١) لكن الواحد يتكون من الصفر»، وهذا الرأى خطأ منطقى وحسابى، ثم يستطرد المترجم ويقول: «ويجب أن نعرف أن شيئًا مقدسًا عظيمًا يكمن وراء الصفر وهذا الشيء لا أول له ولا آخر وهو يعبر عن لفظ «هو»، وكما أن الصفر لا يزيد ولا ينقص كذلك لفظ «هو» لا يقبل زيادة ولا نقصانًا. وكما أن سائر الأعداد قد تبلغ مرتبة العشرات كذلك الحال مع «هو» وليس هذا فقط، بل يبلغ الألوف والحقيقة التى أقررها أن «هو» يخلق كل شيء من العدم وهو يشتمل عليها ويدبرها».

ويلاحظ أن سائر الأعداد تلف وتدور حول الصفر فإذا أراد أن يكتب العدد (٣٠٠) عبر عنه هكذا (CC2) فيتجنب كتابة الصفر الموجود فى خانة العشرات، كذلك نجد «سبستيان باخ» عندما يريد أن يكتب العدد (٣٠٠) يضع العدد ثلاثة الرومانى أعنى (III) قبل الإشارة الدالة على المائة (C) فيكتبه هكذا (IIIC).

وهذه الحيلة التى استخدمت للتخلص من الصفر قديمة معروفة استخدمها الصينيون الذين كانوا يجهلونه.

وهذا الجمع بين كتابة الأعداد حسب رتبها وبأعداد رومانية تجنبًا لاستخدام الدارة المعبرة عن الصفر انتهى إلى نظام عجيب حقًا لكتابة الأعداد. فلتدوين العدد (١٥٠٢) استخدمت الطريقة الآتية (XV, C et: II) حيث اعتمد الكاتب على اللغة التى لا تعرف كلمة تعبر بها عن الصفر؛ لذلك كتب خمس عشرة مائة واثنتين.

لكن الأمر لم يقف عند هذا، فنحن نجد آخرين ألفوا الصفر أسرع من غيرهم الذين ظلوا متمسكين بالأعداد القديمة بالرغم من محاولتهم التعرف إلى الأعداد الجديدة وكتابتها حسب مراتبها فاستخدموا الصفر بين الأعداد الرومانية التى مرنوا على استعمالها، فوقف الرومانى نفسه أمامها حائرًا عاجزًا عن إدراك هذا الفن الجديد. فالعدد (١٥٠٣) كان يكتب (IVOII) والعدد (١٠٨٩) = (IOVIIIIX) ولا يقف الأمر عند هذا بل نجد شخصًا آخر يستخدم طريقة مبتدعة فالعدد (١٢٠٠) = (ICCOO) لا يستخدم الأعداد الرومانية فقط والأشكال الهندية أيضًا بل نظام

الرتب أو الخانات الهندى، وذلك باستخدامه (١) والدارة للتعبير عن الصفر، ثم نجده يستعمل الترتيب الرومانى مع نظام المرتبة فيذكر (مائتين) = (CC).

وبالرغم من جميع هذه الصعوبات وتلك العقبات انتصرت أخيراً الأعداد العربية على الألمانية ولو أن الأميين من الألمان ظلوا بمنأى عنها، فهم أعداء لكل جديد، كما نتبين هذا مما جاء على لسان «مرجريت» فى كتاب: در جرينه هينريش، للمؤلف: جو تفريد كللر:

«كانت توجد فى المنزل المقابل لنا قاعة مظلمة مفتوحة مشحونة بالمخلفات القديمة وفى آخر القاعة كانت تجلس طوال الوقت امرأة عجوز مترهلة فى ثياب رثة، وكانت تقرأ بصعوبة بعض المخطوطات وإن عجزت عن الكتابة أو قراءة الأعداد العربية. وكان كل حسابها يعتمد على (١) و(٥) و(١٠) و(١٠٠) فى صورها الرومانية، وقد تعلمت هذه الأعداد الأربعة أيام شبابها وفى مكان ما مجهول، وقد توارثت هذه الأعداد الأجيال وكانت هذه العجوز لا تعرف مسك دفاتر كما لا تملك شيئًا مكتوبًا إلا أنها كانت كلما شعرت أنها قادرة على تدوين شىء يهمها سارعت إلى قطعة من الطباشير وخطت بها على مائدة هذه الأعداد الأربعة وهى تدون من ذاكرتها جميع المبالغ التى تهمها بهذه الصورة، وإذا حققت رغبتها من هذا التدوين بلت أصبعها ماء ومحت به ما دونته، وكانت تحصى النتائج وترسمها إلى الجانب، وهكذا نشأت مجموعات عددية صغيرة جديدة ولا يدرى أحد سواها دلالاتها أو أسماءها؛ وذلك لأنها لم تستخدم إلا الأعداد الأربعة المجردة وكانت تبدو للآخرين وكأنها طلاسم سحرية وثنية».

وإذا كانت الأعداد العربية منذ بدايتها محاطة بهالة من الأسرار توحى بشىء من الرهبة، فإن الأعداد الرومانية اتصفت بهذه الصفة أيضًا عندما طرأ عليها ما طرأ من تغيير وتحوير، فنظر إليها القوم وكأنها وسيلة من وسائل السحر. وهكذا أخذ القوم يسخرون من أولئك العلماء الذين يستعينون بالأحجار لإجراء العمليات الحسابية، ولما ارتقت حالتهم الاجتماعية أوجدوا لأنفسهم وجبات غذائية أحسن نوعًا من السابقة وأخذوا يغذون أنفسهم من ثمار شجر القرو.

ومع تطور المدن والتجارة ازدادت الرغبة فى العلم والمعرفة وانتقلت العلوم والمعارف من الأديرة إلى المدينة، ولعل أحسن بيوت تجارية عرفتها أوربا قديمًا هى تلك التى قامت فى إيطاليا واتخذت منها ألمانيا مثلاً أعلى لها كما حذا حذو الألمان الهولنديون والفرنسيون والإنجليز حيث عاد أبناء تجار تلك البلاد ومعهم أخبار هذا التطور العظيم، كما أخذت العلوم التى كانت من قبل قابعة فى الأديرة تتسرب تدريجيًا من الصوامع والجامعات إلى الخارج وبخاصة اختراع الطباعة. ولم يقف الأمر عند هذا بل نجد صرافى الأقاليم وموظفى ماليتها يوجهون شيئًا من العناية الخاصة فى مدارسهم إلى هذا الحساب الجديد وأعداده العربية، كما سعوا جاهدين إلى نشرها. ولعل خير شاهد جاءنا إلى اليوم على انتشار الحساب العربى وصحة استخدامه هو «آدم ريزه» الذى ولد فى مدينة «بمبرج» فى العام الذى انتهى فيه حكم العرب على إسبانيا، وقد تخصص فى تدريس الحساب فى مدينة «أرفورت». ففى مثل كتب الحساب هذه توجد جداول فيها الأعداد الرومانية إلى جانب الأعداد العربية وكذلك الكلمات، والغاية من هذه الطريقة تمكين المتعلم من حفظ النوعين من الأعداد معًا واستخدامهما فى الحساب.

لقد غزت الأعداد العربية أوربا، وأخذت تؤدى دورها الهام فى العلوم الطبيعية والصناعات والاقتصاد وسائر وسائل الاتصال بين الشعوب الراقية فى العالم، وفى مختلف العصور.

الكتاب الثالث

الأبناء الثلاثة لموسى الفلكي

وفى كل ليلة بعد صلاة العشاء فى المسجد يمتطى فارس الأرواح حصانه الأحمر كالحناء فى أوانى تجميل النساء مخترقًا صحراء خراسان. أما حوافر الحصان فمغطاة بالمحارم البيضاء وحيث يخطر الفارس الذى يحاكى المومياء ويجرى بحصانه دون أن يسمع له صوت بين التلال الواطئة يخيم سكون الليل وينتشر الأمان. هناك الأسلحة والكيس المملوء بفدية البدو العائدين من الأسواق إلى خيامهم وهذه غنائمه الثابتة الخاطفة.

موسى بن شاكر يتردد منذ أيام وسنين على قصر الخليفة وهو عالم وقور بين الفلكيين والمهندسين من رجالات المأمون كما أنه صديق حميم للحاكم. لكن موسى بن شاكر هذا لا يكاد يفرغ من صلاة العشاء فى المسجد الكبير حتى يتحول إلى لص، بالرغم من السلاسل الذهبية التى كانت تقيده بالقصر، هذا القيد الذى كان فى صالح الخليفة، كذلك لم ينس موسى بن شاكر أن والديه وأجداده الذين كانوا قديمًا، يعلم الله وحده، لصوصًا قد جاءوا به إلى هذا الوجود كأحد أبناء الصحراء الأحرار..

لذلك كان ينتهز موسى مجىء الليل وينطلق إلى الصحراء حيث يحيا حياة البداوة بتقاليدها القديمة وعاداتها وحيث الغزو والسلب والنهب حسب تعاليم الفروسية، والفتوة عمل مشرف يقوم به الفتى الحر الأبى. وهكذا نجد موسى يمضى ساعات الليل الطويلة فوق صهوة جواده لا يسمع له أحد صوتًا ولا صديق له إلا نجوم الليل، فهى أنيسة ودليلة شأنها معه كشأنها مع شعبه وأمته منذ آلاف السنين وفى مختلف العصور والأماكن.

ولا يكاد الليل يولى حتى يعود هذا الفارس الروحى المجهول الاسم إلى حالته

الجسدية العادية التي يعرفها سكان العاصمة. وعندما تتبين العين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من طلوع الفجر ويؤذن المؤذن للصلاة يركع موسى بن شاكر إلى جوار جاره فى المسجد ساجدًا لله شكرًا على ما أولاه من مساعدة إذ أرسل له نفرًا من الفرسان الذين هدوه سواء السبيل حيث توجد الغنائم وتكثر الأسلاب.

هل يعتقد المأمون أن الرجل الذى يحتل مكانًا مرموقًا بين علماء قصره وينزل من قلب المأمون مكانًا يحسده عليه الكثيرون هو بعينه الذى يحيا حياتين؟ ثم كثرت حوادث النهب وأعمال السلب فى الطرق وكثر عدد الذين سرقوا ونهبوا؛ لذلك اتجهت أنظار الدولة إلى تحقيق هذه الجنايات فحامت الشبهات حول موسى بن شاكر الفلكى، إلا أن الجماعة الإسلامية على استعداد للشهادة على أن موسى هذا كثيرًا ما يشاهد فى المسجد صباحًا ومساء ومنذ زمن بعيد يواظب على أداء فروض الله فلا يجد الخليفة مناصًا من السكوت.

لقد أثبت موسى أنه حذر ذكى ويتجلى لنا هذا الذكاء وبعد النظر فى تولية الخليفة وصيًا على أولاده القصر إذا ما عاجلته منيته أو تمكن خصومه منه وثأروا لأنفسهم ولأموالهم، وقد تحقق بعد نظر موسى وتولى الخليفة الوصاية على أبنائه ونشأهم تنشئة علمية صادقة جعلت منهم علماء فلكيين يشار إليهم بالبنان فى قصر الخليفة ببغداد.

هذه قصة حقيقية لا غبار عليها وقد وقعت إبان عصر القيصر كارل الأكبر فى أوربا وتمت عندما أغمض القيصر عينيه. إن قصة موسى وقعت حوادثها فى واحة مرو البعيدة فى وادى مرغاب حيث كان يقيم المأمون بعد أن ترك بغداد عقب وفاة والده هارون الرشيد وزوال دولته. والقصة حقيقية أيضًا من ناحية أخرى ولو من جهة الرمزية فهى تصور حياة البدو الجاهليين الليلية عندما تغيب الشمس بوهجها المحرق وتقبل موجات النسيم العلية وتتلألأ النجوم فى القبة الزرقاء وعلى ضوئها يقرأون وهم يرعون الماشية أو يقومون بغزواتهم. أما الآن وقد هداهم الله إلى دينه الحنيف وتثقفوا بتعاليمه السامية العالية فقد أقبلوا على العلوم يتدارسونها ويتأملون السماء بنجومها وأفلاكها وحركاتها.

لقد اعتمد العرب أبناء الصحراء أكثر من غيرهم من أبناء الشعوب الأخرى كاليونان والرومان والجرمان على التأمل فى السماء ومراقبة الأفلاك والنجوم، فالعرب وهم البدو الرحل كانوا يتجولون في لا نهائية الصحراء ولا يرون فى حلهم وترحالهم إلا السماء ونجومها التى تحول ظلمة الليل إلى نهار وضاح، ولا شك فى أن هذه الظواهر الفلكية تترك فى نفس ساكن الصحراء العربية أثرًا لن يدركه سكان الأقاليم الشمالية، وإذا أضفنا إلى السماء بسطة الصحراء وسهولتها فلا جبال تنكسر عندها أشعة الإبصار ولا تلال ولا بحار، أدركنا أثر كل ذلك فى البدوى عندما يشاهد الأفق البعيد تتخلله طبقات الهواء.

وفى وسط هذه الأبعاد المتشابهة التى تكاد تكون واحدة اللهم إلا هذه التلال المتنقلة من بحار الرمال نجد النظرة البدوية حرة طليقة لا يوجد ما يعترضها ويوجهها اتجاهًا خاصًا، وهذه بدورها تؤثر فى حياة البدوى زمانًا ومكانًا، فهو فى عراك دائم مع الأنواء والرعود والبرق والمطر واختلاف درجات الحرارة وتعاقب الليل والنهار، والآن قد يسهل علينا إدراك الاعتقاد العربى فى الكواكب وسائر الأجرام السماوية وكيف أنها مظهر من مظاهر القوى الإلهية فقبيلة نسام قدست «الدبران» بنوره المائل إلى الحمرة، وطلوعه كان مصحوبًا دائمًا بالغيث والخير العميم من طعام وشراب. أما قيس فقدست الشعرى أكثر النجوم ضوءًا، وهو الذى يتخلل طريق التبان، وقد استولى الشعرى على أفئدة العرب بجماله الممتاز. وقد ظل تقديس الكواكب حتى صدر الإسلام وبخاصة بين القبائل الوثنية كالصابئة، وقد تخرج من بينهم نفر من خيرة العلماء العرب وبخاصة فى الفلك أمثال: ثابت بن قرة والبتانى الذى عرفته العصور الوسطى تحت اسم «الباتيجنيوس Alpbategnius»، وقد اعترفت له أوربا كأستاذ من أكبر الأساتذة العرب الذين أخذت عنهم أوربا الشىء الكثير.

أما خيال اليونان الشاعرى فقد صور لهم السماء وكأنها بكواكبها ونجومها وسائر أجرامها هى مصدر الأبطال ووحى الأساطير، كما خلع هذا الخيال على النجوم صورًا قد تغاير حقيقتها فى السماء. أما الطبيعة العربية وهى أقرب إلى الواقعية من غيرها فقد تصورت السماء وكأنها أنموذج لعالمهم عالم البداوة بكل ما فيها مما يحياه

البدوى فى صحرائه، وذهب العربى بعيداً فجعل من كل نجم تمثيلية خاصة ففى شمال السماء يشاهد راعيًا يرعى ومعه كلبه وقطيعًا من الغنم وعجلين وعنزًا وتيسًا وناقة وفلواً وجملا يرعى بمفرده وحول هذا القطيع ضبع وضبعتان وصغارها، وهناك ابنا آوى يقفان خلف البعير، وحيث يتلألأ فى السماء نهر المجرة يوجد عش للنعام وإلى جواره خمس نعامات وبعيداً قليلا يجتمع ذكرا نعام وبعض صغار النعام كما يشاهد بيض نعام وقشر بيض مكسور بالقرب من العش.

تلك هى بعض مناظر الحياة لا صلة تربط بينها وبين الصور السماوية التى نجدها عند البابليين أو اليونانيين، ونحن نعلم أن اليونانيين تعلموا الفلك عن أساتذتهم البابليين. واتخذ اليونانيون من بعض مجموعات النجوم ما اتخذوه منها صوراً لآلهتهم وأبطالهم كما صوروا منها حيوانًا أو حيوانات تخص إلهًا أو بطلا، كذلك رقموا النجوم حسب مواقعها مثلا النجم (لا) على كتف والنجم (y) على ظهر الحصان المجنح. أما العرب فلم يتصوروا النجوم فى هيئة صور بل سموا بعض النجوم أسماء هامة؛ لذلك أصبح عدد أسماء النجوم عند العرب يفوق بكثير الأسماء اليونانية.

وعندما ترجم العرب أيام الخليفة هارون الرشيد وابنه المأمون كتاب الفلك للمؤلف «هيبارش» الأكبر، وكذلك فهرس النجوم الذى وضعه نفس المؤلف ونقحه بطليموس وقدمه لنا فى الماجسط، اختلطت الأسماء العربية القديمة للنجوم والكواكب مع الألفاظ اليونانية، وبخاصة أن الأسماء العربية كانت لا تزال حية مستخدمة متواترة فى أشعارهم وأغانيهم وقصصهم. لذلك لا عجب إذا رأينا أن معظم أسماء النجوم والكواكب المستعملة حتى يومنا هذا عربية أو ترجع إلى أصل عربى، وأوربا التى درست الفلك على أساتذة مسلمين تستخدم حتى اليوم الأسماء العربية مثل: «الدبران» و«الجنوب» و«الغول» و«الكرب» و«الطائر» و«الواقع» و«بيت الجوزاء» و«ذنب» و«فم الحوت» و«رجل» وغيرها.

ولا يقتصر الأمر على أسماء الكواكب والنجوم بل هناك كثير من الاصطلاحات الفلكية المتداولة على ألسنة العامة قد أخذتها أوربا عن العرب مثل: «السمت» و«النظير» و«القنطرة» و«الحضيض» و«تيودوليت».

ثم نجد العرب وقد تأثروا بالعلوم الهندية واليونانية مثل دراستهم لكتاب «سيدهنتا» للمؤلف الهندى «براهما جوبتا» والماجسط لبطليموس - ينشطون فى قصور الخلفاء المنصور وهارون الرشيد والمأمون ويهتمون اهتمامًا خاصًا بالدراسات الفلكية مستعينين بخبرتهم القديمة التى توارثوها منذ زمن بعيد، فأخذوا بيد هذا العلم حتى جعلوا من الفلك علمًا عالميًا، وأصبح العرب بفضل نشاطهم واجتهادهم أساتذة العالم وقادته.

لقد توفى موسى وترك وراءه ثلاثة أولاد فى سن الطفولة، وقد وصل المأمون، عندما كان يقود حملة عسكرية فى آسيا الصغرى، خبر وفاة موسى فسارع وطلب إلى حاكم بغداد الاهتمام بهؤلاء الأطفال والعناية بهم، وبلغ اهتمام الخليفة حدًا أنه ما أرسل رسالة إلى بغداد إلا وسأل عنهم.

وكان الخليفة المأمون يتحدث ساخرًا دائمًا من أنه مربى أولاد موسى ثم أسلمهم إلى يحيى بن أبى منصور لتربيتهم، وكان يحيى هذا فلكى الخليفة ومدير بيت الحكمة الذى أسسه المأمون للعناية بالعلوم المختلفة، كما زوده بمكتبة غنية بسائر المؤلفات ومنها كتاب الخوارزمى المختار من «سيدهنتا» وجداول بطليموس الفلكية التى نقحها الخوارزمى، وكذلك كتبه فى الحساب التى ظلت المرجع الأول والأهم فى أوربا حتى عصر إحياء العلوم، وكذلك كتبه فى الجبر. وهنا فى دار الحكمة نبع العلوم والمعارف وحيث مختلف المراجع التى تربو على الآلاف وكذلك الأجهزة النادرة ومختلف الندوات العلمية فى شتى العلوم والفنون، نشأ وترعرع أولئك الأطفال الموهوبون أنجال الفلكى ولص الصحراء موسى بن شاكر، ومن حسن حظهم أنهم بعد وفاة والدهم انتقلوا إلى رعاية خليفة المسلمين وأمير المؤمنين نور الحكمة ومصدر الإشعاع.

ومن حسن طالع أولئك الإخوة أن أكبرهم وهو محمد بن موسى أصبح أشهر الجميع علمًا وسياسة، فنال ثقة الخليفة فورث المكانة التى تولاها أبوه من قبل وأكرم المأمون علماء الفلك فشيد لهم مرصدًا عظيمًا فوق أعلى مكان فى بغداد عند

شماسية حيث كانت ترصد الكواكب وتراقب حركاتها مراقبة علمية دقيقة، ووضع المأمون هذا المرصد تحت رئاسة وإشراف يحيى، وكانت تستخدم فيه مقاييس فى غاية الدقة تقابلها أخرى مثلها فى مرصد جنديسابور. وإمعانًا فى الدقة كانت تراجع العمليات الحسابية كل ثلاثة أعوام فى مرصد جبل قسيوم بالقرب من دمشق حيث كان يعمل فلكيوه معًا فى وضع الجداول المسماة جداول المراجعة أو الجداول الميمونة، وهذه فى الواقع عبارة عن مراجعة جديدة دقيقة لجداول بطليموس الفلكية.

ولم يكد محمد بن موسى ينتهى من دراسته على يحيى حتى أمر الخليفة أن يساهم هذا العالم الشاب فى قياس حجم الكرة الأرضية فسافر مع جماعة من الفلكيين إلى «سنجار» الواقعة غرب الموصل، ومما هو جدير بالذكر هنا أن «أوتو ستينيس» كان قد قام بأول قياس للأرض بمساعدة الزوايا الضوئية للشمس. أما فلكيو المأمون فقد حاولوا قياس الأرض بوسيلة أخرى فمن نقطة خاصة انتقل جماعة من الفلكيين نحو الشمال وانتقلت جماعة أخرى نحو الجنوب وظلت متجهة حتى بلغت مكان الجدى الصغير، النجم القطبى، فالجماعة التى اتجهت شمالا تشاهد الصعود بينما الجماعة الأخرى التى اتجهت جنوبًا تشاهد الهبوط. فالمسافة بين الجماعتين عبارة عن درجة من دائرة نصف النهار، وقد تمت هذه العملية بدقة تستدعى الإعجاب حقًا.

لكن لا يمضى زمن طويل حتى نجد محمدًا وأخويه يقومون بعملية حسابية عجيبة تخلد أسماءهم؛ فحسابهم لا يبين فقط النتيجة التى توصل إليها بطليموس بل تتفق أيضًا والنتيجة التى قام بها فى الظل فلكى القصر المعروف باسم «مورروزى» «وجدت»، هكذا صرح بعد مائة وخمسين عامًا مواطن لا يقل مكانة عن البيرونى: إن الإنسان يجب عليه أن يعتمد على حساب وملاحظات بنى موسى، وعلى الإنسان كذلك أن يرعاها فقد حشد بنو موسى كل قواهم العقلية فى سبيل الوصول إلى الحقيقة. لقد كان أبناء موسى وحيدى عصرهم فى إتقان الوسائل الفلكية والكياسة فى استخدامها وتطبيقها. وقد شهد لأبناء موسى علماء آخرون شاهدوا

بعيونهم دقة هؤلاء فى كل ما قاموا به. وحدث أن افترق أبناء موسى عن الشيخ يحيى وتركوا مرصده، لأن محمداً كان رجلا يؤثر الاستقلال وحرية العمل وبخاصة فقد أصبح فى شىء من اليسر والشراء، وذلك بفضل تعاون الإخوة ورغبتهم الصادقة فى الكسب والعمل، ونجحوا فى إقامة مرصد خاص لهم على قنطرة نهر دجلة عند «باب التاج». وهنا نجد محمداً يكرس حياته للرصد والحساب وقد اتصف فى عمله هذا بالصبر والجلد. هكذا شهد له معاصروه فقد ألف كتبًا فلكية تعالج الاتجاهات العمودية على البعد القطبى. وكانت هى الأولى من نوعها فى الفلك كما اشترك مع أخويه فى وضع كتاب فى المساحات الكروية، وقد ترجمه إلى اللاتينية «جرهرد فون كريمونا Gerhard von Cremona»، وقد عرف هذا الكتاب فى العصور الوسطى فى أوربا باسم كتاب الإخوة الثلاثة فى الهندسة (Liber trium fratrum de geometrica).

لكن محمداً لم يكن فلكيًا بارعًا ورياضيًا عظيمًا فحسب بل أبدى مقدرة فائقة فى الفلسفة وبخاصة المنطق أيضًا، فوضع كتابًا حول أصول العالم وعناصره كما عنى بعلم الأرصاد ودوَّن ملاحظات حول الأجواء واهتم بالتركيبات الخاصة بالأجهزة والآلات، وهذه هى الناحية التى كان يهواها ويولع بها أخوه أحمد الذى أضاف الشىء الكثير على ما جاءنا عن العالم القديم خاصًا بالميزان السريع.

وكان أحمد هو الفنان البارع والصانع الماهر وقد اشتهر بعبقريته فى هذا المضمار فكان من بين أفراد العائلة الوحيد المشهود له بحسن تركيب الآلات وفكها، لقد توافرت له، كما يذكر مرجع عربى فى هذه الصناعة، أشياء لم تتوافر لأخيه محمد أو لأحد من السابقين مثل هارون وغيره من الذين كانوا يهتمون بتركيب الآلات وتنظيمها وبخاصة الآلية منها، وقد وضع فى ذلك كتابًا شاملاً حير الموهوبين فنيًا من العرب. وامتاز أحمد أيضًا بملكته الخالقة فقد اخترع أشياء كثيرة تدعو إلى الدهشة فقد ثابر فى بناء الآلات الدقيقة المعقدة التركيب والتى هى ذات فائدة قصوى للمجتمع ولو قدر لفرد أن يحصل عليها اليوم لأعجب بها وحرص على امتلاكها، فقد عاون ربة البيت فى القيام بعملها كما ساعد الفلاح على فلاحة أرضه

وريها وصنع حوضًا تشرب منه الحيوانات الصغيرة فقط ولم يهمل الأطفال والكبار فى صنع أدوات اللعب والتسلية التى لو ظهرت اليوم لحرص الكل على اقتنائها. وأحمد هذا هو صاحب غرافات الحمامات والخمور وتفنن فى صنع الأخيرة حتى إن منها ما يصب من النبيذ بقدر ما يحتاج إليه الإنسان، وإذا ما حاول صب كمية أخرى وجب عليه أن ينتظر فترة من الزمن، وإليه يرجع الفضل فى اختراع الأجهزة التى تعين أثقال السوائل المختلفة وأخرى تمتلئ آليًا عندما تفرغ كما صنع قوارير يشرب منها الإنسان حسب رغبته إما نبيذًا صافيًا أو ممزوجًا أو ماء، وركب مصابيح يخرج فتيلها آليًا كما يتدفق فيها الزيت تلقائيًا ولا يستطيع الهواء أن يطفئها، وقد نجح فى صنع جهاز لرى الأرض وهو يصفر كما يصدر أصواتًا خاصة تشير إلى أن المياه قد بلغت الارتفاع المطلوب كما صنع مختلف أنواع النافورات وتفنن فى الحيل المائية حيث يندفع الماء مكونًا مختلف الأشكال والشخوص، وقد بلغ أحمد من المهارة بحيث استطاع صنع جهاز فلكى يخطئ بواسطته الرأى اليونانى القائل: «إن كرة تاسعة تحيط بالفضاء».

وهل بمستغرب أن يضع ابن موسى بن شاكر خبرته وإمكانياته فى خدمة العلم الذى كرس له والده حياته أعنى الفلك؟!

لقد اشترك أحمد مع محمد وركبا ساعة نحاسية ذات حجم كبير وقام محمد بعمل حساب شروق وغروب أهم الكواكب والنجوم حسب اليوم والسنة. أما أحمد فقد قام بتنفيذ العملية الحسابية المعقدة التى وضعها أخوه، وكانت هذه الساعة قطعة فنية عجيبة ووحيدة من نوعها من حيث صناعة الآلات وتركيبها، وقد أثارت إعجاب كل من شاهدها فقد رآها الطبيب ابن ربان الطبرى فى القصر الجديد للخليفة فقال: أمام مرصد سامراء رأيت آلة ركبها الأخوان محمد وأحمد ابنا موسى، والأخوان خبيران بعلم الفلك وتركيب الآلات. والآلة التى صنعاها عبارة عن كرة وعليها صور الأفلاك وأجرام السماء وتتحرك هذه الآلة بفعل الماء، فإذا اختفى نجم من نجوم السماء اختفى فى نفس الوقت النجم الذى يقابله فى الكرة عن طريق خط يمثل دوران الأفلاك وله نظيره فى السماء، وعندما يعود النجم فى السماء إلى الظهور مرة أخرى يظهر هذا النجم على الكرة فوق خط الأفق.

«الأخ الثالث الحسن» كان كما تحدثنا المصادر العربية نابغة عصره فى الهندسة كما كان عبقريًا وحيدًا اشتهر بالذاكرة القوية وسعة الخيال والتصور لم يلقنه أحد ما بلغه من إعجاز فى الهندسة، وما عرضت عليه مسألة من المسائل إلا وبادر إلى حلها، وكان هو أول من توصل إلى هذا، ويروى عنه أنه كان يجلس غارقًا فى تفكيره وجلس مرة فى مجلس من مجالس الخاصة فلم يسمع شيئًا مما دار من حديث فى ذلك المجلس، ويروى عنه عن نفسه أنه إذا عرضت له مشكلة من المشاكل كان يرى العالم وكأنه جسم من الظلام ويشعر هو وكأنه قد خارت قواه أو فى حالة حلم!

وحدث يومًا ما أن التقى فى حضرة المأمون بفلكيه الخاص الموروزى الذى اشترك فى مراقبة الشمس فى دمشق، وكان الموروزى قد قرأ كتاب «أويقليد» كما درس الماجسطى دراسة دقيقة إلا أنه كثيرًا ما عجز عن فهم كثير من المسائل الرياضية فتحداه الحسن أن يوجه إليه مسألة هندسية شريطة أن يعرض عليه الحسن سؤالا هندسيًا فأحرج هذا الاقتراح الموروزى فشكاه إلى المأمون: «يا أمير المؤمنين لقد قرأ لأويقليد ستة كتب فقط».

والمأمون الذى يعتبره عالمًا فى الهندسة فقط، وقد درس كتاب أويقليد لا يستطيع أن يتقبل مثل هذا الاتهام الموجه إلى حبيبه الحسن ولا يصدقه، فالتفت مسرورًا إلى المتهم شاكًا فى التهمة فأجابه حسن:

«والله يا أمير المؤمنين لو أردت الكذب لأثبت كذب دعواه ولاستدعيته للاختبار فهو لم يسألنى سؤالا خاصًا بمحتويات هذه الكتب التى لم أطلع عليها ولو فعل هذا لأجبته على الفور وذكرت له حلها ولا ضير فى ذلك علىّ إذا كنت لم أطلع على هذه الكتب»، والمؤلم أن دراسته لجميع هذه الكتب ومسائلها حتى ما صغر منها لم تفده كثيرًا أو قليلاً حتى يتمكن من حلها. وقد اقتنع المأمون بهذه العبارة إلا أنه لم يغفر للحسن تقصيره بعدم تنفيذ طلباته.

ومن بين أعماله التى قام بها مستقلا عن أخويه كتابه الذى وضعه حول القطوع المخروطية، كما أنه هو مخترع ما يعرف باسم القطع الأهليلجى.

ولم يبلغ أبناء موسى ما بلغوا من شهرة علمية عن طريق بحوثهم فقط بل عن طريق الخدمات الجليلة أيضًا التى أدوها لعلم الفلك، بفضل ما أوتوا من نبوغ فى هذه الناحية، وفضلا عن هذا فقد كانوا بالرغم من أنهم كانوا فى سن الشباب من أكبر مشجعى ومناصرى العلم والعلماء، فكانوا يوفدون البعوث على نفقاتهم الخاصة إلى الدولة البيزنطية للبحث عن المؤلفات الفلسفية والفلكية والرياضية والطبية، وكان أبناء موسى لا يترددون فى دفع الأثمان الباهظة لهذه المؤلفات اليونانية التى كانوا يزودون بها مكتبتهم الخاصة بدارهم بباب التاج فى بغداد. فهناك وعلى قطعة الأرض التى وهبها لهم المتوكل بالقرب من قصره فى سامراء وظف أبناء موسى العدد الكبير من المترجمين الذين استقدموهم من مختلف البلاد، وكانوا بصنيعهم هذا يقتدون بأمير المؤمنين الخليفة المأمون الذى اقتنى المخطوطات وشيد المدارس لتخريج المترجمين.

والآن نتساءل: كيف تيسرت الأمور وأصبح أبناء موسى الوحيدين الذين جاروا الخليفة فى الأخذ بيد هذه النهضة العلمية العظيمة الأثر؟ ألم يمضوا أيام طفولتهم فى حياة إن وصفت بشىء فبالبساطة والتواضع؟ ألم يمض موسى بن شاكر وأسرته حياة أقرب إلى الفقر من أى شىء آخر؟!

والآن نجد أبناءه يدفعون شهريًا لكل مترجم راتبًا لا يقل عن خمسمائة دينار ولا شك فى أن إنفاق مثل هذه الأموال فى اقتناء الكتب وإيفاد البعوث وترجمتها ونسخها قد كلفهم فى شبابهم الكثير من الأموال؛ فمرتب المترجم أعنى مبلغ الخمسمائة دينار كان يساوى بعملتنا الحالية حوالى ثمانمائة جنيه ذهبى، ولا شك فى أنها مرتبات عالية كانت تكفل لأصحابها سعة فى الرزق وسعة فى الوقت وتفانيًا فى خدمة رسالتهم العلمية الرفيعة. فمن أين لأبناء موسى جميع هذه الموارد المالية التى مكنتهم من النهوض بمثل هذا العبء العظيم؟!

أين الذهب الذى جمعه موسى إبان غزواته الليلية التى كثيرًا ما شنها؟ إن أحدًا لم ير غزواته ولم يشاهد أسلابه، وهل كان هدف موسى من كل مغامراته تمويل مثل هذا المشروع العلمى الجبار؟!

لقد استخدم أبناء موسى كثيرين من العلماء من بينهم حنين بن إسحق وإسحق ابن حنين ابنه وحفيده حبيش بن الحسن، وقد كان هؤلاء من أكثر وأجود العلماء إنتاجًا، ولا يفوتنا أن نذكر أن من أشهر المترجمين أيضًا الذين عملوا لأبناء موسى ثابت ابن قرة وكان صابئيًا من الذين يقدسون النجوم والأجرام السماوية. فهذا الشاب العربى الذى أصبح فيما بعد عالمًا فذًا كان قد اهتدى إليه محمد بن موسى، فقد حدث أن محمداً فى رحلة من رحلاته الاستطلاعية بحثًا عن المخطوطات توجه إلى اليونان وآسيا الصغرى وعند عودته ماراً بحران التقى فى «كفر توتة» بهذا الشاب الذى كان يعمل صرافًا فى محل له صغير، وكان إلى جانب إلمامه بالنقود عالمًا بعدة لغات، فكان هذا الشاب هو الذى يبحث عنه محمد بن موسى فهو خبير بالحساب ومترجم قدير فأحضره معه إلى بغداد واتخذه تلميذاً له فى منزله وقدمه إلى الخليفة المعتضد، فأعجب الخليفة بهذا الصابئى وقدمه على سائر علمائه فترجم ثابت بن قرة عدداً من الكتب الفلكية والرياضية والطبية إلى بنى موسى وهذه الكتب لمشاهير العلماء أمثال: «أرشميدس» و«أبولونيوس» و«تيودوسيوس» و«أويقليد» و«أرسطو» و«أفلاطون» و«جالينوس» و«بوقراط»، كما ترجم جغرافية بطليموس. ولم يقف نشاطه العلمى عند هذا بل راجع ترجمات حنين وابنه وصححها، ثم انصرف بعد ذلك إلى تأليف الكتب فوضع ما يقرب من مائة وخمسين كتابًا عربيًا وعشرة فى السريانية حول الفلك والرياضة والطب، فوضعته هذه المؤلفات وذلك الإنتاج لا فى مقدمة علماء عصره فقط بل زعيمًا للعلوم الإسلامية قاطبة.

لقد تحدثنا عن سيرة بنى موسى لا رغبة فى الإفاضة فيها فهم أشهر مما نتصور، فمن بين خمسمائة وأربعة وثلاثين فلكيًا عربيًا حفظ لنا التاريخ أسماءهم، وهذا عدد يندر أن نجده بين أبناء أمة راقية أخرى فى العالم، ونقرر أن بنى موسى وغيرهم من أبناء جلدتهم قد ساهموا مساهمة كبرى فى بعث النهضة العلمية الأوربية.

لكن حياة الإخوة الثلاثة تشع علينا إشعاعات خاصة فدراسة حياة هؤلاء الإخوة العلمية تلقى ضوءاً قويًا على كل مقومات الدراسات التى اعتمد عليها العلماء المسلمون فى سبيل النهوض بعلم الفلك منذ أن خرس اليونان إلى غير رجعة. لقد

نهض العلماء المسلمون بهذا العلم نهضة كانت له بعثًا جديدًا ترك فى أوربا أبعد الأثر فأيقظها وسد الفراغ العلمى فيها .

إن نشاط بنى موسى فى جمع المخطوطات وترجمتها أحيا من الموت تراث العالم القديم الذى طمره النسيان ، والعرب هم الذين بعثوه فعادت إليه الحياة ثانية والعرب هم الذين عرفوا أوربا به .

اشتهر العرب بعبقريتهم الفنية فى صناعة الآلات واختراعها ، فقد أدركوا معنى ووظيفة الآلات التى جاءهم وصفها وطوروها وزادوا عليها فاخترعوا الجديد منها ، وبذلك وضع العرب الأسس لقيام هذه النهضة العلمية الصناعية .

إن نظرتهم الفنية الدقيقة للظواهر الطبيعية التى تجلت فى مراصدهم تفوقت بكثير على تلك النتائج التى توصل إليها العالم القديم وسبق العرب غيرهم فنجحوا فى القيام بالبحوث العلمية الدقيقة وتجلت عبقريتهم التى لا تحد فى الرياضيات والعلوم الأخرى ، وكان يستولى على العربى الفرح والسرور عند توفيقه فى حل مسألة رياضية أو حسابية ، وهذا الاستعداد مكن العرب من خلق فروع جديدة فى الرياضيات ، كما سبقوا أوربا وأوجدوا الوسائل المختلفة للدراسات الفلكية .

الابن الأول صانع الآلات

أسس يونانى الدراسة الفلكية العلمية وكان هذا العالم أقل يونانية من سائر اليونانيين فحتى ذلك الوقت كان علم الفلك اليونانى علمًا تأمليًا نظريًا وقليلا ما كان يدرك بالإبصار المنتظم، فالعقل اليونانى يهتم بالشكل والنظام والقانون؛ لذلك أسس مع مرور الزمن وتعاقب الأجيال مسرحًا عالميًا من الكمال، فأوجد لكل العصور فكرة النظام القانونى العظيم للوجود، ومن هذه الناحية يختلف اليونانيون عن غيرهم من حيث إدراكهم للكون فهو شىء ملموس معقول محسوس بخلاف علماء الفلك على نهرى دجلة والفرات.

لقد اشتهر البابليون بنظرتهم الثاقبة الدقيقة فقد آمنوا بجميع المظاهر السماوية وآثارها واقتنعوا بأن كل ما يجرى فى الكون مقدر من قبل. أما محاولة نسبة المظاهر الكونية إلى قوانين الطبيعة ومحاولة الاستفادة من هذه الصلة أو من نتائجها فلم تكن تهمهم أو تعنيهم.

أما الخصال التجريبية التى كثيرًا ما اتصف بها البابليون فلم تتوافر لدى اليونانيين الذين اشتهروا بالأناة عند الإدراك والحساب الدقيق، فجميع هذا أثر فى عقليتهم النظرية تأثيرًا أقل من طبيعتهم الميالة إلى التعليل الفلسفى. ففى حوالى عام ٥٠٠ ق. م. استطاعوا أن يتصوروا القبة السماوية المرئية وكأنها كرة هندسية جميلة تتفق والتناسق الإلهى، وفى وسطها الأرض التى كانوا يتصورونها قديمًا أنها أسطوانية الشكل تحلق فى الفراغ. ثم جاء القرن الثالث ق. م. فنجد «أريسترخ» أحد أبناء مدينة «ساموس» يضع الشمس مكان الأرض فى قلب الكون، لكن هذه الصورة

بالرغم من جمالها لقيت معارضة قوية من الخاصة والعامة الذين فضلوا تصور الأرض فى قلب الكون، فالأرض هى التى أخرجت الإنسان وتعهدته والإنسان هو مقياس كل شىء إلا أن هذا الرأى ينقصه الدليل ولا يكفى الادعاء للأخذ به. وهكذا ظلت الأرض الوطن المقدس فى الوجود، وظلت هكذا أيضًا حتى عام ١٥٠ ق.م. إذ ظهر فى ذلك الوقت رجل من آسيا الصغرى بدأ بحثًا بطريقة أخرى غير يونانية إذ أخذ يقيس السماء ويفحص ويحسب فى صبر وأناة ودقة لم يسبقه إليها أحد. والرجل الذى فتح هذا الفتح الجديد فى دراسة النجوم ووضع أسس الدراسة العلمية الفلكية هو «هيبارش Hipparch» فكان يقرأ صفحة السماء بعينين نافذتين ويعد ويقيس بآلات هو واضع معظمها، وقد أهدى هذا العالم ما توصل إليه من معرفة وتواريخ وفهارس للنجوم لجميع الذين يعنون بالدراسات الفلكية، وقد وصفه بطليموس المصرى الذى جاء بعده بنحو مائتين وخمسين سنة بأنه أدق العلماء وأخلصهم.

والشىء الجدير بالملاحظة أن بطليموس المصرى هذا اعتمد فى كتابه الماجسطى على ما انتهى إليه «هيبارش»، ولا عجب فى هذا، فمجهود «هيبارش» ظل عصورًا طويلة كمثل أعلى للنتيجة التى انتهى إليها علم الفلك، إذ لم يظهر عالم آخر سواء عند الرومان أو من بين الهنود استطاع أن يخطو بهذا العلم خطوة أبعد، وظل الحال كذلك حتى جاء العرب فخلقوا الفلك خلقًا جديدًا، لقد ظهر بين العرب فلكيان عظيمان يسمى كل منهما «عمر» وقد جلسا يومًا من الأيام عند عمود مسجد من المساجد وأمامهما كتاب الماجسطى فعبر عليهما جماعة من العلماء فوقفوا وسألوهما: ماذا يدرسان؟ «نحن نقرأ» أجاب أحد العمرين «تفسير قوله تعالى»: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ (الغاشية: ١٧، ١٨).

إن لعلم الفلك أثرًا بعيدًا ومكانة ممتازة عند كل مسلم فطلوع النجوم وشروق الشمس وظهور القمر آيات بينات ناطقة بعظمة الله وعلمه. هذا الله الذى ينطق القرآن الكريم بمجده وقوته هو خالق السماء والأرض والظلام والنور ويحيط بكل

شىء علمًا ؛ لذلك قال أحد كبار فلكى العرب ألا وهو البتانى : إن معرفة النجوم تشبه معرفة الأشياء التى يجب على الإنسان أن يعرفها ويدركها كقوانين الدين وأوامره فعن طريقها يهتدى الإنسان إلى معرفة الأدلة التى تثبت وحدانية الله وعظمته وحكمته وقوته وكمال عمله ، فلعلم الفلك عند المسلم قيمة عملية عظيمة .

لقد توقفت حياة البدو الرحل والفلاحين منذ عصور بعيدة جدًا على السماء وأحوالها الطبيعية ، لذلك اهتم القوم بعلم الفلك ومجارى الأفلاك ، ولما جاء الإسلام وجدت صلة قوية بين عقائده وفرائضه وبين النجوم وسائر الأجرام السماوية وبخاصة عند قيام المسلم بفروضه اليومية ، وقد نادى القرآن الكريم بوجوب النظر إلى السماء فشعائر الإسلام الدينية والمحافظة عليها وعلى مواقيتها تحتم على المسلم العناية بمراقبة الشروق والغروب وما بينهما .

فالمؤذن فى المسجد يجب أن يكون ملمًا بشىء من علم الفلك ليستطيع توقيت مواعيد الصلاة ، ويجب أن يعرف استخدام آلة تحديد شروق الشمس وجريانها فى كبد السماء ليحدد مواعيد تأدية فرائض الصلاة ، كذلك يجب عليه أن يعرف طلوع الهلال وغيابه فى شهر رمضان شهر الصوم ، كما هو مطالب بمعرفة غياب الشمس وشروقها ليحدد المغرب والعشاء والسحور والإمساك والفجر والظهر والعصر . والمسلم مطالب أيضًا بمعرفة مواعيد الكسوف والخسوف فكل منهما يتطلب الفرائض الخاصة . والاتجاه إلى مكة عند الصلاة شرط لا بد منه لإقامة الصلاة فالاهتمام بالسماء وما يجرى فيها أهم للمسلم من الطعام .

فلا عجب إذا رأينا المسلمين يقبلون على كل ما يتصل بالنجوم والأفلاك لذلك شجع الخلفاء هذا الاتجاه ودفعوا الشعب إليه حتى لم يمض زمن طويل إلا وأصبح الفلك علمًا تأتى دراسته والعناية به فى مقدمة العلوم الأخرى ؛ لذلك تخرج منهم المراقبون والمساحون والمحاسبون كما فعل العالم «هيبارش» من قبل . واستتبعت دراسة الفلك إقامة المراصد ، ولعل أشهرها هو ذلك الذى شيده المأمون فى بغداد أو دمشق ، ولا ننسى تلك التى شيدها الخلفاء الفاطميون أمثال العزيز والحاكم فى القاهرة وعضد الدولة فيما بعد فى بغداد فى حديقة قصره . والمرصد الذى شيده

السلجوقى ملك شاه فى نيسابور فى شرق فارس، وكذلك هولاكو المغولى فى «مراغه» غرب فارس، وأولوغ بك الأمير التترى فى سمرقند.

ولعل هولاكو كان هو الوحيد من بين جميع هؤلاء الذى لم يكن مقتنعًا تمامًا بأهمية هذا العلم وفائدته، ففى هجومه على قلب الدولة العربية استطاع حفيد جنكيز خان القضاء على صغار أمراء فارس كما قتل بحد السيف الأمراء الإسماعيليين وزعماء الحشاشين، ولم يكتف بذلك بل خرب بغداد وأشعل فيها النيران وأزال من الوجود العباسيين، إلا أن الحضارة العباسية الإسلامية أبهرت أنظار هذا البدائى حتى إنه قرر العمل على الأخذ بيد القائمين عليها، فاتخذ من الرياضى العبقرى والفلكى الذائع الصيت ناصر الدين الطوسى (١٢٠١ ـ ١٢٧٤) ـ والذى كان فى خدمة الأمير الإسماعيلى الذى قتله هولاكو ـ وزيرًا لماليته.

لكن ناصر الدين كان شديد الحرص على مواصلة أبحاثه العلمية إلى جانب وظيفته؛ لذلك فهو فى حاجة إلى مرصد فكان هذا الاقتراح، إلى جانب المطالبة باعتماد المبلغ اللازم لإقامته مدعاة لإثارة الشك والريب فى قلب هذا البدائى المتوحش، لأنه ما كان يجول بخاطره أن علم الفلك هذا يتطلب إقامة مرصد، وأن المرصد يكلفه هذا المبلغ من المال. فأجابه ناصر الدين أن فائدة هذا المشروع سيتبينها هولاكو من هذا المثال البسيط الذى سيقدمه له. فقد طلب من هولاكو أن يسمح له بصناعة حوض كبير من النحاس ويضع هذا الحوض على سطح القصر، وفى المساء لما اجتمع سائر الأعيان والوجوه حول الخان أمر ناصر الدين سرًا بدحرجة هذا الحوض فأحدث صوتًا مخيفًا أوقع الرعب فى قلوب جميع الحضور عدا ناصر الدين وهولاكو وكاد الآخرون يموتون رعبًا وفزعًا. فقال ناصر الدين لهولاكو تأمل أن الذى يعلم الأشياء لا يخشى وقوعها وهذا من فوائد علم الفلك، فالذى يفهم هذا العلم لا يخشى ما قد يقع لأنه يعرف الأسباب؛ فإذا وقعت واقعة تقبلها العالم هادئ النفس لأنه عالم بها ولا يجهلها؛ فاقتنع الخان بكلام وزير ماليته وسارع إلى إجابة طلبه فرصد له الأموال الطائلة لبناء المرصد وتأثيثه فلما تم المرصد فرح به الخان فرحًا عظيمًا وأهداه مبلغًا كبيرًا من المال يقدر بعشرين ألف دوكات، كما زود

المرصد بمكتبة تحتوى على أربعمائة ألف مجلد جمعها من مكتبات بغداد وسوريا والعراق، كما استدعى عدداً كبيراً من علماء أسبانيا ودمشق وتفليس والموصل والمراغة ليعملوا تحت إشراف ناصر الدين ويضعوا الزيج الفلكية الجديدة بتكليف من الخان.

أخذ ناصر الدين يوجه اهتمامه إلى السماء ومتابعة سير النجوم والأفلاك ومختلف الكوكبات واستنفدت هذه المراقبة من عمره زهاء الثلاثين عامًا، وذلك لأن زحل يحتاج إلى زمن يقرب من هذا لإتمام دورته، لكن هذا الخان البدوى غير المستقر اعتبر هذا الزمن طويلا جداً فأصدر أمراً يقول فيه إن هذه التأملات وتلك الدراسات يجب أن تتم فى زمن لا يتجاوز اثنى عشر عامًا، وفعلا تم وضع جداول الخان فى الزمن الذى حدده.

لقد حصل ناصر الدين الطوسى على مرصده، وكان معهداً للأبحاث لا يوجد ما يضارعه، وأصبح مشهوراً شهرة عالمية فى أجهزته وأبحاث علمائه.

مهر العرب فى صناعة الآلات وتركيبها كما شاهدنا هذا من مثل أحمد بن موسى، وبذل العرب جهداً مشكوراً فى سبيل استخدام الماء والاستفادة منه، والماء كما نعلم هو سر الحياة وعليه تتوقف، ففيما يتصل برى الأراضى صنعوا أنواعًا مختلفة من الوسائل مثل: السواقى والطلمبات والروافع، كما نجحوا فى تركيب مضخات تعمل بالنار.

والشيء غير المؤكد هو مدى محاولة العرب التغلب على الهواء والتحليق فيه، والواقع أننا نجد فى حوالى عام ٨٨٠م فى أسبانيا الطبيب بن فرناس يبنى أول طائرة من قماش ورياش، وقد نجح فعلا فى التحليق بها مدة طويلة كما حاول القيام بعمليات انسيابية فسقط ولم يتحقق حلم «إيكاروس».

لكن هواية صناعة الآلات عند العرب ظلت محصورة تقريبًا فى عمل آلات الرصد ومختلف الآلات الفلكية وما جاءهم عن اليونان لم يغنهم شيئًا لتحقيق أهدافهم التى كانوا يرومون تحقيقها، فقد أدخلوا على هذه الآلات الكثير من

الإصلاحات، كما اخترعوا جديداً للرصد والقياس، وقد بلغوا بها حد الكمال وأخذتها عنهم أوربا وظلت تستخدمها حتى اخترع المنظار البعيد.

وحدث أن ابن ناصر الدين الذى كان رئيسًا لمرصد المراغة زار يومًا ما هذا المرصد فاستولت عليه الدهشة من كثرة ما عاينه ورآه من آلات الرصد، ومن بينها آلة عبارة عن كرة مشتملة على خمسة أطواق لقراءة مواقع النجوم، وهذه الأطواق الخمسة مصنوعة من النحاس، وأول هذه الأطواق هو دائرة نصف النهار وكان مثبتًا فى الأرض والثانى خط الاستواء والثالث سمت الشمس والرابع خطوط العرض والخامس الاعتدالان، وقد شاهد ابن ناصر الدين علاوة على ذلك دائرة لقياس السمت وتعيينه.

ومع مرور الزمن أخذت هذه الحلقات فى الكبر وهى المستخدمة فى هذه الكرة ذات الحلقات الخمس النحاسية، وقد صنعها العرب كما وصفها بطليموس إلا أن المقاييس العربية كانت أدق وأضبط، وقد بلغ قُطر الحلقة النحاسية ثلاثة أمتار ونصف المتر أو أكبر.

وللإنسان أن يتساءل الآن: كيف استطاع العرب صناعة مثل هذه الحلقات العظيمة وهى تحتاج ولا شك إلى شىء كثير من الدقة والإتقان، فهل كان لدى العرب أجهزة تحول الدوائر إلى كرات، أعنى آلات خراطة وصناعة مثل هذه الحلقات النحاسية الثقيلة والتى كان يبلغ قطر الواحدة منها نحو خمسة أمتار، وصنعها ابن قرقة حوالى عام ١١٠٠ فى القاهرة، وتطلبت الاستعانة بوسائل أخرى تشبه ولا شك آلات الخراطة الحديثة المستخدمة اليوم فى أوربا والتى توجد بها رقائق من الصلب قوية تدور وتقطع الحلقات.

ولما انتهى ابن قرقة من إعداد حلقته الكبرى فى القاهرة اعترض عليه السلطان قائلاً: لو صنعت حلقة أصغر من هذه لوفرت على نفسك جهدًا كبيرًا، فأجابه ابن قرقة: لو استطعت أن أصنع حلقة طرفها عند الهرم والآخر يصل إلى الجانب الآخر من النيل لصنعتها، إذ كلما زادت الآلات حجمًا كانت النتائج التى يصل إليها الباحث أدق إذ ما أصغر آلاتنا إذا ما قيست بعظم الكون.

ولم ينجح العرب فى صناعة الآلة ذات الحلقات والبلوغ بها فنيًا مرتبة الكمال فقط، بل أضافوا إليها ثلاث حلقات يستطيعون بواسطتها عمل مقاييس الأفق فاستخدموا «الحداد» وهو الذراع المتحركة للقراءة تجنبًا لعدم الدقة التى قد يقع فيها الباحث من جراء الاقتصار على استخدام الجهاز المعروف باسم ذات الحلقات. وزيادة فى الرغبة فى الحصول على قياس دقيق جدًا اخترع العرب آلات جديدة أخرى تقوم على نظريات جديدة وملاحظات جديدة وتجارب جديدة، وهذا الجهاز هو المعروف باسم السمت المربع وقد كان موجودًا فى مرصد «مراغه» وهو من أحسن وأدق الآلات وقد ركبه جابر بن أفلح، وهذا الجهاز هو الخطوة الأولى التى مهدت لظهور الجهاز الحديث المستخدم فى قياس المساحات والمعروف باسم «ثيودوليت». وفى عام ١٤٥٠ تمكن الألمانى «يوحنا مللر» أحد أبناء «كونيجزبرج» بإقليم «فرنكين السفلى»، والذى كان يطلق على نفسه «رجيومونتانوس» من تقليد جهاز جابر، وصنع جهازًا يشبهه تمامًا وأقامه فى مدينة «نورنبرج».

وفى نفس الوقت الذى كان فيه ناصر الدين الطوسى فى شرق الدولة الإسلامية يعمل فى مرصد المراغة ويراقب النجوم، كان يعيش ملك مسيحى فى مدينة «بورجوس» فى شمال إسبانيا، وكان هذا الملك قد اقتنع تمامًا بمقدرة المسلمين العلمية وتفوقهم، ولم يتردد فى الاستفادة من هذه العبقرية الإسلامية. فهذا الملك المسيحى الذى كان يقدر المسلمين وعبقريتهم العلمية، المسلمين الذين كانوا أعداءه، هو الملك ألفونس العاشر ملك قسطيليا وقد عرفه التاريخ تحت اسم الحكيم ولو أنه لم يشتهر بكياسة سياسته أو إلمامه بأطراف المعرفة أو الثقافة. وكل ما كان يمتاز به هو تقديره للثقافة الإسلامية وتبجيلها، وقد أولع بها حتى إنه أحبها حبًا أفلاطونيًا ولعل الناحية العلمية الإسلامية التى استولت على لبه بصفة خاصة هى نبوغ المسلمين فى علم الفلك، هذا العلم الذى يكشف عن مقدرات البشر، والذى ينتقل بالإنسان من الأرض إلى السماء وفى الوقت الذى يكسب فيه الإنسان السماء يخسر الأرض، لذلك شغف هذا الملك جدًا بعلم الفلك الذى أتقنه العرب ونبغوا فيه بينما كانت أوربا حتى ذلك الوقت تجهل هذا العلم جهلاً تامًا، أما هو - كما يأمل مستشاروه اليهود - فيجب أن يكون الأول الذى يشيد مرصدًا فى مملكته مثله فى ذلك مثل

خلفاء العرب وحكامهم بل يجب أن يكون مرصده أكبر وأن يزوده بآلات وأجهزة أحسن وأكمل لكى يصير أكمل وأحسن مرصد فى العالم. لكن لتحقيق هذه الغاية يجب عليه أن يستعين بالعلماء العرب أو اليهود الذين تخرجوا على الأساتذة العرب وأخذوا عنهم الكثير، لذلك أمر هذا الملك المسيحى بترجمة سائر الكتب العربية إلى اللغة القسطيلية الدارجة وأسوة بما فعل العرب يجب أن تركب وتقام أكمل وأدق حلقات فى العالم.

لكن أوربا لم تكن حتى ذلك الوقت تشعر بهذه الحياة العلمية التى وجدت طريقها إلى قلب ذلك الملك المسيحى، هذا الملك الذى كان يفخر أيضًا بأنه يحمل لقب الملك الألمانى ولو أن قدمه لم تطأ أرض ألمانيا. وأخذ يبذل كل جهده فى سبيل خدمة العلم ونشره فى بلاده دون أن يحمل بين طيات قلبه بغضًا لأعداء بلاده أو عقيدته، وإن ظلت مجهوداته مجهولة خارج بلاده، ولما شيد «رجيومونتانوس» فى منتصف القرن الخامس عشر فى مدينة «نورنبرج» جهاز الحلقات مستأنسًا بمواصفات بطليموس اتضح له أن هذا الجهاز لا يدانى الجهاز العربى دقة وإتقانًا.

أما جداول ألفونس فقد كان حظها أحسن فهى فى الواقع من وضع الفلكى العربى «الزركلى» الذى عاش قبل ذلك بنحو مائتى عام فى طليطلة، وقد ترجم الطبيب الملكى «دون أبراهام» كتابه إلى اللغة القسطيلية فاعترف منه جميع فليكى أوربا فى دراساتهم فنحن نعلم أن «نيقولوس كوزانوس» قد اجتمع بأولئك الفلكيين عام ١٤٣٦ باحثين اقتراحًا لتعديل التقويم إلا أنهم لم يوفقوا؛ لأن جميع الأسس الضرورية لمثل هذا العمل لم تكن متوافرة، وبالرغم من تقادم الزيج الفلكية فى ذلك الوقت إلا أنها ظلت هى المعتمدة حتى أيام «كوبيرنيكوس». وكانت هى الأسس لحساب التقويمات السنوية، وفى عام ١٥٥١ فقط قام الأستاذ «رينهولد» من مدينة «فيتنبرج» بمحاولته الناقصة وهى الاستعاضة عنها بزيجه البروسية.

ومن بين الآلات والأجهزة التى كانت فى مرصد الملك ألفونس والتى أخذت عن الآلات والأجهزة العربية هذا العدد الكبير من الأسطرلابات المختلفة وأحسنها هو ذلك المعروف باسم الأسطرلاب الكروى (astrolobium redondo)، كما عثر

فى هذا المرصد على آلة صغيرة فى متناول اليد وسهلة الاستعمال، وهى عبارة عن أسطرلاب، وكانت أكثر تداولا بين العرب من القطوع المخروطية. أما ذات الحلقات فكانت تستخدم فى المرصد فقط بينما نجد هذه الآلة الصغيرة، بمساعدة كبسولة معدنية، تؤدى أجلّ الخدمات التى تؤديها اليوم لنا ساعة الجيب فبواسطتها يستطيع المسلم تحديد أوقات النهار، فالصلاة والقبلة. كذلك كان من المستطاع بواسطة هذا الجهاز إجراء الحسابات الفلكية فكانت هذه الآلة التى أطلق عليها اليونان اسم ماسك النجوم أحب آلة توقيت عند العرب وأكثرها تنوعًا.

وبينما لم يستخدم اليونان الأسطرلاب إلا فى استعمالين أو أكثر قليلاً إذا بنا نجد فى كتاب الخوارزمى حول الأسطرلابات ذكر ثلاثة وأربعين نوعًا، وبعد ذلك بزمن قصير نجد مؤلفًا آخر يذكر ما يقرب من ألف ويصفها وصفًا دقيقًا. وقد طور العرب الأسطرلاب وهذبوه كما استعملوه فى مختلف الأغراض. وهناك نوع كروى من الأسطرلابات وآخر على شكل العدسة وثالث بيضاوى ورابع على هيئة بطيخة وخامس وكأنه عصا. والشىء الجدير بالذكر أنه يندر أن نجد فلكيًا مسلمًا لم يعن بنبأ الأسطرلابات واستخدامها، وأقبلت أوربا على هذا الأسطرلاب وأخذته، ففى القرن العاشر الميلادى أحضر بعض طلاب العلم المتجولين أولى هذه الآلات الدقيقة ذكرى لدراساتهم الطويلة فى الجامعات العربية، وفى النصف الأول من القرن الحادى عشر كتب ألمانى كتابين حول فوائد الأسطرلاب، والكتابان يفيضان بالاصطلاحات والآراء العربية.

ومؤلف هذين الكتابين النادرين كان الابن التعس للجراف السويبى «فولفراد» وقد أصيب هذا الابن الشقى عند ولادته بشلل الأطفال فلازم المحفة منذ طفولته، وكان هذا الشلل الذى أصابه فى عموده الفقرى مؤلمًا جدًا حتى أصبح عاجزًا عن تحريك جسده دون مساعدة آخرين. ولما بلغ السابعة من عمره نقل هذا الطفل البائس «هرمان» إلى دير «ريشناو» حيث ظل به حتى بلغ الحادية والأربعين.

لكن بالرغم من هذا الجسم المريض كانت روحه وثابة طموحة مرحة حتى جعلت من «هرمان» المشلول أو كما سمى نفسه «هرمانوس كونتراكتوس» أشهر وأعلم أستاذ فى الدير. والشىء الغريب حقًا أن هذا الشخص المشلول العاجز عن

الحركة والتنقل أخذ يتأثر بالحضارة العربية تأثرًا عظيمًا، ولا يعرف هل كان تفاعله مع العلوم العربية جاءه عن طريق بعض خريجى الجامعات العربية الذين كانوا يقيمون فى دور الضيافة فى «ريشناو» ومعهم بعض الآلات العربية العجيبة والأسطرلابات فى أيديهم، وكانوا يتفوهون ببعض الألفاظ العربية والاصطلاحات الفنية التى ترامت إلى سمع هذا المريض المشلول أو حصل عليها من طريق آخر؟ وفى كتب «هرمان» نجد هذه العبارات وتلك الاصطلاحات العربية ولو أنها أحيانًا غامضة مشوهة إلا أنها حية، وإن ظلت غريبة على المطلعين على هذه الكتب.

لقد وصف «هرمان» فى كتبه الأسطرلاب وصفًا دقيقًا لكن أحدًا لم يجرؤ ويركب آلة لقياس الزمن وإبان العصور المتالية نجد استخدام الأجهزة الآلية إذ ظل العلماء المسلمون منهمكين فى تركيب هذه الآلات وصناعتها وتصديرها إلى بعض أجزاء أوربا المسيحية وعليها العناوين فى اللغة اللاتينية. وفى القرن الرابع عشر فقط استطاع الغرب تركيب هذا الجهاز العجيب، فالأسطرلاب لا يمتاز بتحديد الزمان والمكان فقط بل يؤدى خدمات جليلة جدًا للبحارة فى عرض البحار والمحيطات. وفى القرن السادس عشر ازدهرت الآداب والكتب التى اهتمت بالأسطرلاب وصناعته، ولم يأت القرن الثامن عشر إلا وكان البحارة المسيحيون يعتمدون عليه اعتمادًا كليًا فى هداية السفن وتوجيهها، وظل الحال كذلك حتى حلت محله أجهزة أخرى.

ولم يقف النشاط العقلى العربى عند هذا بل أقبل العرب على المزولة البسيطة لبطليموس وتفننوا فيها واخترعوا منها أجهزة أخرى جديدة مثل: مزولة الحائط ومزولة السمت والمزولة الأخرى السهلة الحمل وغيرها من الآلات التى تجاوزت الثمانية عشر نوعًا. وكان البيرونى يستخدم مزولة حائط قطرها سبعة أمتار ونصف المتر، وهى مزولة أقل بكثير من تلك التى كانت موجودة فى مرصد «أولوغ بيك»، إذ يبلغ قطرها أربعين مترًا. وصنع العرب نوعًا جديدًا أيضًا وهو المعروف باسم ذات السدس، وهى آلة بصربة ذات مقياس مدرج على شكل قوس دائرى طوله سدس محيط الدائرة تستعمل لقياس الأبعاد «ذات الزوايا»، كما اخترع العرب «ذات الثمن» «الثمينة». وفى أول مرصد بأوربا وهو أورانينبرج لتشيو براها فى جزيرة

«هفين باوست زيه» نجد الأجهزة العربية كذلك. وهى أول أجهزة قدمها العرب لأوربا وذلك بفضل هرمان ابن الجراف السويبى.

وللعرب أيضًا يرجع الفضل فى اختراع الساعات الشمسية التى استطاعوا بواسطتها تحديد وتعيين أوقات النهار بمساعدة النظرية الكروية للمثلث والجدول الذى كان يبين موقع الشمس. وخير ما اخترعوا فى هذا الموضوع ساعة شمسية متحركة أسطوانية الشكل، وهذه الساعة الشمسية السفرية قد وصلت أيضًا إلى دير «ريشناو» حيث يعيش «هرمانوس كونتراكتوس»، واستطاع هو أن يصف تركيبها وصفًا دقيقًا، وقد تدفقت قطع من هذه الساعات السفرية فيما بعد على أوربا.

وعند تركيب الساعات الشمسية لعب الخيال العربى كثيرًا، وبخاصة فى الساعات التى تتحرك بواسطة الماء أو الزئبق أو الشموع المتقدة أو الأثقال. فقد اخترع الساعاتية العرب ساعات شمسية بالطبل فهى تحدث قرعًا فى حوض عندما تبلغ الساعة الثانية عشرة ظهرًا. والساعات المائية التى تلقى عند كل ساعة كرة فى حوض معدنى. ثم نجد قرصًا وعليه الأفلاك وعندما يتحرك القرص تظهر الكوكبات أو عند تمام الساعة الثانية عشرة ليلا نجد فى هيئة نصف دائرة شبابيك يضىء كل منها عقب الآخر بينما يمر بها هلال. وفى عام ٨٠٧م أهدى عربى وهو رسول هارون الرشيد واسمه عبد الله القيصر شارلمان فى «إكس لاشبل» ساعة من هذا النوع: الساعة كانت من المعدن: هكذا يذكر مؤرخ القيصر واسمه «إينهرد» فى مذكراته «وكانت مركبة بطريقة عجيبة فنية جداً. ساعة مائية تبين اثنتى عشرة ساعة زمنية، وعندما تبلغ الساعة الثانية عشرة تكون قد سقطت اثنتا عشرة كرة، وعن طريق سقوطها يرن مضرب متصل بآخرها، وفيها أيضًا اثنا عشر فارسًا. وفى نهاية الساعة يقفز الفرسان من اثنى عشر بابًا وبعد قفزهم تغلق الأبواب التى كانت مفتوحة من قبل. لكن الشىء الذى يثير العجب حقًا فى هذه الساعة لا أستطيع الحديث عنه لأن الحديث عنه يتطلب زمنًا طويلاً..»!

واليوم يستولى علينا العجب عندما نقف أمام دار بلدية ونسمع دقات الساعة ونرى قرصًا يتحرك وشخوصًا لا تستقر فى مكان، كما فكر العرب من قبل ووجدوا لذة فى مثل هذه الصناعة.

الابن الثانى لموسى «الفلكى»

لم يتسلم العرب التراث اليونانى دون تفكير بل أخذوه وخلقوه خلقًا جديدًا وهذا حقيقى أيضًا فيما يتصل بالآلات العلمية وكذلك مختلف العلوم الأجنبية، إذ لم يكد العرب يتسلمون هذا التراث العلمى حتى أقبلوا عليه ناقدين فاحصين لا مؤمنين مستسلمين لما وصل إليه غيرهم من نتائج ليبنوا بعد ذلك على أساس سليم.

ويمتاز التفكير العربى بأنه لا يتقبل المسائل العلمية كحقائق مسلم بها ما لم يفحصها ويطبقها حتى مؤلفات أرسطو أو بطليموس، فقد عرضوا لها ناقدين فاحصين فأصبحنا نجد مؤلفات تحمل ما معناه: حول الخطأ الذى وقع فيه «ثيون» عند حسابه الكسوف والخسوف: أو: حول اختلاف جداول بطليموس من التجارب التى قام بها ثابت بن قرة[1].

إن طبيعة العربى الواقعية دفعت العرب إلى إبداء ملاحظاتهم الخاصة، فإذا كان اليونانيون ينظرون إلى كل شىء على أنه كل ويخضعونه إلى قانون ما فإن العربى ينظر إلى الشىء على أنه سؤال ويحاول الإجابة عليه لا مرة واحدة بل مرات ومرات ومئات باحثًا فاحصًا. ولما كان الشىء الذى يهم العربى هو الناحية العملية والمواظبة على تأدية الصلاة فى ميعادها أو اللحظة التى يظهر فيها الهلال، أعنى هلال رمضان والاتجاه فى الصحراء والحياة والموت حرص العربى على الحصول على النتيجة

---

(١) تقصد المؤلفة كتاب: قول فى إيضاح الوجه الذى ذكر بطليموس أن به استخرج من تقدمه مسيرات القمر الدورية وهى المستوية لأبى الحسن ثابت بن قرة المتوفى سنة ٢٨٨هـ. مخطوطة بدار الكتب المصرية ١٠٤٧ سيقات (المترجم).

الحقيقية الصحيحة، وليس الأمر كذلك بالنسبة لليونان الذين لا يهتمون بالدقة المطلقة، كما قد يهربون من مراعاة الحساب الدقيق.

ثم إن مشاهدة السماء ودراستها ضرورة لا بد منها للمسلم لتأدية التزاماته اليومية، لذلك اهتم المسلمون بعلم الفلك ومن ثم تقدموا فى صناعة الآلات والأجهزة، وكانت النتيجة المحتومة لكل ذلك بلوغ نتائج علمية عظيمة فى إدراك كنه الشمس والقمر وسائر الأفلاك، ولم يقتنع الفلكى العربى بدراسة الزيج البطلمية بل ذهب بعيداً فنقدها ووضع زيجه العربية وحتى هذه أعيدت دراستها ونقحت للتثبت من صحتها. وساهم الخلفاء والحكام والأمراء فى تقدم علم الفلك فأجزلوا العطاء للفلكيين وأوقفوا الأموال الطائلة بل كفلوا حياة العالم وأسرته لا إبان حياته فحسب بل بعد وفاته أيضًا؛ لأن مثل هذه البحوث الفلكية كانت تطلب سعة فى الرزق وسعة فى الزمن.

وأشهر الزيج الفلكية العربية وجدت طريقها إلى أوربا وظلت مستعملة فيها حتى ظهور عصر «كوبرنيكوس»، إذ أصبح من العسير استخدامها للقيام بالأرصاد المختلفة. أما زيج الخوارزمى والمأمون والبتانى وجداول ابن يونس المعروفة باسم الحاكمية والطليطلية للزركلى فهى التى كانت أساسًا لزيج الملك ألفونس.

أما الأهمية والنتائج التى بلغها وتوصل إليها العلماء العرب فى الطبيعة والفلك فكانت مضرب الأمثال، فعلماء الفلك فى بغداد كما يقول الفرنسى «سديلوت» بلغوا فى أواخر القرن العاشر مرتبة من العلم ليس بعدها من مزيد، لقد أدركوا ما كان يجب على العالم إدراكه قبل العدسات والمنظار، ولعل السر فى عدم وصول مؤلفات كثيرة من وضع علماء العرب إلى أوربا هو عدم ترجمة جميع مجلدات المكتبة العربية إلى اللاتينية. ومن أشهر علماء العرب الذين دفعوا الحركة العلمية فى أوربا إلى الأمام وطوروها هو العالم العربى الفرغانى، وكان معاصراً لبنى موسى الذين كانوا يعملون فى بغداد. لقد قاس الفرغانى خطوط طول الأرض وأدرك، وكان أول من أدرك، أن فلك الشمس كسائر أفلاك الكواكب يتحرك مع مرور الزمن إلى الوراء، فكتاب الفرغانى فى أصول علم النجوم قد ترجم فى العصور

الوسطى فى أوربا إلى اللاتينية ونشره «ميلنختون» عام ١٥٣٧م، وكانت هذه المخطوطة من مخلفات «رجيومونتانوس» فى «نورنبرج».

ومن بين العلماء المشهورين الذين تلألأ نجمهم فى الفلك ثابت بن قرة تلميذ محمد بن موسى فقد حسب ثابت هذا ارتفاع الشمس وطول السنة الشمسية، وغير ثابت بن قرة نجد البتانى (٨٨٧-٩١٨م)، وقد ذاع صيته فى أوربا فى العصور الوسطى وإبان حركة إحياء العلوم، وقد بلغ ما بلغ من توفيق عن طريق دقته الحسابية لمعرفة التفاوت بين خطوط الطول للسنتين المدارية والفلكية وعاونه على بلوغ هذه النتائج قياسه دوران الأرض حول الشمس، وقد استخدم لتحقيق هذه الغاية وسيلتين ولم يكتف بواحدة لقد صحح أبحاث ومحاولات الخوارزمى بواسطة تجاربه التى قام بها لفحص ظهور الهلال وكسوف الشمس وخسوف القمر والزاوية الواقعة بين خطين يكونان زوايا متقابلة. أما المقدمة الفلكية لزيجه المشهورة فقد ترجمها «رجيو مونتانوس» إلى اللاتينية وزودها بشرح. وفى عام ١٥٣٧ نشرها فى «نورنبرج» مع كتاب الفرغانى فعرفتها أوربا. وفى عام ١٦٤٥ ظهرت طبعة جديدة فى «بولونيا» مستقلة وعنوانها اللاتينى «كتاب محمد البتانى فى الفلك مع تعليقات يوحنا رجيو مونتانوس». وقد اهتم «كوبرنيكوس» بالعلماء العرب وحتى حوالى عام ١٨٠٠م نجد الفرنسى «لابلاس» يستفيد من كتب ابن يونس القاهرى فى دراساته وأبحاثه.

وقد قام البتانى كذلك بوضع حساب دقيق لدائرة البروج واستخدم وسائل جديدة لتحديد عرض المكان، وجاء بعده ابن الهيثم فتوصل إلى طرق أخرى حديثة؛ وذلك بفضل نظريته الخاصة بالأشعة وانكسارها. هذه النظرية التى كانت نقطة تحول فى أبحاث العالم فى الطبيعة وبخاصة الضوء[١].

والحسن بن الهيثم (٩٦٥-١٠٣٩م) هو الذى أثر فى أوربا تأثيراً بعيداً وعرفته تحت اسم «الحسن» وكان أشهر الأساتذة العرب الذين أخذوا بيدها فى هذا المضمار

---

(١) تقصد المؤلفة كتاب: المناظر تأليف أبى الحسن بن الحسن بن الهيثم البصرى المصرى المتوفى سنة ٤٣٠هـ (المترجم).

من البحوث، فقد وضع نظرية حول حركات الأفلاك على أطباق غير شفافة وقد شغلت هذه النظرية العصور الوسطى كثيراً كما خلفت لنا أثراً فى المكان الخاص بـ «شتم» بالقرب من مدينة «إينزبروك» حيث توجد إلى اليوم مائدة من خشب القرو ترجع إلى عام ١٤٢٨م، وقد صنعت فى «أوجسبرج»، وهى تبين حركات الأفلاك الستة حسب نظريته وفى صورة نموذجية.

لكن شهرة هذا العالم العربى لم تقم على هذه النظرية فقط، ففضله على الفلك يتجلى فى اكتشافه أن جميع الأجرام السماوية ومن بينها النجوم الثابتة ترسل نورها، عدا القمر الذى يستمد نوره من الشمس. وهذه النتيجة التى انتهى إليها ابن الهيثم نقلته إلى فكرة أخرى جديدة أدت إلى ثورة عارمة فى علم الفلك فقد عارض ابن الهيثم العالمين الإسكندريين «أويقليد» و«بطليموس» فأثبت خطأ نظرياتهما، وبذلك نجح فى فرض آرائه الجديدة.

والمسئول عن هذا كله كان نهر النيل والآراء التى قال بها خاصة بالفيضان السنوى واستغلالها فى سبيل خدمة وادى النيل. لقد عاش ابن الهيثم كطبيب وموظف بالقصر فى البصرة على الخليج العربى عندما علم فى القاهرة الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله بأن رجلا على استعداد لأن ينظم فيضان النيل، وبذلك يحل مشكلة من أعوص المشاكل التى تشغل بال سكان الوادى فاستدعى الخليفة هذا العالم من البصرة إلى القاهرة وعند وصوله استقبله الخليفة كعادته استقبال الملوك وقدم له مختلف الوسائل لتحقيق أهدافه. فسافر ابن الهيثم ومعاونوه حتى بلغ أعالى النيل، ومن ثم شرع فى دراسة حالات النهر وتياراته فى أسوان وغيرها من جهات النيل، وكان ابن الهيثم أنى ينتقل يشاهد من الآثار المصرية الفرعونية ما أثار دهشته وتقديره، فقد شاهد المعابد والمقابر وغيرها من الآثار التى ترجع إلى آلاف السنين فالمعابد شامخة والأهرامات قائمة فأمام هذه الأبنية الشاهقة التى تشهد بتفوق قدماء المصريين هندسيًا وفنيًا لم يسعه إلا أن يعترف بعظمة هذا الشعب المصرى العظيم والذى كان من المهارة الهندسية بحيث خلق هذه المعجزات. وبالرغم من ذلك لم يحاول تنظيم الفيضان فلا بد أن هذا التنظيم من الأمور

المستحيلة؛ لذلك خجل ابن الهيثم وعاد يائسًا قانطًا إلى القاهرة فأثار فشله هذا سخط الحاكم وسخريته فعين ابن الهيثم فى وظيفة إدارية لم تدخل إلى نفسه شيئًا من السرور وشاء سوء طالعه أن يرتكب خطأ وخشى غضب الحاكم وتنكيله به فتظاهر بالجنون ونجحت هذه الحيلة فحدد الخليفة إقامته فى داره وضربت الحراسة عليه وعلى بيته واستولت الحكومة على ممتلكاته. وحدث أن الخليفة خرج مرة ممتطيًا جواده ولا يعلم بخروجه أحد وعندما بلغ أبواب القاهرة اختفى ولم يعرف له أثر فكان اختفاؤه لغزًا من الألغاز، وبذلك استطاع ابن الهيثم أن يتحرر من تحديد إقامته وفرض الحراسة عليه وتأميم ممتلكاته فترك سكنه واتجه إلى حى الأزهر حيث أقام هناك واضطر أن يكتسب قوته عن طريق النسخ، وهكذا قضى هذا الرجل التعس حياته حتى توفى. وقد كلفه بعضهم مرة أن ينسخ له مبادئ أويقليد والماجسطى لبطليموس فنسخهما بدون خطأ وفى غاية الدقة ليستطيع أن يتغلب على متاعب الحياة ويحصل على قوته اليومى. ومن الجدير بالملاحظة أن ابن الهيثم أدرك الأخطاء التى تردى فيها هذان العالمان فعارضهما وانتقدهما وبين أخطاءهما، فقد قال كل من أويقليد وبطليموس أن العين ترسل «أشعة بشرية» على الأشياء المراد رؤيتها، فأعلن ابن الهيثم خطأ هذا الرأى وقال إن العين لا ترسل شعاعًا، وإن هذا الشعاع ليس هو الذى يسبب الرؤية والعكس هو الصحيح فإن الجسم المرئى هو الذى يرسل أشعة إلى العين وإن عدسة العين هى التى تحوله.

وكان هذا الرأى لابن الهيثم كشفًا جديدًا قفز بالعالم العربى بخواص الحواس قفزة بعيدة جدًا وصحح الخطأ الذى وقع فيه العالم القديم، وفسر لنا ابن الهيثم الضوء ومظاهره، كما أوجد بذلك قانونًا جديدًا أثبت صحته وأيده بتجارب كثيرة مختلفة فكان ابن الهيثم هو صاحب النظريات العلمية المعتمدة على التجارب، وابن الهيثم هو وأمثاله من العلماء العرب هم مؤسسو الأبحاث التجريبية وليس «روجر بيكون Roger Bacon» أو «باكوفون فرولام Baco von Verulam» أو «ليوناردو ده فينشى Leonardo de Vinci» أو «جليلى Galilei»، فالعرب سبقوهم وبلغوا بأبحاثهم التجريبية المستوى الرفيع وأصبح اسم الحسن بن الهيثم هو همزة الوصل وهو النجم الذى أضاء الطريق ومهد لقيام الأبحاث الحديثة بعد أن سبق أوربا إليها.

فابن الهيثم هو الذى استغل الزمن الذى مضاه مختاراً فى سجنه، كما استغل أيضًا الأعوام التى تلت خروجه وقام بأبحاثه العلمية وتجاربه الخاصة بالبصريات الهندسية فخلق بذلك علمًا مستقلا.

وكيف يقع خسوف القمر إذا كان القمر جسمًا غير مضىء؟ وأنه يستقبل ضوءه من الشمس؟ فمثل هذا السؤال الفلكى دفع ابن الهيثم إلى خلق نظرية خاصة بتكوين الظل عن طريق أجسام نورانية. ومن هنا أوجد رأيه الخاص بمصادر الضوء، وأخذ يقوم بمختلف التجارب وأوجد دراسة خاصة بطبيعة إلقاء الظل كما أطلق هو نفسه هذه التسمية على بحثه هذا. وأول تجربة قام بها هى الخاصة بجهاز يشبه تقريبًا آلة التصوير وبها ثقب، وكانت هذه الآلة هى الأنموذج الأول لآلة التصوير، وقد أثبت ابن الهيثم عن طريق هذا الجهاز استقامة خطوط الضوء، ولم يكد يصدق عينيه عندما شاهد العالم وقد أصبح أسفله أعلاه بمجرد وضع الصورة وضعًا عكسيًا. إن التجارب التى توصل بمقتضاها ابن الهيثم إلى هذا الفتح العلمى الجديد هى بعينها التى اهتدى إليها «ليوناردو ده فينشى» فيما بعد. لقد وجد ابن الهيثم تعليلا لكسر الإشعاعات عندما تمر خلال وسيط مثل الهواء أو الماء، واعتمادًا على هذه الظواهر وتلك الحقائق استطاع ابن الهيثم معرفة ارتفاع الطبقة الهوائية المحيطة بالكرة الأرضية، والشىء الجدير بالذكر حقًا أن ابن الهيثم توصل إلى معرفة ارتفاع هذه الطبقة تمامًا وأنها خمسة عشر كيلو مترًا. ولم تقف أبحاث ابن الهيثم عند هذا، بل امتدت إلى هالة القمر والغسق وقوس قزح، ونحن نعلم أن أرسطو قد فشل عندما حاول فى شرحه تعليلها التعليل العلمى. وذهب ابن الهيثم بعيدًا فطبق معلوماته على أجهزة البصريات فدرس وحسب الانعكاس فى قطاع المرآة الكروية أو المخروطية أعنى الإشعاعات المتوازية التى توجد فى نقطة الاحتراق، كما اهتدى أيضًا إلى قوانين تتلمذت عليه أوربا وعرفته تحت اسم «أرزاكيل Arzachel»، (الزركلى) فهو من بين الأساتذة العرب الذين أخذت عنهم أوربا الشىء الكثير. ولم يشتهر الزركلى بالفلك فقط بل بتركيب الآلات أيضًا فهو الذى صنع الجهاز الذى مدحه «رجيومونتانوس» وقال عنه ما معناه إنه أحسن جهاز وهو عبارة عن أسطرلاب الزركلى، وقد لاقى هذا الأسطرلاب شهرة عظيمة تتفق ومكانة الزركلى

الفلكية. ففى القرن الخامس عشر نشر «رجيومنتانوس» مجموعة من الرسائل حول هذا الأسطرلاب.

وفى عام ١٥٠٤ كتب الفلكى البافارى «يعقوب زيجلر» شرحًا لرسالة الفلكى الطليطلى وفى عام ١٥٣٤ ظهرت ترجمة لاتينية وضعها (يوحنا شونر) فى نورنبرج وترجمة عنوانها: «النظرية التى ظهرت حديثًا حول أسطرلاب الفلكى الزركلى).

وقد اهتم بالمسائل الطبيعية والنجوم والفلك أيضًا مواطن من مواطنى ابن الهيثم وهو لا يقل عنه شهرة وأعنى بذلك المواطن «الكندى»، وقد توفى عام ٨٧٣م واشتهر فى أوربا شهرة عظيمة وقد سمى فيما بعد باسم فيلسوف العرب ووضع نحواً من مائتين وخمسة وستين كتابًا فى مختلف أنواع العلوم، ومن بينها بحث حول تقهقر الأفلاك واللغز الأول لعلم الفلك، وقد حاول اليونانيون معالجة هذا الموضوع فلم يهتدوا إلى نتيجة حتى جاء العالم العربى البطروغى الأندلسى وتوصل إلى الحل، كما أنه نقض نظرية بطليموس الخاصة بانحراف الأفلاك والدوائر التى ليس لها مركز مشترك، وبذلك مهد الطريق للعالم «كوبرنيكوس». أما كتاب البطروغى فى الهيئة فقد ترجمه «ميخائيل سكوتوس» عام ١٢١٧ وهو فلكى القيصر فريدريش الثانى إلى اللاتينية.

والكندى هو أول من استخدم الفرجار لقياس الزوايا فى الهندسة كما حسب أثقال بعض السوائل الخاصة وأجرى عدة تجارب على الجاذبية وسقوط الأثقال. أما كتابه حول سقوط الأجسام من أعلى فلم يحظ بمن يترجمه إلى اللاتينية، كذلك الحال مع نظرية الذرة التى وضعها عام ١٠٠٠م الطبيب القاهرى على بن سليمان، وقد عالج فى رسالته الذرية هذه مسألة إمكانية تقسيم الجسم إلى جزيئات، وهذا التقسيم لا ينتهى، وأن الإنسان لا يصل إلى نتيجة من جسم غير قابل للتجزئة.

كذلك لم تلتفت أوربا إلى ملاحظات العرب المتعلقة بالبقع الشمسية والتى تنبهت إليها أوربا عام ١٦١٠م فقط، وما يقال عن البقع الشمسية يقال أيضًا عن ذبذبة محور الكرة الأرضية، ولو أن الناس لا يشعرون بها نظرًا لكبر الأرض.

ومن الجدير بالذكر أيضًا أن أوربا لم تلتفت إلى رأى البيروني الذى نادى به حوالى عام ١٠٠٠م (٩٧٣-١٠٤٨م) وهو الخاص باعتبار الشمس مركز الكون من وجهة النظر الفلكية، وقد توصل إلى هذا الرأى من قبل «أريستارخ» أحد أبناء مدينة ساموس، وتوصل إليه بعد ذلك بقرن «سليكوس» الكلدانى البابلى.

وإبان عصر إحياء العلوم ظهر العبقرى الألمانى (كوبرنيكوس) وقبله بنحو خمسة قرون عرفه العالم العربى البيرونى. فليست الشمس هى سبب الليل والنهار بل الأرض نفسها هى التى تدور حول محورها والشمس تجرى مع الأفلاك، والحقيقة أن جميع الذين تجرأوا على نقل الشمس من موضعها سيظلون مدى الحياة بمعزل عن الوجود لا يفهمون أحدًا ولن يفهمهم أحد، لذلك ما أعجب التناقض الذى نادى به «كوبرنيكوس» حتى اضطهدته أوربا المسيحية ونكلت به أشد التنكيل لأنه خالف تعاليم الكنيسة ورفض كلمة الكتاب المقدس. لكن إذا استثنينا هذه المعارضة سواء كانت علانية أو سرية فالعالم «كوبرنيكوس» لم يكن هو أو الفلكيون الآخرون فى وضع - وهم على ما هم عليه من أجهزة رصد لا يوجد بينها منظار مجسم - يسمح لهم بإثبات صحة آرائهم المناقضة للدين، لذلك كان لا بد من مرور أكثر من قرن على هذه الآراء لكى تفرض نفسها ويقبلها جمهور المفكرين. وما حدث لهؤلاء حدث من قبل للبيرونى عندما جاء برأيه وذلك لعدم وجود الأجهزة التى تمكنه من إثبات صحة رأيه. وهكذا ظلت الأرض ثابتة فى المكان الذى خصصه لها «هيبارش» فى قلب الوجود، وحتى العرب الذين جاءوا بعده والذين اشتهروا بدقتهم الفلكية فى مشاهدة الأفلاك ورصدها وخطوا بالعلم خطوات أبعد من تلك التى قام بها «هيبارش» عجزوا عن زعزعة الآراء الخاصة بالعالم.

وحتى القرن الثانى عشر نجد الشكوك موجودة فى آراء بطليموس الخاصة بالكون، لكن فى الشرق العربى وبخاصة فى إسبانيا ومراكش نقرأ كثيرًا من الآراء التى تشكك فى أقوال بطليموس وكان هؤلاء الناقدون متأثرين بآراء أرسطو. وهكذا نجد ابن باجة من سرجوسة يبدأ ببعث فكرة الاعتماد على البراهين الطبيعية

للمظاهر السماوية. واستمر هذا النزاع بين أنصار أرسطو وأتباع بطليموس مستعراً بين أفراد مدرسة ابن باجه طيلة ثلاثة أجيال وبخاصة بزعامة أمثال: ابن طفيل وابن رشد والبطروغي، واستمرت الخصومة مستعرة في القرنين الثالث عشر والرابع عشر في فرنسا وألمانيا وإنجلترا، وخلقت مناضلين أمثال: «ألبرت الأكير» و«توماس فون إكوين» و«روجر بيكون» و«جان بوريدان» و«ديتريش فون فريبورج». وكان من نتائج المعركة العلمية بعث الوعي التفكيري في أوربا.

الابن الثالث الرياضى

أهم من خطوات التقدم التى خطاها علماء العرب بالعلوم، وأهم من الاختراعات التى توصلوا إليها اعتماداً على رصدهم للكواكب، خلقهم هذا الجيل العلمى الذى قدموه لأوربا.

لقد كانوا أساتذة الرياضيات بخلاف الرومان الذين لم ينتجوا شيئًا فى هذا الحقل اللهم إلا هذا النذر القليل جدًا ذا النتائج التافهة واختلاسًا بينما نجد النبوغ الرياضى اليونانى يكاد يقتصر على الهندسة ونظرية المساحات حتى إنهم أسدلوا على ما يعرف فيما بعد بعلم الجبر ستاراً هندسيًا. كذلك الهنود فقد مهروا فى الحساب كما عالجوا حساب المثلثات اليونانى جبريًا وحسابيًا. أما العرب فقد امتازوا بالجمع بين عظم العدد وعظم المساحة، وهذه هبة امتاز بها أصغر أبناء موسى ألا وهو «حسن». وبفضل هذا الاستعداد خلق العرب فروعًا جديدة من العلوم، كما طوروا غيرها تطويراً تقدميًا عظيمًا ففاقوا بذلك اليونان والهنود، لذلك فالعرب وليس اليونان هم أساتذة أوربا فى النهضة العلمية الرياضية، وساعدتهم على النهوض بهذه الرسالة الأعداد الهندية، فقد خدمهم الحظ إذ عرفوا فى ذلك الوقت الأعداد الهندية كما أدركوا أهمية استخدام هذه الأشكال الصغيرة التى تزين كتاب «كنكاه» إلى إعجابهم بها والحرص على الاستفادة منها بالرغم من غرابتها عليهم. ففى معاهد الإسكندرية وسوريا كانت هذه الأعداد معروفة منذ زمن طويل دون أن تنال اهتمامهم بخلاف العرب وعقليتهم الرياضية، فقد أدركوا فى ذلك الوقت أين

وكيف يستخدمونها أعداداً ورياضة، وبذلك نجح العرب فى الاستفادة من هذه المادة الجديدة وفى فترة قصيرة أصبحت جهازاً طيعًا للإفادة منه.

فكل تركيب حسابى وكل عملية حسابية فلكية سواء كانت معقدة أو سهلة أخذت تعتمد على الأعداد، وأقبل العربى مسروراً على كل عملية حسابية، ثم إن بعض التخطيطات الخاصة بالآلات الفلكية والتى لم تستخدم من قبل تناولها العربى إشباعًا للذته الشخصية الحسابية، نعم إن التفانى فى العناية بأجمل أنواع النظام، أعنى الحساب قادهم إلى إتقان المسائل الحسابية التى حار فيها علماء العالم القديم فلم يجدوا لها حلا.

إن مثل هذا الرأى قد يعتبر مفاجأة، وذلك لأن لفظ «أريثماتيك Arithmentik» لفظ يونانى، ومعناه لذة الاهتمام بالأعداد لكن هذه العملية والاهتمام بالأعداد بالنسبة لليونانى المتأمل عملية كمالية. فلما استيقظ الطفل وأدرك سر الأعداد والحساب، اهتم بنظريات الأعداد ورمزية الأعداد والأعداد الزوجية والفردية وغيرها، لكن ليس بهذا النوع من الحساب الذى يهم التاجر فى السوق. أما الحساب التجريبى العملى والذى نعرفه اليوم كفن حساب احتسبه اليونانى فيما بعد فى هذا النوع الذى يعرف باسم تعبئة الجيوش.

لقد كان هذا هو العلم المفضل عند الهنود، والهنود هم الذين خلقوه، ولكن كيف كان هذا؟ وكيف أصبح من الممكن البدء به؟ إن الهنود لم يدونوا فقط دينهم وفلسفتهم فى الشعر وإلا لتساوت معهم فى هذه الظاهرة شعوب أخرى ومنها الشعب العربى، لكن تميز الهنود كذلك بالفلك والرياضة وعبروا عنهما فى لغتهم المقدسة الرفيعة وفى شعر يكتنفه شىء من الغموض.

والعقلية الإسلامية الدقيقة الفاحصة جعلت من الحلية القيمة بلّوراً صافيًا، فالخوارزمى هو أول من جعل الحساب علمًا صالحًا للحياة اليومية العملية وحذا حذوه فيما بعد العلماء والفرس، فعنوا بالحساب وأضافوا إليه حتى جعلوا منه الأساس الذى شيدت أوربا عليه فيما بعد علم الحساب الحالى. والفضل فى كل هذا يرجع إلى أستاذ الجميع الخوارزمى.

وإذا ذكر الخوارزمى ذكر فضله على علم الجبر، فهو أول من نظمه وخلق العرب منه علمًا مستقلا، ومن علم الجبر الذى كان يعنى به فى مصر أبو كامل واختصه البيرونى ببعض مؤلفاته، وكذلك ابن سينا والكراديسى اغترف «ليوناردوا فون بيزا» معلوماته الخاصة بالمعادلات التربيعية والتكعيبية التى كان يعلمها ويدرسها من كتابه الأولى. وقد بلغ علم الجبر القمة على يد رجل نعرفه على أنه شاعر صوفى أو المفكر الحر وهو الفارسى عمر الخيام، فقد خطا بهذا العلم خطوات واسعة حتى جاء ديكارت وسار به بعيدًا.

لكن علم الجبر الأوربى لم يبن على علم الخيام أو من سبقوه، فالعالم «ليوناردو فون بيزا» اعتمد على العلامة المصرى ابن كامل، فمدرسة الخوارزمى التى تنتسب اسمًا وموضوعًا إلى الخوارزمى. فالجراف فون إيبرشتين الألمانى زعيم طائفة الدومينيكانيين اشتهر فى القرن الثالث عشر باسم «يوردانوس نيموراريوس» (أى الذى ينتسب إلى غابات جبل أجه) علم أوربا حساب العرب وجبرهم، وقد وضع رسالتين هامتين حول الموازين والمقاييس اعتمد فيهما على المؤلفات العربية كما اعتمد فى كتابه فى الهندسة على كتاب أبناء موسى الثلاثة فى الهندسة وكتاب ثابت ابن قرة الملقب بلقب أويقليد العرب.

أما أسلوب الرياضة الذى اختطته أوربا لنفسها، فقد كان فى الواقع أسلوبًا جديدًا أو خلقًا جديدًا، فالثوب الهندسى الذى أسدله عليها اليونان جردها منه العرب وكسوها ثوبًا من الجبر والحساب؛ لأن العربى يميل بطبعه إلى الأشكال الهندسية ميله إلى العلاقة بين الهندسة وبين العدد والحساب، فالمسائل التى تتصل بحل المعادلات التربيعية وتقسيم الزاوية إلى ثلاثة أقسام أو تقسيم الدائرة إلى خمسة والتى يعالجها اليونانى علاجًا هندسيًا مرئيًا يضعها العربى فى معادلة جبرية ثم يحلها حسابيًا. فتحويل العرب الرياضة إلى جبر وحساب اقتبسته أوربا واستعملته وما زالت تستعمله حتى يومنا هذا.

والعرب أيضًا هم الذين أوجدوا الحساب بالكسور العشرية بعد الشولة،

فالفلكى الكاشى[1] استكمل حساب الخانات، وذلك بتحويل الكسر الأول إلى خانات فمثلاً الكسر.

$$٢\frac{١٠}{١٢٥} = ٢\frac{٨}{١٠٠} = ٢٠,٨$$

وهذا مجهود لولاه ما استطاعت بائعة البيض أو بائع اللبن حل المسائل الحسابية العويصة، وكذلك التوصل إلى حساب اللوغاريتمات.

وحتى اليوم ما زال الجبر فى أوربا مطبوعًا بالطابع العربى فهناك الحرف (X) للإشارة إلى المجهول، وهذه الإشارة اتباعًا للترتيب الأبجدى استتبعت استخدام الإشارة (Y) للمجهول الثانى و(Z) للمجهول الثالث فكل هذه الإشارات تحسست طريقها إلى أوربا عن طريق العربية، وقد يبدو هذا القول عجيبًا؛ لأن العربية لا تعرف الإشارة (X). لكن المتأمل إلى العربية يجدها تعبر عن المجهول بلفظ «شىء»، ومن ثم اختصرت هذه الكلمة إلى الحرف (ش) ويقابل هذا الصوت فى الأسبانية القديمة الصوت (X)، وقد وجدت هذه الإشارة طريقها إلى المدارس الأوربية فى الفرقة السابعة، إذ تستخدم للتعبير عن المجهول الإشارة الأسبانية (X) والتى هى العربية (ش) فى ثوبها الجديد الأسبانى.

والعرب أيضًا هم الذين اخترعوا حساب المثلثات المسطح والكروى وهو علم لم يعرفه اليونان وتنبهوا إليه فقط عن طريق نظرية الخطوط المتقاطعة للعالم «منليوس» فظهر لهم هذا التطور المفيد. أما العرب فقد استخدموا عوضًا عنه نظرية الجيب والمستوى المماس والقواعد الأساسية لحساب المثلثات، وبذلك وفق العرب فى خلق علم جديد مفيد فى الفلك والملاحة والمساحة.

وعن طريق ترجمة الكتاب الشهير للعالم العربى أبى عبد الله محمد بن سنان

---

(١) لعل المؤلفة تعنى كتاب: مفتاح الحساب (فى علم الحساب) تأليف غياث الدين جمشيد بن مسعود بن محمود بن الطيب الكاشى المتوفى سنة ٨٤٠هـ (المترجم).

ابن جابر الحرانى المعروف بالبتانى وهو كتاب الزيج الصابئ، شقت كلمة «جيب» الواردة فيه طريقها إلى سائر العلوم الرياضية، ولا سيما فهذا الكتاب قد لاقى شهرة عظيمة لا فى الشرق فقط بل فى أوربا أيضًا. وكلمة «جيب» العربية هذه ترجمت إلى اللاتينية «سينوس Sinus»، ومنها إلى مختلف اللغات الأوربية. وعوضًا عن أوتار الأقواس للمربع الكروى نجد العلماء يستخدمون الجيب من جوانب وزوايا المثلث الكروى. كما عينوا وظائف «جيب التمام» و«المستوى المماس» و«ظل التمام» وحسبوا جداول الجيب وجداول المستوى المماس. ثم نجد الفارسى أبا الوفاء يذكر كتاب البتانى ويشيد به وينجح فى الوصول إلى طرق أخرى لحساب جداول الجيب، وهذه الطرق تسمح له أن يحسب حتى ثلاث خانات من خانة العشرات العاشرة. وقد بلغ هذا الكشف أوجه على يد فارسى آخر وهو ناصر الدين الطوسى وزير مالية هولاكو. ولم تدرك أوربا هذا التطور أو تخطو به خطوة إلى الأمام إلا بعد قرون. وكذلك نجد التاريخ يعيد نفسه كما رأينا فى تاريخ الجبر فمجهودات الفرس التى ختمت اختراعات العرب لم تجد طريقها إلى أوربا ولم تخرج من خارج العالم العربى.

لذلك فأوربا لم تبن صرحها العلمى على مجهودات الفرس بل على المجهودات العربية، فعن الفلكيين العرب أخذت أوربا الحساب المعروف باسم الطريقة الستينية، وهى النظام القائم على اتخاذ الوحدة ستين قسما. وتقسيم الدائرة إلى ستين قسما. وقد ابتدع البابليون هذا التقسيم الستينى للدائرة إلا أنهم لم يبلغوا الحساب الستينى والذى نجده عند اليونان، وقد خلطوا بينه وبين العشرى والأعداد العشرية. والعرب فقط هم الذين استكملوا الحساب الستينى، وبذلك أصبح حساب الفلكيين. والعرب أيضًا هم الذين سبقوا أوربا بنحو سبعمائة عام قبل إنجلترا وألمانيا إلى إيجاد الحساب الخلافى، وصاحبا الفضل فى إيجاده الطبيب الفيلسوف ابن سينا (٩٨٠ - ١٠٣٨) واللاهوتى الغزالى (١٠٥٣ - ١١١١) وهما من أبناء فارس. والذى حدث أن ابن سينا تعلم وهو ابن عشر سنوات بينما كان يعمل فى دكان تاجر فحم الحساب الهندى، ومن ثم ظهرت عبقريته الرياضية ونبوغه

الفلكى فأضاف عن طريق بحوثه العلمية التى لم يسبقه إليها أحد الكثير من النظريات الطبيعية. كذلك عالج اللانهائى الصغر فى الطبيعة والرياضة، ولا شك أن أوربا لم تتنبه إلى «مثل» هذه النظريات الخاصة باللانهائى الصغر، أعنى الجسم الصغير صغرًا لا نهائيًا إلا فى القرن السابع عشر الميلادى بفضل أمثال: «نيوتين» و«ليبنيتز».

أما الفارابى (٨٧٠ـ ٩٥٠م) فقد كان ثانى اثنين أولهما أرسطو عرفتهما الإنسانية، لقد كان الفارابى فيلسوفًا حكيما ورياضيًا عبقريًا وموسيقيًا بارعًا، وقد اشتهر بمجادلاته العلمية مع علماء قصر الخليفة فى دمشق، وكان الخليفة يشاركهم الأحاديث ويحضر المجادلات. وقد ألقى الفارابى كثيرًا من المحاضرات حول آلة القانون الموسيقية التى اخترعها هو واستخدمها لتهدئة أعصاب خصومه عندما كانوا يثورون عندما يحمى وطيس المجادلة، كما كان يعد المستمعين بالعزف عليه لتقبل وتتبع المناقشات الأخرى. واهتم الفارابى كثيرًا بالنظريات الموسيقية وبخاصة تلك التى تتصل بالإتلاف والفاصلة. وانتهت به هذه الدراسات التى عنى بها كثيرًا إلى فكرة اللوغاريتمات التى نجد أصولها فى بحثه حول أصول الفنون الموسيقية. ومن غير المعقول أن دراسات الفارابى أو نظريات ابن سينا الخاصة باللانهائى الصغر هى التى أدت إلى ظهور مثل هذه الأفكار وتلك الاتجاهات فيما بعد فى أوربا إذ لا صلة بين الماضى والحاضر، وحتى لما كاد يخبو الإشعاع العربى فإن العبقرية العربية ظلت ترسل شعاعها إلى أوربا التى كانت آخذة فى اليقظة من سباتها العميق، فأوربا عرفت تراث العالم القديم عن طريق العرب فقط فترجمة العرب للمخطوطات اليونانية والشروح التى وضعها العرب عليها والكتب التى ألفها العرب كل هذه كانت العامل القوى فى النهضة العقلية الجرمانية وفى تغذيتها، فالعرب بأعدادهم وآلاتهم وحسابهم وجبرهم ونظرياتهم حول المثلثات الكروية وعلوم البصريات وغيرها وغيرها نهضوا بأوربا ودفعوها إلى الحركة العلمية دفعًا، ومن ثم استقلت واكتشفت واخترعت وتسلمت زعامة العلوم الطبيعية.

وينتمي إلى نفس الأسرة أيضا علم الفلك

هدفت العصور الوسطى إلى توجيه الأوربيين وجهة خاصة بعيدة عن الاهتمام بالمظاهر الطبيعية والظواهر الفلكية، فقد حولت أنظارهم إلى الله والإيمان به، والاعتقاد فى هذا المعبود كان لا يتطلب منهم إلا تحديد مواعيد أعياد الكنيسة، هذه المواعيد التى كانت تتغير من عام إلى آخر. أما الاهتمام بالشمس والقمر والزهرة والمشترى وبعض الكواكب الأخرى وبخاصة المقدسة منها، فقد حرمته الكنيسة على اتباعها اعتقاداً منها أن هذا الاهتمام قد يؤدى بالمسيحيين إلى الانزلاق إلى الوثنيين. أما الذين كانوا يكرسون حياتهم للكنيسة فاكتفوا بزيارة مدارسها التى كانت تعنى بقليل من المعرفة الضحلة التى ورثتها العصور الوسطى من المدارس الرومانية المتأخرة، وإن شخصًا مثل «يوردانوس نيموراريوس» أزعج زملاءه الدومينيكانيين لما اعتمد على العلوم العربية التى أخذها عن بنى موسى وغيرهم من علماء العرب، وقد اضطرته هذه الحالة إلى الحصول على إذن خاص، وقد منح هذا الإذن له لأنه كان فى الواقع رئيس الطائفة وقد منح هذا الإذن له وصدر قرار باستثنائه فى الدستور الذى وضع عام ١٢٢٨، والذى حرم الاتصال بالوثنيين بالرغم من رقيهم وازدهار حضارتهم. وحرم الدستور كذلك على أعضاء الطائفة دراسة فلسفة الوثنيين والفنون الحرة، وذهب الدستور بعيداً فى التحريم فمنع الأعضاء حتى دراسة قواعد الحساب الأولية والتقويم الخاص بتحديد أعياد الكنيسة واستثنى بعض الحالات الفردية.

لكن بالرغم من امتهان الكنيسة للمسلمين الوثنيين فى نظرها!! إلا أن حاجة الكنيسة وأتباعها إلى العلوم والفنون الوثنية اضطرت أولئك المسيحيين إلى الاتصال بالمسلمين، وذلك فى حالة ما إذا فات المسئولين المسيحيين رؤية البدر فى فصل الربيع. فإذا وقع هذا حار القديس المكلف واضطرب ولا ينقذه من مأزقه هذا إلا إرسال بعثة إلى مسلمى أسبانيا - عبدة الشيطان - حيث يسألهم أعضاء البعثة عن تاريخ أسبوع الآلام وعن ميعاد عيد الفصح أو القيامة.

إن اهتمام أوربا المسيحية بالتأمل فى السماء ونجومها وكواكبها كان ضعيفًا جداً

بل كان المسيحى الأوربى إذا نظر إلى السماء كانت نظرته مشوبة بسوء النية والشك فى أولئك الذين يتأملونها فكان الأوربى يرميهم بأقبح التهم والسباب، لكن هذا الموقف العدائى لم يمنع أمثال «جربرت فون أوريلاك» من تحدى أولئك ا لذين أعماهم التعصب، وأقبل على علم الفلك دارسًا وباحثًا مع احتفاظه بولائه للقيصر والدولة حتى أصبح «بابا». والشىء الجدير بالملاحظة والإعجاب والتقدير هو ذلك الأسطرلاب المحفوظ إلى اليوم فى فلورنسا والذى كان يستخدمه «جوبرت» عندما أصبح بابا وتسمى باسم «سلفستر الثانى» فى روما، وذلك لتعيين ارتفاع الشمس وقوس الليل والنهار، لذلك أشيع عنه أنه تلقى هذا العلم على شيطان فى قرطبة، ومعنى هذه التهمة اللعنة الأبدية للبابا ولعلم الفلك.

وللكنيسة الحق فى موقف الحذر الذى تقفه، ففى الكتاب المقدس بعض الآيات التى تشير إلى أثر الأفلاك والكواكب فى الكائنات الأرضية وقد حاول رجال الدين قصر هذا الأثر على الحيوانات والنباتات إلا أنه توجد بين الأجرام السماوية أخرى أشمل وأعم مثل: المذنبات، والظلام، وظواهر سماوية أخرى للأمراض والحروب والمصائب، ويجب على الكنيسة أن ترفض رسميًا الاعتقاد فى أى أثر للكواكب على الإنسان وإرجاع جميع هذه الآثار إلى الله. لكن الكنيسة لم تنجح فى هذا، إذ إن تردد أنصار الكنيسة فى موقفهم من أثر السماء فى الإنسان أفسح المجال للنجوم والأفلاك وتغلغل أثرها بين القوم.

لذلك ليس بعجيب أن تجد تراجم الجداول الفلكية والتقاويم السنوية والكتب الفلكية التى كانت تصل أوربا عن طريق أسبانيا رواجًا عظيما.

أما الإسلام فلم يهتم كثيرًا بتأويلات النجوم والكواكب، ولا سيما أنه يرفض تقديس النجوم والأفلاك، ويدعو إلى عبادة الواحد الأحد رب العالمين فاطر السموات والأرض، لذلك حرم الإسلام الاعتقاد فى أثر النجوم بالنسبة لطبيعتها، كما حرم الاعتقاد فى الأثر المباشر للنجوم أو الصلاة لها.

لكن دراسة الفلك ضرورية فالله جل جلاله حض الإنسان على التأمل فى السماء والنظر إليها، فباسم الله درست حركات النجوم وباسمه تعالى يبدأ كل

بحث علمى، وهذه هى الميزة التى تحلى بها العرب وامتازوا بها على أوربا المسيحية، وهذا هو المستوى العلمى الرفيع الذى حفظهم من التدهور والسقوط فى الصوفية؛ لذلك كان علم الفلك أو الاعتقاد فى القدر بعيداً البعد كله عن السحر والشعوذة وما إليهما من الخرافات التى تهدد حياة المسلم العربى، كما نتبين ذلك من مؤلفات العرب الفلكية التى وصلت إلى أوربا. وعلم الفلك العربى أكثر من غيره من سائر العلوم الإسلامية لم يتجه هذا الاتجاه الخاص بتأويل حركات النجوم فى العالم الإسلامى إلا بتأثير الفرس فهم واضعو أسسه.

ومعلم أبناء موسى منذ طفولتهم، وهو يحيى بن أبى منصور، كان فارسى المولد وكان كغيره من أبناء جنسه هاوياً دراسة الفلك كما كان منجماً. والشىء الجدير بالملاحظة أن أبناء موسى الثلاثة لم يأخذوا شيئاً عن هواية هذا المعلم، وعلى النقيض من ذلك كانوا عمليين واقعيين وعلماء ناقدين. فالفارسى يؤمن منذ طفولته بعاملى الخير والشر الناتجين عن النجوم، والفارسى فى إيمانه متأثر بتعاليم زرادشت. أما الكواكب ذات الأثر الشرير والشهب فمن خلق إله الشر «أهريمان» وعن طريق مخلوقاته يحاول هذا الإله الشرير نشر الفساد وإحداث الفوضى والاضطرابات فى العالم، فهو عن طريق الكواكب السبعة ينشر قوى الشر فى الطبيعة حيث تسبب التعاسة وتجلب الشقاء لبنى البشر.

والعقيدة البدائية للبابليين فى أن النجوم ما هى إلا كتابة سماوية تنسجم وطبيعة آلهتهم الفلكية والعقلية اليونانية المغرمة بالهندسة وقواعدها تنظر إلى الأجرام السماوية نظرة هندسية، وهكذا أخذت هذه الديانة العلمية الوثنية تختفى تدريجياً تاركة بقاياها فى فارس كما اتخذت من أبنائها رسلا.

ففى عام ٧٦٠م نجد المنجم الفارسى المتوفى حوالى ٧٧٧ والمسمى «نوبخت» يزور، مزوداً بهذه المعلومات الكثيرة، قصر الخليفة العربى المنصور، فقد حدث عندما جاء العباسيون للحكم أن انتقل مركز الثقل السياسى للدولة من دمشق، مركز الأسرة الأموية التى جاءت من الصحراء، إلى بغداد حيث يكثر الماء والأراضى الزراعية الخصبة الممتدة على شاطئ النهرين. وقبل الشروع فى بنائها

وإرساء أساسها طلب «نوبخت» إلى الخليفة أن يحسب مركز الأفلاك ويختار ساعة سعيدة لبناء المدينة فكلف الخليفة الفارسى «نوبخت» واليهودى «ما شاء الله» رصد هذه الساعة التى يجب أن تولد فيها المدينة، كما طلب إليهما مراعاة مقاييس المدينة التى سميت «بغداد» أى مدينة السلام.

ومن ثم نجد «نوبخت» الفارسى يعين فلكى الخليفة ومستشاره الخاص ومستشار كثيرين ممن جاءوا بعده، ولا غرو فى أن يصير أستاذًا لكثير من مفسرى الطوالع.

وهكذا نجد الفرس يهتمون بجميع المصادر الفلكية القديمة، سواء كانت هندية أو غير هندية كالبابلية لتويكروس وبيتين، وقد ترجمت جميع هذه المصادر وحفظت فى قصور الأمراء العرب، وكان كبير دعاة هذه الحركة والمشجعين لإحيائها العالم «ما شاء الله» الذى ذاع صيته فيما بعد فى أوربا.

وقد بلغ علم التنجيم عند العرب شأوًا بعيدًا فى الوقت الذى ازدهرت فيه الدراسات الفلكية، وقد تخرج عليهم كثيرون من اليهود والفرس فذاع صيتهم لا فى الشرق فقط بل فى أوربا أيضًا فنحن نجد من أبناء فارس أبا بكر بن الحاسب وعبدالعزيز القبيصى، واشتهر الأول فى أوربا تحت اسم «البوباثر Albumassar» والثانى «الكابيتيوس Alcabitius»، كما نجد أيضا اليهودى «سهل بن بشر» الذى عرف فى أوربا باسم «سهل Zahel» وتلميذ ما شاء الله المسمى «البوهلى» واليهودى الفارسى المشهور «أبو معشر» المتوفى عام ٨٨٦م واشتهر فى أوربا باسم «البومسر Albumasser» وكان يعد من بين أعظم منجمى العرب. ويمتاز بأن أحدًا لم يسبقه واهتم بمصدر ووسيلة تدريس هذه المادة اهتماما ملفتا، فقد جمع أبو معشر جميع ما فى متناوله وجعل منه خليطًا عجيبًا، كما امتدت يده دون خجل إلى مؤلفات وأعمال الآخرين مثل «سند بن على» ونسبه إلى نفسه، وبذلك (فقط) استطاع أن يضع كتابًا عظيمًا يتفق وعمره المديد الذى بلغ مائة عام. وكتابه هذا لا تكاد تخلو منه مكتبة أوربية فقد بلغ شهرة لم يبلغها كتاب آخر غيره فى أوربا المسيحية، وإن اشتهر بالغموض. وفى حلبة السباق على علم التنجيم نجد عربيًا ممتازًا ألا وهو الفيلسوف الكندى الذى وضع كتابًا حول التنبؤ بالطقس، وهذا هو الموضوع الذى

اهتم به العرب أيضًا، ومنذ العصر الجاهلى، وبذلك اكتسب الكندى المنجم شهرة عظيمة. فهذا العربى الجنوبى والذى ينتسب إلى قبيلة كندة اليمنية الملكية وهو أحد أفراد بيت أمراء البحرين لم ينج من حسد وحقد بعض معاصريه ومن بينهم بنو موسى، فقد كرهوه وحقدوا عليه حتى قامت بينهم وبينه مشادة؛ لأن خصومه استغلوا حالة التزمت الدينى التى كانت متفشية وقتذاك، كما استغلوا وفاة المأمون الذى اشتهر بسعة الأفق ورحابة الصدر، استغل بنو موسى كل هذه الظروف ووضعوا يدهم على مكتبة الكندى ونقلوها من داره. وحدث فى ذلك العصر أن الخليفة المتوكل أمر محمداً وأحمد نجلى موسى بحفر قناة على دجلة فكلف الأخوان المهندس الفرغانى الذى عرفناه فى مصر عند بناء مقياس النيل، وأبلى بلاء حسنًا واشتهر فى أوربا باسم «الفراجانوس Alfraganus» بتنفيذ هذا المشروع. لكن المقاول المطالب بالتنفيذ ارتكب خطأ شنيعًا، فقد حفر القناة وجعلها أكثر ارتفاعًا من مصبها فى دجلة حتى إنه عند انخفاض منسوب المياه لا يجرى الماء وحاول ابنا موسى إصلاح الخطأ فعجزا فثار الخليفة الذى كلفه هذا المشروع مالاً كثيراً على ابنى موسى وأمر بإحضارهما، وكلف الفلكى اليهودى والمنجم «سند بن على» الحضور وفحص الخطأ، فإذا ثبت أن ابنى موسى هما سبب هذا الخطأ أمر الخليفة بصلبهما على شاطئ القناة، ومما زاد الطين بلة أن هذا اليهودى الحكم كان عدواً لدوداً لابنى موسى وللكندى، والشىء الجدير بالذكر أن اليهودى «سند بن على» هو بعينه الذى سطا عليه اليهودى أبو معشر وسرق كتابه ونسبه إلى نفسه.

فلم يبق أمام ابنى موسى وهما فى هذا الوضع السيئ إلا أن يرجوا اليهودى إنقاذ حياتهما وأن يغفر لهما خطاياهما معه، ولكن «سند بن على» استغل هذه الفرصة وطلب إليهما قبل كل شىء تسليم الكندى كتبه، وبعد ذلك يفكر فى معاونتهما. وهنا نجد محمداً للمرة الثانية وهو فى هذا المركز الحرج يضحى بكرامته ويقدم للكندى مكتبته ومعه مستند خطى من الكندى يثبت تسوية المسألة بينهما، وبعد ذلك فقط دبر اليهودى «سند بن على» الأمر واحتال حيلة جيدة فأخبر الأخوين أنه مسرور برد المكتبة إلى الكندى، وأنه الآن على استعداد لإحاطتهما علمًا برأيه فى موضوع القناة وما بها من خطأ. الواقع أن هذا الخطأ لا يمكن الاهتداء إليه ومعرفته

طيلة الشهور الأربعة التالية وذلك لأن فيضان نهر دجلة وزيادة مائه يخفى هذا الخطأ. وهناك تقويم لبعض المنجمين يقرر أن أمير المؤمنين لن يعيش حتى ذلك الحين لذلك إنقاذاً لحياتكما سأخبره أن أحداً منكما لم يرتكب خطأ، فإذا صدق المنجمون نجونا نحن الثلاثة وإذا كذبوا وعاش الخليفة وجاءت المدة التى يتناقص فيها الماء فسنموت نحن الثلاثة. وحدث أن قتل الخليفة بعد شهرين ونجا الثلاثة المتآمرون.

وكيف لا يثق «سند بن على» وهو المنجم المشهور فى أقوال المنجمين؟

وفى هذه الحالة صدق المنجمون إذ تنبأوا بالحظ والسعادة كما حقق القاتل نبوءتهم، لكن كثيراً ما يكذبون ويستحقون سخرية العلماء، فقد حدث أن تنبأوا بالشقاء والبؤس الذى يشير إليه التقاء الكواكب فى برج الميزان عام ١١٨٦م، كما لم تقع الثورات التى قالوا بها، والتى ستنتج عنها الحروب والكوارث الجوية. أما وقوع الموت المفاجئ بسبب ا لقتل فهذه مسألة أخرى...

وقد سبب سوء استعمال الجهلاء للعلوم كثيراً من الأذى والامتهان والحط من قدرهم وقدر العلم، لذلك هاجم أمثال البيرونى أولئك الأفاكين بألفاظ قاسية واتهمهم بأنهم الدخلاء على علوم الفلك والتنجيم، وبخاصة تصرفات أمثال أبى معشر الخاطئة، كما انتقد جرأة أولئك الجهلاء الذين لا يؤثرون إلا فى أمثالهم.

وهاجم الزركلى المنجمين بحرارة وشاركه فى ذلك الشاعر «السيمرى»، فقد وضع كتاباً فى نقض أقوال المنجمين، وكتب يوسف الهروى فى «خدع التنجيم»، وابن سينا الذى هو صديق حميم للبيرونى والفارسى الأصل والعالم الفيلسوف طالب بإلغاء ومنع تفسير سير النجوم. وكان من نتيجة هذا الهجوم أن اختفى عدد كبير من زعماء المنجمين المشعوذين الأدعياء، وبخاصة عندما تشعبت علوم الفلك والتنجيم فذهب الزبد وبقى ما ينفع الناس، واستطاع المنجمون العرب الوقوف على أقدامهم ولم يمض زمن طويل حتى أخذ التنجيم يتنقل من التجار فى الشوارع مقدماً لهواة الحساب الفرصة الكاملة للاهتمام بالأعداد والقيام بعملية حساب الجداول الخالية من الحساب والتقاويم السنوية الضرورية لعملية التنبؤات، وعاون المنجمين على ذلك ارتفاع مستواهم فى الرياضة والحساب وبخاصة فى حساب

المثلثات الكروية ومفرداتها الدقيقة التى تتطلب الدقة والمهارة الحسابية. ومن هنا نفهم سر استعانة علم الفلك العربى بجداول علم التنجيم واعتماداً عليها تفوقت على ما وصل إليه البابليون فى التنجيم، وكذلك الهنود واليونان.

وهذا التفوق فى التنجيم كان الناحية الوحيدة التى انفرد بها العرب فى بلادهم العربية، ما لم يعتقد الإنسان فى الاستفادة من الديانات الفلكية السابقة.

وقد أثر العرب عن طريق الفلك والتنجيم فى أوربا أثراً بعيداً وساعدهم على هذا جهل رجال الكنيسة ورهبان المسيحية الذين كانوا يحتكرون التنجيم، بالرغم من تفاهة معلوماتهم فيه وعوضًا عن مناقشتهم هذه التعاليم وتلك النظريات أخذوا ينظرون وكأنها تأويل للنجوم وطوالعها، ومن هذه الناحية وجد علم الفلك طريقه إلى أوربا والأوربيين، وعاون على ذلك آلات الرصد التى أقامها الفلكى الدينماركى «تيشو براها» (١٥٤٦ـ١٦٠١) فى مرصده، وعاون على هذا أيادى الملك البيضاء التى أمدت المرصد بكثير من الأجهزة النافعة رغبة منه فى الحصول على التنبؤات الدقيقة الخاصة بالتقلبات السياسية التى قد تتعرض لها مملكته والعمل على تجنبها.

ولم يقف علم التنجيم عند الأمراء ومن فى منزلتهم بل تعداها إلى الباباوات، فقد أسس «ليو العاشر» كرسيًا لتفسير طوالع النجوم فى جامعة روما، كما نجد منجمين باباويين يعينون ليوليوس الثانى يوم وساعة تتويج البابا له كما يحددون وقت انعقاد مجلس البابا والكرادلة لبولس الرابع. وهكذا نجد علمى الفلك والتنجيم يسيران معًا زمنًا طويلاً، فقد ترجم «ميلنشتون» رسائل التنجيم لبطليموس، كما ألقى فى «فيتنبرج» محاضرات حول تأويل مطالع النجوم وحركاتها، واستهل «تيشو براها» سلسلة محاضراته فى جامعة كوبنهاجن بالحديث عن التنجيم فكانت هذه المحاضرة اعترافًا صريحًا منه بهذا العلم. وتكسب كل من «جليلى» (١٥٦٤ـ١٦٤٢م) و«كبلر» (١٥٧١ـ١٦٣٠م) قوتهما اليومى عن طريق التنجيم، ولو أنهما كانا يدركان أن الذى ينتظر الإجابة منهما على أسئلته إنما هى صادرة من الكواكب فقط وبدون إرادة وأخلاق الإنسان الذى فقد ذكاءه الذى منحه

الله إياه، واعتقد كلا العالمين أن الحياة تتطلب منهما شيئًا من اللباقة استرضاء للجهلاء وكسبًا لعطفهم. نعم إن علم التنجيم علم جنونى كما قال «كبلر» وكما صاح: «أيها الإله العظيم أين أراد علم الفلك العظيم الحياة ما لم يرزق التنجيم؟ إن العالم أجن من المجانين وعلماء الفلك كادوا يموتون جوعًا لولا أن أرسل الله لهم هذا العلم الجنونى علم التنجيم». وكما هاجم البيرونى وابن سينا شعوذة المنجمين، كذلك فعل مارتين لوثر إذ صب جام غضبه على هؤلاء الأفاكين، وقال إن التنجيم ليس علمًا ولا يمكن للإنسان أن يعتمد عليه.

وتجريد الأرض من مكانتها الممتازة فى الكون بواسطة آراء ونظريات «كوبير نيكوس» قضى على أواصر القرابة بين الفلك والتنجيم، ولو أن العلوم الحديثة بعثت التنجيم من جديد وأجلسته على قارعة الطريق كما جلس من قبل عشرات القرون. أما الفلك فقد أخذ يرقى ويتبوأ مكانًا رفيعًا لم يبلغه من قبل، وسواء علم الفلك أو علم التنجيم فإنهما لم يبلغا ما بلغا دون فضل العرب عليهما ثقافيًا وعلميًا.

الكتاب الرابع

الأيـادى الشـافيـة

الشفاء العجيب عند الإفرنج

«من عجيب طبهم أن صاحب المنيطرة - قرب أفقة عند منبع نهر إبراهيم فى شمال لبنان - كتب إلى عمى يطلب منه إنفاذ طبيب يداوى مرضى من أصحابه، فأرسل إليه طبيبًا نصرانيًا يقال له «ثابت». فما غاب عشرة أيام حتى عاد فقلنا له: ما أسرع ما داويت المرضى، قال: «أحضروا عندى فارسًا قد طلعت فى رجله دملة، وامرأة قد لحقها نشاف (بله) فعملت للفارس لبيخة، ففتحت الدملة وصلحت، وحميت المرأة ورطبت مزاجها، فجاءهم طبيب إفرنجى فقال لهم: هذا ما يعرف شيئًا يداويهم. وقال للفارس: أيما أحب إليك أن تعيش برجل واحدة أو أن تموت برجلين؟ قال: أعيش برجل واحدة. قال: «أحضروا لى فارسًا قويًا وفأسًا قاطعة، فحضر الفارس والفأس وأنا حاضر، فحط ساقه على قرمة خشب، وقال للفارس: اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة اقطعها. فضربة وأنا أراه ضربة واحدة فما انقطعت فضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق ومات من ساعته، وأبصر المرأة فقال: هذه امرأة فى رأسها شيطان قد عشقها. احلقوا شعرها فحلقوه، وعادت تأكل من مأكلهم الثوم والخردل، فزاد بها النشاف. فقال: الشيطان قد دخل فى رأسها، فأخذ الموسى وشق رأسها صليبًا وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح فماتت فى وقتها، فقلت لهم: ما بقى لكم إلىّ حاجة؟ فقالوا: لا؛ فجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم أكن أعرفه».

إن الأمير أسامة بن منقذ، ابن أخى حاكم شيزر، (١٠٩٥ - ١١٨٨م)، هو

الذى سخر من هذه الحادثة التى شاهدها أيام شبابه وعبر عنها فى كتابه الاعتبار فى فصل عقده لها عنوانه : طبائع الإفرنج وأخلاقهم .

إن رواية أسامة بن منقذ ليست دعاية أعداء كما قد يتبادر إلى الأذهان ، وليست محاولة مقصودة للنيل من عدو محترم هو فى نفس الوقت عدو للعرب ، فنحن نقرأ بعد ذلك بقرن حديثًا يرويه لنا مؤرخ ثقة يدور حول «الماركجراف ديدو الثانى» فقد كان هذا الرجل قصيراً يصعب عليه التنفس لضخامة جسمه وقد لاقى حتفه على يد «روخليتز» و«جويز» ، وذلك لأنه كان ملازمًا للقيصر هينريش السادس فى رحلته إلى خطيبته فى أبوليا ، فخاف من القيام برحلته هذه لكثرة شحمه أولا ولحرارة إيطاليا ثانيًا ؛ لذلك استشار طبيبًا فى ذلك فبقر بطنه واستخرج منه الشحم ، وهذا حادث لا يقل عن حادث الطبيب الإفرنجى فى البلاد المقدسة .

فمن التجارب التى تجمعت لدى الأمير أسامة بن منقذ والمعاملة القاسية التى تعرض لها الفرسان المسيحيون وذهب عدد كبير منهم ضحيتها ، أصبح لا يحمل أى احترام أو تقدير للطب الإفرنجى ، وهو على حق إذا ما اعتقد أنه لا طبيب إلا الطبيب العربى ولا دراسة طبية ناضجة تقوم على أسس علمية إلا فى البلاد العربية ولا صيدلة إلا فى البلاد العربية ، كما لا توجد مستشفيات تضارع تلك القائمة فى مختلف البلاد العربية ، فهذه مستشفيات ممتازة بمعاملها وكفاية أطبائها ونظافتها ومستواها وتوفر وسائل العلاج والراحة والنقاهة لنزلائها حتى كانت مضرب الأمثال ، فهل يستغرب أن يستعين الإفرنج بالأطباء العرب؟

ويستطرد الأمير أسامة بن منقذ فى كتابه الاعتبار ويحدثنا : ومن عجيب طبهم ما حدثنا به «كليام دبور» (غليوم دبور) صاحب طبرية ، وكان مقدمًا فيهم ، واتفق أنه رافق الأمين معين الدين رحمه الله من عكا إلى طبرية ، وأنا معه فحدثنا فى الطريق قال : «كان عندنا فى بلادنا فارسٌ كبير القدر فمرض وأشرف على الموت فجئنا إلى قس كبير من قسوسنا وقلنا : تجىء معنا حتى تبصر الفارس فلانًا؟ قال : نعم . ومشى معنا ونحن نتحقق أنه إذا حط يده عليه عوفى . فلما رآه قال : أعطونى شمعًا . فأحضرنا له قليل شمع فليّنه وعمله مثل عقد الأصبع ، وعمل كل واحدة فى

جانب أنفه، فمات الفارس، فقلنا له: قد مات. قال: نعم، كان يتعذب فسددت أنفه حتى يموت ويستريح.

وضع اليد، طرد الشيطان، صلاة - هذه كانت أحسن أدوية للشفاء كان يستخدمها الأطباء الأوربيون وهم فى أزياء القسيسين والرهبان لشفاء المرضى من أمراضهم الجسدية.

«هل أحد بينكم مريض، فإن كان الأمر كذلك فليستدع الإنسان عجائز الحيّ ليصلوا من أجله بعد أن يدهنوه باسم المسيح بالزيت، وصلاة الإيمان لا تكفى لشفاء المريض»، هكذا علم يعقوب الرسول، لكن يسوع نفسه طبيب الجسد والروح شفى حواريّيه والآخرين الذين أراد شفاءهم بوضع يده وطرد الشيطان؛ لقد شفى مرضى الأعصاب والعقول والبرص والدوسنتاريا والنزيف الدائم والأمراض الأخرى. والمسيح لم يشف فقط من الأمراض بل منح تلاميذه بركة الله، لقد منحهم القوة للتغلب على الأرواح الشريرة فكانوا يطردونها، وشفوا بذلك مختلف الأمراض، لقد كلفهم شفاء المرضى وتطهيرهم من البرص والأورام، كما أحيوا الموتى وطردوا الشياطين.

ولا يحتاج الحواريون لتنفيذ مشيئة السيد المسيح إلا إلى الإيمان الكامل، فالعقيدة هى سر الشفاء، فالذى يؤمن يساعد وتتحقق طلباته، هكذا تعلم الكنيسة، وقد عرفت جيداً كيف تفرض نفسها وتدعى شفاء الجسد والروح.

أليس الاعتماد على العقاقير الدنيوية كالأعشاب والجذور يضعف الاعتماد على الله وقوته؟ إن الشياطين والأرواح الشريرة هى التى تحاول إبعاد الإنسان عن الله والاعتماد عليه، تحاول إبعاد الإنسان عن خالقه، وقد نجحت الشياطين حقًا فى إضلال الأغبياء وضعاف الإيمان فلجأوا إلى مثل هذه الأدوية وتلك العقاقير.

«إن جميع الأدوية ومختلف أنواع العلاج نشأت أصلاً من وسائل الشعوذة والضلال» هكذا قال أحد آباء الكنيسة ألا وهو «تتيان» وقال أيضًا: «إن جميع هذه العقاقير الطبية بأنواعها المختلفة من صنع الوثنية وحضرتها فى صيدلية الطبيعة»،

«وذلك لأنه عندما يشفى مريض بعقاقير مادية ويثق الإنسان فى مثل هذه العقاقير ومفعولها وقدرتها على الشفاء فإن ثقة مثل هذا الإنسان فى الله وقوته يجب أن تكون أعظم، فلماذا لا يعتمد على الله فقط؟ ولماذا لا يتجه إلى الله القوى العظيم؟ أو يفضل المريض أن يشفى كما يشفى الكلب عن طريق العشب، والوعل بواسطة الأفاعى، والخنزير بسرطان البحر، والأسد بالقردة؟ لماذا نقدس الأشياء الأرضية؟».

والكنيسة ترى أن استخدام أدوية أخرى غير تلك التى تصفها هى - أعنى أدوية الروح، كذلك ترى أن احتراف مهنة الطب وإجراء عمليات جراحية، عمل مشين يتنافى ومكانة رجال الدين وكرامتهم Inhonestum magistrum in medicina manu operari.

وقد استمرت هذه العقيدة سائدة عدة قرون بين الأطباء الدارسين، فقد كانوا عرضة لكثير من الإهانات واللعنات وبخاصة إذا كان الطبيب جراحًا حتى ولو فصد فصدًا لاستخراج الدم فإن الكنيسة لن تغفر له هذا العمل المشين، وفى شىء من الإيجاز لقد حرمت الكنيسة على رجال الدين مباشرة الجراحة، وتركت هذه العملية الجراحية لأناس يعتبرهم المجتمع من الطبقة الدنيا التى كان ينظر إليها باحتقار. وغالبًا ما كان الجراحون يتوارثون هذه المهنة عن آبائهم وأجدادهم، فهى مهنة وراثية ولو أنهم كانوا فى نظر الشعب أطباء. ألم يكونوا هم الذين اختارهم الله للقيام بالعمليات الجراحية ويؤدون هذه المساعدات وتلك الخدمات؟

أما موقف الكنيسة منهم فمعروف فيهم ألا تثق فيهم ولا تعترف بهم، كما لا تعترف الكنيسة بالدواء الذى لا تقرره الكنيسة أو الأطباء الذين لا تعترف هى بهم. فالذى لا يخفف الآلام بل يزيدها أحيانًا إيلامًا يرتكب خطيئة كبرى مع المريض، فهؤلاء الأطباء الجهلاء الذين كانوا يقومون بالعمليات الجراحية عن طريق السكاكين الحادة والإبر كانوا موضع احتقار أسقف الإفرنج «جريجور فون تور» (٥٤٠ - ٥٩٤م) فهو يقول: «ماذا يستطيع الأطباء أن يفعلوا بآلاتهم؟ إن مهنتهم تزيد الآلام ولا تخففها فهم يفتحون العين ويجرحونها ويقطعون فيها بآلاتهم المدببة، وأنهم

بذلك يقربون آلام الموت من المرضى دون دون أن يساعدوا المرضى ويمكنوهم من الرؤية، وما لم تتخذ سائر الوسائل وتراعى الترتيبات الضرورية فإن الرؤية ستختفى، لكن إلهنا لديه آلة من الصلب واحدة وهى إرادته ولديه مرهم واحد وهو قوته على الشفاء.

ومن حسن الحظ أن هبت من إيطاليا القوطية الشرقية ريح جديدة حاولت مطاردة هذه الريح الراكدة الفاسدة المشحونة بالخرافات، ولعل مما ساعد على هذا البعث الجديد أن إيطاليا كانت فى ذلك الوقت محتفظة بعدد من الأطباء الشعبيين ثم انضمت إليهم جماعة أخرى من أطباء الجرمان عن طريق اللونجبرديين فقوت ساعدهم وساند كل طبيب الآخر وعاونه على الحياة. ففى أيام «تيودوريش» الأكبر ومستشاره «كسيودور» ازدهرت المدارس القديمة وترعرعت وأمد كل من «أماليسفتنا» و«أثالاريش» المعاهد العلمية بكثير من المساعدات التى عاونتها على النهوض بمهمتها. ففى تلك اللحظة عندما لجأ فى الشرق «يوستنيان» إلى العلوم اليونانية مأواه الأخير، أكاديمة أثينا، أسس «بنديكت فون نورسيا» فى الجبال المطلة على نابولى البيت الأصلى للطائفة التى ينتمى إليها وهو الدير المعروف باسم «مونت كسينو»، وكان يعنى بالمعجزات أكثر من عنايته بتخريج العلماء، لكن «كسيودور» رئيس وزراء ملك الغوط أجهد نفسه فى سبيل تأسيس المجامع العلمية فى روما وجنوب إيطاليا حرصًا منه على المحافظة على البقية الباقية من العلوم الرومانية الشعبية فأدخلها الأديرة الأوربية محافظة عليها من الضياع، وهى التى انحدرت إلينا من العالم القديم أولا، وتطويراً للحياة العلمية فى الأديرة ثانيًا.

فمنهج الدراسة بالأديرة كان لا يعنى بمادة الطب بخلاف الرياضيات والعلوم الطبيعة بالرغم من ضآلة هاتين المادتين أيضًا. والواقع أن الشعب الرومانى لم يخلق من الطب علمًا، وما نجده فى أوربا مصدره ترجمة ضعيفة فقيرة لبعض المخطوطات اليونانية والبيزنطية، هذا إلى جانب مجموعة من الوصفات الطبية وقليل منها المفيد النافع. أما هذا النوع الذى عرفته أوربا وفيه شىء من الفائدة فيرجع تاريخه إلى مائتين أو ثلثمائة سنة بعد ذلك، وقد أخذته أوربا عن العالم القديم وعن طريق

العرب الذين نهضوا بهذه المادة نهضة جبارة، في الوقت الذى كانت أوربا عاجزة لا عن قراءتها فقط بل عن فهمها أيضًا.

أما الشيء المهم الوحيد الذى ابتدعه الرومان وفهمه رجال الأديرة فدائرة معارف «سيلزوس Celsus».

وهكذا نجد مادة الطب في وضع أسوأ من أوضاع المواد الأخرى، فالطب كغيره لم يطلب في الأديرة لذاته بل لخدمة العقيدة؛ لذلك لم تتقدم دراسته أو تثمر الثمار المرجوة، وكان يكتفى علميًا بالنسخ والجمع.

والظاهرة الغالبة في أوربا في ذلك العصر التقشف والبعد عن الحياة الأرضية والالتجاء إلى الكنيسة وتعاليمها واحتقار الحياة الدنيا، هذه هي الغايات التى كان يصبو إليها الأوربي حينذاك.

والتاريخ يحدثنا أن القديس «نيلوس فون روسانو» ـ وقد جاءه يومًا يهودى يدعى «دونولو» (٩١٠ ـ ١٠٠٥م) كان قد درس الطب في جنوب إيطاليا على يد أطباء عرب عارضًا عليه خدمته وهو فخور بما حصله من علم في الطب ـ احتقره القديس وطرده وقال له: إن أحد اليهود ذكر: خير للإنسان أن يعتمد على الله لا على إنسان آخر؛ ولما كنت أعتمد على الله وعلى سيدنا يسوع المسيح فلست في حاجة إلى طبك.

ثم نجد الواعظ الصليبي المشهور «برنرد فون كليرفو» (١٠٩٠ ـ ١١٥٣م)، وقد كان معاصرًا للأمير العربي أسامة بن منقذ كثيرًا ما يشفى المرضى بشيء من الإعجاز إلا أنه حرم على رهبانه الذين كثيرًا ما تعرضوا لأمراض الأجواء غير المناسبة لهم ـ حرّم عليهم الاستعانة بالأطباء أو تناول الدواء، وقد علل هذا التحريم بقوله: ليس من المستحسن أن يشفوا أرواحهم فاستخدام الوسائل الأرضية يضرهم.

ولم يكن هذا التحريم ركنًا من أركان الإيمان أو العبادات بل الإيمان العميق الذى غرسته الكنيسة فيهم؛ ثم مع توالى العصور وكثرة الحوار والمجادلات حوله أصبح أرسخ قدمًا من أى شيء آخر. إن المحافظة على صحة الجسد أمر بل وصية وصى

بها الله، وذلك لأن مرض الجسد يعوقه عن تأدية فروضه نحو الله، لكن أهم من العناية بالجسد إنقاذ الروح من الوقوع فى الخطيئة، لذلك لا يجوز للمريض الذى يتلوى من الحمى أن يستعين بطبيب قبل إعلان التوبة إلى ربه، فقد تقرر عام ٨٩٥م فى المجمع الدينى الذى عقد فى «نانتيس»: «على القسيس عندما يبلغه أن أحد مسيحيى طائفته قد مرض أن يتوجه إلى المريض ويرشه بماء مقدس، ويصلى معه ثم يبعد سائر أعضاء الأسرة ويعترف المريض له ويرجوه أن يطهره دينيًا وأرضيًا من الخطايا، فبدون اعتراف لا علاج»، وهكذا أصبح هذا القرار ناموسًا يحترم وينفذ. وفى عام ١٢١٥م نجد البابا «أينوسنس الثالث» فى اجتماع عقد فى قصر «لاتران» البابوى فى روما يقرر وجوب احترام هذا الناموس والحرص على تنفيذ أوامره، كما يقرر منع معالجة الشخص الذى يطرد من الكنيسة لأن مثل هذا المريض المطرود لم يعترف بعد، وسبب المرض خطيئة الروح، كما قال بذلك يسوع المسيح إذ ذكر مرة لمريض شفاه من المرض: انظر لقد شفيت فلا ترتكب خطيئة مرة أخرى حتى لا تصيبك مصيبة أخرى (إنجيل يوحنا الإصحاح ٥ آية ١٤). وقد فهم القديس «كريزوزتومس» من كلمات السيد المسيح أن مصدر المرض الخطيئة التى يرتكبها الإنسان فإذا اعترف المريض شفى من المرض، وذلك لأنه إذا ذهب السبب ضاع المسبب (cessante causa cessat effectus)، وإذا رفض المريض الاعتراف، ورفض الطبيب المسيحى علاجه واضطر المريض إلى الالتجاء إلى طبيب آخر يهودى أو مسلم ليعالجه طرد المريض المسيحى من الكنيسة، وذلك لأنه بمسلكه هذا يهدد سلام روحه تهديدًا مباشرًا. ولكى نتبين مدى انزعاج الكنيسة عند وقوع مثل هذه الحالات يكفى أن نقرأ خطاب «برنارد فون كليرفو» حيث جاء فيه: «لقد جاء إليه راهب بعد أن ثار وترك الدير وشكا رئيسه بألفاظ قاسية، لأن هذا الرئيس تجرأ وقرر مساعدة طبية للمستبدين واللصوص والذين طردوا من الكنيسة المسيحية».

نعم. هكذا كان الإفرنج، والمسلم يعجز عن إدراكه، فها هو ذا ابن رضوان الذى كان نقيب أطباء القاهرة فى منتصف القرن الحادى عشر، والذى كانوا يلقبونه بلقب «تمساح الشيطان» ذكر مرة فى صدى الحديث عن واجبات الطبيب «أن يكون مأمونًا

ثقة على الأرواح والأموال لا يصف دواء قتالا ولا يعلمه، ولا دواء يسقط الأجنة. يعالج عدوه بنية صادقة كما يعالج حبيبه».

أما المسلمون فى القدس ودمشق فقد كانوا يجهلون تمامًا ما يجرى فى مستشفى الإفرنج، وكانوا لا يتصورون هذا النظام الذى فرضه فرسان طائفة اليوحنايين على ذلك المستشفى القائم فى القدس، فقد اشترط أولئك اليوحنايون على الجرحى الذين يرسلون إلى المستشفى أن يعترفوا أولا ويذكروا كل ما صدر عنهم من أعمال سيئة، ومن ثم يتناولون لقمة من الخبز الذى يسمى «جسد المسيح»؛ وبعد كل هذه الإجراءات فقط يسمح بإجراء الإسعافات الأولية للجريح.

أما فى الوطن فقد كانت طائفة البنديكتيين هى التى تقوم بعلاج المرضى، وعن هؤلاء انتقلت هذه الوظيفة إلى سائر الأديرة الأوربية، وكان الراهب مطالبًا عند ممارسته هذه المهنة باتباع الحب المسيحى من حيث العناية بالنفس البشرية والعمل على تخفيف آلامها، لذلك أسست هذه الطائفة فى مختلف الجهات أماكن الضيافة للرحالة والحجاج والأطفال غير الشرعيين واليتامى والشيوخ والفقراء والمرضى. أما البيوت المخصصة بالمرضى فلم تعرفها أوربا قبل نهاية القرن الثانى عشر الميلادى، وفقط بعد اتصال أوربا الصليبية بالشرق العربى حيث اقتبس المسيحيون نظم المستشفيات والملاجئ، ولو أن أوربا ظلت زمنًا طويلا تحارب الأطباء ولا تعينهم فى المستشفيات اعتقاداً من المسيحيين بأن رسالة الكنيسة فيما يتعلق بالمرضى هى تخفيف الآلام لا الشفاء.

ومن أوائل المستشفيات، حسب قول شاهد عيان، ومن أحسن المستشفيات الأوربية ذلك المستشفى المعروف فى باريس باسم «أوتيل ديه» أى «فندق الله»، وهذا المستشفى كما تصفه المراجع التى وصلتنا كانت أرضه مرصوفة بالطوب المغطى بالقش وعليه يتزاحم المرضى. . . أقدام هؤلاء إلى جانب رءوس أولئك، والأطفال إلى جانب الشيوخ والنساء بجوار الرجال. . وأصحاب الأمراض المعدية مع غيرهم جنبًا إلى جنب، كما نجد نساء قد جاءهن المخاض وأطفالا من المغص يتلوون، ومصابين بالحمى يهذون، ومرضى بالسل يسعلون، وآخرين بالأمراض الجلدية

ينهشون. وإذا أضفنا إلى هذا قذارة المستشفى، وكثرة الهوام والحشرات، ونقص الضروريات، وشكوى المرضى ألم الجوع والعرى، أدركنا السر الذى اضطر القائمين عليه إلى فتح أبوابه ليلا ونهاراً تمكيناً لأهل المريض ومعارفه من إطعامه هذا الطعام الذى أودى بحياة الكثيرين من نزلائه. أما تهوية المستشفى فقد كانت من الرداءة بحيث اضطرت الممرضين وغيرهم إلى وضع اسفنجة مبللة بالخل على أفواههم، وخاصة أن جثث الموتى كانت تظل فى أماكنها أياماً طويلة حتى تنقل. وكان المرضى هم الذين يقاسون من هذه الحالات أشد الأهوال وأنكرها، من رائحتها الكريهة التى تبعثها، وتجمع الذباب حولها.

مستشفيات وأطباء لم ير العالم نظيرهم

والدى العزيز : إنك تسأل عما إذا كنت تحضر لى نقوداً عند زيارتك ، والواقع أننى عندما أغادر المستشفى تصرف لى إدارته كسوة جديدة وتسلمنى خمس قطع نقود ذهبية أنفق منها عقب خروجى من المستشفى مباشرة حتى لا أضطر إلى العمل وأنا فى حاجة إلى الراحة للنقاهة . فأنت يا والدى لست فى حاجة إلى بيع ماشية من مواشيك ، والشىء الوحيد الذى أطلبه منك سرعة المبادرة ، إذا ما أردت ، زيارتى حيث أقيم الآن فى قاعة ذوى العاهات إلى جانب حجرة العمليات ، والوصول إليها سهل يسير ، فعند دخولك من المدخل الرئيسى للمستشفى اتجه إلى القاعة الخارجية الواقعة جهة الجنوب وهى المصحة الشعبية التى نقلت إليها عقب سقوطى ، وهناك يكشف على المريض مساعدو الأطباء وبرفقتهم الطلبة . أما المريض الذى لا يحتاج إلى علاج داخلى فى المستشفى فيحصل على كشف بالدواء الذى يحتاج إليه ، ويتناوله من صيدلية المستشفى . وبعد الكشف علىّ كتب اسم فى سجل المستشفى وعرضت على كبير الأطباء ، وقد حملنى ممرض إلى قسم الرجال بعد أن أدخلنى الحمام وألبسنى ملابس نظيفة للمرضى . وعلى يسارك أيضًا تجد المكتبة والقاعة الكبرى للمحاضرات حيث يدرس كبير الأطباء للطلاب ، وهذا المكان يقع خلفك . أما الطريق الواقع فى جهة اليسار من فناء المستشفى فيؤدى إلى قسم النساء ، لذلك يجب عليك أن تلتزم دائمًا ناحية اليمين ماراً بقسم الأمراض الباطنية ، وقسم الجراحة . وعندما تسمع موسيقى أو غناء فى قاعة من القاعات فانظر إلى داخلها إذ قد أكون فى القاعة النهارية للاستجمام والترويح عن النفس حيث نجد كتبًا وموسيقى للتسلية .

ولما زارنى صباح اليوم كبير الأطباء ومعه مساعدوه والممرضون وكشف، أملى علىّ طبيب القسم شيئًا لم أفهمه، وقد شرح لى بعد ذلك أننى قد أغادر السرير غدًا وأترك المستشفى قريبًا. والواقع أننى لا أريد مغادرة المستشفى فكل شىء هنا فى غاية النظافة والجمال، فالأسرة وثيرة وأغطيتها من القماش الدمشقى الأبيض وعليها أخرى هشة ناعمة كالقطيفة. وفى كل غرفة ماء جار وبها تدفئة تستخدم شتاء. أما وجبة الطعام فغالبًا ما تتكون من الطيور أو شواء الضأن لأولئك الذين تحتمل صحتهم مثل هذا.

إن جارى قد تمارض نحو أسبوع طلبًا فى إطالة البقاء بالمستشفى ليتمتع بلحم صدر الفراخ، إلا أن كبير الأطباء تبينه وأخرجه من المستشفى البارحة بعد أن تبين جودة صحته من أنه أكل رغيفًا وفرخة كاملة. إذن احضر يا والدى قبل أن تعد لى آخر دجاجة!

فالحالة كما يصورها الخطاب نستطيع أن ننسبها إلى القرن العشرين الذى كثيرًا ما نشيد به. والواقع أن هذه الرسالة تصور مستشفى من المستشفيات الكثيرة التى كانت منتشرة فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى قبل ألف عام من الهيمالايا إلى البرنات؛ ففى قرطبة نجد فى منتصف القرن العاشر خمسين مستشفى. أما بغداد، وقد فاقت غيرها واشتهرت بمستشفياتها منذ عهد هارون الرشيد، فمواقع المستشفيات قد أحسن اختيارها صحيًا، كما زودت جميع غرفها ومحال الغسل بها بالمياه الجارية المأخوذة من نهر دجلة، وكان هذا شيئًا بدهيًا. فعندما شرع السلطان عضد الدولة فى بناء مستشفى جديد كلف الطبيب المشهور الرازى اختيار أنسب مكان وأصحه، وأن عضد الدولة استشاره فى الموضع الذى يجب أن يبنى فيه البيمارستان، وأن الرازى أمر بعض غلمانه أن تعلق فى كل ناحية من جوانب بغداد شقة لحم؛ ثم اعتبر التى لم يتغير ولم يسهك فيها اللحم بسرعة فأشار بأن يبنى فى تلك الناحية، وهو الموضع الذى بنى فيه البيمارستان.

وفى القاهرة لما أراد صلاح الدين تحويل قصر من قصوره إلى المستشفى الناصرى اختار من بينها القصر الذى لا تكثر فى قاعاته جموع النمل.

وقد شيد أولئك الملوك الأخيار إلى جانب القصور التى زودوها بمختلف وسائل الأبهة والراحة كثيراً من دور الخير والبر حيث توفرت فيها وسائل النوم والراحة أو الإقامة حتى لكبار رجال الدولة، كما أن المستشفيات كانت مزودة ببعض قاعات النوم والحمامات المفتوحة للجميع.

ومن أشهر المستشفيات الإسلامية المستشفى الكبير المعروف باسم المنصورى أو دار الشفاء أو مارستان قلاوون، ولما تم بناؤه توجه السلطان فى ركب عظيم، ولما بلغ البيمارستان استدعى قدحًا من الشراب فشربه وقال: «قد وقفت هذا على مثلى فمن دونى»، وأوقفه السلطان على الملك والمملوك، والكبير والصغير، والحر والعبد، والذكر والأنثى، وجعل لمن يخرج منه من المرضى عند برئه كسوة، ومن مات جهزه وكفن ودفن. ورتب فيه الحكماء الطبائعية والكحالين والجرائحية والمجبرين لمعالجة الرمد والمرضى والمجروحين والمكسورين من الرجال والنساء ورتب الفراشين والفراشات والقومة لخدمة المرضى وإصلاح أماكنهم وتنظيفها وغسل ثيابهم وخدمتهم فى الحمام، لكل مريض فرش كامل. ولم يحصر السلطان أثابه الله هذا المكان المبارك بعده فى المرضى، بل جعله سبيلا لكل من يصل إليه فى سائر الأوقات من غنى وفقير. ولم يقتصر أيضًا على من يقيم به من المرضى بل رتب لمن يطلب وهو فى منزله ما يحتاج إليه من الأشربة والأغذية والأدوية.

ويذكر القوم عن أطباء دمشق ضاحكين عن الأمير الفارسى وشهيته فى الطعام. فقد زار مرة مستشفى نورى رائحة دجاجة محمرة؛ فقرر التمارض وأخذ يتردد على المستشفى عدة مرات ففحصه الطبيب المختص فلم يجد به أى أثر لمرض فاحتار الطبيب فسأله هذا الفارسى الجشع سؤالين كشفا للطبيب سر تمارضه إلا أن الطبيب المهذب لم يدع الفرصة تمر دون أن يشير إلى مريضه بالتوجه إلى قسم الأمراض الباطنة ووصف له طعامًا يتناوله مرتين يوميًا وهو عبارة عن فطائر محشوة بالعسل وبداخلها قلوب فراخ وفراخ سمينة وحلوى ومختلف أنواع الأطعمة الشهية اللذيذة، وبعد ثلاثة أيام تلاشت مقاومة المريض وساءت صحته فقال له الطبيب: «ثلاثة أيام كرم عربى؛ وقد انتهت فتوكل فى رعاية الله وحفظه والسلام عليكم».

أما مستشفى نورى هذا فقد أسسه الرجل الإنسانى الذى كان يعنى بشئون رعيته ألا وهو السلطان نور الدين زنكى (١١٤٦ ـ ١١٧٤)، وقد شيده من فدية حصل عليها لإفراجه عن ملك من ملوك الإفرنج كان قد أسره وسجنه. ومن هنا كانت ترسل الأدوية إلى المنصور قلاوون القائد المصرى الشاب عندما أصيب بالقرب من دمشق فى مرارته. وبعد شفائه امتطى المنصور صهوة جواده وتوجه إلى المستشفى؛ ومنذ ذلك الوقت طاردته فكرة «واحة السلام» بينما كان يخوض غمار المعارك؛ إنه يذكر القاعة ذات الهواء العليل فى المستشفى، ويذكر الأسرة البيضاء ذات الفراش الوثير. فنذر الله أنه ـ متى اعتلى عرش الحكم ـ سيشيد للمرضى مستشفى كهذا. فلما جاءته السلطنة وفّى بوعده ونذره، وأنفق على بناء المستشفى مالا كثيراً وشيده فى الشارع الممتد بين برجى القاهرة. هذا هو المستشفى المنصورى، وإنه حقًا قصر عظيم مؤثث أحسن تأثيث، وكان أحدث وأكمل مستشفى على سطح الكرة الأرضية.

وليس فقط الخلفاء والسلاطين أو الأثرياء هم الذين شيدو المستشفيات بل كذلك الأطباء مثل: سنان بن ثابت وثابت بن سنان الابن والحفيد للفلكى العظيم ثابت بن قرة، لقد أسس هؤلاء المستشفيات والمصحات ودور الإسعاف المتنقلة، كذلك شيدوا مستشفيات الأسرى. ففى عام ٩٢٣ م أسس الوزير ابن الفرات فى بغداد من ماله الخاص مستشفى لموظفيه حيث يعالجهم الأطباء مجانًا. وفى ميافارقين صارع الموت ابنة الحاكم فوعد والدها الطبيب المعالج أنه إذا شفاها قدم له وزنها ذهبًا. والطبيب هو زاهد العلماء، وقد استطاع شفاء الفتاة إلا أنه اعتذر عن قبول الذهب ورجا الحاكم أن يشيد بالمال مستشفى، فاستجاب والد الفتاة وهو ناصر الدين وشيد المستشفى وأوقف عليه المال الكثير والأراضى الواسعة للإنفاق عليه.

وكان المرضى يعالجون فيه مجانًا سواء كانوا أغنياء أم فقراء، كما كانوا لا يدفعون شيئًا نظير إقامتهم فى المستشفى، وحتى العلاج كان يصرف لهم مجانًا، وعلاوة على ذلك يتناول المرضى الملابس والنقود للإنفاق على الخصوصيات لمدة شهر بعد ترك المستشفى.

فمن أين كان يدفع جميع هذا؟

الواقع أن الإنفاق على مثل هذه المؤسسات العظيمة كان يتطلب إيرادًا منتظمًا ثابتًا ودقيقًا، فالمستشفى المنصورى مثلاً كان يحتاج سنويًا إلى مليون درهم، وكان هذا المبلغ يؤخذ من إيرادات أملاك الدولة التى يرصد دخلها للمستشفى عند الشروع فى بنائه.

أما إدارة الأملاك فكانت فى يد أناس مشهود لهم بالأمانة والكفاية تستطيع الدولة أن تعتمد عليهم وتراقبهم، كما أن إدارة المستشفى كانت غالبًا فى يد أمير. أما السلطان فكان حريصًا على الإلمام بكل ما يجرى فى المستشفى عن طريق التفتيش أو الاستجواب.

وتعرض مستشفى بدر غلام المعتضد لضائقة مالية فكتب والد ثابت بن سنان رسالة إلى أبى الحسن على بن عيسى يشكو إليه هذه الحالة ويعرفه ما يلحق المرضى من ضرر:

قال ثابت بن سنان: وكانت النفقة على البيمارستان الذى لبدر العضدى بالمخرم من ارتفاع وقف سجاح أم المتوكل على الله، وكان الوقف فى يد أبى الصقر وهب ابن محمد الكاذانى، وكان قسط من ارتفاع هذا الوقف يصرف إلى بنى هاشم، وقسط إلى نفقة البيمارستان، وكان أبو الصقر يروج على بنى هاشم ما لهم ويؤخر ما يصرف إلى نفقة البيمارستان ويضيقه، فكتب والدى إلى أبى الحسن على بن عيسى يشكو إليه هذه الحال ويعرفه ما يلحق المرضى من الضرر بذلك وقصور ما يقدم لهم من الفحم والمؤن والدثار وغير ذلك عن مقدار حاجتهم، فوقع على ظهر رقعته إلى أبى الصقر توقيعًا نسخته أنت أكرمك الله تقف على ما ذكره، وهو غليظ جدًا، والكلام فيه معك خاصة فيما يقع منك يلزمك وما أحسبك تسلم من الإثم فيه، وقد حكيت عنى فى الهاشميين قولا لست أذكره وكيف تصرفت الأحوال فى زيادة المال أو نقصانه ووفوره أو قصوره، ولا بد من تعديل الحال فيه بين أن تأخذ منه وتعجل للبيمارستان قسطًا، بل هو أحق بالتقديم على غيره لضعف من يلجأ إليه وعظيم النفع به، فعرفنى أكرمك الله ما النكتة فى قصور المال ونقصانه فى تخلف

نفقة البيمارستان هذه الشهور المتتابعة وفى هذا الوقت خاصة من الشتاء واشتداد البرد، فاحتل بكل حيلة لما يطلق لهم ويعجل حتى يدفأ من فى البيمارستان من المرضى والممرورين بالدثار والكسوة والفحم، ويقام لهم القوت ويتصل لهم العلاج والخدمة، وأجبنى بما يكون منك فى ذلك وأنفذ لى عملا يدلنى على حجتك واعن بأمر البيمارستان فضل عناية إن شاء الله تعالى.

ومن إيراد هذه الأراضى كانت تدفع كذلك مرتبات الموظفين كما أن مدير المستشفى كان مكلفًا بإعداد سجل لجميع المصاريف اليومية ومنه نتبين ميزانية المستشفى ومرتبات الأطباء وغيرهم وأثمان الأدوية والأجهزة الطبية.

وكان كبير الأطباء هو المسئول عن سائر أطباء المستشفى، وهو يختار عادة من بين زملائه الأطباء حسب مواهبه وكفايته وقدرته. وقبل أن يختار الرازى مثلا رئيسًا للأطباء أثبت أولا تفوقه على مئات من الأطباء المتخصصين فى مختلف الأمراض، وكان عدد أطباء المستشفى الذى يديره يبلغ أربعة وعشرين طبيبًا منهم الجرائحيون والكحالون والطبائعيون والمجبريون، وكان كل طبيب يشرف على قسم خاص، كما كانوا يتناوبون الخدمة. وقد كتب ابن أبى أصيبعة الطبيب الشاعر، والذى درس الطب فى بلده دمشق كثيراً، تقريراً لطبيب عيون قد يصلح أن يكون من إنتاج العصر الذى نعيش فيه:

«أبو المجد بن أبى الحكم هو أفضل الدولة أبو المجد بن أبى الحكم عبيد الله بن المظفر بن عبد الله الباهلى من الحكماء المشهورين والعلماء المذكورين والأفاضل فى الصناعة الطبية والأماثل فى علم الهندسة والنجوم، وكان يعرف الموسيقى ويلعب بالعود ويجيد الغناء والإيقاع والزمر وسائر الآلات، وعمل أرغنًا وبالغ فى إتقانه وكان اشتغاله على والده وعلى غيره بصناعة الطب وتميز فى علمها وعملها وصار من الأكابر من أهلها، وكان فى دولة السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى رحمه الله. وكان يرى له ويحترمه ويعرف مقدار علمه وفضله، ولما أنشأ الملك العادل نور الدين البيمارستان الكبير جعل أمر الطب إليه وأطلق له جامكية (مرتبًا) وجراية وكان يتردد إليه ويعالج المرضى فيه.

وحدثنى شمس الدين أبو الفضل بن أبى الكحال المعروف بالمطواع رحمه الله أنه شاهده فى البيمارستان، وأن أبا المجد بن أبى الحكم كان يدور على المرضى به، ويتفقد أحوالهم ويعتبر أمورهم وبين يديه المشارفون والقوام لخدمة المرضى فكان جميع ما يكتبه لكل مريض من المداواة والتدبير لا يؤخر عنه ولا يتوانى فى ذلك. قال: وكان بعد فراغه من ذلك وطلوعه إلى القلعة وافتقاده المرضى من أعيان الدولة يأتى ويجلس فى الإيوان الكبير للبيمارستان وجميعه مفروش ويحضر كتب الاشتغال. وكان نور الدين رحمه الله قد وقف على هذا البيمارستان جملة كبيرة من الكتب الطبية وكانت فى الخورستانين (المدخلين) اللذين فى صدر الإيوان، فكان جماعة من الأطباء والمشتغلين يأتون إليه ويقعدون بين يديه ثم تجرى مباحث طبية، ويقرئ التلاميذ، ولا يزال معهم فى اشتغال ومباحثة ونظر فى الكتب مقدار ثلاث ساعات ثم يركب إلى داره. . .

أما المستشفيات الكبرى فقد كانت فى نفس الوقت هى المدارس العليا للطب فالمواد التى علمها أبقراط وجالينوس وكبار العلماء العرب كان يتلقنها الأطباء الناشئون فى المحاضرات العامة تحت عقود المساجد وفى المدارس الطبية الخاصة التى كان يديرها الأطباء، وكذلك فى المستشفيات والعيادات، وبينما كان يكتفى فى الأديرة الأوربية ومدارسها بتحصيل العلوم فى الكتب إذ بنا هنا فى العالم العربى نجد العلوم يقوم بتدريسها علماء عمليون يمارسون الطب. بخلاف الحال عند المسيحيين الذين كانوا يلوون ألسنتهم بنظريات جامدة جافة ويتجنبون بطريقة صوفية لمس الكائن الحى.

ففى المستشفيات العربية وحول الأسرة البيضاء كان الطبيب يطبق النظرى على العملى، كما كان يستطيع فحص الجسد وتشريحه وفهمه وتقريبه إلى الأذهان.

وابن أبى أصيبعة يحدثنا فى طبقاته عن عهد دراساته فى دمشق، وكيف كان الطلبة يرافقون الأستاذ عند زيارته للمرضى، وكيف كانوا يدرسون عمليًا مختلف الحالات عندما يفحصها الأستاذ ويشخص المرض ويصف العلاج، بل كثيراً ما كانوا يسمعون المناقشة التى تدور بين رئيس الأطباء وزميل له مشهور، فكانت زيارة

الطلاب للمستشفى ذات فائدة مزدوجة : الدرس أولا ونظام المستشفى ثانيًا. هكذا كان يتكون الأطباء العرب، ومثل هذا النظام لم يعرفه العالم من قبل اللهم إلا فى العصر الحديث فقط. وقد بلغ من حرص الدولة الإسلامية على المصلحة العامة أنها لم تكن تسمح لطبيب بمزاولة ما تخصص فيه من طب إلا بعد أن يؤدى امتحانًا نظريًا وعمليًا وتمنحه الدولة إجازة ينص فيها على مادة تخصصه. ولم يكن هذا التشريع مقصورًا على شرق العالم الإسلامى بل كان له نظيره فى الأندلس.

ويذكر المؤرخون أن تاريخ تشريع الحصول على مثل هذه الشهادة يرجع إلى عام ٩٣١ م عندما علم الخليفة المقتدر أن طبيبًا بغداديًا ارتكب خطأ تسبب عنه موت المريض، لذلك أصدر الخليفة أمرًا بإجراء امتحان لسائر الأطباء الذين يزاولون هذه المهنة، ولم يستثن من هذا الامتحان إلا الأطباء الذين يعملون فى مستشفيات الدولة، لذلك أمر بتكوين مجلس للأطباء وعين سنان بن ثابت رئيسًا له. ولمعرفة مدى انتشار مهنة الطب وقتذاك يكفى أن نذكر أن عدد أطباء بغداد الذين كانوا يعملون خارج الحكومة بلغ نحو تسعمائة طبيب. . . فى الوقت الذى لم يكن فيه فى كل حوض نهر الرين طبيب واحد. وبعد قرنين من وفاة الطبيب سنان أى فى القرن الثانى عشر كان كبير أطباء بغداد هو «ابن التلميذ» المتوفى عام ١١٦٤م. ومن النوادر التى كانت تقع فى الامتحانات فى ذلك الوقت ما ذكره ابن أبى أصيبعة فى طبقاته عند حديثه عن أمين الدولة «ابن التلميذ» الذى كان قد قلده الخليفة رياسة الطب ببغداد، أنه لما اجتمع إليه سائر الأطباء ليرى ما عند كل واحد منهم من هذه الصناعة كان من جملة من حضره شيخ له هيبة ووقار وعنده سكينة، فأكرمه أمين الدولة، وكانت لذلك الشيخ دربة ما بالمعالجة، ولم يكن عنده من علم صناعة الطب إلا التظاهر بها، فلما انتهى الأمر إليه قال له أمين الدولة : ما السبب فى كون الشيخ لم يشارك الجماعة فيما يبحثون فيه حتى نعلم ما عنده من هذه الصناعة؟ فقال : يا سيدنا وهل شيء مما تكلموا فيه إلا وأنا أعلمه، وقد سبق إلى فهمى أضعاف ذلك مرات كثيرة. فقال له أمين الدولة : فعلى من كنت قد قرأت هذه الصناعة؟ فقال الشيخ : يا سيدنا إذا صار الإنسان إلى هذه السن ما يبقى يليق به إلا أن يسأل : كم له من التلاميذ، ومن هو المتميز فيهم؟ وأما المشايخ الذين قرأت

عليهم فقد ماتوا من زمن طويل؛ فقال له أمين الدولة: يا شيخ هذا شيء قد جرت العادة به ولا يضر ذكره، ومع هذا فما علينا، أخبرني أي شيء قد قرأته من الكتب الطبية؟ وكان قصد أمين الدولة أن يتحقق مما عنده، فقال: سبحان الله العظيم.. صرنا إلى ما يسأل عنه الصبيان، وأي شيء قد قرأته من الكتب.. يا سيدنا لمثلي ما يقال إلا أي شيء صنفته في صناعة الطب، وكم لك فيها من الكتب والمقالات؟ ولا بد أنني أعرفك بنفسي. ثم إنه نهض إلى أمين الدولة ودنا منه وقعد وقال له فيما بينهما: يا سيدي أعلم أنني قد شخت وأنا أوسم بهذه الصناعة، وما عندي منها إلا معرفة اصطلاحات مشهورة في المداواة، وعمري كله أتكسب بها، وعندي عائلة، فسألتك بالله يا سيدي مش حالي ولا تفضحني بين هؤلاء الجماعة. فقال له أمين الدولة: على شريطة، وهي أنك لا تهجم على مريض بما لا تعلمه ولا تشير بفصد ولا بدواء مسهل إلا لما قرب من الأمراض، فقال الشيخ هذا مذهبي منذ كنت ما تعديت السكنجبين والجلاب. ثم إن أمين الدولة قال له معلنًا والجماعة تسمع يا شيخ أعذرنا فإننا ما كنا نعرفك، والآن قد عرفناك استمر فيما أنت فيه فإن أحداً ما يعارضك. ثم إنه عاد بعد ذلك فيما هو فيه من الجماعة، وقال لبعضهم: على من قرأت هذه الصناعة، وشرع في امتحانه فقال له يا سيدنا إنني من تلامذة هذا الشيخ الذي قد عرفته وعليه كنت قد قرأت صناعة الطب، ففطن أمين الدولة بما أراد من التعريض بقوله وتبسم ثم امتحنه بعد ذلك.

وحرصًا على تنفيذ اللائحة الطبية فيما يتعلق بالامتحانات وتخصص الأطباء وضع امتحان في الجراحة لجراح جاء فيه؛ هل درس هذا الجراح تشريح وجراحة «بولوس فون إيجينا» و«على بن العباس»؟ وهل يلم هذا الجراح بجبر العظام والالتواء ومعالجة الحصوة واللوز وإزالة سحابة العين وفتح الخراجات؟ وهل هو ملم بالبتر أو فتح الجمجمة (تربنة)؟ وكان إذا نجح طالب الطب في الامتحان يمنح إجازة تجيز له مهنة الطب وتخصص الجراحة الصغيرة، وهي تنص بعد البسملة على منح الطالب حق ممارسة مادة تخصصه حتى شفاء المريض كما تذكر حقه في فصد العرق وإزالة البواسير وخلع الأسنان وخياطة الجروح وختان الرضع. كذلك تحتم

عليه وجوب استشارة رؤسائه ومعلميه ذوى الخبرة والمعرفة.

أما مجالس الأطباء التى كانت تعقد لمدارسة الحالات الصعبة المعقدة فقد كانت ضمانًا آخر لتجنب الوقوع فى الأخطاء الفنية وضمانًا لدقة وصحة تشخيص المرض والعلاج. وأكبر المستشارين من بين الأطباء سنًا هو الذى يرأس المجلس ويتولى أصغرهم سنًا تسجيل المحضر.

وعند إجراء العمليات الجراحية الكبرى يساعد الطبيب زميله كما هو الحال اليوم فى أوربا، فنجد أحد الأطباء يقوم بعملية التخدير وذلك بواسطة قطعة من الإسفنج مبللة بالحشيش أو زهرة البسلة ومن ثم يضعها أمام أنف المريض لتخديره ثم هناك طبيب ثان يراقب نبض المريض وثالث يجرى العملية وبكل عناية ودقة وحذر عندما يستخدم المبضع، فالجرح يجب ألا يكون كبيرًا جدًا أو عميقًا جدًا. أما المساعد فعليه أن يحجز الجلد بجرافة صغيرة دقيقة. وإذا ما فرغ الجراح من اتخاذ جميع هذه الاستعدادات يأخذ فى إجراء العملية وليكن بخفة ليخلص الخراج من النسيج المحيط به، كما على الجراح ألا يتلف وعاء أو يفصل عصبًا. فإذا أصاب عرقًا فعليه أن يربطه بعناية ودقة حتى لا يغطى ويغمر الدم موضع العملية فيعوقه من إجراء العملية بدقة وعناية. فإذا كشف الجراح على الخراج ليتحسسه فليتأكد أنه لا توجد بقايا صغيرة بالجسم، ومن ثم يستبعد جميع البقايا بدقة، وإذا ما أخرج الخراج وانتزعه فليسرعن ويرجع الجلد إلى موضعه الأعلى. أما الزيادة فليستأصلها، وبعد ذلك تُجرى عملية الخياطة بأعصاب قطة. هكذا كان يعلم على بن العباس.

ويذهب على بن العباس بعيدًا ويقرر أن الطب قد لا يفيد فى حالة السرطان فهو يطالب الجراح بانتزاعه من العضو المطب، وذلك بإزالة كل ما حول السرطان حتى لا تتبقى جذور المرض فى الجسم، ثم بعد العملية يجب وضع قطعة من القماش مبللة بالنبيذ لتجنب حدوث تلويث ولالتئام الجرح.

لذلك تجب مراعاة العناية الكاملة عند إجراء مثل هذه العملية فالعناية لا تقصر

على العضو المريض بل تمتد إلى سائر أجزاء الجسم، والطبيب مطالب عند الكشف على المريض أن يوجه إليه السؤال تلو السؤال، وعلى الطبيب أن يسأله عن الآلام التى تؤلمه وكيف يعيش وما هى عاداته وما هى الأمراض التى أصيب بها من قبل وما هى الأمراض الموجودة فى الأسرة؟ كل هذه المسائل يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار.

أسئلة لا تنقطع توحى إلى الإنسان كما لو أنها حديثة بنت اليوم يوجهها الطبيب إلى المريض وهو يكشف عليه كشفًا دقيقًا. على الطبيب أن يتفرس فى وجهه ولون وحالة الجلد والشعر وعمق التنفس، وهكذا يكون لنفسه صورة من المريض وحالته وطبيعته، ومتى فرغ الطبيب من ذلك يشرع فى دراسة حالته العقلية فيوجه إليه مختلف الأسئلة ليتأكد من أن إجابته معقولة وليست مشوهة مضطربة. وكذلك على الطبيب أن يأمر المريض بأن يأتى أفعالا بعينها ليتأكد من قواه العقلية ومدى طاعته وإلى أى حد سينفذ المريض بأن يأتى أفعالا بعينها ليتأكد من قواه العقلية ومدى طاعته وإلى أى حد سينفذ المريض نصائح الطبيب وأوامره. وبعد ذلك يحاول الطبيب أن يعرف اتجاهاته الخلقية، وما هى الأشياء التى تثيره وتؤلمه أو تفرحه وتسعده. ثم يطلب إلى الطبيب أن يهمس إلى المريض عن بعد لمعرفة حالة السمع، والنظر إلى الأجسام عن قرب أو بعد لاختبار قوة الأبصار، كما يفحص لسان المريض وقوته الجسدية، وذلك بأن يقدم له أثقالا مختلفة يحملها ويأمره أن يقبض على أشياء بعينها وبقوة. ويجب على الطبيب أن يراقب حركات المريض وسكناته ويتأكد من حالة قلبه، وذلك عن طريق النبض، ولكى يتبين حالة عضله يأمره بالاستلقاء على الأرض باسطًا ذراعيه وساقيه. أما الكشف على الكبد والكلى فيتم عن طريق اللمس والبول والبراز.

ومما يثير الإعجاب حقًا ما توصل إليه العرب عن طريق النبض وتحليل البول، فقد كانوا يعتمدون على هذا التحليل متى توافرت له شروط خاصة. وقد توصلوا عن طريقه إلى أشياء خافية كثيرة.

ومن أشهر الأطباء الذين نبهوا فى هذا ابن قرة، حتى إن أبا الحسن السرى- أحد

شعراء سيف الدولة بن حمدان ـ مدحه بقصيدة لما شفاه من التهاب فى الجيب بالقلب، جاء فيها:

هل للعليل سوى ابن قرة شاف	بعد الإله وهل له من كاف
أحيا لنا رسم الفلاسفة الذى	أودى وأوضح رسم طب عاف
فكأنه عيسى بن مريم ناطقًا	يهب الحياة بأيسر الألطاف
مثلت له قارورتى فرأى بها	ما اكتن بين جوانحى وشغافى
يبدو له الداء الخفى كما بدا	للعين رضراض الغدير الصافى

ومبالغة فى الدقة والعناية، نجد ابن سينا ينصح ويقول: يجب ألا نعتمد كل الاعتماد على النتائج؛ وذلك لأن ما نصل إليه من فحص البول يجب أن يتم بشروط خاصة؛ فالبول يجب أن يكون أول بول الصباح، ويجب ألا يمضى زمن طويل بين الحصول عليه وفحصه. وإبان الليل يجب على المريض ألا يشرب كثيرًا من الماء أو يأكل شيئًا له لون خاص مثل الزعفران أو الرمان، ويجب على المريض ألا يتحرك كثيرًا أو يقوم بأعمال كثيرة غير تلك العادية التى يأتى بها كل يوم، مثل الصوم أو الاستيقاظ مؤخرًا أو إجهاد الجسم إجهادًا فوق العادة، وذلك لأن هذه الأعمال تسبب الجوع، فينتج عنه هيجان البول. كما أن الاضطجاع الجنسى يعكر البول، وكذلك القىء.

أما النتائج التى يحصل عليها الإنسان عن طريق تحليل البول فتتوقف على اللون والقوام والوضوح أو عدمه والرواسب والكمية والرائحة والرغوة وأقل فرق بين هذا البول والبول الطبيعى، كما أن أقل تغيير فى حالته تستدعى الانتباه والاهتمام وتؤخذ بعين الاعتبار، ويجب أن تسجل جميع الملاحظات. وقد درجت المستشفيات العربية على استخدام نظام التسجيل والعناية به والاعتماد عليه، سواء فيما يختص بالفحص أو التشخيص أو العوارض المختلفة، كذلك التعليمات المتعددة وآثارها وتطور الحالة العامة، وبالاختصار. كنا نجد فى المستشفيات تسجيلاً للمرض وحالاته يكاد يكون تاريخًا له.

فمن هذه التسجيلات التى تؤرخ المريض والمرض فى المستشفيات الكبرى ببغداد ومدينة الرى الواقعة فى قلل الجبال فى الربع الأول من القرن العاشر تمّ وضع مؤلف قيم فى الطب، وقد ظل مئات السنين مستخدما كمرجع طبى دراسى لأطباء أوربا. فهو سجل للتجارب العملية، والتى يجب على الأطباء مراعاتها وعلى الطلبة دراستها، وقد وضع هذه المجموعة أكبر طبيب فى العصور الوسطى وأحد عظماء أطباء العالم والإنسانية فى مختلف العصور.

أحد نوابغ الطب العالميين فى مختلف العصور

قبل ستة قرون امتلكت كلية الطب بباريس أصغر مكتبة فى العالم. وكانت محتوياتها كتابًا واحدًا، وهذا الكتاب لمؤلف عربى.

لقد كان مؤلفًا قيمًا جدًا حتى إن صاحب الجلالة ملك جميع المسيحيين لويس الحادى عشر أراد مرة استعارته فدفع تأمينًا اثنى عشر ماركًا فضة ومائة ريال ذهبًا، وكان غرضه من استعارته تمكين أطبائه الخصوصيين من الحصول على نسخة منه للرجوع إليها إذا ما طرأ على صحة صاحب الجلالة طارئ ما.

فهذا الكتاب الذى كان يكون مكتبة كلية طب جامعة باريس يومًا ما عبارة عن موسوعة لسائر المعارف والعلوم الطبية منذ العصور اليونانية القديمة حتى عام ٩٢٥م، ولم تضف القرون الأربعة التى مضت على كتابته شيئًا يذكر فى عالم الطب، فكان هذا الكتاب الطبى العظيم جدًا والذى وضعه عالم عربى لا تدانيه جميع هذه الرسائل التافهة التى كانت تملأ مختلف المكتبات التى عرفتها الأديرة المسيحية الأوربية.

وكان الباريسيون يقدرون حقًا قيمة هذا الكتاب الذى تتكون منه مكتبتهم الطبية، حتى إنهم أقاموا لمؤلفه نصبًا تذكاريًا فى المدرج الأكبر لكلية الطب، واليوم ما زال طلاب مدرسة الطب يشاهدون يوميًا صورته وصورة عربى آخر عندما يجتمعون فى قاعة المحاضرات الكبرى فى شارع «سان جرمان ده بريه Baulevard St. Germain pres»، وقد أطلقت أوربا على مؤلفنا العربى الرازى - واسمه الكامل أبو بكر محمد بن زكريا - لفظ «رازيس Rhasis».

وقد ولد الرازى فى مدينة الرى بخراسان الواقعة شرقًا قليلا من طهران الحالية، وكان ذلك فى منتصف القرن التاسع الميلادى عندما استطاع حفيد شارلمان تقسيم دولة الكارولينجيين. أما سكان جبال خراسان فقد كانوا شقر الشعور حتى إن العرب أطلقوا عليهم لفظ «ثعالب الرى الحمر».

وكان الرازى أشقر اللون عظيم الجسم. ولما كان طفلا لم يظهر شيئًا من النبوغ، وقد غنى وعزف على العود إلا أنه لم يمتز على زملائه واهتم مثلهم بالدراسات الفلسفية واللغوية والرياضية ولم تظهر عليه معالم النبوغ التى توحى بأنه سيصبح شخصية ممتازة فى المجتمع الإسلامى اللهم إلا فى الموسيقى فقد أبدى نوعًا من التفوق. وكان يكتسب قوته اليومى بمختلف المهن والوسائل، وهكذا ظل على هذا المنوال حتى بلغ الثلاثين من عمره، وكان ناقمًا على حياة البطالة التى يحياها، وكان متعطشًا إلى عمل يشغله كل وقته فترك مهنة الصيرفة ومسقط رأسه وتوجه إلى بغداد شأنه فى ذلك شأن كثيرين ممن سبقوه معتقدًا أن الدهر الذى كشر له حيث هو قد يبتسم له فى بغداد كما ابتسم لسابقيه.

وما كاد يصل إلى عاصمة العباسيين حتى أقبل بحماس على دراسة الطب فبدأ أولا بأخذ اللغات اليونانية والفارسية والهندية ومبادئ الطب على حنين بن إسحق الذى كان رئيس مترجمى أبناء موسى وكثيرين من الخلفاء. وبعد إتقانه هذه المواد وإلمامه بها الإلمام الكافى عاد إلى الرى كمدير لمستشفاها، لكنه لم يقنع بهذا، وبعد قليل من الزمن تقدم ليشغل وظيفة كبير أطباء المستشفى الكبير بالعاصمة التى تجاوز سكانها المليون ونصف المليون نسمة. وقد تقدم لشغل هذا المنصب نحو مائة طبيب إلا أن الاختيار وقع عليه، ومن حسن طالعه أن أصبح كذلك الطبيب الخاص للخليفة ففتحت له أبواب القصر وأصبح مرموقًا من الجميع.

وهكذا أخذ نجمه يسطع وشهرته تنتشر لا كطبيب فحسب بل كأستاذ أيضا فقصده الطلاب من مختلف أنحاء الدولة، ومنهم نفر من الأطباء الذين سمعوا عن شهرته العلمية وتجاربه الطبية آملين الاغتراف من بحر علمه الزاخر، فكانوا يرافقونه

عند القيام بجولته اليومية فى المستشفى، فكانت محاضراته وعياداته تغص بطلاب المعرفة وعشاق العلم من تلاميذه وتلاميذ تلاميذه وآخرين.

إن مثل هذا الإقبال على عالم لم يحدث من قبل، فقد كان الأستاذ الرازى أكبر مرجع فى الحالات العسيرة التى يصعب الفصل فيها تشخيصاً وعلاجاً وهو الأمل الأخير لمن يقاسون أشد الآلام، حتى قصده المرضى وغيرهم من مختلف نواحى البلاد سعياً وراء الشفاء والمعرفة. هكذا يتحدث القوم عنه حتى بعد وفاته بقرنين فابن أبى أصيبعة يذكر:

«ومما حكى عنه من بدائع وصفه استدلاله قال القاضى أبو على المحسن بن على ابن أبى جهم التنوخى فى كتاب الفرج بعد الشدة: حدثنى محمد بن على بن الخلال البصرى أبو الحسين أحد أمناء القضاء، قال: حدثنى بعض أهل الطب الثقات أن غلاماً من بغداد قدم الرى وهو ينفث الدم، وكان لحقه ذلك فى طريقه، فاستدعى أبا بكر الرازى الطبيب المشهور بالحذق صاحب الكتب المصنفة فأراه ما ينفث ووصف ما يجد، فأخذ الرازى مجسته ورأى قارورته واستوصف حاله منذ بدأ ذلك به، فلم يقم له دليل على سل ولا قرحة ولم يعرف العلة فاستنظر الرجل ليتفكر فى الأمر، فقامت على العليل القيامة وقال: هذا يأس لى من الحياة لحذق المتطبب وجهله بالعلة، فازداد ما به، وولد الفكر للرازى أن عاد إليه فسأله عن المياه التى شربها فى طريقه فأخبره أنه قد شرب من مستنقعات وصهاريج، فقام فى نفس أبى بكر محمد بن زكريا الرازى المتطبب الرأى بحدة الخاطر وجودة الذكاء أن علقة كانت فى الماء فحصلت فى معدته، وأن ذلك النفث للدم من فعلها. فقال له: إذا كان فى غد جئتك فعالجتك ولم أنصرف أو تبرأ ولكن بشرط أن تأمر غلمانك أن يطيعونى فيك بما آمرهم به فقال: نعم، وانصرف الرازى فجمع له ملء مركنين كبيرين من طحلب أخضر فأحضرهما من غد معه وأراه إياهما وقال له ابلع جميع ما فى هذين المركنين، فبلع الرجل شيئاً يسيراً ثم وقف فقال: ابلع. فقال: لا أستطيع، فقال للغلمان: خذوه فأنيموه على قفاه ففعلوا به ذلك وطرحوه على قفاه وفتحوا فاه وأقبل الرازى يدس الطحلب فى حلقه ويكبسه كبساً شديداً ويطالبه ببلعه شاء أم

أبى ويتهدده بالضرب إلى أن بلعه كارهًا أحد المركنين بأسره والرجل يستغيث فلا ينفعه مع الرازى شىء إلى أن قال : الساعة أقذف، فزاد الرازى فيما يكبسه فى حلقه فذرعه القىء فقذف، وتأمل الرازى قذفه فإذا فيه علقة، وإذا هى لما وصل إليها الطحلب قرمت إليه بالطبع وتركت موضعها والتفت على الطحلب. فلما قذف الرجل خرجت مع الطحلب ونهض الرجل معافى.

إن كفاية الرازى الطبية لا تعدلها كفاية طبيب آخر منذ عهد جالينوس، فقد كان الرازى لا يمل العمل ولا يعرف الكلل فى سبيل اكتساب المعرفة والتوسع فى معلوماته الطبية ليس فقط حول أسرة المرضى الذين كانوا دائمًا يحظون برعايته بل بالاطلاع وإجراء الأبحاث الكيماوية إذا ما آوى مرضاه إلى مضاجعهم، ولم يقف أمره عند هذا بل كثيراً ما قام بالأسفار البعيدة وراء البحث والاطلاع فكان على اتصال دائم بفطاحل علماء عصره، كما اشتهر بحثّه طلابه على التحلى بجميل الأخلاق وكريم الصفات فمهنة الطب شريفة لا يرعاها إلا الطبيب الشريف؛ لذلك كثيراً ما حذر تلاميذه كتابيًا وشفويًا من أعمال النصب والاحتيال، وهكذا أصبح الغلام الذى كان يحاول التكسب عن طريق الموسيقى والصيرفة طبيبًا عالميًا مشهوراً موضع عطف الأمراء وتقديرهم. كان الرازى حبيب الشعب وصديقه ومعبود الفقراء والمحتاجين، فقد كان يعالجهم بدون أجر ويعاونهم على الشفاء من ماله الخاص بينما يقنع هو بالقليل اليسير.

لقد توفى عام ٩٢٥م فقيراً معدومًا فكرمه الحاتمى أوصله إلى ما يقرب من التسول، وحسد زملائه وحقدهم عليه ودسهم له دينيًا وسياسيًا أقصاه من مختلف الأعمال والوظائف التى كان يعيش منها سواء فى بغداد أو الرى.

لذلك حنت عليه أخته خديجة بعد أن عضته الفاقة وأصبح من المتعذر عليه إيجاد قوته اليومى وآوته إلى بيتها. وهكذا نجد الرازى وقد غربت شمس حياته بمضى الأيام الأخيرة فى بؤس وشقاء بينما خلف وراءه أيامًا كلها سعادة وهناء. الرازى الذى ساعد الآلاف فقد بصره وأصبح ضريراً بسبب السياط التى ألهب بها ظهره حاكم خراسان المستبد المنصور بن إسحق، لأنه قام ببعض التجارب الكيماوية ولم ينته فيها إلى نتيجة. ولا شك فى أن هذا السياط هى التى أدت إلى فقدانه بصره.

ومما هو جديد بالذكر أن كحالا زار الرازى لفحص عينيه فسأله الرازى عن عدد جلد العين فتلعثم الكحال ولم يحر جوابًا، فقال الرازى: إن الذى يجهل هذا يجب ألا يستخدم مبضعه فى عينى، وبالرغم من كل المحاولات التى بذلت لإقناعه بإجراء العملية لصالح بصره رفض الرازى وقال: «لقد رأيت كثيراً من العالم حتى سئمته».

وهكذا نجد الرازى وقد سبقت عقليته روحه وأبصرت عيناه الميتتان ما قدر له ودونه على الورق:

لعمرى ما أدرى وقد آذن البلى بعاجل ترحال إلى أين ترحالى

وأين محل الروح بعد خروجها من الهيكل المنحل والجسد البالى

إن الحصاد الذى جنته الإنسانية من حياة الرازى الغنية بالكفاح والجهاد فى سبيل الطب وتقدمه عظيم جداً، فأخته خديجة تذكر أنه ترك أكثر من مائتين وثلاثين مؤلفًا ورسالة، وهذه المؤلفات لا تعالج الطب أو الكيمياء فقط بل تناولت كذلك الدين والفلسفة والفلك والطبيعة والرياضيات، فهناك رسالة عنوانها: بسبب أن المغنطيس يجذب الحديد؛ وأخرى عن الفراغ، وكتاب هيئة العالم غرضه أن يبين أن الأرض كروية وأنها فى وسط الفلك وهو ذو قطبين يدور عليها، وأن الشمس أعظم من الأرض والقمر أصغر منهما، وما يتبع ذلك من هذا المعنى. ومن مؤلفاته كتاب فى العلم الإلهى على رأى أفلاطون وقصيدة فى العلم الإلهى. وكتاب الخمسين فى أصول الدين.

ويؤثر عن الرازى أنه كان يعتقد أن مجلسًا من خمسة عناصر إلهية يدير العالم، وهذا يعارض تعاليم الإسلام، كما وضع كتابًا يدعو إلى شىء من الحرية الدينية ويفصل بين الأخلاق والدين ويدعو إلى حياة جريئة لا يهددها الوعد أو الوعيد فى العالم الآخر، وذلك لأن العقل والمعرفة يثبتان عدم وجود الحياة الأخرى بعد الموت. كذلك خلف لنا الرازى كتبًا فى الطبيخ وبعض القصائد الغزلية. وإلى جانب هذه الأكداس المكدسة من المخطوطات يوجد صندوق مزدحم بلفائف

التعليقات، وأخرجت السيدة بطاقة قرأها عبد الله بن سوادة فإذا هى تعرض للحمى المتقطعة التى تعود المريض ربما كل ستة أيام وأحيانًا كل يومين أو أربعة أو كل يوم، وهذه الحالات الثلاث تصحبها قشعريرة ببرودة ويعتاد المريض كثرة التبول فأبدى رأيه وقال: «إن هذه هى عوارض الحمى المتقطعة أو تكون خراجًا فى الكلى. وبعد مدة يظهر قيح فى بول المريض، لذلك أخبرته أن الحمى لا تعود ثانية، وهكذا كان، والذى عاقنى فى أول الأمر هو صعوبة تشخيص المرض والتأكد من أن سبب المرض هو وجود خراج فى الكلى؛ لذلك رأيت بادئ ذى بدء أن هذه الحمى المتقطعة نشأت عن طريق الالتهاب، وهذا تعليل معقول ومقبول، وعلاوة على ذلك فالمريض لم يشك أمامى من الصعوبة التى يلقاها فى الحقوين عند القيام، كما لو أن ثقلا معلقًا فيهما، وقد فاتنى أن أسأله عن هذه الحالة. وكثرة التبول عللتها حسبما أعتقد بسبب وجود الخراج فى الكلى، فلو كنت أعلم أن والد المريض كان عنده ضعف فى المثانة وكان يقاسى من هذا المرض كثيراً وأن ابنه يعانى من نفس المرض فى أيامه العادية عندما كان معافى، فواجبنا أن نعنى به عناية خاصة إن شاء الله. وعندما بال المريض القيح مع البول أمرت له باستخدام مدر للبول حتى تخلص البول من القيح، وبعد ذلك وصفت له خلات الألومنيوم وبخوراً و. . . ».

وهنا تنتهى الورقة، ومن ثم أمسكت خديجة بورقة أخرى: «أبو بكر بن هلال يشكو آلامًا فى المعدة» و«محمد بن عيسى مصاب بالتهاب فى مفاصل الحقوين» فلا فائدة من الكشف عليه أو علاجه. وظل الصندوق مقفلا زمنًا طويلاً ثم حضر ابن العميد وزير السلطان إلى الرى، ومن ثم توجه إلى المنزل الذى توفى فيه هذا الطبيب الشهير، فسلم خديجة مبلغًا كبيراً من المال وأخذ الصندوق بما فيه وجمع أطباء المدينة وتلاميذ الرازى وكلفهم بالاطلاع على هذه الأوراق ومراجعتها وتنظيمها بحيث يتكون منها كتاب يصلح للنشر.

وقد تحققت هذه الرغبة، وكان هذا السفر هو الموسوعة التى عرفت فيما بعد باسم كتاب الحاوى أو الجامع الكبير أو الجامع الخاص بصناعة الطب، وهو يعرف فى أوربا باسم «كونتيننس Continens» وهو موسوعة تقع فى نحو ثلاثين مجلداً

تعالج الموضوعات الطبية المختلفة من عهد أبقراط حتى عصر جمعه، فما أعظم هذه المعلومات وأقيمها التى كان يعرفها الرازى! لقد اطلع على جميع ما وقع فى يده من كتب الطب واستشهد فى الحاوى بمختارات من المراجع اليونانية والهلّينية والهندية والفارسية والسريانية والعربية، مع الدقة فى ذكر المراجع عند الحديث عن كل مرض من الأمراض التى عالجها أو اهتم بها، وإلى جانب ذلك كان يذكر رأيه الخاص وتجاربه ليجعل من موسوعته كتابًا أقرب إلى الكمال ليتوج به حياته، إلا أن العمى الذى أصابه والموت الذى اختطفه حالا دون تحقيق هذه الأمنية.

أما تلاميذه فقد تناولوا هذا السفر العظيم وتقاسموه بينهم لإعداده للنشر، لذلك ظهرت فيه بعض الخلافات نظرًا لتعدد المؤلفين، فنحن نجد فيه اختلافًا فى العرض والتأليف واختلافًا فى المنطق عن سائر مؤلفات الرازى الأخرى.

وهناك كتابان آخران للرازى وجدا شهرة أكبر وأعظم من الحاوى، كما ترجما إلى مختلف اللغات، وهما يعالجان الطب بطريقة منتظمة، كما يتحدثان عن مختلف الأمراض التى تنتاب الإنسان من رأسه حتى أخمص قدمه وأعراض هذه الأمراض وتطورها وعلاجها فى المستشفى وطبها.

وقد أهدى المؤلف الكتاب الذى عرف باسم المنصورى إلى حاكم خراسان وهو يعرف فى اللاتينية باسم Liber medicinalis ad Almansorem أى «كتاب الطب المنصورى» أو «الكتاب المنصورى Liber Almansoris»، وللرازى أيضًا كتاب الأقطاب وكتاب الشفاء فى ساعة، وقد وضع الأخير استجابة لرغبة الوزير ابن القاسم بن عبد الله، وذلك عقب مناقشة دارت حول المدة التى يجب أن يعالج فيها المرض فقال بعض الأطباء الحاضرين: إن علاج المرض يحتاج إلى الزمن الذى احتاجه للظهور. فقال الرازى عن هذا الاجتماع: لقد قالوا هذا حتى يسمحوا لأنفسهم بزيارة المريض مرات عديدة ليحصلوا على أكبر مبلغ ممكن، فاندهش الوزير عندما سمع منى أن بعض الأمراض قد يشفى فى ساعة، ورجانى أن أكتب له فى هذا كتابًا، وها هو الكتاب.

ومن كتب الرازى الكثيرة الانتشار كتابه الخاص بأولئك الذين لا يتيسر لهم

استدعاء الطبيب، وهو أول معجم طبى للاستعمال فى البيت، وهو يصف الأمراض المختلفة بدقة فائقة كما يصف علاجها بواسطة مواد متوفرة فى كل مكان وبأدوية موجودة فى كل مطبخ وكل بيت.

أما مؤلفه الخاص بعلاج مرض بعينه فله شهرة عظيمة، وهذا هو الكتاب المعروف باسم «كتاب الجدرى والحصبة»، فقد فتح الرازى بهذا الكتاب حقلا جديداً لم يطرقه أحد من قبل، والرازى فى كتابه هذا يفحص الحالة فى طبيعتها، كما يستطيع إصدار حجه غير مقيد بآراء الآخرين التى أصبحت وكأنها قوانين يجب احترامها والأخذ بها. أما الرازى فهو يصدر رأيه اعتماداً على تجاربه الخاصة والنتائج التى انتهى إليها.

إن مثل هذا المنهج فى البحث وهو الاعتماد على تشخيص المرض كما هو حسب وضعه وأثره فى المريض مستخدمًا وسائله الطبية الخاصة جديد فى عالم الطب. ويجب أن نذكر هنا كتابًا صغيراً وضعه الرازى وهو يعتبر حجة فى مادته، وقد طبع فى أوربا فى الفترة الممتدة بين عامى ١٤٩٨ - ١٨٦٦ م أربعين مرة، وإلى هذا المؤلف ترجع هذه البحوث الخاصة بالنقرس والحصوة وأمراض المثانة والكلى وأمراض الأطفال.

كذلك يهتم الرازى بحالة الطقس ومختلف مواقع الأقاليم من حيث الحرارة والرطوبة والريح والحالة الصحية للمساكن وتزويدها بالحمامات كما كان يهتم بتنقية هواء المساكن عن طريق البخور لطرد الروائح الكريهة وتهوية غرف المرضى، كما يحرص على وجود الحرارة المعتدلة والمياه الصالحة للشرب والغسل والاستحمام.

إن جميع الأشياء التى كان يعنى بها هذا الطبيب العربى والتى تبين مدى المستوى الذى بلغته العناية الصحية فى العالم الإسلامى - كانت جميع هذه الوسائل وتلك الاتجاهات قذى فى عيون رجال الكنيسة وخطيئة كبرى، لذلك كانت الكنيسة قبل الحروب الصليبية لا تحارب هذه الاتجاهات فقط بل كانت تعدّ الألعاب الرياضية ومختلف أنواع النشاط الجسمانى من كبرى الخطايا وتتعارض مع البكارة.

ويذكر عن الرازى أنه كثيراً ما استخدم المرضين وغيرهم لنقل المرضى إلى أصح الأماكن؛ لأنه يعتبر الهواء العليل من أحسن الأدوية وهو لديه لا يقل أهمية عن العقاقير النباتية التى كان يفضلها الرازى على سواها، وكان المريض يتناولها كما هى فى حالتها الطبيعية. وإن لم تفد هذه العقاقير المريض استعانة عنها بالكيماويات، لذلك وضع كتابًا وأكثر فى إعداد الطعام والأغذية الحمية. كما كان كثيراً ما ينصح باستخدام طرق خاصة لإعداد الطعام الصحى المفيد فمثلا قبل طهى البقول الجافة يجب سكب الماء الذى استخدم لتطريتها حتى لا يتسبب هذا الماء فى إحداث الغازات عند تناولها. وهو يقدم كذلك إرشادات أخرى للطهى وحفظ الهليون والباذنجان والبصل والخيار والفلفل الأسبانى فى الخل، كما يقدم الرازى أحسن النصائح لعمل المربات وبخاصة تلك المصنوعة من البرتقال والقراصيا والورد والمشمش وغيرها. وفى الحالات التى يمكن فيها شفاء المرض عن طريق الأطعمة ينصح الرازى الطبيب المعالج ألا يستخدم العقاقير، وإذا كان من الممكن استخدام الأدوية البسيطة فليتجنب المركبة.

أما إذا كان الدواء المطلوب جديداً فتجب تجربته فى الحيوانات قبل استعماله لمعرفة أثره ومفعوله الكيماوى فى أعضاء جسم الإنسان. وفيما يتصل بالزئبق فالرازى يعتقد أنه غير ضار كثيراً، ولو أنه استخدم خطأ فقد يسبب آلامًا مبرحة فى أسفل البطن والأمعاء إلا أنه بعد ذلك لا يترك أثراً فى الجسم الذى يعود إلى حالته الطبيعية كما كان من قبل، وبخاصة إذا باشر المريض شيئًا من الحركات الرياضية، ويذكر الرازى أنه استخدمه مع شخص كان فى منزله وانتهى إلى النتائج التى ذكرها، وقد تبين الرازى أن هذا الشخص كان يتلوى ويتقلب هنا وهناك كما تصطك أسنانه ويضغط بيديه على جسمه. أما الزئبق الحلو وبخاصة الزئبق المصعد ففى غاية الخطورة وهما من السموم الحادة كما يسببان آلامًا قوية فى أسفل البطن وكذلك كثيراً من المغص والبراز المختلط بالدم. أما بخار الزئبق أو الزئبق المصعد فقد يسبب أيضًا شلل الأطفال.

إن الرازى لم يكن فى طليعة الأطباء فقط بل كان من أوائل الكيميائيين أيضًا،

لقد كان العالم المتواضع الذى عالج الكيمياء علاجًا علميًا حقيقيًا، وقضى على هذه الخرافات التى كان يتصور الأقدمون أنها جوهر الكيمياء السحرى، أعنى أن وظيفة الكيمياء هى استخراج الذهب لا أكثر ولا أقل، ومن ثم أخذ الرازى ينظر إليها على أنها علم يعنى قبل كل شىء بالتجارب والتحاليل لا الشعوذة، وكان الرازى أول كيميائى استخدم هذا العلم فى خدمة الطب.

وقد شاع بين الشعب أن هذا العالم الفاضل توصل إلى حجر الحكماء، وذلك لأن الرازى قد غمر شعبه بهباته وعطاياه وكرمه الحاتمى، واعتقد القوم أن هذا الثراء لا بد أن يكون مصدره حجر الحكماء الذى اهتدى إليه الرازى والذى بواسطته يستطيع أن يحول سائر المعادن إلى ذهب.

واتسع الخيال أمام الشعب حتى تصور أن الرازى يطهى طعامه فى آنية ذهبية، وأن سائر أوانى المطبخ من الذهب الخالص.

والرازى الطبيب المخلص الوفى لطبه، والذى اعتقد أن الطب خلق لدعم الفضيلة والأخلاق الفاضلة، حرص الحرص كله على الدعاية للخلق الكريم والفضيلة وبخاصة بين الأطباء، لذلك لم تمض على وفاته ستة أعوام حتى أدخل نظام الامتحان فى مهنة الطب، وكان هذا الامتحان نظريًا وعمليًا. وإلى الرازى يرجع الفضل فى محاربة الدخلاء والمشعوذين بين الأطباء وبذلك فرض العناية على تدريس الطب وتخريج الأطباء.

ألم يهتم الرازى - منذ أول عهده بالطب - بتثقيف طلابه وحثهم على وجوب العناية بتشخيص الأمراض، هذا التشخيص الذى دفع اليونان منذ القدم إلى الاهتمام بتحليل البول؟

لقد هاجم الرازى الدخلاء على مهنة الطب وكان عنيفًا فى هجومه فجاء بالحجج العلمية والنفسية التى تدحض بطلان دعوى أولئك المشعوذين، فقد كانوا يدعون أنهم عن طريق فحص بول المريض يستطيعون معرفة ماضى المريض وحاضره ومستقبله. وقد بلغ من خبث هؤلاء المشعوذين أنهم كانوا يرسلون من يتلصصون على المرضى وعلى أخبارهم وأحوالهم ويحيطون أولئك الأدعياء بجميع تلك

الأخبار فيستغلونها لابتزاز أموال أولئك المرضى، فكان المشعوذ مثلا يزور المريض ولا يوجه إليه أسئلة ما فيثق فيه المريض ويدرك أن تشخيص هذا الشخص الدعى لمرضه أغناه عن توجيه الأسئلة إليه.

ويذكر الرازى متندراً أنه عندما أخذ يمارس مهنة الطب قرر ألا يوجه أسئلة لمريض إلا بعد أن يتسلم بوله ويدرسه، وكان هذا المسلك مدعاة إلى التقدير والإعجاب. ولما أدرك القوم أننى أخذت أكثر من الأسئلة تضاءلت ثقتهم فى معرفتى وقالوا لى علانية اعتقدنا أنك عندما تشاهد البول تخبرنا عن كل شىء حدث لنا أو يحدث. أما الآن فقد انقلبت الآية؛ وعبثًا حاول الرازى إقناع القوم أن ما يتطلبونه منه لا يمت إلى مهنة الطب بصلة، وواضح أن المشعوذين هم الذين أدخلوا فى روعهم أن الطبيب يجب أن يتبين كل شىء من البول ولا حاجة إلى جميع هذه الاستجوابات. وإذا كان الطبيب يتعرف إلى كثير من خصائص المرض من عوارضه، ويعرف خصائص لا يذكرها له المريض، فإن ما يصرح به المريض أهم وأدق وبخاصة إذا ما علم القوم أن هذا المريض صاحب البول قضى ليلة البارحة مع امرأة عجوز أو نام على جانبه الأيمن وكذا ساعة بالليل وهلمّ جراً من هذه السخافات... ويعتقد القوم خطأ أن مثل الطبيب مثل الساحر يجب أن يتم الشفاء على يده فى اللحظة والثانية؛ لأن الأثر الملحوظ المفاجئ هو الذى يترك أثراً فى نفس القوم، وقليلون هم الذين يقدرون مجهود الطبيب؛ إن الناس كثيراً ما يتحدثون عن شفاء كشفاء المعجزات إلا أنهم ينسون أو يخفون الإخفاق الذى قد يقع بسبب عدم تحقيق هذا الإعجاز.

فهذا النطاسى البارع كان كذلك إنسانًا عظيمًا وكان كذلك طبيبًا إنسانيًا، وبالرغم من حرص العالم القديم على أن يكون الطبيب لا طبيبًا فحسب بل على جانب عظيم من الخلق الكريم، فإن الطبيب الشاب كان لا بد من أن يقسم قسم أبقراط وكان يؤدى هذا القسم أمام الإله «بولون» الإله الطبيب، وأمام «إسكلبيوس» و«هيجيايا» و«باناكيا» وجميع الآلهة والآلهات. ويقسم الطبيب كذلك بأن يكون نافعًا مفيداً وحفيظًا على الأيمان والأخلاق فى كل بيت يدخله به

مريض كما، لا يقسم بمساعدة المريض الميئوس منه. وعلى النقيض كان من واجب الطبيب عدم مساعدة المريض الذى لا يرجى شفاؤه، فالطب كما جاء فى رسالة أبقراط هو الفن الذى يشفى المريض تمامًا من مرضه وتخفيف وطأة آلام الأوجاع القاسية والابتعاد عن أولئك الذين لا يرجى شفاؤهم، وذلك بسبب استفحال المرض فيهم وإزمانه. ففن الطب لا يجدى معهم.

ثم جاء الإسلام بتعاليمه الإنسانية الرفيعة فاستنكر المسلمون هذا النوع من المعاملة الذى ظل قرونًا طويلة دستوراً للطب والأطباء فى كثير من بلاد أوربا والشرق الأدنى، ونادى مسلم بوجوب تغيير تلك الأوضاع وبأن أول واجب على الطبيب هو العناية بالمريض حتى الذى لا يرجى شفاؤه، وهذا المسلم هو الرازى، فقد تبين أن رسالة الطبيب الحقيقية تكمن فى أن على الطبيب أن يقنع مرضاه بأن حالتهم فى تحسن، وأن يمنحهم الأمل فى الشفاء، ولو كان غير واثق من نتيجة علاجه، فكما أن الجسد يخضع لتأثير الروح كذلك الطبيب يجب عليه أن يدخل أمل الشفاء إلى ذلك الجسد المريض مطاردًا الموت وباعثًا الحياة.

ومن الجدير بالذكر أن أحد أبناء «كيزر برج» ألا وهو «جيلر» نادى مرة قائلاً: إن الطبيب الذى يعلم أن المريض قريب من الموت، ولا يخبر المريض بهذا ثم يحاول شفاءه ويدخل إلى نفسه أمل الشفاء - إن مثل هذا الطبيب يحول دون سرعة انتقال المريض إلى خالقه.

أما المسلم فعلى نقيض المسيحى يقول على الطبيب أن يفهم المريض أن مرضه قابل للشفاء وأن شفاء المريض غير ميئوس منه. هكذا يقول مواطن الرازى ألا وهو ابن سينا، إن المريض الذى يعالجه الطبيب نفسيًا وإن المريض الذى لا يرجى شفاؤه لأنه مريض مرضًا عقليًا - مثله فى رأى الرازى يجب أن يعامل معاملة كلها إنسانية، ولم يكن هذا مذهب الرازى فقط أو ابن سينا فقط بل الأوربيين. وإن ظلت أوربا قرونًا طويلة غير مدركة لقيمة المبادئ الإسلامية السامية. ففى أوربا نجد الشعب يجنى ثمار البذور التى غرسها اليونان وغذّتها المسيحية ولا شك فى أنها كانت من أبشع الغلات. فالمريض المصاب بمرض مزمن غير قابل للشفاء وبخاصة المريض

بعقله كان المجتمع الأوربى المسيحى ينظر إليه طيلة العصور الوسطى وحتى أواخر القرن الثامن عشر على أن هذه المصيبة إنما هى عقوبة إلهيه ابتلاه الله بها تكفيراً عن خطيئة ارتكبها المريض قبل أن يمرض، أو أن هذا المريض أصبح جسداً للشيطان.

لكن أوربا لم تهمل هذا النوع من المرض بل قررت طرد الأرواح الشريرة التى تستولى على المرضى، والمريض بعقله إن كان ذكراً يجب عليه أن يرتدى ثوباً مرقعاً ملوناً وبيده جرس ومطرقة، يعلن بهما المريض عن نفسه ويخبر كل طفل بذلك فى جميع الحارات التى يجتازها، وهنا يتحول المريض إلى شخص للسخرية. لكن من الذى يقرر أكان المريض مؤذياً أم مسالماً؟ حتى عام ١٤٩٨ نقرأ أن مجلس فرنكفورت لجأ إلى دير القديس «أنشتات» راجياً إرسال راهب لفحص مريض مصاب فى قواه العقلية، وبه مس من الجن، وهذا المريض يدعى «يعقوب جويش» ورجا المجلس أيضاً الدير أن ينقل هذا المريض إلى الدير والعمل على طرد هذه الروح النجسة.

أما الحالات المستعصية من الأمراض العقلية، والتى يتعذر فيها طرد الشياطين، فإن مثل هؤلاء المرضى يغلون بالسلاسل ويلقى بهم فى السجون أو يحجزون فى بيوت المجانين أو برج المعتوهين. أما فى ميناء همبورج فكانوا يوضعون فى صندوق المجانين، وهناك يسلم هؤلاء المرضى إلى أناس غلاظ القلوب ينهالون عليهم ضرباً ولكزاً ولكماً، ويعرف هؤلاء الجلادون باسم «عبيد المجانين» وهم يسومون أولئك المرضى سوء العذاب حتى تفارق الروح الجسد، وهدف هذا التعذيب هو طرد الشيطان من الجسد!

ويحدثنا التاريخ أن شخصاً من سكان فرنكفورت اتهم عام ١٤٥١ بالجنون؛ لأنه لعن القربان المقدس وعوقب كما لو أنه مالك لقواه العقلية. وفى عام ١٤٩٠ اتهم شخص بالجنون وهو يدعى «كونتس فوجل»، كما أصيب أيضاً بالبرص؛ لأنه عاب فى الذات الإلهية.

أما المريض بالأمراض العصبية عند اليونان فكان يسلم لأهله وهم يحولون دون ما قد يرتكبه من أضرار، كما أن أسرته هى التى توفر له أسباب الراحة.

لكن إذا انتقلنا إلى البلاد العربية وجدنا الحال غير الحال فالمريض يوضع فى مستشفى خاص بالأمراض العصبية وتحت إشراف السلطان، الذى كان يزورهم أسبوعيًا ويتولى الأطباء العناية بهم ورعايتهم بخلاف الحال فى أوربا فقد ظلت حتى القرن التاسع عشر تعاملهم معاملة المجرمين، وأسبانيا فقط هى التى احتفظت بالتراث العربى فكانت تضع مثل هؤلاء المرضى فى مستشفيات تعرف باسم «الأبرياء Innocentes». أما إنجلترا فلم تقبل على الأخذ بمذهب العرب فى معاملة هؤلاء المرضى إلا عام ١٧٥١. وفى أواخر القرن الثامن عشر نجح الطبيب الفرنسى «بينيل Pinel» فى فرنسا فى إخراج هؤلاء المرضى المكبلين فى الأغلال من الدير ووضعهم تحت الرعاية الطبية. وليس فقط مرضى الأمراض العصبية هم الذين ابتلوا بهذه المعاملة الوحشية القاسية بل شاركهم فيها مرضى آخرون وهم أولئك الذين لا يستطيع الإنسان معرفة أسباب أمراضهم، حيث نسبت جميعها إلى الشياطين، لذلك كانت وسائل التخلص من هذه الأرواح النجسة الضرب والتعذيب؛ وظل الحال كذلك حتى القرن التاسع عشر إذ نجد الطبيب الشاعر «يوسنينوس كرنر»، أحد أبناء قرية «فينزبرج» وهو الصديق الحميم لشاعر ألمانيا الخالد «جوتة»، ومع هذا الطبيب الشاعر بعض أساتذة جامعة ميونخ أمثال: «شوبرت» و«بادر» و«فون رينجسيس»، وكذلك أستاذ جامعة توبنجن وهو «إشيماير» وأستاذ جامعة «ليبزج» المسمى «هينروت» يجددون الكتابة فى موضوع حلول الأرواح الشريرة فى الناس، ويعتقدون كذلك أن الإصابة بها تأتى بسبب الخطايا التى يرتكبها بعض الناس. أما الشفاء منها فلا يتم إلا بطرد الشياطين؛ وذلك عن طريق الصلاة والابتهال والتوجه إلى القديسين. فهذا التزاوج الجديد بين الطب والديانة المسيحية نادى به عام ١٨٢٤م أستاذ جامعة «ليبزج» المسمى «فينديشمان» فقد قال كلماته المشهورة: «إن المرض يحل بالنفس التى ينصرف صاحبها إلى الملذات والشهوات فتتهيج الروح وتثور. أما الطبيب الذى يجهل طرد الأرواح الشريرة فهو لا يدرك العلاج الصحيح لمثل هذه الحالات، لذلك فالقوم فى حاجة إلى علاج مسيحى».

وهناك مثل عربى معناه أن الذى يشغل نفسه بجمع اللآلئ يجب أن يحرص على

عدم إتلافها، كذلك الإنسان الذى يتصدى لعلاج الأجسام البشرية وهى أكرم وأشرف ما خلق على هذه الأرض، فهذا المعالج يجب أن يكون على جانب عظيم من الحذر كما عليه أن يبذل كل ما فى وسعه من عناية.

وفى شخصية الرازى تتجلى جميع هذه الصفات وتلك المثل التى يتصف بها الطبيب العربى. إنه الطبيب الذى لا يجارى. كان يدرك رسالة الطبيب ويدرك مسئوليته تجاه الإنسانية كطبيب. إنه نصير المحتاجين، وعون الضعفاء والمعوزين، والأستاذ الأمين الذى يجب أن يوكل إليه تخريج أجيال الأطباء لأنه قادر على تحمل الأمانة. والرازى أيضًا مؤلف الموسوعات والطبيب الخبير بمختلف أنواع الأمراض التى درسها السابقون وتوسع هو فيها بحثًا ودرسًا ونقدًا، كما كان الطبيب العلمى الماهر، والباحث الكيميائى المستقل، وصاحب التجارب العملية، كما كان العالم المرتب الأفكار المنتظم فى أعماله، وبذلك أدخل على الطب النظام والوضوح والتنسيق.

قيـــود المـــــاضى

إن اضطراب الهضم الذى قاسى منه الخليفة المنصور زمنًا طويلاً، والصداع الدائم الذى أصاب بعد ذلك بعشرين عامًا الخليفة هارون الرشيد دفعا إلى التفكير فى إيجاد وسيلة للشفاء، لذلك خرجت أفراس البريد مرتين من قصر الخليفة ببغداد وقطعت نحو خمسمائة كيلو متر متجهة إلى أسافل دجلة ثم انحرفت شرقًا مخترقة البادية إلى جنديسابور بالقرب من الخليج العربى لإحضار مدير مدرسة الطب الساسانية القديمة، وكان من الأطباء ذوى الشهرة البعيدة، فأسرة بختيشوع كانت من الأسر العريقة فى الدراسات الطبية حيث مارس أفرادها أجيالا وأجيالا هذه المهنة كما تولوا تباعًا تطبيب الخلفاء. ومن هؤلاء الأطباء وصلت المعرفة اليونانية التى كانت سائدة ومنتشرة فى جنديسابور، ولم يقتصر الأمر على الطب اليونانى فنحن نجد الطب الهندى يشق طريقه إلى دار الخلافة أيضًا وذلك على يد الطبيب الهندى «منكاه» ومواطنه «صالح بن بهلة» الذى أعاد الحياة إلى عم الخليفة هارون الرشيد بعد أن اعتقد القوم أنه فارقها. ودخلت قصر الخليفة من هذين العالمين كتب الطب الهندية كذلك فنافست غيرها، ومع مرور الزمن أخذت تؤدى رسالتها.

وبعد قرن من الزمن نجد العرب يلمون بسائر أنواع المعارف من يونانية وهندية وسريانية وفارسية، ولما نزح الرازى لأول مرة عام ٨٨٠م إلى بغداد وجد الطريق سهلا معبداً أمامه، فمختلف المراجع الطبية القديمة قد نقلت إلى العربية ونقحت واستكملت، هذا مع الإشارة إلى المجهودات العظيمة التى بذلها العلماء العرب فى الطب وقتذاك وبخاصة أمثال: الكندى والكنانى ويحيى بن ماسويه وأفراد أسرتى

ثابت بن قرة وحنين بن إسحق. وهكذا نجد الطب العربى يخطو خطوات هامة بعد أن اجتاز مرحلة البدء، فقد ظهر الرازى وجعل الطب علمًا عربيًا مستقلاً قائمًا بنفسه، فكما أن أبقراط هو العالم الذى نهض بالطب اليونانى وجعله علمًا قائمًا بذاته، كذلك الحال مع الرازى والطب العربى، فكلاهما نهضا بالطب نهضة أبعد وأعمق مما كان عليه من قبل، فقد أخذ الطب اليونانى تجارب وعلوم الشرق القديم ومصر، ومن ثم استقل وشق طريقه إلى الحياة. وأبقراط هو الذى اعترف له العالم بفضله فلقبه بلقب «أبى الطب»، وإن كان الطب اليونانى فى عصره لم يكن على الأعتاب بل كان قد خطا خطوات واسعة فى سبيل التقدم، كما أن أبقراط لم يكن هو أول من ابتدع الطب فى اليونان بل كان حلقة فى سلسلة طويلة، إلا أن المعرفة التى تحلى بها أبقراط لم يكتسبها عن معاصريه لأنهم لم يأتوا بجديد. أما الرسائل التى ظهرت فيما بعد فى الإسكندرية حاملة اسم أبقراط فلم تشتمل إلا على معلومات قديمة إلا أنها تهتم بالحديث عن الصلة بين الطبيب والمريض.

وكما رأينا العرب يتبرمون من المشعوذين والدخلاء كذلك الحال عند اليونان، وقد سبق إلى ذلك أبقراط فانبرى مهاجمًا أولئك الأدعياء، وأخذ يتحدث عن الطبيب المثالى، الطبيب الحر لا الكاهن من بين رجال الدين الخاضعين لمؤثرات أخرى دينية. أما المبادئ الإنسانية التى نادى بها أبقراط فهى إنسانية عامة تربط بين جميع الأطباء وفى مختلف الشعوب والأمصار، كما تجعل منهم وحدة قوية.

ونحن نجد أبقراط من ناحية أخرى مثالا يحتذى به وإليه تنسب طريقة معالجته الخاصة للأمراض ومعاملة المريض. وهذه الطريقة تعارض الوسيلتين اللتين كانتا مستخدمتين وسائدتين فى تاريخ الطب القديم، وباستخدام الطريقة المدرسية أصبحتا قويتين وعارضتا مدرسة «أسكلبيادن» فى «كنيدوس» و«كوس» التى كان يمثلها أبقراط.

فحكيم «كوس» استفاد بأهم خصائص الطبيعة اليونانية الخيالية الفلسفية التى تصبغ ما يشاهده اليونانى بلونها، فهذه الطبيعة إن أفادت فى الرياضيات والطبيعيات فهى ضارة بالطب القائم على التجارب كما هو الحال مع الفلاسفة

الطبيعيين ومعهم كثيرون من الأطباء اليونانيين. أما أبقراط فكان يعتقد أن هذا ليس هو الطريق السوى للطب، وذلك لأنه طريق محفوف بالمخاطر، فالوسيلة الوحيدة لتحقيق هدف الطبيب هو طريق التجارب والاختبارات والعمل، وبخاصة دراسة المريض وهو على سرير المرض. أما سائر الطرق الأخرى فجامدة تسير على وتيرة واحدة فلسفية وتنظر للأمراض وكأنها وقد صبت فى قالب واحد لا تحوير فيه ولا تغيير، والواقع أن كل مرض يحتاج إلى عناية خاصة ودراسة خاصة ؛ لأن المرض يكون حالة مستقلة متصلة بالبيئة والزمان والمكان.

وهكذا نجد أبقراط ينساق وراء شيطانه ويؤمن بنظرية «أمبيدوكليس» الخاصة بالعناصر الأربعة الأولية، ففى كل إنسان معافى سليم أربعة أنواع من العصير الرئيسى: الدم والمخاط والمرارة الصفراء والمرارة السوداء وخواصها المختلفة بالرغم من امتزاجها مع عناصر أخرى. فالمرض هو اضطراب فى نسب الامتزاج، فهذا الاعتراف بالحرص على تشكيل العالم وفهمه على هيئة صور أثبت أبقراط تقديره للفلسفة اليونانية كما ترك الباب مفتوحًا أمام الخيال والأفكار المتأخرة.

ولم تترك فكرة تصور الكون على هيئة صور الفرصة لمن ينتظرها، إذ من بين التلاميذ وتلاميذ التلاميذ من عمل على خنق نظرية التطبيق والتجربة؛ وذلك بسبب انتشار نظرية عناصر العصير الأربعة، ومع الفلاسفة العظام أمثال: أفلاطون وأرسطو انتصرت نظرية الاستنتاج على التجربة واستنباط الحقائق الطبية من المستشفى، وبذلك أصبح الطب يدرس وينظر إليه على أنه علم وليس مجرد تجارب تكتسب من المستشفى، وهكذا نجد الطب ينحدر إلى طريق وعر خطأ بسبب آراء أولئك الفلاسفة الأقدمين، ومما يؤسف له حقًا أن الطب ظل يسير فى هذا الطريق قرونًا عديدة. ولما جاء جالينوس (١٣٠ - ٢٠١م) حقق الهدف السامى للطب عن طريق علمى صحيح ومنطق رياضى سليم، وأقام حول علم الطب سياجًا متينًا، واستخدم جميع الطرق الهندسية بحيث استطاع الاستفادة من كل مجهودات الماضى، فخطا بالطب خطوات علمية موفقة وخرج به من حيزه اليونانى الضيق إلى المحيط العالمى الواسع.

فهذا البناء الخالد للطب والذى شيدته العلوم القديمة ترك أثرًا فى الأجيال المتعاقبة لا يقل أهمية عن أثر علم الفلك القديم وعلم الماجسطى لبطليموس. فقد قام على نظريات فلسفية متأرجحة عوضًا عن أن يقوم على أثاث ثابت من الخبرة العملية التى تعتمد على التجارب والمستشفيات. فمن هو الشخص الذى لم يتأثر بهذه العقلية الإيحائية؟ ومن هو الشخص الذى أصابه ضرر من دراسات وأعمال جالينوس الذى كان يؤمن أن مثل هذه المحاولات من حقه ولو أنها كثيراً ما شابها الخيال؟ لذلك نجد القرون العديدة تحنى هاماتها احترامًا لجالينوس وتقديراً.

ولم يدم الحال قطّ على هذه الوتيرة فقد أخذت أعمال وفضائل جالينوس تختفى وتتضاءل تدريجيًا، وذلك عندما أخذ الطبيب الحديث يتحرر من التأملات، ومن ثم أخذت تظهر العلوم المتحررة غير المتأثرة بمؤثرات خارجية، وذلك فى أوائل القرن السابع عشر بسبب اكتشاف الدورة الدموية الكبرى على يد الإنجليزى «هارفى».

والواقع أن فكرة الدورة الدموية لم تخطر على بال جالينوس. أما نظرياته الهوائية فقد شرحها كما فحصها فى الكبد بمساعدة التدفئة الدخيلة حيث يتحول الطعام إلى دم، يسيل جزء منه فى الأوردة ويسير فى اتجاه مستقيم إلى جميع الأعضاء والأجهزة إلا أن جزءاً منه يجرى فى الوريد القلبى ومن ثم الوريد الأجوف الصاعد إلى الجيب الأيمن للقلب. وهنا نجد الحرارة الدخيلة تسبب غليان الهواء وتنقيته، حيث نجد البقايا عبارة عن هباب يتخلص منه عن طريق أوردة الرئتين والرئة والزفير. ومن الجيب الأيمن للقلب يجرى جزء من الدم النقى فى شرايين الرئة إلى الرئة لتغذيتها. أما البقية الباقية فتتسرب عن طريق المسام الموجودة فى الحائط الفاصل للقلب إلى القلب اليسار، حيث يختلط مع هواء الشهيق الذى يجرى فى أوردة الرئتين، ويتحول هذا الخليط بواسطة الحرارة الدخيلة إلى مصدر الحياة، ويجرى فى سائر شرايين الجسد.

هذا هو رأى جالينوس فى القلب من حيث علم الأحياء، وظل هذا الرأى سائداً حتى جاء «وليم هارفى» عام ١٦١٦م وقضى على أخطاء جالينوس وآرائه الخاصة

بالقلب. أما «هارفى» فقد ظهر ونادى بآرائه الجديدة هذه بعد أن مضى نحو ثلاثة وستين عامًا على مجىء الإسبانى «ميخائيل ثروت» عام ١٥٥٣م، وتحدث للمرة الأولى عن دورة دموية وهى المعروفة باسم الدورة الصغرى أو دورة الرئة. وبعده بفترة قليلة جاء الإيطاليان «كولومبو» و«كيسلبينو» وأدخلا بعض التصحيحات على آراء جالينوس. وهكذا كان الوضع فى تاريخ الطب حتى عام ١٩٢٤م.

ففى ذلك العام (١٩٢٤م) تقدم شاب مصرى إلى كلية الطب بجامعة «فريبورج» بإقليم «بريسجاو» برسالة فى غاية الأهمية وفى اللغة الألمانية. ولا شك فى أنه إذا ثبتت صحة النتائج التى انتهى إليها هذا الطبيب، فإن الفصل الخاص بالتاريخ العلمى لهذا الموضوع الطبى يجب أن يكتب من جديد.

وفى ألمانيا نفر قليل من المستشرقين الذين يهتمون بالمخطوطات المحفوظة بمكتبة الدولة، ويقوم هؤلاء الأساتذة بفحصها ويقابلون بين ما يذكره الدكتور التطاوى وما جاء فى هذه المخطوطات، وبعد دراسة فاحصة قرر أولئك المستشرقون أن الطبيب المصرى على حق فيما ذهب إليه، وقد ثبت أن طبيبًا عربيًا عاش فى القرن الثالث عشر الميلادى، وأن هذا الطبيب العربى أدرك مدى الخطأ الذى تردى فيه جالينوس. فالطبيب ابن النفيس هو أول من فكر فى موضوع الدورة الدموية، وكان ذلك قبل «هارفى» بنحو أربعة قرون أو ثلاثة قرون قبل «ثروت». وقد بلغ ابن النفيس مكانة ممتازة بين أطباء عصره حتى إنه لما توفى رثاه أحد شعراء عصره بقوله: «إنه فريد عصره»، وإن العالم لم ير له مثيلا منذ عهد ابن سينا.

ابن أبى أصيبعة (١٢٠٢ ـ ١٢٧٠) الطبيب ومؤرخ الطب العربى، هو ابن طبيب عيون وحفيد مدير مستشفى العيون فى دمشق. وقد ذكر لنا سير نحو ثلثمائة وتسعين طبيبًا من أشهر أطباء العرب، لكن ما هو السبب الذى دفعه إلى تجاهل هذا الطبيب الشهير جدًا والذى بلغ فى عالم الطب منزلة قد لا يدانيه فيها أحد؟! إن هذا سر غامض حقًا، فابن النفيس كان معاصرًا لابن أبى أصيبعة ومواطنًا له، بل كان زميلا له فى مدرسة الطب وفى نفس المستشفى الذى عمل فيه الاثنان. لقد ولد كلاهما فى دمشق وفيها ترعرعا، وعندما ولد ابن النفيس عام ١٢١٠م كان ابن أبى

أصيبعة قد أدرك السابعة، ودرس كلاهما الطب وتتلمذ على أستاذ واحد ألا وهو ابن الدخوار.

وقد كان مديراً لمستشفى نورى، وقد اشتهر بمحاضراته العلمية التى كان يرتادها الكثيرون فضلا عن تدريسه العلمى فى المستشفى وثروته الخيالية، ولما لم يترك ذرية تبرع بقصره الكبير ليكون مدرسة للطب، وألحق بها عيادة خاصة، كما أوقف عليها إيراد أملاكه للإنفاق عليها. وقد درس على هذا العالم الفاضل ابن أبى أصيبعة وابن النفيس كتب الرازى وابن سينا ورسائل جالينوس الذى كان يحترمه كثيراً؛ وقد اعتاد ابن أبى أصيبعة إذا ما سمع شيئًا من أقوال جالينوس أن يسخر من أستاذه ويصيح: هذا هو الطبيب! ثم لا نلبس طويلاً حتى نجد الطبيبين الشابين يلتقيان فى المستشفى الناصرى فى القاهرة. هذا المستشفى الذى أنشأه صلاح الدين، لكن ابن أبى أصيبعة لم تطل إقامته فى مصر وتركها إلى أطراف بادية الشام حيث التحق بخدمة أمير شامى، وهكذا نسى رفيقه وزميله.

أما ابن النفيس فقد كان أحسن حظًا إذ أصبح رئيسًا للمستشفى الناصرى، وظل هكذا مدة طويلة رئيسًا لأطباء هذا المستشفى، ويلقى محاضرات عن جالينوس وابن سينا ارتجالا دون أن يستعد لها. ويروى الذين حضروه أنه إذا ما أراد وضع رسالة طبية تدفقت آراؤه ومعلوماته كالنهر الفياض دون ما حاجة إلى الاستعانة بمراجع أخرى. ويحكى أنه كان مرة فى حمام من حمامات القاهرة يغتسل بصابون مصنوع من زيت الزيتون فخرج من الحوض ودخل غرفة بالحمام وهناك أمر بإحضار ورق وقلم ومداد وأخذ يكتب رسالة حول «النبض»، وعندما فرغ منها عاد إلى الاستحمام ثانية.

وكان ابن النفيس طويل القامة نحيل القوام ورأسه رأس علماء. وإلى جانب مهنته كطبيب وعالم شغف كذلك بعلوم الشريعة والنحو المنطق والفلسفة، وكان يقرأ على الطلاب فى مدرسة الشريعة المعروفة باسم المسرورية علوم الشريعة والحديث.

فهذا العالم الشاب الذى ثقف شباب الأطباء المصريين فى مؤلفات كبار علماء

الطب أمثال: جالينوس وابن سينا، هذه المؤلفات التى كان يجيدها ويلم بها، اشتهر باستقلاله فى تفكيره حتى إنه لم يتردد فى نقدها ونقد غيرها من مؤلفات الآخرين. ويمتاز ابن النفيس على أستاذه ومعظم زملائه بالشك وقوة النقد فهو لا يتقبل آراء الآخرين سواء كان جالينوس أو غيره على أنها حق لا يأتيها باطل بل هاجمها وقلل من أهميتها. أما الآراء المتداولة والنظريات التعليمية، فلم يعرضها على طلابه إلا بعد الدرس والتمحيص مهما كانت مصادرها وتفاوتت مقادير أصحابها وتباعدت العصور التى عاشوا فيها. والجرأة التى اقتحم بها «هارفى» هيكل تقديس القديم ومزق أستاره وفضح قدسيته مكنته من فتح باب النقد والبحث العلمى على مصراعيه، كذلك كان الحال مع الباحث العربى ابن النفيس، فقد كان جريئًا جدًا حريصًا على الاحتفاظ بحريته العلمية والمناداة بما يعتقده؛ وهو من المنادين بأن فحص أى عضو من أعضاء الجسم يتطلب من الباحث قبل كل شىء الملاحظة الدقيقة والدراسة العلمية النزيهة ولا مراعاة لأى اعتبار آخر قد يحول دون حرية البحث أو إبداء الرأى أعنى عدم الاكتراث بمكانة صاحب الرأى سواء كان من القدامى أو المحدثين. وليس هذا المذهب هو مذهب ابن النفيس فقط بل قد اتبعه الرازى أيضًا ونهج على نهجه «هارفى»؛ فابن النفيس و«هارفى» اعتمدا على المشاهدة والتجارب على الطبيعة.

وهناك فروق فى تكوين مختلف الحيوانات، لذلك يجب أن نستعين بعلم تشريح مقارن؛ هكذا نادى ابن النفيس ونادى بوجوب ملاحظة الفوارق وأخذها بعين الاعتبار. وقد أثبت التشريح للعالم الباحث الأمين ما يأتى:

١ ـ أن القلب يتلقى غذاءه من الدم الذى يجرى فى الأوعية (وليس كما كان يعتقد قديمًا عن طريق الحوض اليمينى للقلب) التى تتخلل القلب؛ وبذلك يكون ابن النفيس أول من تنبه إلى وجود الدورة التاجية.

٢ ـ أن الدم يندفع إلى الرئة ليتشبع بالهواء وليس لتغذية الرئة (كما أشار إلى ذلك متأخرًا ـ هارفى).

٣ ـ هناك وصلات بين شرايين الرئة وأوردتها، وهذه الوصلات تتحكم فى الدورة

الدموية فى داخل الرئة (وهذه الحقيقة التى اهتدى إليها ابن النفيس قد ادعاها لنفسه «كولومبو» وقال إنه صاحبها).

٤ ـ أن أوردة الرئة ليست ممتلئة بهواء أو هباب (كما اعتقد جالينوس، وأضاف على ذلك قوله إن الأوردة تجرى فى اتجاهات عكسية) بل بالدم.

٥ ـ أن جدران شرايين الرئة أسمك من جدران الأوردة ومكونة من طبقتين. هذه هى الاكتشافات العظيمة جداً التى اكتشفها ابن النفيس، وظلت زمنًا طويلا منسوبة إلى ثروت وبخاصة الآتية:

٦ ـ ليس للحائط الفاصل فى القلب مسام، وكل ما فى الأمر أن الدم يكون دورة، وبين هذين الحوضين الموجودين فى القلب لا توجد ثغرة موصلة وذلك لأن هذا الحائط الفاصل فى القلب مغلق وليست به فتحات مرئية كما يعتقد البعض أو غير مرئية كما اعتقد جالينوس، وذلك لأنه ليست للقلب مسام ومادته فى تلك الجهة سميكة؛ ولا شك فى أن هذا الدم بعد أن يصير رقيقًا يندفع إلى الرئة عن طريق شرايينها ليجوس خلالها ويمتزج بالهواء منقيًا الجزء الرقيق منه، ومن ثم يجرى هذا الدم فى أوردة الرئة متجهًا إلى الحوضين اليساريين للقلب بعد أن يكون قد امتزج بالهواء.

وهكذا وصفت الدورة الدموية الصغرى وصفًا دقيقًا سهلا يكاد يكون بنفس العبارات التى استخدمها فيما بعد «ميخائيل ثروت»، وإن افترق «ثروت» عن ابن النفيس فى شىء فإنما فى العبارة التى ساقها ويذكر فيها أن لون دم أوردة الرئة أحمر فاتح. فإذا استثنينا هذه الملاحظة التى أوردها «ثروت» الإسبانى، فعباراته تتفق مع عبارات ابن النفيس الطبيب المصرى. وقد جاءت عبارة ابن النفيس فى شرحه الذى وضعه على كتاب القانون لابن سينا والخاص بالتشريح.

فهل هذا الشبه القوى بين الإسبانى وابن النفيس العربى جاء صدفة؟ ثم هل عرف «ثروت» الإسبانى، الذى اشتهر حتى زمن قريب جداً بأنه مكتشف الدورة الدموية الصغرى وفاضت كتب تاريخ الطب فى أوربا بالحديث عنه بأنه صاحب الفضل فى الاهتداء إليها، شرح ابن النفيس على قانون ابن سينا؟.

أما ميخائيل ثروت أو كما يعرف فى الإسبانية باسم «ميجويل ثرافيدا»، فقد ولد عام ١٥٠٩ م من أسرة نبيلة فى «فيلا نويفا» بأرجون وكان ميلاده يصادف مضى ثمانية عشر عامًا على خروج العرب من إسبانيا، ومعنى ذلك أنه ولد فى عصر كان النزاع فيه محتدمًا بين العرب وأعدائهم وانتهى بأيلولة ملكية هذه البلاد الجميلة إلى السادة الجدد واندمج العدد الباقى من المسلمين فى المجتمع الجديد. لكن الشىء الجدير بالذكر أن الشبان المسيحيين فى ذلك الوقت كانوا قد أقبلوا على الثقافة العربية والآداب العربية إقبالا عظيمًا وذهبوا بعيدًا، فكانوا يفاخرون بإلمامهم باللغة العربية أدبًا وثقافة؛ مما اضطر أسقف قرطبة إلى إبداء أعمق الحزن وأشد الأسف على إقبال المسيحيين على لغة العدو وأدبه. وهو يذكر أيضًا أن جميع الشبان المسيحيين كانوا لا يعنون إلا بالعربية وآداب العرب حتى إن «ميجويل»، مواطن الطبيب «أرنلد»، من «فيلا نويفا» كان يجيد اللغة العربية نطقًا وكتابة، وقد استطاع أن يترجم فى سهولة كثيرًا من الكتب الطبية العربية دون مساعدة عربى أو يهودى.

ولا عجب إذن إذا قلنا إن المعاهد العليا الأوربية ظلت زهاء ثلاثة قرون تعتمد على المؤلفات العربية فقط، ولا غرابة كذلك إذا أغرى هذا التراث العقلى العربى العدو الذى كان دون العربى عقلا وثقافة وعلمًا، فأقبل الأوربيون على الاغتراف من حياض المعرفة العربية بالرغم من يقينهم بأن هذه الثقافة قد تكون مصدر خطر عليهم.

أما المذهب المسيحى القائل بالتثليث مثلا، فقد كان له وضع خاص مختلف، فنحن نجد «ميجويل» ولم يتجاوز الخامسة والعشرين ينتقد التثليث انتقادًا مرًا ويهاجمه ويسفه المؤمنين به علمًا بأن معارضى أصول الإيمان المسيحى كانوا عرضة لأشد أنواع التعذيب من الكنيسة وبخاصة أن هذه الأصول الدينية كانت من وضع الكنيسة، لذلك كان المفكرون الأحرار يؤثرون الهرب على الوقوع فى قبضة رجال الكنيسة، لذلك نجد «ميجويل» يتنكر تحت اسم آخر ويهرب ويختفى فى مطبعة فى فرنسا، وهنا التقى بالرجل الذى أخذ بيده وأقحمه فى المعركة الخاصة بالعروبة، كما رسم له مستقبل حياته والطريق التى يجب على «ميجويل» السير فيه. هذا الرجل

هو الطبيب والمفكر الفرنسى الحر الذى كان يعنى كثيراً بالدراسة العربية الطبية ويقابل بينها وبين ما خلفه اليونان. لذلك نجد «ميجويل ترافيدا» أحد أبناء مدينة «فيلا نويفا» وهو الذى يعرف أيضًا باسم «ميجويل ثروت»، يقرر دراسة الطب فى فرنسا فى باريس وفينا وبادوا؛ وقد ظل «ثروت» زمنًا طويلاً متنكراً تحت اسم مستعار يضعه على كتبه، كما احترف مهنة التطبيب وعمل كطبيب خاص. وفى عام ١٥٥١ م أصدر رسالة حول بطلان التثليث فواجه بها الرأى العام صراحة فسرعان ما هاجمه القدر.

ثم نجد «كلفين» يشى بالمؤلف ويقول إنه «ثروت»، لذلك هاجمه زبانيته وألقوا به فى سجن مدينة جنيف، فقاسى كثيراً من الأمراض وويلات التعذيب التى يخجل «ثروت» من ذكرها، وقد افترسته البراغيث تقريبًا وليس عليه قميص يستره كما كان يرتعد من شدة البرد وهو فى أسماله الممزقة، لذلك استدعى «ثروت» هذا الشخص المسمى «كلفين» وأبدى له رغبته فى أن يحكم بعدل فى قضيته، لكن قضية «ثروت» هى التى كانت السبب فى القضاء عليه وتعذيبه حتى فارقت روحه جسده. ففى عام ١٥٥٣ م أحرق «ثروت» حيًا فى جنيف ومعه كتابه الذى كان قد ظهر فى ذلك الوقت حول «إحياء المسيحية» وهو الكتاب الذى يتحدث فيه أيضًا عن هذه المسألة الهامة الخاصة بالدورة الدموية الصغرى.

وقد اهتم «ثروت» كثيراً بالطب العربى فهمًا ودرسًا ونقداً فنجده يعرض لطبخ المشروبات عند العرب، ويقابل بينه وبين ما ذكره جالينوس خاصًا بطبخ الأنواع الرئيسية للعصير ونظرياته حول هذا الموضوع، فهل كان تحت يد «ثروت» شرح ابن النفيس على هذا الكتاب الطبى العظيم لابن سينا الذى توجد منه نسخة فى مكتبة الإسكوريال بالقرب من مدريد؟ وفى هذا الشرح الذى احتفظت منه الإسكوريال بنسخة نجد الكشف العربى العظيم الذى أثر أثراً مباشراً فى العلوم الأوربية.

لكن «ثروت» لم يكتف بما ذهب إليه بل أخذ يوزع ضرباته وهجومه على جالينوس، هذا الهجوم الذى لم يؤثر على أفكاره وعرضها بخلاف خليفته «كولومبو» الذى لم يعرف الكتاب المشار إليه والمنسوب إلى «ثروت»، لذلك لم يندفع فى تيار

النقد لجالينوس ومهاجمته. إلا أن «ميجويل ثروت» كان بطبعه ملحداً وكل الأدلة تؤيد أن الصورة الكاملة التى رسمها ابن النفيس عالم التشريح العربى للدورة الدموية أغنت الإسبانى عن الجرى وراءها والبحث عنها وشن حرب على جالينوس.

والشىء العجيب حقًا أن شرح ابن النفيس على قانون ابن سينا، هذا الشرح الذى يعتبره العرب من أحسن ما كتب عن القانون، لم يترجم إلا فى الهند. أما المخطوطات العربية لهذا الشرح فما زالت مكدسة مع مئات غيرها فى دور الكتب الغربية والشرقية لا يهتم بها عالم أوربى أو آخر عربى حتى ظهر بغتة الشخص الذى يجمع بين إجادة اللغة العربية والمعلومات الطبية الفنية وحقق أمنية ابن النفيس التى ذكرها حيث قال: «لو لم أعلم أن مؤلفاتى ستعيش بعدى حوالى ألف عام ما ألفتها»، لكن المسئولية عن هذا كما يذكرها ناقل الخبر سيؤديها الشخص الذى يريده ابن النفيس.

أما تاريخ كشف العالم العربى الذى ظل مدة طويلة مغموراً مجهولاً، والذى عاش فى القرن الثالث عشر، فإنه يؤيد كيف أن المجهودات العربية العلمية وبخاصة فى الطب عظيمة جداً، وأن الأحكام الارتجالية القائلة إن العرب كانوا عالة على اليونان هراء فى هراء، وأن الذين يرددون مثل هذا الادعاء مثلهم مثل الببغاء، والكشف الأخير الذى اهتدى إليه الدكتور التطاوى يثبت أن العلماء العرب أطول باعًا وأعمق بحثًا وأدق نقداً من زملائهم المسيحيين وبخاصة فى العصور الوسطى، كما أن الدكتور التطاوى أثبت أنه لم يبال بآراء العلماء السابقين ولم يكترث بموقفهم أو موقف من جاءوا بعدهم.

يشقون طريقهم

«جالينوس ـ وإن كان فى الدرجة العليا من التحرى والتحفظ فيما يباشره ويحكيه ـ الحس أصدق منه».

فهذه الجملة اعتراف صريح قاله الطبيب والعالم البغدادى الذى كان من أصدقاء صلاح الدين ألا وهو عبد اللطيف البغدادى (١١٦٢ ـ ١٢٣١ م)، وقد تنقل فى مختلف عواصم شرق العالم الإسلامى ودرس فى مدارسها، وقد جاء فى «كتاب الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر»:

«ومن عجيب ما شاهدناه أن جماعة ممن يتتابنى فى الطب وصلوا إلى كتاب التشريح، فكان يعسر إفهامهم وفهمهم لقصور القول عن العيان، فأخبرنا أن بالمقس تلاً عليه رمم كثيرة فخرجنا إليه فرأينا تلا من رمم له مسافة طويلة يكاد يكون ترابه أقل من الموتى به تحدس ما يظهر منهم للعيان بعشرين ألفًا فصاعداً، وهم على طبقات فى قرب العهد وبعده.

فشاهدنا من شكل العظام ومفاصلها وكيفية اتصالها وتناسبها وأوضاعها ما أفادنا علمًا لا نستفيده من الكتب، إما أنها سكتت عنها أو لا يفى لفظها بالدلالة عليه، أو يكون ما شاهدناه مخالفًا لما قيل فيها، والحس أقوى دليلاً من السمع، فإن جالينوس ـ وإن كان فى الدرجة العليا من التحرى والتحفظ فيما يباشره ويحكيه ـ الحس أصدق منه».

ثم بعد ذلك يتخيل لقوله مخرجًا إن أمكن، «فمن ذلك عظم الفك الأسفل، فإن

الكل قد أطبقوا على أنه عظمان بمفصل وثيق عند الحنك، وقولنا الكل إنما نعنى به ها هنا جالينوس وحده فإنه هو الذى باشر التشريح بنفسه وجعله دأبه ونصب عينه، وصنف فيه عدة كتب معظمها موجود لدينا والباقى لم يخرج إلى لسان العرب. والذى شاهدناه من حال هذا العضو أنه عظم واحد وليس فيه مفصل ولا درز أصلا، واعتبرناه ما شاء الله من المرات فى أشخاص كثيرة تزيد على ألفى جمجمة بأصناف من الاعتبارات، فلم نجده إلا عظمًا واحدًا من كل وجه، ثم إننا استعنا بجماعة مفترقة اعتبروه بحضرتنا وفى غيبتنا فلم يزيدوا على ما شاهدناه منه وحكيناه، وكذلك فى أشياء أخر غير هذه، ولئن مكنتنا المقادير بالمساعدة وضعنا مقالة فى ذلك نحكى فيها ما شاهدناه وما علمناه من كتب جالينوس. ثم إنى اعتبرت هذا العظم أيضًا بمدافن بوصير القديمة المقدم ذكرها فوجدته على ما حكيت ليس فيه مفصل ولا درز، ومن شأن الدروز الخفية والمفاصل الوثيقة إذا تقادم عليها الزمان أن تظهر وتتفرق، وهذا الفك الأسفل لا يوجد فى جميع أحواله إلا قطعة واحدة..».

ولو اعتقد أبقراط ومن جاءوا بعده أن الطفل يتحرك تلقائيًا ويخرج من الرحم فإن علىّ بن العباس هو أول من تنبه إلى هذه الظاهرة، وهو مكتشف وظيفة الرحم وأنه بانقباضه يطرد الجنين؛ كما كتب على بن عباس عن أورام الرحم وعنق الرحم وسرطان البطن. وابن العباس هو الذى سبق «دروين» بنحو ألف عام ونادى بالرأى القائل بنشأة الأجناس وتأقلمها ببيئتها المحيطة بها.

كذلك العظام قد تصاب بالالتهاب، هكذا يقرر ابن سينا مخالفًا آراء الأقدمين الذين يقولون: «إن الأنسجة ضعيفة التماسك مثل أنسجة المخ والأنسجة القوية كتلك التى نجدها فى العظام غير قابلة للالتهاب»، فهذا الرأى خطأ، فأولا هو يفرق بين التهاب جلد المخ، وهو التهاب معد، وبين الالتهابات الأخرى المعدية، وبذلك يقدم لنا أول تشخيص خلافى لتصلب الرقبة والالتهاب الثانوى لجلد المخ، ثم نجده فى عصرنا هذا. فهذه الصورة العامة التى عرف العالم القديم بعضها وفاته البعض الآخر تجعل علم الأمراض العربى فى منزلة أرقى وأبعد من هذا العلم عند اليونان

وبخاصة عند جالينوس، بالرغم من أنه ذكر تحليلات هامة تاهت فيها عبقريته؛ لأنه كان حريصًا على إخضاع الحقائق لإثبات صحة نظرياته.

لقد علم الرازى العرب الفحص الحر والتفكير المستقل. أما رسالته فى الجدرى والحصبة فهى الأولى من نوعها التى صورت هذا المرض تصويرًا علميًا صحيحًا؛ مما اضطر علماء القرن الثامن عشر الميلادى إلى الاعتراف لها بأنها خير رسالة كتبت فى هذا الموضوع؛ لأن الرازى استطاع أن يميز بين النقرس وغيره.

أما ابن سينا فهو أول من استخدم التشخيص الخلافى مفرقًا بين الالتهاب الذى يصيب الضلوع والالتهاب الرئوى والألم الذى يصيب الأعصاب الوربية، وخراج الكبد وحالات الالتهابات الأخرى. وابن سينا يفرق بين أعراض مغص المصران والمغص الذى يصيب الكلى، كما أنه خالف مذهب اليونان عند معالجة الشلل وبخاصة شلل الوجه، فقد شخصه ابن سينا وعالجه معتمدًا على أسباب موضعية بخلاف اليونان الذين شخصوه فى حدود نظرية العناصر الأربعة وهى المرة السوداء والمرة الصفراء والدم والبلغم، لذلك عالج اليونان الشلل عن طريق الوسائل الحارة، وظلت هذه الوسيلة مستعملة حتى ظهر الطبيب العربى «صاعد بن بشر بن عبدوس» فخالف الأطباء اليونانيين وسفه آراءهم واستخدم طريقة ما زالت مستعملة حتى يومنا هذا «فإنه أخذ المرضى بالفصد والتبريد والترطيب ومنع المرضى من الغذاء فأنجح تدبيره وتقدم فى الزمان بعد أن كان فاصدًا فى البيمارستان، وانتهت الرياسة إليه فعول الملوك فى تدبيرهم عليه فرفع عن البيمارستان المعاجين الحارة والأدوية الحادة ونقل تدبير المرضى إلى ماء الشعير ومياه البرور، فأظهر فى المداواة عجائب».

أما ابن سينا الفيلسوف العظيم فهو أول من تعرف على الحمى الفارسية، وكذلك مختلف الأمراض التى يتسبب عنها مرض الصفراء ودودة المدينة وهى الدودة التى قد توجد تحت أنسجة الجلد. أما الطبيب الرازى فقد نهج منهج ابن سينا فى العناية بالطب العملى فاكتشف حشرة الجرب، وكيف أنها هى السبب فى ظهور هذا المرض الذى اكتشف علاجه ابن زهر فى إسبانيا.

فهذا الطبيب والفيلسوف الأندلسى، والذى يدانى الرازى علمًا ومكانة، يدين له الطب كثيراً، إذ كان هو أول من شخص أمراض الالتهابات الجلدية فوصفها وصفًا دقيقًا كما عرض للالتهاب الرطب والجاف لكيس القلب، وهذا مرض يخالف سائر أمراض الرئة، ثم ذكر أيضًا نشأة التغذية الصناعية ومختلف أنواع التغذية عن طريق الأنابيب، وهو يصف هذه الحالات وصفًا دقيقًا لا يقل عن اهتمامه بعرض سرطان المعدة، وقد اهتدى إليه واهتم به إبان حياته فى السجن فشاهده ودرسه فى سجين آخر كان معه فى نفس القاعة.

وكان السرطان الموضعى هو عبارة عن مرض بالسرطان للعضو، فقد لاحظ هذا أولا ابن سينا، وهو أيضًا الذى لاحظ العدوى التى قد تنشأ عن السل الرئوى وعن خطر الإشعاعات الشمسية على المصابين بالسل. والقول بأن بعض الأمراض المعدية مثل الجدرى الأسود قد يمنح الجسم حصانة مدى الحياة قد نادى به الطبيب والفيلسوف العربى ابن رشد أحد أبناء قرطبة والذى اشتهر فى العصور الوسطى فى أوربا باسم «أبى روز». وبعد قرنين من عصر ابن رشد أصدر القيصر مكسميليان الأول أمراً عاليًا أعلن فيه أن مرض الجدرى وسيلة من وسائل الله لتهذيب البشر وعن طريق هذا المرض ندرك مدى عذاب الله، وأولئك الذين لا يؤمنون بهذا كفار.

وفى أواخر القرن الثامن عشر نجد أوربا تستخدم التطعيم ضد الجدرى كوسيلة لتحصين الجسم ضده، وهذا التطعيم بعينه قد سبق فيه العرب الأوربيين واستخدموه فى العصر الجاهلى، وبدافع وقاية الجسم من هذا المرض أيضًا كما هو الحال فى عصرنا هذا. أما وسيلة العرب إلى تحقيق هذه الغاية فتطعيم الجسم بمصل مخفف من المرض، فيهيج هذا المصل الجسم وينبهه، ويجعله مستعداً لمقاومة المرض، وذلك عن طريق خلق حالة مرض مصطنعة، ويكتسب الجسم بهذه الطريقة الحصانة المطلوبة. أما طريقة العرب فتلخص فى أنهم كانوا يفصدون فصداً بسيطًا فى الكف بين الإبهام والمعصم، ومن ثم يأتون بجزء من محتويات بثرة من بثور الجدرى الذى يكون قد أصيب به جار أو قريب فى صحة جيدة، ويضعونه على

الفصد، ومن ثم يدلكونه، بخلاف الصينيين الذين كانوا يضعون صديد الجدرى - عن طريق كيس صغير مغموس فى هذا الصديد - فى أنف الشخص المراد تطعيمه.

وإذا ذكرنا أطباءنا العرب يجب ألا ننسى ابن ماسويه مشخص مرض البرص فى القرن التاسع الميلادى، ولم يكن هذا المرض كما اعتقدت أوربا المسيحية لعنة من الله، وقد اهتم به كثيرون من الأطباء العرب ومن بينهم أحد أبناء القيروان ألا وهو ابن الجزار فقد أجاد تشخيصه وعلاجه، وكان العرب يعزلون صرعى هذا الداء الوبيل فى مستشفيات خاصة وتحت رعاية أطباء مختصين بخلاف الحال فى أوربا التى جردتهم من حقوقهم الإنسانية فنبذهم المجتمع وصلت عليهم الكنيسة صلاة الميت، وذلك لأن طرد الفرد من المجتمع البشرى فى أوربا كان عملا كنسيًا، وكانت زيارة المرضى بالبرص من اختصاص رجال الدين والمدنيين، فإذا كان المريض تحت رعاية أحد رجال الدين فعليه أن يشعر وهو فى شقائه وبؤسه أنه جثة حية. ففى فرنسا كانت الكنيسة تعتبر هذا المريض، الحى الميت، فتحرمه هى أيضًا من حقوقه الكنسية فينقل المريض إلى قبر مفتوح حيث يصلى عليه قسيس ويهيل عليه التراب ثلاث مرات كما يفعل مع الموتى الحقيقيين، ومن ثم ترسله الكنيسة إلى دار خاصة أعدت لهؤلاء المعذبين الذين يمضون بها البقية من حياتهم. وقد ظلت هذه الحالة سائدة فى أوربا حتى القرن السادس عشر الميلادى كما يذكر «جيلرفون كيزربرج» فقد ورد عنه أنه قال: اليوم وفى مختلف الجهات والأملاك الكنسية نجد القساوسة وحدهم هم الذين لهم حق الفصل فى مثل هذه الحالات. كذلك الوباء القاتل المميت الذى كثيراً ما كان يقضى على الأخضر واليابس كما حدث فى القرن الرابع عشر حيث أهلك الكثيرين من سكان القارة، فمثل هذا الوباء لم يفهمه العرب على أنه وقع بسبب قوى ما وراء الطبيعة أو قوى سحريةـ فالحدود بين الذين يصدرون الأحكام معتمدين على المنطق والعقل وأولئك الذين يؤمنون بالخرافات - ومن الأسف أن نقرر هذه الحقيقة - كانت تمامًا كالفروق القائمة بين العرب العلماء النبهاء والمسيحيين الذين كانوا دون المسلمين كثيراً. وإن الرأى الذى أعلنه أستاذ جامعة مونبيلييه عام ١٣٤٨ م، ذلك العام الذى تفشى فيه الوباء وانتشر، قد قال فيه إن مصدر تكاثر هذا المرض هو نظرة المرضى؛ لذلك نصح الطبيب أو القسيس أن

يطالب المريض بإغماض عينيه أو تغطية وجهه بملاءة من الكتان، وبذلك يستطيع المعالج لمس المريض وفحصه دون خوف أو وجل.

وفى سويسرا وجنوب فرنسا نجد الشعب يتهم اليهود بأنهم سبب انتشار الوباء واستشرائه، لذلك هاجم القوم اليهود وأحرقوهم. ولا شك فى أن مثل هذا الحادث أشنع وأفظع من الوباء وآثاره.

وفى «نازبون» و«كركاسون» اندفعت جموع الشعب، وهاجمت الإنجليز أعداء المملكة فقطعوهم وأشعلوا فيهم النيران. واعتقد آخرون فى الوباء وظهوره بأنه أقبل دخانًا خانقًا من السماء، واعتقد «كونرات فون ميجينبرج» أن الزلازل الأرضية التى تفجر الشرايين الأرضية هى التى تسبب الأوبئة التى تصيب الإنسانية. وقال آخرون إن سببه التقاء المشترى بزحل والمريخ فى ٢٠ مارس ١٣٤٥ م ظهراً وفى تمام الساعة الواحدة مساء وتحت درجة ١٤ من الدلو. وفى مقدمة الذين نادوا بهذا الرأى الطبيب البلجيكى «سيمون ده كوفينو». أما الذين يقعون تحت الأفلاك ذات الأثر البعيد التى اشتهرت ببغضها للإنسان مثل زحل فهم الذين يأتيهم الموت. أما الرأى العام فقد عبر عنه «بوكاشيو» فى تقريره عن وباء الطاعون الذى حل بالقوم ذلك العام، وقد ذكر «بوكاشيو» فى تعليله: «بسبب أثر الأجرام السماوية أو ظلم الإنسان لأخيه الإنسان مما أغضب الله فقرر إخافة الإنسان الذى مصيره إلى فناء»، وهو يقول أيضًا: «ومما زاد الطين بلة جهل الناس وعدم رغبتهم فى الرجوع عن غيهم...»؛ لذلك يدعو إلى إقامة صلوات التوبة مرات لا مرة واحدة، وفى شكل جماعات كثيرة. وفى المخيمات البشرية لذلك ازداد الوباء تفشيًا. وفى تلك اللحظة يعود عربى بالأمن الضائع - الذى فارق الأوربيين وانطلق إلى السماء - إلى الأرض، وذلك باتخاذ الاحتياطات الضرورية القريبة المنال.

ففى عام ١٣٤٨ م وهو عام الطاعون نجد السياسى والمؤرخ والطبيب الأندلسى الخالد الذكر ذا الرئاستين الفقيه الكاتب أبا عبد الله محمد المعروف بابن الخطيب (١٣١٣ - ١٣٧٤ م) يطلع على العالم المعذب برسالته فى الطاعون وأسبابه وعلاجه والوقاية منه ووجوب الاحتياط من العدوى الناتجة عن لمس المريض أو الاختلاط به

أو القرب من برازه. فالعدوى كما أثبت ابن الخطيب قائمة تؤيدها التجارب والنتائج القاطعة، وابن الخطيب يحذر من ويلاتها ويقول بوجوب الابتعاد عن المرضى وعن ملامستهم أو الاقتراب من ملابسهم أو استخدام أوانيهم وأدواتهم، وزيادة فى الحيطة قال إن قرط المريض قد يسبب الموت للذى يعلقه ولجميع أفراد الأسرة بل المدينة بجميع سكانها. ويدعو الطبيب العربى إلى وجوب تحصين الناس من هذا المرض الذى قد يفد إلى بلدهم عن طريق شخص أجنبى قادم من بلد أجنبى.

ولا شك فى أن إدراك الأخطار التى قد تنجم عن العدوى المتنقلة يعتبر من أهم الخطوات الهامة فى تقدم علم الطب، والفضل فى بلوغها يرجع ولا شك إلى العرب الذين توصلوا إليها بينما ظل العالم القديم قرونًا عديدة يتخبط فى ويلات الأمراض وأخطارها، وهكذا أدى الطب العربى أجلّ الخدمات للإنسانية.

ويشارك ابن الخطيب الوزير الغرناطى هذا الرأى طبيب عربى آخر، وهذا الطبيب الأندلسى هو ابن خاتمة، أحد أبناء مدينة «الماريا» الإسبانية، فهو يقرر: إذا اتصل إنسان بمريض انتقل إليه نفس المرض بعوارضه، فإذا بصق المريض الأول دمًا بصق الآخر كذلك، وإذا أصيب المريض الأول بخراج انتقل الخراج إلى الثانى، وكما أن الثانى قد أصابته العدوى من الأول فالمريض الثانى قادر كذلك على نقل المرض إلى الآخرين.

وبغتة أدركت أوربا بعد ثمانين عامًا من هذا الكشف العربى أن المرض - إذا ما ظهر - هو الوباء، ويجرى الإنسان بعيدًا عن المريض خوف العدوى. لكن هذا الفرار لا ينقذه من حالة الذعر التى تحل به وتستولى عليه، لذلك لجأ إلى الطلاسم علها تقيه شر الوباء وأخطاره، كما استعان أيضًا بالبخور اعتقادًا منه أنه يطارد الهواء السام المتصاعد من باطن الأرض والمعروف باسم عفونة اليونانيين.

ثم نجد بعد انتشار الوباء الثانى العظيم فى ذلك القرن، أعنى عام ١٣٨٢م، أن «شالين ده فيناريو» الأستاذ بجامعة مونبيلييه الذى كان الوسيط بين العلوم العربية وبين جنوب غرب أوربا، وعن طريقه شقت الثقافة العربية الأندلسية طريقها إلى

هذا الصقع من أوربا ـ نجد هذا الأستاذ، بفضل هذه العلوم. قد استطاع أن يكتب كتابه عن الوباء، فيقرر أن شيئًا واحداً هو المسئول عن انتشار الوباء، وذلك الشيء هو انتقال العدوى. لذلك نجد الحكومة تتخذ بعض الاحتياطات للوقاية من انتشار المرض، ومن أولى البلاد التى سلكت هذا المسلك إيطاليا وبخاصة البندقية؛ لأنها عن طريق اتصالاتها بالشرق اكتسبت خبرة عظيمة وعينت عدداً من الأطباء العرب فى مستشفياتها ومصحاتها لإدخال الطب العربى واستخدام القواعد العربية الصحية فى جميع دور العلاج.

ثم نجد الوزير الأندلسى الذى ألف كتابًا حول نشأة الجراثيم يحل اللغز المشكل حول العدوى وانتقالها، فهى قد لا تنتقل إلى أناس خصوصيين ملازمين للمرضى بينما ترتع فى أفراد آخرين إذا ما دنوا من مريض. لقد أثبت هذا الطبيب العربى أن انتشار المرض يتوقف على درجة استعداد جسم الإنسان الملازم للمريض، فلابد من أن تتوافر عوامل خاصة لانتقال العدوى، وبخاصة أن العدوى قد تنتشر بسرعة ودفعة واحدة أو تدريجيًا، وقد تكون قوية عنيفة عند شخص وضعيفة بسيطة عند آخر أو لا توجد بتاتًا. والاستعداد لقبول المرض هو الذى قد يؤدى بالمريض أو ينجيه منه بدون صلاة أو أى أثر للكواكب والأجرام.

قد نستفيد من المسلمين الكلاب(!!) ما ينفعنا.

وقد كان، فقد أغنى الجراح العربى الأندلسى أبو القاسم المتوفى عام ١٠١٣م العلم بأبحاثه التى أفادت الطب كثيراً وبخاصة فيما يتصل بالأمراض التى تصيب الدم، فقد فحصها أبو القاسم وراقبها فى أسرة بعينها، وهكذا نجد قبل ظهور «برسيفال بوت» (١٧١٣ ـ ١٧٨٨م) بنحو سبعة قرون يقوم الطبيب العربى أبو القاسم بدراسة التهابات المفاصل وسل الصلب، هذه الأمراض التى نسبت فيما بعد إلى الإنجليزى «بوت» وسميت «سوء بوت Malum pottii».

لقد أدخل هذا الطبيب العربى كثيراً من التجديدات لا فى الجراحة فحسب بل فى كي الجراح وتفتيت الحصوة الموجودة فى المثانة، وكذلك فى التشريح الجسمانى وتشريح الحيوانات لإجراء التجارب والبحوث أيضًا، كذلك خطا بالطب اليونانى

فيما يتصل بأمراض النساء خطوات واسعة إذ أدخل عليه كثيراً من الإصلاحات سواء فى التشخيص أو العلاج أو الأدوات. كما أوجد وسائل جديدة للولادة وبخاصة لتدارك الحالات التى قد يوجد عليها الجنين فى الرحم سواء من ناحية وضع يده أو ساقه أو ركبته أو وجهه. وهو أول من نادى باستخدام طريقة العصعص هذه الطريقة التى كثيراً ما أنكرها «سورانوس» وأسلافه.

أما الطريقة المعروفة اليوم باسم طريقة «فلخر» الطبيب المولد (١٨٥٦ - ١٩٣٥م) وهو أحد أبناء مدينة «شتوتجارت» فمن اختراع الطبيب العربى كذلك، وهو أول من نادى باستخدام طريقة رفع الوالدة عند الوضع تسهيلا للولادة. وأبو القاسم هو صاحب فكرة وطريقة عملية استخراج الحصوة المهبلية، كما أنه مخترع المرآة المهبلية وعملية توسيع المهبل عند الولادة تسهيلا للوضع، كما علم وعالج الشذوذ الذى قد يوجد فى الفم أو الفك واستخدام الخطاف لاستخراج الزوائد الأنفية. وأجرى عمليات ناجحة فى القصبة الهوائية بقطع أفقى لخادمه. وأبو القاسم هو الذى أجرى العملية المشهورة التى تمنع تدفق الدم من الأوعية الدموية الكبرى، ولم تعرف أولا هذه العملية إلا بعد وفاة أبى القاسم بستة قرون وكان أول من اشتهر بها الجراح الفرنسى «أمبرواز باريه A. pare» وكان ذلك عام ١٥٥٢م، ولولا أبو القاسم وتفوقه ونجاحه فى القيام بعمليات البتر ما استطاع الطب أن يخطو هذه الخطوات العظيمة.

ولأبى القاسم يرجع الفضل الأكبر فى تقدم الجراحة، وإليه يدين الجراحون بالكثير مما توصلوا إليه فى عصرنا الحاضر، فهو السباق إلى مختلف أنواع الخياطات الجراحية مثل المشكولة أو تلك التى تشبه حياكة الفراء ثم الرفْو، وبخاصة فيما يتصل بالعمليات الجراحية التى تجرى فى البطن. فهو يستخدم إبرتين فى خيط واحد، هذا فضلا عن استخدام مصارين القطط والأوتار فى الجراحات الخاصة بالمصارين. وهو ينصح عند خياطة الجراح وإجراء العمليات الجراحية أسفل السرة برفع الحوض والساقين. وهذا الوضع هو الذى أخذته أوربا فيما بعد عرف باسم وضع «ترندلينبورج Terndelenburg». وقد استخدمت أوربا هذه الطريقة فى

أوائل القرن العشرين بعد أن أطلقت عليها اسم الجراح الألمانى الشهير «فريدريش وترندلينبورج Friedrich Trendelenburg» (١٨٤٤ - ١٩٢٤م؛ ومما يؤسف له حقًا ندرة ذكر اسم مخترعها الطبيب والجراح العربى أبى القاسم. وطبيبنا العربى هذا هو صاحب الطريقة المثلى فى معالجة الكسور المفتوحة للعظام فهو صاحب فكرة ترك ثغرة فى رباط الجبس، وهذه الثغرة يجب أن تملأ بدقة وعناية، ومن حسن الحظ أن وصلتنا مجموعة كبيرة من الصور التخطيطية الخاصة بجراحة العيون والأسنان والعمليات الجراحية الأخرى والآلات الضرورية لإجرائها، وقد استكمل الطب العربى جميع هذه الإمكانيات فى الوقت الذى كان فيه أطباء أوربا لا يعرفون شيئًا عنها بالرغم من الحاجة الماسة إليها لإجراء العمليات الجراحية.

أما أهم ميزة يتميز بها العرب على اليونان من الناحية الطبية فهى طب العيون، فقد اهتم الأطباء العرب بالعيون وأمراضها وطرق علاجها اهتمامًا عظيمًا حتى إن هذا الفن من الطب لقى تشجيعًا عظيمًا وبخاصة بفضل المجهودات الجبارة التى بذلها علماء الطبيعة العرب. والعبقرية التى أبدوها فى البصريات، وهذا علم يعتبر وبحق علمًا عربيًا. وأول كتاب جاءنا فى طب العيون عامة هو ذلك الذى وضعه حنين بن إسحق، وبفضل حنين والمؤلفات الرفيعة جدًا التى ألفها على بن عيسى وعمار الموصلى أصبحت لدينا الأسس التى شيدت عليها أوربا علم طب العيون فى مدارسها، وظل الحال كذلك حتى أواخر القرن الثامن عشر. وفى السنوات الأخيرة قدمت لنا أرض أمراض العيون الدواء الناجع الذى اكتشفته، وكذلك القطرة المستخرجة من نبات مصرى طبى وهى مفيدة لإزالة الغشاوة التى قد تعلو البلورية كما تفيد فى حالات الصرع أو الصداع الجزئى.

والعرب هم الذين أظهروا نبوغًا عظيمًا فى تعرف نشأة العاهات الجسمانية التى تعرف الآن باسم «أورثو بيدى Orthopaedie» وعلاجها والوقاية منها، فالطريقة المتبعة حتى يومنا هذا فى أوربا عند إرجاع عظم الكتف إلى وضعه الطبيعى تعرف باسم الطريقة العربية. وإلى جانب وسائل العلاج «تيرابى Therapie» التى كانت مستخدمة قديمًا أعنى الحمامات الساخنة والحمامات الباردة، يذكر ابن سينا كعلاج

جديد الحمامات المتناوبة، كما اخترع الحقنة الشرجية وقربة الثلج، كما يرجع إلى الرازى الفضل فى استخدام الشعر فى خياطة العمليات الجراحية فى العصور الوسطى.

كذلك من الأشياء الأصيلة وذات الفضل العظيم على الإنسانية: طريقة العرب فى التخدير، وهم يختلفون فيها عن الهنود واليونان والرومان الذين كانوا يسكرون المريض. أما الطريقة العربية فى تخدير المريض فهى العمل على تخديره لا لتخفيف الآلام فقط بن تسهيلا للجرّاح للقيام بعمليته الجراحية دون أن يشعر المريض بألم، أعنى استخدام طريقة التخدير الشامل لكل الجسم. ومن العجيب أن هذا التخدير قد نسبه الأوربيون أيضًا إلى طبيب إيطالى، ومن ثم إلى أهالى الإسكندرية الذين تعلموه عن العرب. أما طريقة إجرائه فغمس قطعة من الإسفنج فى عصير من مادة الحشيش ومستخرج زهر البسلة ونبات السكران، ثم تجفيف قطعة الإسفنج فى الشمس، وعند استخدامها تطرى وتوضع فى أنف المريض عند إجراء العملية فيمتص المخاط السائل، ولا يلبث المريض أن يغط فى النوم ولا يشعر بآلام العملية القاسية. وقد أخذت أوربا هذه الطريقة عن العرب إلا أنها لم تستمر طويلا؛ وذلك بسبب الاهتداء حوالى عام ١٨٤٤م إلى وسيلة أخرى تخدر المريض لا عن طريق الإسفنجة وما بها من سوائل، بل عن طريق التنفس. ولم تلبث هذه الطريقة طويلا حتى حلت محل الطريقة القديمة.

وما أصاب التخدير العربى أصاب كثيراً من الاختراعات العربية وبخاصة ما يتصل بالجراحة وشفاء الجروح، فمثلا المطهر الذى انتقل من العرب إلى شمال إيطاليا لم يعش طويلا واختفى لمدة ستة قرون مرة أخرى.

ومن سوء الحظ أن الفكرة اليونانية القائلة بمبدأ تكوين الكون من أربعة أنواع من العصير ظلت تعمل عملها حتى اعتقد الأطباء اعتقاداً عجيبًا يقول إن تقيح الجرح هو الوسيلة الطبيعية لتطهيره؛ لذلك كان الطبيب يستعين بإحداث تقيح صناعى وتنشيطه، وقد ظلت فكرة أبقراط هذه حية يعمل بها الأطباء زهاء ألف عام، حتى جاء ابن سينا فكان أول من عارضها وحاربها ونادى بالعكس.

وكانت نتائج آراء ابن سينا قيمة جداً وجاءت بالعجب العجاب، فقديمًا كان الجرح لا يشفى إلا بعد أن يمضى عليه زمن طويل قد يتجاوز الأسابيع المليئة بالآلام والأوجاع، بل قد تمضى الشهور قبل أن يلتئم الجرح. أما الآن فالجرح يشفى فى يومه، فقد تجنبت نظرية ابن سينا لا إحداث التقيح فقط بل نادت بوجوب عدم إثارة الجرح سواء كانت هذه الإثارة آلية أو كيماوية، واكتفى الطبيب باستخدام كمادات ساخنة بالنبيذ الأحمر المعتق لتجنب إحداث قيء، وهذه وسيلة جبارة تقضى على الجرثومة فى مهدها. وقد تنبه عام ١٩٥٩م الأستاذ الفرنسى «مسكلير Maseeque-lier» من مدينة «بوردو» إلى مفعوله كمضاد حيوى تمامًا وهو لا يقل مفعولا وأهمية عن البنسلين.

أما هذا العلاج وهذه الطريقة فى التفكير فتتفق والتقاليد العربية القديمة والاستعداد العربى الجبار لعلاج الجروح، ولا يستطيع أحد أن ينكر على العرب قوة الاختراع والأصالة فى التفكير، فلعلاج الجروح المنتنة اخترع العرب الجاهليون وسيلة فعالة، وهذه الوسيلة لم تعرفها أوربا إلا فى القرن العشرين، وهى المعروفة اليوم باسم المضاد الحيوى، فمن سروج الحمير والجواميس استخرج العرب مادة متعفنة وهى التى يصنع منها البنسلين والإسبرجيلوس، ومن هذه المادة كونوا مرهمًا وعالجو به الجراح الملتهبة فنجحوا نجاحًا باهراً. أما إذا كانت الالتهابات فى الحلق فقد استخلصوا المضادات الحيوية من العفن الذى يتكون فى الخبز وألقموه للمريض كما هى العادة حتى اليوم عند البدو، فإن مثل هذه الوصفات كنا ننظر إليها لو وقعت قبل خمسين سنة على أنها عمل همجى مزعج: أما اليوم فإعجابنا لا ينقطع من مثل هذه الوصفات القديمة التى هى عبارة عن مضادات حيوية تلطف الالتهابات وتقاومها بل تقضى عليها. إن هذه المضادات الحيوية العربية كانت تقضى كذلك على هذه الجراثيم الخاصة التى ينتج عنها مثل هذا المرض، وإن هذه الوسيلة يتمثل لنا فيها اليوم أحدث أنواع العلاج حتى يظهر شيء جديد.

حديثة أيضًا وسيلة العرب لعلاج مرضى العقول. فقد عالج العرب الهوس ومختلف الأمراض العقلية عن طريق النوم وبواسطة الأفيون وقد استخدمت أوربا

هذه الوسيلة حتى عصر قريب. وعلاوة على ذلك فجميع المعلومات التى وصلتنا والخاصة بعلاج الأمراض العصبية تتفق ومجهودات الطبيب المعالج الذى كان يضع نفسه موضع المريض يحاول شفاءه بوسائل نفسية.

والعلاج النفسى يلعب عند العرب دوراً هاما لا فى الأمراض العصبية فقط بل حتى فى حالة الأمراض الجسدية. وقد وضعوا كتبًا كثيرة تهتم باستخدام الوسائل النفسية للعلاج، فهناك كتاب أثر الموسيقى فى الإنسان والحيوان لابن الهيثم العالم الشهير فى الطبيعيات، وقد بدأ حياته العملية كطبيب، وكان ينادى بوجوب الاستعانة بالوسائل النفسية إلى جانب العقاقير الأخرى؛ فالعلاج النفسانى متمم ولا شك للأدوية الأخرى، وذلك لأن العلاج النفسانى يرفع القوى المضادة للمرض ويناصرها للتغلب عليه، وقد طالب ابن سينا بذلك وألح فى وجوب الاهتمام بالعلاج النفسانى على أنه خير وسيلة لتغيير البيئة الكئيبة المحيطة بالمريض، وفى هذا التغيير خير ضمان للقضاء على المرض والإسراع بشفاء المريض. وكان ابن سينا يلح فى وجوب استخدام الموسيقى وإحاطة المريض بأصدقائه وأحبابه.

* * *

ومن النادر أن نجد أوربا تعرف ما تعرف من أعمال العرب الإنشائية الخالقة وتعترف بأصالتها العربية، وأنها قد أخذتها عن العرب اعترافها بالأعداد العربية والجبر العربى والأسطرلاب العربى. إننا نقرأ مثل هذه الاعترافات فى الوقت الذى ينسب فيه كثير من الاختراعات العربية ظلمًا وخطأ إلى الإنجليز والفرنسيين.

لكن التاريخ يثبت ويؤكد أن العرب بمؤلفاتهم العظيمة هم أساتذة أوربا، وهذه الكتب قد استخدمت قديمًا لتخريج أطباء بغداد وقرطبة، وهذه الكتب أيضًا هى التى تخرج عليها عدد كبير من الأجيال سواء فى العالم الإسلامى أو المسيحى الأوربى وبخاصة فى الطب، فمؤلفو هذه الكتب العربية لم يكن يخطر ببالهم أن كتبهم ستجد هذا الإقبال وذلك الرواج.

وفى أواخر القرن العاشر الميلادى نجد العلامة «جربرت فون أوريلاك Gerbert

von Aurillac» يجمع قواه ويضع كتابًا نظريًا فى الطب فى الوقت الذى نجد فيه البلاد العربية تستخدم الطب عمليًا لا نظريًا فقط فى مكافحة الأمراض. فالعلاج كان عند العرب عنصرًا اجتماعيًا اشتراكيًا، والمستشفيات بلغت أوج عظمتها وكانت أحسن ما عرفته الإنسانية فى تاريخها الطويل. كان العرب يتطلبون كفاية ممتازة لا فى الطب فقط بل فى سائر العلوم المتصلة به، فهناك العناية بالدرس والدقة فى الامتحانات والاستعداد لمزاولة المهنة فى المستشفيات وتدريس الطلاب حيث توجد مواد الدراسة والتدريس متوافرة لأولئك الطلاب. لكن ماذا كان يوجد؟

إن بعض المؤلفات اليونانية كانت ضرورية للتعليم، ولا يمكن إغفالها أو الاستغناء عنها لكن ما هو موقف الطالب الذى يريد أن يكوِّن فكرة عامة عن الطب؟

يذكر على بن العباس الطبيب الخاص للسلطان عضد الدولة والذى كان معاصرًا للأوربى «جربرت فون أوريلاك» أنه لم يجد فى كتب المتقدمين والمحدثين من الأطباء كتابًا شاملا يعالج جميع فروع الطب ومعرفتها معرفة لا يستغنى عنها من يريد الإلمام بالطب، فعلى بن العباس ينتقد سائر المراجع الطبية التى كانت موجودة وقتذاك. فأبقراط يوجز فى الكتابة والكثير من عباراته غامض وفى حاجة إلى شرح وتفسير. وجالينوس وضع كتبًا كثيرة وكل كتاب منها يعرض لقسم خاص من الطب إلا أن مؤلفاته كثيرة التكرار وتتصف بالاستفاضة فلا يوجد من بين مؤلفاته كتاب واحد يصلح للدرس والتحصيل للمبتدئين، وهكذا نجد عليّا يعرض لكل كتاب شارحًا ناقدًا يائسًا - هذا رأيه مثلا فى مؤلفات أمثال «أوريباسيوس» و«بول فون إيجينا» ثم يقول إنها جيدة إلا أنه ينقصها المنهج وهى صعبة على الطلاب وليس من السهل تحصيلها. ثم نجد المحدثين ليسوا أحسن حالا من سابقيهم فهاهم أولاء هرون وسرابيون وماسويه والرازى قد وضعوا كثيرا من الكتب إلا أنها غير صالحة للدرس، وحتى كتاب المنصورى للرازى - بالرغم من أنه لم يترك شيئًا إلا ألم به وعرض له - ليس فى شمول الحاوى الذى هو المثل الكامل للكتاب العلمى. حقيقة أن جميع الكتب موجودة فى الحاوى وهو الكتاب المثالى لولا عدم ترتيب فصوله وانقطاع الصلة بين مادته، وهذه صفات يجب أن تتوافر فى الكتاب ليصير كتابًا

دراسيًا. والرازى لم يقسم كتابه إلى فصول وأبواب كما ينتظر القارئ من عالم بالطب كالرازى الذى اشتهر بسعة الاطلاع والأسلوب القوى العلمى، فمثل كتاب الحاوى كما وصلنا يدعو إلى العجب حقًا، ويظن أن الذى حدث لهذا الكتاب يجب أن يكون أحد أمرين: إما أن الرازى كتب ما كتب كمذكرات لأجل الذاكرة وبخاصة عندما تتقدم به السن، لأنه خشى أن شيئًا ما قد يصيبه أو يصيب مكتبته، وإما أن هذه المذكرات كتبت لتعاونه عند تأليف كتابه وتبويبه، وتنسيقه، ولما عاجلته منيته لم يستطع تحقيق هذه الأمنية، لذلك نجد مجموعة غير مختارة تتجلى فيها الآراء المختلفة لكثيرين من الأطباء، كما أنها تشتمل على كثير من الزيادات، ولذلك تضخمت صفحات الكتاب حتى إن عدد الأغنياء الأثرياء الذين يستطيعون شراء هذا الكتاب كان قليلا جداً لغلاء ثمنه. ويفهم من مقدمة الحاوى أن الرازى قصد من تأليفه معالجة كل ما هو ضرورى لحفظ الصحة وعلاج الأمراض والأشياء التى يجب على كل طبيب حاذق أن يعرفها.

ومن حسن الحظ أن جميع الأفكار والأمانى التى قصد إليها الرازى وحالت منيته دون تحقيقها قد أنجزها على بن العباس إنجازاً كاملا، فقد وضع كتابًا يعتبر خير الكتب التى ألفت لتدريس الطب، فهو وسط بين تفصيل الحاوى وإيجاز المنصورى، وقد أهداه إلى السلطان عضد الدولة مؤسس المستشفى الكبير فى بغداد، وهو الملك الذى ناصر العلوم وأخذ بيد العلماء، كما أحصى له الصوفى النجوم الثابتة، لذلك أطلق على بن العباس على كتابه اسم: الكتاب الملكى. وإنه لكتاب ملكى حقًا إذ يستحق من القارئ حتى يومنا هذا كل إعجاب وتقدير.

وإننا نلمس فى هذا الكتاب الروح العلمية والعبقرية الجبارة والنهج العلمى القديم، فقد رتب كتابه أحسن ترتيب كما بوبه أحسن تبويب، وهو من هذه الناحية أيضًا يعتبر من أحسن المخطوطات التى وصلتنا، كما سلك فى تأليفه مسلكًا فذًا، فأكثر من الجداول التى تسهل وتبسط المادة على القارئ وصاغ كتابه على هيئة أسئلة وأجوبة عرض فيها للمادة عرضًا حديثًا ينم عن فهم المؤلف وحسن إدراكه لمادته وعمق تخصصه حتى جعل مادة الطب وللمرة الأولى واضحة جلية ومثالية للطلاب

«فالعرب هم الذين أدخلوا النور والنظام على المؤلفات الغامضة، والتى جاءتنا مهلهلة مضطربة عن العالم القديم» - هكذا يذكر مؤرخ طب ويعترف بذلك: «فقد جعلوا من المقتبسات الجافة والمعلومات المجموعة والمجردة من العقل والفهم، هذه المعلومات التى وضعها البيزنطيون كتبًا علمية حقًا، فقد نظموها وقسموها حسب تخصصها، لقد أدرك العرب أن الغرض من هذه الكتب يجب أن يكون التعليم فصاغوها الصياغة التى حققت هذا الهدف، وذلك فى لغتهم العربية القومية الحية وليس فى لغة ميتة فكانت كتبهم مثالا علميًا عظيمًا» (نويبورجر Neuburger).

لذلك لا عجب إذا اعترفت أوربا بالعرب أساتذة لها ومعلمين، وأخذت عنهم علومها الطبية وكتبهم التى امتازت على ذلك الخليط المشوش الذى تركه اليونان. فأيها أحسن للحفظ والتعليم؟! أليست هى هذه الكتب العربية التى وضعت فى صيغة سؤال وجواب كتلك التى ألفها حنين بن إسحق وثابت بن قرة ومئات آخرون؟! إن إيساغوجى حنين لتعليم آراء جالينوس، وسائر مؤلفات ابن رضوان وغيرها كانت من الكتب التى لا يمكن أن يستغنى عنها طالب طب، كما أنه ليس هناك أنفع لطبيب من الأطباء من جداول ابن جزلة التى رتب فيها الأمراض ترتيب الأفلاك فى الجداول الفلكية، وهذه الجداول تمكنه من إلقاء نظرة عامة على الأسباب والتشخيص وطريقة العلاج للفقراء والأغنياء، وقد ذكر فيها قرابة ثلثمائة واثنين وخمسين مرضًا. أو هل هناك أنفع من جداول ابن بطلان حول فوائد ومضار الطقس والغذاء والحركة أو السكون والنوم أو اليقظة ووسائل التغلب على هذه الأضرار؟!

لقد كان ابن بطلان يزاول مهنته فى بغداد فى الوقت الذى كان يباشرها ابن رضوان فى القاهرة، فقد كان ابن رضوان أستاذًا ممتازًا ونقيب أطباء مصر، وقد قامت بين الطبيبين خصومة حادة تبادلا فيها الرسائل العنيفة، فكانت الخصومة عبارة عن حرب رسائل بين الطبيبين، ويرجع سببها إلى ادعاء ابن رضوان أن معظم العلوم تعود أصولها إلى اليونان، فهذه الدعوى من ابن رضوان وقوله إن دراسة الطب يجب أن تعتمد أصلا على الكتب اليونانية آلمت العلماء العرب؛ والواقع أن

دعوى ابن رضوان هذه كانت تشهيراً فقط بابن بطلان الذى نشأ فى بيئة فقيرة إذ كان ابن سقاء، لذلك اضطر الابن إلى كسب قوته عن طريق العمل وما كان يستطيع الحصول على كتبه إلا بشق الأنفس، وذلك عن طريق نبوءاته الفلكية، ومن هذه الكتب التى كان يشتريها بدريهمات قليلة حصل ابن بطلان على معلوماته الطبية. ولكنهما - بالرغم من اختلاف وجهتى نظرهما - قد التقيا فى الشعر والنكات اللاذعة، وبخاصة أن ابن رضوان الذى اشتهر بالمشاكسة كان لا يترك فرصة سانحة لمهاجمة خصمه إلا انقض عليه منتقماً منه بالرغم من بعد الشقة بينهما، فابن بطلان كان مقيما فى بغداد وابن رضوان فى القاهرة. ومما يذكر أن ابن رضوان وضع رسالة عنوانها: إن جهل ابن رضوان حكمة بالنسبة لابن بطلان! فقد سخر فيها من ابن بطلان، وقال إن ابن بطلان لا يستطيع قراءة رسائله؛ كما وضع ابن رضوان رسالة أخرى فيه: رسالة إلى أطباء القاهرة خاصة بأحدث الأشياء عن ابن بطلان؛ وهكذا دواليك. وأراد الخصم أعنى ابن بطلان الانتقام من ابن رضوان فلجأ إلى الشعر مخاطباً ابن رضوان الذى كان يلقبه ابن بطلان بلقب «تمساح الجن»:

فلما تبدى للقوابل وجهه ... نكصن على أعقابهن من الندم

وقلن وأخفين الكلام تستراً ... ألا ليتنا كنا تركناه فى الرحم

ومع مضى الزمن نجد التجارب العملية للحياة الطبية تستدعى وضع كتاب قيم وجد إقبالا عظيما من القراء ألا وهو كتاب الرحلة المعروف باسم زاد المسافر للفقراء، وهو كتاب يتحدث فى شىء من الدقة والإيجاز وفى أسلوب سهل مفهوم عن أسباب الأمراض وتشخيصها وعلاجها وبخاصة هذه الأمراض التى قد تنزل بالإنسان إبان أسفاره، ومؤلف هذا الكتاب طبيب واسع الخبرة فيما تعرض له، فهو طبيب أسفار ورحلات، ففى كل عام كان يركب البحر صيفاً مغادراً تونس مرافقاً السفن فى حملاتها وأسفارها وحروبها ضد الكفار فى البحر، وهذا الطبيب هو ابن الجزار فقد كان يغلق عيادته الخاصة فى القيروان إبان شهور القيظ ويبحر كطبيب للسفن فى أسطول المسلمين إلى شواطئ وسط إيطاليا وشمالها وجنوب فرنسا أو شمال إسبانيا وربما مرة إلى نهر التيبر شمالا حتى روما والقديس بطرس. وقد

سجل ابن الجزار جميع تجاربه التى جمعها فى رحلاته هذه، وأضاف إليها ما جمعه من رحلته حاجًا وضمنها كتابه المفيد جداً والذى ترجم قديمًا إلى اللاتينية والعبرية واليونانية، ويرجح أن النسخة العربية التى وصلتنا هى ترجمة عن الترجمة اليونانية.

والواقع أن هذا الكتاب المهم جدًا كان هدف المؤلف وغايته فهو شامل لجميع أمراض الشعوب فشخصها ووصف لها الدواء، وهو كتاب لا يستغنى عنه إنسان.

ثم نجد الطبيب على بن العباس يهدى الطب كتابه المشهور «الكتاب الملكى»، فهو ثانى كتاب بعد المؤلف الذى تصدر عالم التأليف عمرًا طويلا، فالعالم القديم لم يعرف لمثل هذا الكتاب مثيلا. والآن لا نعدم ظهور المنافسين.

ففى الغرب كتب أبو القاسم (٩٣٦ - ١٠١٣م) نجم الجراحة العربية فى قصر الحكم الثانى فى قرطبة كتابه الشهير الذى ضمنه تجاربه، وهو المعروف باسم: التصريف؛ والجزء الثالث من هذا الكتاب هو أساس الجراحة الأوربية، الذى رفع من قيمة هذا الفن الشافى الذى كان محتقرًا فى أوربا، وهو يعتمد على علم التشريح الذى هو فرع من الطب وله نفس الأهمية التى للفروع الأخرى.

كذلك ظهر فى الأندلس ابن زهر (١٠٩١ - ١٠٦٢م) وهو من أسرة أشبيلية، وقد اشتهرت هذه الأسرة بالطب وهى ترجع أصلا إلى الوطن العربى أعنى إلى الجزيرة العربية، وأشهر كتبه: التيسير؛ وهو كتاب لا يستغنى عنه الطب، فهو كتاب جيب الطبيب، كما أنه يشير إلى أن مؤلفه من أحسن علماء التشريح ومن أكثرهم خبرة بتاريخ الأمراض ومن أبرع الأطباء الذين خدموا المستشفيات. فاسمه لا يقل لمعانًا فى تاريخ الطب العربى عن الرازى، كما أنه لا يقل شهرة عن أبقراط حيث يتفق معه فى السمو بالطب وتخليصه من الفلسفة والدين مع التواضع والاستقلال فى المشاهدات والتفكير.

وأهم كتبه هو ذلك الكتاب الذى أهداه إلى تلميذه النابه وصديقه الشهير «ابن رشد» (١١٢٦ - ١١٩٨م)، وقد أجابه على حسن صنيعه معه بكتابه «الكليات».

لكن جميع وأجود كتب الطب التى وضعها الأطباء العرب بما فيها الكتاب الملكى وسائر مؤلفات اليونان وعلماء الإسكندرية تتضاءل أمام: قانون ابن سينا، فقد ترك هذا الكتاب الذى وضعه أمير الأطباء أثرًا بعيدًا ظل قويًا فعالا عدة قرون لا فى الشرق فقط بل فى الغرب أيضًا، وهو فى تاريخ الطب لا يعدله كتاب آخر.

فقد ضم هذا الكتاب بين دفتيه سائر فروع الطب نظريًا وعمليًا مع تنوع مواضيعها، وتمكن المؤلف منها فأجاد عرضها وأحسن تأليفها وأبدع تنظيمها وتبويبها، وخرج الكتاب فى صورة قلمّا نجد كتابًا آخر يدانيه فيها. فقد ذكر مؤرخ الطب «سيدهوف» حول هذا الكتاب ما معناه: «إنه إنتاج شامل كأنه صب فى بوتقة، وهو وحيد فى نوعه بين سائر المؤلفات الطبية فى مختلف العصور».

ومما يؤسف له حقًا أن مجموعة من ملاحظات وأبحاث ابن سينا التى أراد أن يلحقها بقانونه قد ضاعت من قبل نشرها ففقدت الإنسانية بفقدانها ثروة علمية طائلة، وذلك لأن العبقرية الجابرة لابن سينا قد أثرت عن طريق هذا الإنتاج العلمى تأثيرًا عظيمًا حتى إن الخلف عجز عن هضم آثاره أو الاستفادة منها الاستفادة الكاملة والإنسانية تمجد ابن سينا تمجيد العالم القديم جالينوس وبخاصة أنها تشعر أن تعاليم ابن سينا جاءت مكملة لتعاليم جالينوس.

ولهذا التقدير لابن سينا أسبابه التى نلمسها فى ترتيب وتنظيم وإيضاح وعمق معلوماته ومؤلفاته التى امتازت على سفسطة واضطراب جالينوس، فضلا عن عدم صحة ما جاء فى مؤلفاته من معلومات سطحية مشحونة بالأخطاء وبخاصة عند حديثه عن السوائل، كما ذكر ذلك «فون فيلامو فيتس موليندورف V. Wilamowiz. Moellendorff».

إن ابن سينا هو العالم الذى استطاع - وبحق - القضاء على شهرة جالينوس وسائر اليونانيين، وابن سينا هو الذى حطم هذا التمجيد وذلك التقديس لعلماء اليونان قرونًا عديدة. وابن سينا هو العربى الثانى الذى يطل إلى جانب الرازى من قاعة محاضرات كلية طب باريس، وابن سينا هو أكبر أساتذة الطب ومعلم أوربا فترة لا تقل عن سبعة قرون.

يقظة أوربا

كل أوربا تعرف أن شهرة «سالرنو» قد خلدتها، فهى التى شفت المرضى فى جميع أصقاع العالم، وهى تستحق أيضًا الشهرة التى نالتها: «إنى أعترف بفضل العلم الذى حصلته فى جامعة (سالرنو)». هكذا قرر الابن الشاعر ابن الفارس الألمانى عام ١١٦٢م فى كولونيا لمستشار الدولة «رينالد فون دسل Reinald von Dassel»، وكان عمر هذا الشاعر لم يتجاوز الثالثة والعشرين عندما كان سعيدًا بدراسته الطبية فى مدرسة أطباء «سالرنو» الواقعة على خليج «بستوم» بالرغم من أنه اعتل جسديًا وماليًا عندما عاد إلى الأمير الذى كان يرعاه ويعطف عليه.

لقد عقد هينربش الفققير أمله الأخير على «هرتمان فون آو» وأطباء «سالرنو» فى القرن الثانى عشر، وبخاصة بعد أن حاول عبثًا الشفاء فى «مونبيلييه»، وسالرنو كانت قبلة قاصدى العلاج فى أوربا وغيرها، لذلك قصدها وليم الفاتح الذى صار فيما بعد ملكًا على إنجلترا طلبًا لعلاج نفسه من جرح أصابه فى حرب، كما قصد أطباء سالرنو الذين طبقت شهرتهم الآفاق ابنه الجراف «روبرت» النورماندى استشفاء من الجرح الذى أصابه عند القدس عقب عودته من الحملة الصليبية الأولى عام ١٠٠١م، وصاحب الجراف النورماندى إلى سالرنو زملاؤه الفرسان الذين عادوا من الأراضى المقدسة.

إن المرضى من مسيحيى أوربا لم يكن أمامهم للاستشفاء إلا سالرنو، فهى الواحة المنيعة الوحيدة وسط ذلك العالم القحل، كما أن جامعة سالرنو كانت هى

الجامعة الوحيدة فى العالم، عدا الدولة الإسلامية، التى يدرس فيها الطب دراسة عملية وكان أساتذتها يتمتعون بثقافة طبية طيبة ولو أنها لا تقارن بتلك التى نعرفها فى العالم الإسلامى وبخاصة فى دمشق أو قرطبة. لكن بالرغم مما فى جامعة سالرنو من نقص إذا ما قورنت بالجامعات الإسلامية ـ كانت مع ذلك أحسن جامعة مسيحية. والسبب فى ذلك هو أن جامعة سالرنو الطبية جامعة علمانية خالصة وهى الوحيدة وسط هذه البيئة التى عرفت بممارستها الطب اللاهوتى. فمديرو وأساتذة سالرنو متزوجون، وإلى جانب الذكور من الأساتذة نجد الإناث أيضًا، وكانت أبوابها مفتوحة أمام الطلاب من مختلف الجنسيات والعقائد.

أما متى نشأت جامعة سالرنو وكيف ظهرت فهذا موضوع القصص والأساطير. وقصة سالرنو كغيرها من القصص والأساطير، ولابد أن تحتوى على شىء من الحقيقة. فهناك خبر يذكر أن الذين أسسوها أربعة: يونانى ولاتينى ويهودى والعربى «أدلا»، وهو ولا شك العربى «عبدالله» إلا أن هذه التسمية العربية قد أسىء فهمها، ففهمت على أنها «أدلا» واشتراك عربى فى تأسيس مدرسة سالرنو الشهيرة شىء بدهى وبخاصة أن سالرنو تقع فى جنوب إيطاليا والجنوب كما يحدثنا التاريخ كان طيلة القرن التاسع الميلادى منطقة احتلال عربية، وهذا ليس بعجيب وبخاصة إذا أدركنا موقع صقلية العربية وتقارب الأوضاع بين صقلية وجنوب إيطاليا. ولعل أجمل صورة تصور لنا العلاقات فى ذلك الوقت بين صقلية وجنوب إيطاليا ومدى الأثر العربى الإسلامى فى تلك المنطقة ما يروى عن اليهودى الصغير «دونولو» فقد تعلم العربية فى مدينة بالرمو عندما كان أسيرًا، ولما أخلى سبيله درس الطب العربى فى جنوب إيطاليا وعلى يد طبيب قدم إلى جنوب إيطاليا من بغداد. وهناك أدلة أخرى ملموسة لمساهمة العرب فى تأسيس جامعة سالرنو.

ومن المؤكد أنه قبل انصرام القرن التاسع الميلادى أثار أطباء سالرنو إعجاب الأوربيين الذين لم يعتادوا مثل هذا التقدم العلمى الطبى من قبل، ومن الثابت أن العلم والمعرفة والتجربة التى تدفقت فى السبعين، بل الثمانين، سنة التى انصرمت من القرن الحادى عشر وفى سالرنو ـ هى التى أكسبت هذه الجامعة هذه الشهرة الخالدة التى عمّ فضلها فشمل جميع أنحاء المعمورة؛ وبديهى أن هذا العلم وما إليه

وتلك المعرفة لم تكن معرفة رومانية أو أخرى قديمة بل حكمة عربية إسلامية.

وقبل أن يُدخل «ليوناردو فون بيزا» الحساب العربى إلى أوربا بنحو قرن ونصف قرن، كان «قنسطنطين» القرطاجنى الإفريقى يتزعم نشر الثقافة والعلوم الطبية العربية فى سالرنو، وبذلك وعن هذا الطريق أخذت العلوم الطبية العربية تتسرب إلى مختلف الأنحاء الأوربية. وقد نجح قنسطنطين فسجل لنفسه فى صفحات الثقافة الأوربية اسمًا خالدًا وشهرة عظيمة فاقت تلك التى نالها «ليوناردو فون بيزا»، والسر فى هذا لا يرجع إلى عبقريته ونبوغه فإن استعداده العلمى أقل كثيرًا من استعداد «ليوناردو»، لكن قنسطنين كان أمهر منه فى التأثير على عصره.

وهذا هو تاريخه كما نستخلصه من الأساطير والقصص التى وضعها مؤرخوه:

فى العام الذى ولد فيه الراهب «هيلدابرند» الذى أصبح فيما بعد البابا جريجور السابع، أعنى عام ١٠٢٠م ولد قنسطنطين فى قرطاجنة، ولا نعلم شيئًا عما إذا كان مسلمًا أو مسيحيًا، حرًا أو عبدًا أو عتيقًا اعتنق المسيحية فيما بعد، كما لا نعرف شيئًا عن اسمه الأصلى وهو مثل «ليوناردو» نما وترعرع فى البحر الأبيض المتوسط وفى محيط التجارة الشرقية وتجارة البحر الأبيض المتوسط، وقنسطنطين مثل ليوناردو قام برحلات كثيرة فى الشرق طالبًا العلم والمعرفة والمغامرات، وقد قضى نحو نصف سنى حياته فى التحصيل والتجوال حيث كان يبيع العقاقير والأدوية، ولذلك كان على اتصال بالأطباء العرب، وكان هذا الاتصال وثيقًا، وحدث فى تلك الفترة أن توفى ابن سينا وابن الهيثم. وفى بغداد ثم فى حلب وأنطاكية وشيزر التقى بابن بطلان الذى كان فى ذلك الوقت قد التحق بخدمة أمير شيزر وهو جد أسامة بن منقذ. وفى القاهرة كان ابن رضوان يقوم بالتدريس واتسعت شهرته.

ولما بلغ قنسطنطين الأربعين زار كتاجر للعقاقير والأدوية صقلية العربية وسالرنو المجاورة لها وبذلك دخل وللمرة الأولى أرض الإفرنج، وفى حديث بينه وبين أخى أمير سالرنو وكان طبيبًا قام بدور الترجمة بينهما بعض موظفى القصر من العرب تبين منه الضيف الشرقيى البون الشاسع جدًا بين الطب العربى والطب الأوربى، كما أدرك الفرق الكبير. لذلك وعد أطباء سالرنو بأنه سيمدهم بكثير من الأدوية

والعقاقير الطبية العربية بل ببعض ثمرات العقل العربى .

ثم عاد قنسطنطين إلى القاهرة ، وكان فى إبان شبابه يلتقط هنا وهناك بعض المعلومات الطبية ، ثم درس عندما بلغ سن الرجولة الطب فى المدارس الشرقية دراسة منتظمة . وزار سالرنو مرة أخرى متأبطًا عددًا كبيرًا من الكتب ، وكانت سالرنو فى ذلك الوقت وكل جنوب إيطاليا تحت حكم الهرزوج النورمانى «روبرت جويسكارد» ، وبعد أن تعرف قنسطنطين على البلاد ولغتها أخذ يعمل جاهدًا فألف الكتاب تلو الكتاب ، وكل كتاب يثير إعجاب القراء . إن مثل هذا الرجل يجب أن يكون عظيمًا جدًا فمثله لم تعرفه سالرنو من قبل ، لكن قنسطنطين قرر لكى يؤلف وينتج أن يعتزل الناس ، وأنه أحوج ما يكون إلى الهدوء ؛ لذلك انتقل إلى جبل كسينو ، الذى ألّف فيه أشهر كتبه الطبية وساعده الراهبان «أتو» و«يوحنا» فى تقويم لغته اللاتينية الركيكة .

وحدث أن أقبلت يومًا ما فرقة من الفرسان الشقر الفيكنج ومعهم أبناء الصحراء الذين لوحتهم الشمس فبددت هذه الفرقة الهدوء الذى كان يعيش فيه قنسطنطين ، وقد جاء ملك النورمان نفسه وهو «روبرت جويسكارد» يحيط به نفر من النورمان المشوقى القوام والمسلمين المخلصين له ، وإلى جانبه سار شيخ فى مسوح الرهبان ، والملك يرشد ا لشيخ . ويلوح أن السن والأمراض قد تجمعت وبقسوة شديدة على هذا الكهل ، وبدت معالمها واضحة على وجهه المحروم من الحنان والعطف ، وهذه القسوة وتلك الشيخوخة لم تقوسا ظهر هذا الشيخ ، فقد سار فى رفقة الملك متزن الخطا لا يلتفت يمنة أو يسرة ويدب على الأرض المرصوفة كما لو أنه من حديد لا يعبأ بالتقاليد التى لم يضعها هو نفسه .

ثم تختفى الضوضاء التى أحدثها الفرسان ، كما اختفى معها الفرسان والهرزوج ، وظل الشيخ وحيدًا ، وعاد الهدوء إلى جبل كاسينو ، وهو هدوء لا يختلف كثيرًا عن هدوء القبور . لقد استقبل قنسطنطين المؤلف والكاتب مريضًا قد حطمته السنون والعلل ، لذلك حمل إلى سفح الجبل حيث الدفء والطقس المعتدل وكبار الأطباء فى جامعة سالرنو . وفى مايو عام ١٠٨٥ لفظ هذا الكهل نفسه الأخير

وقد حرمه البابا من الكنيسة وطارده حساده وأعداؤه الرومانيون، ومن القيصر لم يلق إلا الشقاء والاضطهاد لأنه كان عدوه اللدود. وهكذا انهار الرجل حزينًا وحيدًا. إنه ابن الفلاح التوسكانى الذى سمى لوقت قصير جريجور السابع ولقبه أحد أتباعه بلقب: «الشيطان المقدس».

وقد عاش قنسطنطين بعد جريجور عامين فقط، وبينما كان يهوى نجم هذا ظهر نجم آخر سطع وتلألأ، وذلك نجم هذا المؤلف ا لذى وضع كثيراً من الكتب إبان إقامته فى جبل كاسينو، وكانت هذه الكتب تنحدر إلى الوادى فترسل ضوءها ساطعًا إلى سكان مدينة سالرنو.

نعم إن هذه الكتب دونت فى لغة لاتينية ركيكة إلا أن محتوياتها كانت قيمة جداً، فهى تعالج أمراض العيون والجراحة والكيمياء والغذاء وأمراض البول والحمى. وما أعظم المهارة التى أبداها عندما دون الكتاب الأصلى زاد المسافر «فياتيكوم Viaticum»، وكتابه الهام الرئيسى الذى يحوى جميع فنون الطب والمسمى «ليبر بنتيجنى Liber pantegni». فما أعظم العبقرية!

إن هذه الشهرة دامت أربعين عامًا كاملا.

ومن ثم قد فضح أمر هذا الرجل الذى ولد فى قرطاجنة وثبت أنه لم يكن عالمًا بل تاجراً خبيراً، فقد استطاع أن يستغل خبرته التجارية هذه استغلالا عظيمًا فأقبل على البضاعة القديمة ولفها فى ورق جديد مضللا المشترين، فالذى حدث أن الحروب الصليبية عرفت بعض الأوربيين بالشرق ثقافة ولغة وتجارة. كما أن المواد التى تخصص فيها قنسطنطين لم تعد غير قابلة للمنافسة فقد ظهر فى السوق منافسون له. ففى اللحظة التى قرر فيها الطبيب اللومباردى إسطفان أحد أبناء مدينة بيزا إنقاذ ما يمكن إنقاذه فى أنطاكية من كتب العلوم الطبية وتقديم هذه الكتب إلى أوربا المسيحية أخذت شهرة قنسطنطين فى أوربا تتوارى وتخبو.

وبينما نجد فى عام ١١٢٧ إسطفان يترجم إلى اللاتينية الكتاب الكامل فى الطب والمعروف باسم الكتاب الملكى الذى ألفه على بن عباس تبين إسطفان حقيقة هذه

المادة التى سطا عليها قنسطنطين ونسبها إلى نفسه . لقد درس إسطفان الطب فى سالرنو الواقعة على خليج «بستوم» ، وظل يدرس العلوم الطبية نحو ثلاث سنوات أعجب فيها إعجابًا منقطع النظير بمؤلفات قنسطنطين . أما الآن وقد تبين فى الشرق ما تبين فقد استطاع فى سهولة ويسر كشف القناع وإماطة اللثام عن هذا الشخص الدعى الذى نسب إلى نفسه الكتاب الملكى . وكان هذا هو البدء فقط .

ففى صقلية اهتدى المترجم «ديمتريوس» إلى أن كتاب قنسطنطين الموسوم باسم «ده أوكوليس De oculis» ما هو إلا كتاب حنين فى شفاء العيون ، والكتاب المعروف باسم «فياتيكم Viticum» ما هو إلا كتاب ابن الجزار المعروف باسم زاد المسافر . أما كتاب الغذاء وكتابا البول والحمى فما هى إلا ترجمة من كتب «إسحق يوداكوس» . وكذلك كتاب قنسطنطين فى التشريح فهو من تأليف على ابن عباس ، وتبين العالم اليوم أن كتابه فى الكيمياء مأخوذ عن الرازى .

أما بعض مؤلفات أبقراط وجالينوس فقد تعرف عليها قنسطنطين عن طريق الترجمة العربية التى قام بها حنين ابن إسحق وحفيده حبيش ، فقد أحضرها قنسطنطين معه إلى إيطاليا ، لذلك لم يستطع سرقتها ونسبتها إلى نفسه لوجود النسخ اليونانية الأصلية . أما أسماء العلماء العرب فلم تكن معروفة فى إيطاليا ، وقد تجاهلها قنسطنطين متعمداً ولم يقف عند ذلك بل محا من عليها أسماء مؤلفيها ووضع اسمه هو معللا هذا بقوله حتى لا يأتى آخر ويسرق مجهوداته . إنه لص مجرم ينادى ويصيح اقبضوا على السارق بينما يسرق هو الأشياء ويضعها فى حقيبته ، وإذا استثنينا بعض الحالات الفردية فإن القوم لم يستنكروا عليه سرقات ، وظلت كتبه تحمل اسمه ، وذلك لأن الناس لم يحترموا حق التأليف والملكية كثيراً أو لم يرعوا حرمة هذا الحق . ولا غرابة فى هذا فحامى قنسطنطين وهو كبير أساقفة سالرنو واسمه «الفانوس» قد سبقه إلى هذه السرقات ، فترجم كتابًا عن اليونانية إلى اللاتينية ونسبه إلى نفسه !

والمؤرخ الفرنسى العظيم للطب وهو «دارمبرج» قد هاجم قنسطنطين الإفريقى مستخدمًا أقسى ألفاظ السب والقذف ، ولو أنه أوجد له بعض العذر لسرقاته

العقلية، إذ نجد «دارمبرج» نفسه يتحمس ويقترح رسميًا وجوب إقامة نصب تذكارى على مرتفعات سالرنو ليشاهده الجميع، وذلك تقديراً لترجمته الكثير من الكتب العربية الطبية وتعريف أوربا بها فساهم فى بعث الأوربيين من الموت إلى الحياة.

رجلان ساعدا قنسطنطين فى ترجمته من العربية إلى اللاتينية تلميذه المحبوب الشاب العربى يحيى بن أفلح الذى انتشله قنسطنطين من الفقر والفاقة واعتنى به وأدخله فى الديانة المسيحية وأسماه «يوحنا أفلاتيوس» أو أيضًا «يوحنا سراكينوس-الشرقى». وقد عظم شأنه بعد وفاة معلمه وأصبح طبيبًا مشهوراً فى سالرنو كما أشرف على مخلفات قنسطنطين.

أما تلميذه الآخر فقد سمى «أتو» وأصبح ماهراً فى الطب كذلك حتى اختارته القيصرة «أجنيس» طبيبًا خاصًا لها كما كان قسيسها أيضًا. وقد نقل إلى سيدته الأشياء التى ترجمها أستاذه فى شعر رومانى.

وتلميذ ثالث لقنسطنطين هو «بارتولميوس» وقد نسج على منوال أستاذه فاهتم بالعلوم العربية، وقد نقل كتابه «بركتيكا practica» إلى الألمانية سواء تلك الخاصة بالمرتفعات والجبال أو لغة سكان الوديان والسهول كما ترجم أيضًا إلى الدنيماركية، وعن طريق هذه التراجم انتقلت العلوم الطبية العربية إلى أوربا فى القرن الثالث عشر.

وفى عام ١٢٥٠ نجد «برتولد فون رجينز برج» يستخدم بعض الألفاظ العربية فى عظاته، وهذه الأسماء كان قد ذكرها قنسطنطين وتلميذه «بارتولميوس». فجميع هذه الظواهر كانت قطراً مبشراً بقرب الغيث، ولو أن هذا القطر قد تساقط على أرض صخرية.

أما أثر هذا القطر فى إخصاب الأرض وإيناعها فقد كان عظيمًا جداً، فلا طبيب فى سالرنو إلا استفاد من المراجع العربية استفادة عظمى، كما لا يوجد كتاب خاص بالطب إلا اعتمد على المراجع العربية اعتماداً قويًا، وإن امتزجت بالتقاليد القديمة

التى كانت سائدة فى سالرنو .

ويجب ألا نعتقد أن هذا الأثر العربى الطبى قد أثر فى الدراسات الأوربية عن طريق الكتب فقط بل جاء أوربا عن طريق الطبيب نفسه الذى لم تكن على عينه غشاوة ورأى أن يرى ما هو كائن .

أما مسرح كل هذا فقد كان الشرق : كانت مصر ، التى كانت ميدانًا للحملة الصليبية الخامسة .

ففى عام ١٢١٨ التقى فى الأراضى المقدسة من الصليبيين الإيطاليين طبيب عظيم من مدينة بولونيا ، وقد فرضت وظيفة الطبيب «هوجو» عليه ، بالرغم من أنه كان فى سن السبعين ومن نسل أشراف اللونجوبرديين البورجونونيين والذين كانوا يقيمون فى «لوكا» والذى كان يتقاضى مرتبًا قدره ستمائة ليرة لمدى الحياة ، أن يمضى فقط ثمانية شهور سنويًا فقط فى بولونيا مزاولا مهنته كطبيب شرعى . أما بقية العام فيجب أن يرافق فيه المحاربون البولونيون فى حروبهم .

وحصل أن الحصار الطويل الذى ضرب على دمياط الواقعة فى نهاية دلتا النيل سبَّب كثيراً من الأهوال من مجاعة وبرد وأمراض مما فرض على الطبيب كثيراً من الأعمال والخدمات ، هذا إلى جانب الخسائر الفادحة والمعارك الخاسرة التى بذلت فى سبيل الاستيلاء على الحصن ، وقد انتهت جميعها بإلحاق الهزيمة بالمسيحيين وانتصر جيش السلطان الذى كان فى وضع بين اليأس والأمل ، لذلك انصرف الطبيب هوجو إلى علاج أولئك البولونيين من أمراضهم وجروحهم وكسر عظامهم .

وحدث عند ذاك أن هوجو أدرك أن كثيرين من الأعيان أخذوا يفضلون عليه زملاءه الآخرين بالرغم من أن رجال الدين المسيحى والمجالس المسيحية كانوا يقررون دائمًا خروج الأطباء الآخرين على الكنيسة ؛ لكن ماذا يجدى موقف رجال الدين هذا؟ هم يحرمون ، ينهون ويحذرون ويهددون ويتوعدون بالعاقبة السيئة التى تنتظرهم .

وغالى رجال الكنيسة فى تنفير القوم من الاستعانة بالأطباء والتشهير بهم فاتهموهم بأنهم تحت ستار طبهم ومعالجة المرضى كانوا يتربصون بالمسيحيين الذين يقصدونهم ويوقعون بهم أشد الأضرار، كما قد يقتلونهم خنقًا بالحبال. لكن بالرغم من كل هذه الشائعات الكاذبة والتهديدات بالطرد من الكنيسة لم يتردد الماضى فى زيارة الأطباء سعيًا وراء الشفاء على يد أولئك الأطباء الأعداء. ولم يكن هذا الوضع مشرفًا للطبيب الشيخ الذى كان يداوى الجروح ويتقلد منصبًا رسميًا. ففى هذه السنوات الثلاث وجد «هوجو» الفرص السانحة لمشاهدة ومعاشرة الجراحين المسلمين الذين كانوا موضع المدح والتقدير من الجميع ولو أنهم كانوا أيضًا موضع اللعنة. وكان «هوجو» إذا ما اضطر إلى الذهاب إلى مستشفياتهم الحربية وجدها معدة أحسن إعداد ومزودة بأحدث الآلات وكانت حمولة ثلاثين أو أربعين جملا.

وقد شاهد «هوجو» هنا، فى المستشفيات الإسلامية علاج الجروح فأدرك أن ما تعلمه هو كان خطأ شنيعًا. لقد تبينّ (هوجو) أن المهنة التى كان يمارسها زهاء خمسين عامًا والتى أخذها عن كتب الطب منذ عهد أبقراط حتى عالم سالرنو المسمى «روجر» والتى كان يعتقد فيها من قبل إنها الحكمة كل الحكمة - باطلة وما حصَّله كان لغواً وقبض ريح. لقد علمت تلك المراجع: أن الصديد هو البلسم الشافى، وظهوره ضرورة لا بد منها لشفاء الجرح، ولتكوين هذا الصديد كان لا بد من دهن الجرح ببياض البيض وزيت الورد، وكثيراً ما أدت هذه الطريقة إلى أوخم العواقب.

أما الأطباء المصريون المختصون فى علاج الجروح، فكانوا يستخدمون الأربطة المغموسة فى النبيذ المعتق الساخن وحول الجرح الرباط العادى، ومن ثم يتركون هذا الرباط على الجرح خمسة أو ستة أيام، وتكون النتيجة سرعة الشفاء دون أن يتسبب هذا العلاج فى ظهور حالة خطرة، هذا إلى جانب أن هذه الوسيلة تقفل الجرح بواسطة طبقة جلدية رقيقة ناعمة دون تجعد، وهذه الوسيلة كانت تستخدم أيضًا فى علاج الجروح التى تطرأ على الأعصاب أو الأوعية. ولعلاج الكسور كان المصريون

لا يستخدمون هذه الآلات القاتلة كما هو متبع فى وطن «هوجو»، كما أن ما علمه هو فى أوربا سماعًا يشاهده الآن بعينى رأسه. وشاهد «هوجو» كذلك الأطباء المصريين وكيف كانوا يعالجون مشوهى الأجسام، فإذا أصيب شخص بجرح بليغ يستدعى بتر ذراعه أناموه أولا، ومن ثم خدروه عن طريق الحشيش والسكران ونبات اللفاح، وذلك بغمس قطعة من الإسفنج فى خليط من سائل هذه المواد وبذلك لا يشعر المريض البتة بهذه الآلام المبرحة.

ولما عاد «هوجو» إلى وطنه عام ١٢٢١ استغل تجاربه ومعلوماته التى حصَّلها إبان حياته فى غمار الحروب الصليبية معالجًا المرضى البولونيين مدة ثلاثين عامًا قضاها فى وظيفته، وكان توفيقه فى عمله عظيمًا جدًا، وما تعلمه عن العرب أخذ يلقنه لأبنائه وأحفاده قائلاً: فى حالة الجروح يجب تجنب الالتهاب أو القيح. كما أخذ يدرس أبسط الطرق لعلاج الكسور والتخدير عند إجراء العمليات؛ وذلك عن طريق عقاقير مخدرة. ولما توفى وقد بلغ مائة عام ترك فى بولونيا مدرسة للجراحة ظلت تعمل بتعاليمه زمنًا طويلا، وقد خلفه عليها ابنه «تيودريش فون بورجومى Thioderich von Borgonomi»، ولما كان ابنه هذا من رجال الدين كان لا بد له من الحصول على إذن خاص لممارسة مهنة الطب والجراحة، وذلك لأن الطب كان فى ذلك العصر مهنة مشينة فى نظر الكنيسة، كما أراد تجنب عبارات اللوم والتقريع التى قد توجه إليه إذا ما أخفق فى عملية أو أكثر من العمليات الجراحية التى قد يجريها. لكن من حسن حظ «تيودريش» أنه لم يعرف إخفاقًا فى مهنته وذلك بفضل الطرق والتعاليم الجديدة التى لقنه إياها والده، لذلك أحب مهنته، كطبيب حبًا شديدًا كما ازداد إقبال الزوار على عيادته فى بولونيا حتى إنه لم ينصرف عن إجراء عملياته الجراحية بالرغم من تعيينه أسقفًا بالقرب من «رافينا».

لكن هذه الفترة الجديدة التى بدأت بداية تبعث على الأمل قضى عليها بالإخفاق. فالكتاب الخاص بالجراحة الذى وضعه «فلهلم فوق ساليكيتو» الذى عاش مدة فى بولونيا درس بها الطب، فكانت حياته امتدادًا لنشاط الشيخ «هوجو» ثم نشاط ابنه ـ هذا الكتاب الجديد لم يذكر شيئًا عنهما، بل تجاهل حتى اسميهما.

فما سبب هذا الموقف الغامض من مؤلف هذا الكتاب؟! هل هو الحسد والحقد على الزملاء؟! إن مؤلف هذا الكتاب لم يسجل كلمة واحدة حول علاج الجروح عن طريق النبيذ أو التخدير عن طريق الإسفنجة المبللة، وتبعه فى هذا التجاهل تلميذه «لانفرنكو». أما «هينريش فون موندفيل» الذى أخذ الجراحة عن «تيودريش» فهو الوحيد الذى ذكر - وبإعجاب - طرق علاجه العظيمة والنتائج الهامة الناجحة التى انتهت به أن وصفه لأستاذه عبارة عن قصيدة مدح وثناء على الجرح الذى يبرأ بسرعة دون حدوث صديد، وهكذا مضت ستة قرون دون تقدم فى علاج الجروح بالرغم من كل المجهودات القيمة التى بذلت، لذلك كانت الضحايا تذهب الواحدة بعد الأخرى.

أما فيما يتصل بالتخدير فقد خطا خطوات تقدمية. ففى مجموعة الوصفات الطبية كمجموعة ترياقات نيقولا (Antidotarium Nicola) نقرأ ما يستفاد منه أن التخدير قد استخدم فأنقذ حالات كثيرة من خطر الموت المحقق، كما أن المبالغة فى إعطائه للمريض كانت سببًا فى القضاء عليه، كما أن الكنيسة حاربت التخدير اعتقاداً منها أن المادة المستخدمة فى إعداده هى مادة شيطانية، وهكذا نجد التخدير يؤدى خدمة جليلة فى خدمة المريض فلا يشعر بالآلام المبرحة التى يتعرض لها.

والشيء الذى تعلمه «هوجو» اللوكى كان ضئيلا جداً، لكن من كتاب الجراحة المنسوب لابنه نعلم كيف أن السيد «هوجو» كان يستخدم مادة التخدير، كما كان يخدر تخديراً موضعيًا؛ وذلك بربط الجرح بمادة مكونة من النبيذ وبقايا الكتان، ثم يلفه بقطعة قماش ناعمة. كما أنه انتقد طريقة جالينوس عند علاج الجروح الحديثة، لكن توفيقه كان عظيمًا جداً عندما استخدم طريقة ابن سينا.

ثم نجد تياراً عربيًا ثقافيًا ثانيًا يغمر أوربا، فظهر ابن سيناء، كما نجد «فريدريش الأول برباروسا» يهتم بالفلك، وقد حاول الاستفادة من كل ما هو جديد عند الآخرين فأرسل «جريرد» اللونجباردى من بلده الحبيب «كريمونا» إلى إسبانيا. وفى ذلك الوقت ظهر فى كولونيا على الرين طالب الطب الشاب الألمانى الملقب «أركيبويتا Atchipoeta»، وأخذ يشيد بمجد مدرسة سالرنو التى ازدهرت وأينعت

بفضل الثقافة العربية والحضارة العربية الإسلامية .

وقد كلف القيصر رسوله «جربرد فون كريمونا» بالتوجه إلى طليطلة لإحضار الماجسطى لبطليموس ، فحدث أن استولت عليه الدهشة من عظمة العلوم العقلية العربية والثقافة الإسلامية فآثر البقاء على العودة فأقام هناك عشرين عامًا ، ولم يقتصر على ترجمة الماجسطى من العربية إلى لغة علماء أوربا بل ترجم أكثر من ثمانين كتابًا أحضرها معه إلى بلده ، قبل أن يتوفى فى كريمونا عام ١١٨٧م ، أعنى بعد مائة عام من انتقال قنسطنطين إلى الدار الآخرة .

إن ما ترجمه «جريرد» وأحضره إلى وطنه كان من خير الكتب وأحسنها ، ومن بينها الكتاب الملكى وبعض المصادر العربية الطبية التى تأتى فى المرتبة الثانية ، وكان قد أحضرها سابقًا . أما كتب الطب العربى التى ترجمها «جريرد» وجاء بها إلى بلده فكانت خليطًا من شتى الكتب ولكثيرين من المؤلفين أمثال : أبقراط وجالينوس والتى نقلها حنين بن إسحق إلى العربية ، إلى جانب الشروح العربية التى كتبت عليها كتلك التى وضعها ابن رضوان . أما المؤلفات الأخرى فكانت أمهات الكتب العربية فى شتى العلوم والآداب العربية ، ومن بينها كتاب المنصورى للرازى ، وكتاب الجراحة لأبى القاسم والقانون لابن سينا .

ومن ثم أخذ سيل التراجم والترجمة يتدفق من إسبانيا وصقلية وشمال إيطاليا . ومن مدينة «بادوا» جاء كتاب الكليات لابن رشد وهو يعرف اليوم فى اللاتينية باسم (colliget) ، كذلك كتاب التيسير لابن زهر وقد ترجم مرتين . وفى عام ١٢٧٩ جاء من صقلية كتاب الحاوى وهو الكتاب العظيم للرازى ويسمى (Continens Rha-sis) وقد قام بترجمته اليهودى الذى تربى فى سالرنو واسمه فرج بن سليم ، وقد صرف فيه نصف حياته مترجمًا ، أعنى حتى القرن السادس عشر . ثم جاء شيء جديد لم يكن معروفًا من قبل ، وهو قديم قدم قانون ابن سينا ومشهور شهرته ، أعنى كتاب زاد المسافر ، كما أن مؤلفات الرازى وابن رشد ترجمت أكثر من مرة .

وهكذا بعثت فى أوربا نهضة عقلية ، ومن ثم أخذت تتطور وأصبحت ضرورة لابد منها لجميع المشتغلين بالعلوم .

قــال ابــن ســـينا

كما يتشبع الإسفنج الظمآن بالماء والأرض الجافة الخالية بالغيث، كذلك كانت ظروف العالم عندما جاءت سحب العلوم والمعرفة والثقافة العربية الإسلامية، فقد هطلت عليه كتبًا امتازت بحسن التأليف ودقة التبويب وبراعة العرض وأخرى مترجمة قد اتسمت بركاكة الأسلوب وضعف العبارة. وما كاد المجتمع الإسلامى وغيره من المجتمعات التى اتصلت بالمسلمين ثقافيًا أو حربيًا أو تجاريًا يتسلم هذه الهبة العقلية حتى تفتحت العقول فأزهرت وأينعت وجاءت إلى الإنسانية بالخير العميم. وإذا تركنا الشرق إلى الغرب واتجهنا إلى سالرنو وجدناها - وقد استقبلت الموجة الثقافية الإسلامية الأولى - تنهض وتتطور وتتبوأ مكانًا ساميًا جعلها ذات شهرة عالمية، ثم لم تكد تهضم ما تناولته حتى جاءتها موجة ثانية لكن هذه المرة من خلف الحصون الإسبانية حيث تدفقت ينابيع الحضارة العربية على مونبيلييه فبعثت فيها وفى سائر الأنحاء الأوربية حياة جديدة فتية نلمس آثارها العلمية الطبية لا فى مونبيلييه فقط بل فى بولونيا وبادوا وباريس وأكسفورد أيضًا.

ومن أكبر مظاهر إقبال أوربا على تحصيل العلوم العربية هذا الشغف العظيم باقتناء الكتب التى ظهرت فى تلك العصور، والتى كانت عربية التأليف إنسانية الغايات، وحتى ما ألفته أوربا وقتذاك إنما كان صورة من المؤلفات العربية، وما أقبلت أوربا على ما أقبلت عليه إلا سدًا للفراغ العلمى الذى كان مخيما عليها

ومحاولة للحاق بالعرب فى مختلف أنواع العلوم والفنون والآداب. والكتب الأوربية التى ظهرت - وإن افتقدت أحيانًا الاصطلاحات العربية - قد استمدت مضمونها ودلالتها. ولعل أكثر الكتب دراسة واستشهادًا مؤلفات أمثال: ابن سينا وأبى القاسم والرازى وابن زهر وحنين بن رسحق وإسحق يهودا. وكما طرق العرب قديمًا أبواب الثقافة اليونانية كذلك الحال عند أوربا الظمآى فإنها أقبلت واعتمدت فى نهضتها على المراجع اليونانية العربية، وكانت هذه الكتب هى كل شىء فى الطب، إلا أن الأزهار الأجنبية لم تتأصل جذورها فى الأرض ولم تزدهر وتورق بل نمت فى حدود ضيقة جدًا؛ لذلك بدت وكأنها أزهار ذابلة.

وكانت النتيجة أنه لم يظهر طب أوربى، كما ظهر فى الشرق طب عربى منذ عصر الرازى، وأصبح عند العرب طب عربى خالص، وظل الأوربى عربيًا طيلة عصر الإنسانيين Humanismus بالرغم من وجود أمثال «باراسيلسوس -Paracel sus» بل امتدت فترة قيام الطب الأوربى المعرب حتى أوائل العصر الحديث.

والسبب فى تأخر ظهور الطب كعلم أوربى هو طبيعة العصر وطبيعة نظرة الأوربين للحياة واهتمامهم بالإنسان فقط، وكل شىء خالق يتجمد ويكتفى فيه بالتفكير فقط، فنحن نجد الكنيسة تتطلب من المسيحيين الاستسلام بدون قيد أو شرط لها ولتعاليمها والخضوع لسلطانها، بينما أولئك الذين يدرسون ينتمون فى الواقع إلى الطائفة المستقلة التى تفكر كيفما طاب لها التفكير، ونجد الأطباء العرب يحيون فى معترك الحياة فى الوقت الذى نجد فيه جميع معاهد الدروس - إذا ما استثنيا سالرنو والجامعة الحكومية فى صقلية وفى نابولى - تخضع خضوعًا تامًا للكنيسة وتعاليمها.

فالفرد المسيحى يجب عليه أن يأتمر بأوامر الكنيسة ويؤمن بها إيمانًا أعمى ولا يجوز له مناقشة ما تفرضه عليه، فالمسيحيون هم خدم الكنيسة، وهذه العادات وتلك الصفات أصبحت طبيعة ثانية للمسيحيين. فإذا حاد المسيحى عن هذا الطريق وأخذ يهتم بما يجده أو يراه حتى بجسده أو بالمرضى سعيًا وراء جمع المعلومات والتجارب، ضل الطريق القويم فطريق العقل يؤدى إلى الغرض والهدف. وتحدثنا

المصادر التى جاءتنا أن الوعى قد استيقظ فى ذلك الوقت مسترشداً ببعث التشريع الرومانى فى مدرسة الحقوق بمدينة بولونيا، وأخذت طريقة التفسير والتعريف والمناقشة مع استخدام المنطق ومراعاة الأصول المختلفة تنتشر منذ عهد «أنسليم فون كنتبرى Anselm von Canterburu»، ومنذ التعرف على أرسطو بفضل العرب. فإذا تم هذا مع التشريع والتقنين فلماذا لا يحدث مع اللاهوت أو الطب؟ فما هو حلال للقانون (Corpus inris) حلال للاهوت فيما يتعلق بالعقائد الكنسية وحلال للطب ولتعاليم العرب وجالينوس وأرسطو، فهذه العلوم العربية هى أهم شىء بالنسبة لهم، هى معجزتهم هى قانونهم هى إنجيلهم، قانون ابن سينا.

وأين ينشأ الطب إذا لم يجد فى هذه القلعة التى عطرها القانون والتشريع والحقوق تربة خصبة له؟! فى بولونيا نجد «تاديو الديروتى Taddeo Alderotti» يهتم بالقانون وشرحه، وقد نجح فى تعاليمه التى أصبحت عقيدة لتلاميذه أجيالا متتابعة ومن بينهم أولئك الذين كرسوا حياتهم للطب فكانوا رسله وإن تزيوا بأزياء عربية. لقد قدس أولئك الرسل العلماء العرب والعلم العربى وبخاصة ابن سينا والرازى، وظل هذا التقدير قائمًا حتى القرن السابع عشر، وأصبحت عبارة «روح ابن سينا Anima Avicenna» من أكبر الألقاب التى يتشرف بحملها الطبيب الأوربى أو الطب عامة. أما درجة الامتياز التى كان لا ينالها إلا فطاحل الأطباء الأوربيين فهى «شعار ابن سينا Avicennista insignis»؛ وفى القرن السادس عشر أطلق لفظ «ابن سينى Avicennist» على جميع أتباع ابن سينا.

وأين ينشأ الطب إذا لم يجد فى هذه القلعة التى عطرها القانون والتشريع والحقوق تربة خصبة له؟ فى بولونيا نجد «تاديو الديروتى Taddeo Alderotti» يهتم بالقانون وشرحه، وقد نجح فى تعاليمه التى أصبحت عقيدة لتلاميذه أجيالا متتابعة ومن بينهم أولئك الذين كرسوا حياتهم للطب فكانوا رسله وإن تزيوا بأزياء عربية. لقد قدس أولئك الرسل العلماء العرب والعلم العربى وبخاصة ابن سينا والرازى، وظل هذا التقدير قائمًا حتى القرن السابع عشر، وأصبحت عبارة «روح ابن سينا Anima Avicenna» من أكبر الألقاب التى يتشرف بحملها الطبيب الأوربى أو الطب عامة. أما درجة الامتياز التى كان لا ينالها إلا فطاحل الأطباء الأوربيين فهى

«شعار ابن سينا Avicennista insignis»؛ وفى القرن السادس عشر أطلق لفظ «ابن سينى Avicennist» على جميع أتباع ابن سينا .

أما المؤلفات التى ظهرت فى ذلك العصر فكانت تحمل الصورة الصادقة لتعاليم ابن سينا وطريقته فى التأليف والبحث، كما أننا نجد أخرى احتذى مؤلفوها غير ابن سينا من العلماء العرب .

وغير «ناديو» نجد «بيترو» من «أبانو» وهو ابن رجل قانونى لنجو باردى، وكان مغرمًا بابن سينا وابن رشد وكانت له عقلية منطقية تستطيع إدراك الحقائق الطبيعية، التى قد تنشأ عنها حقائق تتعارض والتجارب، وعن طريق الفلسفة توصل إلى نتائج لا تقبل الشك خاصة بشراب الشعير الذى لا يسبب حمى؛ وذلك لأن عصير الشعير عبارة عن خلاصة بينما الحمى شىء طارئ، وعن طريق المنطق استطاع أن يثبت دون صعوبة أن النار ليست جسما باردًا بل ساخنًا، وعن طريق هذه المعادلة المنطقية ضرب مثلا كيف أن الإنسان يستطيع أن يحصل على آخر نقطة من الدم دون أن يجهد حواسه أو عقله .

والواقع أن التأملات الفلسفية قد خلقت الناحية التجريبية أو العملية أو التطبيقية، وأن استبداد النظرية التى أصبحت غريبة على الحقيقة خاصة بالتجارب الطبية قد سخرت منها العقيدة الشعبية فى هذا الشعر :

جالينوس والعلامة أبقراط . .

علمانى أنه . .

حيث يوجد ماء يوجد بلل . .

وإن لم يمت فستتحسن صحته !

ثم إن الكتب التى التزمت المنطق وبراعة الأسلوب مثل كتاب القانون نالت إعجاب أولئك الذين يقدرون فصاحة اللغة وبلاغتها . لكن علماء الطب من الأوربيين فهموا هذه الكتب فهمًا خاطئًا فخرجوا منها بنتائج لا تتصل والعلوم

العربية بصلة ما وهى منها بريئة.

فالعلوم العربية يجب ألا تنتهى إلى عقلية هؤلاء العلماء الأوربيين، وقد راعت جامعة سالرنو الدقة العلمية بفضل العقلية الناضجة التى امتازت بها فخرجت طبًا حقيقيًا. وهذا يؤيد هذا التسامح العقائدى الذى دفع إلى السير فى طريق الجامعات العربية فى الدراسات الطبية، كما نلحظ هذا فى جامعة مونبيلييه التى تأثرت بمختلف التيارات والأهواء، وبالرغم من ذلك تمسكت بتقاليدها السليمة وفتحت صدرها منذ البدء للثقافة العربية التى أقبلت عليها من مختلف الجهات وتأثرت بها مونبلييه حتى النهاية دون التأثر بالظروف المدرسية الأوربية.

ولا أدل على أهمية العرب والعربية والدور الهام الذى قام به العرب فى ميادين الثقافة والحضارة، من أن الباحث كان مضطرًا إذا ما أقبل على عمل بحث من البحوث إلى دراسة اللغة العربية دراسة دقيقة، كما نشاهد هذا الظاهرة مع الإسبانى الشهير، الذى انحدر من أسرة غوطية غربية واسمه «أرنلد» وهو أحد أبناء مدينة «فيلانويفا» (١٣٥ ـ ١٣١١) فنحن نعلم أن «أرنلد» هذا فعل فى بلده ما فعله من قبل «ميجويل ثرافيدا»، فهو لم يكتف بدراسة اللغة العربية وإتقانها بل أقبل على ا لعقلية العربية وتعمق فى إدراكها ودراسة الكتب العربية الطبية كما اتصل بالأطباء العرب فحصل على علم ومعرفة تميز بهما على سائر مواطنيه وانفرد من بينهم بعدم اكتراثه بعلوم وآراء مفكرى أوربا. فأقبل على العلوم العربية فجنى منها بعض تراثها. كما أبدى تجاهلا لأولئك العلماء الذى كانوا سببًا فى نشر الغباوة والجهل بين الأطباء اللاتين، وكرس حبه وتقديره لأمثال: على بن عباس وابن زهر والرازى الذى سلط عليهما نوره وعلمه. فالرازى هو الرجل الذى اشتهر بالبحث والتعمق والإنتاج والتقدم والقيام بالتجارب الخاصة. والسبب الذى من أجله قدر «أرنلد» الرازى فاحتل من نفسه مكانة رفيعة هو بعينه الذى رفع من منزلة «أرنلد». وصفات الرازى كذلك هى التى احتذتها جامعة مونبيلييه فآلت أن تفكر التفكير الحر أسوة بالرازى، وأن تذود عن حرية الرأى والبحث العلمى كما فعل الرازى أيضًا.

وهناك فرع آخر من فروع الطب يقوم دليلا على بعد العرب عن الانحرافات

والالتواءات الأوربية الطبية، وهذا الفن هو الجراحة. فالجراحة تدين للعروبة فى تطور ها وتقدمها السريع بعد أن كانت مهنة من المهن الحقيرة، وسرعان ما بلغ الجراح منزلة قاضى الجنايات.

ففى عام ١١٦٣م صدر قرار من المجلس الأعلى يمنع تدريس الجراحة فى مدارس الطب، كما أن الجراحة اعتبرت مهنة مشينة تدنس شرف وكرامة الطبيب الذى يمارسها، بخلاف العرب الذين أقبلوا عليها وأولوها عنايتهم فأصبحت علمًا من أجلّ العلوم وأشرفها بل أصبحت الفن الطبى الوحيد الذى يتطلب اليقظة والانتباه وسرعة الإدراك وسلامة الطبيب وقواه، لأنه هو الفن الطبى الذى يأتى بنتائج إيجابية. وقد أخذت الجراحة تتبوأ مكانًا رفيعًا فى أوربا على يد «روجر فون سالرنو» اللنجو باردى وتلميذه «رولند» و«هوجو فون بورجو جنونى» وابنه «تيودريش»، ثم قدر للجراحة أن تخطو خطوة أبعد بفضل «فلهلم فون ساليسيت» اللنجو باردى وتلميذه الذى تفوق عليه وهو «لانفرنكو»، ثم الفرنسى «جوى ده شولياك Guy de Chauliac».

والشىء الجدير بالملاحظة حقًا، هذه الحقيقة التى تدحض الافتراءات التى افتريت على الجراحة والجراحين، أعنى هذا التقدم الذى أحرزته الجراحة على يد أمثال: أبى القاسم وابن سينا. وبفضل الأخير خاصة انتقلت إلى أوربا واشتركت اشتراكًا كليًا مع علم التشريح، ومن ثم ينتهى بها المطاف إلى هذا التقدم العظيم الذى أحرزته الجراحة فى الطب الحديث.

ومرة أخرى نجد العرب يتقدمون لإنقاذ هذا العلم من خطر جديد أحدق به وفى أوقات حرجة جدًا، وليس هذا الموقف بجديد على العرب فقد سبق لهم أن سارعوا إلى إنقاذ الطب من سيطرة اللاهوت واستعباده وإقفال الطريق أمامه. لقد دنت ساعة الامتحان للطب والأطباء عندما انتشر وباء عام ١٣٨٢ وحار الطب وأخفق الأطباء، فى ذلك الوقت كان الطب العربى يتحدث عن الوباء وعن العدوى التى قد تصيب الإنسان من جرائه، وهذا بدوره قد ينقل جراثيم المرض إلى كثيرين ممن قد يتصلون بالمريض. وحدث أيضًا أن انتشر الوباء مرة أخرى وكانت أوربا مستعدة

لمكافحته وتجنب ويلاته فمنعت السفن التى يشتبه فى وجود المرض بها من الاقتراب من الموانئ الإيطالية، ثم تقرر التبليغ عن جميع حالات المرض. وقام أول بناء للعزل ومنعت الاجتماعات وأحرقت جميع الأشياء الملوثة بجراثيم المرض، فكل هذه الاحتياطات تقوم دليلا على أن أوربا أخذت بالرأى العربى الخاص بطرق مقاومة المرض والحد من انتشار العدوى، وقد ظلت هذه الوسائل متبعة حتى يومنا هذا.

وبدهى أن هذه الاحتياطات التى أتت بأحسن النتائج فى سبيل مقاومة الوباء والقضاء عليه لم تتعارض وتعاليم الكنيسة فالعبارات الواردة فى العهد القديم والخاصة بالعقوبات والعذاب الذى قد يلحقه الله بالمذنبين على يد ملائكته شاهدة على عدم انحراف المسيحيين عن تعاليم دينهم، إذا ما فهمت على أنها لا تحمل إلا معنى رمزيًا. إن الإيمان بالآيات الواردة فى الكتاب المقدس حالت لمدة عدة قرون دون تقدم البحوث الخاصة بالعدوى، فإلى جانب سرير المريض كان يقف الطبيب العظيم والعالم المشهود له بالكفاية العلمية لكنه لا يستطيع أن يقدم للمريض أدنى مساعدة؛ وذلك لأن العلوم الطبية قاست الكثير من التخمة التى أصابت الأوربيين الذين عجزوا عن فهم العلوم الأجنبية. كما أن العلوم الأوربية لم تتقدم قط حتى فى الوقت الذى كان يصرح فيه لخريج الطب الحديث وتحت إشراف طبيب آخر بمعالجة المريض، إذ إن سائر معلوماته كانت فى الواقع مستقاة من الكتب والصور المأخوذة عن رسومات خيالية خاطئة. أما الدراسة العملية فى المستشفيات كما هو الحال عند العرب فلم تكن مستعملة فى أوربا، فمدرسة الطب كانت مقطوعة الصلة بالمستشفى، فلما عاد الصليبيون وشاهدوا ما شاهدوا عند العرب، وفى مدارس الطب العربية طالبوا بإدخال هذه النظم فى أوربا، وأخذ البابا إينوسنس الثالث يطالب جمعية روح القدس ببناء المستشفيات وجمع المرضى فيها كما أشرفوا هم على رعاية أولئك المرضى فى المستشفيات التى كانت خالية من الأطباء. وفقط فى عام ١٥٠٠م عين ولأول مرة فى مستشفى ستراسبورج طبيب دائم مقيم، وكان هذا بعد ثمانية قرون من تشييد ا لخليفة الأموى الوليد للمستشفى العربى، الذى عين له عددًا كبيرًا من الأطباء المختصين فى مختلف الأمراض. وبعد ستراسبورج نجد فى

مستشفى ليبزج عام ١٥١٧ ثم «أوتيل ديه Hotel Dieu» فى باريس عام ١٥٣١م.

وفى منتصف القرن السادس عشر حدث أن طبيبًا من «فيرونا» أخذ يدرس شرح ابن سينا فى مستشفى «بادوا» مع دراسة عملية، فأثار هذا التجديد العجب. فقد قصد «بادوا» طلبة من مختلف البلاد ليشاهدوا العرض الجديد لنصوص ابن سينا وجاينوس مطبقًا على المرضى ويشترك الطلاب مع أستاذهم. كذلك نسج على نفس المنوال طبيب آخر كان يعمل فى مدينة «إينجولستات» إلا أن هاتين الحالتين كانتا وحيدتين، وفى القرن الثامن عشر فقط نجد الطبيب الشهير الذى كان يعمل فى مستشفى «هرمان بيرهافا» ولو أنه من مدينة ليدن يطبق العلم على العمل فى المستشفى بالرغم من الحالة البدائية التى كانت عليها المستشفيات الأوربية عامة فى ذلك الوقت، فقد كانت تستحق السخرية حقًا فضلا عن عدم ملاءمتها للقواعد الصحية. وبالرغم من ذلك فقد خطا هذا النطاسى البارع بالدراسة الطبية خطوة واسعة.

ولما انبثقت حركة إحياء العلوم والاهتمام بالعلوم اليونانية كان من المتوقع أن تؤثر فى مكانة الطب العربى، لكن شيئًا من هذا لم يحدث، وعلى العكس، بخلاف ما وقع مع الفنون وسائر العلوم العقلية وبخاصة الفلسفة. أما العلوم القائمة على التجارب والخبرة فلم تستفد شيئًا من العلوم اليونانية.

وفيما يتصل بالطب وسائر العلوم التجريبية أو التطبيقية التى أخذها العرب عن اليونان وقدموها لأوربا. فقد كانت أيسر قبولا وأكثر رواجًا من تلك التى عرفت فى بيزنطة بل امتازت عليها بحسن التنسيق وجمال العرض ودقة الملاحظة، ولم تقتصر هذه المفاضلة على البيزنطية فقط بل امتدت إلى اليونانية أيضًا.

أما كتب أمثال: على بن العباس وابن سينا فقد كانت مثلا لامعًا فى التأليف وترويض هذه المواد الجامحة، فقد تناولت هذه الكتب ما جاءها وخلقته خلقًا جديدًا فأضافت إليه الشىء الكثير فاستعاض القارئ عن سفسطة جالينوس علمًا غزيرًا جديدًا لا يستغنى عنه باحث أو طالب معرفة، ومعنى هذا استعباد جديد وتبعية جديدة وحيلولة دون خلق جديد فى عالم التأليف.

وعلاوة على ذلك فقد كانت التراجم الجديدة المباشرة للكتب اليونانية تتصف بالفوضى والاضطراب وضعف الفائدة بخلاف تلك التراجم التى اعتمدت على العربية. وقد كشف الإنسان عن مؤلفات أمثال: «روفوس» و«بولوس» و«سيلسوس» ونقلها إلى لغة العصر إلا أن تقادم عهدها جعلها لا تصلح للعصر الذى ترجمت فيه بخلاف الحال مع المؤلفات العربية التى ترجمت فى نفس الوقت إلى اللاتينية مثل القانون لابن سينا الذى ترجم مرة فى دمشق وأخرى أحسن وأدق فى إيطاليا.

لكن هناك شيئًا هامًا أثر بواسطته الإنسانيون فى الأطباء ولو أن هذا الشىء لا يمت إلى الطب بصلة فهو إنتاج لغوى نبه القوم إلى وجوب الاهتمام بفحص النصوص وتحليلها وإن كان هذا الاتجاه قد صرف القوم عن فهم المعنى إلى الأسلوب بما فيه من فصاحة وبلاغة، لكن حتى هذا لم يصرف الأوربيين عن الاهتمام بأساتذتهم العرب وذلك لأنهم قد تبينوا مدى تفوق العرب على اليونان، فمن بين الأطباء المشهورين الذين زينوا جبين القرن الخامس عشر والذين طارت شهرتهم إلى كل مكان: ابن سينا والرازى وابن زهر وعلى بن عباس وأبى القاسم، وقد كانوا المثل الأعلى فى الطب، كما أنهم هم أساتذة الذين خلفوهم وبخاصة فى الطب العملى.

وقد انصرف نفر من العلماء إلى دراسة التراثين العربى واليونانى والمقابلة بينهما وبخاصة فيما يتصل بالطب ومعرفة مدى أثر اليونانيين على الأطباء العرب الذين خلقوا الطب العملى التجريبى، وقد قدم أولئك العلماء إحصائية عن هذا الأثر. ومن أهم الكتب التى ألفت فى هذا الموضوع كتاب الجراف «فرارى دا جرادو Ferra-ri de Grado» أستاذ جامعة بافيا الذى وضح شرحًا وتفسيرًا للكتاب التاسع من كتاب المنصور للرازى، وهو أول كتاب طبى طبع عام ١٤٦٩. ففى مؤلفات «فرارى» جاءت إحصائية تبين أن ابن سينا ذكر أكثر من ثلاثة آلاف مرة والرازى وجالينوس ألف مرة وأبقراط مائة وأربعين مرة.

والجدير بالملاحظة إلقاء نظرة على الطبعات القديمة للكتب الطبية وأولها ولا

شك قانون ابن سينا، فقد ظهر هذا الكتاب فى فبراير ١٤٧٣ فى ميلانو، وبعد عامين ظهرت الطبعة الثانية، بينما ظهر فى نفس الوقت شرح ابن سينا، وقد نشره ذلك الإيطالى، وهو الكتاب المعروف باسم «روح ابن سينا Scele des Ibn Sina» وظهرت طبعة ثالثة للقانون قبل طبع أول رسالة لجالينوس؛ ومن ثم أخذت تتوالى الطبعات، فظهرت الطبعات الأولى لكتاب المنصور والحاوى للرازى، ثم الكليات لابن رشد وإيساغوجى حنين بن إسحق والذى يعرف الآن برسم يوحنتيوس».

ثم كتاب الأطعمة لإسحق يهوذا والكتاب الملكى لعلى بن عباس، وهكذا حتى عام ١٥٠٠ ظهرت الطبعة السادسة عشرة لكتاب القانون بينما لم تظهر لجالينوس إلا طبعة أولى فى مجلدين. وفى القرن السادس عشر بلغت الطبعات للقانون العشرين، ومن ثم أخذت تتوالى حتى منتصف القرن السادس عشر، وهكذا نجد قانون ابن سينا هو أكثر الكتب الطبية دراسة وانتشاراً فى عالم الطب. أما طبعات شرحه فلا تحصى.

وفى القرن السادس عشر فقط، أخذ الطب الأوربى يشعر بالخجل من الطب العربى، وذلك لأنه ظل زمنًا طويلا ينقل ويقتبس ويأخذ عن العربى حتى إنه كان صورة مشوهة منه، ولا يوجد مثل أصدق يصور لنا الحالة التى كان عليها الطب الأوربى من هذه العبارات الخاوية التى تدل على لا شىء والتى قالها «باراسيلسوس» فى ميدان السوق بمدينة «بازل» عندما أحرق علانية كتب جالينوس وابن سينا مما أثار غضب الشعب.

لكن يجب ألا يتبادر إلى أذهاننا أن هذه العملية التى قام بها «بارسيلسوس» جاءت بنتيجة ما فالعلم العربى ظل قائمًا يزين رؤوس العلماء المفكرين، ودور الكتب الأوربية لم تتوان فى اقتناء هذه الكتب العربية والتنافس فى هذا الاقتناء والمفاخرة به بل حتى حقائب الأطباء كانت غاصة بهذه المؤلفات العربية الطبية. نعم إن ميخائيل ثروت هاجم وانتقد الشراب العربى الذى اعتمد على مبدأ العصير اليونانى، لكنه فى نفس الوقت نشر الاختراع العربى للدورة الدموية الصغرى دون أن يذكر المراجع العربية التى أخذ عنها.

أما أستاذه فى التشريح «سيلفيوس» فقد كتب عام ١٥٤٥ شرحًا على الرازى هو نفسه أبو التشريح وأبو الطب الأوربى عامة؛ كذلك نعلم أن الألمانى «أندرياس فيزاليوس» قد تعلم اللغة العربية أيضًا وأجهد نفسه فى سبيل إعادة نشر الكتاب التاسع من الكتاب المنصورى لمؤلفه الرازى وفى لاتينية أسلم وأقوم. كما ظهر من الكتاب العربى العظيم الموسوم باسم كتاب الحاوى فى الفترة الممتدة بين عامى ١٤٨٦ و١٥٤٢ خمس طبعات كاملة، كذلك عدة طبعات من بعض فصوله. أما كتابه عن الجدرى والحصبة، فقد طبع بين عامى ١٤٩٨ و١٨٦٦ أكثر من أربعين مرة، وقد ظلت هذه الرسالة الصغيرة موضع اهتمام وتقدير العالم المتمدين زهاء ألف عام وما زالت حتى يومنا هذا المرجع الهام الذى يستغنى عنه والمثال الذى يحتذى.

ومن المؤلفات القيمة التى لها مكانة لا تقل عن معاجم الجيب، تلك الجداول التى وضعها ابن جزلة وابن بطلان، فقد ترجمت هذه الجداول أكثر من مرة إلى اللاتينية وعليها اسم المؤلف فى صيغة لاتينية غامضة جدًا، وقد ترجمت إلى الألمانية وظهرت فى مجلد واحد تحت اسم مفاده «جداول الشطرنج الصحى Schachtafeln der Gesundheit».

أما الكتاب الملكى لعلى بن العباس، فقد شاءت الأقدار أن ينال حظوة عظيمة وذلك عن طريق عالمين من العلماء الإنسانيين تجمع بينهما صلات القرابة فى مدينة نورنبرج. ففى حوالى عيد ميلاد عام ١٤٩٣م تسلم العالم النورنبرجى الطبيب الشهير «هارتمان شيدل» رسالة من بادوا حيث كان يدرس صديقه الشاب «هيرونيموس هولز شوهر» أبلغه فيها عظيم فرحه لشرائه الكتاب الطبى العربى الشهير جدًا، الذى ظهر حديثًا فى ترجمته اللاتينية فى مدينة البندقية. أما مترجمه فهو «إسطفان فون بيزا» فما كان من «شيدل» إلا أن أطلع زميله الطبيب «هيرونيموس مينزر» طبيب مدينة نورنبرج على هذه الرسالة، وقد كان «مينزر» هذا إلى جانب طبه هاويًا القيام بالرحلات ودراسة الجغرافيا، وهو الذى أرسل إلى ملك البرتغال رسالة تحثه على وجوب الاهتمام بتمكين «كولومبوس» من القيام برحلته

إلى الهند مجتازاً الطريق البحرى الغربى. وكان هذان الطبيبان يهويان اقتناء الكتب المطبوعة الحديثة؛ لذلك فرح «مينزر» كثيراً عندما أطلع على مضمون هذه الرسالة وحصول «هير ونيموس هولز شوهر» على هذا الكتاب القيم، كما أعجبه تقديره واهتمامه بالعلم هذا التقدير الذى دفعه إلى شراء هذا الكتاب؛ لذلك قرر «مينزر» إهداء «هولزشوهر» كريمته الوحيدة كزوج له. فقد كان كتاب على بن العباس هو الدافع إلى هذا الزواج الذى تم بين «هيرونيموس هولز شوهر» و«دورثيا مينزر» وهكذا أصبحنا نجد «هولز شوهر» يصير عضو مجلس المدينة وعمدة نورنبرج و«هولز شوهر» هذا هو الذى رسمه الفنان الخالد «ديرر».

كذلك من الكتب التى لقيت رواجًا عظيمًا وأقبل عليها المترجمون كتاب «دليل المسافرين» أو «الرحلة»، وقد نبه إلى عظيم فائدته قنسطنطين الإفريقى. ففى باريس وكولونيا وجامعات أخرى كان يدرس هذا الكتاب كمادة إجبارية على الطلاب، وظل الحال كذلك مئات السنين. وهو يعتبر إلى جانب إيساغوجى حنين بن إسحق والمنصورى للرازى والتيسير لابن زهر والكليات لابن رشد والقانون لابن سينا من أهم الكتب الرئيسية فى برامج الدراسة الطبية فى مختلف الجامعات حتى القرن السادس عشر فى أوربا. وفى جامعتى «توبنجن» و«فرنكفورت» الواقعة على الأودر كانت برامج كليات الطب تعتمد حتى القرن السادس عشر على مؤلفات ابن سينا والرازى.

وبالرغم من أن الغرب تنكر للعرب إلا أن المؤلفات العربية وبخاصة ما يختص منها بأمراض العيون ظلت متداولة حتى القرن الثامن عشر، وقد دخل كثير من اختراعات العرب وتجاربهم القيمة الطب الدولى بالرغم من إخفاء الأسماء العربية والتغاضى عن ذكر فضل العرب.

لكن من هم الذين لا يزالون يعرفونهم اليوم؟ ومن يعرف المؤثرات الطبية العربية التى أخذت تلعب دورها فى أوربا منذ عهد قنسطنطين الإفريقى؟ ومن يعرف حتى اليوم عظمة وخطورة الدور الذى قام به العرب فى سبيل تطور ونشأة الطب فى أوربا؟

إن «أجريبا فون نتسهيم» هو الشخص الوحيد بين الإنسانيين الذى قاسى منه كثيرون، وهو شاب من كولونيا وكان يسمى «هينريش كورنيليس»، وكان يغنى أغنية هامة فى أثر العرب فى الطب. فالعرب كما يقول: مشهورون، حتى إن الإنسان يعتبرهم خالقى هذا العلم، وكان من السهل إصدار مثل هذا الحكم إذا لم يستخدم العرب كثيراً من الألفاظ اللاتينية واليونانية، وبذلك كشفوا النقاب عن حقيقتهم، فكتب ابن سينا والرازى وابن رشد لا تقل أهمية عن كتب أبقراط وجالينوس، وقد بلغت الكتب العربية مكانة هامة فى العلوم حتى إن استخدامها كان ضرورة لا بد منها للوصول إلى الشفاء. أما الطبيب الذى لا يستخدمها فى العلاج فقد يتسبب فى موت المريض الذى يعالجه.

أليست هذه نبوءة أن القديسين من الأطباء المسيحيين والصيادلة، والذين اختصهم البابا فيلكس الرابع فى أوائل القرن السادس الميلادى بكتدرائية قديمة فى الفوروم رومانوم كانوا حسب صلاة القديسين عربًا؟!

أنصاب العَبقرية العربية

قديسو الأطباء والصيادلة . .

من الخطأ أن نذكر «كوزماس» على أنه الطبيب، ودميان هو الصيدلى.

حوالى عام ٣٠٠ حينما عاش الأخوان العربيان، فيما يقال، لم تكن المهنتان الشافيتان قد انفصلتا بعد، كذلك الحال فى العصر اليونانى. فالطبيب كان عادة هو الصيدلى وإن كان له مساعدون يحضرون له الدواء ويعدونه، فهم الذين كانوا يجمعون له البذور ومختلف أصناف العطارة، وكان هناك تجار يبيعون الأدوية والعقاقير والعطور والأصباغ الضرورية لحياتنا اليومية. لكن الطبيب كان هو الشخص الذى يناول المريض الدواء بيده، وذلك لأن تقسيم العمل والفصل بين المهن والحرف يصبح ضرورة عندما تتزايد هذه العقاقير وتتكاثر الأدوية، ثم كثر المخترعون وتزايد عدد المخترعات فتطلب هذا إعداداً خاصًا لأنها أصبحت فى الواقع أدوية جديدة.

فجميع هذه الحالات حدثت وبكثرة فى الطب الإسلامى العربى. إن الدولة العربية لم تكن دولة ثقافة وعلوم فقط بل كانت أيضًا مركزاً للتجارة العالمية. ففى البلاد العربية كانت تلتقى الطرق التجارية العالمية التى كانت تجتاز البحار والقارات القريب منها والبعيد . . . إنها كانت الشرايين التى تغذى الشرق والغرب والشمال والجنوب بمختلف أنواع السلع مستعينة بالسفن التى اشتهرت باسم «جنك» أو الجمال والبغال حاملة كنوز مختلف البلاد والعقاقير والأعشاب وغيرها من الأدوية

الحيوانية التى لم يعرفها الأطباء الأقدمون ولم يحفظوها فى الجرار الفخارية، وقد جلبها العرب من الصين والهند وإفريقيا وسيلان (سرنديب) وملقا وسومطرة ومن شواطئ البلاد والجزر الأخرى.

ولم يكن هذا بالشيء الجديد فطرق القوافل قديمة قدم العصر الحجرى. أما وقد تطورت الظروف فقد أصبح التجار أكثر خبرة ودراية بالتصدير والاستيراد وبخاصة فيما يتعلق بالأدوية التى حصلوا عليها كذلك عن طريق الرحلات الاستطلاعية الكشفية. وامتازت المستشفيات العربية الإسلامية بأن كل طبيب فيها كان يستطيع الحصول على أدوية جديدة ويجرى تجاربه عليها وأن يسجل هذه النتائج فى سجلات خاصة أعدت لهذا الغرض، ولم يكتف بالتسجيل فقط بل كانت هذه النتائج تنشر بين مختلف الأطباء والمستشفيات على أنها أدوية مجربة، وبذلك تقدم كهدية للطب للاستفادة منها. لذلك نجد عدداً كبيراً من الأدوية التى كانت حتى ذلك الوقت غير معروفة مثل: القهوة والكافور والكبابة والمن والأرجان، واللبان، وجوز الطيب والعنبر والأسطراغالس وأخرى كثيرة جداً، ومن ثم انتقلت بواسطة العرب إلى أوربا، كذلك تلك العقاقير التى لم يولها الإنسان من قبل اهتمامه، فقد أصبحت عقاقير طبية لا يستغنى عنها الطب والصيدلة وأغراض أخرى.

وهكذا نجد الأطباء العرب يصفون القهوة لعلاج القلب كما يستخدمونها مسحوقة لعلاج التهاب اللوز والإسهال والجروح العسيرة الشفاء، والكافور لتنبيه القلب والكبابة لمكافحة الديدان. واستعاضوا عن الدواء القوى المألوف الذى ظل مستخدماً عدة قرون، وكثيراً ما كان يتسبب فى إحداث القيء أو الإسهال والذى ورثه القوم عن اليونان بأوراق السنا والتمر الهندى والخيار الشنبر والعود والروند المهدئة الملينة المقيئة. وقد نادى باستخدامها ودعا إليها مختلف مؤلفات ماسويه والرازى كما نجد «محمداً التمينى» وهو أحد أبناء القدس يخترع مادة عالمية ضد التسمم، وقد خلدت هذه المادة اسمه وبحق إذ أطلق على المادة المسهلة التى اخترعها والتى تساعد على الهضم اسم مفتاح الفرح ومنعش الروح، وهناك أدوية أخرى يونانية كانت مستخدمة بالرغم من الأضرار الجسيمة التى قد تنشأ عنها فلما

تناولها العرب خففوها عن طريق عصير الليمون أو البرتقال أو إضافات أخرى. أما الأدوية التى كان يركبها جالينوس من خليط خاص فقد استعاض عنها ابن سينا بآخر أبسط لا ضرر منه. وفى كتاب القانون لابن سينا نجده يذكر ما لا يقل عن سبعمائة وستين دواء، وقد انتقلت جميعها إلى النباتات والصيدلة الأوربية. وبعض هذه الأدوية ما زالت محتفظة بأسمائها العربية حتى اليوم مثل: عنبر، دار صينى، زعفران، خشب الصندل، السنى، الكافور، تمر هندى، عود، حشيش، خلنجان، جوز الطيب.

وفى الشرق عرفت مؤلفات أبقراط وجالينوس، كما جمع «ديوسكوريديس» كل ما يتصل بطب العالم القديم، وقد وصل هذا الكتاب إلى أوربا عن طريق بعثة دبلوماسية، فالقيصر البيزنطى قنسطنطين السابق الذى عرف كيف يؤثر على الحكام العرب، أرسل عام ٩٤٨ م بعثة خاصة مزودة بكتاب غنى بالرسوم إلى حاكم الأندلس، وكان القيصر يطمع عن طريق هذه الهدية القيمة فى النجاح فى عقد محالفة مع عبد الرحمن الثالث ضد خليفة بغداد. ولما لم يوجد فى الأندلس من يستطيع فهم يونانية هذا الكتاب فهمًا جيداً لتقدير قيمة هذه الهدية الثمينة طلب عبد الرحمن من بلاط القسطنطينية إرسال مترجم إليه. وفى عام ٩٥١ م وصل إلى قرطبة الراهب نيقولا، وكان يستطيع التفاهم مع الأطباء هناك باللغة اللاتينية، وهكذا تعاون معهم وترجموا هدية القيصر إلى العربية.

لكن عرب الأندلس لم يكونوا متخلفين فى علم النبات والعقاقير فالطبيب الخاص للخليفة وهو ابن جلجل ألف كتابًا عن مآخذ ديوسكوريديس، ومن ملاحظاته الخاصة وتجاربه الكثيرة تجمعت لديه المادة لوصف أكثر من ألف وأربعمائة عقار نباتى ومواد أخرى قد يستعاض بها. وعقاقير ابن البيطار (١١٩٧ - ١٢٤٨) أعنى ابن الطبيب البيطرى، وهو أكبر عالم نباتى عربى جمعها جميعها عدا المواد الحيوانية والمعدنية.

فالكتاب يحتوى على جميع مواد الصيدلة فى عصره، وقد كان كتابًا عظيمًا جداً علميًا وفنيًا، فابن البيطار لم يقنع بدراسة مؤلفات نحو مائة وخمسين عالمًا سبقوه

فى البحث والدرس وذكرهم جميعهم ودرس كتبهم دراسة فاحصة ناقدة بل قام هو بتجاربه الخاصة عليها، فقد رحل من مالقا مسقط رأسه وزار جميع بلاد إسبانيا ومراكش وشمال إفريقيا ومصر وسوريا وآسيا الصغرى، وقد شاهد بعينيه، واقتنع، أكثر من ألف وأربعمائة مرة بكل ما دونه. ومن الجدير بالبحث حقًا العناية بابن البيطار عند درسه وتأليفه لنذكر كيف كان التأليف فى أوربا، وكذلك كيف استفاد قنسطنطين الإفريقى والعلماء الأوربيون من هذه المصادر العربية الفنية.

فابن البيطار يذكر فى مقدمة كتابه الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ما يأتى:

«الحمد لله الذى خلق بلطيف حكمته بنى الإنسان واختصه بما علمه من بديع البيان وسخر له ما فى الأرض من جماد ونبات وحيوان وجعلها له أسبابًا لحفظ الصحة وإماطة الداء يستعملها بتصريفه فى حالتى عافيته ومرضه بين الدواء والغذاء. نحمده حمد الشاكرين ونصلى على أنبيائه أجمعين «وبعد» فإنه لما رسم بالأوامر المطاعة العالية المولوية السلطانية الأعظمية الملكية الصالحية النجمية لا زالت نافذة فى المغارب والمشارق وأرزاقها شاملة لكافة الخلائق وبواترها ماضية فى قمم الأعداء والمفارق بوضع كتاب فى الأدوية المفردة نذكر فيه ماهياتها وقواها ومنافعها ومضارها وإصلاح ضررها والمقدار المستعمل من جرمها أو عصارتها أو طبيخها. والبدل منها عند عدمها قابل عبد عتباتها وغذى نعمتها هذه الأوامر العالية بالامتثال وسارع إلى الانتهاء إليها فى الحال ووضع هذا الكتاب مشتملا على ما رسم به وعرف بسببه، وأودع فيه من ذلك أغراضًا يتميز بها عما سواه ويفضل على غيره بما اشتمل عليه وحواه.

(الغرض الأول) بهذا الكتاب استيعاب القول فى الأدوية المفردة والأغذية المستعملة على الدوام والاستمرار عند الاحتياج إليها فى ليل كان أو نهار مضافًا إلى ذلك ذكر ما ينتفع به الناس من شعار ودثار، واستوعبت فيه جميع ما فى الخمس مقالات من كتاب الأفضل «ديسكوريديس» بنصه. وكذا فعلت أيضًا بجميع ما أورده الفاضل جالينوس فى الست مقالات من مفرداته بفصه، ثم ألحقت بقولهما من أقوال المحدثين فى الأدوية النباتية والمعدنية والحيوانية ما لم يذكراه ووصفت فيه

عن ثقات المحدثين وعلماء النباتيين ما لم يصفاه وأسندت فى جميع ذلك الأقوال إلى قائلها وعرفت طرق النقل فيها بذكر ناقلها واختصصت بما تم لى به الاستبداد وصح لى القول فيه ووضح عندى عليه الاعتماد.

(الغرض الثانى) صحة النقل فيما أذكره عن الأقدمين وأحرره عن المتأخرين فما صح عندى بالمشاهدة والنظر وثبت لدى بالخبر لا الخبر ادخرته كنزاً ثريًا وعددت نفسى عن الاستعانة بغيرى فيه سوى الله غنيًا، وما كان مخالفًا فى القوى والكيفية والمشاهدة الحسية فى المنفعة والماهية للصواب والتحقيق أو أن ناقله أو قائله عدلا فيه عن سواء الطريق نبذته ظهريًا وهجرته مليًا، وقلت لناقله أو قائله لقد جئت شيئًا فريًا. ولم أحاب فى ذلك قديمًا لسبقه ولا محدثًا اعتمد غيرى على صدقه.

(الغرض الثالث) ترك التكرار حسب الإمكان إلا فيما تمس الحاجة إليه لزيادة معنى وتبيان.

(الغرض الرابع) تقريب مأخذه بحسب ترتيبه على حروف المعجم مقفى ليسهل على الطالب ما طلب من غير مشقة ولا عناء ولا تعب.

(الغرض الخامس) التنبيه على كل دواء وقع فيه وهم أو غلط لمتقدم أو متأخر لاعتماد أكثرهم على الصحف والنقل، واعتمادى على التجربة والمشاهدة حسب ما ذكرت من قبل.

(الغرض السادس) فى أسماء الأدوية بسائر اللغات المتباينة فى السمات، مع أنى لم أذكر فيه ترجمة دواء إلا وفيه منفعة مذكورة أو تجربة مشهورة.

وذكرت كثيراً منها بما يعرف به فى الأماكن التى تنبت فيها الأدوية المسطورة كالألفاظ البربرية واللاطينية وهى أعجمية الأندلس إذ كانت مشهورة عندنا وجارية فى معظم كتبنا، وقيدت ما يجب تقييده منها بالضبط وبالشكل والنقط تقييداً يؤمن معه من التصحيف ويسلم قارئه من التبديل والتحريف إذ كان أكثر الوهم والغلط الداخل على الناظرين فى الصحف إنما هو من تصحيفهم لما يقرأونه أو سهو الوارقين فيما يكتبونه «وسميته» بالجامع لكونه جمع بين الدواء والغذاء واحتوى على الغرض

المقصود مع الإيجاز والاستقصاء، وهذا حين أبتدى وبالله أستعين وأهتدى فأقول . .

فهذه العبارة ليست ألفاظًا جوفاء أراد بها المؤلف التهويل والتضليل، فلدينا من الأدلة ما يثبت كيف كان هذا العالم دقيقًا ومفكراً عميقًا، فابن أبى أصيبعة زميل ابن النفيس فى دراسة الطب على الدخوار الذى كان تلميذاً أيضًا لابن البيطار، فقد ذكر أن أول مقابلة له معه كانت فى دمشق وفى عام ٦٣٣ هـ، ١٢٣٥ م وقد درس عليه ورافقه فى بعض رحلاته النباتية. وكانت عادته أن يذكر ما قاله «ديوسكوريديس» فى كتابه وفى لغة يونانية صحيحة كما درسها إبان مدة دراسته فى بلاد الروم (آسيا الصغرى). وابن البيطار يذكر «ديوسكوريديس» كلما أراد أن يعرض لوصف وخواص دواء من الأدوية، ومن ثم يتبع هذا الرأى بأقوال جالينوس. وفى النهاية يذكر آراء الأطباء المعاصرين سواء اتفقوا أم اختلفوا ثم يبين موضع الخطإ. ويذكر ابن أبى أصيبعة كذلك أنه كان عندما يعود إلى منزله فاحصًا ملاحظات ابن البيطار فى مختلف مراجعها يجده صادقًا عالمًا بكل شىء، وأغرب شىء فيه أنه اعتاد أن يذكر الفصل والمناسبة الخاصة سواء عند ديسكوريديس أو جالينوس أو الآخرين، وقد جاءت الأدوية العربية مساعدات أخرى عظيمة الفائدة جداً، وهذه المساعدات مدهشة من حيث الكثرة والاختراعات الحديثة وهى أصلا عبارة عن مخلفات أشياء ومواد أخرى لم تحقق غايتها العلمية.

إن العثور على حجر الحكمة الذى بواسطته يمكن تحويل المعادن غير الثمينة إلى ذهب، أعنى المادة المؤثرة أو «الإكسير» الذى يمنح الإنسان صحة جيدة وعمراً طويلا. فبلوغ هذه الغاية كان أمل الإنسانية وحلمها منذ عصور طويلة، وكانت تسعى جاهدة فى سبيل تحقيقه. فقد استولى على الإنسان العجب عندما حاول صهر المعادن وأدرك بالمشاهدة تحولها فبلوغ هذا الهدف لم تحققه مصر أو اليونان أو فارس أو العرب، كما عجز عن تحقيقه أيضًا الكيماويون الأوربيون.

لكن هذه الآمال التى اختلطت بعناصر روحية غير مرئية تناولها العرب وعالجوها بوسائلهم العلمية المنتظمة. وذلك لأن العقيدة الإسلامية والإيمان بالله

الواحد الأحد، الملك القوى، عدو لهذه الخرافات وتلك الخزعبلات التى تتعارض والإيمان بالله العلى العظيم. كذلك نجد إلى جانب الإسلام وتعاليمه عاملا آخر وهو الكيمياء، وقد تسربت بصورتها الصوفية وطرقها الإعجازية إلى الجماعات الساذجة أو المشعوذة المهرة وهم كما يقول ابن اللطيف ساخراً هناك ثلثمائة وسيلة لجعل الناس أغبياء، تحويل المعادن، وعزل المواد المؤثرة، وقد دفع هذا الوضع المسلمين المتعلمين إلى القيام ببحوث منتظمة وتحليل العناصر والتفرقة، والتعريف فى معاملهم للوصول إلى شىء لم يصل إليه أحد من قبل «التجربة الكيماوية».

فقد حاول اليونانى المفكر شرح وتعليل المعرفة عن طريق الفلسفة فباشر كيمياء نظرية وفلسفية طبيعية حيث نلاحظ هذه الحقيقة فى الهلّينية الشرقية العملية المدركة للتجارب التى جمعت ونظمت وهذا هو نشأة العلوم الطبيعية. أما العرب فهم أول من ابتدع طريقة الملاحظة والملاحظة الدقيقة المنتظمة وتحت شروط صناعية تتكرر فى كل وقت وتتغير وتراقب، وكان العرب هم سادة هذا الموقف. لقد خلق العرب الكيمياء التطبيقية التجريبية بمعناها العلمى المعروف لنا ومن ثم طوروها، كما يعترف بذلك المؤرخ الإنجليزى «كستوم Custom»، حتى بلغت مكانة عالية رفيعة دفعت إلى اكتشاف الكيمياء العضوية وغير العضوية العصرية، وذلك بغية الوصول بها إلى المكانة التى بلغتها على يد العزب.

فعوضًا عن تحقيق الأمنية القديمة الخاصة بالحصول على الذهب بلغ العرب بالكيمياء مرحلة أخرى مكنتهم بفضل التجارب العملية التى قاموا بها من تحقيق تراكيب كيماوية جديدة، كما توصلوا إلى طرق كيماوية حديثة. ففى أواخر القرن التاسع نجد الكيمياء العربية تأخذ فى الصعود فتبهر أنظار العالم بنورها الوضاء ولمعانها الباهر، وذلك بفضل شخصية عرفت باسم تنكرى. وهذا الشخص الذى ندين له بالشىء الكثير جداً يجب أن يكون سياسيًا من كبار زعماء وشيوخ الطائفة الإسماعيلية، هذه الطائفة المتحررة المسلمة المتطرفة، وقد عرف هذا العالم باسم «جابر» وكتب كسياسى كثيراً من المؤلفات السياسية متسترة بأثواب الفلسفة

والعلوم، وكان «جابر» هذا شخصية مستقلة استقلالا عجيبًا جبارًا حقًا «لقد كان عالمًا مشهورًا ولو أنه عربى». قال هذه العبارة رجل ممن اشتهروا بعداوتهم للعرب.

فعوضًا عن صهر المعادن التى كانت معروفة فى عصره اخترع «جابر» وسيلة أخرى للصهر والتحليل وذلك عن طريق حامض ملح البارود أو حامض الملح وخليط من حامض الملح وملح البارود، و«جابر» هو صاحب جميع هذه الأحماض ومحضرها. وهكذا استطاع «جابر» ومن جاءوا بعده الحصول على مركبات عديدة من بينها أوكسيد الزئبق والزنجفر، والزرنيخ، والنوشادر، ونترات الفضة، والشب، وأملاح النحاس، والقلى الكاوى، ماء القلى، وأخرى كثيرة. ويفرق العلماء بين الحامض والقلى كما لاحظوا زيادة وزن المعادن عند الأكسدة والكبرتة وأدركوا أولا أن النار تخمد عند انعدام الهواء. وإلى العرب يرجع الفضل فى خلق العمليات الكيماوية الأساسية مثل: التبخير والتبلور والكلسنة والترشيح والتقطير، حيث فرقوا بين التقطير المباشر، وذلك الذى ينتج عن طريق الرمل أو الماء.

وقد استخدم الكيماويون العرب فى عملياتهم هذه وتحاليلهم المنتجات الزجاجية العظيمة للعمال المصريين أو السوريين وبخاصة منتجات مصانع حلب حيث كانت مصنوعاتهم الزجاجية من أهم مواد التصدير العربية إلى الخارج وبخاصة سائر الأجهزة الكيماوية الزجاجية التى يحتاج إليها فى سبيل إجراء التجارب وأنابيب الاختبار التى لا يستغنى عنها معمل، وفى المدن السورية نجد الجهاز الذى اخترعه العرب للتقطير ألا وهو «الإنبيق» وكذلك «الأثال». وهذان اللفظان يطلقان حتى اليوم على جزأى جهاز التقطير أعنى العلوى والسفلى. وقد استخدم أبو القاسم عند التقطير جهازًا آخر، وهو عبارة عن فرن يشتعل فيه الوقود آليًا وكان يغلق الأوانى الزجاجية المتداخلة فى بعضها بعضا عن طريق لفها بقطعة من قماش الكتان.

وقد استخدم العرب الإنبيق لتنظيف الخل وعمل النبيذ والعرق من البلح عدا تطهير الماء غير النقى، وهكذا أصبح من الميسور تطهير الماء كيماويًا وإعداده للتجارة واستخدامه للدواء. وبهذه الطريقة كان الرازى أول ما استحضر هو حامض

الكبريتيك، ومن الوسائل الحامضة المحتوية على مواد نشوية أو سكرية استخرج الكحول (الكحل) ومعنى اللفظ الحرفى «الأكثر رقة». والكحل هو فى الأصل مسحوق الأنتيمون الناعم وكان يستخدمه الكحالون (أطباء العيون)؛ لذلك نجد طبيب العيون المشهور «على بن عيسى» يلقب بلقب الكحال. وكان العرب يقطِّرون مختلف أنواع الزيوت فى أوان فخارية مزججة.

ومن أكبر الأدلة التى تؤيد مدى نشاط العرب فى الحقل الكيماوى هذه الاصطلاحات الفنية التى لا تحصى والتى ما زالت إلى اليوم مستخدمة بالرغم من عروبتها، وقد وجدت طريقها إلى مختلف اللغات العالمية، ولا يقتصر استخدامها على الكيماوى فقط بل حتى ربات البيوت أيضًا. ومن هذه الألفاظ: كيميا، الكيميا، الإنبيق، الشب، العصارة، والحنظل، والعصارة القلى، الكحل، الأثال، الملغم، النيل، الإثمد، العرق، لازورد، بدوار بنزين، لبان جاوى، بازهر = بنزهير، بورق، ترياق، درياق، (مكان) الدرياق، إكسير قلى، قلقثار، لك، نطرون، رهج الغار، صداع، طلق.. ومما هو جدير بالذكر أن الكيماوى كان عند إجراء تجاربه قد تتبقى لديه بقايا تصلح للعلاج فكان الرازى أول من استخدم الكيمياء لخدمة الطب، وهذا ما لجأ إليه فيما بعد «باراسيلسوس».

لقد تنبه الرازى إلى أنه عن طريق تحسين وتشكيل المواد الأولية الطبيعية يحصل على أدوية جديدة لا توجد فى الطبيعة، وبذلك رفع من شأن الكيمياء الطبية وساوى بينها وبين الأدوية المستخرجة من النباتات. لكن قبل استخدامها كان الرازى يجرب هذه العقاقير الناتجة عن تركيبات صناعية وبطرق صناعية فى الحيوان. هكذا نجد التركيبات الزئبقية التى تطورت واستخدمت فى العلاج، كما استطاع عن طريق التجارب التى أجراها على الحيوان استكمال استخدام الأفيون والحشيش من الناحية العلاجية وبخاصة فى التخدير. ومن المواد العلاجية والأدوية التى أوجدها الرازى هذا الصنف الذى ما زال يحمل اسمه فى فرنسا ويعرف باسم «بلانك رازى Blanc Rhasis»، وقد تطورت هذه التسمية فى فم الشعب وأصبحت «بلانك ريزين blanc Raisin» أى العنب الأبيض.

ويدين الطب أيضًا للكيمياء العربية للوصول إلى عدد كبير جدًا من الأدوية مثل الشراب المستخرج من تقطير بعض الأعشاب والمن أو السكر. وهذا النوع من الأدوية يلعب دورًا خطيرًا فى شفاء كثير من الأمراض، وذلك لأن شراب الجلاب وهو هذا الشراب الحلو المرطب أكثر رقة عند طبخه وإعداده من الشراب العادى. كذلك الفواكه المقندة فى عسل أو سكر أو أجزاء أخرى من النباتات، لقد عرفتها أوربا عن طريق العرب فلفظ (قند هو لفظ عربى بمعنى سكر).

كذلك يطلق الرازى على نوع من أدوية علاج العيون «سيف» وهو يتعاطى فى شكل ملبس، وقد تمكن الرازى من تحويل شراب الرب وهو هذا العصير النباتى إلى حبوب، وذلك عن طريق طبخ العصير؛ وبذلك جعله سهل التناول فى الطريق وأثناء السفر.

وأدرك الرازى بعض المتاعب التى يقاسيها المرضى من جراء تجرع الدواء المعروف باسم «رب» فقد كان ردىء الطعم، لذلك لمّا حوله إلى حبوب كساه بطبقة حلوة من السكر أى جعله ملبسًا كما هو الحال اليوم. من هذا النوع المعروف فى أوربا باسم «دراجا Dragees» وإلى الرازى يرجع الفضل فى استخدام عصير الفواكه وطبخه وإضافة العسل أو السكر إليه ومواد أخرى، وصنع منه ملبسًا، وذلك بصب هذا الخليط بعد طبخه على رخام وتشكيله حسب المطلوب.

أما العادة السائدة اليوم والخاصة بتذهيب أو تفضيض الحبوب (البلوعات) فترجع فى الواقع إلى ابن سينا، وذلك لأنه كان يعتبر الذهب والفضة من المواد المنبهة للقلب أو الدورة الدموية، لذلك استخدم الذهب والفضة لكساء أو طلاء الحبوب التى تبلع.

وقد أظهر العرب براعة فائقة فى إعداد الأربطة واللبخ والمعاجين والمساحيق، هذا عدا علاج الالتهابات التى تحدث تحت الجلد أو الخراجات ومختلف أنواع الأمراض الجلدية وسائر الجروح ووقف الأوجاع ومنع تقيح الجروح حيث أوجد العرب المضادات الحيوية على أساس البنسلين والإسبرجيلوس وغيرهما من المواد

التى لم نعرفها إلا منذ عهد قريب، كذلك استخدام النبيذ وهو لا يقل فائدة عن غيره، والبن المطحون، وقد أحضر هذه الطريقة إلى أوربا كيماوى ألمانى وأطلق عليها «فحم البن». وقد ذكر أن العرب أنقذوا منذ ثلاثين عامًا حياته بالبن، ومن ثم استخدم البن فى ألمانيا فى شفاء الالتهابات المزمنة وقد جاء بنتائج عظيمة.

وقد حضر العرب أيضًا معاجين تجفف الجروح تمامًا مثلها مثل اللبخة أو الرباط اللاصق. ومن الواضح أن مثل هذا الدواء الذى يشفى مختلف الأمراض كان يحضر بنفس الطريقة التى تستخدم اليوم فى المعامل الحديثة، إن هذا الدواء فوق ما يتصوره الإنسان وهو يتطلب معرفة خاصة ونشاطًا خاصًا ومهارة خاصة من الشخص الذى يقوم بتحضيره.

وفرق العرب كذلك بين الذين يعدون الدواء وأولئك الذين يأمرون بإعداده، وبتعبير أدق لقد أوجد العرب الصيدلى ومهنة الصيدلة. فالصيدلى بدراسته والمسئولية التى يتحملها يمتاز على تاجر الأدوية العادى فى العصور الأولى، لذلك كانت منزلة الصيدلى منزلة عالية رفيعة.

وقد أسس العرب أول صيدلية عامة فى القرن الثامن الميلادى، وكان ذلك أيام حكم الخليفة المنصور، فكان كل مستشفى يحتوى على صيدلية كاملة شاملة، وكانت أخرى فى جنديسابور. وأوجد العرب أيضًا صيدليات محمولة ترافق المستشفيات المحمولة. وكانت الصيدليات وما إليها من مستشفيات محمولة عسكرية خاضعة منذ عهد الخليفة المأمون فى القرن التاسع الميلادى للرقابة الحكومية، وكما كان يوجد أيضًا نقيب للأطباء، كذلك الحال مع الصيادلة إذ كانت توجد فى كل مدينة نقابة للصيادلة لها نقيب، كان يختبره الصيادلة ويمنحهم الشهادات التى تخول لهم حق ممارسة المهنة، وقد كان ابن البيطار نقيبًا للصيادلة زمنًا طويلاً فى القاهرة وخلفه «الكوهين العطار»[1]، وهو مؤلف كتاب ما زال إلى اليوم مشهوراً موجودًا فى الشرق مستخدمًا فى الصيدلة.

---

(١) تعنى المؤلفة كتاب الدستور فى العلاج البرئى، ويعرف بالدستور البيمارستانى لأبى الفضل داود بن أبى نصر، أو البيان لكوهين العطار ا لمتوفى حوالى عام ٦٣٤ هـ.

وكانت الصيدليات خاضعة لتفتيش حكومى دقيق، فقد كان يراقبها موظفون من مصلحة الصحة، كما كانت تخضع فى نفس الوقت لرقابة التموين وهى الرقابة التى كانت تشرف أيضًا على الطحانين والخبازين وتجار البن ومحلات المواد الغذائية مطالبة بمراعاة النظافة: نظافة المحال والأوانى، وجودة البضاعة ودقة الموازين والمكاييل واللحوم فى المذابح الواقعة خارج المدن والجزارة تجنبًا لوقوع تسمم فى الأغذية أو انتشار وباء. وعند تحضير الأدوية يجب على الصيدلى أن ينفذ التعليمات المطلوبة بكل دقة، فهو مقيد بقوانين رسمية تتصل بالتحضير والمواصفات الطبية لأمثال: ماسويه وسابور بن سهل والعنترى وابن التلميذ وآخرين.

إن مراعاة القواعد الصحية والصحة العامة صورة مثالية احتذتها أوربا ففى الشرق نجد التعليمات الخاصة بتأسيس المستشفيات وتنظيمها والعناية بها خيرًا ألف مرة من مثيلاتها فى أوربا، والتى أمر البابا جماعة روح القدس بتشييدها. أما موضوع تنظيم جماعة الأطباء والصيادلة فقد وضع فى أيدى رجال يقظين حريصين مدركين لحاجة المرضى، كما أدركوا مباشرة الفوائد والمنافع الجليلة للتقدم العربى، ولم تحل العقائد الدينية دون إدراك هذا كما أن هذه العقائد لم تغلق عقولهم.

وحصل اللقاء فى صقلية التى خضعت لحكم العرب مدة لا تقل عن ٢٥٠ سنة، لذلك أدخل العرب إلى البلاد الأنظمة والقوانين واستقرت فى البلاد، ولما جاء الملك النورمانى روجر الثانى دعم وثبت ما وجده. ففى عام ١٤٠ أصدر قانونه الخاص باعتبار الأطباء، كما فعل من قبل الخليفة المقتدر فى بغداد لكيلا تتعرض حياة الرعية للخطر لجهل الأطباء أو قلة خبرتهم.

وفى عامى ١٢٣١ و١٢٤٠ قيل عن القيصر فريدريش الثانى بعد أن استقر له الأمر إنه يفهم كل داء وكل دواء، لذلك كان فى نشراته الطبية يرمى إلى إقرار جميع القوانين والأنظمة التى كانت سائدة بين الأطباء والصيادلة العرب المستوطنين فى مملكته فى صقلية.

وهذه المنشورات هى غالبًا تكرار لقوانين روجر الخاصة بامتحان الطبيب على يد مجلس من المدرسين فى سالرنو، ومبالغة فى جودة التحصيل زادت مدة الدراسة

وأصبحت ثمانية أعوام، كما أن السماح للطبيب بمزاولة مهنة الطب كان يمنح عن طريق مندوب للقيصر وفى حضوره الشخصى. وهنا أيضًا كما هو الحال فى الدولة العربية نجد الحرص على الفصل بين الطبيب والصيدلى، كما نجد عناية كبرى توجه للإشراف على الصيدليات، وتحضير الأدوية والتعاليم الخاصة التى تحتم وجوب اتباع كتاب صيدلة رسمى والعمل بما جاء به. فهذا الكتاب كان يستخدم كمرشد لإعداد الأدوية، ووجوده يؤيد قيام هيئة للصيادلة والصيدليات عامة، وهذا ما يفترض القانون وجوده.

وفى الجهات الأوربية الأخرى كانت مثل هذه التعليمات موضع الاستنكار والعجب، إذ إن الدولة وليست الكنيسة هى التى تولت الإشراف على الحالة الصحية العامة، كما أننا نجد القيصر هنا سلك مسلك الخليفة والسلطان فى الشرق وهو الذى يشعر كذلك بالمسئولية ووجوب النهوض بها للفائدة العامة من الناحية الصحية للرعية، وكان يدقق فى وجوب مراقبة السماح للأطباء بمزاولة المهنة ويشترط فى الطبيب الشرف والضمير والمهارة الكافية. ويجب أن يقسم الطبيب والصيدلى قسما أمامه، كما راقبت الحكومة الصيدليات، وفقدت الطائفة الدينية كل سلطان خاص، وكان هذا تحديًا صريحًا للكنيسة، كما أدرك هذا البابا جريجور التاسع ولم يسعه إلا أن يلتزم الصمت أمام القيصر وتحديه وبعض المساوئ التى يقترفها.

ثم أصبحت قوانين فريدريش الثانى هى الأساس الذى اعتمدت عليه القوانين الطبية فيما بعد، وهكذا نجد الخطوات الأولى تتخذ فى أوربا، وفى العصور الوسطى المظلمة فى سبيل الدخول فى عصر جديد، وبفضل هذه القوانين وتلك الخطوات فقط نستطيع أن نقول إننا الآن حديثون متقدمون، كما أن الواقع أن القنطرة التى عبرتها أوربا لبلوغ هذه المرحلة شيدها العرب فى القرنين الثامن والتاسع الميلاديين.

فتأسيس الصيدليات عامة وافتتاحها وإيجاد جماعة الصيادلة ومهنة الصيدلة بالمعنى العربى والمعنى الحديث فى هذا المعنى العربى ظل فترة ما قائمًا فى شمال

الألب. ففى الوثائق القديمة نجد لفظ «أبوتيكا Apotheca» يستخدم للدلالة على حانوت العطارة، وفيما بعد استخدمت هذه الكلمة للتعبير عن الصيدليات فى معناها الحديث.

وتحدثنا المصادر العربية أيضًا أن فكرة تركيب الدواء اعتمدت قبل كل شيء على مجموعة الوصفات الرسمية، وهى المعروفة باسم «فرما كوبين pharmakopin»، وهى التى يتحتم على الصيدلى مراعاتها والعمل بها وقد ظلت متبعة حتى القرن السابع عشر إذ كان الصيدلى يجهز الدواء حسب هذه المجموعة. وعن طريق التجارة وبخاصة مع البندقية انتقلت العقاقير والأدوية العربية إلى أوربا.

وساعد على نشر الصيدلة فى أوربا قرب صقلية العربية من أوربا أولا وترجمة قسطنطين الإفريقى للكثير من كتب الطب العربية ثانيًا، ولم يقف أثر هذه النهضة على صقلية وجنوب إيطاليا بل بلغ وادى الرين كما هو ثابت من مؤلفات «هيلدجارد فون رينجن Hidldegard von Ringen»، وبعد وفاة قسطنطين بزمن قصير نجد عميد مدرسة سالرنو وهو «نيكولوس بريبوزيتوس Nicolaus praepos-itus» يضع كتابًا فى المواصفات العلاجية على غرار الكتب العربية، وظل هذا الكتاب مستعملا لأجيال كثيرة من الصيادلة الذين ظهروا فيما بعد كما أصبح مثل كتاب «سركا إنستنس Circa instans» الذى كان يستخدم كثيراً، وهو يشتمل على المواد المضادة لعالم آخر من علماء سالرنو. ولم يقف الأثر العربى عند هذا الطريق بل شق طريقه إلى أوربا أيضًا عن طريق بيزنطة، وذلك بفضل مؤلفات (شمعون زيت Simeon Seths» و«نيكولاوس ميريبسوس Nikolaos Myrepsos» التى كانت متأثرة تأثيراً قويًا بالمؤلفات العربية. وقد رحلت هذه الكتب البيزنطية إلى دور كتب الصيدلة فى أوربا، ومن هذا الطريق أيضًا أثرت الثقافة العربية فى الصيدلة. ومن الجدير بالذكر أن الثقافة العربية فى ذلك العصر كانت قد بلغت شهرة عظيمة جدًا فى أوربا حتى إن الأطباء فى شمال إيطاليا إذا ما أرادوا رفع قيمة مؤلفاتهم نسبوها إلى العربى ماسويه الصغير من بغداد وأنه هو مؤلفها وهو فيما يقال تلميذ ابن سينا الشهير العظيم فنسبوا كتابهم الخاص بالمضادات إلى المؤلف الذى صاغوا

اسمه صياغة لاتينية ألا وهو «جرابادين ماسويه الصغير Grabadin Mesues des jungeren»، وهكذا ضمنوا الشهرة لكتابهم، وهذا دليل من الأدلة الكثيرة على محاولة تقليد الاستفادة من الصيدلة العربية.

ثم نجد العلوم العربية تخطو خطوات واسعة تكاد تكون خيالية، والفضل فى ذلك يرجع إلى كيماوى مجهول عاش فى القرن الثالث عشر، ومن إنتاجه العلمى نتبين إلمامه التام بجميع المراجع العربية. وقد اشتهر هذا الكيماوى العربى باسم «أبقراط الكيميا» وهو «جابر» وفى اللاتينية «جيبر Geber»، وقد فطنت إلى مكانته العلمية سائر الهيئات حتى الأوربية منها وصار اسمه فى العربية ضمانًا علميًا رفيعًا لكل بحث من البحوث، وأن البحث بعيد عن التهويش والسفسطة.

لكن شهرة كل من الرازى وابن سينا الشعبية العامة كان يجب استغلالها ليحظى بالوصول إلى الهيئات العلمية العليا ومختلف الدوائر العلمية العربية التى كانت تقدس الرازى وابن سينا. فالمعروف أن ابن سينا كان خصمًا عنيدًا للكيمياء، والذى حدث أن أية محاولة لكسب أصدقاء وأنصار للمؤلفات الكيمائية التى تحمل اسمه كانت محاولة رابحة.

ولعل أول كتاب فى الصيدلة بالمعنى الحديث هو ذلك الذى صدر لمؤلف تسمى باسم عربى، وهو طبيب إيطالى كان يدرس الصيدلة فى القرن الخامس عشر فى مدرسة سالرنو، فقد تسمى هذا الإيطالى باسم «صلاح الدين» وكان يحترم ويقدر أولئك الذين كانوا يشجعون العلم والعلماء والذين كان هو فى خدمتهم، فاقترح الاستفادة من تلك الكتب التى لا يستغنى عن اقتنائها صيدلى، وكان ثلثا عدد هذه الكتب التى يجب أن تتكون منها المكتبة الصيدلية عربيًا.

ولا عجب فى هذا فالخمسة المشهورون فى العلوم الطبيعية فى أوربا فى العصور الوسطى كانوا يقومون على أكتاف العرب. وهؤلاء الخمسة هم الفرنسى «فنسنت ده بوفيه Vincent de Beauvais» وقد توفى عام ١٢٦٤، والأسبانيان «ريموندوس للوس Raimundus Lulls» (١٢٣٢ - ١٣١٦)، و«أرنلد» أحد أبناء «فيلا نويفا» (١٢٣٥ - ١٣١٢)، ثم الجراف الألمانى «ألبرت فون بولشتيدت Albert von

«Bollstddt» (١١٩٣ ـ ١٢٨٠)، وهو يسمى «ألبرتوس مجنوس Albertus Magnus»، والإنجليزى «روجير بيكون Roger Bacon» (١٢١٤ ـ ١٢٩٢) وكانوا جميعهم يدرسون فى باريس مؤلفات كبار العلماء العرب.

وقد أقبل جميعهم على دراسة الكيمياء، وقد أعمتهم فكرة البحث عن حجر الحكمة الذى يحول المعادن ذهبًا، وكذلك أثره فى إطالة العمر. وكان العرب هم المرجع الوحيد لهؤلاء الباحثين عن حجر الحكمة، وكان هذا بدهيًا، لذلك كان هؤلاء الكيمائيون فى حالة تصوف ويقظة مثل «ريمون ليل» أو «ألبرت» الذى كان يتظاهر بالسعى وراء العلم والحقيقة العلمية فقط. ولم يهتد أولئك العلماء إلى نتائج جديدة أو مستقلة، وقد انتهت جميع محاولاتهم إلى تأييد ما توصل إليه العلماء العرب، وكان الأوربيون عبارة عن مترجمين فقط.

اثنان من بين هؤلاء العلماء حرصا على الاستقلال العلمى وحرية البحث، وهذان الاثنان نظرًا إلى الصيدلة العربية والكيمياء العربية على أنهما مادة حية وهذه المادة يجب أن تخضع للبحث والتجارب، وبذلك فقط يستطاع إنقاذ الصيدلة والكيمياء والعلوم العربية من الضياع. فهذان العالمان المتحرران اللذان سارا فى نفس الطريق الذى سبقهما إليه الرازى، هما «روجير بيكون» و«أرنلد» المنتسب إلى مدينة «فيلانويفا». لكن من الناحية العلمية لم يتفوق «بيكون» على زملائه المعاصرين ففكرة التجربة أخذها عن العرب لكن أخذها نظريًا أكثر منها عمليًا، وهذا هو المرشد الذى هدى اللاحقين من العلماء إلى الاتجاه إلى الكيمياء التجريبية.

لذلك كان كل من «روجير بيكون» و«أرنلد» فى عصرهما كالنجمين الساطعين اللذين خرجا من العصور الوسطى المظلمة إلى النور، فهنا نجد هذه الروح التى انبعثت من حكمة الوزير العربى الطبيب الشاعر ابن الخطيب الغرناطى حيث قال فى صدد الحديث عن العلم: «ثم المسائل المنقولة عن العلماء الجلة، والتدرب فى طرق النظر وتصحيح الأدلة، وهذه هى الغاية القصوى فى الملة..».

إن الأثر المباشر للعرب على أوربا فى الصيدلة ظل طيلة عصرى الإنسانية والنهضة، بل ظل تأثيره قائمًا حتى القرن التاسع عشر. ففى عام ١٧٥٨ أعيد نشر

أجزاء من مفردات ابن البيطار . وفى عام ١٨٣٠ استخدمت مراجع عربية كمصادر أساسية للصيدلة والوصفات العلاجية الأوربية . وفى عام ١٨٣٢ أعيد نشر كتاب عربى فارسى يرجع إلى القرن الثانى عشر وقد جمع هذه المخطوطة الأرمنى «مخيثار Mechithar» .

ثم تنقطع الصلة الأدبية .

لكن حتى اليوم فكل مستشفى بنظامه وكل معمل كيمائى وكل صيدلية وكل مخزن أدوية إنما هو نصب تذكارى للعبقرية العربية . وكل حبة مسكرة أو مفضضة إنما هى تذكار صغير مرئى من الطبيبين العربيين العظيمين وأستاذى أوربا ألا وهما الرازى وابن سينا .

الكتاب الخامس

سيوف العقل

المعجزة العربية

العام ألف . . .

والآن ينشر تاجر الكتب البغدادى ابن النديم فهرسه الذى يقع فى عشرة مجلدات تشتمل على أسماء جميع الكتب التى ظهرت حتى ذلك الحين فى اللغة العربية، سواء فى الفلسفة أو الفلك أو الرياضيات أو الطبيعة أو الكيمياء والطب .

وكذلك نجد طلاب العلم من الشرق والغرب بل من أوربا يقصدون المدارس العليا بقرطبة التى ذاع صيتها فى العالم قاطبة وفيها المكتبة التى تضم نحو خمسمائة ألف كتاب لأحسن علماء العصر، وقد جمعها الخليفة الحكم الثانى قبل وفاته بنحو أربع وعشرين سنة، وذلك عن طريق التجار والرسل الذين أوفدهم إلى مختلف الحواضر العربية لاقتنائها، ومما هو جدير بالذكر أن الخليفة قد علق على هوامش الكثير من هذه الكتب .

وفى القاهرة نجد مئات من أمناء دارى الكتب التابعتين للخليفة، وبهما نحو ألف ألف ومئتا مجلد، أعنى بهما عشرون مثلا مما كان فى مكتبة الإسكندرية .

«والحقيقة التى يمكن الجهر بها أنه لم يوجد فى روما شخص له مثل هذه الثقافة التى تمكنه من أن يقف حارسًا، فكيف يستطيع أن يعلم ذلك الشخص الذى لم يتعلم هو نفسه»، هكذا شكا هذا الرجل الخبير ألا وهو «جربرت فون أوريلاك Gerbert von Aurillac»، وهو الذى جلس عام ٩٩٩ م على كرسى روما، على كرسى القديس بطرس .

فى ذلك العام ألف أبو القاسم كتابه الخالد فى الجراحة، هذا الكتاب الذى ظل قرونًا عديدة أهم مرجع بل المرجع الوحيد فى هذا الفن، كما عالج البيرونى ـ أرسطو العرب ـ دوران الأرض حول الشمس، واكتشف ابن الهيثم قوانين الإبصار كما أجرى تجاربه على آلة تصوير مظلمة مستخدمًا مرايا وعدسات مخروطية وأسطوانية وكروية. فى ذلك العام وهو عام التحول فى العالم العربى إذ آذنت شمسه بأفول كانت أوربا ترتجف خائفة هلعة تخشى وقوع نهاية العالم فكانت تصرخ مولولة:

«الآن سيأتى المسيح وينظم الكون بقوة النار» وحج القيصر الشاب «أوتو» الثالث وهو ابن عشرين عامًا تكفيرًا عن خطاياه التى اقترفها واستجابة لأوامر القديس «رومولادوس»، وكان القيصر فى حجه عارى القدمين، وقد قطع المسافة بين روما وجبل «جرجانوس».

وفى نفس العام كان الشاب ابن سينا قد بلغ العشرين من عمره، وقد أخذت شهرته تغزو العالم.

إن هذه الطفرة العلمية الجبارة التى نهض بها أبناء الصحراء ومن العدم من أعجب النهضات العلمية الحقيقية فى تاريخ العقل البشرى. فسيادة أبناء الصحراء التى فرضوها على الشعوب ذات الثقافات القديمة وحيدة فى نوعها، وإن الإنسان ليقف حائرًا أمام هذه المعجزة العقلية الجبارة، هذه المعجزة العربية التى لا نظير لها والتى يحار الإنسان فى تعليلها وتكييفها.

إذ كيف كان من المستطاع أن شعبًا لم يسبق له أن يلعب دورًا سياسيًا أو ثقافيًا من قبل يظهر بغتة إلى الوجود ويسمع العالم صوته ويملى عليه إرادته ويفرض عليه تعاليمه، وفى زمن قصير أصبح ندًا لليونان. إن هذه المنزلة التى بلغها العرب أبناء الصحراء لم تبلغها شعوب أخرى كانت أحسن حالا وأرفع مكانة.

إن بيزنطة الوريثة الغنية لا للشرق القديم فحسب بل للثقافة اليونانية أيضًا لم تنتج شيئًا وظلت حتى اليوم عاقرًا. والسريان وهم تلاميذ اليونان الحقيقيون وصلتهم الثقافة اليونانية كما وصلت العرب، فترجم السريان كثيرًا من المؤلفات اليونانية إلى

لغتهم السريانية إلا أن السريان لم ينهضوا بما ترجموا ، ولم تتفتق هذه الترجمات وتلك العلوم عندهم عن حركة علمية أو نهضة ثقافية عالمية .

كما أن هذه النهضة العلمية لم تنبعث أيضًا فى إيران التى كانت ملتقى الثقافات الصينية والهندية واليونانية ، فقد استقبلت إيران كل هذه الثقافات ولم تطورها بالرغم من أن بيئتها الطبيعية وحالتها الاقتصادية ومستواها الثقافى تساعد على هذا التطور . لكن الملاحظ أن العقلية الإيرانية لم تنتج ولم تتطور ولم تنهض إلا عندما وجدت فى بيئة أخرى وخضعت لمؤثرات ثقافية خاصة .

ليست بيزنطة وليست بلاد السريان وليست إيران التى كانت القنطرة التى تصل بين الثقافتين الشرقية والغربية ـ ليست جميع هذه البلاد هى التى ظهرت على المسرح الثقافى العالمى كحاملة لمشعل الثقافة القديمة ومكملة لها . أما الشعب الذى خلف الثقافة القديمة وحمل لواء النهضة العلمية الفكرية فى العالم فهو شعب صحراوى خرج من الصحراء وبسرعة البرق قبض على صولجان السيادة الثقافية فى العالم ، وظل أبناء الصحراء حاملين لهذا الصولجان دون منازع مدة لا تقل عن ثمانية قرون ، كما أن هذه الثقافة العربية قد تفتقت وازدهرت وأينعت أكثر من الثقافة اليونانية ، كما كان العرب أخصب وأقوى من اليونانيين .

فما هى خصائص العرب التى أهلتهم إلى هذا؟ ما هى صفاتهم وما هى مميزاتهم التاريخية والاجتماعية والعقلية والنفسية التى تجمعت معًا فجاءت العالم بالمعجزة العربية؟

وشن العرب حربًا خاطفة ساقت العالم فى زمن قصير إليهم أسيرًا كسيرًا . والعرب هم آخر موجة من موجات هجرات الشعوب التى حدثت فى فترات متفاوتة منذ أبعد الأجيال والعصور متخطية حدود الصحراء إلى الأراضى الخصيبة ، فكسر سد مأرب عام ٥٤٢ وضياع وسائل الرى فى بلاد العرب الجنوبية دفع القبائل إلى الرحيل وساعدهم على ذلك موقعهم بين شقى الرحى وتعرضهم للحروب الطاحنة التى كثيرًا ما شنت فى بلادهم بين فارس وبيزنطة فاضطرت هذه الحروب القبائل العربية إلى الهجرة وترك القارة .

وقد صور بعض المؤرخين المغرضين هذه القبائل على أنها عصابات من اللصوص وقطاع الطرق، لكن الحقيقة غير هذا وما دفع هؤلاء المؤرخين إلى هذا الافتراء إلا الاختلاف العقائدى.

ولم يمض على هذه القبائل المتخاصمة المتحاربة زمن طويل حتى أصبحت وحدة قوية نجحت فى تكوين أمة يخشى بأسها، وذلك بفضل الدين الإسلامى الحنيف الذى أشعل فى نفوسهم الحماس والشعور بالأخوة بعد أن سادت بينهم الفرقة والحزازات القبلية زمنًا طويلاً؛ أما الإسلام فقد آخى بين معتنقيه وخلق منهم الأخوة الإسلامية التى رجعت بتاريخهم إلى عصور بعيدة، هذا إلى جانب الدعوة الإسلامية الخلقية والفرائض الدينية القوية التى آخت بين المسلمين وجمعت شملهم ووحدت صفوفهم؛ مما دفع المسلمين إلى التفانى والاستشهاد فى سبيل نصرة هذه العقيدة والذود عنها، فقد وعدت هذه العقيدة الجديدة المتقين بالجنة، فهذه القوة الخلقية الفتية إلى جانب القيادة الحكيمة القوية وهؤلاء الصحابة الذين اصطفاهم الرسول ﷺ كونوا النواة الصالحة لحكومة مركزية حكيمة رشيدة مسئولة عن الكيان الجديد للأمة العربية الإسلامية، وكان الجيش الإسلامى بالرغم من نقص عتاده مظفرًا فى حروبه وفتوحاته فأحرز النصر تلو النصر.

ولما انتقل رسول الله ﷺ عام ٦٣٢ م إلى الرفيق الأعلى كانت بلاد العرب وحدة سياسية. ففى عام ٦٣٥ م تشتت شمل جيش بيزنطة، وبعد ذلك بعامين أعنى سنة ٦٣٧ سقطت مصر. ولما اختار الله عمر بن الخطاب إلى جواره حلت فترة ركود، لكن فى أواخر القرن السابع الميلادى كانت السيادة العربية قد بلغت شمال إفريقيا وامتدت حتى المحيط الأطلسى، وفى عام ٧١١ م بينما كان العلم الإسلامى ينتشر شرقًا مرفرفًا حتى الهند، انقض المحاربون المسلمون على دولة الغوط الغربية فى إسبانيا واستولوا عليها بالرغم من قلة عدد المسلمين وعددهم بالنسبة لأعدائهم. وعاون على ذلك عدم الإخلاص لروذريق وبغض رجال الدين له لاستبداده، وهكذا فتحت الأبواب للمسلمين وبدون معركة هامة استولى المسلمون عام ٧٢٠ على «ناربون» وعام ٧٢٥ على «كركاسون» و«نيمس»، واستمر المسلمون فى زحفهم وتغلغلهم فى اتجاه نهر الرون حتى بوردو.

وفى عام ٧٣٢ فقط استطاع «كارل مارتيل» أن يقف أمام هذه الجحافل المتدفقة ودارت عند «تور» و«بواتييه» معركة، وأثناء الليل عاد المسلمون أدراجهم ومعهم جثة قائدهم عبد الرحمن الذى سقط قتيلا وتحصنوا عند «ناربون» حتى اضطر «كارل مارتيل» بعد اثنى عشر عامًا أن يشتبك مع المسلمين عند «أفينيوس» و«نيميس» دون أن ينجح فى إجلائهم عن دولته، وذلك لأنه كان فى إقليم «بروفينس» وغرب الألب وإقليم أكويتانيا، أى فى البلاد التى نجد فيها فيما بعد حقلا خصيبًا للثقافة العربية ولمدة قرن من الزمان. وحتى فى منتصف القرن العاشر نجد المسلمين يستجيبون لنداء الملك هوجر ملك اللومبارد، ويتقدمون فى البلاد فيلغون «أنجادين» حيث نجد «بونتر يزينا» و«بونس ساراسينا pons saracena»، أى قنطرة المسلمين التى ما زالت إلى اليوم قائمة تحمل ذكرى أولئك الأجانب العظام.

ثم نجد العرب يتغلغلون فى إيطاليا ولمدة قرنين وبقوة ونجاح، وقد بدا وكأن روما الأم لا بد أن تشاطر أسبانيا الهزيمة والضياع، فمن صقلية اندفع العرب حتى استولوا على إقليم «أبوليا» و«كالبريا» واستطاعوا تهديد روما والبندقية المنيعة، وكان هذا الزحف العربى استجابة لرغبة نابولى و«الجراف فون بنيفينت».

وقد ظل العرب حتى عام ٩١٥ يتناوبون السيادة على جنوب إيطاليا وجميع الجزر الواقعة فى غرب البحر الأبيض المتوسط، هذا البحر الذى أصبح بحرًا عربيًا اللهم إلا الجزء الشرقى الذى كان خاضعًا لبيزنطة. نعم لقد ظل جذع الدولة الرومانية الشرقية قائمًا إلا أن أهم أغصانها أعنى مصر وسوريا قد قلمت. . إن بيزنطة أصبحت رجلا مريضًا لا يقوى على الحركة.

لكن هذه الفتوحات العربية كانت غريبة فى نوعها حقًا، وإذا ما استثنينا الملك الفارسى «كيروش»، فالفتوحات الإسلامية كانت فتوحات لم يقصد المنتصرون من ورائها القيام بأعمال النهب والسلب أو العنف والتخريب وكل ما يذكر عن تعصبهم الأعمى أو قسوة قلوبهم وخشونة طباعهم وبربرية أعمالهم كذب وافتراء وهو يدخل فى باب الأساطير التى تؤلف لإلقاء الرعب فى نفوس الناس، وأنها دعاية من صنع أعداء العرب وخصومهم. ولا أدل على بطلان هذه الشائعات وتلك

الأضاليل من هذه الصفات التى اتصف بها العرب الفاتحون من إنسانية رفيعة وتسامح تضرب به الأمثال، فهذه الإنسانية وذلك التسامح أثبتا للمهزومين كذب هذه الدعاية المغرضة وسوء نوايا مروجيها ضد العرب.

كم هذه الشعوب التى عرفها التاريخ وقفت من المغلوبين المهزومين الذين يدينون بدين أو أكثر يخالف دين المنتصرين موقف العرب المتسم بالإنسانية والتسامح؟ وإذا أضفنا إلى هذا الموقف الكريم الذى وقفه العرب والإسلام من الشعوب التى انضوت تحت رايتهم هذه المثابرة على نشر الثقافة العربية الإسلامية وهى ثقافة تختلف فى جوهرها عن هذا الطلاء الهلّينى أو القشور الرومانية ازددنا تقديراً وإعجابًا بالعرب. نعم إن الدولة العربية الفسيحة المترامية الأطراف قد تفككت إلى دويلات لكن حتى هذا التفكك كان إعجازًا عربيًا أيضًا. فكل دويلة من هذه الدول قد نمت حيث قامت رغمًا من اختلاف التربة والبيئة والشعب أو الشعوب من حيث التاريخ والثقافة والعقيدة، كما هو الحال مثلا فى إسبانيا ومصر والعراق، فقد نجح العرب فى خلق ثقافة متحدة قوية الأواصر وثيقة الوشائج.

إن الشعوب صاحبة الثقافات القديمة قد هرمت وتجمدت مياه الحياة فى شرايينها حتى أصبح من الضرورى فناؤها. ففى القرنين الثالث والرابع الميلاديين أخذت تلفظ أنفاسها الأخيرة وتتلاشى من على مسرح الحياة تدريجيًا، وإذا أضفنا إلى جميع هذه العوامل موقف الكهنوت المسيحى من الحكمة اليونانية وإصرار هذه المسيحية على القضاء عليها وإعدامها، أدركنا الوضع الذى كانت عليه تلك البلاد أولا ومدى الخطر المحدق بالتراث اليونانى القديم ثانيًا والموت المحقق لهذه العلوم ثالثًا، ولكنى كأننى بالعناية الإلهية قد أرادت لهذا التراث الإنسانى الحياة فبعثت أبناء الصحراء وقد عمرت قلوبهم بإيمان الإسلام ودعوته الجديدة فسارعوا إلى تلك الحضارات العقلية فأنقذوها مما يتهددها وبعثوها بعثًا جديداً فتيًا، ولولا هذا الفتح الجديد لظلت الثقافة القديمة دفينة ميتة يخيم عليها سكون القبر ووحشته إلى حين.

أوربا تائهة فى دياجير الظلام

لقد قضى على الثقافة اليونانية واختفت منذ عهد «حنيبعل = هنيبال» إلا أن قيام الإمبراطورية ساعد على المحافظة على بقائها شكلا وإن كانت الثقافة الهلّينية بدت فى هذه الدولة التى آذنت بزوال وكأنها ثوب فضفاض لا يلائمها، فنجد التنافر والتشاحن بين هذه الثقافة وبين مختلف الأجهزة القائمة، ثم جاء الغزو الألمانى فلم يقض إلا على ما يتصل بالأخلاق وكان آيلا للسقوط حقًا. ثم إن الطبقات الراقية العالية أصبحت لا تشعر بحاجة إلى العلم والثروة العلمية. كما أن الهدف الجديد الذى طمعت المسيحية فى تلقينه للفكر البشرى وتحقيقه قضى على القيم العلمية والثقافية ومختلف أنواع البحوث، ولو أنها جميعها لم تجد فى روما موئلا حقيقيًا لها، لذلك انهارت الطبقات المثقفة وتلاشت العلوم والمعارف. كذلك أصبحت ثقافات البحر الأبيض المتوسط مهددة بضربة قاصمة ومصير لا يختلف عن مصير حضارات ألانكا والمايا، ما لم تجد الشعوب الموهوبة القدرة الكافية على الخلق والإنشاء فتبعث هذه الثقافات بعثًا جديدًا.

وقبل العرب بقرنين سنحت لأوربا الفرصة للبناء على أنقاض هذه الثقافات البائدة، وبالرغم من ذلك ذهبت عشرة قرون حتى استطاعت أوربا التخلص من قائمة الشعوب المتخلفة وبلوغ مرحلة التحرر فى الخلق والإنشاء بالرغم من أنها بدأت بخطوات تبعث على الأمل.

فللمرة الأولى إبان الثلاثة والثلاثين عامًا التى حكم فيها ثيودريش الأكبر الذى اتصف بالعدل والحكمة تطورت المسائل التى كانت مهددة بالزوال إلى النجاح

والتقدم، فبغتة ارتفعت أسهم القيم الإنسانية والقيم الثقافية وعادت الكرامة إلى العلماء وشجعتهم الدولة وحنت عليهم، فمدارس القصر الإمبراطورى التى قد عفى عليها الزمن عادت إليها الحياة ثانية وكبرت واتسعت. ففى المحاضرات العامة كانت تدرس كتب أبقراط وجالينوس، كما ظهر أطباء من الغوط المتعلمين ومارسوا دراسة الطبيعة والفلك. واستمرت هذه النهضة العلمية حتى بعد وفاة الملك. «إن إنفاق المال على العلماء أجدى من إنفاقه على الممثلين» ـ هذه هى العبارة التى قررها حفيد الملك المسمى «أثا لاريش Athalarich» عندما أظهر استعداده لتشجيع العلم والعلماء، فقد كان هناك عصر نقاهة ونمو يبشر بمستقبل مزدهر، لكن الذى حدث أن هذه الزهرة قطفت وما زالت برعومة، ومن عجائب القدر أن الذين قطفوها كانوا رجالاً يونانيين أرسلتهم بيزنطة للقيام بهذه المهمة المشينة. قطفت الزهرة ولم تخلف إلا نبتًا هزيلا استطاع أن يقاوم عوامل الفناء زمنًا، فقد تناوله رئيس الوزراء «كسيودور»، وقد كان مستشارًا للملك، ومن ثم سلم «كسيودو» النبت إلى جماعة البنديكت للعناية به فى الأديرة، فلم يجد النبت فى هذه الأرض الرطبة ما يساعده على النمو والازدهار.

إن العصر الذهبى للملك «ثيوديريش» كان بصيص النور والأمل الذى خلف قرونًا عديدة من البؤس والشقاء، ولم يكن هو الوحيد. فالفندال إلى جانب الرومان اهتموا أيضًا بالدراسة فى مدارس الخطابة والنحو، فالجراف الفندالى «سيجستويس» كان نصيرًا للشعر والشعراء وذلك لأنه هو نفسه كان يقرض الشعر، وكذلك ملك الإفرنج «شيليريش» الذى ألف شعرًا فى اللغة اللاتينية كما قرأ فرجيل وشيشرون للملوك الكتاب ملوك الغوط الغربيين وهم «ومبا» و«سيسيبوت» و«شينديسوينث» و«شينتهيلا». وفى كل مكان نجد الجرمان قد بدأوا يقبلون على الثقافة الأدبيَة. وكان بين الغوط الغربيين، كما هو الحال عند الإفرنج، نفر من المثقفين فى مختلف الدوائر الحكومية والإدارية بل حتى فى الأوساط التجارية، وهؤلاء المثقفون كانوا يلمون بالكتابة والقراءة والحساب وبعض المواضيع الفانونية. كذلك جاءنا أنه ظهرت حركات تقدمية علمية أيام حكم اللومبارديين الذين كانوا فيما بعد أول من تخلص من ضغط رجال الدين وساهموا فى الأدوار الأولى لظهور الحركة الأدبية بنصيب وافر.

ففى كل جزء من أجزاء الإمبراطورية الرومانية كان يحاول الأمراء الجرمان وفى مقدمتهم «ثيودريش» بعث الروح الوثنية القديمة وإعادتها إلى الحياة، وقد حذا حذوهم فيما بعد الخلفاء العرب حفظًا على نقاوة الجنس العربى. لكن الإمبراطورية الرومانية تحولت إلى إمبراطورية مسيحية، فقد أعلن أوجسطين تعيين الرئيس المطلق للقوة الروحية، كما أرسلت روما الكهنوتية توجيهات إلى مختلف الجهات التى سبق لها أن أوفدت مبشريها. ففى بلاد الغال وبريطانيا أخذت الثقافة الهلّينية تختفى بمجرد وصول رسل روما، وتوارت مع الثقافة الهلّينية اللغة اليونانية، وذهبت روما الكهنوتية بعيدًا فعملت جاهدة على القضاء على العناصر الثقافية الهلّينية القديمة وحتى تلك التى تأصلت فيها من قبل. فالقديس «هيرونيموس» اعتبر مجرد التفكير اليونانى لعنة حلت بالإنسانية، كما ترجم الكتاب المقدس إلى اللاتينية ليقضى على الفولجاتا وأمثال هوميروس وفرجيل ويطهر العقول من آثارهما، وهكذا نجد الثقافة المسيحية تتجه اتجاهًا خطيرًا معاديًا للثقافة الهلّينية ومقوضًا لها.

فالعقل البشرى ليس هو الذى يضىء السبيل أمام النفس البشرية بل الوحى الإلهى. وكانت العقيدة السائدة فى العالم المسيحى أن استخدام القوى العقلية ودراسة الظواهر الطبيعية ومعجزاتها عوضًا عن الانصراف إلى دراسة تعاليم الديانات السماوية مفسدة لهذه القوى العقلية، وذلك لأنه إذا كانت الفرصة مواتية لمعرفة الحقيقة عن طريق هذه الدراسات فلا بد أن توجد، «هكذا نادى المعلم الدينى «لكتنيوس Lacctantius» لكن لما كان هذا الاستعداد غير موجود فلن يجدى ضياع الزمان والمجهود فى سبيل الهداية وبلوغ الحكمة».

وكما أن الإنسان استغل أنقاض المبانى القديمة لتشييد الكنائس، كذلك الحال مع بقايا الفلسفة والعلوم القديمة، فقد استغلت لخدمة المسيحية وأهدافها، فإلى جانب الصراط المستقيم الذى يبلغ الروح الله وجد طريق ضلال، إذ من الممكن الوصول إلى الحقيقة من غير طريق الوحى، وذلك عن طريق أشياء موجودة فى الطبيعة، هكذا أعلن «ترتليان Tertullian»: «وليست رسالتنا هى البحث عن يسوع المسيح فهذا معناه حب الاستطلاع، وذلك لأن الأناجيل بشرت به».

ولن نجد هذه الظاهرة أكثر وضوحًا وجلاء من أعمدة الدخان ولهب النيران التى غطت الإسكندرية، هذه المدينة التى ظلت قرونًا عديدة ملجأ الثقافة اليونانية وقلعتها الحصينة فقد تحولت الآن إلى روما، المركز الرئيسى للكنيسة المسيحية. إن سماء الإسكندرية لم تعد هذه السماء الزرقاء الصافية بل عكست عليها لهب النيران المندلعة فى مراكزها العلمية الرئيسية التى كانت مركز الإشعاع فى دلتا النيل لونًا أحمر قانيًا، وذلك لأن دواوين الشعر اليونانى التى لا تعوض والتراث الأدبى والفلسفى وتاريخ العلوم الهلّينية تحولت بين عشية وضحاها إلى أكوام من الرماد بفعل المسيحيين المتعصبين الذين شفوا غليلهم وأرضوا شهواتهم فحرقوا وأبادوا ودمروا كل ما وصلت إليه أيديهم من تراث علمى يونانى اعتقادًا منهم أنه قد يتعارض والتعاليم المسيحية.

ففى عام ٤٨ ق. م. عندما حاصر يوليوس قيصر الإسكندرية التهمت ألسنة النيران جزءًا كبيرًا من المكتبة الشهيرة الكائنة فى «موسيون Museioon»، فما كان من كليوباترة إلا أنها عوضت هذه الخسارة ببعض الكتب التى كانت موجودة فى «برجامون pergamon». لكن فى القرن الثالث الميلادى نجد عمليات التخريب والإتلاف تواصل عملها دون انقطاع، فنجد بطريركًا مسيحيًا يغلق الموسيون ويطرد علماءه، وفى عهد القيصر «فالين Valen» تحولت عام ٣١٦ م جامعة «كيزار يوم Caesareum» إلى كنيسة، كما خربت مكتبتها وأحرقت محتوياتها واضطهد فلاسفتها بتهمة السحر والشعوذة. وفى عام ٣٩١ م حصل البطريرك «ثيوفيلوس» من القيصر «ثيودوسيوس» على إذن بتخريب أكبر مزار فى العالم القديم وهو آخر وأكبر أكاديمية علمية، أعنى «سرابيون Serapion»، كما حرق مكتبته القديمة، ولعمرى إنها أكبر كارثة أصابت الإنسانية إذ كانت أكبر ضربة وجهت إلى العلوم العقلية الإنسانية، وإن مصيبة العالم فيها لا تعوض فهى ولا شك مأساة المآسى.

ولم تقف أعمال التخريب والحرق والتدمير التى قام بها متعصبو المسيحية عند هذا، بل نجد حتى أشباه الأقوياء يهيمون باقتراف أعمال الاضطهاد والتعذيب ويتخذون من ذلك لا هواية فحسب بل وسيلة للتفانى فى المسيحية، فنحن نعلم أن

صديق البطريرك الأنطاكى وهو «سيفيروس Severus» يعترف دون خجل كيف أنه وصديقه كثيراً ما اقترفا، أيام شبابهما فى القرن الخامس الميلادى وفى الإسكندرية حيث كانا منضمين إلى هيئة مسيحية، كثيراً من الآثام والجرائم الخلقية ضد العلماء الوثنيين وضد دور عبادتهم، فقد كسرا أنصاب آلهتهم وخربا معابدهم، وهكذا نجد مراكز الثقافة الهلّينية يختفى الواحد بعد الآخر. ففى عام ٥٢٩ م أقفلت آخر مدرسة للفلسفة فى أثينا، وفى عام ٦٠٠ م احترقت فى روما المكتبة التى أسسها «أغسطس»، كما حرم تدريس أدبيات الأقدمين وعلومهم وبخاصة الرياضيات، وهدمت حتى بقايا المبانى القديمة. ولما تقدم العرب نحو الإسكندرية ودخلوها عام ٦٤٢ م لم تكن بها منذ زمن بعيد دور للكتب سواء كانت هذه الدور كبيرة أو صغيرة. والتهمة التى ألحقت بعد خمسة قرون بالقائد العربى عمرو بن العاص بأنه هو الذى أحرق مكتبة الإسكندرية الكبرى محض كذب وافتراء، وقد اخترعت هذه الفرية لتساق كمثل من أمثلة الأعمال البربرية والوحشية العربية، وقد ثبت اليوم بالأدلة التى لا تقبل شكًا أنها أكذوبة الأكاذيب.

فهذا الفاتح العربى، الذى فتحت له الإسكندرية أبوابها، قد جاء فى طريقه بكثير من الأعمال التى تدل على التسامح العربى الأصيل، فقد منع تخريب البلاد وتدميرها، كما سلك مسلكًا غريبًا حقًا على الشرقيين الأقدمين والمسيحيين. «لقد منح سكان البلاد الحرية الدينية فى هذا العهد الذى هو مثال عربى حى للعهود والمواثيق العربية التى تعنى بالسلام، فقد شملت تلك العهود جميع الرعايا المسيحيين والقسيسين والرهبان والراهبات. لقد منح الإسلام الشعوب المغلوبة الأمان والحماية حيثما دعت الحالة إلى ذلك، كما انصرف عهد الأمان هذا إلى كنائسهم ومساكنهم ومزاراتهم والذين يقصدونها مثل: الجيورجيين والأحباش واليعقوبيين والنساطرة وجميع الذين يؤمنون بالنبى عيسى فجميع هؤلاء يستحقون العناية، وذلك لأنه سبق للنبى محمد أن آمنهم بعهد عليه خاتمه، كما حذرنا من ألا نكون رحماء معهم ونؤمنهم على حياتهم وممتلكاتهم. إن هذه ليست وعوداً جوفاء».

شعار المنتصر

﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة: ٢٥٦) هكذا يقول القرآن الكريم. فلن يجول فى خاطر العرب أن يكرهوا الشعوب الخاضعة لهم على اعتناق الإسلام، فالمسيحيون والصابئون والبارس واليهود الذين عاشوا قبل الإسلام بمائة عام تحت حكم ملكهم يوسف ضربوا أقصى الأمثلة وأبشعها فيما يتعلق بموقفهم من أصحاب العقائد الأخرى وجميع هؤلاء قد منحهم الإسلام حق ممارسة عباداتهم.

لقد احتفضوا بدور عباداتهم وأديرتهم وأساقفتهم وربانيّيهم. هذا عجيب حقًا، إن مثل هذا لم يقع من قبل، من هو الإنسان الذى لا يستنشق نسيم الحرية بعد الحكم البيزنطى الجائر القاسى، وبعد هذه الاضطهادات الشنيعة التى جرت فى إسبانيا والاضطهادات المتواصلة التى قاسى اليهود الكثير من أهوالها؟ إن المسلمين السادة الجدد حماة البلاد وحكامها لم يتدخلوا فى مسائل رعاياهم الداخلية؛ إنهم عادلون. هكذا كتب بطريرك القدس فى القرن التاسع إلى بطريرك استنبول: والمسلمون لا يظلموننا أو يضطهدوننا. إنهم يمنحون مختلف أفراد رعاياهم من أصحاب العقائد الأخرى كل حرية فى تأدية فرائضهم الدينية أو حقوقهم المدنية متى دفعوا الجزية وأطاعوا أولى الأمر. فالمسلمون جاءوا ليحكموا لا ليبشروا لكى يخرجوهم من عقائدهم الأصيلة. إن المتنصرين قد شكوا من كثرة دخول غير المسلمين فى الإسلام وذلك بسبب الجزية ونقصانها، هذه الجزية التى كان يدفعها غير المسلمين فقط.

لكن هؤلاء أرادوا أن يتساووا بالمسلمين اقتصاديًا واجتماعيًا، لذلك سارعوا إلى

الدخول فى دين الله أفواجًا. وهكذا بدون استخدام قوة أو ضغط أخذ يختفى المسيحيون اختفاء الجليد فى الشمس، وفى العصور الإسلامية المتأخرة حيث كان المسلمون مزيجًا غريبًا من مختلف الشعوب أخذت تظهر بعض النعرات الدينية التعصبية. أما العرب الخلص فقد كانوا بعيدين عن الخوض فى مثل هذه الخصومات.

وهنا نجد التسامح الإسلامى العربى الذى هو مضرب الأمثال يتجلى لنا فى صورة تخالف كل المخالفة هذه الصورة التى يتجلى لنا فيها تعدد الآلهة عند الرومان المتأخرين الذين وجدوا مكانًا فى مجمع آلهتهم لكل إله مهما كان أصله ونوعه. إن صبر العربى واحتماله وموقفه النبيل من خصومه دينًا وعقيدة له أصوله وجذوره البعيدة التى تتجلى لنا فى الفتى العربى القديم. الفتى العربى الجاهلى. تضحية حتى الموت، تضحية لا تعرف حداً أو تردداً، وكانت هذه المعاملة الكريمة يتمتع بها الضيف كما يتمتع بها أقرب المقربين إليهم. فنحن نعلم أنه إذا ما أقبل الضيف الأجنبى والذى قد يكون عدواً للقبيلة فإنه سرعان ما تحتضنه القبيلة وكأنه عضو منها تسرى عليها عهودها ووعودها التى تكون القبيلة قد قطعتها على نفسها تعمل بمقتضاها وتحترم نصوصها، وقد يكون هذا الضيف ألد أعدائها.

ولما جاء الإسلام أعفى القبيلة من التزامتها لأفرادها وحل هو محلها، أعنى محل القبيلة، كذلك هذه المعاملة التى كان يلقاها الضيف من أفراد القبيلة لأسباب بدهية تولاها الآن الإسلام والجماعة الإسلامية، ومن ثم نجد الإسلام ينتهى إلى إنسانية لا حدود لها. لقد أصبحت الفتوة التى يعامل بها حتى الأعداء.

إن هذه الفتوة العربية قد تجاوبت مع الفروسية الجرمانية وأثرت فيها أثراً بعيداً فهؤلاء الوثنيون (!!) النبلاء «كان النبيل منهم يتجاوز عن النصر الذى يحرزه بحد السيف»، هذا النصر الذى جاهد فى سبيله، ويلقى السيف جانبًا ويقدم يده مصافحًا خصمه متجاوزاً عن العوائق القومية والدينية التى قد تكون قائمة، لذلك ليس بالعجيب أن نجد الفارس الجرمانى «فولفرام فون أشينباخ Wolfram von Es-chenbach» يشيد بفتوتنا العربية، ويقيم لها نصبًا عاليًا مخلداً به جوهرها وعرضها

فقال، أولا «الوثنى فيرفيز» هو الذى علم بطله «برسيفال» آخر مرحلة من مراحل الفتوة الحقيقية.

فهذه الإنسانية الصريحة وسماحة الفتوة والفروسية العربية فى مظهرها البسيط الرقيق قد نظرت إليها الشعوب المختلفة والديانات المتعددة نظرة إعجاب وتقدير، لذلك سرعان ما أخذت تنتشر انتشار النار فى الهشيم. فالفرق المسيحية النسطورية والمونوفيزيتية مثلا والتى كانت الكنيسة الرسمية، أعنى كنيسة الدولة، تحرص على أخذ أفرادها بالصرامة. أخذ أولئك الأفراد يتحررون تدريجيًا من استعبادين: استعباد الدولة واستعباد الكنيسة، كما بدأوا يتطورون ويتصرفون أحراراً غير مقيدين، وكما أن الزهرة تتجه نحو الضوء الذى ينميها ويغذيها ويبعث فيها الحياة، كذلك أصبح المغلوبون على أمرهم يعملون للانسجام مع حكام البلاد الجدد محتفظين مخلصين لعاداتهم وعقائدهم.

فقد أخذوا اللغة وسموا أبناءهم أسماء عربية، ومع مرور الزمن أخذوا يقتبسون مسلك وملابس وعادات العرب وطباعهم، حتى إن الطبيب فى بعلبك والتاجر فى الموصل والمشرع فى غرناطة كانوا يلتقون جميعهم فى أسواق القاهرة وحوانيتها كما لو أنهم جميعهم أبناء شعب واحد.

ولم يحدث ما حدث نتيجة لضغط أو تنفيذاً لأوامر بل هى الرغبة الملحة فى الاندماج فى عالم المنتصرين. إن حمل الاسم العربى إلى جانب الاسم الأول المتصل بالعقيدة كان فخر المسيحى أو اليهودى أو المجوسى، وليكن الاسم عبد الله أو محمداً.

وقد كانت هذه العادة متبعة منذ القرن العاشر، ولو أن المسلم لم يفرح فى الواقع لاستخدام غير المسلمين لهذه الأسماء العربية الإسلامية المقدسة، ففى استخدامهم لها تجريد لها من قدسيتها.

ولو أن الشعوب المغلوبة على أمرها ـ عدا البربر والأسبان ـ كان أبناؤها أصحاب ثقافة ومدنية أرفع وأبعد من ثقافة العرب ومدنيتهم، فإن العربى المنتصر كان فى

أعين الأغلبية الساحقة - مع استثناء الفرس المثقفين والمدركين لمنزلتهم - ليس الشخص الذى لا أصالة ولا مكانة له. فنبل العربى وتهذيبه الطبيعى ووجاهته التى تثير الإعجاب وجميع هذه الصفات التى يتحلى بها أثارت إعجاب هذه الشعوب كما أثرت فيها تأثيراً بليغًا. ثم إن شعوره بكرامته هذه الكرامة التى ارتبطت بسيادته التى ولد بها كانت كافية لأن تخبر هذه الشعوب على اتخاذه مثالا يحتذى حتى إن كل فرد كان يبذل قصارى جهده للتشبه به أو اللحاق به وبلوغ مكانته الاجتماعية لكى يقال عن هذا الشخص إنه عربى أو مسلم. وهذا الطموح كان دعاية كبرى للعقيدة الإسلامية وهى دعاية لم تقم بها أو تدعو إليها حركة تبشيرية، فأقبل على الإسلام خلق كثير.

والذى يؤمن بالإسلام يجب أن يقرأ كلام الله ويرتله فى اللغة التى نزل بها الوحى، يجب أن يكتب ويتكلم ويقرأ لغة القرآن الكريم، لغة الشعراء الأقدمين، لغة المنتصر. وبالإضافة إلى جميع ذلك يجب أن نذكر الحقيقة الآتية التى قد يغفلها الإنسان، إن المنتصر صاحب هذه اللغة، أصبح ومنذ زمن بعيد ليس هو الذى ينتمى إلى هذه الطبقة الصغيرة الفاتحة فقط، ففى كل هذه القرون الطويلة نجد العرب يرحلون من الصحراء سائرين فى طرق الفتوحات ولا يقفون عند مرحلة من المراحل بل أصبحوا كالموج تدفع الموجة الأخرى، وهكذا أصبح العالم وهو يواجه موجات البدو تتدفق غير منقطعة وتتبع كل موجة ووجهة الجميع شمال إفريقية وصقلية وإسبانيا. وهنا نجد العرب يستخدمون سكان تلك البلاد الأصليين فى مختلف الحرف والمهن، فعملوا كفلاحين وصناع وتجار وموظفين ومعلمين وعلماء بعد أن تعربوا وتطبعوا بالطابع العربى.

ثم ظاهرة أخرى ألا وهى أن لغة الدواوين أصبحت عربية، وكذلك لغة التقاضى والسياسة والتخاطب والتجارة والمواصلات والمجتمعات. فمن ذا الذى يستطيع أن يخرج عن هذه الحالة؟ من ذا الذى لا يبهره جمال اللغة وجرسها ونغمتها الحلوة؟ حتى الجيران قد سحرتهم العربية كما هو الحال مع الأساقفة الأسبان الذين كثيراً ما شكوا من هذا الوضع مر الشكوى وحتى غير المسلمين كانوا

أطوع إلى تعلم العربية ودراستها والعناية بها من غيرهم كرعاية لهذه الدولة العربية. وماتت اللغة القبطية، والآرامية لغة يسوع المسيح أخذت تفسح الطريق أمام لغة محمد، كما اضطر الباباوات إلى إصدار القرارات والمراسيم الدينية إلى الأقليات المسيحية فى الأندلس فى القرن التاسع مترجمة إلى اللغة العربية؛ وذلك لجهلهم اللاتينية. وحتى بعد استرداد إسبانيا وجدت الكنيسة نفسها مضطرة إلى ترجمة العهد الجديد إلى العربية اللغة التى يفهمها المسيحيون بعد تحررهم.

فلغة القبيلة أصبحت فى غضون قرن من الزمان لغة عالمية. لكن اللغة شىء آخر غير أن تكون مجرد وسيلة من وسائل التفاهم، لقد اكتسبت صيغتها وكيانها عن طريق الجماعة وهى بدورها تؤثر وتعمل فى تكييفها وتكوينها، فقد عرفت كيف تكوِّن أفكارها وتعبيراتها وصيغها. وبالاختصار عرفت اللغة كيف تكوِّن العقول وتكيفها. إن اللغة العربية تعبر عن الحياتين المادية والروحية وتطبع كلا منهما بطابعها الخاص كما أنها جانست بين سكان القارات الثلاث وخلقت منهم خلقًا متجانسًا ذا طابع واحد خاص، وحتى الأجانب مثل الترك والسلاجقة والمماليك والتتار عندما آل إليهم السلطان خضعوا جميعهم لحمًا ودمًا للثقافة الإسلامية واللغة العربية وللحياة الإسلامية جسديًا وروحيًا. إن القوة الخالقة لهذه الحياة الروحية قوة جبارة حقًا فلا يوجد شاعر عربى استطاع أن يلبس العربى والشعور بالحب العربى الثوب اللائق استطاعة ابن حزم الفيلسوف العربى وصاحب النظريات العنيفة فى الغزل العربى، وابن حزم كما نعلم ينحدر من أصل غوطى غربى وتجرى فى عروقه دماء غوطية غربية، نعم إن ابن حزم كان عربيًا أصيلا فى شعره قرض شعرًا عربيًا كأحسن ما يقرضه شاعر عربى وكتب نثرًا عربيًا كأفصح ما يكتبه كاتب عربى. إن العبقرية الشاعرية والملكة النثرية والسيطرة على اللغة العربية لم تكن مقصورة على العربى، فهى موجودة فى هذه الآثار الأدبية التى خلفها لنا الأدباء الذين انحدروا من أصل فارسى مثلا، فقد أغنوا اللغة العربية بالكثير من المصنفات الأدبية الرفيعة.

وقد كانت هذه الثقافة قوية خصبة منتجة فإبان الحكم المسيحى كانت الأديرة السريانية مقفرة مجدبة وكان رهبانها يحيون حياة من يعيش ليأكل، لكن لما أظلها

الإسلام بثقافته وحضارته أينعت وازدهرت، وإبان الدولة الإسلامية لم تكن الثقافة الفارسية هى التى جاءت إلى العالم بأمثال الرازى وابن سينا، لكنها الثقافة العربية هى التى أرضعت هؤلاء من لبانها وهى التى نشأتهم النشأة العلمية بالرغم من أنهم انحدروا من أصل فارسى.

والآن نجد العلماء من مختلف العقائد يعملون معًا ويبنون متساندين متعاونين الحضارة العربية والثقافة العربية والعلوم العربية. فكما نجد كتبًا وضعها مسلمون ومسيحيون ويهود وصابئون معًا وغزوا بها دور الكتب العربية، نجد تسامحًا عربيًا. كذلك لم يحقر من شأن المسيحيين كمعلمين ودخل هذا التسامح إلى مدارس الوثنيين للاغتراف من ينابيع المعرفتين اليونانية والهندية.

وهذا يتفق تمامًا والحديث النبوى الشريف: «طلب العلم عبادة». «العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة» هكذا جعل النبى ﷺ طلب العلم فريضة دينية «اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد» - هكذا نجد النبى ﷺ يحرص دائمًا على توجيه المسلمين إلى العلم فطلب العلم أجره أجر الصوم وتعليم العلم يقابل الصلاة، والنظر إلى الوجود وعظمته يقوى إيمان العربى وخشوعه فالعلم يهدى إلى الإيمان «ولو فى الصين»، وقد حرص النبى ﷺ على إخراج المسلمين والإسلام من الحدود الجغرافية الشعبية الضيقة إلى الكون: فالعلم وطلبه عبادة فجميع المعارف مصدرها الله وإليه تعود لذلك قيل: «اطلبوا العلم من أى نبع». فى سبيل الله اطلب العلم ولو من شفاه غير المؤمنين. ألم يقل الله إن علم الدنيا غباء؟ ويتساءل بولس الرسول على النقيض قائلاً: يوجد مكتوب أريد أن أهدم حكمة الحكماء وأحطم عقل العقلاء: «إن البغاء الموجود فى الوجود اختاره الله وهذا يسىء إلى الحكماء».

رأيان. عالمان يفترقان افتراق الماء والنار وهما يعينان الطريقين المتضادين للحياة العقلية فى الشرق والغرب؛ لذلك يتسع أخيرًا الفرق بين الثقافة العربية الرفيعة والمستوى المدنى المعاصر فى أوربا المسيحية. فماذا تفيده جميع حكمة الوجود أمام حكمة الله. إن المثل الأعلى الذى يتطلبه بولس هو مثل آخر ليس أقل إلا أنه يهدف

إلى غاية أخرى إلى حقيقة أخرى. «إنى أحترم معرفة الله والروح» هكذا حدد «أوجسطين» قطب المعرفة، وإن النظر إلى الحقيقة نظر إلى الله، وهى ليست فى حاجة إلى مساعدة خارجية؛ وإن المصدر الإلهى الوحيد عند المسيحيين هو الوحى، فقصة الخلق ذكرت كل المعلومات الضرورية حول السماء والأرض والجنس البشرى. ووجود أشياء معارضة لهذا أو لا تتفق وهذه المعلومات لا يمكن أن توجد كما قرر «أوجسطين»، وذلك لأن الكتاب المقدس لم يذكر بين أبناء آدم جنسًا من هذا الصنف.

لذلك يجب أن تحل اللعنة على الفكرة القائلة بكروية الأرض: «هل هذا ممكن؟» هكذا سأل معلم الكنيسة «لاكتنتيوس Lactantius» وقال: «كيف تبلغ البلاهة بالناس حدًا كهذا ويعتقدون فى مثل هذه الخرافة؟ كيف يعتقدون أن دولا وأشجاراً تتدلى من الجانب الآخر للأرض»، وإن سيقان الناس أعلى من رؤوسهم؟ فقد اعتقد بعضهم أن الأرض عبارة عن تل تدور حوله الشمس بين الصباح والمساء. ويعتقد «هربانوس موروس Hrabanus Maurus» أن الأرض عبارة عن فلقة مستديرة كالعجلة يلطمها المحيط. وهكذا نجد التقدم الذى بلغته الإنسانية منذ قرون عديدة يختفى ويتلاشى وتعود عصور السذاجة إلى الظهور من حيث النظر إلى الوجود نظرة تحيطها الخرافات وعوامل السحر والشعوذة.

كذلك حلت اللعنة أيضًا واللعنة القوية على كل من يفكر فى قانون السببية لتعليل الظواهر الطبيعية، وليست اللعنة فقط بل الكفر بالله، كذلك كافر كل من يربط بين ظهور النجم أو الفيضان أو ولادة غير طبيعية أو شفاء كسر فى الساق وبين الأسباب الطبيعية، وتعليل حدوث هذه بتلك حتى ولو كان هذا من صنع الله كعقوبة أو قصاص أو من عمل الشياطين أو أن هذا الحدث معجزة من المعجزات.

هل القوى العقلية وقد استولت عليها الرغبة القوية فى سبيل معرفة الله تتيه فى هذا البحر الإلهى؟ أو هل تستطيع أن تشيد أبنية شامخة من الفلسفة والتعاليم الفلسفية تحت سماء اللاهوت وقد شملت هذه السماء كل شىء وأصبحت تعلو شامخة وكأنها قبة زرقاء؟ لذلك كانت الكنيسة فى ظلال هذه الأبنية التى تناطح

السحاب سببًا فى انحطاط المستوى العقلى فيما يتصل بالعلوم المتعلقة بالأرض وكل ما هو أرضى. فبعد أن كان العقل البشرى يعيش فى الكلمة «اللوجوس Logos» اليونانية الواضحة الوضاءة انحط العقل إلى جو ملبد بالغيوم والضباب وعدد لا يحصى من الخرافات والشعوذة وقد أعمت هذه الخرافات أبصارنا فغطت عيوننا غشاوة حجبت عنا إدراك كنه الوجود. وقد استولى هذا الوضع الجديد لا على تفكيرنا الداخلى الباطنى فقط بل أهمل إهمالا كليًا العناية العقلية بالسواد الأعظم للبشرية، فقد اكتفى ذلك العصر وتلك الحالة بالسياحة فى مجالات الخيال المستمدة من اللاتينية البربرية المأخوذة عن القصص اليونانى والأساطير الشرقية القديمة المتصلة بأخبار القديسين وسيرهم، وبهذا قويت العقيدة والإيمان بالخوارق على حساب التفكير العقلى السليم.

إن الكنيسة والرهبنة تؤثران فى المجال الروحى، لكن فيما يتصل بالمجال الدنيوى لم تنقذا الثقافة بل غالبًا ما عطلتاها وعوقتاها. لقد كانت لدى الكنيسة والرهبنة نفس الوسائل، بل أفضل من تلك التى كانت لدى العرب فقد كان تحت تصرفهما هذا التراث العظيم فلو استغلتاه وطورتاه لعاد عليهما وعلى الإنسانية بالنفع العظيم. فالنصوص والكتب القديمة متوفرة بكثرة هائلة بخلاف الحال عند العرب، فحتى القرن السادس الميلادى كان فى أوربا عدد كاف من الرجال الذين كانوا يجيدون اليونانية، فالعلوم العقلية التى وجدت طريقها إلى أوربا فى القرون الأولى عن المثقفين الرومانيين كانت جديرة بالترجمة والتحقيق، وكان فى أوربا من يقدر على النهوض بهذه الرسالة، ولم يكن هؤلاء المترجمون أقل من أولئك الذين نهضوا بهذا العبء إبان خلافة بغداد أو دونهم.

لكن العقلية اليونانية كانت غريبة على عقليتهم، ليس بسبب جهلهم الأشياء التى هى ذات فائدة لهم؛ فقد أخذ أسقف قيصرية حوالى عام ٣٠٠ م مدرس الدين «أويزبيوس Eusebius» والعلماء الطبائعيين من الإسكندرية وبرجامون الذين أضاعوا وقتهم سدى، وهو لا يرى قيمة لمجهودهم، لذلك يدعو إلى التوجيه لما هو أهم وأنفع؛ وهذه الفكرة هى بعينها التى نجدها فى القرن الثالث عشر ونادى بها

«توماس فون أكوين Thomas von Aquin» فقال: «إن أقل حظ من المعرفة المتصلة بالأشياء العليا يحصل عليه الإنسان أهم وأنفع من المعرفة والعلوم المتصلة بالأشياء الوضيعة الدنيئة»، فالتفكير اليونانى قد بدأ لدى المسيحيين وكأنه جدير بكل لعنة لذلك لم يكتف المسيحيون بالابتعاد عنه بل أخذوا على عاتقهم تخليص الإنسانية منه بالقضاء عليه وإبادته. لذلك اضطرت أوربا أن تبدأ من الأول بالثقافتين القديمة والهلّينية وقد بلغتا درجة الكمال. والذى وصل إلى الأديرة منسوخًا أو مجموعًا كان فى حالة سيئة بحيث أصبح كافيًا فقط لأولئك الذين يرضون بهذه القلة الضئيلة. أما الآداب الشعبية فلم تستفد من هذا التراث شيئًا ولا سيما أنه امتداد أو مستمد من تلك العقلية التى انتهت إلى أولئك المعجبين. وبالرغم من هذا بدا للرؤساء حرمان رجال الدين والرهبان من قراءة هذه النصوص المتصلة بالأمور الوضعية. وفى عام ١٢٠٩ ذكر المجمع المقدس فى باريس أن الرهبان يرتكبون أمهات الخطايا إذا ما قرأوا كتبًا تتصل بالعلوم الطبيعية. فهذه الأغلال التى ضربت حول العقول قضت على كل تفكير عقلى فى مهده كما أنكرت على العقول القيام بأى نشاط مستقل، لذلك عوقته كما كذبت أى نشاط عقلى يتعارض وتعاليم الكنيسة.

والآن نستطيع أن نفهم وندرك كيف غطت أوربا قرابة ألف عام فى نوم عميق، ثم مضت فترة أخرى حتى أفاقت من غفلتها وبدأت تنفض غبار النوم عنها، هذا مع ملاحظة أن العرب المسلمين سبقوا أوربا إلى هذه النهضة بنحو قرنين أو ثلاثة فنموها وهذبوها وطوروها، وأن عبارة «هيجل» الخاصة ببوم مينرفا التى تطير فقط عندما يحل الظلام تنطبق حقًا وتصدق على العلوم اليونانية إبان عصر التدهور اليونانى، وذلك فى العصر الهلّينى، كما ينطبق هذا القول أيضًا على الألف عام التى قضتها أوربا فى غياهب الجهالة. لكن فيما يتصل بالنهضة العربية فمثل عبارة «هيجل» لا تصدق حيث نجد، وبصفة استثنائية، العلوم ليست فاكهة متخلفة حملتها الشجرة بعد أوان الطرح.

لقد ظهرت هذه النهضة العلمية بغتة. وذلك بمجرد انقضاء القرن الأول

الإسلامی، قرن الفتوحات وانتشار الدين الإسلامی وكتاب الله، القرآن الكريم، ففی تلك اللحظة انبثقت العلوم والمعارف وتفتحت البراعم بعد جفاف فصل الشتاء وظهرت العلوم العربية. وبعد فترة وجيزة من الزمن عمت العالم وأصبحت ثقافة عالمية.

ثم سرعان ما نجد الإسلام الفتی يندفع فی كل اتجاه غير منحرف أو ضعيف أو يصطدم مع العقائد الأخرى. ففی مكان ما نجد ممثلی العقائد المحافظة ينبرون للدفاع عن عقائدهم. وفی مكان آخر تنقسم الجماعات شيعًا وأحزابًا حتى المحافظين، وتأهبت كل جماعة للقضاء على الأخرى، ونجد الإسلام الفتی لا يقف من هذه الخصومات وتلك الخلافات الدينية مكتوف اليدين بل يقتحم المعركة وينازعها فلسفتها وعقائدها الدينية ويخوض هذه المعارك الكلامية والعقائدية والفلسفية. وقد أفاد هذا النشاط الإسلام فائدة كبرى وذلك لأنه، لفائدته أو لضرره، كان فی وضع يغاير وضع المسيحية المعاصرة له، فالإسلام لا يعرف لدى الله وسيطًا؛ ولذلك لا كهنوت أو كهنوتية منظمة قائمة ثابتة لها سلطانها القوى، وبخاصة فی الظروف الحرجة، وعامة المسائل قد تكون موضوع خلاف كبير جدًا، لكن مجال الزندقة أضيق وأقل حتى فی الحالات التی نجد فيها الخليفة محافظًا جدًا متماسكًا أو متسامحًا كخلفاء العباسيين من المنصور حتى المأمون. وحيث الاتجاه المحافظ يهيمن ويسيطر على التسامح الدينی تتجمد العلوم سريعًا. ولما قضى المغول على الزعماء الدينيين؛ كما قضى عليهم الأسبان كانت التهمة الموجهة إلى رجال الدين الذين بلغوا مرحلة الاحتضار القضاء على الثقافة ومختلف الآداب والعلوم.

وقد أدت هذه الخصومات والمجادلات الدينية إلى إحداث يقظة عقلية دينية حية حالت دون تجميد الإسلام، كما اضطرته إلى الاستعانة بمختلف العلوم والمعارف التی أدت بدورها إلى خلق قوى عقلية ما كانت بمنتظرة، فنجد الفرائض الدينية وما يتطلبه تنفيذها والعمل بها وبخاصة ما يتصل بالحياة اليومية: ضرورة علاج وشفاء ومنع انتشار الأوبئة فی المدن الغاصة بملايين السكان، كذلك العمل على إيجاد أدوية جديدة وتجربتها، لذلك اقتحم العلماء العرب مملكتی الحيوان والنبات يروون

الأرض ويمسحونها ويحصون مواقع النجوم ومنازلها ووسائل معرفة الطرق والأسفار وتحديد الأزمنة والأمكنة. وباختصار الاهتمام بمختلف المواضيع درسًا وبحثًا وتعمقًا حيثما كان وكيفما اتفق.

ونجد العرب يقبلون غير هيابين على ما ورثوه، فما يفيدهم منه علمًا وتحصيلا تمسكوا به وحافظوا عليه، فنجدهم يلتقون بثقافات مختلفة إلى جانب الهندية والفارسية والصينية، وكذلك اليونانية والإسكندرانية.

لكن ما وجده العرب لم يكن كافيًا لسد حاجياتهم وإشباع رغباتهم وإرضاء مطامعهم وطموحهم. فالعرب يحرصون على الحصول على كل ما يمكن الحصول عليه وتحصيله، وهكذا اندفعوا يبحثون وينقبون ويستعينون بالبعوث المختلفة من علمية وسياسية.

عملية إنقاذات قيمة تاريخية

الكتاب وسيلة لخدمة السياسة. العلم سفير للسلام. أين ومتى وجدت هذه المعانى وتلك الوسائل من قبل أو من بعد؟ وبهذه الكثرة؟

وكم كان شغف العرب بالكتب عظيمًا، وبخاصة هذه الكتب المتصلة ببعض المواضيع الجامدة الجافة مثل: الهندسة أو علم القوى المحركة والطب والفلك والفلسفة.

وبينما نجد الدولة المنتصرة تطلب من الدولة المهزومة تسليمها الأسلحة والذخيرة والسفن الحربية كشرط أساسى لعقد معاهدة الصلح، إذ بنا نجد هارون الرشيد بعد انتصاراته فى عموريا وأنقرة يطالب بتسليمه المخطوطات اليونانية.

وبينما نجد اليوم الدولة المنتصرة تطالب المهزومة بالمناجم والصناعات الحربية الهامة وكل ما يتصل بوسائل الهدم والتدمير والإبادة ووضع اليد على مختلف المخترعات، إذ بنا نجد المأمون يطالب عقب انتصاره على البيزنطى ميخائيل الثالث بتسليمه جميع المخطوطات اليونانية الخاصة بالفلسفة ولم تترجم إلى العربية بعد كتعويض لخسارة الحرب لأنها كما يقول الأسلحة العقلية التى يتسلح بها فى سبيل السلام وتدعيمه.

والواقع أن الأمراء العرب كانوا كأنهم مجانين فى سبيل الحصول على بردية أو مخطوطة مكتوبة على الرق. فما من شىء يكسب صداقتهم مثل الحصول على بعض المخطوطات القديمة، وعن طريق هذه المخطوطات يستطيع مرسلها أن

يتخذهم حلفاءه فى حروبه ضد خصومه . ويكفى أن نتذكر ما حدث على البوسفور حيث أرسل إلى عبد الرحمن الثالث فى الأندلس صندوق مملوء بالمخطوطات القديمة من بينها رسالة ديسكوريدس فى الطب .

وقد أدى بيع التراث العقلى الوثنى وإقبال العرب على شرائه إلى رفع ثمنه ، فكانت البعوث الخاصة المزودة بكافة الصلاحيات والتفويض والحقائب الملأى بالنقود تترك بغداد إلى بيزنطة والهند ، حيث نجد علماء تلك البلاد يقومون بدور السماسرة مثل البيزنطى «فوتيوس photius» الذى اجتذبته الحياة العقلية الرفيعة فى البلاط العباسى ، حتى إنه فضَّل الإقامة فى بغداد على العودة إلى بيزنطة .

كذلك كان الأمراء مشغوفين بالحصول على المترجمين الذين يترجمون لهم هذه المخطوطات ، كما سار فى ركب الأمراء كذلك الوزراء والأثرياء . وكانوا يدفعون الأموال الطائلة لأولئك الذين يتجولون لهم من العلماء والوسطاء فى بلاد اليونان والأناضول ، وحيث نزل الهلّينيون للحصول على بقايا التراث العقلى ، هذه البقايا التى نجت من التدمير .

وكان القوم ينقبون على هذه المخطوطات تنقيبًا ، فكانوا يعثرون عليها فى أماكن غريبة مهجورة مظلمة تأوى إليها الفئران والعناكب ، وتلك هى القاعات السفلى فى منازل الإسكندرية حيث قد يعثر الباحث على مخطوطة خاصة بآلات القتال محفوظة بين حجرين مطبقين عليها وأكوام من الأحجار ، كما قد يعثر المنقب على مخطوط آخر محفوظ فى علبة مخبأة فى جدار معبد سريانى . وفى الأناضول وعلى بعد مسيرة ثلاثة أيام من بيزنطة اكتشف محمد بن إسحاق مكتبة عظيمة فى معبد كبير قديم له باب لم ير مثله حجمًا ، وهو يتركب من صفقين (درفتين) من الحديد ، وقد شيده اليونانيون فى الأزمنة الغابرة عندما كانوا يعبدون الأفلاك والأوثان ، كما كانوا يقدمون فى هذا المعبد القرابين . ويذكر محمد الذى كان سفيراً عربيًا فى القصر البيزنطى أنه كافح كفاحًا شديدًا فى سبيل الحصول على هذا الكنز العظيم ، فقد رجا حاكم دولة الروم الشرقية أن يفتح له المعبد إلا أنه رفض إجابة هذا الرجاء ، وذلك لأن أبوابه قد أغلقت منذ أن اعتنق البيزنطيون المسيحية ، لكن

محمداً لم يتحول عن رغبته وبخاصة أنه قد قدم لحاكم الدولة كثيراً من الخدمات فرجاه محمد تحريريًا وشفويًا عندما اشترك مرة فى مجلس من مجالسه، وأخيراً وأمام هذا الإلحاح أمر الحاكم بفتح الباب لمحمد فكان هذا المعبد مشيداً من الرخام وعلى جدرانه كتابات وشخوص ملونة ولم ير محمد مثل هذه الأشياء من حيث وفرة الجمال والفن. أما فيما يتصل بالمخطوطات فقد وجد به ما تنوء بحمله الجمال، وقد ذكر القوم أن عدد هذه المخطوطات قد يبلغ الألف ولو أن جزءاً منها كان ممزقًا والبعض الآخر قد أتلفته القرضة.

إن إنقاذ هذه المكتبة كانت له فائدة عالمية جسيمة فإنقاذها إنقاذ لحضارة وثقافة ماتت وانقرضت بل كادت تنسى ويعفى عليها الزمن، وبخاصة بعد أن انصرفت عنها عيون خالقيها السابقين واتجهت الآن إلى هدف آخر لا يمت إلى الدنيا بسبب.

أما البقية الباقية التى وصلتنا من هذه الثقافة فالفضل فى هذا يرجع ولا شك إلى العرب وجريهم وراء المعرفة. ولم يصلنا من هذه الثقافة عن غير طريق العرب إلا النادر القليل الحديث ومن بيزنطة. وحتى هذا الذى جاءنا من بيزنطة عبارة عن نصب ناقص كتمثال بدون رأس «تورسو Torso»، كما أننا لا نعلم تمامًا مدى أهمية هذا التراث القديم وكميته وكم ضاع منه. إننا نستطيع الاهتداء إليه عن طريق الموسوعات العلمية فقط.

الترجمة مجهود ثقافى

إن المخطوطات وغيرها التى أنقذها العرب لم تخزن فى المتاحف والخزانات وحيل بينها وبين الهواء، بل بعثت بعثًا جديدًا، وانتقلت من حال النسيان والإهمال إلى الحياة ثانيًا فتية قوية، لقد عادت إلى الحياة لتكون فى متناول يد كل فرد، وبالاختصار ترجمت.

لم تترجم هذه الكتب فى لغة بعيدة عن تلك المألوفة عند الشعب، لم تترجم إلى لغة لا يعرفها إلا الكتاب والشعراء وغيرهم من اللغويين والفقهاء، أو بتعبير آخر إلى لغة قريبة من اللاتينية فى القرن الثامن فى أوربا، بل نقلت إلى لغة حية مستعملة ألا وهى لغة القرآن الكريم، وهذه هى الجذور الثابتة للثقافة العربية وهى التى عاونت على نموها وازدهارها. فكل مسلم يجب عليه أن يقرأ القرآن الكريم فى اللغة العربية، كل مسلم يتعلم العربية ويتعرف إليها كما أن لكل مواطن من مواطنى الدولة الحق فى الاغتراف من ينابيع الحكمة والمعرفة ولا يعيش فى عزلة عن المجتمع أو الشعب.

وحوالى عام ٦٨٧ م أيام العصر الأموى بدأت هذه الحركة، أعنى حركة الترجمة، وقد عاصرها فى أوربا «بين فون هريستال pepin von Heristall» وهو والد «كارل مارتل Karl Martell» الذى قفز من وظيفة مدير لقصر الملك إلى حاكم حقيقى لفرنسا.

وحدث فى ذلك الوقت أن الأمير الأموى خالد بن يزيد اضطر إلى التنازل عن

العرش فى دمشق فأصيب بصدمة نفسية ألجأته إلى احتضان العلوم، لكنه خجل أن يتصل بأصدقائه الكتب فى لسان أعجمى، وخالد بن يزيد كفرد من أسرة امتازت بمناصرة العلم والأخذ بيد العلماء وجد لزامًا عليه أن يستدعى علماء من اليونانيين والعرب من الإسكندرية ويكلفهم ترجمة أمهات الكتب الموجودة فى اليونان أو مصر إلى لغة الدولة، وبذلك يستطيع الحديث فى لغته مع ضيوفه من العلماء.

فهذه الخطوة التى بدأها هذا الأمير فى دمشق تسلية وعزاء أتمها بعده الخلفاء العباسيون فى بغداد خدمة للإسلام والمسلمين. فقد أمر المنصور كما جاء فى كتاب عقد الآلئ فيما يتعلق بالكتاب الهندى «سيدهنتا» أن يترجم إلى العربية ويؤلف كتاب على نمطه فى العربية ليتعلم العرب منه حركات النجوم، والواقع أن ما طلب حكام العرب تنفيذه اقتناعًا منهم بفائدته قد نفذ كاملا غير منقوص.

فعملية الترجمة كانت تؤدى بعناية ودقة وحماس لا يقل عن هذا الاهتمام الذى وجه إلى جميع الكتب التى جمعت من مختلف مصادرها، فقد استدعى هارون الرشيد مختلف العلماء الذين يجيدون مختلف اللغات وكوَّن منهم هيئة علمية تحت إشراف يحيى بن ماسويه مهمتها تقدير التعويضات التى يجب أن تدفعها الشعوب المهزومة، وهذه التعويضات يجب أن تكون كتبًا. ثم جاء المأمون وكوَّن مجمعًا علميًا حقيقيًا للقيام بأعمال الترجمة. وقد نسج على منواله الذين جاءوا بعده وحاولوا منافسته، فأبناء موسى بن شاكر الفلكى الثلاثة أنفقوا كثيرًا من الأموال فى سبيل جمع الكتب وترجمتها، فكانوا بذلك مثالا حيًا للآخرين مثل الطبيب البعلبكى «قسطا بن لوقا».

ومن الأمثلة الأخرى الشهيرة للنشاط العظيم الذى بذل لإحياء التراث القديم هو ذلك الذى أداه ابن الصيدلى حنين بن إسحق، وهو أحد أبناء القبيلة العربية التى كانت قد اعتنقت المسيحية واشتهرت باسم «العبادى» وكانت تقيم حول الحيرة العاصمة التجارية القديمة على الفرات، وكانت فى عصر مّا المقر الملكى للخميين العرب، وكانت تمر بها القوافل التجارية العربية مجتازة ما بين النهرين.

وتاريخ حنين يبدو كأنه مثال يحتذى، إنه تاريخ وإن كان فى الواقع تاريخ إذلال وانتقام، إذلال من جهة الاستعلاء الفارسى على الشعب العربى المنتصر، وهذا الاستعلاء وذلك الإذلال أصابا حنينًا سليل قبيلة العبادى، وهذه المعاملة بالذات هى التى دفعته إلى بلوغ صولجان القوة العربية العلمية للعروبة الفتية.

والمسافة بين الحيرة وبغداد تبلغ أكثر من تسعين كيلو مترًا، ولبلوغ عاصمة العباسيين ما على الإنسان إلا أن يمتطى أمواج الفرات متجهًا شمالا ليبلغ مدينة أحلامه الرابضة على دجلة. هكذا أجاب الإنسان حنينًا عندما وجه مائة سؤال إلى رجال القوافل وتلقى حنين مائة إجابة. لقد ولد حنين عام ٨٠٩ م وهو العام الذى توفى فيه هارون الرشيد، وقد أثارت الأوانى والأجهزة التى كانت موجودة فى معمل والده انتباهه واسترعت نظره، لكن هذا الطفل النجيب النحيف لم يعجب بهذه الأجهزة الإعجاب الذى جعله يتجه إلى مهنة والده بل آثر التجارة عليها محتذيًا حذو أنداده.

وفى يوم من الأيام نجد صديقه القديم «حبيشًا» دليل القافلة يبدى رغبته لحنين ابن الصيدلى إسحق فى أنه مستعد لنقله معه إلى عاصمة الدولة العباسية مقابل إعطائه مرهمًا من الكافور لعلاج دمل. وفى ذلك الوقت كان بيت الطبيب ورئيس التراجمة أيام هارون الرشيد والمأمون، وهو الفارسى جنسًا، ومن جنديسابور مولدًا، واسمه يحيى بن ماسويه - ملتقى كبار علماء بغداد، وأراد حنين أن يصبح طبيبًا فأقبل وهو فى سن الخامسة عشرة على العلم يرتشفه ارتشافًا مقبلا على أساتذته إلا أنه لم يكن طالبًا غبيًا فالأسئلة التى كان يوجهها إلى أساتذته كانت كالخناجر التى تمزق محاضراتهم. وكان ماسويه مشهورًا بنكاته التى ذاع صيتها فى المدينة، كما اشتهر كذلك بلسانه السَّليط، فأهاجته مرة من المرات أسئلة حنين فصاح فيه قائلاً: «عد من حيث أتيت، ومن جهتى احترف حرفة الصيارفة التى يحترفها أهالى الحيرة، واترك دراسة الطب فهذه ليست مهنة العبادى».

فتأثر حنين من مثل هذه الإجابة وبكى بكاءً مرًا، وترك الدار بعد أن آلمه هذا الاحتقار الذى بدا من ماسويه، فقد كانت عباراته كالسياط التى ألهبته، فقرر أن

يصل إلى هدفه ويحقق رغبته فى دراسة الطب وأنه لن يرى وجه رجل مثل ماسويه الذى أهانه واحتقره. فسافر إلى بلاد الروم، وفى الأناضول درس اللغة اليونانية حتى أتقنها ليستطيع قراءة كتب كبار الأطباء اليونان، وفى البصرة على الخليج الفارسى درس على أحسن معلم اللغة العربية وأتقنها، كما اهتم كذلك باللغة الفارسية وهو يتكلم الآرامية منذ سن الطفولة.

ومضى عامان على الفتى العربى ا لحيرى منذ أن خرج من أبواب بغداد الذهبية، وفى إحدى الليالى زار خليل بن عبد الله أحد زملائه فى الدراسة، وهو من تلاميذ ماسوية الذين كانوا أقدم منه، صديقًا له فإذا برجل أجنبى ذى لحية سوداء يحبو دون أن يراه أحد وقد جلس القرفصاء على فراء حمل. ولم يسبق لخليل أن رأى هذا الرجل فى شوارع بغداد، فانصرف عنه خليل ولم يعبأ به، وأخذ يتحدث مع صديقه حنين.

وبغتة ارتفع صوت يغنى أشعاراً يونانية لهوميروس وأوديسيوس، وهذا الصوت يكشف القناع عن صاحبه وخليل يعرف صاحبه جيداً. أما ذو اللحية فقد جلس ورأسه إلى الحائط المبيض، والمغنى يغنى أوديسيوس العظيم وهو وصديقه وزميله القديم «حنين بن إسحق». فإذا بالشخص الذى أصابه الفزع يرجو ألا يبوح بسره؛ إن رسالتى لم تنته بعد...

وبعد ذلك بزمن قليل التقى خليل بصديقه العجيب للمرة الثانية، وهذه المرة فى منزل جبريل بن بختيشوع نقيب أطباء بغداد، وكان وجوده مدعاة إلى التعجب، فالشيخ الوقور الذى انحدر من أسرة اشتهرت بالطب والأطباء فى جنديسابور يعامل هذا الشاب ابن السابعة عشرة ألا وهو حنين معاملة ممتازة، يعامل بها عادة الوقورين المحترمين، فكان يخاطبه بعبارة: المعلم حنين؛ وأكرمه فى بيته كما يكرم أكبر وأعز ضيف.

إنه يدعوك معلم! سأله خليل عندما تركا البيت، إن هذا عجيب وأود أن أعرف السبب، فأخبره حنين أن نقيب الأطباء كلفه بترجمة فأداها أحسن أداء. والآن شعر أن ساعة الحساب قد جاءت: خذ الأوراق وتوجه إلى يحيى بن ماسويه الذى

طردنى سابقًا من درسه، وأخبره ما رأيته وسمعته من معاملة جبريل بن بختيشوع لى فى منزله.

إن مثل هذه الترجمة ما كان إنسان بمستطيع القيام بها، ولعل روح القدس قد حل بك وأوحى بها إليك؛ وأجابه ماسويه عند تصفح الأوراق: قل لى: حنين بن إسحق، يسعدنى جدًا أن أكون صديقك. وشرع حنين فى إلقاء محاضرات فى الطب فى بغداد، وحتى العالم بتختيشوع لم يخجل من حضورها والاستماع إلى صديقه الشاب، وأحيانًا كان يشاهد الإنسان أستاذ حنين من بين مستمعيه.

لكن هذا الشاب العربى اكتسب شهرة أوسع عن طريق مهارته فى الترجمة، فقد امتاز فيها على ماسويه، كما أعجب به أبناء موسى، حيث امتازت ترجمة حنين بحسن الأسلوب ودقة الترجمة، فترجمته لم تكن حرفية أى كان لا يكتفى بإحلال كلمة أو جملة مكان أخرى إنما قصد فى الترجمة المعنى، ومن ثم صبه فى قالب عربى سليم. أما إعجاب محمد بن موسى بحنين فقد فاق الوصف، فقد أخذه إلى داره وعين له مرتبًا عاليًا لترجمة الكتب اليونانية التى جمعها هو وأخواه إلى العربية.

وسرعان ما شعر حنين بالحاجة إلى مساعدين فعين عددًا كبيرًا منهم لكن لم يخرج كتاب من معهده دون مراجعته وتنقيحه. فكل نص يقع فى يديه ينظمه هو ولأول مرة ومن ثم يقسمه إلى أبواب وفصول وبخاصة كتب أمثال جالينوس، وبذلك كان حنين يؤدى خدمات جليلة إلى أولئك المؤلفين أنفسهم.

وهنا نجد مدى الفضل الذى قد يتفضل به المترجم على المؤلف، وهذا الفضل يتوقف على ميل المترجم وشغفه بالكتاب وفهمه وإدراك كنهه وحسن اختياره. فترجمته هى التى تفرض الكتاب على المجتمع وتمهد له الطريق إلى الأوساط العلمية والثقافية. فحب حنين لجالينوس هو الذى جعله يُتوجه ملكًا على عرش الطب العربى، وبذلك أصبح فيما بعد زعيم الطب الأوربى.

لكن النشاط الجم لهذا الطبيب والمترجم العربى جعله لا يقصر همته على الطب

فـقط ، فـحنين لم يقـتـصـر على التـرجـمـة لجـالينوس وأبقـراط وأوريبـازيوس ، وديوسقوريدس وبول فون أجينا بل عرج على أرسطو وأفلاطون والترجمة اليونانية للعهد القديم ، الترجمة السبعينية التى نقلها إلى العربية . إن ابن إسحق قد كرس حياته للمؤلفات الفلسفية والرياضية وما بعد الطبيعة أى الميتافيزيقا . وحنين بن إسحق على نقيض المترجمين اللاتين المتأخرين ، فعالمنا العربى كان ملمًا بمختلف أنواع العلوم بقدر . فقد كان يجيد المادة التى يترجم منها حتى إنه كان يسمح لنفسه أن يشرح ويبسط العبارات العويصة التى يذكرها المؤلف ، كما كان يقدم لكل كتاب يترجمه بمقدمة العالم الخبير ويعلق عليه ببعض الشروح والتفسيرات . وقد اشتهر حنين بدقته حتى إنه كان كما يذكر هو نفسه ، لا يقدم على الترجمة إلا بعد الحصول على ثلاث مخطوطات على الأقل من الكتاب المراد ترجمته ، فيقابل بينها ويقوِّم نصها ويصححه إذا ما دعت الحاجة إلى هذا .

فأين هذه الدقة العلمية فى العالمين القديم والوسيط عدا عند العرب حيث نجد الناشر يشعر بمسئوليته تجاه المؤلف ومدى احترامه وتقديره لثروة المؤلف العقلية؟ هكذا هو موقف العربى ، وهو الموقف الذى يمتدحه الإنسان اليوم ويصفه كما لو أنه موقف حديث .

وكان حنين إذا ما افتقد نسخة من مخطوطة خاصة بجالينوس ، وأن هذه المخطوطة كانت فى عصره من المخطوطات النادرة لا يكتفى بهذا بل يقوم هو بالبحث عنها . إنى فى حاجة شديدة إليها ، وسأسافر باحثًا عنها فى بلاد ما بين النهرين والشام وفلسطين ومصر حتى أصل إلى الإسكندرية ، لكنى لم أوفق فى الحصول عليها إلا هذا الجزء الذى قد يكون نصف المخطوطة وقد عثرت عليه فى دمشق . وإذا عاد حنين ومعه هذا الجزء من المخطوطة النادرة التى ضاع أصلها اليوم أحضر معه كذلك عدداً كبيراً من المؤلفات القيمة إلى بغداد . وفى تلك الفترة عينه المتوكل الذى خلف المأمون طبيبه الخاص ومديراً لمدرسة الترجمة الجديدة التى أنشأها الخليفة .

وهكذا نجد العلماء العرب يحفظون للعالم عن طريق ترجماتهم الكثير من

الكتب من الضياع والضياع النهائى، وهى مؤلفات كان العالم يجهلها جهلا تامًا لولا أن جاءته عن طريق الترجمة العربية مثل كتب: التشريح لجالينوس وكتب القوى المحركة والرياضيات للمؤلفين «هيرون» و«فيلون» و«مينيلاوس»، ثم بصريات بطليموس، والموازنة للمؤلف أويقليد، وأخرى حول الساعة المائية، والأجسام الطافية لأرشميدس. ثم هناك ثلاثة كتب حول قطاع الجلة للمؤلف «أبولونيوس» والذى أنقذها هو ثابت بن قرة الرياضى البارع والنطاسى العظيم الذى كان يزامل ابن إسحق بن حنين وحفيده الذى عالج الترجمة ونبغ فيها بعد أن مارسها زهاء عشرات السنين، وامتاز على سائر تلاميذه الذين جاوز عددهم التسعين.

ولم يكد حنين يفارق الحياة حتى كان قد ترجم معظم مؤلفات الأقدمين، ومن ثم بدأ النشر.

ولــع بالكــتب

فى أعقاب الحرب العالمية الثانية انتشر انتشار الوباء الرغبة الملحة فى الحصول على سيارة وثلاجة وتليفزيون، هذا بينما كان العالم العربى قديمًا شديد الولع باقتناء الكتب، فأقبل على شرائها كل من استطاع إلى هذا سبيلا كما انتشرت الرغبة فى الشراء انتشار العدوى فى جميع البلاد العربية، وكانت هذه الرغبة لا تفوقها رغبة أخرى اللهم إلا رغبة العالم الحديث.

وكما أن المستوى الاقتصادى والعقلى والاجتماعى للإنسان فى عصرنا الحالى يتطلب امتلاك السيارة والتليفزيون، فإن المستوى العربى فيما بين القرنين التاسع والثالث عشر كان يقاس بالمكتبة الخاصة.

ولا شك فى أن الخليفة عندما أشار عليه وزيره البرمكى، الدالاى لاما، الوحيد من آسيا، بتأسيس مكتبة فى دار الحكمة ببغداد، استجاب لتوه إلى هذه المشورة وشعر بالحاجة الماسة إليها. فدور الكتب تنمو وتزدهر بسرعة. فقد حدثنا رحالة عام ٨٩١ م أن ببغداد المطلة على دجلة مائة مكتبة عامة يستعين بها كل طالب علم سواء أكان مستعيرًا أم مطلعًا بداخلها، وبكل مكتبة المترجمون والنساخ فى قاعاتهم الخاصة، كما توجد بكل مكتبة قاعة كبرى عامة للندوات والمناقشات وهى شبيهة بالأندية الإنجليزية اليوم.

ومدينة صغيرة مثل النجف كانت فى القرن العاشر الميلادى فخورة لامتلاكها أربعين ألف مجلد فى الوقت الذى كانت فيه الأديرة الأوربية تقيد هذا العدد القليل

من الكتب الذى قد لا يتجاوز العشرة فى السلاسل نظراً لندرتها وخوفًا عليها من الضياع. أما مكتبة مدينة الرى فقد سجلت أسماء كتبها فى فهرس يقع فى عشرة مجلدات كبيرة وكان فى كل مسجد مكتبة، وكل مستشفى يستقبل زواره فى قاعته الكبرى الغنية بالكتب، ويحرص على شراء جميع ما يظهر من الكتب الطبية إشباعًا لحاجة الطلاب والباحثين. وفى مرصد «مراغة» يدون ناصر الدين الطوسى أربعمائة ألف مخطوطة، وما ينهض به خليفة بغداد يجوز أيضًا لأصغر الأمراء وفى أقصى أطراف الدولة، فنجد فى جنوب بلاد العرب أميراً عالما يملك مكتبة بها مائة ألف مجلد؛ ثم نجد ابن سينا ولما يبلغ الثامنة عشرة يزور سلطان بخارى المريض واسمه محمد المنصور استجابة لرغبة طبيبه الخاص لمساعدته طبيًا، فتقديراً لمجهوده أذن له السلطان فى أن يختار من مكتبة القصر ما يحتاج إليه من كتب للدراسة، وهذه المكتبة منظمة تنظيمًا موضوعيًا، كما تشغل غرفًا كثيرة من غرف القصر؛ وقد شاهد ابن سينا فيها كتبًا لا يعرف الكثيرون أسماءها، كتبًا لم يرها ابن سينا من قبل ولا من بعد.

وبعد أن ترك ابن سينا القصر السلطانى بزمن قصير شبت النيران فى القصر فأتت على المكتبة، وكان هذا الحادث من الأسباب التى دفعت جماعة من حساده وأعدائه إلى اتهامه بأنه هو الذى أحرقها، حتى يحتكر هو ما بها وينسبه إلى نفسه.

لكن أحداً - حتى خليفة قرطبة الذى كان يوفد المبعوثين والعملاء لاقتناء أهم الكتب وأشهرها لمكتبته الخاصة استكمالا لها وتيسيراً للعلم لطلابه - لا يقارن بالخليفة العزيز فى القاهرة. فمكتبة الفاطميين كان بها زهاء مليون وستمائة ألف مجلد وفى حالة جيدة كاملة، ومن بينها ستة آلاف وخمسمائة كتاب فى الرياضيات وثمانية عشر ألفًا فى الفلسفة. وهذه المكتبة لم تثن ابنه عندما تولى الحكم عن تأسيس مكتبة أخرى إلى جوار الأولى وكانت تشغل ثمانى عشرة قاعة.

وقد شجع هذا الاستعداد لدى الخلفاء والسلاطين الوزراء وغيرهم من رجال القصر على النسج على منوالهم، فنجد الوزير المهلبى يترك عندما توفى عام ٩٦٣ م نحو مائة وسبعة عشر ألف مجلد، وهذا العدد لم يكن نادراً، كما نجد زميله ابن

عباد يقتنى مكتبة من مئتين وستة آلاف مجلد كما خلف أحد القضاة مليونًا وخمسين ألف مجلد، ولو أن هذه الأرقام مبالغ فيها، وأن لفظ مجلد قد يطلق على فصل مستقل، إلا أن المبالغة فى ذكر هذه الأعداد تشير إلى مدى المفاخرة باقتناء الكتب والأهمية التى كان يعلقها القوم على اقتنائها؛ وهذا الغرام باقتناء الكتب حقيقة لا مراء فيها بدليل هذا الخبر الذى يروى عن أحد الوزراء، أنه لم يقم يومًا من الأيام برحلة ما دون أن ترافقه مكتبته وكانت حمولة ثلاثين جملا. وقد قلد القيصر فريدريش الثانى العرب فى هواية الكتب وتشجيع العلم والعلماء، ولا غرابة فى هذا فالقيصر فريدريش الثانى هو تلميذ العرب فى كل شىء فحتى فى تنقلاته كان يحمل معه مكتبته على ظهور الإبل. ولدينا الآن سؤال آخر؟

أين اليوم المكتبات الخاصة التى تشتمل كل واحدة منها على ما يتراوح بين عشرين وثلاثين ألف مجلد، كما جمعها من قبل أمثال طبيب صلاح الدين الخاص المسمى ابن المطران ثم الصيدلى الشهير ابن التلميذ وكذلك ابن القفطى المؤرخ؟ ولا يفوتنا أن نذكر أن الكتب لم تكن تطبع فى ذلك الحين بل كانت تنسخ والنسخ قد يستغرق الأشهر أو السنوات، فهى لم تكن رخيصة بل غالية، فابن الهيثم مؤسس علم البصريات تناول خمسة وسبعين درهمًا أجرًا لنسخ جزء من أويقليد، وقد عاش ابن الهيثم عامًا كاملاً ينفق من نصف هذا المبلغ. وابن الجزار الطبيب الرحالة المرح، أحد أبناء القيروان، خلف مائتين وخمسين قنطارًا من الرق الذى كتبه بيده، وهذا الرق هو جلد غزال. ويحكى عن طبيب آخر خبر لا يقبل شكًا من أحد من معاصريه، أن سلطان بخارى دعاه إلى قصره فرفض الدعوة لأن انتقاله إلى بخارى يضطره إلى الحصول على أربعمائة جمل لنقل مكتبته التى تزن حوالى عشرة آلاف كيلو جرام. كذلك يحكى عن عالم آخر توفى عن ستمائة صندوق كتب فى مختلف العلوم والفنون، ويقال إن حمل كل صندوق كان يتطلب عددًا كبيرًا من الرجال. نعم إن الإنسان قد يجد عددًا قليلاً من العلماء الذين يحتاجون إلى مراجع علمية خاصة، فهؤلاء كانوا يوجدون فى مختلف العصور، ولو أنهم كانوا أحيانًا قلة. لكن الأمر عند العرب كان على عكس ذلك، فهواة الكتب كانوا كثرة وكانوا

يوجدون بين سائر الطبقات وليس فقط بين العلماء. فكل متعلم من السياسى إلى تاجر الفحم، ومن قاضى المدينة إلى المؤذن خبير بالكتب وتجارتها. فالمكتبة المتوسطة الخاصة فى القرن العاشر كانت تحتوى على كتب تفوق بكثير محتويات جميع مكتبات أوربا وقتذاك.

فالثراء لا يتم لشخص دون ملكيته لمكتبة غنية بالكتب النادرة القيمة، فقد ذكر مؤرخ عربى أنه لما كان فى قرطبة وقعت له حادثة فى سوق تجارة الكتب أغضبته، وذلك لأنه اعتاد أن يكثر من التردد على السوق لمشاهدة الكتب الحديثة وشراء ما قد يحتاج إليه فوجد مرة كتابًا أعجبه فعرض ثمنًا وعرض آخر ثمنًا أعلى، فقلت لمنافسى: أرجو الله أن يحافظ على سيدنا الطالب المجتهد، إذا كان لديك سبب قوى يحتم عليك شراء هذا الكتاب أتركه لك، وذلك لأن الثمن المعروض تخطى الحدود. فأجابه الرجل: لست طالبًا ولا أعرف محتويات الكتاب إلا أننى قد أسست حديثًا مكتبة رفعًا لمرتبتى بين مواطنى، ووجدت أن مكانًا خاليًا فى المكتبة، وهذا الكتاب يملؤه. وعلاوة على هذا فخط هذا الكتاب جميل جدًا وهو يسرنى كثيرًا كما أنه مجلد تجليدًا فاخرًا، لذلك لا يهمنى الثمن الذى أدفعه فيه. فأجبته: إن الناس الذين هم مثلك لديهم الوسيلة لتحقيق رغباتهم «الجوز للذى لا أسنان له»!

نعم إن الذين لا أسنان لهم كثيرون، لذلك ستستمر هذه الحالة لا عشرات السنوات بل المئات، وهذا عنصر هام من عناصر الحياة الاقتصادية العربية، فقد كانت تجارة الكتب تكلف المجتمع العربى ملايين الملايين سنويًا، فالمكتبة النظامية لجامعة بغداد مثلا كانت ميزانيتها السنوية مليونين ونصف مليون فرنك ذهبى لشراء الكتب والمخطوطات، لذلك كانت الكتب مصدرًا من أهم مصادر الرزق لمئات الآلاف من البشر.

فالنساخ والخطاطون كانوا فنانين فى مهنتهم فكل مكتبة وكل تاجر كتب يوظف لديه عددًا من هؤلاء الموظفين ومعظمهم من الطلبة الذين يريدون أن يكسبوا قوتهم اليومى أو من فقراء المتعلمين، ثم نجد صناع الورق فى سمرقند وبغداد ودمشق

وطرابلس الشام وطبرية بفلسطين و«ياتيفا» الشهيرة بالقرب من بلنسية في الأندلس، ثم نجد مجلدى الكتب يطبقون الورق على الطريقة الصينية مثنى ورباع وثمان وسداس عشر في الحجم المعروف باسم المنصورى أو كما يعرف الآن باسم «فوليو Folio» والبغدادى وهو المعروف الآن باسم «كوارت Quart».

وكما نجد نحن اليوم الكتب كذلك الحال مع عمال الجلد فهم الذين كانوا يزخرفون جلد الكتاب. وكم رزمة ورق وكم لتر مداد من الكحل والصمغ العربى تستهلك سنويًا؟ وكم ورق غزال أو ماعز يستخدم والرق الجميل والسختيان وغيرها؟

فتجارة الكتب والصيدلة مهنتان من اختراع العرب. فتاجر الكتب رسول من رسل الثقافة، كما أن مكان بيعها مركز ثقافى هام فى المدينة. فهذه التجارة وجدت أولا لزمن طويل فقط عند العرب.

ففى سوق الوراقين- هكذا كان يسمى الحى الواقع عند باب البصرة حيث كان يوجد أكثر من مائة وراق فى محالهم- كان يلتقى علماء بغداد، وعلماء العالم الإسلامى. هنا يلتقى الفيلسوف مع الشاعر والفلكى حول الكتب الجديدة، وهنا التقى الطبيب مع المؤرخ وجامع الكتب النادرة، وهنا كانت تعقد حلقات المحاورات العلمية والندوات الأدبية، فهنا مركز الثقافة العربية، هنا يتبادل العلماء الآراء. لذلك لا عجب إذا ظهر عام ١٠٠٠ م «كتاب تبادل الآراء»، وهو يشتمل على مائة حديث وستة جرت بين العلماء فى بيت فيلسوف حينًا وفى سوق الوراقين أحيانًا. وفى ذلك العصر ظهر فهرس ابن النديم، وهو من أشهر تجار الكتب كما كان من كبار العلماء، وفى هذا الفهرس ذكر سائر الكتب العربية الأصيلة أو المنقولة إليها من اللغات الأجنبية. وقد عرف كل مؤلف أو كل كتاب بمقدمة شخصية يعرف فيها القارئ بصاحب الكتاب. وقد قدم ابن النديم لهذا الكتاب بمقدمة تحدث فيها عن حيل الوراقين وألاعيبهم.

وابن النديم كزملائه الوراقين على جانب عظيم من العلم والمعرفة، فقد حضر

محاضرات مشاهير فلاسفة عصره كما تزاور معهم، وكان على صلة قوية بهم وبمختلف الهيئات العلمية التى لعبت دوراً هاماً فى الحياة العقلية العربية فى القرن العاشر الميلادى، لقد كان ابن النديم صديقًا حميمًا لعلى بن عيسى أكبر طبيب عيون فى العصور الوسطى، كما كان صديقًا لكثيرين من العلماء الآخرين البارزين، وكان يمضى الليل معهم فى محاورات ومساجلات وندوات علمية؛ وهذا العالم الفاضل الواسع الاطلاع لم يكن نادراً فى ذلك العصر وفى تلك البيئة بين زملائه المنتشرين فى مختلف مراكز الثقافة العربية والذين كانوا يأتونه بإنتاج العصور المختلفة فى مختلف فنون العلوم والمعارف. ومن بين هذه الكتب التى كانوا يحضرونها إليه القديمة النادرة وهى مصادر هامة لعلم فهرسة الكتب ومعرفتها ولا يبحث عنها الناشر بل الوراق الذى كان يتنقل بين مختلف المدن باحثًا عن كنوز علمية جديدة تملأ خزائنه. ومما يذكر نقلا عن ابن أبى أصيبعة فى ترجمته لحياة الطبيب «أفرايم بن الزفان» ما نصه:

«هو أبو كثير أفرايم بن الحسن بن إسحق. . . وهو من الأطباء المشهورين بديار مصر، وخدم الخلفاء الذين كان فى زمانهم، وحصَّل من جهتهم من الأموال والنعم شيئًا كثيراً جداً. وكان قد قرأ صناعة الطب على أبى الحسن على بن رضوان وهو من أجلٍّ تلامذته، وكانت له همة عالية فى تحصيل الكتب، وفى استنساخها حتى كانت عنده خزائن كثيرة من الكتب الطبية وغيرها، وكان أبداً عنده النساخ يكتبون ولهم ما يقوم بكفايتهم منه. ومن جملتهم محمد بن سعيد ابن هشام الحجرى وهو المعروف بابن ما ساقة، ووجدت بخط هذا عدة كتب قد كتبها الأفرايم وعليها خط أفرايم. وحدثنى أبى أن رجلا من العراق كان قد أتى إلى الديار المصرية ليشترى كتبًا ويتوجه بها وأنه اجتمع مع أفرايم واتفق الحال فيما بينهما أن باعه أفرايم من الكتب التى عنده عشرة آلاف مجلد وكان ذلك فى أيام ولاية الأفضل بن أمير الجيوش. فلما سمع بذلك أراد أن تبقى تلك الكتب فى الديار المصرية ولا تنتقل إلى موضع آخر فبعث إلى أفرايم من عنده بجملة المال الذى قد اتفق تثمينه بين أفرايم والعراقى ونقلت الكتب إلى خزانة الأفضل وكتب

عليها ألقابه، ولهذا فإنى قد وجدت كتبًا كثيرة من الكتب الطبية وغيرها وعليها اسم أفرايم وألقاب الفاضل أيضًا. وخلف أفرايم من الكتب ما يزيد على عشرين ألف مجلد ومن الأموال والنعم شيئًا كثيرًا».

واهتمام سياسى خطير مثل الأفضل بالعلوم والفنون والفلك والخصومة الشعرية التى نشبت بينه وبين أخيه - شىء طبيعى، فالولع بالعلوم والآداب من خصائص العرب فى ذلك العصر كاهتمام جيل اليوم بكرة القدم، فالعناية بالعلوم كانت من مقومات الحضارة والمدنية والمفاخرة فى ذلك العصر.

فنحن نجد رجلا مثل أسامة بن منقذ الذى ذكر ما ذكر من أخبار تقشعر لها الأبدان خاصة بالطب والجراحة عند الإفرنج، وحدث أن غرقت يومًا ما سفينة له وسلب الصليبيون كل ما فيها وأذاقوا عشيرته من العذاب ألوانًا وفى ذلك يقول أسامة:

إلى الله أشكو فرقة دميت لها — جفونى وأذكت بالهموم ضميرى

تمادت إلى أن لاذت النفس بالمنى — وطارت بها الأشواق كل مطير

فلما قضى الله اللقاء تعرضت — مساءة دهرى فى طريق سرورى

إن هذه المعانى لم تصدر عن عالم شاعر بل عبارات محارب وسياسى كان كغيره من أبناء جلدته قد تلقن القراءة والكتابة منذ الطفولة.

شـــعب يـــدرس

ولا يفـوتنا أن نذكـر أن وسط أوربا كـان فيـما بين القـرنين التـاسع والثـانى عـشر الميلادين مسرحًا للأمية التى بلغت نسبتها خمسة وتسعين بالمائة .

وبينما حاول كارل الأكبر (شارلمان) وهو فى سن متقدمة تعلم الهجاءة ، وحتى هذه التوطئة قد أعيته . وبعده بعدة قرون نجد الأشراف الأوربيين يتحايلون على التهرب من تعلم القراءة والكتابة هذا الفن العسير ، وفى الأديرة كان قليلا جدًا عدد الرهبان الذين يستطيعون القراءة والكتابة ، بل فى دير القديس جالين لم يوجد فى عصر من العصور راهب واحد يقرأ ويكتب ، وقد كان ذلك عام ١٢٩١ م - إذ بنا فى نفس العصر نجد فى قرى ومدن البلاد العربية آلاف الآلاف من المدارس التى تضيق بالصبية من الجنسين وهم فى سن السادسة والحادية عشرة وكانوا يتعلمون القراءة والكتابة ، قراءة القرآن الكريم وكتابته ، إذ كانوا يستخدمون لهذه الغاية ألواحًا خشبية ومدادًا أسود بنيًا ، ومن ثم يتلون القرآن سورة سورة بعد أن يحفظوها ، ومن ثم يتقدمون فى الدراسة تدريجيًا ويتلقنون النحو والصرف . وكان السر فى تأسيس هذه المدارس الرغبة الصادقة فى إبداء حسن إسلام أولئك الذين يعتنقونه . فقد نشأت هذه المدارس حرة وهبة وليست قسوة وجبرًا ، وإن إتقان القرآن قراءة وكتابة كان من مقومات الثقة فى الدين وفهم كتاب الله عز وجل . وهنا نجد البون شاسعًا بين الشرق والغرب وموقف الشرقيين والغربيين من الكتب المقدسة . فكتاب المسيحيين المقدس كان حكرًا على رجال الدين فقط . أما المسيحى العادى فكان يجهله جهلا تامًا ، فرجل الدين فقط هو الذى يقرأ ويفهم لغة الوحى . ومنذ عام

٨٠٠ م يعظ الواعظ المسيحى فى لغة لاتينية لا يفهمها الشعب، لذلك قرر المجمع المقدس الذى انعقد فى «تور» أن تكون لغة الواعظ هى لغته القروية الدارجة الساذجة، ومن هنا نتبين أنه حتى بين رجال الدين لم تتطلب الكنيسة الثقافة الدينية العميقة، وكانت تكتفى من رجال الدين بهذه الثقافة اللاتينية الضحلة والتى بعثتها النهضة العلمية الكارولينية. أما الشعب المسيحى وقتذاك فلم يكن فى حاجة إلى دراسة اللاتينية، وذلك لأن تثقيف الشعب لم يكن من الأمور المرغوب فيها فى ذلك العصر.

أما فى العالم الإسلامى فقد كان الحال غير الحال فكان من مصلحة الدولة العربية نشر الثقافة والمعرفة بين رعاياها، فالأطفال من جميع الطبقات كانوا يقصدون المدارس الأولية نظير نفقات ضئيلة جدًا، وعندما شرعت الدولة فى تعيين المدرسين منحت المجانية الكاملة لغير القادرين، هذا وفى جهات أخرى كان التعليم مجانًا لسائر الطبقات حتى فى إسبانيا. ففى قرطبة كانت توجد ثمانون مدرسة عامة، وفى عام ٩٦٥ م أسس الحكم الثانى سبعة وعشرين مدرسة أخرى لأولاد الفقراء، وفى القاهرة أسس المنصور قلاوون مدرسة متصلة بالمستشفى المنصورى خاصة بالأيتام كما قرر لكل طفل يوميًا رطل خبز وجلبابًا للشتاء وثانيًا للصيف. وكان كذلك للبدو مدرسون متنقلون. إن ثغرة واحدة لم توجد فى العالم الإسلامى وكان يجب سدها. فضلا عن أن التعليم عند العرب لم يبق فى حدوده الأولية الضيقة وذلك لأسباب سياسية فالخصومة بين المعارضة وأحزاب الحكومة ومنافسة كلّ فى كسب جموع الشعب إلى صفوفه أدت إلى العمل على رفع مستوى الشعب علميًا بغض النظر عن اختلاف الطبقات، وقد دفعت هذه الفكرة إلى التنفيذ فى القرن العاشر الميلادى الأحزاب اليسارية لكى تتمكن من القيام بحركة دعاية واسعة ضد المحافظين الذين اهتمت برامجهم السياسية بالمطالبة بتعميم تعليم مختلف الطبقات، وأسسوا المدارس العالية وجعلوا التعليم فيها مجانيًا. فلم يسع الحكومة إلا أن سارعت وافتتحت مدارس أخرى لتقاوم دعاية خصومها، وهكذا انتشرت المدارس العالية فى مختلف المدن الإسلامية وكان الطلاب يقطنون فى المدارس ويتناولون شهريًا مرتبات لسد حاجاتهم ونفقاتهم الخاصة. وكانت الطوابق

الأرضية فى المدارس معدة للمطابخ وإعداد الطعام وتناوله، كما أنشئت بهذه الطوابق أيضًا الحمامات. أما حجر الدرس فكانت فى الطابق الأول، وكانت تحيط بالغرف الدهاليز والمكتبة وكلها تقع حول النافورة الموجودة فى الردهة الداخلية. وهنا كان يتعلم الشبان العرب الطموحون: القرآن الكريم، والحديث الشريف والنحو والصرف، وفقه اللغة والفصاحة والبلاغة والآداب، والتاريخ، وعلم الشعوب، والجغرافية والمنطق، والرياضيات، وعلم الفلك. فكان المنهج الدراسى منهجًا غنيًا، كما كانت طريقة التدريس تعتمد على المناقشات التى كانت تثار بين الطلاب وأساتذتهم. وإلى جانب ذلك كان هناك مساعدون من الخريجين أو المتقدمين لمعاونة الطلاب على فهم المشاكل وتحصيل المواد، فكان طنين المذاكرة والتحصيل كطنين النحل إذ كان الطلاب يجنون شهد المعرفة من ألف زهرة من أزهار الحكمة.

ومن هؤلاء الطلاب كانت تتكون طبقة القادة سواء فى الدين أو السياسة. ويذكر أن أحد الأساتذة عاد يومًا من جولة من جولاته الاستطلاعية فذكر أنه لم يتوجه إلى مدينة أو مكان ما إلا وجد تلميذًا من تلاميذه قد تقلد منصبًا هامًا.

وكان بعض الفلاحين يسلمون أولادهم إلى مدرسين خصوصيين لتعليمهم مقابل مكافأة تدفع نقدًا أو حبوبًا، ويتولى المدرس تدريس الطلاب فى بيته الخاص على أن يثقفهم الثقافة التى تؤهلهم لتقلد وظائف خاصة فى الدولة، كأن يصير الطالب قاضيًا أو موظفًا من موظفى القصر. ولا تقتصر مهمة المدرس الخاص على تلقين الطالب العلوم نظريًا، بل كان يتولى أيضًا تدريبه عمليًا كأن يرافقه فى الأسواق ويشاركه فى شراء الأشياء أو زيارة الحمامات أو دخول المسجد. كذلك قد نقرأ أحيانًا كيف أن أستاذًا يشكر تلميذه الذى عنى به أثناء مرضه، فباع الطالب حماره الوحيد ليشترى بثمنه دواء لأستاذه، أو كيف أنه كان يحمل أستاذه المريض على كتفه إلى الحمام الساخن. وجرت عادة بعض الآباء أنهم كانوا يحضرون مربين خصوصيين لتربية أبنائهم فى منازلهم. وإن طفلا نابغًا مثل ابن سينا الذى حفظ القرآن وهو ابن عشر سنوات، كما حفظ كثيرًا من الكتب اللغوية عن ظهر قلب قد

تخطى حدود المدرسة وضاقت هى به. فقد بدأ حياته الدراسية بالشريعة وكان ذلك على يد مدرس خاص، كما تعلم الحساب على يد تاجر فحم، ثم نجد والده يستدعى أبا عبد الله النثيبى إلى منزله وكان يدعى معرفة الفلسفة وأخذ يدرس الطفل النابه إيساجوجى فورفوريوس. لكن سرعان ما فاق الطالب المدرس وأجاب عن الأسئلة أحسن منه ثم شرع يدرس المنطق فأدرك ابن سينا أن أستاذه لا يفقه شيئًا من هذا، فشرع ابن سينا يدرس المنطق بمفرده مستعينًا بتفسير خاص كما استعان بالمدرس لفهم أويقليد، فقرأ عليه خمس أو ست صفحات وواصل هو بمفرده دراسة الباقى. ثم أقبل على الماجسطى، وما كاد ينتهى من المقدمة حتى أقبل على الهندسة، وقال النثيبى: فى استطاعتك أن تقرأ هذا الكتاب مستقلا ومن ثم تشرحه لى لأصحح لك أخطاءك. ولم يدم هذا الحال طويلا إذ غادر النثيبى بخارى فأقبل ابن سينا باشتياق على دراسة الطبيعة وما بعد الطبيعة، كما شرع فى دراسة الطب على عيسى بن يحيى المصحى فقرأ أصعب الكتب ثم قال فيما بعد إن الطب ليس صعبًا، وقد ألم به فى زمن قصير، إذ كان عمره وقتذاك ست عشرة سنة. وصرف نحو عام ونصف عام فى التوسع فى دراسات علمية أخرى وبخاصة المنطق والفروع الأخرى للفلسفة ومراجعتها. وفى ذلك الوقت شفى ابن سينا السلطان الذى اختاره عملا بنصيحة أطبائه المسنين. وقد استكمل دراساته فى مكتبة القصر وفى المستشفيات؛ ولما بلغ الثامنة عشرة كان قد أتم دراسته. وكأنى بالفوز العظيم والتوفيق الكبير فى تحصيل العلوم من خصائص هذا العبقرى.

أما الطريق العادى لكل طالب فهو التوجه إلى المسجد، إذ إن المساجد ليست دور عبادة فقط بل دور علم وتعليم أيضًا، والعلم كما يقول الرسول فوق العبادة العمياء. ألم يقل النبى هذا الحديث: «مداد أقلام العلماء خير من دماء الشهداء»! ولا شك فى أن روما تدخل صاحب مثل هذا القول فى زمرة الزنادقة.

ففى المساجد يجلس إلى جوار الأعمدة الدقيقة الجميلة الأساتذة وحلقة الدرس من الطلاب. وهم يلقون محاضراتهم والأبواب مفتوحة والحضور مباح للجميع. لكل رجل وكل امرأة، ولكل فرد الحق فى توجيه الأسئلة إلى الأستاذ وهذا مما

يضطره إلى الدقة فى التحضير والاستعداد للمحاضرة، ولكل فرد الحق فى أن يحاضر إذا ما شعر بأنه متمكن فى مادته لكن أسئلة الطلاب تحول دون وصول الأدعياء إلى مكان الأستاذية.

ففى صحون المساجد كان للطالب الحق فى أن يستمع إلى من يشاء من الأساتذة ولا سيما المشهورين منهم والذين يفدون من مختلف أرجاء العالم العربى، فالعلماء الذين هم فى طريقهم إلى الحج ينتهزون فرصة مرورهم بمركز شهير من مراكز البحث والدرس فيلقون دروسهم، فنجد هؤلاء ومنهم المؤرخ والجغرافى والنباتى والمحدث والأديب وهم من بين أبناء البلاد العربية الممتدة من المحيط الأطلسى إلى بحر الخزر، فكان هؤلاء العلماء يقصدون أساتذة دمشق أو بغداد وقد يكونون هم أيضًا من أساتذة الأزهر فى القاهرة أو القيروان أو فاس أو الزيتونة فى تونس، فهؤلاء الحجاج كانوا ينقلون فى الوقت نفسه نقل الصحافة فهم ينقلون ما يجرى فى طليطلة أو الرى وهكذا من البصرة حتى فاس وقرطبة.

وما أسهل السرقات الأدبية والعلمية فى مثل هذه الرحلات وتلك الأسفار إذ تنتقل الآراء العلمية الجديدة والنظرية الخطيرة من فم إلى فم، ويذكر يحيى بن عيسى فى شىء من البساطة أنه سمع عن أبى بكر البغدادى كيف أن الشيخ سعيد ابن ياقوت أعلن هذا الرأى فى مجلس عام.

إن العربى لن يلوك لسانه أفكار الآخرين، فكل من يريد استخدام كتاب لمؤلف آخر فى الدرس، عليه أن يحصل قبل كل شىء على موافقة كتابية من المؤلف، فليس من المسموح به أن أحدًا يستشهد فى محاضراته ولو شفويًا بأقوال أستاذه دون أن يكون قد حصل على تصريح مكتوب، كما لا يجوز لأحد أن يستشهد أو ينشد أشعار شاعر دون رضاء الشاعر عن هذا، كما هو الحال فى الجاهلية حيث كان للراوى الحق فقط فى رواية ونشر شعر شاعره. هكذا كان احترام حقوق المؤلفين أو الشعراء أو آراء الآخرين. فلكل مؤلف حق حماية مؤلفاته طيلة حياته، وبعد وفاته ينتقل هذا الحق إلى ورثته. كما أن له الحق فى أن يوصى بأن يرثه أبناؤه أو أحد تلاميذه.

فيروى عن أستاذ أنه كان سخيًا فى منح الإجازات الدراسية لتلاميذه حتى قال فيه تلاميذه: إنه يغطى الأرض بالشهادات خاصًا بما يسمع وإجازات للتدريس كذلك.

والتصريح بنشر ما يقرأ أو يسمع يعتبر دليلاً على كفاية الطالب، والذى يحصل على الإجازة يحصل فى نفس الوقت على حق التدريس علانية أى إجازة التدريس «ليسنتيا دوكندى licentia docendi»، وهكذا نجد حق التأليف أو الاختراع العربى الذى كان يلازم إنشاء المدارس العليا العربية ينتقل إلى الجامعات الأوربية، وهذا هو أصل الدرجة العلمية الجامعية المعروفة باسم «ليسنتياتين Lizentiaten» والتى ما زلنا نجدها حتى اليوم فى الدرجة اللاهوتية ليسانس اللاهوت (lic.theol)، وربما أيضًا «البكالوريا Baccalaureat»، وهى تقابل فى العربية «الحق فى تفويض آخر بالتدريس»، أعنى «بحق الرواية».

ومما لا شك فيه أن الجامعات العربية التى أينعت وازدهرت منذ القرن التاسع الميلادى، ومنذ عصر «جربرت» تغرى وتجذب بعض المتعطشين الأوربيين إلى العلوم والمعارف، فكانوا يتسللون سرًا عبر جبال البرنات، ولا غرابة فى هذا فالجامعات العربية كانت قد بلغت مرتبة رفيعة جدًا، وما كانت هناك فى مختلف أنحاء العالم جامعة تنافسها، لذلك نظر إليها الأوربيون على أنها الصورة المثالية للجامعات عامة وبخاصة الأوربية، فلا غرابة إذا رأينا الأوربيين يقلدونها فيقتبسون عن الجامعة العربية الإجازات العلمية ونظام الكليات وطرق التدريس. جميع هذه الهبات وهبها العرب للأوربيين.

لم يقدم العرب لأوربا البناء فقط بل محتوياته أيضًا أعنى العلوم والمعارف. فقد أهدوا لأوربا مواد هذه الدراسة اليونانية، فالعرب قد اعترفوا بأهميتها وضرورة تدريسها لذلك أعطى العرب أوربا العلوم اليونانية والفلسفة اليونانية.

فهذا المدح القيم الذى يتجاهل ويتعامى عن الإنتاج العربى العلمى، هذا الإنتاج العربى الذى هو الدعامة التى تقوم عليها المعرفة الأوربية، والذى يتفوه به الأوربيون جريمة وإثم لا تجاه العرب فقط بل تجاه الحقيقة ذاتها.

وسيطًا كان أيضًا اليونانيون والهنود فالعالم اليونانى، «تاليس Thales» وكذلك «فيثاغورس Pythagoras» يدينان بالفضل فى معرفتهما الرياضية وما حصَّلاه لمصر، وفى الفلك لبابل. فهذان العالمان اليونانيان أخذا عن مصر وبابل هذه الأصول وتلك القواعد، فاليونان ورثة، فقد ورثوا الشرق القديم، واليونان هم الوسطاء الذين نقلوا عن الشرق القديم علومه، ومن ثم قدموها إلى الشعوب الأخرى، كما هو الحال مع العرب فهم وسطاء اليونان والشرق القديم ومن شعوبه انحدروا، وأوربا هى وريثة العرب والعالم القديم.

وكل عصر يكيف العلم القائم ويشكله كما يريده أبناء العصر، فإن كان هؤلاء من الرجال الأفذاذ تناولوا هذا العلم وأبدعوا فيه فنحن نجد «تاليس» يدرك فى القواعد الهندسية المصرية الأصول العلمية العامة، وهكذا نجد العقلية اليونانية تتجلى فى المادة التى كانت خاصة وتجعلها شيئًا عامًا وتخرج من حقل التجارب الواقعية إلى العملية المجردة، وهذه خاصية امتازت بها العقلية اليونانية. والواقع أن كل ثقافة سواء المصرية القديمة أو البابلية تكوِّن وحدة مستقلة مثلها مثل الثقافة العربية، أو الأوربية حيث نميز فى شىء من الوضوح بين حالتى الثقافتين. ومن الخطأ أن يستخدم شخص ما، إذا ما أراد دراسة ثقافة بعينها، نفس المقاييس لكل الثقافات التى يعرض لها.

كان العنصر الهام فى العقلية اليونانية يهتم بإثبات جوهر الشىء، حتى إذا ما تعب من السير فى طريق التجارب واحتقر العمل اليدوى فى الحقل مثلا واعتبر أن مثل هذا العمل هو من شأن العبيد لا الأحرار، فإن هذا اليونانى يطير إلى جبل أوليمب باحثًا عن القوانين العامة والأفكار التى مكنته من بلوغ منتهاه وإدراك الخلود، لكن تنقصه القدرة على المقابلة عن طريق الملاحظة فالتجربة واقعية. بدهى أن يونانيين لاحظوا وجربوا وقابلوا بين ما قاموا به هنا وهناك من تجارب، بدهى أن أرسطو أجهد نفسه فى سبيل دراسة الفرد، لكن هيكل العلوم اليونانية لم يتغير بسبب مسلك أرسطو فالطب اليونانى والطبيعة اليونانية والكيمياء والحيوان والنبات ظلت بل بقيت فلسفة، وبذلك فهى يونانية. لكن العقلية الهلّينية اشتقت طريقًا آخر بخلاف الأوربيين، كما سلكت كذلك طريقًا يخالف طريق العرب.

من الخطأ أيضًا، كما حدث حتى اليوم، أن نقابل بين العرب واليونان، وأن نتهم العرب بنقص فى فهم العالم وتفسيره تفسيراً فلسفيًا، كذلك ليس من العدل أن نصف العلوم العربية بأنها تقليد أعمى للعلوم الهلّينية، وأن العربية عبارة عن أخذ ورد للعلوم اليونانية أو الهندية، كما أن إنتاج أمثال «تاليس» و«فيثاغورس» هو نقل عن المصريين والبابليين. إن العرب عندما أخذوا ما أخذوا عن اليونانيين أخضعوه لأبحاثهم التجريبية وتوسعوا فيما أخذوا عن اليونانيين، نعم إن العرب هم مخترعوا العلوم التطبيقية والوسائل التجريبية بكل ما تدل عليه هذه العبارة.

والعرب هم المخترعون الحقيقيون للأبحاث التجريبية.

ومما هو جدير بالذكر أن العلماء الهلّينيين وجلهم ليسوا من أصل يونانى بل من أصل شرقى امتازوا بالاستعداد للملاحظة ومختلف الوسائل التجريبية، ولو اضطر هذا العالم الهلّينى إلى إخضاع العملى للنظرى أحيانًا. فكل بحث عند العرب يجب أن يبدأ ويعتمد على حقائق مستقلة، والعرب هم أول من نادى بهذا، ومن ثم تطور البحث، فبعد أن كان يعنى بالحقائق الجزئية أصبح يهتم بالكليات التى تقوم على الحقائق الثابتة. وعن طريق المثابرة فى البحث والمقاييس استطاع العرب حصر الحقائق والإحاطة بها، وبعد تجارب مضنية كثيرة أجريت على النظريات قرر العربى قبولها والاعتراف بصحتها أو رفضها، هذا إلى جانب حرية البحث والتفكير. وقد سبق العرب الأوربيين فى هذا النوع من الأبحاث الحرة بنحو ثمانية قرون وشعارهم «الشك أول شروط المعرفة».

واعتماداً على هذا الرأى ظهر العلماء الطبائعيون العرب، وكانوا أول من فتح الطريق فى العالم فسار فى طريقهم الأوربيون وظهر أمثال: «روجير بيكون» و«ألبرتوس مجنوس» و«فيتيليو» و«ليوناردو دا فنشى» و«جليلى».

وهناك حقيقة يجب أن نقررها مرة ومرات، وهى أن العرب لم ينقذوا الثروة العقلية اليونانية فقط، ولولا هم لضاعت وقبرت، بل العرب هم الذين نظموها فبوبوها ورتبوها، ومن ثم قدموها لأوربا فى ثوب علمى قشيب. العرب هم مؤسسو الكيمياء التجريبية وكذلك الطبيعة العملية والجبر والحساب بمعناه الحديث،

وحساب المثلثات الكروى، وعلم طبقات الأرض، والاجتماع وغير ذلك من الاختراعات الكثيرة الأخرى فى مختلف العلوم والمعرفة، وغالبًا ما سطا عليهم اللصوص ونسبوها إلى أنفسهم. فالعرب هم الذين قدموا للعالم أغلى وأثمن هدية، فهم أصحاب البحوث المنتظمة فى الطبيعيات، هذه البحوث التى كانت العامل القوى فى بعث العلوم الطبيعية فى أوربا.

ولعل أول وأعظم أوربى تأثر بالعقل العربى والعلوم العربية ولم يخش التعاون مع العرب هو القيصر العظيم، القيصر الأشتوفى الصقلى «فريدريش الثانى».

الكتاب السادس

موحد الشرق والغرب

دولة النورمان.. دولة بين عالمين

أضاف القيصر الأشتوفى «هينريش» السادس بعض القطع الثمينة عند عودته من إيطاليا إلى المجموعة النادرة التى هى ملك للدولة المقدسة. وهذه القطع القيمة عبارة عن المعاطف التى توج فيها كثيرون من قياصرة أوربا وملوكها، ومن بينهم ابنه الأكبر «فريدريش» الثانى حيث توجوا جميعهم فى روما. وأثمن وأجمل هذه التحف النادرة الموجودة فى الدولة الرومانية المقدسة كان ولا شك معطف القيصر.

فعلى القماش الأحمر الأزرق توجد نخلة تحمل ثماراً تبرق كالذهب، وعلى كل طرف من طرفى ناحيتى المعطف رسم أسد قوى يبطش بجمل. أما ميدان القتال فهو من لونين: الأحمر والذهبى يحيط به زنار أسمر قائم وصفان من اللؤلؤ يبرزان الزخرفة، والحافة عبارة عن شريط عليه كتابة جاء فيها اسم الشخص الذى زخرفها بالذهب ووطنه وزمن إنجاز العمل «صنع فى المصنع الملكى، وفيه السعادة والحظ والشرف والتمام. . » هكذا نص شعار المصنع «فى مدينة صقلية عام ٥٣٨ هـ».

فهل يرجع هذا المعطف إلى أيام «تيوديريش»؟ كلا. فالكتابة التى على حافة معطف القيصر الألمانى مكتوبة بحروف عربية، وقد اعتاد الطراز العربى استخدام الشهور القمرية والسنة الهجرية، كما كانت النقود التى تضرب فى صقلية تحمل التقويم العربى الهجرى. فلمن صنع هذا المعطف الأزرق الثمين جداً وعليه الأسد والجمل حيوانا الصحراء؟.

إن العام الهجرى ٥٢٨ يقابل الميلادى ١١٣٣، فى عاصمة صقلية: بالرمو، هذه المدينة العظيمة التى أصبحت وكأنها مدينة القصص والخيال، عاصمة لملك اشتهر بإعجابه بعظمة الشرق وأبهته، وهذا هو «روجير» الثانى، وهو ابن فاتح الجزيرة وقاهرها الأمير النورمانى «روجير» الأول الذى انتزع هذه الجزيرة من العرب بعد أن حكموها زهاء ثلاثة قرون، ثم نجد أرملته الأميرة «أديلاسيا Adelasia» هذه السيدة الذكية التى جعلت من بالرمو العاصمة العربية عاصمة للدولة النورمانية، وبذلك وضعت مركز ثقل الدولة الفتية بعيدًا عن المركز الشمالى الواقع حول مسينا، وهو يونانى بيزنطى، بينما بالرمو تقع فى المركز العربى والبيئة العربية، وبذلك مكنتها «أديلاسيا» من التوسع والازدهار. وبعد أن تمكن ابنها من ضم جنوب إيطاليا إلى مملكته استطاع مطالبة سيد روما بالتاج.

ولهذا الملك روجير الثانى ملك الصقليتين صنع أحد أفراد رعيته وهو عبد الله الطراز العربى الرمز العظيم للقوة الملكية: الأسدان اللذان يبركان على الجمل فى التراب «رنك» البيت المالك النورمانى. وإذا سأله سائل: ما الدليل على هذا الطغيان؟ حار جوابًا...

فقبل قرنين كان أجداده من جهة القيروان فى تونس العاصمة القديمة منذ أيام سيدى عقبة فاتح شمال إفريقيا قد أقلعوا إلى صقلية فأدخلوا فيها النواعير التى جعلت من أرضها الجرداء حدائق غناء، فقد جاءوا ومعهم من وطنهم الأول النخيل والسنى، كما غرسوا البرتقال والفستق وشجيرات المر إلى البنان (الموز) والزعفران. لقد أغنى العرب تلك الأراضى الفقيرة بحقول القطن وقصب السكر كما توجوا البلاد بتاج من القلاع الحصينة والقصور الشامخة والمساجد التى تعتبر آية فى الفن والجمال. فابن حوقل الجغرافى يحصى بها حوالى عام ٩٧٠ م نحو ثلثمائة مسجد فى بالرمو فقط، هذا إلى جانب القصور التى كانت موضوع شعر الشعراء والمغنين. كما كان بها الفلاسفة والأطباء والطبائعيون والرياضيون يتعاونون جميعهم فى نشر العلم والثقافة ورفع مستوى الشعب. هنا ألف المؤلفون كتبهم

ودونوها على ورق أبيض ناعم، وهذا هو أول ورق جاء إلى أوربا قبل أن تعرفه من قبل عن طريق إسبانيا بزمن بعيد. هنا قال الشعراء شعرهم فى عروض لم يعرفه اليونان أو الرومان أو الجرمان. وهذا العروض الشعرى غزا شعر سائر الشعوب الراقية.

وهكذا نجد جزيرة صقلية تصبح للعرب وطنًا، ولما انقض عليهم الأسد النورمانى اعتقد كثيرون «أن نير العبودية المسيحية» لن يرضى به العرب وأن حنينهم إلى وطنهم الأول سيقتلهم، لقد حن العرب إلى ذلك الوطن البعيد حيث تشرق الشمس وترسل أشعتها دفئًا وحيوية وقوة وعطرًا للإنسان والحيوان والنبات، وكذلك أنواع البخور التى كانت تعطر أرجاء الجو فيتنفس الإنسان الهواء العليل الذى يطارد الهموم والأحزان.

وقد آلم العهد الجديد الذى حل بالجزيرة كثيرين من الشعراء أمثال عبد الجبار بن أبى بكر بن محمد بن حمديس الصقلى السرقوسى، فقد هاله ما جلب العهد الجديد على الجزيرة فرحل إلى أشبيلية، ومن شعره فى ذلك:

ديار تمشت إليها الخطوب ... كما تتمشى الذئاب الضراء

وقد جاء فى هذه القصيدة التى مطلعها:

نفى هم شيبى سرور الشباب ... لقد أظلم الشيب لما أضاء

ويستطرد ابن حمديس فى قصيدته ويقول:

وراءك يا بحر لى جنة ... لبست النعيم بها لا الشقاء
إذا أنا حاولت منها صباحًا ... تعرضت من دونها لى مساء
فلو أننى كنت أعطى المنى ... إذا منع البحر منها اللقاء
ركبت الهلال به زورقًا ... إلى أن أعانق فيها ذكاء

ولا تقف شكوى ابن حمديس ولا حنينه عند هذه الأبيات فديوانه يفيض

بالحسرة والألم والحنين، لكن بالرغم من ذلك يرغب فى العودة إلى الوطن الذى يحتله الأجانب.

إن جروح ودموع أولئك الذين بقوا فى الجزيرة قد نضبت وبخاصة بعد أن أصبح المتصرون عبيدًا للمغلوبين، وتتلمذوا عليهم، وأقبلوا على تحصيل الثقافة والعلوم على أيديهم.

حقًا إن النورمانيين قد وجدوا أنفسهم فى بيئة دينية جديدة ما كانت تجول بخاطرهم فكانوا أنى أداروا وجوههم لا يشاهدون إلا الجمال والأبهة وحياة أخرى أرفع وأرقى من تلك التى كانوا يحيونها، إنها حياة لا عهد لهم بها من قبل، هذا إلى جانب فن معمارى أقرب إلى القصص منه إلى أى شىء آخر، هذا إلى لغة وشعر بلغا منزلة فنية عليا إلى جانب علم رفيع، لذلك لا عجب إذا وجدنا النورمانيين يؤخذون بهذه البيئة الجديدة ويقعون أسراها عن طيب خاطر.

ولماذا لا تؤثر البيئة الإسلامية فى غير المسلمين، مهما اختلفت عقائدهم وأجناسهم متى سنحت فرص الاتصال بهم؟ ألم يحدث أن الفرسان المسيحيين، لما كانوا فى البلاد المقدسة وبخاصة ملكهم «بلدوين» الأول، رفضوا الانصياع للعقلية الصليبية ولم تحل إنذارات البابا دون اقتباس عادات وتقاليد المسلمين أعدائهم فى العقيدة، وبلغت درجة تأثر أولئك الفرسان المسيحيين وعلى رأسهم بلدوين بالمسلمين والإسلام أنهم حرموا على أنفسهم أكل لحم الخنزير كما التزموا أكل الطعام العربى ومراعاة كل ما هو عربى حتى العملة العربية والمحلاة بالآيات القرآنية الكريمة. لقد جاء الصليبيون «لمقاتلة أعداء الله» فحدث أنهم قلدوا المسلمين فى كل شىء حتى إن المراسلين الذين كانوا فى القدس والذين كان يسرهم أن ينشروا عنهم أنهم يحاربون فى سبيل الله، قال أولئك المراسلون: «نحن الذين كنا أوربيين أصبحنا الآن شرقيين».

أما حكام صقلية الجدد فقد كانوا أسبق من غيرهم إلى اقتباس العادات والتقاليد والثقافة الإسلامية رغمًا من الاتفاقية المبرمة بينهم وبين البابا. وقد أسرف هؤلاء الحكام وغيرهم من سكان صقلية المسيحيين فى التحلل من التقاليد المسيحية حتى

الطقوس الكنسية وشعروا بالسعادة عندما ساروا فى طريق الأمراء العرب. لقد أقام أولئك الحكام المسيحيون فى هذه القلاع العربية، فقصورهم تحيط بها الحدائق الغناء حيث تتدفق فيها الينابيع الصناعية، كما زخرفوا هذه القصور بالزخارف العربية والمياه المتحجرة فى أعلى الكهوف والأقواس المدببة، ولم يترددوا فى تسميتها بأسماء عربية وأن يدشنوها باسم الله الرحمن الرحيم:

بسم الله الرحمن الرحيم

قف ساكنًا وتأمل

عملا عظيمًا شامخًا

إنه ملك خير ملوك الأرض «فلهلم» الثانى.

إن الزاهد هو الذى ينصرف عن الثوب الحريرى المهفهف إلى اللباس الصوفى الخشن الذى يؤلم الجسد بما يحدثه من حكة. وهذا الزاهد لن يقره أو يجاريه الأمراء والأميرات من البيت النورمانى، فضلاً عن رغبة النورمانيين الملحة فى الاندماج فى هذه الحياة الناعمة الراقية التى تفيض على الحياة متعة ولذة وسعادة.

وهكذا أصبحنا ندرك أنه ليس من البدهى أن يخوض أولئك الأوربيون غمار حرب ضد أعداء عقيدتهم، ليس من البدهى أن يضحى الصليبيون بأرواحهم فى القدس ودمياط، إن مثل هذه الحرب لا يمكن الاقتناع بوجوبها، وهكذا نجد وللمرة الأولى فى تاريخ العالم المسيحى النورمانيين يقابلون التسامح العربى بتسامح آخر وفتوة سمحاء. وهذه الصفات رفعت من قدر النورمانيين وميزتهم على سائر الفاتحين المسيحيين، كما أن هذه الأخلاق وتلك المعاملة هى التى جعلت من دولتهم دولة ممتازة، كما أنه لم تزدهر فى أوربا دولة أخرى ازدهار الدولة النورمانية.

فهل الأسباب التى دفعت النورمانيين إلى عدم تخريب وتدمير وتقتيل هؤلاء الوثنيين (!!) الذين خضعوا هى أسباب سياسية؟ أو هل اضطرت الظروف النورمانيين إلى معاملة العرب الذين كانوا يفوقونهم عدداً هذه المعاملة المعتدلة، والنورمان لم يعرفوا ولم يشاهدوا الفتوحات العربية والرعب الذى أدخلوه فى

قلوب الأوربيين؟ أو أن أسباب هذه المعاملة الحسنة للعرب سببها الفروسية التى اكتسبوها عن طريق الفتوة العربية التى اتخذها النورمانيون شعاراً لهم ومثالا يحتذى، هذه الفتوة التى قابلوها بكل احترام وتقدير؟

وكذلك الجرمان سرت فيهم الرغبة الملحة فى معاملة الآخرين معاملة حسنة، ولتحقيق هذه الرغبة يجب أن يتحلوا بالشرف وكرم الأخلاق فأقبلوا على العرب وعاملوهم معاملة الند ونظروا إليهم على أنهم خصوم شرفاء، وقد ظلت هذه المعاملة الحسنة مجهولة لدى سائر الشعوب المسيحية الأوربية أو الصليبيين أو متطرفى الأسبان الذين استردوا بلادهم ثانية واعتبروا فيما بعد مثل هذه المعاملة على أنها من الغرائب. وإن الإنسان ليذكر عبارات عمرو بن العاص قبل الاستيلاء على الإسكندرية ومسلكه عندما يقرأ ما قاله وصنعه الأمير «روبرت جويسكارد» عند أبواب بالرمو حيث أباح للمسلمين المحاصرين حرية العبادة وتأمين حياتهم وممتلكاتهم، وقد وفَّى بوعده حتى بعد الاستسلام. ويعجب الإنسان إيضًا من الجرأة التى اتصف بها أخو «روبرت جويسكارد» ألا وهو الأمير «روجير» الذى بلغت ثقته بالعرب حداً جعله يكل إليهم حكم البلاد وإدارتها، وقد أعاد التاريخ نفسه بعد قرن من الزمان فحيث كنا نجد العرب المنتصرين يؤمنون خصومهم المهزومين، والذين لا يدينون بدينهم على أموالهم وأرواحهم وممتلكاتهم وعقائدهم، كذلك صنع روجر الأول فقد أمن المسلمين من رعاياه على أراضيهم وأرواحهم وممتلكاتهم وعقائدهم، ولو أن فارقًا وقع بين العصرين، أعنى عصر انتصارات العرب وعصر انتصارات النورمان، وهذا الفارق هو أن المهزومين الآن لا يحاولون تقليد المنتصرين فى حياتهم وعاداتهم وتقاليدهم، بل العكس هو الصحيح، فالآن نجد المنتصرين المسيحيين الذين يقلدون المسلمين ويحاولون الاندماج فيهم وائتلافهم، إن المسيحين هنا يقلدون المسلمين فالمسلمون انتصروا أو انهزموا هم المثل الأعلى الذى يحتذى.

وإنه لمن أثر التعاليم الإسلامية هذا الذى يتفق وعقلية الملك الجرمانى الملحد «ثيودوريش»، فقد كان يؤمن بالمذهب الإسلامى القائل: «لا إكراه فى الدين» فحرم

الجراف الألماني استخدام القوة لإجبار المسلمين من رعاياه على تغيير عقائدهم، لذلك نجد الأسقف الإنجليزى «أنسلم» يذكر أنه لما دخل الخيام العربية المقامة أمام أسوار «كبوا» غضب الأمير النورمانى غضبًا شديدًا، لما شعر أن هذا الأسقف الإنجليزى أخذ يبشر بالمسيحية بين جنوده المسلمين. وقد كتب مؤرخ الأسقف الإنجليزى يقول: «لماذا لم يرغب ورفض الجراف روجير أمير صقلية أن مسلمًا واحدًا من مسلمى صقلية يعتنق المسيحية، هذا ما لا أريد الاهتمام به وسيعاقبه الله».

ولكن «عبدالله» مزخرف ملابس وأقمشة الملك روجير الثانى علم منذ زمن بعيد أن ضغط الأسد النورمانى ليس ثقيلا على مواطنيه وأبناء ملته فقد كانوا يتلقون علومهم فى مدارسهم العربية، ومساجدهم وحماماتهم وأسواقهم كانت قائمة يقصدها المسلمون لإقامة شعائرهم وقضاء مصالحهم، كما منحهم الملك ثقته فاختار من بينهم أحسنهم دربة على الأعمال الإدارية لإدارة بلاده، كما شكل من بينهم فرقة عسكرية دائمة عاملة للضرب على أيدى المتمردين من أمراء «أبوليا»، كما أن الملك كان فى حاجة ماسة إلى المسلمين لتنظيم وتدعيم وتثبيت دولته الفتية، وما كان فى استطاعته النهوض بهذا العبء دون مساعدة العربى الذى كان الباب مفتوحًا أمامه لبلوغ أعلى مراتب الدولة سواء فى الوظائف المدنية أو العسكرية أو فى الحاشية، كما ذكر مؤرخ عربى أن ملك النورمانيين قد تخلق بعادات وخلق ملوك المسلمين، فأوجد فى حاشيته وظائف جديدة، وبذلك أخذ يتخلص تدريجيًا من عادات الإفرنج وتقاليدهم وبخاصة أنه لم تكن لديهم مثل هذه الوظائف التى خلقها كوظيفة أمير البحر مثلا.

وتعيين أمير للبحر كان أمرًا ضروريًا إذ بعد الاستيلاء على الجزيرة أصبحت الحاجة ماسة إلى إنشاء أسطول دائم للدفاع عنها، كما كان حالها عندما كانت تحت سيطرة العرب، ولما كانت بالرمو هى عاصمة هذه الجزيرة، فقد أخذت تحتل مكانًا رفيعًا هامًا، كما أصبحت هى مركز القوة البحرية الرئيسية، وأصبح أمير بالرمو هو أمير الأسطول «أمير الرحل»، أعنى أمير البحر (أدميرال).

وفى أيام حكم روجير الثانى كانت وظيفة أمير البحر هى أعلى وظيفة فى الدولة كما أن شاغلها كان موضع ثقة الملك، وأول من تقلد وظيفة الأميرالية، هذه الوظيفة التى هى أصلا وظيفة عربية، لم يكن أحد رجال البحر الأقدمين الذين خدموا فى الأسطول النورمانى بل إن أول أمير بحر للأسطول المسيحى كان عربيًا، وهو عبد الرحمن النصرانى، واسمه اليونانى «الكاثوليكى» هو «كريسودولوس». وكان حتى أيام روجير قائد القوات البحرية والبرية. لكن روجير الثانى رفع من شأن هذا الرجل الثقة وعينه أيضًا قاضى القضاة، ومن ثم وصل إلى درجة «كبير الأشراف protonobilissimus» وخلف هذا الأميرال أمير بحر آخر للدولة الملكية النورمانية، والأميرال الثانى هو العربى العبقرى إداريًا واقتصاديًا واسمه «جورج» الأنطاكى. وبالرغم من عقيدته المسيحية تقلد رئاسة وزارة الزيريين وكان فى سن مبكرة جدًا، وذلك فى مدينة المهدية بالقرب من تونس. ثم نجد هذا المغامر يتقدم بعد وفاة سيده إلى القصر الملكى النورمانى عارضًا خدماته هربًا من النية السيئة لسيده الجديد، وقد وجد روجير فيه الرجل الصالح المطلوب. وبينما كان القصر وسكان المهدية مشغولين بتأدية صلاة الجمعة فى المسجد الكبير صعد وزير المالية متنكرًا فى ثياب بحار ومعه رفقاؤه سرًا إلى سفينة البريد النورمانية، هذه السفينة التى تظاهرت كما لو أنها جاءت ومعها رسالة خاصة من بالرمو إلى أمير المهدية. فهذا التوفيق الذى أحرزه «جورج» الأنطاكى المغامر لازمه وما زال شابًا، والذى حدث أن أمير البحر «كريستودولوس» وهو أقوى شخصية فى الدولة عين هذا الاقتصادى العبقرى الشاب موظفًا فى مصلحة الضرائب، إلا أن استعداده السياسى التجارى مكنه من القيام بمهمة إلى سلطان مصر كان قد كلفه بها «روجير» فعينه قبطانًا فى البحرية وتخطى كعادته الكثيرين الذين كانوا يشغلون مناصب أعلى منه فأصبح رئيسًا حتى على أميرى البحر «أويجين» و«يوحنا» أى الوالد والابن وهما أيضًا من العرب ومن بين الأمراء العرب الذين كانوا يعملون سواء فى الأسطول أو الجيش. وقد استطاع جورج الأنطاكى بعد أن صار أميرًا للبحر أن يرقى إلى أمير أمراء البحر، وبفضل عبقريته الإدارية التخطيطية رفع من شأن أسطول صقلية ونشأه تنشئة جديدة على

النظام المتبع فى الأسطول العربى، فأصبح هذا السلاح البحرى سلاحًا قويًا استطاع بعد زمن قصير السيطرة على شمال إفريقيا.

فهذا العربى العظيم الذى قدم لدولة النورمانيين أهم وأعظم خدمة كان مقربًا جدًا إلى الملك لا لخدمته فقط بل لأخلاقه ونبله فقد قضى جورج الأنطاكى هذا العربى العظيم نحو أربعين عامًا فى خدمة الملك «روجير»، وكانت حياته الوظيفية تتسم بالوفاء والإخلاص والتفانى فى العمل، هذا إلى جانب حسن المعاملة ونبل الأخلاق مما جعل الملك روجير يحترمه ويقدره تقديرًا عظيمًا لم يحظ به موظف آخر من قبل. فهناك وثيقة ترجع إلى عام ١١٣٢م يتحدث فيها الملك عن أمير أمراء البحر جورج الأنطاكى، وقد جاء فيها ما معناه: «أنه الرجل الأول فى دولته»، فهذا الرجل الذى أدى للملك أجل الخدمات، كانت الشخصية التى لا يستغنى الملك عنها والرجل الذين يدين له الملك بالشىء الكثير، حتى إن أحد أعدائه اعترف له بالعظمة والفضل، عندما توفى جورج الأنطاكى بعد هذه الوثيقة بنحو عشرين عامًا، فذكر «لن يستطيع ملك صقلية تعويضه».

ثم إن صداقة مثل هؤلاء الأفذاذ تدفع الحاكم ولا شك لا إلى تقدير صديقه فقط بل إجلال أبناء جنسه أيضًا، ولذلك نجد الملك يتصل بالعرب ويتبادل معهم الرأى ويشاورهم فى مختلف أموره وأمور دولته، ويذهب الملك بعيدًا فيرجو العرب أن يعلموه ما يجهل، فاحتفظ بعدد كبير من شعرائهم وعلمائهم فى قصره وكلف عددًا منهم بترجمة المراجع العربية واليونانية إلى لغته، وقد شارك فى هذه الترجمة أمير البحر «أويجنيوس»، كما ساهم مع النورمان فى المجادلات التى كانت كثيرًا ما تقع بين المسيحيين والمسلمين، وتعصب الملك للإسلام والمسلمين. والذى حمل الملك على هذا الموقف اعتقاده، كما يروى ابن الأثير، أن المسلمين جديرون بالاحترام والتقدير، لذلك صادقهم وحماهم من الإفرنج، فأحبوه. وقد أشاد به العرب فى أشعارهم كما شاركوه أحزانه عند وفاة ابنه البكر الذى امتاز بالحسن والنشط والذكاء، فرثاه الشعراء العرب، كما نجد سيدات عربيات من كرائم الأسر يندبنه ويبكينه، كما ارتدين ثياب الحزن وتركن شعورهن ووقفن أمام القصر يولولون

ويندبن ويلطمن الخدود. ولم يقف الأمر عند الحرائر بل حتى الخادمات كن يجرين فى الشوارع نائحات مولولات نادبات قارعات الرق. وعرب أيضًا هم الذين خلدوه بمؤلفاتهم، وقد ذكروه على أنه الحاكم المثالى الذى عرفته العصور الوسطى، وهو مؤسس الدولة والمشرع والسياسى، كما اهتم بالرياضيات والفلك والجغرافية وعلم الطبيعة والفنون.

ويدين روجير الثانى للعرب الذين مكنوا له فى الأرض وهو أصغر ملوك أوربا وصيّروه أغنى الجميع. فالعرب هم المهرة فى زراعة الأرض وفى النشاط الصناعى، ونظامهم مثالى فى الاقتصاد والضرائب، وقد أخذه عنهم كما أخذ عنهم الإدارة والتشريع. وهناك مصدر آخر من مصادر ثرائه الخيالى هو الضرائب التى كان يدفعها العرب المقيمون على شواطئ شمالى إفريقيا، وهم خالقو أسطوله. وأمير أمراء البحر جورج الأنطاكى هو الذى استطاع بمهارته إخضاع شمال إفريقيا لسيادة صقلية، ثم تركه روجير تسامحًا منه للحكام العرب. والواقع أن روجير يدين كثيراً لهذا العربى الإفريقى الذى جعله ملك «صقلية وإيطاليا وإفريقيا».

أليس من الواجب عليه أن يلم بالبلاد التى يحكمها؟ هذه فكرة تقوم فى الشرق فقط، إذ لا يوجد عالم غير عربى هو الذى يستطيع وضع خريطة تبين هذه البلاد ومواقعها، وهذه الخريطة يجب أن تكون من النوع الذى قام سبعون جغرافيًا بإعداده بأمر من الخليفة المأمون فى بغداد. لذلك نجد ملك صقلية وإيطاليا وإفريقيا يقوم بدعوة أشهر جغرافى العرب فى عصره ألا وهو الإدريسى، من «كويتا»، الذى يكتب:

«فمن بعض معارفه السنية ونزعاته الشريفة العلوية أنه لما اتسعت أعمال مملكته وتزايدت همم أهل دولته وأطاعته البلاد الرومية ودخل أهلها تحت طاعته وسلطانه أحب أن يعرف كيفيات بلاده حقيقة ويقتلها يقينًا وخبرة ويعلم حدودها ومسالكها براً وبحراً، ففى أى إقليم هى وما يخصها من البحار والخلجان الكائنة بها ومعرفة غيرها من البلاد والأقطار فى الأقاليم السبعة التى اتفق عليها المتكلمون وأثبتها فى

الدفاتر الناقلون والمؤلفون، وما لكل إقليم منها من قسم بلاد يحتوى عليه ويرجع إليه . . . فأحضر لديه العارفين بهذا الشأن فباحثهم عليه وأخذ معهم فيه فلم يجد عندهم علما أكثر مما فى الكتب المذكورة، فلما رآهم على مثل هذه الحال بعث إلى سائر بلاده فأحضر العارفين بها المتجولين فيها فسألهم عنها بواسطته جمعًا وأفرادًا فما اتفق فيه قولهم ووضح فى جمعه نقلهم أثبته وأبقاه، وما اختلفوا فيه ألغاه وأرجاه . . . وأن يؤلفوا كتابًا . . بوصف أحوال البلاد والأرضين فى خلقها وبقاعها وأماكنها وصورها وبحارها وجبالها وأنهارها ومواتاتها ومزروعاتها وغلاتها وأجناس أبنائها وخواصها والاستعمالات التى تستعمل بها والصناعات التى تروج بها، والتجارات التى تجلب إليها وتحمل منها والعجائب التى تذكر عنها وتنسب إليها . . . من ذكر أحوال أهلها وهيئاتهم وخلقهم ومذاهبهم وزيهم وملابسهم ولغاتهم».

لقد درس الإدريسى فى قرطبة وقام برحلات طويلة بين آسيا والشواطئ الغربية لإنجلترا ثم تحول جنوبًا حتى بلغ جنوب إفريقيا وقضى خمسة عشر عامًا فى بالرمو يعد أرقامه وخرائطه وملاحظاته العديدة، وقد شارك الملك المتعطش إلى العلوم والمعرفة والجغرافيا الإدريسى فى ولعه بالعلوم والمعارف وبخاصة أن الملك لم يترك أجنبيًا سواء أكان ضيقًا أم دبلوماسيًا أم تاجرًا يفد إلى مملكته إلا استجوابه عن وطنه وخصائصه وعقائده ورحلاته وتجاربه. كما أصدر الملك أمرًا إلى موظفيه العرب ذوى الخبرة الواسعة فى قياس مختلف المدن والأنهار والمرتفعات بإنجاز كل ما يتصل بأعمال المساحة.

وفى أوائل عام ١١٤٥م كمل هذا المؤلف العلمى العظيم، وقد خلف لنا بطليموس العرب سبعين خريطة، وقد سلمها قبيل وفاته إلى الذى كلفه بوضعها وإنجازها. وهذه الخرائط تمتاز على الخريطة الشهيرة التى وضعها الجغرافى المصرى العظيم دقة وحجمًا، هذا فضلا عن بعض المآخذ الواردة فيها. لكن أحسن وأشهر خريطة وصلتنا هى تلك التى تركها لنا الإدريسى، أعنى الخريطة الكبرى للعالم وهى محفورة على كرة من الفضة قطرها متران وتزن ثقل رجلين مكتملين، أما

شرحها فعبارة عن هذا الكتاب القيم الموسوم باسم «كتاب الرجنى» نسبة إلى الملك «رجار» = «روجير».

والإدريسى بالرغم من نبوغه وعبقريته كان واحداً من كثيرين.

ولا شك فى أن الجغرافيا العربية - منذ أسفار التاجر سليمان إلى الصين، وأسفار رحالة آخرين فى جنوب وجنوب شرق آسيا، والتى تمت قبل أن يقوم ماركو بولو برحلاته بنحو أربعة قرون - كانت قد بلغت أوجها فى تلك الفترة، كما أثبتت أن العرب شعب مغرم بالرحلات والأسفار، فاتساع الدولة وترامى أطرافها، إلى كثرة اللغات وتنوع الثقافات، بالإضافة إلى الكرم العربى المشهور اضطر العلماء ألا يثوبوا من سفر إلا وقد أزعجهم سفر إلى مكان آخر حيث يجمعون مختلف العلوم والسير والأخبار، هذا إلى جانب زيارتهم مشاهير العلماء، فالعرب رحالة فى مختلف الأقاليم وبذلك أصبحوا ذوى شهرة عالمية.

كذلك قد ترك لنا الرحالة العرب وصفًا دقيقًا لمختلف أنحاء وأطراف العالم الإسلامى، وشاركهم هذا الفضل الحجاج التجار سواء وفدوا عن طريق البر أو البحر. فضلا عن الأسفار التى قصد من ورائها إشباع رغبة خاصة أو إرضاء هواية التنقل والرحيل، إذكاء للخيال أو المعرفة من الجولان فى مختلف بلاد العالم. أما الجغرافية التى كانت تدرس بين جدران الأديرة فى أوربا والتى كانت تعتمد على المراجع القديمة، وعلى الأحكام النظرية فلا تستحق الوقوف عندها والأخذ منها. أما عند العرب، وفى العالم الإسلامى، فإننا نجد بحاثة مثل المقدسى يقرر أنه خاض معترك الحياة وعاش مع الأحداث اليومية، فقد كتب فى القرن العاشر الميلادى ما نصه:

«وما تم لى جمعه إلا بعد جولاتى فى البلدان ودخولى أقاليم الإسلام ولقائى العلماء وخدمتى الملوك ومجالستى القضاة ودرسى على الفقهاء، واختلافى إلى الأدباء والقراء وكتبة الحديث ومخالطة الزهاد والمتصوفين، وحضورى مجالس القصاص والمذكرين مع لزوم التجارة فى كل بلد، والمعاشرة مع كل أحد والتفطن

فى هذه الأسباب بفهم قوى حتى عرفتها، ومساحة الأقاليم بالفراسخ حتى أتقنتها، ودورانى على التخوم حتى حررتها، وتنقلى إلى الأجناد حتى عرفتها، وتفتيشى عن المذاهب حتى علمتها، وتفطنى فى الألسن والألوان حتى رتبتها، وتدبرى فى الكور حتى فصلتها، وبحثى عن الأخرجة حتى أحصيتها . . فقد تفقهت وتأدبت وتزهدت وتعبدت وفقهت وأدبت وخطبت على المنابر وأذنت على المنائر وأممت المساجد وذكرت فى الجوامع واختلفت إلى المدارس ودعوت فى المحافل وتكلمت فى المجالس وأكلت مع الصوفية الهرائس ومع الخانقائيين الثرائد ومع النواتى العصائد وطردت فى الليالى من المساجد وسحت فى البرارى وتهت فى الصحارى وصدقت فى الورع زمانًا وأكلت الحرام عيانًا وصحبت عباد جبل لبنان وخالطت حينًا السلطان وملكت العبيد وحملت على رأسى بالزنبيل وأشرفت مرارًا على الغرق وقطع على قوافلنا الطرق وخدمت القضاة والكبراء وخاطبت السلاطين والوزراء وصاحبت فى الطرق الفساق وبعت البضائع فى الأسواق وسجنت فى الحبوس وأخذت على أنى جاسوس وعاينت حرب الروم فى الشوانى وضرب النواقيس فى الليالى . . . ».

ومن مشاهير الرحالة العرب الذين اكتسبوا شهرة عالمية ابن بطوطة الذى ترك بلده طنجة وأخذ يتجول فى العالم مدة لا تقل عن أربعة وعشرين عامًا قام فيها بمختلف المغامرات، كذلك العالم البحاثة المسعودى أحد أبناء بغداد، فقد كان كثيرًا ما يهتم بالمواضيع الجغرافية العويصة كاتصال بحر الخزر بالبحر أو ما يتعلق بالكرة الأرضية من بحر آرال حتى زنزيبار، ومن الصين إلى أسبانيا واهتمامه أيضًا بدراسة كل هذه الممالك يشير إلى أهمية المعلومات التى حصلنا عليها حول الكرة الأرضية والتى صححت الأخطاء القديمة التى كانت سائدة من قبل.

وإلى جانب الجغرافية الوصفية نجد الأخرى الفلكية حيث ظهر الفلكى الشهير البتانى وكذلك ابن يونس والبيرونى وابن سعيد والإدريسى وياقوت، وقد خطوا جميعهم بنا خطوات واسعة جدًا فى علم الجغرافية تفوق تلك التى عرفها العالم القديم، كما نجحوا فى قياس أطوال وأعراض كثير من المدن قياسًا غاية فى الدقة،

وقد أقبل العرب المغرمون بالحساب على هذه المقاييس وأتموا هذه الجداول الجغرافية. وإن أخطأت مقاييس بطليموس فى تقدير الدرجات فإن العرب لم يختلفوا إلا فى دقيقة أو اثنتين. أما الإدريسى فقد جمع بين القياسين الوصفى والفلكى الرياضى.

وهناك نوع آخر من الجغرافية أعنى الجغرافية الطبيعية أو جغرافية علم طبقات الأرض، وقد نبغ فى هذا النوع ابن سينا والبيرونى وتوصلا إلى نتائج علمية هامة، وخاصة ما يتصل بنشأة الجبال وطبقات الصخور. فابن سينا يعرف حوالى عام ١٠٠٠م الجبال فيقول:

«وأما الارتفاع فقد يقع لذلك بسبب بالذات وقد يقع بسبب بالعرض. أما السبب بالذات فكما يتفق عند كثير من الزلازل القوية أن ترفع الريح الفاعلة للزلزلة طائفة من الأرض وتحدث رابية من الروابى دفعة. وأما الذى بالعرض كأن يعرض لبعض الأجزاء من الأرض انحفار دون بعض بأن تكون رياح نسافة أو مياه حفارة تتفق لها حركة على جزء من الأرض دون جزء فيتحفر ما يسيل عليه ويبقى ما لا يسيل عليه رابيًا ثم لا تزال السيول تغوص فى الحفر الأول إلى أن يغور غورًا شديدًا ويبقى ما انحرف عنه شاهقًا وهذا كالمتحقق من أمور الجبال وما بينها من الحفور والمسالك وربما كان الماء والريح منطقة متفقة الفيضان، إلا أن أجزاء الأرض تكون مختلفة فيكون بعضها لينًا وبعضها حجريًا فينحفر بالتوالى اللين ويبقى الحجرى مرتفعًا ثم لا يزال ذلك المسيل ينحفر ويبقى على الأيام ويتسع النتوء وكلما انحفر عنه الأرض كان سموه أكثر، فهذه هى الأسباب الأكثرية لهذه الأحوال الثلاثة، فالجبال تكوّنها من أحد أسباب تكوّن الحجارة، والغالب أن تكوّنها من طين لزج جف على طول الزمان وتحجر فى مدد لا تضبط فليشبه أن تكون هذه المعمورة قد كانت فى سالف الأيام غير معمورة بل مغمورة فى البحار فتحجرت. إما بعد الانكشاف قليلا قليلا فى مدد لا يفى التاريخ بحفظ أطواقها. وإما تحت المياه لشدة الحر... ولهذا ما يوجد فى كثير من الأحجار إذا كسرت أجزاء الحيوانات المائية كالأصداف وغيرها...».

وعلم طبقات الأرض عند ابن سينا مثل لخاصيتين من خصائص المعرفة العربية سواء فى القرن العاشر أو الرابع عشر، وسواء فى شرق العالم العربى أو غربه وسواء فى أصفهان أو فى الأندلس، أعنى خاصيتى عدم الاتساق والديناميكية، فالمعرفة العربية تنظر إلى العالم وأحداث الحياة على أنها فى خلق دائم وأنها نهر خالد يتجلى فيه خلق الله، لذلك تدعو المعرفة العربية إلى الطموح فى إجراء التجارب الشخصية والبحث وشرح الحقيقة والرجوع بالأشياء إلى أصولها، كما أنها تعتمد على أدلة لا تقبل شكًا فهى ثابتة تهتم علاوة على ذلك بالشهود العيان. وحدث مرة أن هوى نيزك وكان شاهده محاميًا، وقد كان هذا فى عصر كان فيه الغرب بعيداً كل البعد عن هذا التقدم وذلك الرقى، وكان عاجزاً عن إدراك كنه الظواهر الطبيعية كما كان عاجزاً عن تعليلها، ثم يذكر ابن سينا:

«وإنما تتكون الحجارة فى الأكثر على وجهين من التكوّن أحدهما على سبيل التفخير والثانى على سبيل الجمود فإن كثيراً من الأحجار يتكون من الجوهر الغالب فيه الأرضية وكثيراً منها يتكون من الجوهر الغالب فيه المائية، فكثير من الطين يخف ويستحيل أولا شيئًا بين الحجر والطين وهو حجر رخو يستحيل حجراً، وأولى الطينات بذلك ما كان لزجًا فإن لم يكن لزجًا فإنه يتفتت فى أكثر الأمر قبل أن يتحجر، وقد شاهدنا فى طفولتنا مواضع كان فيها الطين الذى يغسل به الرأس وذلك فى شط جيحون ثم شاهدناه قد تحجر تحجراً رخواً والمدة قريبة من ثلاث وعشرين سنة...».

لكن مترجمى العصور الوسطى لا يهتمون كثيراً بهذه الملاحظات التى أبداها ابن سينا، كما لا يهتمون بسعة اطلاعه وهذه ملاحظات مع أخرى كثيرة جداً نتبين منها مدى دقة الباحث وتعقبه. وبينما نجد هذه العبارات وتلك الأمثال فى النسخة العربية لابن سينا، إذا بنا نجد اللاتينى يعالج الفصل بشىء من عدم الاكتراث، ويذكر أنه يتحدث، وهو يعنى ابن سينا، عن ذكريات الطفولة وغسل الرأس «Sumus quoque quod in teira illa».

ففى أوربا ظل القوم زمنًا طويلا لا علم لهم بالجغرافيا وبخاصة كعلم يقوم على

مثل هذه الأسس وتلك القواعد وخرائط الإدريسى التى رسم عليها الأرض على هيئة كرة بالرغم من أنه لم يكن من المستطاع حسب التجارب الشخصية أو غير الشخصية أو الحسابات الرياضية تدعيم هذا الرأى القائل بكروية الأرض، فالذى كان معروفًا فى كثير من الأديرة حسب رواية الكتاب المقدس أن خريطة العالم عبارة عن قطعة من الأرض تحيط بها المياه وفى وسطها تقع الجنة. وليس بطليموس بل جغرافيو العرب فى القصر الملكى فى صقلية، هم أولئك العرب الذين علموا أوربا. وخريطة الإدريسى تختم ثلاثة قرون كانت خالية مظلمة، وخريطته هى أول مجهود علمى شخصى، كما أن كتاب ابن سينا عن المعادن هو المرجع الأول لأوربا ودراستها لعلم طبقات الأرض، وقد ظلت معتمدة على ابن سينا حتى القرن الثامن عشر.

ويذكر الإدريسى عن البلد الذى وضع فيه مؤلفه:

«إن جزيرة صقلية فريدة الزمان فضلا ومحاسن ووحيدة البلدان طيبًا ومساكن وقديمًا دخلها المتجولون من سائر الأقطار والمترددون بين المدن والأمصار وكلهم أجمعوا على تفضيلها وشرف مقدارها وأعجبوا بزاهر حسنها ونطقوا بفضائل ما بها وما جمعته من مفترق المحاسن وضمته من خيرات سائر المواطن. فأما صقلية المقدم ذكرها فأقدارها خطيرة وأعمالها كبيرة وبلادها كثيرة ومحاسنها جمة ومناقبها ضخمة، فإن نحن حاولنا إحصاء فضائلها عددًا وذكرنا أحوالها بلدًا بلدًا عز فى ذلك المطلب وضاق فيه المسلك لكنا نورد منها جملا يستدل بها ويحصل على الغرض المقصود منها إن شاء الله تعالى . . .

«مدينة بلرم وهى المدينة السنية العظمى والمحلة البهية الكبرى والمنبر الأعظم الأعلى على بلاد الدنيا، وإليها فى المفاخرة النهاية القصوى ذات المحاسن الشرائف ودار الملك فى الزمان المؤتنف والسالف ومنها كانت الأساطيل والجيوش تغدو للغزو وتروح كما هى الآن عليه من ذلك، وهى على ساحل البحر فى الجانب الغربى والجبال الشواهق العظام محدقة بها وساحلها بهج شرقى فرج ولها حسن المبانى التى سارت الركبان بنشر محاسنها فى بناءاتها ودقائق صناعاتها وبدائع

مخترعاتها. وهى على قسمين قصر وربض. فالقصر هو القصر القديم المشهور فخره فى كل بلد وإقليم وهو فى ذاته على ثلاثة أسمطة، فالسماط الأوسط يشتمل على قصور منيفة ومنازل شامخة شريفة وكثير من المساجد والفنادق والحمامات وحوانيت التجار الكبار، والسماطان الباقيان فيهما أيضًا قصور سامية ومبان فاخرة عالية وبهما من الفنادق والحمامات كثير وبه الجامع الأعظم الذى كان بيعة فى الزمن القديم وأعيد فى هذه المدة على حالته فى سالف الزمان، ووصفته الآن تغرب عن الأذهان لبديع ما فيه من الصنعة والغرائب المفتعلة والمنتخبة والمخترعة من أصناف التصاوير وأجناس التزاويق والكتابات. فأما الربض فمدينة أخرى تحدق بالمدينة من جميع جهاتها وبه المدينة القديمة المسماة بالخالصة التى بها كان سكنى السلطان والخاصة فى أيام المسلمين وباب البحر ودار الصناعة التى هى للإنشاء والمياه بجميع جهات مدينة صقلية مخترقة وعيونها جارية متدفقة وفواكهها كثيرة ومبانيها ومتنزهاتها جنة تعجز الواصفين وتبهر عقول العارفين وهى بالجملة فتنة للناظرين..».

ومن بين الرحالة الذين سحرتهم بالرمو الرحالة العربى الغرناطى ابن جبير الذى زارها عام ١١٨٥ م فبهرته، وقد ترك لنا فى رحلته وصفًا دقيقًا فى صقلية وبالرمو والقصر الملكى، وقد أطنب فى وصف عاصمة النورمانيين والملك النورمانى. وقد سبقه إلى هذا الوصف وذلك المديح الإدريسى بنحو ثلاثين عامًا. وحدث أن توفى فى تلك الفترة الملك رجار الثانى وفى نفس العام الذى أتم فيه الإدريسى كتابه وأغدق عليه الملك الكثير من الهدايا وبعد أن خلفه ابنه فلهلم الأول الذى لم يحكم طويلا إذ توفى وخلفه ابنه وحفيد روجير الثانى وهو فلهلم الثانى.

وقد ظل الأسد النورمانى يحكم صقلية زهاء قرن من الزمان، والشىء الجدير بالانتباه هذه الصلة القوية بين الحاكم ورعاياه العرب، وهذه الصلة هى التى لفتت نظر رحالة غرناطة وكان يعتقد أنه سيزور بلدًا يحكمه الإفرنج إلا أنه سرعان ما تبين مقدار الثقة العظيمة التى أولاها الملك للمسلمين «وشأن ملكهم هذا عجيب فى حسن السيرة واستعمال المسلمين واتخاذ الفتيان المناجيب وكلهم أو أكثرهم كاتم

لهمساته متمسك بشريعة الإسلام، وهو كثير الثقة بالمسلمين وسكن إليهم فى أحواله والمهم من أشغاله حتى إن الناظر فى مطبخته رجل من المسلمين وله جملة من العبيد السود المسلمين وعليهم قائد منهم ووزراؤه وحجابه الفتيان، وله منهم جملة كبيرة هم أهل دولته والمرتسمون عاصمته وعليهم يلوح رونق ملكه لأنهم متسعون فى الملابس الفاخرة والمراكب الفارهة، وما منهم إلا من له الحاشية والخول والأتباع، ولهذا الملك القصور المشيدة والبساتين الأنيقة ولا سيما بحاضرة ملكه المدينة المذكورة. . .».

ويستطرد ابن جبير فى وصف رحلته فيصف العاصمة قاعدة ملك الجزيرة: «والمسلمون يعرفونها بالمدينة والنصارى يعرفونها ببلارمة . . . الجامعة بين الحسنين غضارة ونضارة فما شئت بها من جمال مخبر ومنظر ومراد عيش يانع أخضر عنيقة أنيقة مشرفة مؤنقة تتطلع بمرأى فتان وتتخايل بين ساحات وبسائط كلها بستان فسيحة السكك والشوارع تروق الأبصار بحسن منظرها البارع عجيبة الشأن قرطبة البنيان مبانيها كلها بمنحوت الحجر المعروف بالكدان يشقها نهر معين ويطرد فى جنباتها أربع عيون قد زخرفت فيها لملكها دنياه واتخذها حضرة ملكه الإفرنجى أباده الله تنتظم بلبنها قصور انتظام العقود فى نحو الكواعب ويتقلب من بساتينها وميادينها بين نزهة وملاعب فكم له فيها، لا عمرت به، من مقاصير ومصانع، ومناظر ومطالع . . . وكنائس قد صيغ من الذهب والفضة صلبانها . . .

وللمسلمين بهذه المدينة رسم باق من الإيمان يعمرون أكثر مساجدهم ويقيمون الصلاة بأذان مسموع، ولهم أرباض قد انفردوا فيها بسكناهم عن النصارى والأسواق معمورة بهم وهم التجار فيها ولا جمعة لهم بسبب الخطبة المحظورة عليهم ويصلون الأعياد بخطبة، دعاؤهم فيها للعباسى، ولهم بها قاض يرتفعون إليه فى أحكامهم وجامع يجتمعون للصلاة فيه . . وأما المساجد فكثيرة لا تحصى وأكثرها محاضر لمعلمى القرآن. وبالجملة فهم غرباء عن إخوانهم المسلمين تحت ذمة الكفار ولا أمن لهم فى أموالهم ولا فى حريمهم ولا أبنائهم . .».

ويذكر ابن جبير فى وصف الملك: « . . وليس فى ملوك النصارى أشرف فى

الملك ولا أنعم ولا أرق منه وهو يتشبه فى الانغماس فى نعيم الملك وترتيب قوانينه ووضع أساليبه وتقسيم مراتب رجاله وتفخم أبهة الملك وإظهار زينته بملوك المسلمين، وملكه عظيم جداً وله الأطباء والمنجمون، وهو كثير الاعتناء بهم شديد الحرص عليهم حتى إنه متى ذكر له أن طبيبًا أو منجمًا اجتاز ببلده أمر بإمساكه وأدر له أرزاق معيشته حتى يسليه عن وطنه . . ومن عجيب شأن المتحدث به أنه يقرأ ويكتب بالعربية وعلامته على أما أعلمنا به أحد خدمته المتخصصين به الحمد لله حق حمده وكانت علامة أبيه الحمد لله شكراً لأنعمه. وأما جواريه وحظاياه فى قصره فمسلمات كلهن ومن أعجب ما حدثنا به خديمه المذكور وهو «يحيى بن فنيان» الطراز وهو يطرز بالذهب فى طراز الملك أن الإفرنجية من النصرانيات تقع فى قصره فتعود مسلمة تعيدها الجوارى المذكورات مسلمة وهن على تكتم من ملكهن فى ذلك كله، ولهن فى فعل الخير أمور عجيبة، وأعلمنا أنه كان فى هذه الجزيرة زلازل مرجفة ذعر لها هذا المشرك فكان يتطلع فى قصره فلا يسمع إلا ذكراً لله ولرسوله من نسائه وفتيانه، وربما لحقتهم دهشة عند رؤيته فكان يقول لهم: «ليذكر كل أحد منكم معبوده ومن يدين به تسكينًا لهم»، وأما فتيانه الذين هم عيون دولته وأهل عمالته فى ملكه فهم مسلمون ما منهم إلا من يصوم الأشهر تطوعًا وتأجراً ويتصدق تقربًا إلى الله وتزلفًا ويفك الأسرى ويربى الأصاغر منهم ويزوجهم ويحسن إليهم ويفعل الخير ما استطاع، وهذا كله صنع من الله عز وجل لمسلمى هذه الجزيرة».

ويعرض ابن جبير للمسيحيين وكنائسهم وتشبه نسائهم بالمسلمات فيذكر . . . «كنيسة تعرف بكنيسة الأنطاكى أبصرناها يوم الميلاد وهو يوم عيد لهم عظيم، وقد احتفلوا له رجالا ونساء فأعجبنا من بنيانها. وزى النصرانيات فى هذه المدينة زى نساء المسلمين فصيحات الألسن ملتحفات متنقبات خرجن فى هذا العيد المذكور وقد لبسن ثياب الحرير المذهب والتحفن اللحف الرائقة وانتقبن بالنقب الملونة وانتعلن الأخفاف المذهبة وبرزن لكنائسهن أو كنسهن حاملات جميع زينة نساء المسلمين . . ».

وفى صقلية هذه بقصورها العامرة وحدائقها الغناء وفى شوارع بالرمو الواسعة

الغنية بحوانيتها وحواريها المنسابة فى الأحياء العربية نشأ وترعرع حفيد الملك روجير الثانى يتيما مهملا . وهذا الحفيد هو فى نفس الوقت حفيد القيصر فريدريش برباروسا ، وهو «فريدريش روجير» . وقد جلس على عرش مملكة صقلية بعد ابن عمه النورمانى الملك «فلهلم» الثانى والقيصر «هينريش» السادس ، والده الألمانى ، ومن ثم اشتهر باسم فريدريش الثانى قيصر الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وكانت المسئولية الملقاة على عاتقه شاقة جداً ، إذ كان العالم الذى يعيش فيه مضطربًا متخاصمًا متحاربًا ، إلا أن فريدريش أخذ يشق طريقه إلى المجد زعيمًا لعصر جديد .

كانوا أعداء فألف بينهم

إن الهمس فى المعسكر بالقرب من يافا لا ينتهى ، كما انتشرت الشائعات حتى بلغت إيطاليا ، فالهمس يدور حول اتصالات بين القيصر والمسلمين ، وذلك منذ شهر سبتمبر عندما وطئت قدم القيصر المطرود من الكنيسة الأراضى المقدسة وظل طيلة هذا الوقت مسالمًا لا يسل سيفًا . ولم يقع حادث يعكر صفو السلام فى الأراضى المقدسة ، وحتى لا يشعر جنوده من الألمان وبعض الإنجليز ونفر من أهالى بيزا وجنوة ، وجميعهم قد أخلصوا له ، بالسأم والضجر كلفهم بالقيام ببعض الأعمال اليدوية مثل تقليب الأرض وعزقها حتى لا يملوا العمل فى تشييد الحصون . وفى الوقت نفسه كانت الرسل تروح وتغدو بين يافا ومعسكر السلطان الكامل الذى لم يكن يبعد كثيرًا عن حدود مصر . وفى تلك الفترة يجلس زعيم المسيحية فى خيمته ومعه عربى فى غاية الأناقة يتحدثان فى اللغة العربية حديثًا طويلا لا يعرف نهاية ، وهو حديث سرى ، لذلك ظلت هذه المفاوضات سرًا غامضًا على الآخرين . وقد أصبح من العسير على الإنسان أن يتكهن بماذا تأتى الأيام وراء هذه الجبهة العريضة للقيصر الأكبر صاحب السلطان القوى فى معسكره وعلى جيشه ، ولو أن خصمه فى روما أخذ يبذل كل ما فى جهده من دعاية وتشنيع ، وأعلن البابا زورًا وبهتانًا خبر وفاة القيصر وبذلك أباح لشعبه التحلل من يمين الولاء والطاعة له كما انقض جنود البابا على مملكته . وهنا فى الشرق نجد رجال الدين السوريين والبارونات يعلنون معارضة القيصر ، كما وجد فى معسكره بعض الخونة الذين أخذوا يتربصون به ، كما وقع فى حيرة من جراء إطعام هذا الجيش الجائع

وبخاصة بعد أن افتقد سائر مصادر التموين «إلا أننا أخفينا آلامنا المبرحة وراء ابتساماتنا المرحة»، وقد ذكر فيما بعد «حتى لا ينتصر أعداؤنا».

وإذا ذكرنا المخلصين للقيصر وحفظه سره جاء رئيس طائفة الألمان وهو «هرمان فون سلزا Harman von Salza» والجراف اللنجوباردى «توماس فون أكوين Thomas V. Aquin» والرجل العربى الشريف «فخر الدين» الذى سبق له بصفته السفير المصرى لسلطان مصر لدى القيصر أن عرض عليه فى قصره المعروف باسم «فوجيا Foggia» بإقليم أبوليا إبرام معاهدة صلح تسلم بمقتضاها القدس إلى القيصر، واستطاع هذا السفير العربى المصرى برقته ولباقته وحسن سياسته إقناع القيصر بوجهة نظره واكتساب ثقته وصداقته؛ مما اضطر القيصر فريدريش إلى الاطمئنان إليه واطلاعه على جميع أسراره.

لكن حدث فى تلك الفترة أن تغير الوضع الذى دفع السلطان إلى التقدم بهذا العرض، إذ أصبح السلطان الكامل ليس فى حاجة ماسة إلى مساعدة القيصر فريدريش الثانى، فلماذا إذن هذا التساهل من جانبه إلى فريدريش؟ وعلاوة على ذلك فقد حصل هو على القدس دون حرب أو مساعدة.

ثم نجد القيصر، قيصر أوربا، يجيب سلطان العرب عن طريق كبير أمنائه: «لم نعبر البحر لفتح بلادكم فإننا نملك من البلاد أكثر من أى ملك على ظهر البسيطة، بل لتحقيق اتفاقنا الخاص بالأماكن المقدسة إجلالا للسلام والوئام، ولا داعى للنزاع مع المسيحيين ولا ضرورة لإراقة دماء رعاياكم». فاستقبل السلطان كبير الأمناء استقبالاً عظيمًا وأكرم وفادته إلا أن السلطان أهمله بطريقة مهذبة، وكان تبادل زيارات الرسل بين العاهلين مقصوراً على تبادل الهدايا وإبداء علامات الود والصداقة، فقد أهدى السلطان الكامل للقيصر هدايا عظيمة جداً من بينها جمال للسباق فجياد عربية وفيلة وقردة وصقور للصيد وأحجار كريمة نادرة، وأقمشة حريرية مقصبة، وفريدريش الثانى يدرك تمام الإدراك المستوى العقلى الرفيع للسلطان الكامل وحاشيته والمتصلين به، فأرسل إليه عدداً من الأسئلة العلمية

العويصة الخاصة بالرياضيات والفلسفة والعلوم الطبيعية، وعن طريق هذه الأسئلة أظهر القيصر له كل احترام وتقدير ولم يدر حديث ما عن المعاهدة والاتفاقية.

والواقع أن تنفيذ الاتفاقية والاستيلاء على القدس يحل العقدة المستحكمة، وهذا كان رأى فريدريش والمخلصين له من حوله، وتخليصه من الحرمان من الكنيسة، فقد ذهبت العداوة المستحكمة بين البابا والقيصر فريدريش الثانى حداً بعيداً، واستولت على البابا فكرة تافهة وهى وجوب العمل لإحباط محاولة القيصر فى سبيل الحصول على القدس، هذه المهمة التى انتقل من أجلها من روما. وكان كل أمل البابا أن يعود فريدريش بخفى حنين ذليلا لا يتردد فى تقديم فروض الولاء والطاعة البابا. والشىء الجدير بالذكر أنه ضبطت خطابات موجهة من البابا إلى السلطان العربى حاكم الوثنيين (!) يرجوه فيها عدم التنازل عن الأراضى المقدسة لفريدريش الثانى.

أما لعبة السؤال والجواب فقد جاءت علاوة على اللذة العقلية للحاكمين بأحسن النتائج، فقد كان الأمير فخر الدين هو الذى يجىء إلى السلطان بقائمة تحتوى على إجابات علمية هامة جداً، وهو الذى كان يتوجه إلى القيصر فى معسكره، فقد كان فريدريش الثانى يقاسمه الخيمة والأفكار، إن فخر الدين كان صديقه العربى الحميم.

لماذا تنشب حرب وهى بغيضة لدى الطرفين: القيصر فريدريش الثانى والسلطان الكامل؟ لماذا يتحارب الاثنان وهما على مستوى رفيع جداً من الثقافة؟ إن الفرصة سانحة وبخاصة بعد أن أريقت دماء كثيرة من الجانبين لإحلال السلام والصفاء بين الشرق والغرب؟

وأمام حسن النية التى أبداها القيصر لم يسع فخر الدين إلا أن يقر القيصر على رأيه وحبه للسلام، وهكذا استطاع فخر الدين أن يحل العقدة الأولى. وعوضاً عن كبير الأمناء القيصرى الأرعن والذى أثار غضب السلطان يجب أن يسند القيصر المفاوضات إلى الجراف «فون أكوين» عوضاً عن ذلك الأرعن، وهذا الجراف قد تعلم العربية فى صقلية، كما أتقن الطريقة الإسلامية فى المخاطبة وحسن معاملة الناس.

حقًا إن المشورة كانت موفقة كما أحسن اختيار الزمن. فقد عرف فريدريش السلطان عن طريق رسوله الفتوة ومراعاتها وتقدير مركزه ومكانته فى أوربا. كما أدرك السلطان جميع التفصيلات والأمور التى تمت بين القيصر فريدريش و«خليفة روما» وكان على علم تام بكل ما يجرى وجرى هناك فى أوربا. لذلك ما كاد فخر الدين يخبر سيده السلطان الكامل بأفكار الإمبراطور، وأنه يذكره بوعده الذى قطعه على نفسه وأعلن استعداده لعقد اتفاقية جديدة وبخاصة أن مركزه فى سوريا لم يكن على ما يرام، حتى وافق السلطان الكامل على عقد الصلح مع القيصر فريدريش الثانى. وفى ١٨ فبراير ١٢٢٩م تصافح الشرق والغرب وحل السلام محل الخصام.

وقد حضر مراسيم توقيع المعاهدة السادة: «هرمان فون سلزا» رئيس الطائفة الألمانية و«توماس فون أكوين» و«الجراف فون أكيرا»، وأقسم أمير المؤمنين السلطان الكامل يمين العهد والمواثيق واحترام اليمين، كما أعلن فى نفس الساعة احترامه لهذه الاتفاقية الرئيس المدنى للمسيحيين، وكان ذلك فى المعسكر الكائن بالقرب من يافا، ألا وهو القيصر فريدريش الثانى، فقد أقسم يمين الوفاء أمام الأمير فخر الدين.

عقد السلام «بدون حرب وبدون استخدام أسلحة» وعن طريق المفاوضات، وهذه المعاملة وهذه الأخلاق هى التى قربت وآخت بين ابن عم فريدريش الصقلى وهو الملك فلهلم الثانى الذى عرف المسلمين فى مملكته واحترامهم وأحبهم من قبله، وإن لم يكن فى درجة حب واحترام فريدريش الثانى لهم.

وقد نجح فريدريش الثانى فى كسب ما هو أهم وأعظم، كسب شيئًا لم ينجح فيه أحد قبله، ومن ثم طلب إلى هرمان فون سلزا أن يعلن عاليًا شكر الله فى الأعالى وذلك بين مختلف وحدات الجيش. فقد أعلن القيصر هذا الخبر بين عدد قليل من رجاله، وقد علمت الشعوب بهذا الخبر واستغربت كيف استطاع القيصر فريدريش أن يوفق وينجح فى جمع شمل أبناء الشعوب المختلفة والمؤاخاة بينهم. إن فريدريش قد نجح بفضل إرادته لا بقوته، لقد حقق فريدريش الثانى ما عجز عن تحقيقه سابقه وبمختلف الوسائل..

«لقد تحقق هدف الحرب الصليبية وبدون إراقة دماء». لقد تحررت الأماكن المقدسة: القدس، بيت لحم، الناصرة، وكذلك الطريق المستخدم فى الحج من الشاطئ مخترقًا الجبل بقلاعه وصيدا وقيصرية ويافا وعكا.

أما القدس التى تضم أيضًا كثيراً من الأماكن الإسلامية المقدسة، فقد أعلنت مدينة مقدسة للطرفين فهى مقدسة للمسلمين أيضًا. وهكذا شرح صلاح الدين لقلب الأسد ريتشارد: أن القدس أكثر قداسة بالنسبة لنا منكم، فمن هناك بدأت قصة الإسراء وتجمعت الملائكة، لذلك نجد مسجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى فى الحرم الشريف والمعبد الذى يحتفظ به المسلمون، كما أبيح للمسيحيين إقامة صلواتهم به، كما هو الحال مع المسلمين فى بيت لحم. إن الحجاج من المسلمين والمسيحيين يجب أن يسود بينهم الحب والاحترام، كما يجب أن يحترم كل فريق حقوق الفريق الآخر وكل يعبد الله حسب طريقته.

إن مثل هذه الفكرة بديهية وطبيعية عند العرب، لكن من وجهة النظر الأوربية عبارة عن نقطة تحول فى التفكير العالمى. فقد أخذت تتلوها آراء جديدة أخرى كما ظهر منادون يدعون إلى السلام وحل المشكلات المتنازع حولها عن طريق المفاوضات لا القوة وبخاصة فيما يتصل بمسألة العقائد واستنكار الوسائل المتبعة ضد الوثنيين فى نظر الكنيسة المسيحية، والعمل على إيقاف عملية اضطهادهم واستئصالهم. وكان من زعماء المنادين بهذه المبادئ «فولفرام فون اشينباخ» والسير «روجير بيكون» والملك ألفونس العاشر صديق العرب، وكذلك «فرنسيسكوس فون أسيسى» وهو الذى كان ينادى فى قصر السلطان الكامل مبشراً بكلمة الله ولو أنه لم يحرز نجاحًا كبيراً. واستجابة لسياسة القيصر وتأييدًا لها نجد هذا النداء الذى نادى به التروبادور الفرسان ووصفوه بأنه طبيب أوربا الماهر.

فالسلام الذى حل بين أصحاب الديانات المختلفة ونشر السعادة فى حياة المسلمين والمسيحيين جعلهم يسخرون من الحروب الصليبية وعقلية الصليبيين، هذه العقلية البغيضة التى فرضتها الكنيسة على أتباعها. وقد تجلت هذه الروح الجديدة فى القضية التى أقامها البابا على سفير القيصر فى مدينة ليون حيث أجاب السفير:

إنه فى القدس وعلى مشهد من العالم أثبتت سياسة فريدريش البعيدة «أن صداقته من الأمراء العرب وفرت كثيراً من إراقة الدماء المسيحية».

إن المفاوضة مع الوثنيين!! ـ ونسى أن «جوتفريد فون بويليون Gottfried von Bouillon» والمندوب البابوى « بيلاجيوس Pelagius» قد تفاوضا مع الوثنيين ـ فقط هى التى انتهت إلى السماح للوثنيين بإقامة الصلاة فى القدس، وهذا هو السبب الذى من أجله اعتبرت الكنيسة القيصر فريدريش الثانى خائنًا ومسيئًا للدين وأنه ابن شيطان ويعمل ضد المسيح وفى مقدمة الأشرار الذين سيصلون النار.

كما أن نجاح وتوفيق القيصر الذى حرمته الكنيسة، هذا النجاح الذى لم تحرزه سائر جيوش الصليبيين آلم خصومه إيلامًا شديداً كما حط من قدرهم وكرامتهم حتى إنه يقال إن جريجور التاسع حرض رؤساء جماعة الداودية والهوسبيتالر على إرسال مندوب سرى إلى الكامل يبلغه أنهم علموا أن القيصر سيحج فى صحبة نفر قليل فى ساعة معلومة فينتقل من القدس إلى موضع المعمودية على الشاطئ الغربى لنهر الأردن. والفرصة سانحة للسلطان ليقبض على القيصر ويقتله، فتألم السلطان من هذه الخيانة ألمًا شديداً ولا سيما أنها صادرة من فارس الخليفة الرومانى، فما كان من السلطان إلا أن أرسل هذه الرسالة الممهورة بتوقيع رئيس طائفة الداودية، وقد كتب السلطان الكامل إلى القيصر قائلا: «إن هذا الوثنى مثله مثل عمه صلاح الدين يخجل أشد الخجل مما تقترفه هذه العصبة التى يدعى أفرادها أنهم المسيحيون الحقيقيون والذين يؤمنون بالحب المسيحى أن مثل هذه الجريمة تجرح فتوته».

وهكذا ظلت الكنيسة لآخر لحظة تحارب فريدريش الثانى وتحاول إحباط كل خطواته أو إقامة العراقيل فى طريقه وإفساد كل أعماله، ولما تسلم عند باب يافا فى القدس مفتاح المدينة من يد مندوب السلطان وسار فى الطريق مع الألمان الذين كانوا معه، وقد أخلى المسلمون الشوارع من المارة، حرم أسقف قيصرية دخول المدينة على المسيحيين، كما حرم عليهم إقامة الشعائر الدينية فى الكنائس، كما رفض رجال الدين قبول القرابين، وأخذ رجال الدين المسيحيون يحرضون رجال الجيش على الثورة ويطالبونهم إلى جانب ذلك بوجوب القيام بأعمال السلب والنهب،

وبلغت الخصومة منتهاها عندما ألقى رجال الدين الغائظ على القيصر وفرسانه لما صعدوا على ظهر السفينة .

لقد نجح فريدريش فى إحلال السلام بين الشرق العربى والغرب المسيحى ولو لفترة قصيرة ، هذا السلام القائم على الاحترام والتعايش السلمى ، هذا السلام الذى أخذت تحاربه الكنيسة بمختلف الوسائل والطرق . أما السلطان الكامل فلم يلق من مختلف أنحاء العالم الإسلامى إلا قذفه بتهمة الخيانة الكبرى فالعالم الإسلامى ما زال يذكر حمامات الدماء التى أراقها الصليبيون فى القدس والعالم الإسلامى لذلك يأبى أن يصافى الأيدى المسيحية الملطخة بالدماء .

وهكذا أصبحت رسالة القيصر التى كان من الصعب تحقيقها سياسيًا وواقعيًا وسيلة للتوحيد بين الدولة والدين ؛ وبذلك شق لأوربا طريقًا جديدًا فى مضمار مستقبل أحسن .

ســـــلطان لوكيـــرا

«أول رجل حديث على العرش» . .

هكذا وصف «يعقوب بورخردت» القيصر فريدريش الثانى على أنه مثال الرجل الحر الموجود فى المجال التاريخى العالمى ، «عقلية متحررة» من القيود والتقاليد وهو الرجل الذى يأتى فى طليعة قادة النهضة الإصلاحية وحركة إحياء العلوم . وهذا الحكم جدير بالاعتبار والاهتمام ، فالقيصر فريدريش كان أكثر أمراء الإصلاح شبهًا بالحكام العرب ، مثله مثل المأمون أو الكامل ، وإن الصلة بينه عقلاً وخلقًا وبين سلطان مصر تكاد تشبه الصلة بين أوراق الشجرة الواحدة فالميول واحدة والعادات متشابهة وطرق الحياة والنظرة إليها والسلوك والاتصالات بالناس تكاد تكون عند القيصر فريدريش صورة لتلك التى يتصف بها سلطان مصر ، كما أن كلا منهما يتصف بنظرته التحررية التى يتطلع بها إلى هذا العالم كعالم وحاكم ومصلح وبخاصة فيما يتصل بالمسائل الاقتصادية ، وفريدريش كذلك مؤسس مدرسة عليا وليس أقل من الكامل بغضًا لإراقة الدماء .

وفى أعقاب حركة النهضة ، نجد القوى التى شحنها فريدريش الثانى تتدخل فى التاريخ وتؤثر فيه وتغير وجه أوربا من أساسه . وبالرغم من كل هذا لم يكن يعتقد أنه «إنسان عصرى» ، ولم يكن الشخص الذى يشعر أنه متحرر وأنه قد يقال عنه إنه مفكر حر أو زنديق ، بل كان بالرغم من كل ذلك مسيحيًا مؤمنًا بالمسيحية ، وكان فى مسيحيته أفضل من أولئك الذين يجلسون على كرسى بطرس أعنى الباباوات : هؤلاء الذئاب فى ثياب الحملان ، أولئك الذين يخلقون الفرقة بين الناس

ويحرصون على ألا يسود السلام العالم، أولئك الذين يطردون المؤمنين من الكنيسة إشباعًا لميولهم كما يصبون جام غضبهم على خصومهم دون وازع من ضميرهم ويذهبون بعيدًا فيستبيحون لأنفسهم تجريد المؤمنين من أموالهم ظلمًا وعدوانًا. أما هم فيتمرغون فى الثراء حتى تقضى ثروتهم عليهم.

لقد كان فريدريش الثانى أسيرًا للعصور الوسطى بالرغم من أنه نشأ وتربى فى بيئة متعلمة متحررة عن تلك التربية الأوربية التى كانت سائدة فى ذلك العصر، وهذه الحالة التى كان عليها فريدريش بالرغم من صلته القوية بالعصور الوسطى تجعلنا لا نتردد فى الحكم عليه بأنه إنسان عصرى، ومعنى ذلك أنه اقتبس المثل العربية وأثرت فيه وتأثر بها كما أضاف إليها أفكارًا عربية أخرى مكنتها من عروبتها وجعلتها أكثر أصالة من غيرها.

وليس معنى هذا أن هذه الشخصية الجبارة يجب أن ننظر إليها ونحكم عليها من هذه الزاوية فقط، فالشيء الذى يجب الاعتراف به أنه ما كان يبلغ ما بلغه دون القواعد والأسس العربية التى قامت عليها دولة النورمانيين، فضلا عن الثقافة العربية التى كانت سائدة فى صقلية وطنه. وقد أيد هذا الرأى كثيرون من علماء العرب ومن بينهم المؤرخ أبو الفدا الذى تحدث عن كرم الإمبراطور وغرامه بالدراسات الفلسفية والمنطق والطب، كما اشتهر بعطفه على المسلمين، وذلك لأنه نشأ وتربى فى جزيرة صقلية حيث كان أغلبية سكانها من المسلمين.

ولولا أن عمه فيليب سارع وترك إيطاليا الثائرة وعمل بوصية والد فريدريش الثانى ونقل الطفل ابن الثلاث سنوات من إيطاليا إلى وطنه الأصلى ألمانيا لحصل فريدريش الطفل على تربية علمية أفضل وأعمق، فالطفل كحاكم للبلاد فى المستقبل كان سيحصل ولا شك على كاهن متعلم يقوم على تربيته بصفته ابنًا للملك، وهذا الكاهن سيعلمه القراءة والكتابة والحساب وكذلك اللغة اللاتينية. ومن المرجح أن فريدريش وتفكيره الحر، كان سينسجم وهذه التربية، إلا أن هناك عوامل أخرى قد انتهجها وتأثر بها. إن فريدريش لو قدر له أن يربى فى قلعة ألمانية

لحظى بتربية ملكية رقيقة ووقتذاك ما كان لأحد من أعدائه أن يتهمه وهو ابن الثالثة عشرة بأنه سيئ الخلق والسيرة لأنه يكون قد تربى التربية التى تتفق وبيئتهم .

وهل من المستطاع أن يرجو الإنسان شيئًا آخر من شاب هو أقرب إلى الطفولة وانطباعاتها منه إلى الرجولة وجدتها ، وبخاصة لم يهتم أحد به منذ طفولته ، فكان يتجول طليقًا حرًا بدون رقيب فى مختلف الحوارى والأزقة وأحياء الميناء إشباعًا لرغبته فى المعرفة ، فذهب إلى المساجد والأسواق وأرصفة الميناء ، كما اختلط بشعب بالرمو الخليط ، وكان فى وحدته القاتلة يصادق الحيوان والطير والإنسان غير مكترث بنوعه أو جنسه أو ثقافته . فالوالد الذى أراد أن يصحبه معه إلى ألمانيا قد توفى ، لذلك شب الطفل وترعرع ، شب هذا الملك الطفل بين الآثار العربية الإسلامية الجميلة وأحجار الفسيفساء البراقة والقلاع العربية الشامخة المتناهية فى العظمة ، وهى إن كانت ملكًا للملك روجير فإن العمال والمهندسين المعماريين الذين شيدوها كانوا عربًا جنسًا وفنًا ومعمارًا ، كما أن الذين كانوا يقومون على العناية بها عرب . لقد نشأ الملك الشاب فى وسط لا تقع عينه فيه إلا على صور عربية وخلق عربى وحياة عربية ، إنها بيئة العروبة ولوحتها الخالدة التى لن ينساها من يشاهدها . وقد ظلت هذه الصور ملازمة له بالرغم من السنوات العديدة التى مرت عليها . لقد سمع الملك الطفل أغانى المغنين العرب مختلطة بصوت مياه النافورة بين مقاصيرها الملكية ، وحولها الأعمدة وكل هذه الأشياء تتراءى له وكأنها حلم . أما أذان المؤذنين من أعلى المآذن فكان يعين ويحدد له نظام يومه .

وحدث أن أمه «كونستنزا» النورمانية ، ابنة الملك روجير الثانى قد فارقت الحياة عقب وفاة زوجها بزمن قصير ، وحينذاك بدأ النزاع حول الطفل وقامت المشاكل وتعقدت الأمور . فلسوء إدارة الأوصياء أصاب المزرعة الملكية ما أصاب الدولة ، ودب الفقر وساءت الحالة مما اضطر هذا الملك الشاب وهو ما زال فى السادسة من عمره ، إلى الالتجاء سائلا مستعطفًا مواطنيه العرب فمدوا له يد المساعدة فكانوا يعولونه ويطعمونه مناوبة ، هذا لمدة أسبوع ، وذلك لمدة شهر وهلمّ جرًا حتى بلغ الطفل السابعة .

وهكذا نجد الحياة ذاتها تتولى تربية الملك الطفل وتتعهده منذ سن مبكرة جداً. ففى ميادين بالرمو فى المساجد والكنائس والمعابد اليهودية، فى الحوانيت والسوق وفى الشوارع كان يتلقى الملك الشاب دروسه اليومية فى اللغات التى كانت متداولة حية بين أفراد الشعب المختلط الأجناس، كما تعلم أيضًا عاداتهم ودياناتهم. إن فريدريش كان يتكلم طفلا تسع لغات. أما العربية فقد كانت كأنها لسانه القومى، كان يعرف كذلك الحساب العربى وشارك فى مجادلات التجار العرب والأئمة من رجال الدين فأجاد فريدريش المحاولات والمجادلات حول الله والعالم، ومن الجدير بالذكر أن القاضى الشرعى للمسلمين المقيمين فى بالرمو كان يتولى تعليم هذا الشاب المتعطش إلى العلم والمعرفة والفلسفة العربية، ويمده بالكتب إرضاء لرغبته الجامحة إلى العلم وتحصيله، ويتنفس عبيرها الباسم، كما ذكر فريدريش ذلك فى أسلوب عربى رائع.

فهذه المعرفة التى اكتسبها هذا الملك الشاب النابه بشتى الطرق جعلته يختلف عن والده فى كثير من خصائصه وصفاته، فوالده كان يقدر له أنه يكفيه أن يتعلم المبادئ الأولية على يد المعلم «فلهلم فرنسيسكوس». أما الآن فالذى يكتب تاريخ هذا الشاب ابن الثلاث عشرة سنة يستولى عليه الإعجاب. نعم إنه يرفض الوصاية عليه مهما كان لونها ونوعها، هذه الوصاية التى تحدد إقامته وتحصى عليه تحركاته. إنه يأبى إلا أن يتنقل حراً طليقًا فى الحياة العامة. لكن هذا المشرب من الحياة هو الذى يرجع إليه الفضل فى إبراز خصائصه الخلقية وقدرته العقلية مما جعله يبدو وكأنه أكبر سنًا مما هو عليه، فهو بالرغم من طفولته كان كثير المعرفة والاطلاع وذا عقل يضعه فوق سنه لذلك لا يحكم على فريدريش حسب سنه، وإن كان إدراك المرء مرتبطًا بسن معينة فقد تبين أنه من حيث نضج التفكير وصحة الحكم على الأمور رجل مكتمل القوى العقلية، وأنه من حيث العظمة ملك.

ولو حدث مرة وبدت عليه علامات الطفولة فإنما مرجع ذلك حداثة سنه، إلا أن حياته الملكية التى كان يحياها وجهته التوجيه الصحيح، وهذا الاتجاه هو أيضًا من آثار الدماء النورمانية التى تجرى فى عروقه. هنا دولة اتسع صدرها لمختلف الثقافات

الموجودة بها، ومكنتها من التطور. كما أن احترام هذه الدولة لمختلف العقائد والعادات والتقاليد - إلا الزنادقة الذين كانوا فى نظره مخربين للنظام القائم - يجعلنا نفهم ميله وحبه للروح الشرقية والثقافة الشرقية، وهذه الثقافة هى الأساس الذى اعتمدت عليه ثقافته وتكوينه العلمى، والثقافة العربية هى التى أفاضت عليه الألوان الثقافية المختلفة التى رفعت من منزلة فريدريش الثانى بين معاصريه، وهذه الثقافة أيضًا هى التى مكنته من تفهم العقلية العربية والحياة فيها والتفكير بها وحبه الشديد لكل ما هو عربى شعبًا وثقافة وحضارة.

بدهى أن هذا الحب لم يكن صافيًا كله عند غزو النورمانيين، ثم اضطهادهم للعرب بعد الغزو مما اضطر الأخيرين إلى المقاومة والاعتصام بالجهات الجبلية فى قلب الجزيرة الصقلية، وذلك إباء من العرب وشمم من الخضوع للسيطرة الأجنبية. وهكذا نجد العرب من وقت لآخر يثيرون الاضطرابات ويهددون أمن الجزيرة. فهذا الموقف العدائى ودوافع التحرر والرغبة الصادقة فى التخلص من أعدائهم. . كل هذه العوامل مجتمعة سببت للملك الشاب كثيرًا من المتاعب، لذلك كان لا بد له للقضاء على الثائرين من خوض غمار حروب طويلة الأمد استمرت عدة سنوات، والجوع فقط هو الذى هزم العرب واضطرهم إلى التسليم، وقد وطنوا أنفسهم لأسوأ الاحتمالات، فقد قدروا عددهم خمسة وعشرون ألف عربى أنهم سيساقون إلى الإعدام، لكن حدث ما لم يكن فى الحسبان، ففريدريش لم ينتقم حتى من المحرضين بل سلك مسلكًا يدل على أنه السياسى الحكيم حقًا.

إن فريدريش الثانى يعرف العرب جيدًا، وقد أدرك أيضًا أن إصدار حكم الموت على أميرهم إبان المعركة كان تصرفًا غير حكيم وأيقن أنه عند إحراز أى نصر فالشخص المتعطش إلى الانتقام لن يستطيع الاستفادة من هذا النصر، لأن الانتقام يزيد من اضطهاد المهزوم وإيلامه ودفعه إلى الرغبة فى الثأر والانتقام متى سنحت له الفرصة. فالمنتصر الحقيقى هو ذلك المتسامح لا المنتقم، إن فريدريش أدرك أن الاضطهاد قد يضطر العرب إلى الخنوع والذل. أما العفو، أما حسن المعاملة، أما كرم الأخلاق فسيضطرهم إلى الإخلاص له والوفاء والتفانى فى سبيل نصرته

والعمل لمصلحته، وقد وقع هذا فعلا. فبالقرب من مكانه المحبب إليه هذا المستقر الملكى المعروف باسم «فوجيا» فى إقليم «أبوليا» أنزل فريدريش الأشتوقى خصومه القدامى ومنحهم حرية العبادة والإخلاص للعقيدة، وهكذا أقام فى هذه المنطقة الاستراتيجية الحساسة فى شمال مملكته المستعمرات الإسلامية الحربية. لقد أنزل فريدريش العرب فى «جيروفلكو Girofolco» و«لوكيرا Lucira» وهما من أكثر المدن الإيطالية ازدحامًا بالسكان، وهناك كان يعيش نحو ثلاثين أو خمسة وثلاثين ألف أسرة عربية. وكان العرب بعيدين عن غيرهم ولهم أميرهم الخاص وحكومتهم الخاصة وكانوا يتمتعون بحريتهم كاملة، فلهم مساجدهم التى يدعو فيها المؤذن إلى إقامة الصلوات الخمس يوميًا وللعرب مستشفياتهم ومدارسهم ومكاتبهم وحماماتهم، كما وهبهم القيصر حديقة للحيوان. فمسلك فريدريش من العرب يدل حقًا على خبرة القيصر بالناس وحسن معاملتهم، فضلا عن بعد نظره السياسى، وهو إذا أقبل على هذا العمل فقد رجا أن يؤتى أكله مئات المرات.

والاعتراف بالجميل، الذى اتصف به العرب، يتجلى لنا فى مقابلتهم هذا الصنيع الكريم للقيصر وعفوه عنهم بالشكر والولاء، وأدرك فريدريش حسن طوية العرب وإخلاصهم له فاتخذ من شباب عرب «لوكيرا» حرسه الخاص فهم أبناء حرب وقتال وشباب امتلأت نفوسهم حبًا للقيصر فلا تهمهم تهديدات البابا أو وعيده، كما أنهم لا يحترمون إلا القيصر ولا يأتمرون إلا بأمره فطاعتهم له عمياء وإخلاصهم لعرشه لا يعرف نهاية، وإن فرقة عربية تتألف من ثلاثين ألف مقاتل لن يتردد جنودها من خوض غمار الحروب دفاعًا عن قيصرهم وذودًا عن عرشه. وهؤلاء الجنود العرب يقفون رهن إشارة القيصر لاستخلاص النصر من بين أنياب الموت. ولم يتجل إخلاص القيصر عند تجنيدهم فقط، بل وكَّل إلى عرب «لوكيرا» حراسة خزانة الدولة وممتلكاتها التى لم تكن تدر حتى ذلك الوقت إلا الدخل القليل. كذلك وكَّل القيصر إلى العرب الإشراف على القاعات الملكية وإدارة جميع أملاكه وضياعه الخاصة وأملاك الدولة والمصانع التى كانت تنجز جميع الأعمال التى يحتاج إليها القصر الملكى، وكذلك المصانع العربية التى كانت تنتج السهام والأقواس والدروع والمجنات مختلف أنواع المجانيق، وكذلك اللجم وسرج الخيل

ورحل الجمال والخيام والسجاجيد والستائر وغطاء الحيطان والوسائد المطرزة بالذهب والمطارح الحريرية .

ففى القاعات الملكية فى «لوكيرا» و«مسينا» والأماكن الأخرى كان يطرز المطرزون الملابس الملكية بالحرير والذهب ، كذلك المفارش الفاخرة والسرج والأغطية المختلفة للخيول والإبل الموجودة فى الإسطبلات القيصرية . إن أعمال التطريز هذه كانت تقوم بها هذه الأنامل الرقيقة الجميلة الماهرة للآنسات اللواتى اشتهرن أيضًا بغزل الحرير والصوف والقطن ونسجه وحياكته تحت إشراف الأغاوات . إن أولئك الآنسات كن سببًا فى إساءة سمعة القيصر .

وكان فريدريش الثانى عندما يخرج بالشارات القيصرية التى كانت غاية فى الأبهة والعظمة ممتطيًا صهوة جواده الذى أهداه إليه العرب - كانت تسير خلفه النوق والإبل سيرها الوئيد دون إحداث صوت أو جلبة ، وقد حمل بعضها بجزء من مكتبته ، ثم الفيلة المطهمة والبغال والقردة والنمر ، والعرب فى ثيابهم الملونة والحبش السمر يحرسونه ، ثم نرى المسلمين رماة الحدق والخدم والخادمات المحجبات والأجنبيات فكان جميع هذا مادة طيبة للخيال . لذلك كان العجب يستولى على النظارة ويعتقد القوم أن للقيصر حريمًا ، وهذا المنظر يؤيد الشائعة التى انتشرت مروجة أن للقيصر حريمًا مما دفع البابا أن يشكوه باكيًا إلى المجلس المقدس : «من عدا القيصر يستطيع أن يثبت هذه التهمة؟» .

وكان كل طفل مسلم نابه فى بلاط صقلية يحمل مفتاحًا يخول له الدخول مباشرة على القيصر ، وكان جميع الناس مع اختلاف ألوانهم وأجناسهم وعقائدهم وألسنتهم والذين يحملون الألقاب الرفيعة ، سواء عند القيصر . وإذا أظهر خادم من خدمه نبوغًا واستعدادًا لتحصيل العلم تعهده القيصر ويسر له السبيل ، وقد حدث أن المعلم «يواقيم» علم خادم القصر «عبد الله» اللغة العربية قراءة وكتابة فأمر القيصر بصرف مبلغ من المال له . كما نجد الطفلين الزنجيين «مرسوخ Marsuch» و«موسكا Musca» يتلقيان علم النفخ فى الأبواق الفضية التى صنعت خصيصًا لهما تنفيذًا لرغبة عالية .

كذلك نجد الطفل العربى العريض الجبين المتألق العينين والذى تبدو على محياه دلائل الفطنة والذكاء ينال رضاء القيصر عندما شاهده واقفًا بين الخدم، وهو ابن جارية مسلمة ووالد مسلم من البربر القاطنين فى جبال مراكش فيسر له السبيل وفتح الطريق أمامه حتى بلغ أرقى مناصب الدولة. وكان هذا الطفل يسمى «جيوفينى Giovanni» ويلقب «آل مورو» أى المسلم. وورد فى المذكرات تحت اسم «يوحنيس موروس Yohannes Morus» وهو الذى اشتهر بإتقانه عدة لغات مما حدا بالقصر إلى ترقيته بسرعة فبعد أن كان أمين القصر رقاه إلى وظيفة كاتم أسرار المجلس الاستشارى القيصرى. ومثل هذا «المسلم» مثل «جورج الأنطاكى» العربى الذى حاز ثقة الملك روجير الثانى فرقاه إلى أعلى منصب الدولة، ثم أقطعه عددًا من الضياع.

ولم يكن حظ «المسلم» أيام القصر فريدريش الثانى أقل من حظه أيام الملك كونراد، ففى عهده تولى علاوة على أمانة القصر محافظة مدينة« لوكيرا» مسقط رأسه، ومن ثم رقاه إلى وظيفة كبير أمناء المملكة الصقلية. فهذا التدرج فى الرقى الذى يشبه إطلاق الصواريخ والذى بلغه هذا العربى الفقير الأصل تلاشى فى أقل من وميض البصر، وذلك لأنه سقط مرة وأفشى سر الأسرة الأشتوفية ممثلة فى الملك منفرد صديق العرب وحبيبهم للبابا، فما كان من العرب أنفسهم إلا أن اقتصوا من هذا الخائن الوضيع وقتلوه انتقامًا لكرامتهم التى أهدرت إخلاصهم الذى لطخه هذا الوضيع بالعار.

أما وظيفته فقد تولاها عربى آخر صقلى يحمل اسمًا جرمانيًا ألا وهو «ريتشارد» وكان على نصيب عظيم من العلم. وهو فى الأصل من رجال القانون فكان يعمل قاضيًا، ثم أصبح فى الدولة المسيحية كبير الأمناء، ثم تدرج فى الرقى حتى عينه الملك مستشاره الخاص وظل فى منصبه هذا زهاء عشرين عاما. ففى عام ١٢٢١م نجد هذا العربى الذكى المخلص الأمين يقف إلى جانب الملك البالغ من العمر الثامنة عشرة والذى كان يحاول الحصول على تراث والده، فرافق «ريتشارد» الملك الشاب إلى ألمانيا ومنذ ذلك الحين أصبح رفيقه فى الحل والترحال، فى الحرب والسلم.

وقد تجلى إخلاص هذا العربى أيضًا عند موقفه من فريدريش وأصبح هذا الإخلاص مضرب الأمثال، وذلك لأنه حدث عام ١٢١٦ أن البابا «هونوريوس» الثالث لما أراد اختيار وصى لابنه الحبيب فريدريش كتب إلى العربى «ريتشارد» الرجل الذى اشتهر فى روما بأنه موضع الثقة الوحيد لدى الأسرة الأشتوفية، أعنى فريدريش.

ثم خلت وظيفة المستشار منذ أن فضل «فالتير فون فليجيارا Waltir Von Baqli-are» ـ هذا الرجل الألمانى والوصى المتقلب منذ عهد شباب فريدريش ـ الإقامة فى الخارج. فبعد عودة القيصر من ألمانيا عام ١٢٢٠م تولى العربى ريتشارد كبير أمناء مملكة صقلية إلى جانب عمله وزارة المالية والخزانة، وكذلك الإدارة العامة للرأى. ومنحه سيده كثيرًا من الأملاك فى صقلية وقد ظل هذا العربى قائمًا بهذه الوظائف الخطيرة فى الدولة حتى وفاته عام ١٢٣٦م وظهور هذا التغير الجوهرى الخطير فى التشريعات القانونية فى مدارس الحقوق فى شمال إيطاليا، وذلك بسبب وجود القاضيين «بطرس فون فينيا» و«ثاديوس فون سويسه» فى البلاط الملكى، فقد انتقلت إليهما إدارة مصلحة الرأى بينما انتقل «يوجنيس موروس» إلى مصلحة الأمانة.

لقد بلغ وفاء ريتشارد للقيصر فريدريش حدًا دفعه إلى مرافقته حتى فى حملته الصليبية، ولم يكن هو المسلم الوحيد فى حاشية القيصر، لذلك كان ريتشارد المسلم قذى فى عيون وعاظ الحملة الصليبية فاتهموه أنه نجس قدس الأقداس. أما القول بأن ابن الجوزى أستاذ القيصر فريدريش فى المنطق قد قام بدور الترجمة فى هذه الحملة بين القيصر والطرف الآخر فبعيد عن الصواب، وذلك لأن القيصر كان يجيد العربية إجادة تامة. وما يقال عن ابن الجوزى يقال أيضًا عن اشتراك حملة عربية إسلامية من أبناء «لوكيرا» فى هذه الحملة الصليبية، إذ إنه من المستبعد جدًا أن يقاتل مسلمو صقلية مسلمى سلطان مصر وبخاصة أن القيصر فريدريش بما عرف عنه من صداقته للإسلام والمسلمين أحصف من أن يحاول هذه المحاولة، وأن يزج بالمسلمين من رعيته فى حرب ضد المسلمين فى الشرق وفى عكا. والآن نتساءل:

لماذا تظاهر فريدريش وكأنه المسلم المؤمن الحقيقى؟ إنها حيلة دبلوماسية عظيمة أن يتقدم للمفاوضات فى الشرق وهو فى زى شرقى وتحيط به حاشية شرقية. إنها خدمة عظيمة لأن يفاوض السلطان كسلطان وبتقاليد سلطانية.

والرحلة التى سبق أن وعد القيصر فى «إكس لاشبل» بالقيام بها نفذها، لكن ليس لسبب دينى، إنها رحلة كما وصفها لأصدقائه العرب فى غير حياء أو خجل ذات فائدة سياسية هامة له، وكان يتمنى أن يزور الشرق العربى، هذا الشرق الذى كان يؤمن بعظمته ورقيه وتفوقه، كما كان يحترم العرب ويعجب بهم كثيراً ويشعر بفضلهم العظيم عليه وكم هو مدين لهم، دين العالم لهم أيضًا، فرحلته إلى العالم العربى ستمكنه من الاجتماع بأنداده.

لذلك لم تكن الدبلوماسية فقط هى التى دفعته إلى تبادل الهدايا والدخول فى محاورات ومساجلات فى الفروسية من العرب، إنما كان يريد أن يثبت أنه ليس أقل من العرب شأنًا؛ والواقع أن هذه النوايا قد ظهرت واضحة وتجلت عندما حرص سلطان مصر على المحافظة علي الشعور الدينى للقيصر، فأمر المؤذن فى القدس أن يتوقف عن الأذان طيلة إقامة القيصر؛ كما نجد السلطان يعين القاضى شمس الدين مرافقًا للإمبراطور وملازمًا له طيلة مدة ضيافته وإقامته فى القدس؛ فدار حديث بين القيصر والقاضى: «أيها القاضى لماذا لا يؤذن المؤذنون للصلاة؟» فأجابه القاضى: «يا ملك الملوك إننا نعرف كيف نقدر زيارتكم» فتألم القيصر وقال له: «إنكم تأتون ظلمًا فى بلدكم ووطنكم من أجلى وذلك بتغييركم عاداتكم وتقاليدكم، إنكم لستم فى حاجة إلى هذه المخالفات لو كنتم فى بلادى؛ وعلاوة على ذلك فقد سرنى جداً سماع المؤذن ليلا».

إن الرحلة إلى بلاد العجائب كانت للتسلية بالنسبة للآخرين، لكن القيصر كان ينظر إليها وكأنها عودة إلى مصدر ووطن عقليته وثقافته التى تثقف بها، فرحلته هذه تفتح الآن له عينيه وبصيرته، وعند عودته إلى مملكته سيراعى تجاربه التى جمعها ويحاول تطبيقها.

لقد أقام فى القدس يومين إلا أنه بالرغم من ذلك شاهد قبة الصخرة المقدسة

وهى الثانية بعد الكعبة ، والإمبراطور يشبه جده روجير الثانى الذى اهتم اهتمامًا كثيرًا بمشاهدة كنيسة أو قلعة أو مستودع أسلحة فكان يتفقد هذه الأماكن تفقد الخبير «لقد شاهد كل شىء بعناية ودقة عظيمتين» ، هكذا ذكر الذى كان يرافق الإمبراطور كعضو بعثة شرف «أولا شاهد المسجد من بعيد وأبدى إعجابه بجماله ومعماره والأثر الذى يتركه فى النفس ثم فحص الحائط القائم على الصخرة وأبدى إعجابه ببنائه وبناء المنبر . ولكى يشاهد كل شىء تسلق حتى بلغ القبة وتأبطنى عندما خرجنا» .

وفى القاعدة المثمنة الأضلاع والتى تعتبر من أكبر الآثار التى شيدها فى حكمه «كاستيل ديل مونتيه Castel del Monte» ، أعنى قلعة الجبل - نجد تخليدًا لذكريات القيصر لزيارته لقبة الصخرة ومسجدها .

إن الذكريات التى جمعها فريدريش من رحلته إلى الشرق ظلت ملازمة له طيلة حياته كما أثرت فيه ووجهته التوجيه الذى امتاز به : ثقافة روحية نورمانية ، وشباب فريدريش الثانى الذى مضّاه فى صقلية .

على الأسس العربية

إلى جانب الثقافة المختلفة التى لعبت دورًا هامًا فى حياة فريدريش الثانى وأعماله، هذه الحياة الغنية بكل شىء، وهذه الثقافات المتعددة الأصل والجوهر كاليونانية البيزنطية والرومانية القديمة والمسيحية الأوربية ـ كانت الثقافة العربية أبعد جميع الثقافات الأخرى مجتمعة أثرًا فى حياة القيصر الأشتوفى، فالثالوث الذى تجمع فى فريدريش وهو الوراثة النورمانية وانطباعات الشباب وتجارب الشرق، هذا الثالوث كان العامل القوى الذى تتجلى لنا آثاره فى حياة فريدريش وأعماله.

والأدلة على ذلك المبانى التى شيدها فريدريش الثانى وما أكثرها، ففى مملكته خلف أكثر من مائتى قلعة عدا الحصون والمبانى الأخرى الجديدة أو المجددة. إن هذه المبانى هى خير ما يعبر عن تلك القوى وهذه الدعائم التى تقوم عليها دولة فريدريش الثانى، فهى مزيج وكأنها فى مزيجها هذا إرادة قوية موحدة. فى هذه المبانى نجد الأبواب التى ترجع إلى العصور القديمة والجمالونات والزخارف والفسيفساء البيزنطية والقباب ذات الأضلاع القوطية، ويتسلل إليها النور عن طريق كوات على شكل ورود قوطية ونوافذ.

لكن الأسس التى قامت عليها هذه الحصون والقاعدة المعمارية التى روعيت عند بنائها كمواقع للدفاع خالدة شامخة لا شك فى أنها عربية.

ففى العالم الهندى الجرمانى نجد الحصون المستديرة وفى وسطها السكن، كما أنها تختلف نوعًا ما فى الأبراج الإقليمية أو تلك المشيدة على الحصون حيث نجدها

متأثرة بالشيء المقدس القائم فى وسطها. كذلك نجد نفس هذه الفكرة فى المعسكرات فى العصور الوسطى حيث سلاح الفرسان.

أما الآن فقد تحولت إلى أبراج للسكن والإقامة للفارس وأسرته، وفى أعلى التلال وقمم الجبال نجد أبراج الحراسة وحول البرج المقام نجد البرج الرئيسى الذى هو مركز الارتكاز وحوله دوائر مملوءة خشبية وخنادق وأسوار.

أما البرج العربى فشىء آخر، ففى أوائل العصر الميلادى نجد بلاد العرب الجنوبية تنهض به نهضة عظيمة متمشية مع سلاح فرسانها العظيم. فحصونها القوية المشيدة من الصخور قد جمعت إلى بعضها عن طريق معدن مصهور، وقد ظلت هذه الحصون قائمة قرونًا عديدة وهى ليست مستديرة الشكل بل مربعة وذات زوايا قائمة، فقد انتزع سادة اليمن وحضرموت صخوراً من الحيطان مربعة الشكل يبلغ سمك الصخرة نحو خمسة أمتار، كما أن ارتفاع البرج لا يقل عن ارتفاع عشرين طابقًا وقد أقاموها فى رمال الصحراء. أما الأركان الأربعة فكانت تحميها وتدافع عنها أبراج أربعة مصقولة ملساء. وفى جوانب الحيطان الشامخة نجد الأبواب التى تحميها أبراج صغيرة. وفى أثناء الحروب تأوى إليها القبائل بإبلها وغنمها.

وفى القرن الرابع الميلادى نجد هذه الأبراج المتناسقة المشيدة على أسس وقواعد رياضية تنتقل إلى سائر أنحاء الجزيرة العربية، ومن ثم أخذت تنتشر حتى بلغت بيزنطة. وإلى القرن الخامس الميلادى يرجع تاريخ البرج الصغير المعروف باسم «قصر الخير» الموجود فى سوريا وطوله نحو سبعين متراً وزواياه قائمة وعليها الأبراج وأربعة أبواب للأبراج والحيطان. وبجواره مباشرة بنى حوالى عام ٧٢٨ الخليفة الأموى هشام قصراً فاخراً مثله تمامًا إلا أنه أعلى وأضخم. وبين أبراج الزوايا الأربع تقوم حيطان يبلغ ارتفاع الحائط منها ثمانية وعشرين متراً وطوله مائة وسبعين متراً. وفى كل باب برج يحميه. وإبان حكم هشام بانى القصر انقضت الجيوش العربية فى أقصى الغرب من جبال البرنات على فرنسا، ومع الجيوش العربية زحفت الأبراج العربية إلى أسبانيا والبرتغال وغيرهما فقضت الأبراج الحجرية على الطريقة الخشبية القديمة التى كانت سائدة فى الأبراج الأوربية.

وعن عرب أسبانيا تعلم الفرسان الأوربيون وبخاصة فى فرنسا وإنجلترا، كما أخذت أوربا هذا الفن المعمارى العربى مباشرة من فلسطين وسوريا فالأبراج المعروفة باسم أبراج الصليبيين وأشهرها هذا المعروف باسم «مارد الفرسان» أقدم من الحروب الصليبية ولم يؤخذ عن الأبراج الأوربية للفرسان، هذه الأبراج المستديرة كما يريد أن يقتنع المؤرخون الأوربيون.

وهكذا نجد أيضًا القيصر فريدريش الثانى مثله مثل الفرنسيين والإنجليز الذين عادوا من الشرق يتأثر بفن المعمار العربى فى قلاعه الحكومية التى أمر بتشييدها. ففى العام العشرين حصن فى صقلية جميع مراكز الدفاع التى تصدعت أو تهدمت، هذه المراكز الدفاعية التى ترجع إلى العصرين العربى والنورمانى، كما استخدم التصميم العربى فى مبانيه الجديدة التى أمر بتشييدها فى «سيراكوز» و«كتانيا». ولم يكد يعود من القدس حتى وضع خطة جديدة للبناء تطلب إنجازها عشرات السنين كما أقام فى طول البلاد وعرضها شبكة من الأبراج الضرورية للدفاع عن البلاد أو إدارتها، ومن هنا أصبحنا نجد فى «بارى» و«ترانى» و«برنديزى» وفى مدن أخرى كثيرة جدًا ما يعرف فى أسبانيا باسم «كوكا Coca» وفى فرنسا «باستيل Bastille» أى قلعة أو برج أو حصن وفى إنجلترا «بومارى Beaumaris» وجميعها قد أخذت عن العرب، فالتصميم والفن والأقواس المدببة والسهام كلها عربية، هذا إلى جانب الحيطان المربعة الضخمة وبعض الزخرفة التى نشاهدها فى مبانى فريدريش تبين بوضوح تصميمها العربى، وكذلك الأسماء المنحوتة عليها تؤيد هذه الأصالة العربية.

ومن هذه الأبراج الأشتوفية التى أقامها فريدريش الثانى فى جنوب إيطاليا سرت موجة تقليدها إلى شمال إيطاليا وألمانيا حيث نجدها فى أبراج الطوائف البروسية. ووجودها فى بروسيا لم يكن صدفة، فمؤسس الطوائف الألمانية ورئيسها هو «هرمان فون سلزا» وفرسان جماعته وطوائفه كانوا فى الواقع من حاشية القيصر الأشتوفى. ولم تتأثر هذه الطوائف الألمانية بهذا الفن المعمارى العربى فقط بل بالأفكار أيضا التى نقلوا الكثير منها من مملكة فريدريش إلى شرق ألمانيا ولو أن فريدريش نفسه جاء بها من الخارج، من الشرق، من العرب.

بينما كان القيصر الأشتوفى فى ألمانيا كريمًا كرمًا يشرف الدولة ويرفع من شأنها، ويغمر هيئات أخرى كثيرة ببعض الحقوق والامتيازات، فعمّ كرمه الأساقفة والأمراء والمدن والأديرة، إذ به فى مملكته صقلية يفعل عكس هذا. لقد تجرأ وأتى بتجربة عظيمة أراد من ورائها فى بروسيا دولة الطوائف أن تكون مثلا يحتذى فى كل أوربا، فقد أزال كل الأنظمة العتيقة البالية دون تردد أو شفقة وبسط المسائل المعقدة الملتوية والإجراءات العتيقة فنبَّه وأيقظ الغافل وكانت النتيجة المحتومة التى رمى إليها خلق دولة من الموظفين تجمعت فيها السلطات فى يد الملك الذى فرض إرادته عن طريق موظفى الدولة على سائر طبقات الشعب. وهكذا نجد دولة الإقطاع تختفى وتقوم مقامها حكومة الفرد، حكومة مركزية، حكومة موظفين.

ولم يكن فريدريش هو الأول فى التاريخ العالمى، وليس الإنسان فى حاجة إلى ضرب الأمثال، فروما وبيزنطة خير من يقدم الأمثلة، ولكن هل ساهم العرب هنا أيضًا فى خلق مثل هذا النظام؟

كما أننا نشاهد فى الأبراج التى بناها فريدريش الثانى وفى سائر أبنيته الجديدة الأعمدة الرومانية البيزنطية، كذلك الحال فى كيان الدولة النورمانية، فقد اقتبست التصميمات المعمارية العربية، وكذلك طريقة تشييد الحيطان العربية دون إدخال أى تعديل فيها وبذلك استطاع فريدريش مواصلة البناء دون صعوبة.

وحكم شعب غير متجانس الأصول والعقائد والتقاليد متمرد على الأوضاع القائمة التى خلقها نظام منذ ثلاثين عامًا؛ مما اضطر الحاكم إلى إيجاد نظام قوى حكومى من الموظفين. هذا مع إيجاد نظام حكم مطلق اقتبسه فريدريش من نظام حكومة السلطان الكامل، وعلاوة على ذلك كانت الأحاديث المتبادلة ليلا فى الخيمة مع صديقه فخر الدين تتناول شتى المواضيع، فهى لم تعن بالفلسفة فقط بل عالجت أيضًا تنظيم الدولة وإدارتها حسب الأنظمة العربية المتبعة. وقد أدرك فريدريش أن العرب قد نبغوا فى دولتهم فى خلق نظام إدارى قوى، فسلاطين الفاطميين فى مصر كانوا أيضًا سادة صقلية واشتهروا بأنظمتهم المالية. وفى الواقع أن الجراف روجير الأول قد اقتبس فى دولته القائمة فى الجزيرة نفس النظام الذى

كان سائدًا من قبل أيام حكم العرب، فأبقى على ديوان الخزانة والحسابات والإدارة والجمرك، وهى التى كانت تعرف قديمًا باسم ديوان الأحباس وديوان النظر، وغيرها كتلك الخاصة بالتنظيم الإدارى وما إليها، وقد احتفظ روجير بأسمائها العربية وموظفيها العرب كما حرص حرصًا شديدًا على الحسبة لتنظيم المكوس والأتاوات والمكاييل والموازين وإدارة الأملاك. والذى حدا بروجير على الاحتفاظ بهذا النظام العربى إعجابه به أولا وتجنبًا لما عساه أن يحدث من اضطراب وفوضى. كذلك استخدم أيضًا فرقًا عربية بضباطها وقوادها كما حرص على الاستفادة من أمراء البحرية العرب.

وحرب فريدريش ضد الثوار ثم الحملات الصليبية وفيما بعد حروبه المتصلة ضد البابا والمدن اللومباردية - كل هذه المشاكل مجتمعة كلفته أموالا طائلة، وديوان الأحباس وديوان النظر وغيرهما من الدواوين العربية فقط هى التى مكنته من جمع الأموال اللازمة للمحافظة على كيان الدولة داخليًا وخارجيًا. كذلك استن فريدريش سنة العرب فى مسح الأراضى سنويًا وتقدير الضرائب حسب مساحتها وذلك تجنبًا لما عساه أن يقع من ظلم عند تقدير الضرائب، فأدخل هذا النظام أيضًا إلى صقلية، كما تكونت لجان لتقدير الأراضى وتقدير الدخل، وتقدير الضرائب، ومقابل الجزية فى البلاد الإسلامية التى فرضت على غير المسلمين فرضها هو فى مملكته على المسلمين واليهود.

كذلك نجد الضرائب غير المباشرة التى فرضها العرب على المواد التموينية والمواد الكمالية تفرض على سكان صقلية كما كانت فيها من قبل. كذلك نجد احتكار الدولة لبعض السلع الخاصة والمناجم عاد ملكًا خاصًا لرئيس الدولة الذى كانت تتبعه إدارة المكوس، كما احتكرت الحكومة أيضًا بعض البضائع مثل الحرير وغيره من الحاجيات المنزلية، فكما أن هذه الأشياء كانت حقًا من حقوق الدولة العربية منذ أواخر القرن العاشر الميلادى كذلك الحال هنا فى صقلية، فقد درس فريدريش هذا النظام وبخاصة إبان إقامته فى الشرق، وعند عودته فرض احتكار الدولة للملح والمعادن والقار والكتان، كما استولى على تجارة الحرير وصباغته وجعلها حقًا من حقوق الدولة، كما وضع تجارة الحبوب تحت رقابتها أيضًا.

كذلك من الأنظمة المالية لأوربا نظام المكوس الفردريشى، فقد اقتبسه النورمانيون عن رعاياهم العرب إلا أن فريدريش نظمه تنظيمًا دقيقًا جدًا، فألغى المكوس الداخلية الإقليمية التى كانت كل جماعة تفرضها حسب أهوائها واكتفى فريدريش بالمكوس القائمة عند حدود المملكة فقط. وعقب عودته من الحملة الصليبية أقام فى جميع الموانى وعلى الحدود الشمالية فنادق كتلك الموجودة فى البلاد العربية وعلى امتداد طرق القوافل وفى الموانى حيث تأوى مئات الألوف من التجار والمسافرين. فجميع الصادرات والواردات يجب أن تخزن فى مخازن خاصة تابعة لتلك الفنادق وتحت إشراف موظفين خصوصيين، وكانت هذه البضائع توزن بموازين حكومية وتباع وتشترى وتفرض عليها المكوس.

وكان فى الفنادق الحكومية مصرف لتبادل النقود، وهى أول الفنادق الحقيقية فى القارة الأوربية. وكان من عادات العرب التى امتازوا بها الحمامات، لذلك كانوا يقدمون للمسافرين فى فنادقهم الحمامات، وقد استفادت البندقية والمدن التجارية الإيطالية الأخرى من هذه التجارب العربية الشرقية، فأدخل الأوربيون نظام الحمامات التى أثارت دهشة وإعجاب سكان الجانب الآخر من جبال الألب. كما استخدم القوم هذه الإصلاحات التى أدخلها العرب فى صقلية، ومن ثم انتشرت فى مختلف الموانى الشمالية الإيطالية. وعن طريق التجار أو طوائف الفرسان الألمان أدخلت الفنادق العربية الأصل إلى المدن التجارية الألمانية «هنزا».

ومع الأشياء تأتى الأسماء فنجد الأسماء العربية تشق طريقها إلى العالم التجارى الأوربى مثل: «فندق Fondaco» و«مخزن Magzin». وكذلك «دار الصناعة Arsenal» و«حوالة Aval» و«ديوان Dune» و«جبل = ملح جبلى Ga-belle» و«عوار Havarie» و«حبل Kabel» و«مخاطرة Mohatara» و«رزق Risi-ko» و« شيك Scheck» و«سمسار Sensal» و«استار استرلينى Sterling» و«طرح Tara» و«تعريف Tarif» و«تفريق Trafik» و«سكة Zechine».

ومنذ مائة وخمسين عاما أو أكثر انتقل حكم صقلية من العرب إلى الأوربيين وبالرغم من ذلك ما زالت المسائل المالية والإدارة المالية موكولة إليهم بالرغم من

أهمية الاقتصاد فى حياة البلاد، فأولئك العرب كانوا دعامة قوية للقيصرية فنشاطهم وإنتاجهم للقيصر فريدريش الثانى وبخاصة فى حروبه كان على جانب عظيم من الأهمية.

إن العرب كانوا يكونون فى ذلك الوقت الطبقة الممتازة فى البلاد، فكبير الأمناء «ريتشارد» كان فى الوقت نفسه بمثابة وزير مالية الدولة والمستشار المالى للقيصر، وكانت جميع أموال الضرائب تسلم إليه لينفق منها عن طريق موظفين أمناء على رجال الدولة والجيش والتسليح وسائر ما تحتاج إليه البلاد.

وكما كان الحال فى القصر الملكى هكذا كانت الوظائف المالية الكبرى فى جزيرة صقلية غالبًا فى يد عرب، وكانت اللغة العربية هى لغة الدواوين المالية وما زالت تسمى حتى اليوم «ديوان Diwan أو Duana»، كذلك اللغة العربية هى لغة موظفى الدرجتين الثانية والثالثة، وعليهم تقوم الدولة ويعتمد القيصر وإليهم الرجوع. وحدث عام ١٢٤٤م أن المستشار القانونى المسمى وقتذاك «فرنندو كارا كيولو» أخفق فى جمع الضرائب المستحقة بالرغم من الضائقة المالية التى تعانيها البلاد فغضب عليه القيصر وطرده وأسند منصبه إلى عربى.

ومن بين كبار موظفى صقلية، ذلك الموظف المعروف باسم «أوبرت فلاموناكا» وهو فى الواقع ابن عبدالرحمن، وقد ترقى بجده وكفايته من وظيفة المدير العام لمصلحة ضرائب بالرمو إلى المدير العام لمالية صقلية وامتد سلطانه حتى القصور الملكية.. وقد استخدم القيصر هذا الموظف النابه فى الأعمال الدبلوماسية أيضًا. فقد سافر إلى أسبانيا ومراكش إلى قصر أمير المؤمنين كسفير للقيصر. كما ترأس مرة أخرى بعثة اقتصادية لإجراء محادثات تجارية مع سلطان تونس وقد تسلم مكافأة لهذه المهمة تقدر بنحو ثلاث وأربعين وثلاثة أرباع أوقية ذهبًا، «وكان قد أنفقها على نفسه وعلى حراس وفرسان قنصل تونس وهو «هينريش عباس» وللأبل التى أحضرها من تونس فى حضوره»، وفى دولة كدولة الأشتوفى كان من المستطاع أن يصر هو على ألا يوقع اتفاقية أو وثيقة إلا باللغة العربية.

ولم يكن شغل الأداة الحكومية مقصوراً على العناية بالموظفين والجيش بل أولت النباتات العربية اهتمامًا صادقًا، فقد اهتمت الدولة بمثل «الحنا» و«النيلة» و«قصب السكر»، كما اعتنت بالفلاحين وعملت على رفع مستواهم الاجتماعى. وكانت عيون الدولة شأنها شأن العيون العربية يقظة فى مراقبة التاجر وموازينه ومكاييله، وكذلك العناية بتخزين المواد التموينية وحالتها. وكانت الدولة تعنى بفحص مواد التموين والمذابح التى يجب أن تقوم حسب الطريقة الشرقية خارج المدن، كما درجت الدولة على اختيار الصناع وموظفى المصارف والصيارفة والطبيب والصيدلى.

وكانت الدراسة تسير حسب منهج مرسوم ومدروس من قبل «ولما كانت دراسة الطب تتطلب قبل كل شيء الإلمام بالمنطق، لذلك تقرر ألا يقبل طالب فى مدرسة الطب إلا بعد أن يمضى ثلاث سنوات من قبل فى دراسة المنطق»، ثم ينتقل إلى الطب فيقضى على الأقل خمس سنوات وكذلك الحال فى الجراحة والتشريح مع إجراء تجارب عملية فى الجثث. كذلك على طالب الطب أن يجتاز امتحانين أمام الكلية وأمام القيصر أو مندوبه. وبعد أن يجتاز الطالب الامتحان يمضى خمسة أعوام فى المستشفى نائبًا، وبعد ذلك فقط يصرح له بمباشرة مهنة الطب. أما الجراح فمسئوليته أكبر ورسالته أخطر، لذلك لا يصرح له بمباشرة عمله إلا بعد الحصول على ترخيص خاص، وذلك بعد أن يثبت إلمامه بعلم التشريح والطب إلمامًا عظيمًا.

فهذه المعلومات ضرورية جدًا لإجراء عملية جراحية أو إتمام العلاج ومتابعته حتى يتم الشفاء. «وزيادة فى الدقة» يجب عليه استخدام إسفنجة التخدير العربية التى أدخلها «هوجو فون لوقا».

أما عدد زوار المستشفى يوميًا وقيمة أتعاب الطبيب، فقد حددتها الدولة. أما الفقراء فكانوا يعالجون دون مقابل، كذلك الصيدلى كان يخضع لنظام خاص ينظم علاقاته بالمرضى أولا وبالدولة ثانيًا، فالصيدلى كان يخضع دائمًا لرقابة موظفى الصحة ورجال شرطتها.

فهناك ندرك مدى التقدم الطبى الذى فاق نظيره عند الإفرنج؛ لذلك لا يدهشنا أن نرى القيصر يتخذ من الطب العربى مثالا يحتذى. ولم يكن فريدريش هو أول من تنبه إلى هذا فى صقلية بل نجد جده روجير الثانى يسبقه إلى هذا، فقد أصدر قانونًا خاصًا بالطب والأطباء. ثم جاء فريدريش ونسج على منواله فوجه جل عنايته إلى الطب العربى واقتباسه، كما أصدر قانونًا خاصًا بالطب فى أوربا.

وكما كان الحال إبان حكم العرب وسيطرتهم، وكما عرف فريدريش من الشرق أدخل هو أيضًا نظام الحسبة العربى لمراقبة سائر المهن والتجارة والاقتصاد والصحة كما حرص على وجوب السهر على مراقبة هذا النظام واحترامه، وقد ظل نظام الحسبة قائمًا فى مملكته قرونًا طويلة، وفى عام ١٢٣١ أصدر القيصر مرسومًا بتعميمه فى أوربا أيضًا، أى خارج الجزيرة. كذلك رفع من المستوى الصحى العام وشعر بضرورة وجود الحمامات، فأهميتها لا تقل عن أهمية المدارس والمكاتب، لذلك أكثر منها وجعلها عامة فأصبحت مدينة «لوكيرا» أنظف وأصح مدينة فى القارة الأوربية. وبلغ من حماقة خصوم القيصر أن أطلقوا عليه لقب «سلطان لوكيرا»، ولا أدل على اهتمام القيصر باقتباس كل ما هو عربى صالح وإدخاله إلى بلاده من أنه عمم الحمامات فى كل إقليم من أقاليم بلاده، وكذلك المياه الجارية التى هاجمتها الكنيسة لأنها اعتبرتها تبذيرًا، فكيف يستحم الفرد يوميًا، إنها جريمة، وبخاصة الاستحمام أيام الأعياد الكنسية، إذ كيف يتجرد الإنسان من ملابسه، إنها جريمة كبرى!

إن القيصر الذى تعلم طفلا وشابًا من الشعب يجب أن يهتم بما يفيد الشعب ويخدمه، وهل هذا عجيب؟!

وهكذا نجد القيصر ينشط فى تأدية خدمات عظيمة للشعب ترفع من شأنه وشأن دولته وبهذه الطريقة فقط استطاع بمساعدة موظفيه تنفيذ جميع هذه الإصلاحات تجعل من دولته أول وأعظم دولة مدنية مستقلة عن الكنيسة وسلطانها.

أما موظفو الدولة فكان فريدريش يتطلب منهم ثقافة خاصة، لذلك أوجد

القيصر جامعة نابولى لتخريج عدد كبير من العلماء الأذكياء النابهين، كما حرص على إشاعة العدل بين أفراد الرعية لأنه أدرك أن العدل أساس الملك، وإلى جانب دراسة القانون، كانت تدرس فى أول جامعة مدنية فى أوربا جميع فروع العلوم الأخرى عدا الطب الذى كان يدرس فى «سالرنو».

أما الشعلة المضيئة فى مملكة صقلية ونجم أوربا اللامع، فهو القيصر فريدريش الثانى.

محادثات على الحدود

من بين المؤثرات العلمية التى أثرت فى تكوين عقلية القيصر وشخصيته طيلة حياته البالغة ستة وخمسين عامًا : اللغة العربية . فهذه اللغة كانت أقوى العوامل أثرًا فى حياته وتوجيهه لا لأنه نما فيها وترعرع منذ طفولته حيث كان عقليته متفتحة لقبول المعارف والاستفادة منها بل لطبيعته واستعداده وخصائصه ، فقد وجدت جميع هذه الخصال فى الثقافة العربية الغذاء الصالح ، كما وجد القيصر الطفل والقيصر الشاب فى هذه البيئة العربية الجو الملائم لنموها وازدهارها .

فمن أسبانيا الواقعة فى غرب القارة الأوربية زحفت العروبة والعربية على كل أوربا ، ومن أجزاء القارة البيضاء من استنكر هذا الزحف ومنها من أعجب به ، لكن على كل حال وقفت أوربا من زحف الثقافة العربية موقفًا سلبيًا . فمن أسبانيا وفد قبل الحملة الصليبية العالم العظيم ، على القصر الملكى فى صقلية حيث فريدريش . وعن طريق القيصر ، عرفت أوربا الآراء الخطرة للفيلسوف العربى ابن رشد . لقد درس «ميخائيل سكوتوس» فى أسبانيا وألم باللغة العربية إلمامًا جيدًا ؛ لذلك ساهم فى طليطلة فى التراجم والترجمات العربية اللاتينية . وكان هذا كافيًا لأن يزكيه لدى القيصر فيحسن استقباله . لقد جاء هذا الضيف العالم ومعه معلومات كثيرة جدًا فى مختلف المواضيع إلا أنه وجد فى صقلية أستاذه : «أيها القيصر السعيد إنى أعتقد حقًا إذا استطاع شخص أن يتجنب الموت عن طريق علمه فأنت هذا الشخص»! وترجم للقيصر كتاب الحيوان لابن سينا ، وشرح ابن رشد على أرسطو ، وهو الكتاب الذى ظل مدة ثلاثين عامًا يزعج المسلمين المتزمتين والمسيحيين كذلك .

ابن رشد قاضي قرطبة، كان كذلك طبيبًا وفيلسوفًا، وتوفى وقد بلغ اثنين وسبعين عامًا فى قصر خليفة مراكش، وفى نفس العام وهو العام الذى تسلم فيه فريدريش، أربع سنوات فى بالرمو، التاج الملكى. أما مؤلفاته فتكاد تتفق ومشرب القيصر الأشتوفى، وعند إلقاء النظرة الأولى عليها تبدو غير متطرفة بخلاف الوصف الذى توصف به «الحركة دائمة» ولك حركة سبب سابق وبدون حركة لا يوجد زمن، ولا نستطيع أن نتصور أن للحركة أولا أو آخرًا». وهذا الفيلسوف القرطبى يؤمن كذلك إيمانًا قويًا بأرسطو ففيه كل الفلسفة. هذا رأى ابن رشد، وتتوقف المسألة على شرحه. وفكرة تجسيد المعرفة بجميع فروعها منذ ألف عام قبل مجيء الرسول، وقبل أن تعلن كلمة الله، كما يعتقد المسيحيون، كل هذا لا يمنع ابن رشد الذى يقدس أرسطو من أن يهتم بشرح فلسفة أرسطو والدفاع عنها، وكأنه أرسطو نفسه. والواقع أن هذا الفيلسوف العربى الحديث عالج المسألة فى شيء عظيم من البراعة، فابن رشد يقول ما مضمونه إن الخلق من العدم عبارة عن أسطورة فالعالم فى الواقع هو خلق مستمر يخلقه الله، والله هو المدبر للكون ومنظمه وهو روح الوجود، فهذه الروح الإلهية تلهم الروح الإنسانية العلم والمعرفة...

هل هذا الفيلسوف منكر وجود الله وغير مؤمن به؟ حقًا إن ابن رشد يؤمن بحقيقتين، حقيقة المعرفة وحقيقة العقيدة. لكن ألم ينسب إليه أنه ينكر خلود الروح؟ إن هذا الرأى لابد أن يكون قد صدر عن شخص لم يقرأه. فابن رشد يقرر أن تحويل جسد الإنسان المادى هو الطارئ لكن توجد وحدة روحية فقط. والناحية السلبية من الروح جزء من الجسد ويموت بموت الجسد؛ لأن كل شيء فردى هالك. أما الجزء الإيجابى من الروح فهو الجزء الإلهى وليست فيه فردية وهو خالد. إنه مثل الشمس التى تضيء جميع الأشياء وهى خالدة، وهذا الجزء الإيجابى هو الجزء الإلهى فينا وهذا الجزء خالد أبدى خلود العالم وأبديته.

وخصم ابن رشد ذلك الذى يدعى «أن الفلسفة العربية ليست مستقلة وليس لها أصل»! «حقًا» هل قرأ هذا الزنديق هذه العبارة: «ليس للعالم وجود، إنه موجود فى العقل الذى يفهمه».

إن أفكار ابن رشد تركت أثراً بعيداً فى القيصر فريدريش، إنها هى اللغة التى يتكلم بها القيصر نفسه؛ كلاهما جاءا إلى الوجود وكل يملك حق الدخول المباشر إلى هذا الوجود. كذلك شخصية أخرى شبت وترعرعت فى عصر الملك فريدريش وقد تأثرت بابن رشد تأثيراً قويًا بالرغم من معارضتها له.

توماس فون أكوين، جراف فون أكيرا، سفير فريدريش الثانى فى بلاط السلطان الكامل وحاكم القدس، كان له حفيد وابن أخ يسميان بنفس الاسم. أما حفيده توماس الصغير فهو ابن المستشار «أدينولف» فى صقلية، وقد تربى مع أخيه يعقوب، وهو الشاعر الذى ظهر فيما بعد كغلام يتعلم الفروسية فى القصر ثم تزوج «مرجريت» ابنة القيصر فأصبح بذلك زوج ابنة القيصر فريدريش الثانى. وأما ابن أخيه الأكبر والمسمى أيضًا توماس فهو ابن المستشار القضائى «لندولف» فون «أكوين»، وأخوه «رينالد» الذى أصبح مثل ابن عمه شاعراً ينظم الشعر على منوال الشعراء العرب فقد تربى تربية تؤهله أن يكون نبيلا. غير أن ميوله كانت دينية فآثر أن يكون رجل دين إلا أن أسرته كانت تعارض فيه هذا الاتجاه؛ لذلك لجأت إلى القيصر ترجوه أن يستعمل نفوذه لإثنائه عن عزمه. لكن «رينالد» لجأ إلى قاضى قضاة القصر وهو «بطرس فون فينيا» راجيًا مساعدته واستطاع الهرب. لكن القدر أراد شيئًا آخر. فقد التحق توماس بجامعة نابولى وأصبح من أكبر رجال الكنيسة الرومانية إذ حصل على لقب «دكتور أنجيليكوس».

أما المجادلات التى قامت حول أرسطو وداعيته ابن رشد فقد أثارت انتباه الكثيرين ولم يستطع توماس أن يقف منها موقفًا سلبيًا، ومما أثار الدهشة أن توماس خصمه أقره ووافقه على ما ذهب إليه فى كثير من شروحه وتأويلاته، بل لم يقف توماس عند هذا فقط بل أخذ بوجهات نظر ابن رشد التى أفادت كثيراً فيما بعد فى المجادلات التى قامت بين المسلمين والمسيحيين، وقد أقر علماء الطائفتين ما ذهب إليه ابن رشد، ومن هنا نشأت الهزلية التى جعلت قديسًا من هذا الشخص الذى كان متأثراً تأثيراً قويًا بزندقة القيصر، وهو يعتبر كابن للقيصر ومن أخلص المخلصين للأسرة القيصرية، هذا الشخص أعلنته الكنيسة قديسًا، وهو أحد الآباء البررة

للكنيسة وللمسيحية وعن طريقه رضيت الكنيسة عن أرسطو بل عن العربى المسلم ابن رشد مفسر أرسطو وأكبر مناصريه والداعين له . وأخيراً بعد أن تبينت جامعة باريس خطر هذا الفيلسوف العربى الذى أثر فى الفكر الأوربى أثراً كبيراً ، ظهرت العلوم العملية ومهدت الطريق لظهور الفكر الأوربى وازدهاره .

وفى قصر فريدريش قام ميخائيل سكوتوس بأعمال الترجمة التى تولى القيصر نشرها بين الجامعات الأوربية المختلفة ، فأصبحت هى التوطئة إلى الفلسفة العربية ، ومن هنا أيضًا فتح الطريق إلى الرياضيات العربية والأعداد العربية حيث نجدها مذكورة فى مؤلفات أمثال «ليوناردو فون بيزا» الذى كثيراً ما حل ضيفًا على القيصر وعلى صديقه ميخائيل ، وقد أضاءت هذه الكتب الطريق لأوربا كما سبقت الإشارة إلى ذلك .

أما فريدريش البحاثة العبقرى الذى كان دائمًا مشغوفًا بالأبحاث والاطلاع كما وصفه ابنه «منفريد» فقد كان يرى فى أفكار ابن رشد المصباح الوضاء الذى ينير له سبيل الحياة ، كما كان يأنس إلى رفقة ميخائيل ويعتز بصداقته ، فإليه كان يتوجه القيصر إذا ما عنّ له أمر هام أو عرضت له مسائل عويصة .

ويذكر ميخائيل سكوتوس فلكى القيصر المخلص أن القيصر استدعاه مرة ووجه مجموعة من الأسئلة الخاصة بالأرض وعجائبها ، فكان القيصر وكأنه جاء من عالم آخر . ذلك القيصر الذى طرده البابا من الكنيسة يود أن يعرف كل شىء عن هذا العالم الذى يعيش فيه ، يريد أن يعرف الأبعاد والمساحات والأحجام فهو يسأل : كم عدد السموات الموجودة؟ وكم عدد الأعماق؟ وكان القيصر يوجه أسئلته فى شىء من الحياء والحذر ، فهو يسأل مثلا عن حجم الكرة الأرضية : سمكها وطولها والمسافة بينها وبين السماء العليا ، كذلك المسافة بين الأرض وأبعد الأعماق ، ثم هل هناك عمق واحد أو أكثر ، وإذا وجدت أعماق متفاوتة ، فما هى المسافة بين العمق والآخر؟ كذلك نجد رغبة القيصر القوية فى معرفة الأعداد ، وهذه خاصية عرف بها روجير الثانى أيضًا ، فهو كان حريصًا على تبسيط المعلومات وتجسيدها ليسهل إدراكها وفهمها عن طريق الأعداد . وهذه الظاهرة هى التى دفعت جده أن يقوم

بالليل ويقيس حيطان مدينة نابولى لأنه أراد أن يعرف مقدار المساحة التى تضمها هذه الحيطان .

كذلك موضوع الخلود، فقد شغل فريدريش الثانى كثيراً إلا أنه كان يكتم هذه الرغبة، ثم نجد القيصر الذى حرم من الكنيسة للمرة الثانية يتجه إلى العلماء العرب، فقد أرسل أسئلته إلى مصر وسوريا والعراق والأناضول واليمن ومراكش وسلمها سلطان الموحدين إلى الفيلسوف الشاب ابن سبعين فى كوينا، وكانت الفكرة السائدة عند هذا الشاب العربى ابن العشرين أن الإفرنج فى درك علمى منحط جداً، واعتقد أن أسئلة ترد من أمير الجهلاء المسيحيين لا تحتاج إلى كبير عناء للإجابة عنها، وتسلم القيصر هذه الإجابة التى تحمل كل معانى الاستهتار من هذا الفيلسوف الشاب المغرور. وتحمل القيصر هذه الإهانة ضاحكًا وأرسل إليه هدية أزعجته. وهذا الاستهتار من هذا الشاب كان هو الوحيد الذى حدث، وذلك لأن سائر الأمراء والعلماء العرب أدركوا أن توجيه هذه الأسئلة من القيصر تكريمًا لهم وتقديراً لمعرفتهم واحترامًا لعقليتهم العربية، لذلك بذلوا كل ما فى طاقتهم لإجابة هذا الملك المحترم ملك الإفرنج عن أسئلته الدقيقة .

فتبادل الآراء كان قويًا وكثيراً بالرغم من مشاغل القيصر السياسية والإدارية، وذلك لأن القيصر فريدريش لم ينظر إليها كوسيلة من وسائل شغل الفراغ أو التسلية بل كان الدافع إليها كما يرجح عربى هو اختبار علم المسلمين .

أما العلوم الأوربية والمعرفة الأوربية فقد عجزت عن إشباع رغباته العلمية وإرواء ظمئه إلى المعرفة والتحصيل، فالقيصر كان يؤمن بأن كل ما يجرى وكل ما هو كائن إنما هو شىء بدهى، وكان فريدريش يطمع فى أن يجد شريكًا له صديقًا يرى فى الوجود ما يراه القيصر كما يرى الوجود كما هو، أى كما هو كائن فى الحقيقة والواقع .

أما العالم العربى الذى غذاه بعلمه ونشأه فقد باعد بينه وبين أنداده . . ففى العالم العربى كانت المسائل واضحة جلية، ولا توجد أحكام تحد من تفكير رجال الدين الإسلامى أو من البحث والدرس، لذلك ظل القيصر وحيداً، ولم يجد فى عصره

من الأوربيين من يفهمه، بل كان بالنسبة لزمانه فى أوربا لغزاً من الألغاز. لقد كان فريدريش دائم البحث وراء أصدقاء يفهمونه، أصدقاء فى مستواه العقلى والعلمى، لذلك أرسل أسئلته إلى يافا ليتعرف على العرب ويتبادل معهم الأفكار العلمية والأبحاث الهامة، ويجد فيهم الأصدقاء الذين يقدرونه وينقذونه من الوحدة والعزلة. كان القيصر يرجو من وراء هذه المراسلات أن يحظى بتقدير العرب وصداقتهم. كان حريصًا على أن يخرج من هذا العالم الذى ولد فيه وشاءت الأقدار أن تجعله أوربيًا، وكانت هذه التبعية الأوربية تؤلمه وتؤذيه. إن القيصر كان يشعر فى أواخر أيامه وكأنه الغريب الذى يحن إلى العودة إلى وطنه الأصلى. إن ضربات الغدر القاسية التى كانت توجه إليه ويواجهها فى أوربا لم تؤلمه إيلام البعد الروحى والعلمى بينه وبين معاونيه من رجال الدولة، حتى إنه قال: أريد أن أبقى فى الشرق إلى الأبد!

ومن الوثائق التاريخية المؤثرة حقًا هذه الرسالة التى وجهها الإمبراطور فى العربية إلى صديقه فخر الدين بعد أن افترقا وقد استهلها بالبسملة.

ولعل الشيء الذى باعد بين فريدريش وعصره هو هذا الوحى العقلى الذى كان يتلقاه بين الحين والآخر من الشرق وطنه الروحى، وهذا التراث العربى هو الذى ميزه عن سائر معاصريه، لذلك كان فريدريش يحاول دائمًا الاتصال بهؤلاء الأنداد العظام. لقد استقبل البعثة العربية التى قدمت له كهدية مرصداً ذهبيًا وقبة للأجرام السماوية متحركة استقبالا حاراً جداً لا للهدية فقط، التى أدخلت إلى نفسه كثيراً من الفرح والسرور وهو البحاثة الذى لا يمل التفكير والاطلاع، بل لملاقاة علماء دمشق الذين طالما أسعده الاتصال بهم. وحرص فريدريش على إبقائهم فى ضيافته فظلوا شهوراً وشهوراً، ثم سمح لهم بالعودة إلى بلادهم بعد أن احتفل بهم وكرمهم كثيراً وبالغ فى الحفاوة بهم فأولم وليمة كبرى بمناسبة الهجرة النبوية الشريفة، وكانت هذه الوليمة شرقية أبهة وكرمًا. ولم يسبق لأوربا أن عرفت وليمة تدانيها عظمة وأبهة، لكن ماذا يصنع القيصر وليس فى مقدوره استضافة أعضاء هذه البعثة مدة أطول.

وقد تحدث العرب أنفسهم عن هذه المعاملة ، ومن المهم جداً أن نشاهد القيصر بعيون عربية ونقرأ تقديراً عربيًا أوحت به أخلاق وصفات وعبقرية هذا الملك الإفرنجى ، كما ندرك من خلال هذا التقدير العربى الأهمية الكبرى التى علقها العرب على اختيار هذه البعثة التى زارته والعناية القصوى فى اختيارها . وذلك لأن مثل هذه البعثة يجب ألا يكون مستوى أعضائها أقل من مستوى بعوث القيصر إلى الأمراء العرب . ومن العبارات العربية نتبين كيف أن هذه البعثة قد وفدت على عالم فاضل لا يقل علمًا ومعرفة عن أكبر أستاذ علم فى الموصل .

وذكر ابن أبى أصيبعة فى ترجمته لكمال الدين بن يونس ما نصه :

هو كمال الدين أبو عمران موسى بن يونس بن محمد بن . . . علاَّمة زمانه وأوحد أوانه وقدوة العلماء وسيد الحكماء قد أتقن الحكمة وتميز فى سائر العلوم وكان عظيمًا فى العلوم الشرعية والفقه ، وكان مدرسًا فى المدرسة بالموصل ويقرأ العلوم بأسرها من الفلسفة والطب والتعاليم وغير ذلك . وله مصنفات فى نهاية الجودة ولم يزل بمدينة الموصل إلى أن توفى رحمه الله .

حدثنى القاضى نجم الدين عمر بن محمد بن الكريدى قال :

وكان ورد إلى الموصل كتاب الإرشاد للعميدى ، وهو يشتمل على قوة من خلاف علم الجدل هو الذى يسميه العجم «جست» أى الشطار ، فلما أحضر إلى الشيخ كمال الدين بن يونس نظر فيه وقال : علم مليح ما قصر فيه مؤلفه ، وبقى عنده يومين حتى حرر جميع معانيه ثم إنه أقرأه الفقهاء وشرح لهم فيه أشياء ما ذكرها أحد سواه . وقيل إن كمال الدين بن يونس كان يعرف علم الكيمياء من ذلك . حدثنى أيضًا القاضى نجم الدين بن الكريدى قال : حدثنى القاضى جلال الدين البغدادى تلميذ كمال الدين بن يونس وكان الجلال مقيمًا عند ابن يونس فى المدرسة قال : كان قد ورد إلى الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل من عند الأنبرور (كذا بالأصل وهى الأمبرور = الإمبراطور) ملك الفرنج ، وكان متفننًا فى العلوم - رسول وبيده مسائل فى علم النجوم وغير ذلك ، وقصد أن كمال الدين بن يونس يرد أجوبتها فبعث صاحب الموصل إلى ابن يونس يعرفه بذلك ويقول له أن

يتجمل فى لبسه وزيه ويجعل له مجلسًا بأبهة لأجل الرسول، وذلك لما يعرفه عن ابن يونس أنه كان يلبس ثيابًا رثة بلا تكلف وما عنده خير من أحوال الدنيا فقال: نعم. حكى جلال الدين قال: فكنت عنده وقد قيل له هذا رسول الفرنج قد أتى وقرب من المدرسة فبعث من تلقاه، فلما حضر عند الشيخ نظرنا فوجدنا الموضع فيه بسط من أحسن ما يكون من البسط الرومية الفاخرة وجماعة مماليك وقوف بين يديه وخدام وشارة حسنة. ودخل الرسول وتلقاه الشيخ وكتب الأجوبة عن تلك المسائل بأسرها. ولما راح الرسول غاب عنا جميع ما كنا نراه فقلت للشيخ: يا مولانا، ما أعجب ما رأينا من تلك الأبهة والحشمة! فتبسم وقال: يا بغدادى هو العلم».

وفى عصر متأخر ظهر طالب آخر من أولئك المتحمسين لأستاذ آخر فى الموصل، كان يحسد كمال الدين للشهرة التى بلغها وكان قد علم عن هذا الحدث الذى وقع لكمال الدين عن طريق السماع فقط، إلا أنه ما زال ذاكرًا صعوبة المسائل العويصة التى تقدم بها الإمبراطور إلى العلماء العرب، وقد أثارت هذه المسائل كثيرًا من الاهتمام.

ومن أهم الأشياء التى سمعها من كمال الدين أنه أيام حكم الكامل أرسل الإفرنج إلى سوريا بعض المسائل أرادوا منه (كمال الدين) حلها، وهى تتناول مختلف المواضيع من طبية وفلسفية ورياضية. وقد استطاع علماء سورية حل المسائل المتعلقة بالطب والفلسفة. أما المسائل الرياضية فقد عجزوا عن حلها إلا أن الملك الكامل أصر على وجوب حلها، لذلك أرسلها إلى الموصل إلى المفضل بن عمر أستاذنا، وقد كان فى العلوم الهندسية بارعًا جدًا وبالرغم من ذلك لم يكن من اليسير عليه حلها فعرض المسائل على الشيخ ابن يونس. وبعد تفكير استطاع حلها وأرسلها إلى الملك الكامل فى سوريا.

ووجود شخص يستطيع أن يوجه مثل هذه المسائل العويصة دليل قوى على أن السائل قد بلغ مستوى العرب علمًا وثقافة، وهذه حقيقة سلم بها العرب. لقد أمطر هذا الرجل العجيب الذى كان يتربع على عرش أوربا أمراء العرب بكثير من الأسئلة وبعضها قد حفظه لنا الإمام العلامة شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافى، وقد

كان نابغة عصره فى الفقه والعلوم الطبيعية والبصريات وغيرها، وقد اهتم بكثير من المسائل التى كانت تشغل أهل عصره كهذه المسائل الوقحة التى اهتم بها المسيحيون واليهود، تلك الخاصة بالتماثيل المقدسة التى تبكى دموعًا ويسيل اللبن من أثدائها. فقد أجاب القرافى على مثل هذه المسائل وعالجها بالرغم من احتقار أصحابها ولو أنه كان يقدر مليكهم تقديرًا عظيمًا نظرًا لحرصه الشديد على العلم والتحصيل. وهذه الحقيقة هى التى دفعت القرافى إلى القول فى مقدمة كتابه «الاستبصار فيما تدركه الأبصار»: «وقد كتب الأنبرور (الإمبراطور) ملك الفرنج بصقلية سبع مسائل من الصعبة الشوارد والكلة الأوابد فى زمن الملك الكامل يمتحن بها المسلمون، فكان ذا دهاء وعلم وذكاء وفهم فسمعت أنه أجيب عن بعضها ولم أعلم أنه أجيب عن كلها والجالب لحصول الجواب عنها وتحقيق الصواب فيها أن الناس حينئذ كثير فيهم المحصلون وعلماء الملة متظافرون، وقد جمعت فى الكتاب هذا خمسين مسألة غريبة المدرك صعبة المسلك من المشكلات الحقيقية والغوامض العقلية من جنس تلك المسائل..».

ومن بين هذه الأسئلة الخمسين والخاصة بالبصريات يذكر شهاب الدين ثلاثًا منها منسوبة إلى القيصر فريدريش الثانى وهذه المسائل هى:

المسألة الحادية عشرة: «لم كانت المقاذيف والرماح وجميع الأشياء المستقيمة إذا دلى فى الماء الصافى بعضها ترى معوجة إلى سطح الماء مع أنها ليست معوجة؟». وبعد أن يجيب القرافى على هذه المسألة ويشرحها يقول: «وهذه المسألة من أعظم المسائل التى سأل عنها الأنبرور».

المسألة الخامسة والعشرون: «قال الأنبرور لم كان سهيل يرى عند طلوعه أكبر منه عند توسطه مع أنه لا رطوبة فى الجنوب كما قيل فى الشمس؛ لأن البلاد الجنوبية صحارى يابسة فلم تكن عظيمة عند الطلوع بسبب اجتفاف الرطوبة؟».

المسألة الثلاثون: «قال الأنبرور لم كان صاحب البخار ومبادئ الماء يرى الخيوط السود شبه البق والناموس خارج عينه مع أنه لا شىء خارج عينيه من سلامة العقل

الموجب لعدم الغلط؟، وكيف يرى شيء داخل الحدقة مع أن الأشياء القريبة من الحدقة جدًا لا ترى فلا يرى أحد ما التصق من جفنه على حدقته؟».

والواقع أن مثل هذه الأسئلة التى يوجهها الأمير المسيحى تدل على كفاحه فى سبيل تمزيق حجب الجهالة المنتشرة فى أوربا، ومثل هذا الجهد قد قابله العالم العربى بكل تقدير وإعجاب، وهذا يؤكد ما قاله سياسى عربى فى القيصر فريدريش الثانى: «والواقع أن العالم المسيحى لم يعرف منذ عهد الإسكندر حاكمًا كهذا».

فهذه الشهرة التى تمتع بها القيصر جذبت إليه مسيحيًا يعقوبيًا من أنطاكية وكان قد درس على كمال الدين بن يونس فى الموصل الفلسفة والرياضيات والفلك، كما درس الطب فى بغداد ثم تعرف على رسول الإمبراطور فى قصر حاكم أرمينية، ومن ثم توجه إلى مقر القيصر فى «فوجيا» حيث نجده وهو المعروف باسم السيد تيودور فى مناسبة استقبال القيصر لليوناردو فون بيزا.

ثم توفى فيلسوف القصر وهو ممثل العلوم العربية الغربية الأندلسية واسمه «ميخائيل سكوتوس» وكانت وفاته إبان رحلة قام بها مع القيصر عام ١٢٣٥ م فى ألمانيا، لذلك عين القيصر فريدريش الثانى السيد «تيودور» ممثل العلوم العربية الشرقية خلفًا له، وقد أبدى «تيودور» فى هذه الوظيفة الجديدة، أعنى كبير فلاسفة القصر، نشاطًا عظيمًا، وظل هذا العربى متقلدًا هذا المنصب حتى قبيل وفاة القيصر بشهور قليلة. وتقول الشائعات إن هذا العالم واسع الاطلاع هو الذى كان يعد الدواء والمواد المسكرة للقيصر، لذلك اتهم بالمسئولية فى وفاته، ويقال إنها تسببت عن كمثرى مسكرة أعدتها يد خائبة فكانت سببًا فى نكسة القيصر فوفاته.

وكان هذا العربى الواسع الاطلاع كثير التدخل فى أعمال القيصر إذ كان يتناقش مع القيصر حول مسائل رياضية وفلكية، كما وضع له تقويمًا وشارك فى أعمال المجلس وكان يقوم بجمع المراسلات مع الحكام العرب، وكثيرًا ما سافر فى بعثات سياسية إلى قصور أمراء العرب، ويعقد باسم القيصر المعاهدات التجارية. وكان كذلك بحكم وظيفته أيضًا ككبير أطباء القيصر يعد بنفسه الأشربة للقيصر ولسائر موظفيه، كما ألف للقيصر وفى أسلوب جيد جدًا رسالة فى وجبات الطعام، وقد

وضعها بعد تفكير عميق وفيها يرشد القيصر إلى وجبات طعامه كمًا وكيفًا من حيث النوع والكمية والتوابل اللازمة وجميع هذا موزع حسب الوجبات اليومية. كذلك المشروبات والأنبذة وتقلب الطقس وتغيير درجات الحرارة بالانتقال من جهة إلى أخرى والهضم والنوم والجماع. فهذه رسالة تعتبر معجزة حقًا، وكانت فى أوربا وقتذاك كالماسة بين الأحجار.

كذلك صدر أمر قيصرى إلى السيد تيودور بترجمة عدد من المؤلفات العربية فى العلوم الطبيعية، كما أبدى القيصر رغبته فى تصحيحها بيده، فكان يمضى وقته فى مشتاه أمام أبواب «فاينزا» المحاصرة مطلعًا على تقرير لتيودور حول الصيد.

والمؤلف العربى لهذه الرسالة كان يعيش قريبًا جدًا من فريدريش وكان يعنى بصقور القيصر. وكان هذا الرجل يحب قيصره أكثر من الصقور ونشأت عن هذه العلاقة الرغبة فى الصيد بواسطة الصقور.

ميلاد نظرة جديدة للعالم

تجمع بين الجرمانى والعربى النظرة القوية الفاحصة للطبيعة كما هى، وقد فقد المثقفون الأوربيون هذه الصفة. فكل من القيصر ومدرب صقوره وابنى القيصر «أنزيو» و«منفريد» والمشرف على خيول القيصر وهو مؤلف رسالة فى علاج الخيل - هؤلاء جميعهم من بين أولئك الذين يرون بعيون شبه مغلقة. أما هم فهم المبصرون فقط وهم الذين يعرفون المسائل الطبيعية، كما يقرر ذلك فريدريش نفسه. إنهم أساتذة فى إدراك وملاحظة وفحص الحقائق المحسوسة.

لكن لم يحصل أن الأوربيين نظروا إلى الطبيعة لذاتها، وقد رأينا العصور الوسطى تهتم بكتاب خاص وتغرم به، وهو كتاب «فيزيولوجوس» الذى يتحدث عن النملة والأسد، وقد ولد لهما حيوان أطلق عليه اسم الأسد النملى، وقد مات هذا الحيوان بمجرد ولادته، وذلك لأنه عاجز عن إطعام نفسه أو غير قادر على ذلك فموتًا يموت. والدليل على صحة ذلك ما ورد فى الكتاب المقدس حيث ذكر: أن الأسد النملة يموت جوعًا؛ وذلك لأنه من طبيعتين فإذا دفعته طبيعة من الطبيعتين إلى أكل اللحم رفضت الطبيعة الأخرى أى طبيعة النمل التى تشتهى أكل الحبوب، ولكن النمل يريد أن يعيش على الحبوب وهذا يتعارض وطبيعة الأسد؛ لذلك فهو محروم من اللحم والحبوب ومن أجل ذلك يموت. وهكذا أولئك الذين يريدون أن يخدموا سيدين فى وقت واحد الله والشيطان؛ إذ بينما يدعوهم الله إلى الطهارة يحضهم الشيطان على ارتكاب الجريمة.

فبدرت كلمات فريدريش وكأنها رعد أو برق فى ذلك المجتمع الساذج : إن هدفنا هو إظهار الأشياء كما هى فى حالتها الطبيعية الحقيقية .

فهذه الكلمات وهذا الصنيع الذى سبقها وهداها كان نقطة التحول فى موقف أوربا ونظرتها إلى العالم والتعرف إلى كنهه وحقيقته .

إن هذا القيصر المثقف العالم العظيم الذى كان مشغوفًا بالاطلاع مقبلا عليه فضلا عن هذه المقدرة العلمية التى اكتسبها منذ طفولته ، كان - بالرغم من ذلك - لا يثق فى المكتوب بقدر ما يثق فى عينيه ، كما أن الإنسان لا يحصل على شىء حقيقى يقينى عن طريق السمع . إن حديقة الحيوان هى خير ما يقدم للإنسان البصير الحقائق ، كما يطلق عليه ذلك العرب ، عن طريق النظر إلى الكائنات وطرق حياتها وعاداتها فقط ، إنه يتأمل عصافيره فى جنته التى شيدها لها ، وفى دقة وعناية وصبر لا يعرف الملل والكلل يشبه ذلك الذى يستخدمه الفلكى العربى عندما يتتبع حركات النجوم وجريانها . إنه يصف تشريح الطير وعاداته وطيرانه وصفًا دقيقًا واضحًا وطبيًا ، يشبه ذلك الذى يجريه الأطباء العرب على مرضاهم وهم على سرر الموت .

وكتابه عن : «حول فن الصيد بواسطة الصقور» الذى وضعه استجابة لرغبة ابنه «منفريد» - بالرغم من كثرة الوقت والجهد اللذين يتطلبهما تأليف مثل هذا الكتاب من السنين العديدة والدقة والعناية - هذا الكتاب يحوى أكثر مما يدل عليه عنوانه . إنه كتاب خاص بعلم الطيور ودراستها دراسة علمية دقيقة ؛ والشىء الجدير بالذكر أن هذا الكتاب ظهر فى ثوب لم يكن يحلم به المؤلف ، وهو طليعة العلم التطبيقى الحديث .

فكل ما يذكره هذا الكتاب يعتمد على تجارب المؤلف الخاصة أو تجارب آخرين حيث لا يستطيع فريدريش الملاحظة أو إجراء التجارب . وفى تلك الحالات كان يكلف باحثين خصوصيين يعتمد عليهم ولم يكن يبخل عليهم بالمال اللازم حيث يتصل الأمر بالعلم والمعرفة ، وأحيانًا كان يحصل على المعلومات التى يريدها عن طريق اتصاله بالأمراء العرب الذين كانوا يقدرون أهمية البحوث العلمية ويغرمون بها وبخاصة فى مصر أو فى جهات أخرى .

لكن فريدريش لم يذكر موضوعًا من هذه الموضوعات إلا وقد فحصه ودقق فيه وتأكد من قيمة البيانات الواردة بخصوصه أو عن طريق من يوثق بهم، وكان هذا يجرى مجرى مذهب ابن البيطار النباتى العربى حيث ذكر فى مقدمة كتابه الجامع لمفردات الأدوية والأغذية . . «صحة النقل فيما أذكره عن الأقدمين وأحرره عن المتأخرين، فما صح عندى بالمشاهدة والنظر وثبت لدى بالخبْر لا الخبَر . . . وما كان مخالفًا فى القوى والكيفية والمشاهدة الحسية فى المنفعة والماهية للصواب والتحقيق أو أن ناقله أو قائله عَدَل فيه عن سواء الطريق نبذته ظهريًا وهجرته مليًا».

وقد ترجم فيلسوف القصر «ميخائيل سكوتوس» علم الحيوان لأرسطو وشرح ابن سينا إلى القيصر العالم، من اللغة العربية، كما قرأ القيصر فى اللغة العربية كتبًا حول الصقور والصيد بها، كما قرأ الرسالة التى وضعها مدرب صقوره وهو العربى مؤمن. وقد تأثر القيصر كثيرًا فى هذا الاتجاه بالمراجع العربية المختلفة التى اطلع عليها وبالرغم من ذلك كان مستقلا فى رأيه وتفكيره فلم يكن من السهل عليه قبول أى رأى أو الأخذ به ما لم يقتنع هو به وبصحبته «لقد اتبعنا أرسطو حيث تقضى الضرورة بذلك، لكن فى كثير من الحالات التزمنا ما علمتنا إياه التجارب وبخاصة فى الطبيعة. إن طيورًا خاصة أخطأ أرسطو فى حكمه عليها، وفيما قاله عنها لذلك خالفنا أمير الفلاسفة وعارضناه فى كل ما ذكره، وذلك لأن أرسطو لم يسبق له صيد العصافير أو نادرًا ما مارسه. أما نحن فقد أحببنا هذا الصيد ومارسناه كثيرًا».

إن جميع هذه المعلومات وتلك التجارب قد حصَّلها فى أحسن مدرسة عربية حيث لا غموض ولا إبهام، إننا لا نجد هنا ذلك الظلام الدامس فكل شىء نراه واضحًا وحرًا، فجميع فروع العلوم والفكر فى متناول التجارب والملاحظات. هنا كل شىء منظم ويتبع طريقة واحدة ويبحث فى شىء من الدقة والعناية ولا يصدر الحكم ارتجالا ودون ترو. وهذا الموقف من البحث العلمى والدقة فى إصدار الأحكام كان إشباعًا للذة التى كان يشعر بها الباحث عند إدراكه كنه هذه الظواهر الطبيعية ونشأتها ووحدتها المستقلة وقوتها التى تؤثر فيها، وهذه الحقائق وتلك النتائج تستحق حقًا أن يتغاضى الإنسان عن المؤثرات الخارجية التى تؤثر فى هذه المظاهر الطبيعية. وعوضًا عنها يهتم الإنسان بالأسباب والمسببات.

ففى المدرسة العربية نشأ فريدريش الثانى ووضع العلم منذ الطفولة حتى أصبح أستاذًا. وإبان عصر إحياء العلوم نجد هذه الفترة الزمنية تتشبث بعوامل أخرى، إلا أن فريدريش ألقى عكازه الذى كان يعتمد عليه لأنه أصبح فى غير حاجة إليه ويستطيع السير بدونه، فهو لا يتعلم ويقتبس فقط بل أخذ يخلق، وبذلك أصبح مؤسس العلوم الحديثة، وهو يأتى بصفته هذه فى طليعة جماعات كثيرة هو جدها الذى خلقها، إنه صاحب الفضل فى خلق هذه الجماعات العلمية وبخاصة تلك التى قامت إلى جانب المتكلمين والإنسانيين والمصلحين، فقد حلَّق فريدريش فوق أولئك وطار إلى أمثال «ألبرتوس مجنوس» و«روجير بيكون» و«ليوناردو ده فينشى» و«فرنسيس بيكون» و«جاليلى»، ومن ثم إلى العصر الحديث. فهل القيصر هو البادئ؟ أو أنه حلقة فى السلسلة التى تمتد من الحركة العربية العقلية، وذلك لأن «ألبرت الأكبر» و«روجير بيكون» و«ليوناردو» هم أيضًا من أولئك الذين يقومون فى الواقع على أكتاف العرب.

والشيء الجدير بالذكر أن خطًا مستقيمًا يبتدئ بالعلوم العربية ويسير متجهًا إلى القصر الملكى الصقلى، ومن ثم إلى فريدريش الثانى. وتحدثنا القصة أن القيصر الأشتوفى زار الجراف السويبى والدومينيكانى «ألبرت فون بولشتيدت» الذى كان قريبًا فى تفكيره وعقليته من القيصر، فى حديقته بمدينة كولونيا. ومن المؤكد أنه كانت هناك صلة بين فريدريش وبين معلم ألبرت ألا وهو «هينريش فون كولن»، وقد أعاره مخطوطة لابن سينا ونسخته الخاصة لابن رشد لكى ينسخها. ومن المؤكد أيضًا أنه أطلع ألبرت لا على هاتين النسختين فقط بل على نسخة للقيصر نفسه وهى «فن الصيد بالصقور»، فهذه الكتب كانت موضوعة على مكتب ألبرت، ويبدو لنا كما لو أن صوت فريدريش أو صوت ابن البيطار العربى هو الذى يدوى عندما يقدم كتابه فى مفرداته حيث يقول: «صحة النقل فيما أذكره عن المتقدمين وأحرره عن المتأخرين، فما صح عندى بالمشاهدة والنظر وثبت لدى بالخبْر لا الخبرَ ادخرته كنزًا سريًا. وما كان مخالفًا فى القوى والكيفية والمشاهدة الحسية فى المنفعة والماهية للصواب والتحقيق أو أن ناقله أو قائله عدل فيه عن سواء الطريق نبذته ظهريًا وهجرته مليًا. ولم أحاب فى ذلك قديمًا لسبقه ولا محدثًا اعتمد غيرى على

صدقه . . » فمؤلفاته لم يدونها على مكتبه، هذه المؤلفات الخاصة بالنبات والحيوان. فللمرة الأولى نجد باحثًا أوربيًا يتجول فى أوربا بعينين مفتوحتين فى الطبيعة، كما يفعل العرب وكما يفعل القيصر، فنجد العالم الألمانى يتخذ من هذه الألفاظ ألفاظه ومن هذه العقلية مبدأ له فيقول: «إن رسالة العلوم الطبيعية ليست نقل أو تدوين ما ذكره ويذكره الآخرون بل تعليل وشرح العوامل والعناصر المؤثرة فى هذه الظواهر الطبيعية».

وهكذا نجد ألبرت الأكبر ينسج على منوال قيصره ويصبح مجربًا فاحصًا ولو أنه هنا هاو وبخاصة إذا ما قورن بمثل «روجير بيكون» الذى كان ينادى بالتجارب. فإلى جانب الطرق العربية الشرقية التى تصل مباشرة إلى العالم الإنجليزى، وكذلك الإنجليزيين اللذين زار أحدهما الشرق فترجم المؤلفات الرياضية العربية واسمه «أثيلهارت فون باث» وأستاذه فى البصريات المسمى «جروستستا» أو عن طريق أستاذه الفرنسى المسمى «بطرس فون ماريكورت» الصليبى الذى أحضر معه من العرب البوصلة والمغناطيس، وغير هؤلاء نجد طرقًا أخرى تصل إلى العالم الإنجليزى، وهى عبارة عن قنطرة تربط بينه وبين القصر الملكى فى صقلية ومواطنه «ميخائيل سكوتوس».

ففى صقلية هذه التى ظلت قرونًا عديدة نورمانية أشتوفية، ولدت أوربا الحديثة، وكانت العبقرية العربية هى المولدة، ففى هذه الدولة التى كانت تقع بين عالمين التقى فريدريش الثانى بعقليته الجرمانية مع العبقرية العربية، وبذلك تحققت النبوءة التى تنبأ بها «جوتفريد فون فيتربو» لقيصره هينريش السادس قبل أن يرزق بهذا الطفل: «إن فريدريش هذا سيكون حمامة السلام بين الشرق والغرب، ولو لفترة قصيرة فى السياسة وإلى الأبد فى الحياة العقلية».

إن القنطرة التى أقامها فريدريش الثانى بين الشرق والغرب كانت السبب فى ظهور جيل جديد وعقلية جديدة تنظر إلى العلوم الطبيعية نظرة فاحصة ناقدة مجربة، فكان الأثر العقلى المتبادل هو الخالق لهذا التطور العلمى الجديد فى أوربا، وكانت صقلية هى حاملة هذه النهضة العلمية الجديدة، وعنها أخذت أوربا فى البناء

الأوربى والموسيقى والشعر، لا الفصاحة والبلاغة وسائر عبارات المجاز والاستعارة، بل الأفكار البناءة القوية الثابتة، وقد جاءت الأخيرة أوربا عن طريق العرب من أسبانيا.

وتحت الجبة الفضفاضة البيضاء الصوفية التى يرتديها رهبان القديس برنارد تناول زعيم الملحدين الذى كان فى حقيقته مسيحيًا - شهادة الموت، وفى قلعة تقع فى الطريق بين قصره العزيز إليه فى «فوجيا» ومدينة «لوكيرا» المسلمة حيث توفى القيصر فريدريش الثانى فى ١٣ ديسمبر ١٢٥٠، وميتًا أقفلت الدائرة وميتًا عاد فريدريش الثانى إلى بالرمو، إلى المدينة التى قضى فيها شبابه العجيب الملىء بالمغامرات وفيها دفن مع والديه وأجداده النورمانيين.

فى بالرمو يضطجع فريدريش الثانى ليس فى جبة رهبان القديس برنارد بل فى معطفه الذى يزينه النسر، هذا المعطف الأحمر لسيد العالم وإلى جواره سيفه فى غمده العربى. وأما كفنه فمطرز تطريزًا جميلا وعلى أطرافه كتابة على الشريط مذهبة طرزتها له أياد عربية، طرزتها لصديق الإسلام والمسلمين وتلميذ المسلمين الوفى الأمين، وعلى كمه كتب إهداء إلى السلطان.

الكتاب السابع

الفنون العربية الأندلسية

الصور الأولى للعبارة الألمانية «السيدة المحترمة»

أرجوك أيتها السيدة الفاضلة أن تقبلى عذرى واسمحى لى أن أظل دائمًا عبدك الذى يقدرك كل التقدير.

ريز ماريا ريلكة

«وليس هذا خطاب حب وغرام ويجب أن أختم كما بدأت: أيتها الآنسة الفاضلة أتسمحين لى أن أقدم خالص احتراماتى».

المطيع لك كثيراً..

فريتز فرايهر فون ليليا نكرون

فسواء أكان هذا ماسًا حقيقيًا أم بلوراً فهذه الحلية التى تتحلى بها ملكة القلب أو زوج الرئيس، والتى توضع عند قدميها هذه الحلية وتلك الباقة من الألفاظ الرقيقة، مستوردة من الشرق العربى، وهذه العبارات منذ أن انتقلت إلى ألمانيا وأوربا أخذت تنتقل من يد إلى أخرى ومن أخرى إلى أخرى وتتغير الصيغة مع مضى العصور واختلاف البلاد فحذف منها أو هذب، وما زالت بالرغم من جميع ذلك محتفظة بأثرها السحرى ومفعولها العجيب عندما يستخدمها المحب الولهان عند مخاطبته حبيبته فى القرن العشرين.

وإذا كنت غداً فى خطابك المرسل إلى السيدة المحترمة وتوقعه بإمضائك على أنك خادمها، ولو أنك لست خادمها المطيع، فإنك على كل حال «الخاضع كثيراً فلان..» إنك بهذه الصيغة تمجد العروبة وتقدم لها شكرك واحترامك. وفى كل

حفلة أو مناسبة كريمة فى القرن العشرين وحيث تتاح لك الفرصة لتحقيق رغبة فى تقبيل يد سيدة، فإنك تبرهن لها على مكانتك، وحيث تسيطر عليك مشاعرك الحقيقية وذلك بركوعك أمام حبيبتك فإنك مقلد لمحب عربى.

وإذا كررت هذا الصنيع وهذه اللغة وتلك الإشارات، وأنت فى موقف الاستسلام والخنوع والخضوع أمام السيدة التى تقدسها، فإنما تأتى بعادة ثانية اكتسبتها أوربا من العرب، وكانت قبل الاتصال بهم تجهلها جهلا تامًا، وقد تعلمتها أوربا عن العرب، كما تعلمت أشياء أخرى كثيرة، وهى تمارسها بالرغم من المتاعب والمشاق التى تتطلبها لأسباب تربوية كثيرة، وقد يقدمها الزوج إلى زوجه لوقوعه فى خطيئة حواء وضعفه واستسلامه. هنا نجد استسلام الرجل لإرادة المرأة، وهناك استسلام المرأة لإرادة الرجل. وهكذا نجد نوع العلاقات الجنسية وقيامها بين الاثنين والذى ظل فى أوربا قرونًا طويلة موضوع نزاع حول محاولة كل طرف إحراز النصر على الآخر. والواقع أن العوامل التى نشأت بين الرجل والمرأة من حيث الرغبة فى السيطرة، وأن كلا يشعر أنه هو صاحب الحق ـ أن هذه العوامل فى الواقع دخيلة على أوربا غريبة عن الأوربيين.

وذلك لأن استسلام الرجل للمرأة وضعفه أمام السيدة المحترمة التى رفع من مكانتها وجعلها فى مستوى الآلهة فى هذا المجتمع الذى نعيش فيه عبارة عن شىء رمزى فقط، وقد أقبل عليه الرجل بمحض إرادته، أو أنه شىء بغيض مكروه حقير، إذ كيف يقبل شخص الفناء نهائيًا أمام كائن رفعه ووضعه فى مصاف الآلهة وأصبح عبارة عن مجاز شعرى يقف منه موقف الخادم الذليل المطيع. إن هذه الطبيعة تغاير تمامًا طبيعة الطريقة التى سلكها الحب الجرمانى الذى يقوم على المساواة بين الشخصين واحترام الحقوق والحرية.

فالحب الجرمانى لا يعرف توزيع الأدوار الموجودة فى غراميات البحر الأبيض المتوسط، إن الحب الجرمانى بعيد جدًا عن المؤثرات الأجنبية، فهو لا يعرف استسلامًا وفناء وضياع شخصية طرف من الطرفين، بل يقوم على حب متبادل واحترام متبادل يتطلب الرضاء والإعجاب المتزايد. الحب الجرمانى يتعارض مع

قول الكتاب المقدس «ليكن سيدك»، وهكذا نجد الكنيسة تمزق الصلات بين الرجل والمرأة، الكنيسة هى التى تقضى على صلات المساواة كما جعلت من المرأة كائنًا خاضعًا لقوة الرجل، وهذه استجابة لإرادة الله الذى شاءت مشيئته أن يفرق بين الجنسين فسلح الرجل الأوربى بكل وسائل القوة التى تحت تصرفه.

لكن بالرغم من موقف الكنيسة هذا نجد العادات العربية والتقاليد العربية تنتصر وبدون قوة، بل بالاعتراف بالحياة والأخذ بأسبابها. وهذا الموقف هو الذى كسر أغلال الكنيسة كما قاوم موقف الكنيسة العدائى من النساء والعودة بالمرأة إلى ثقافتنا، وهذه العودة طبيعية وضرورية. وجميع أحداث ذلك العصر من مسائل عقلية وجمال ونبل وشرف وثراء وغيرها من آيات المثل العليا التى غمرت الحياة الأوربية أصبحت جزءًا مكملا للحياة الأوربية لا يمكنها أن تعيش بدونه. وإن شعراء أوربا وأدباءها وأجمل وأحسن تراث أوربى ظهر فى ذلك العصر وكل ما يميز ذلك العصر الأدبى، يدين فى نشأته وحيويته إلى العروبة، ولولاها لانزوى واندثر. فالعروبة هى مصدر الوحى للفنانين والشعراء والمغنين. لكن كيف؟ ألا تحيا المرأة العربية منذ زمن بعيد مكبلة بأغلال الرق والاستعباد محرومة من الحرية مجردة من مباشرة حقوقها الإنسانية مضطهدة؟ ألا يعرف الإنسان كيف يتحدث عن الحريم وحياتهن خلف القضبان وحيث يستطيع الزوج أن يقترن بأربع زوجات ويراقبهن بغيرة؟ نساء لا يرين أزواجهن قبل الزواج ولا يؤخذ رأيهن فى الأزواج، وللرجل الحق، حسب مزاجه، أن يطلق من يطلق ويردها إلى أسرتها ثانية، ويتمتع علاوة على ذلك برضاء الدين وآله؟ ألا يتعارض مركز الفلاحة وقد أحنى الدهر ظهرها من ثقل الأحمال التى تحملها وتسير إلى السوق بينما الزوج الشامخ يسير إلى جوارها راكبًا حماره. أليست هذه الحالة تتعارض والفكرة السائدة عن تكريم المرأة وعن الفروسية العربية؟ أوَلم تبدأ العربية الآن فقط فى التحرر من الحريم وتركه؟ أوَلم تبدأ الآن فقط بترك الحجاب والتخلص من هذا الاستعباد الذى خيم عليها قرونًا وأصبحت الآن فقط تتمتع بحقوقها الإنسانية؟ أكاذيب وحقائق. كيف كانت الحقيقة؟

«قال الحارث بن عوف بن أبى حارثة: أترانى أخطب إلى أحد فيردنى؟ قال: نعم. قال: ومن ذاك؟ قال: أوس بن حارثة بن لام الطائى. فقال الحارث لغلامه: ارحل بنا، ففعل فركبا حتى أتيا أوس بن حارثة فى بلاده فوجداه فى منزله، فلما رأى الحارث بن عوف قال: مرحبًا بك يا حار. قال: وبك. قال: ما جاء بك يا حار؟ قال: جئتك خاطبًا. قال: لست هناك. فانصرف ولم يكلمه. ودخل أوس على امرأته مغضبًا، وكانت من عبس فقالت: من رجل وقف عليك فلم يطل ولم تكلمه؟ قال: ذاك سيد العرب الحارث بن عوف بن أبى حارثة المرى. قالت: فما لك لم تستنزله؟ قال: إنه استحمق. قالت: وكيف؟ قال: جاءنى خاطبًا. قالت: أفتريد أن تزوج بناتك؟ قال: نعم. قالت: فإذا لم تزوج سيد العرب فمن؟ قال: قد كان ذلك. قالت: فتدارك ما كان منك. قال: بماذا؟ قالت: تلحقه فترده. قال: وكيف وقد فرط منى ما فرط إليه؟ قالت: تقول له: إنك لقيتنى مغضبًا بأمر لم تقدم فيه قولا، فلم يكن عندى فيه من الجواب إلا ما سمعت، فانصرف ولك عندى كل ما أحببت، فإنه سيفعل. فركب فى أثرهما. قال خارجة بن سنان: فوالله إنى لأسير إذ حانت منى التفاتة فرأيته فأقبلت على الحارث، وما يكلمنى غمًا. فقلت له: هذا أوس بن حارثة فى أثرنا. قال: وما نصنع به؟ امض، فلما رآنا لا نقف عليه صاح: يا حار. أربع علىّ ساعة. فوقفنا فله فكلمه بذلك الكلام فرجع مسرورًا. فبلغنى أن أوسًا لما دخل منزله قال لزوجته: ادعى لى فلانة (أكبر بناته) فأتته فقال: يا بنية، هذا الحارث بن عوف سيد من سادات العرب. قد جاءنى طالبًا خاطبًا، وقد أردت أن أزوجك منه فما تقولين؟ قالت: لا تفعل. قال: ولم؟ قالت: لأنى امرأة فى وجهى ردة (القبح مع شىء من الجمال)، وفى خلقى بعض العهدة (الضعف)، ولست بابنة عمه فيرعى رحمى، وليس بجارك فى البلد فيستحى منك، ولا آمن أن يرى منى ما يكره فيطلقنى، فيكون علىّ فى ذلك ما فيه. قال: قومى بارك الله عليك، ادعى لى فلانة (ابنته الوسطى)، فدعتها، ثم قال لها مثل قوله لأختها، فأجابته مثل جوابها، وقالت: إنى خرقاء وليست بيدى صناعة، ولا آمن أن يرى منى ما يكره فيطلقنى فيكون علىّ فى ذلك ما تعلم، وليس بابن عمى فيرعى حقى،

ولا جارك فى بلدك فيستحييك قال: قومى بارك الله عليك، ادعى لى بهيسة (يعنى الصغرى)، فأتى بها فقال لها كما قال لهما.

فقالت: أنت وذاك. فقال لها: إنى قد عرضت ذلك على أختيك فأبتاه. فقالت - ولم يذكر لها مقالتيهما - لكنى والله الجميلة وجهًا، الصناع يدًا، الرفيعة خلقًا، الحسيبة أبًا، فإن طلقنى فلا أخلف الله عليه بخير. فقال: بارك الله عليك. ثم خرج إلينا فقال: قد زوجتك يا حارث بهيسة بنت أوس.

قال: قد قبلت. فأمر أمها أن تهيئها وتصلح من شأنها، ثم أمر ببيت فضرب له، وأنزله إياه، فلما هيئت بعث بها إليه فلما دخلت إليه لبث هنيهة ثم خرج إلىّ. فقلت: أفرغت من شأنك؟ قال: لا والله. قلت: وكيف ذاك؟ قال: لما مددت يدى إليها قالت: مه. أعند أبى وإخوتى هذا والله ما لا يكون. قال: فأمر بالرحلة، فارتحلنا ورحلنا بها معنا، فسرنا ما شاء الله. ثم قال لى: تقدم فتقدمت، وعدل بها عن الطريق، فما لبث أن لحق بى، فقلت: أفرغت؟ قال لا والله. قلت: ولم؟ قال: قالت لى: أكما يفعل بالأمة الجليبة أو السبية الأخيذة. لا والله حتى تنحر الجزر وتذبح الغنم، وتدعو العرب، وتعمل ما يعمل لمثلى. قلت: والله إنى لأرى همة وعقلا، وأرجو أن تكون المرأة منجبة إن شاء الله.

فرحلنا حتى جئنا بلادنا، فأحضر الإبل والغنم، ثم دخل عليها وخرج إلىّ. فقلت: أفرغت؟ قال: لا. قلت: ولم؟ قال: دخلت عليها أريدها، وقلت لها قد أحضرنا من المال ما قد ترين، فقالت: والله لقد ذكرت لى من الشرف ما لا أراه فيك. قلت: وكيف؟ قالت: أتفرغ لنكاح النساء والعرب تقتل بعضها (وذلك فى أيام حرب عبس وذبيان). قلت: فيكون ماذا؟ قالت: اخرج إلى هؤلاء القوم فأصلح بينهم، ثم ارجع إلى أهلك فلن يفوتك، فقلت: والله إنى لأرى همة وعقلا، ولقد قالت قولا. قال: فاخرج بنا. فخرجنا حتى أتينا القوم فمشينا فيما بينهم بالصلح، فاصطلحوا على أن يحتسبوا القتلى فيؤخذ الفضل ممن هو عليه، فحملنا عنهم الديات، فكانت ثلاثة آلاف بعير فى ثلاث سنوات فانصرفنا بأجمل الذكر.

قال محمد بن عبد العزيز: فمدحوا بذلك، وقال فيه زهير بن أبى سلمى قصيدته:

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم...

فذكرهما فيها فقال:

تداركتما عبسًا وذبيان بعدما ... تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

فأصبح يجرى فيهم من تلادكم ... مغانم شتى من أفال المزنم

ينجمها قوم لقوم غرامة ... ولم يهريقوا بينهم ملء محجم

وذكر قيامهم فى ذلك فقال:

صحا القلب عن سلمى وقد كاد لا يسلو...

وهى قصيدة يقول فيها:

تداركتما الأحلاف قد ثل عرشها ... وذبيان قد زلت بأقدامها النعل

وهذه لهم شرف إلى الآن. ورجع فدخل بها، فولدت له بنين وبنات».

(الأغانى. جـ ١٠ ص ٢٩٤ . . . مطبعة دار الكتب المصرية).

ثم سكت القاص ويصيح المستمعون: «ما شاء الله». لقد أدرك ما يهمهم. و«بهيسة» ما زالت المرأة التى تهواها قلوبهم. أربعة أو خمسة أجيال قد مضت منذ أن جعل الإسلام آلهة الجاهلية دون الملائكة وأعلن عبادة الواحد الأحد الفرد الصمد. لكن بالرغم من ذلك ما زال الإنسان فى دمشق الفيحاء يتذاكر أخبار الجاهلية العربية فى قصر الأمويين حيث كانت العربية الأصيلة النبيلة تستولى على قلوب الرجال، وحيث كانت المرأة العربية الأصيلة العظيمة تدفع الرجل إلى الحرب والكفاح والبطولة، وكان منحها البطولة لشخص ما مفخرة الأجيال.

ها هى ذى امرأة مستقلة تاجرة تقف فى الحياة العامة ومعتركها، وهى الأرملة الغنية «خديجة» أولى زوجات رسول الله محمد ﷺ، عاش معها أربعة وعشرين

عامًا وولدت له ستة أطفال، وهى مع ذلك تمثل السيدة النبيلة الواعية الحاضرة البديهة الذكية، إنها المثل الأعلى للأرستقراطية العربية، فقد رغب إليها النبى صلى الله عليه وسلم أن تتثقف وتتعلم مثلها مثل الرجل. وهناك علماء مشهورون يرشحون المرأة لوظيفة القضاء، كما زارت المسجد وألقت المحاضرات العامة وشرعت.

ومن النساء من أصبحت مدعية عامة واشتهرت بلقب نقيبة رجال الشرع فهى «شيخة» وأستاذة وإنها لفخر النساء. هكذا كانت تكرم العالمة «شهدة» فخر النساء بنت أبى نصر أحمد، وقد تلقت العلم على مشاهير العلماء، ثم حصلت على إجازة التدريس، وأصبحت منارة العلم. كما نجد شاعرات ينافسن الشعراء كما كان الحال قديمًا، ولا تشعر شاعرة منهن بأنها تعامل معاملة شاذة. والواقع أن العربية لم تكن رهينة البيت طالما كانت الأرستقراطية العربية هى المهيمنة على المجتمع العربى. لكن هذا الوضع قد تغير.

ففى بغداد فى قصر العباسيين هبت ريح أخرى جاءت من الشمال إذ وفدت جماعات من الجوارى الفارسيات والروميات ومن بينهن من أصبحن أمهات خلفاء فأدخلن بدورهن عادات وتقاليد غريبة على المجتمع العربى والأسرة العربية، لقد أدخلن الحجاب ونظام الحريم، وهذه تقاليد إيرانية قديمة ترجع إلى العهد الذى كان يسود فيه إيران والعقائد الإيرانية المذهب الثنائى أو الإثنينية:

١ ـ الحرمان من الحرية.

٢ ـ وضع المرأة الفارسية فى منزلة دون منزلة الرجل.

وهذه الحالات لم تعرفها العروبة ولم تقل بها الشريعة الإسلامية. فالحجاب والبعد عن الحياة الاجتماعية لم يقل بهما الإسلام. فقد خاطب المؤمنين كما خاطب المؤمنات: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ

وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ ﴾ (النور: ٣٠، ٣١). كذلك دعا القرآن الكريم النساء إلى عدم التبرج: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ ﴾ (الأحزاب: ٣٣).

وأين يبدأ الجزء الفاتن فى المرأة، الذى يجب ستره؟ هذا هو موضوع النزاع بين الفقهاء، فمنهم من قصره على الثديين، ومنهم من قال الوجه أيضًا وأجمعوا على أن اليدين فقط هما ما تظهرهما المرأة. . أما الاستقرار فى البيوت جريًا وراء التقاليد الفارسية وتكليف الخصيان خدمتهن حسب العادات البيزنطية التى كانت أصلا مظهرًا من مظاهر الارستوقراطية، فقد عممت استغلالا لقول القرآن الكريم: و﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ الذى كان يقصد به «أزواج النبى» ومن ثم بولغ فيه فحدَّ المجتمع من نشاط المرأة.

وهذه الضربة القاصمة التى أصابت المرأة جاءتها من حاكم لا حول له ولا سلطان، خليفة مصاب بعقدة نفسية غبى بليد ألا وهو الخليفة القادر.

ومن الأسباب التى ساعدت على قيام تعدد الزوجات، الذى كان معروفًا منذ الجاهلية، الرغبة فى كثرة النسل لتعزيز القبيلة وتقوية أواصر القرابة بين الأسرات وتعويض ضحايا الثأر والانتقام والرحيل. ولما جاء الإسلام قرر فرض زعامة العرب على الشعوب المغلوبة التى فتح الإسلام بلادها والحرص على عدم الامتزاج والفناء فى الشعوب الأخرى. والحقيقة تقال: إن الأمويين فى معركة ضد البربر خسروا مالا يقل عن عشرة آلاف من أفراد أسرهم وأتباعهم. وفى عصر المأمون نجد البيت العباسى يضم نحو ثلاثة وثلاثين ألف نسمة. لكن الشىء الذى كان ضروريًا فى العصور الأولى اتجه، بعد أن استقر السلطان العربى، اتجاهًا آخر يتعارض والسيادة التى كانت تتمتع بها البيوتات العربية القديمة. فالاختلاط مع الأجانب والزواج من أجنبيات والتسامح فى المثل العليا التى كان يتطلبها العربى من زوجته، كانت من أسباب الانحلال والاضحلال فيما بعد.

فـفى الحـريم كـان تعـدد الزوجـات من أسـبـاب القـضـاء على روح الحـرية والاستقلال والشعور بالشخصية وكل مقومات المرأة العربية الأصيلة. وعوضًا عن هذه الصفات الحميدة أصبح الرجال أكثر ميلا إلى اللواتى يجدن فن الإغراء وإيقـاع الرجـال فى حـبـائلهن، أعنى اللواتى كن يغشين دور اللهـو والغناء فى الكوفة والتى كانت تغص بتجار الرقيق الذين كانوا يبتزون أموال السادة والشباب فى المدينة الذهبية بغداد.

هذه هى الناحـية السطحية التى يتجه إليها دائمًا التفكير الأوربى، لكن كلما تعمق الإنسان فى المجتمع تبين الصورة الحقيقية واضحة المعالم، وبخاصة كلما ابتعدت هذه الصورة عن التأثير الفارسى أو بتعبير آخر عندما تصبح الصورة عربية خالصة. إن البدوية لم تستخدم أبدًا الحجاب كما أنها لم تعش يومًا ما عيشة الحريم ولم تغلق دونها الأبواب، لأن مثل هذه الحياة الأرستوقراطية لم تكن تسمح بها الحياة الاقتصادية، وحياة العمل لسكان الصحارى والمروج سواء كانوا بدوًا أو فلاحين، كما لم تسمح بحياة البذخ التى أباحها الإسلام، أعنى الزواج من أربع نساء.

وذلك لأن الإسلام طالب الزواج بالعدل بينهن سواء فى الأكل أو الالتزامات الزوجية: ﴿ **فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً** ﴾ (النساء: ٣). ألم يقر الإسلام رغبة فى احترام العدالة أن يتزوج الرجل واحدة فقط؟ ومن غير الأغنياء يستطيع أن يعدل بين أزواجه؟ إن المسألة ليست اقتصادية فقط، فالعربى الأصيل كما يقول مؤرخ عربى: «إذا ما أحب فواحدة فقط ويخلص لها وتخلص له حتى الموت».

وهكذا نجد صورة العربية عندما تبتعد عن المدينة وآثارها تقترب من الصورة الحقيقية للمرأة العربية الشامخة الشاعرة بوجودها وكيانها وشخصيتها، لذلك كانت البدوية فى صدر الإسلام أكثر تمتعًا بالحرية وأكثر استقلالا وأكثر أثرًا فى المجتمع العربى من تلك السيدة النبيلة العظيمة المقيمة فى دمشق، وهكذا نستطيع أن نفسر

الرغبة الجامحة فى حياة البداوة، كما نتبين هذه الرغبة الملحة التى أبدتها «ميسون» وبلغت معاوية فى قصيدتها التى مطلعها :

لبيت تخفق الأرواح فيه ... أحب إليَّ من قصر منيف

فما كان من معاوية السيد الحاكم المهذب إلا أن منحها حريتها، وهكذا عادت بنت الصحراء إلى حياتها الأولى غير آسفة على الخز والقصور، والأخريات اللواتى كن يتمتعن بنعيم الحياة والأبهة والعظمة التى لم تر المرأة الشرقية مثيلا لها فيما بعد.

أما إسبانيا العربية ففاقت الشرق العربى وقدمت حياة أفضل وأجمل.

إن العالم شيد لى مسجداً

إسبانيا هى الحلم، هى الأمنية، إنها تاج العروبة. والتقدم الذى عرفته العروبة تم فى إسبانيا، كما يقول العربى الأندلسى. وما حدث لم يكن مقصوراً على عالم المرأة بل عم كل ناحية من النواحى الثقافية العربية.

وهذه ظاهرة عجيبة حقًا تستحق التفكير أكثر من سائر الافتراضات والعجائب التى جاءت بها الثقافة العربية، وهذا يبدو فيه شىء من التناقض، فأخصب البقاع حضارة وثقافة ومدنية هى تلك التى كانت فيها قليلة جداً، وذلك لندرة وجود العنصر العربى وحيث لم تقم من قبل حضارة هامة، إن الحضارة الطارئة التى جاء بها الغزاة لم تتأصل فيها لتزدهر وظلت ضعيفة هزيلة، بخلاف الحال فى الأقطار الأخرى التى تشبه أسبانيا تمامًا وذلك مثل صقلية ومصر وسوريا والعراق وإيران حيث نجد شعوبًا مثقفة ثقافة رفيعة تلعب دوراً هامًا فى الثقافة البشرية مثل الهلّينية والبيزنطية واليونانية والفارسية والهندية حيث تفاعلت مع الثقافة العربية.

أما فى بلاد المغرب البربرية وفى إسبانيا حيث كانت الدولة الغوطية الغربية وريثة الاستقلال الرومانى والاستعباد والمرض المزمن الذى أصاب البلاد من جراء الاستعمار الرومانى والذى خلف طبقة من رجال الدين المتعصبين، فهنا لا يوجد شىء وتنعدم كل مقومات الحضارة، وعندما جاء الفاتحون أخذت الموجات العربية تفد من بلاد العرب ومن سوريا وليس حولهم شعوب قد يقتبسون منهم شيئًا ما. فهذه الثقافة الرفيعة العالية التى بلغها العرب فى إسبانيا هى خير ما يدحض هذه

الادعاءات القائلة بأن العرب قد أخذوا الحضارات البائدة وأعادوها ثانية، وأنهم مقلدون فقط ولم يأتوا بجديد. ففى إسبانيا لم توجد حضارات يقال إن العرب قد اقتبسوها وتعلموها وقلدوها، والحقيقة التى يجب الاعتراف بها أن جمال الثقافة الأندلسية لم يكن فارسيًا أو يونانيًا بل كان عربيًا وعربيًا فقط، وعندما اختفى العرب من إسبانيا انحطت البلاد وتدهورت حضارتها وخيم عليها الموت ولم تنتج شيئًا.

ففى إسبانيا ظل حكم العرب ثمانية قرون كانت أزهى وأغنى العصور، ومن خير ما عرف على يد البيوت الحاكمة وهى عربية قديمة، وهى بيوت أموية حكمت فى قرطبة كما حكم العباديون فى أشبيلية والناصريون فى غرناطة بينما لم يقم البربر والمسيحيون إلا بأعمال التخريب والتدمير، وبخاصة إذا كانوا لم يتأثروا بالثقافة العربية والعقلية العربية. وفى شرق العالم العربى بعد القضاء على الأمويين على يد العباسيين الذين فى عهدهم، توغلت العناصر الأجنبية فى الحكم والسيادة ولو أنهم كانوا من العوامل المؤثرة فى الثقافة العربية.

وما هى فترة ثمانية قرون؟! إنها قصيرة إلا أنها غنية جدًا بالأحداث التاريخية! إنها فترة تساوى تلك التى تمتد من موت البطل «ليونيداس» حتى آخر اضطهاد حل بالمسيحيين أيام القيصر «ديوقليطيان»، أو إذا ما قيست بالعصر الحديث عبارة عن فترة من الزمن هى التى تبدأ بهنرى الثانى حتى مجىء الملكة الياصابات الثانية ملكة إنجلترا، وعلى الدقة منذ مجىء الملك فيليب الثانى ملك فرنسا حتى الجمهورية الخامسة للجنرال ديجول، أو منذ سقوط هنرى قلب الأسد أمام القيصر فريدريش الأول باربا روسا حتى مجىء عصر الدكتور كونراد أديناور، فهذه الفترة بالضبط عبارة عن ٧٨١ عامًا ازدهرت وأينعت فيها الحضارة العربية فى شبه الجزيرة الأوربية.

لكن الغرب لم يعرف شيئًا عنها.

والجار الغاضب المكشر عن أنيابه الذى كان يقيم على الجانب الآخر من جبال البرناس ظل قرنين، ثلاثة، أربعة أصم أعمى، فقد غشت عينيه غشاوة بفعل الأنوار الساطعة والجنة الغناء، وفيها المعماريون والمغنون والشعراء والعلماء، وهى كذلك

جنة النساء. وقد صور هذا الجار الغاضب تلك الجنة بأنها وطن السحرة وعبدة الشياطين وأنها وطن تقديم البشر قربانًا لمحمد، لماذا؟ خوفًا من هذا السحر الذى قد يأتى بالحقيقة. لكن هذا الجار فشل فى سد أذنيه وإغماض عينيه تمامًا وتأثر أثرًا قويًا بحضارة جاره.

وبالقرب من قرطبة فى حديقة قصر عبد الرحمن، هذا القصر الذى شيده حسب تصميم أجداده الذين شيدوا قصورهم فى الصحراء السورية، كان هذا الأمير العربى يزرع أول نخلة فى أرض الأندلس وعنها انتقل النخيل إلى أوربا.

إن هذا الأمير هو الشاب عبد الرحمن الذى طالما حن إلى وطنه الأصلى وسجل هذا الحنين فى أشعاره وهو آخر فرد من الأسرة الأموية وهو أحد حكامهم الأقوياء الأشداء. فقد نجا وهو ابن العشرين من المذبحة التى حلت بأهله فى دمشق، وقد ظل خمسة أعوام ضالا هائمًا متعرضًا لمختلف الأخطار، فى شمال إفريقيا، حتى استطاع أخيرًا هذا الفقير المعدم بفضل شجاعته وعزيمته القوية وإرادته الحديدية أن يصير حاكمًا على الأندلس التى كانت تقاسى من انقسامات العرب هناك وشحنائهم.

ومع هذه الشجرة العربية التى جاء بها من وطنه أخذ الفن العربى يدخل الأندلس ومن ثم أخذ هذا الفن يزدهر وينتشر خارج الأندلس ومختلف البلاد الأوربية، حيث أصبحنا نجد فنًا معماريًا عربيًا وموسيقى عربية وشعرًا عربيًا وغزلا عربيًا.

ففى فترة حكمه التى بلغت ثلاثة وثلاثين عامًا والتى كانت مليئة بالكفاح وضع عبد الرحمن الأول الأساس للدولة العظمى التى شاهدتها العصور الوسطى، وكل من جاءوا بعده من العباقرة الجبابرة أضافوا لبنة إلى هذا البناء الشاهق، كما ساهموا فى بناء المسجد العظيم الذى وضع أساسه عبد الرحمن الأول فى قرطبة عاصمته.

أما كاتدرائية القديس «فينسينس» فقد قدر ثمنها بمائة ألف دينار وهذا مبلغ عظيم جدًا فى ذلك العصر مما يشير إلى أن الحالة كانت ميسرة مستقرة فلا هدم للمعابد ولا تكسير لصور مقدسة أو غيرها. نعم إنه عندما فتح طارق وبربره البلاد هدموا كثيرًا

من الكنائس، لكن الكاتدرائية احتفظ بها مسيحيو قرطبة وأعدوها لتأدية طقوسهم الدينية وقد أخذوا بهذه عهداً مكتوبًا. أما الفاتحون فقد اكتفوا بتشييد مساجدهم المتواضعة خارج المدينة.

ثم نجد العرب الذين قدموا من المدينة محاربين ومدافعين عن النبى ﷺ ومعهم ذراريهم وأتباعهم يستقبلون موجة أخرى من العرب السوريين فامتلأت بهم قرطبة مما جعل الحاجة ماسة إلى تشييد مسجد عظيم فى العاصمة فى قرطبة، وقد بلغت نفقات بناء هذا المسجد مائة ألف دينار، وقد اشترى عبد الرحمن الكاتدرائية المسيحية من المسيحيين بهذا المبلغ، أعنى مائة ألف دينار، كما منح المسيحيين الحق فى أن يجددوا بهذا المبلغ كنائسهم التى خربت.

والآن يستطيع المسلمون الانتقال إلى هذه الكنيسة التى آلت إليهم بحكم الشراء أو تحويرها التحوير الذى يتفق والشعائر الدينية الإسلامية، فكان مثلهم مثل المحاربين القدماء الذين لم يعتادوا البناء، فكانوا يستولون فى البلاد المفتوحة على بعض دور العبادة المسيحية كما وقع فى دمشق والقدس. وهكذا صنع جد عبد الرحمن ألا وهو الخليفة عبد الملك عندما حوَّل كنيسة العذراء مريم، التى تنسب إلى «يوستنيان» والواقعة أمام المعبد فى القدس، إلى المسجد الأقصى، كما حوَّل ابنه الوليد كنيسة القديس يوحنا فى دمشق إلى المسجد الكبير مع الإشارة إلى أن الكنيسة أصلا قد شيدت من أحجار وأعمدة معبد «جيوبيتر» القديم. لكن ليس معنى هذا أن المعابد التى شيدت للآلهة الأجانب قد استغلها المسلمون واستخدموها دوراً لعبادتهم، فالمساجد العظيمة كانت تشيدها الدولة فى معسكرات جيوشها، فقد شيدت مثلا لجنودها المحاربين جامع ابن طولون فى القاهرة وسيدى عقبة فى القيروان، فهذه المساجد كانت تشيد عادة فى الفضاء الواسع كما كانت فى هندستها المعمارية، إذا ما استثنينا قبة الصخرة، ومساجد القبور، تتبع تخطيطًا بعينه أعنى نظام المسجد ذى الصحن المربع غير المسقوف وبه ميضأة للوضوء ويحاط بسور يشبه سور الحصن وحوله صفوف من الأعمدة التى تظلل أولئك الذين يريدون الانصراف إلى الله فى الصلاة، وذلك عن طريق الصلاة فى القاعة المسقوفة. وهذا

الفن المعمارى يرجع فى الواقع إلى فن قديم قد يكون هو الذى كان مستخدمًا فى العصر الجاهلى عند تشييد المعابد مثل معبد صرواح فى بلاد العرب الجنوبية وفى نظام المصلى الذى كان موجودًا إبان حياة الرسول. وكان تخطيط المصلى معروفًا فى المدينة قبل تشييد أول مسجد بزمن بعيد، وقد استخدمه الرسول فى مناسبات خاصة.

أما الحفيد الأموى فى الأندلس فقد كان يدرك أنه لا يمكن الجمع بين المسجد والكنيسة فلم يحوِّل الأخيرة إلى مسجد، وما كان فى حاجة إلى ذلك، فقد مضى العهد الأول، العهد الذى لازم صدر الإسلام، لذلك نجد عبد الرحمن يدفع ثمن الكنيسة غاليًا جدًا ويهدمها ويشيد مكانها بناءً جديدًا، حيث استخدم الأعمدة القديمة أيضًا.

لكن الاعتماد على فن المعمار الأجنبى أصبح فى غير موضعه، واستخدام بعض المواد القديمة فى البناء ليس معناه استخدام نفس الفن الذى استخدمت فيه هذه المواد بل استخدمت فى تشييد فن جديد وهذا الفن المعمارى الذى يعبر عن روح ذلك العصر وثقافته وحضارته وعقيدته، وبخاصة أنها تستخدم فى تشييد مسجد الإسلام. وبالرغم من أن المنفذين لهذا الفن المعمارى، من بنائين وعمال وغيرهم قد انحدروا من عناصر مختلفة إلا أن المعمار العربى كان مستقلا عربيًا خالصًا، وهذا الفن يستمد كيانه من خصائص وعناصر إسلامية دينية مثل: المحراب والمنبر والأريكة والمئذنة. فالفن المعمارى، وفن المسجد إن كان سقفه يقوم على أعمدة كانت فى الأصل فى كنائس مسيحية فلا رابطة تربط بينها وبين الكنيسة بالرغم من أن الأعمدة قد أخذت من الكنيسة. والواقع أن المسجد والكنيسة معبدان يختلف كل منهما عن الآخر.

إن المسجد ليس هو بيت الله المقدس الذى يستطيع فيه المؤمن بواسطة رجل الدين التقرب إلى الله، بخلاف الحال مع الكنيسة فهى متى قدست أصبحت حقًا لا رمزًا مدينة سماوية يحكم فيها المسيح وأن القدس السماوية قد نزلت من السماء إلى الأرض، هذا هو معنى الكنيسة عند المسيحى فى مختلف العصور، فمنذ القرن

الرابع الميلادى نجد الكاتدرائية المسيحية القديمة والقدس السماوية كمدينة قديمة وفيها أقواس النصر وقاعات ذوات عقود وقصر القيصر وقاعة العرش. وفى عصور متأخرة نجد الكنيسة الرومانية هى البرج السماوى لملك الجيش والكنيسة بأبراجها وحيطانها القوية ونوافذ لإطلاق النيران وحتى أبواب المدينة ممثلة فيها. والكاتدرائية القوطية تمتاز ببساطة البناء يضيئها نور سماوى وزخرف السماء وجمالها مما لا يجده الإنسان على الأرض. وهذه المدينة السماوية المضيئة تقرب بين المعانى القوية كما قال ذلك العالم «سيدلماير». إن جميع هذه المعانى لا يشير إليها المسجد كما أن هذا المعنى الشعرى يعبر عنه المسجد تعبيراً واقعيًا وهذه هى ميزته:

﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴾ (العنكبوت: ٥٦) وقال تعالى أيضًا: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ (البقرة: ١٤٩). هذه هى عقلية القدامى من البدو الذين عاشوا فى الصحراء غير المتناهية فكانوا يشاهدون الكائنات غير المرئية، لذلك نجد المسلم مثل أسلافه يصلى فى كل بقعة من الأرض ففيها يواجه الله. فلا توجد قواعد خاصة تقيد المسلم كما لم يفرض عليه الإسلام مكانًا خاصًا بالذات لتأدية فرائضه الدينية لا معبد ولا كنيسة كما أن تعبده لا يرتبط كما هو الحال فى المسيحية بقسيس أو وسيلة تجمع بينه وبين الله. فلدى المسلم كل شخص يمثل الله وكل مسلم له الحق فى أن يصلى بالمصلين ويكون إمامًا فى المسجد.

وغير الصلاة الخاصة الفردية التى يؤديها المسلم، على المسلمين أن يجتمعوا معًا ليصلوا جماعة، والبيت الذى يؤذن فيه لصلاة الجماعة هو «الجامع» الذى لا تقتصر مهمته على إقامة الصلاة به فقط بل هو مدرسة لتعليم التلاميذ والتفقه فى المسائل الشرعية؛ لذلك يسمى الجامع الكبير حيث تؤدى صلاة الجمعة ويؤديها المسلمون يوم الجمعة، ويسمى هذا المسجد «المسجد الجامع» أو بالاختصار «جامع». والمسجد الجامع ليس مكانًا يمتاز بقدسية خاصة، وإنما يمتاز على غيره بميزات أخرى كما تمتاز الكنيسة على الأماكن الأخرى العادية ومساكن الناس، لذلك لم يلاحظ عند تشييد الجامع أن يؤثر بمظهره الخارجى فى المصلين، كما أن تصميمه لا يختلف عن أى

شكل هندسى لبناء قائم الزوايا أو مكعب، كما أن شكله الخارجى غير جذاب ومهمل وحيطانه ملساء عارية من الزخرفة تشبه حيطان حصن من الحصون أو مصنع أو قصر حاكم. وفى الداخل فقط نجد بعض الزخارف. أما الأعمدة الداخلية فقد يبلغ عددها خمسة عشر عمودًا، كما أنه يشتمل على كثير من العقود حيث يركع المسلم غير مقيد بعقد خاص أو مذبح، وهذا يتفق وتعاليم الإسلام الذى لا يميز بين طبقة وطبقة. فالمحراب فى المسجد غير المذبح، فالمحراب يبين فقط اتجاه المصلين حيث نجد العالِم يقف إلى جوار السقاء والقائد إلى جوار الجندى، كما نجد الإمام فى ملابسه العَادية يؤم المصلين مثله مثل ماسح الأحذية وسائر الأفراد، يركع ويسجد ويقوم بسائر الفروض الدينية.

فهذه الخصال الشعبية حقًا تتمثل فى المسجد كما تتمثل فى أى بناء آخر فالمسجد إذا ما أريد تكبيره اتسع أفقيًا لا علويًا. وبقدر عدم اكتراث العربى بالبناء الخارجى ومظهره إذ به يهتم اهتمامًا كبيرًا بالزخرفة الداخلية.

إن المسجد لا يعنى البتة برقصات المعبد أو الأغانى أو الصور أو البخور أو بعض المظاهر المغرية للتأثير فى المسلمين لتنقلهم من ملاذ الدنيا، وعن طريقها، إلى ملاذ الآخرة، بينما نجد الكاتدرائية الغوطية تحول الشىء غير المحسوس محسوسًا وتتفنن فى هذا بخلاف الإسلام الذى يحول الماديات إلى روحانيات. إن الصحراء الجرداء التى لا شىء فيها تخلق من العربى شخصًا لا يؤمن بالماديات إيمانه بالمعنويات، فالعربى يحول المادية إلى معنوية إلى رياضة. إن طبيعة الصحراء ذات النمط الواحد تكرار وتكرار لهذا النمط الذى يتراءى فى الهواء لا عمق له، لا أبعاد له، لأن هذا النور الذى يغمر الصحراء قد يقضى على الأبعاد والانعكاسات ويقرب البعيد فى الأفق وغير ذلك.

كذلك لا نجد فى المسجد شيئًا ماديًا أو محسوسًا، ولا شىء فيه يؤثر فى الإنسان بل يؤثر فى غير المرئى الكائن فى كل عصر ومكان، ولا يتصف بصفات الإنسان أو الكائنات الطبيعية، إنه واحد فى نفسه وليس كائنًا آخر يشبهه وهو موجود فى نفسه.

وليس الفن العربى (أرابيسك) شيئًا آخر، واسمه يدلنا على أصالته العربية، وهو خير من يعرض الخصائص الرياضية المعنوية حيث نجد دورانًا فى الوسط وهذا الدوران يرجع إلى حيث بدأ، وبذلك يكمل نفسه تلقائيًا ويكوِّن شكلا هندسيًا كاملا. إن الزخرفة العربية لا تمر سريعًا وليست حركة تتجه اتجاهين كما هو الحال فى اللولب الكريتى أو «ميندر» اليونانى. وهكذا نجد الفن العربى فنًا حاضرًا لا نهاية له فهو نظام خاص وهو أساس كل الكائنات وهو يتجلى فى جميع المظاهر الطبيعية، وهكذا نجد الفن العربى يتزايد وينمو نموًا متجانسًا ذا نغم ثابت. إن الفن العربى حاضر ولا نهاية له، إن الفن العربى لا أول له ولا آخر لا تحده حدود، فالمساحة فى الفن العربى لا تعرف حدودًا بل تمتد وتمتد فى مختلف الجهات لكن بالرغم من هذا لا تنمو نموًا غير مهذب ولا تتضخم تضخمًا مريضًا فكل شىء فى الفن العربى قد أحكمته نظم وقواعد جبارة واضحة وضوح البلور وكأنها نغم متسق.

لقد تعمق «جوته» فى الحياة العقلية الشرقية وعاش فيها، لذلك ندرك تمامًا عباراته الشعرية التى صاغها فى الشعر العربى ووصفه بها، وما يقال عن الشعر يقال أيضًا عن الفن العربى. ولماذا؟ لأن الشخص الذى تملكت شعوره وإحساساته الطباع والمشاعر الشرقية يتصف ولا شك بهذه العقلية العربية:

إن عدم نهايتك دليل عظمتك.

وعدم بدايتك مقدر لك.

إن قصيدتك تدور كالقبة الزرقاء.

الأول هو الآخر دائمًا. دائمًا لا يتغيران.

وما يأتى به الوسط معروف.

الذى يبقى إلى النهاية كان هو الأول.

والتأثير العربى أو التعريب يقع عندما يحاول الفن العربى الاستعانة بالنباتات الفارسية أو المصرية للزخرفة، فنجد الفن العربى سرعان ما يجرد هذه الزخرفة من قيمها المحسوسة كما يجردها من جسدها.

وتتفق مع الفن العربى فى هذه الخاصية زخرفة الحيوان فى الفن الجرمانى النورمانى، فإن هذا الفن يجرد جسم الحيوان من إحساسياته حتى يحوله إلى مجرد حركات أو خطوط ويربط بينها حسب قواعد النغم، فهذا الشبه الظاهرى يدين به الفن العربى، وهو يتفق فى هذه الظاهرة مع الفن الجرمانى أو الأوربى عديم الصورة، الذى يعرض إلى تجسيد وتصوير الكائنات غير الأرضية، وقد أقبلت عليها أوربا واستخدمتها في الزخرفة. وفى المجال الواسع للفنون الأوربية وبخاصة فى الزخرفة التى ظهرت فى عصر النهضة تشرع أوربا تلعب دورها الهام.

وقد أخذت أوربا أيضًا الزخرفة العربية للكتابة، وذلك لأن الفن العربى قد امتد إلى الكتابة فاتخذها مادة للزخرفة سواء كانت خطوطًا أو آيات قرآنية حيث تعبر عن الأشياء المجردة أو المواضيع غير المجسدة، كما استخدم الأفقية منها فى الزخرفة وذلك باستخدامها كخيوط ذهبية ممتدة على الحيطان والأعمدة فى القصور والمساجد. وهذا مظهر من مظاهر الرغبة فى التجرد من الحساسية وهذه خاصية من خواص العقلية الإسلامية وهى ليست جديدة فى العقلية الشرقية. لذلك لم يجد القرآن ضرورة لإصدار حكم بخصوصها.

أمّا ما يقال عن تحريم الصور، فالقرآن لم ينص على هذا التحريم إلا فى هذه الآية: ﴿ **إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ (المائدة: ٩٠)، وأما فيما يتعلق بتصوير الكائنات الحية فلم يعرض له القرآن، وفى العصور المتأخرة فقط استنكر الفقهاء التصوير لأنه تقليد لله أو تشبه بالخالق. لكن تحريمًا لتصوير الأشكال لم يرد ذكره فى القرآن الكريم. ففى العصور المختلفة سواء فى صدر الإسلام أو بعده، نشاهد كثيراً من الصور التى تزين الأسقف والحوائط فى القصور كما تزين بها الموائد فى الولائم كما نجد تماثيل السباع تحت صحون النافورات أو تقذف المياه فى الأطباق الرخامية. وفى قلعة الصخرة بالقرب من قرطبة نجد فى قاعة نوم الخليفة - حيث يقع نظره عندما يستيقظ - نافورة خضراء وحولها اثنا عشر حيوانًا من الذهب الخالص ترقص. فنحن نرى أسدًا وغزالا وتمساحًا وثعبانًا ونسرًا وفيلا وحمامة وصقرًا ودجاجة وديكًا وحدأة وبازًا.

وقد قال الشاعر الصقلى ابن حمديس يصف داراً بناها المنصور بن أعلى الناس ببجاية ومطلعها :

واعمر بقصر الملك ناديك الذى　　　أضحى بمجدك بيته معمورا

وفى القلاع العربية نجد زخرفة ورسومًا تزينها، وليست هذه الرسوم عبارة عن نباتات وحيوانات فقط بل تعبر عن آدميين أيضًا : ملوك ونسائهم وصيادين وشعراء ونساء جميلات وفرسان وسيدات وكأنهم يطلون من الحيطان والأبواب والقاعات، وحتى فى مسجد قرطبة نجد رسومًا تصور القصص الدينى الإسلامى مثل أهل الكهف وأغربة نوح، كما نجد الأسد والنسر مستخدمين كعنصرين من عناصر الزخرفة والزينة. وقد ظلت هذه الفنون التعبيرية مستخدمة مثلها مثل الفنون الزخرفية.

وغير الفن العربى نجد زخرفة الأسقف والقباب والردهات والأعمدة، وذلك بتجريدها من ماديتها حتى إن الحائط يكاد يختفى ولا تتبينه العين، وذلك باستخدام الزخارف الجصية ومختلف وسائل الزخرفة، ولعل هذا النوع أثر من آثار الفن الفارسى مثله مثل العقود المدببة التى أكثر الفن الإسلامى من استخدامها، كزخرفة غالبًا، أو للتغطية أو بين الأعمدة، على أن تزخرف زخرفة عربية بأوراق الأعشاب أو أعمدة على شكل مراوح. وفى الفن الإسلامى الهندى نجد أحجاراً صماء ونادراً ما تستخدم كأجزاء أساسية فى البناء.

ثم انتقل الفن العربى الإسلامى إلى أوربا المسيحية، وكان خط سيره من سمراء المقر العظيم للخليفة على نهر دجلة، وجامع ابن طولون فى القاهرة ثم إلى الفاطميين فصقلية النورمانية حيث أحرز هذا الفن نصراً مبينًا؛ وربما انتقل مباشرة إلى النورمانيين فى «إيل دفرانس»، لكن من المؤكد أنه انتقل من صقلية العربية كغنائم حرب «بيزية»، ومن ثم انتقل إلى الفن البيزى الرومانتيكى من ناحية أو من ناحية أخرى عن طريق كنيسة «ديزيدريوس» التى شيدها البابا فيكتور الثالث وهى تقع فوق جبل «كاسينو» وهى من الفن البورجندى الرومانتيكى الذى هو عبارة عن غطاء للفن الغوطى الذى نهض به رهبان «كلونى» ورئيس الدير «هوجو» : وذلك

لأن رئيس دير «كلونى» لاحظ عام ١٠٨٣ ومعه مرافقوه العقود المدببة فى بناء جبل كاسينو الذى كان قد شيده رئيس الدير المسمى «ديزيدريوس» خبير صقلية والعالم بها وبغزاتها النورمانيين. وقد تم له ذلك بمساعدة معماريين عرب وعمال مصريين وهم الذين علموا رهبانه فنهم المعمارى. كذلك يلاحظ أن الصلات بين صقلية وبورجند كانت كثيرة وقوية، فالبلاد المقدسة بالنسبة لـ «كلونى» تقع جنوب البرنات وممتدة على طول الطريق المؤدى إلى قبر حوارى «سنتياجو» وهو الإسبانى الذى كان يعارض الدعوة الإسلامية. وإن الطريق الطويل للحج الذى يبدأ من باريس يمر فيه سنويًا الآلاف من الحجاج إلى أقدس المقدسات المسيحية فى أوربا يملأون جوانب الأديرة الكبرى وكنائس «كلونى» ومعظمها مهداة من ملوك أسبانيا. كما نجد كثيرين من سكان «كلونى» الفرنسيين كانوا فى القرن الحادى عشر أول الأساقفة والقسس ورؤساء الكاتدرائيات فى الأقاليم الأندلسية التى استولت عليها المسيحية. أما الأمراء الأسبانيون المسيحيون وعلى رأسهم الملك المستعرب ألفونس السادس والذى كان أصلا أحد السكان ثم صار فاتحًا لطليطلة العربية، فقد كانوا يقدمون طاعتهم وولاءهم لرئيس دير «كلونى»، وذلك عن طريق تقديم هدايا، وأموال طائلة ليست فقط ذهبًا بل غنائم حربية عربية وغيرها من الهدايا القيمة. وهذه الهدايا التى قدمها ألفونس السادس هى التى استغلها رئيس الدير المسمى «هوجو» فى سبيل تشييد الكنيسة العظيمة فى «كلونى»، كما تعهد بإقامة صلاة على روح المهدى، أعنى ألفونس السادس وعلى مذبح خاص.

فلو كان العقد المدبب عبارة عن زخرفة فقط عند العرب ما وجدناه شاحبًا فى جبل «كاسينو» و«بيزا» و«كلونى» والفن البورجندى الرومانتيكى. إن الدور الهام لهذا العقد فى أوربا هو الدور المعمارى البنائى الأصل فى الفن الغوطى؛ وبذلك احتل دورًا هامًا فى الكاتدرائيات الغوطية. وهذا الدور الذى بلغه العقد المدبب لم يبلغه العقد المستدير فى الفن الرومانتيكى.

لكن هذا الفن لم ينتقل بمفرده إلى الفن الغوطى بل نقل معه ورقة العشب والعقد من إسبانيا وكانت تستخدم فى زخرفة النوافذ والمحاريب. ثم نجد التناقض يبدو

واضحًا فى العقود ذات أوراق العشب أو المدببة التى أحبها العرب لميلهم الفطرى إلى الرياضة إلا أنها فى الفن الغوطى تلعب دورًا هامًا، وهذا الفن يستخدمها فى زخرفة الحوائط. ومع العقد المدبب جاءت أيضًا النافذة، وبفضل الأثر الفنى الساسانى ظهرت النافذة المستديرة فى الفن الغوطى.

وفى القرن التاسع الميلادى حدث تجديد فى الفن العربى فنجد حزمة من الرماح تظهر فى زوايا الأعمدة وهى هامة جدًا فى فن المعمار الغوطى وبخاصة فى القباب. ومن القاهرة عن طريق إيطاليا جاءت إلى السقف الغوطى زخرفة القباب. والمآذن الإسلامية التى امتازت بقيامها على قواعد مربعة، ثم أصبحت مثمنة ثم تطورت إلى دائرة هى التى كونت فى الفن الغوطى برج الناقوس.

والآن نتساءل: هل الفن الغوطى يتكون غالبًا من كثير من عناصر الفن العربى؟ إن الذى يريد أن يصدر مثل هذا الحكم تفوته الحقيقة القائلة: إن المواد الأولية ليست هى التى يتكون منها الفن بل الترتيب والتنظيم هما فى الواقع العنصر الخالق فى الفن وهو الذى يصنعه وينوب عنه. إنها الاستعارة العقلية سواء كانت عن طريق الأفكار الدينية أو الدنيوية أو سواء كانت من ناحية معمارية أو شعرية أو علمية، ولا أدل على هذا من العقد المدبب وما تستفيده منه. إن الفن والاستعارة الفنية ليست فيما يستعيره الشعب بل هى الطريقة التى يستفيد بها من العنصر الذى يستعيره وكيف يشكل هذا العنصر وطريقة استغلاله. فهذه الوسيلة هى فى الواقع العامل الرئيسى الخالق. أما طريقة الخلق والتكوين فهى التى تحدد القطعة الفنية وتعينها؛ لأن العبقرية الخالقة لا تقتبس كل شىء بل تختار من بين ما يروقها ما يساعدها على خلق نموذج فنى ممتاز.

والتبادل الثقافى ظاهرة موجودة عند كل الشعوب ولا يمكن الشك فى أن أى شعب لن يستطيع أن يتجنب هذا التبادل. والاقتباس لا يضير الشعب أو يحط من مكانته ومكانة فنه طالما لا يفنى هذا الشعب ويذوب أو يتلاشى فنه فى فن شعب آخر. وهذه الحقيقة ندركها فى الفن الغوطى وفى أوربا، لذلك ليس من العدالة أن ننكر هذه الظاهرة على العروبة والإسلام. والملاحظ أنه سواء فى الفن أو العلوم

يكال دائمًا بكيلين فأوربا عند الاستفادة تهتم بالشكل بينما العرب بالجوهر، وعند دراسة الجوهر فى الفن الأوربى نجد الدارس يحاول إرجاعه إلى الثقافة القديمة فإن لم يوفق أهمله وانصرف عنه. وهذه الظاهرة ندركها فى الفن الغوطى حيث نجد فيه العناصر العربية الجوهرية، كذلك الفن الرومانى فقد صب فى الواقع فى قوالب شرقية قديمة من آسيا الصغرى، وهكذا أيضًا الفن الجرمانى الخاص باستخدام الحيوان فى الزخرفة، فهو غالبًا فن شعبى آسيوى. أما المعمار العربى الإسلامى فكثيرًا ما استعار من البابلى أو الفارسى أو البيزنطى.

وفى «كلونى» يجرى تيار عربى إسلامى ويستمر هذا التيار جاريًا حتى يبلغ إنجلترا حيث نجد العقد المدبب العربى الذى انتقل إلى «كلونى» ودخله بعض التطور وأصبح فى القرن الرابع عشر على هيئة قطعة فنية تشبه اللهب، وهو يستخدم فى النوافذ والمسطحات. وقد انتقل هذا الفن مباشرة من العرب إلى «كلونى» ومنها إلى إنجلترا حيث التقى بالفن المعروف باسم فن «تودور» حيث يوجد عقد تودور وكذلك عقد «كيل» (نسبة إلى مدينة كيل) ونحن نجد الفنين فى الجامع الأزهر بالقاهرة حيث يوجد ما يعرف باسم «ظهر الحمار» وعقد المروحة مع القباب المعروفة والشبابيك كعنصر من عناصر الزخرفة.

ثم أخذ الفن التودورى ينتشر من الجزر البريطانية حتى بلغ الولايات المتحدة وأصبح فيها هو الفن المستعمل فى الجامعات الأمريكية.

ومع مرور الزمن أخذ فن المعمار العربى يتغلغل فى داخل القارة الأوربية، وأصبحت هذه البلاد وطنًا للفن العربى قرونًا طويلة، فنجد الغزاة المسيحيين للأندلس يشيدون قصورهم وكنائسهم حسب الفن المعمارى العربى الذى استولى على قلوبهم واضطرهم إلى الاستعانة بالفنيين العرب. وما زلنا إلى اليوم نشاهد هذا الفن العربى المعمارى. وفى القرنين السادس عشر والسابع عشر نجد الفن المعمارى العربى الأسبانى يتطور وينتقل إلى الأمريكتين الجنوبية والوسطى حيث نجد الفنين المعروفين باسم «بلاترسكين platersken» و«خورير جرسكين Churrig-eresken»، كما نجد الفن المعمارى الذى أخذ عن إسبانيا والمعروف باسم

«أزوليوس Azueyos» والذى استخدمه العرب فى المبانى الدينية والدنيوية وهو القيشانى الذى ما زال حتى يومنا هذا يزين كنائس المكسيك ومساكن أمريكا اللاتينية والدور الأسبانية الحديثة والمكسيكية الجديدة وكذلك فى أمريكا الشمالية.

وفى صقلية نجد المعمار العربى أيام حكم النورمان والأشتوفيين يتطور تطوراً عظيماً وينتشر فى مختلف جهات إيطاليا، هذا مع الإشارة إلى أن كل ميناء عظيم كان يحتفظ بعلاقاته الخاصة مع العرب والفنون العربية والثقافة العربية سواء عن طريق التجارة أو عن طريق خضوعها للعرب. وليست فقط البندقية بل أيضًا «بيزا» التى أخذت تنمو وتكبر تدريجيًا حتى أصبحت سيدة البحار وملكة توسكانا، وذلك بفضل علاقاتها مع العرب. ولما تحالف أسطول «بيزا» مع أسطول جنوة وطردا العرب من سريدينيا، اتحدت بيزا مع النورمانيين للاستيلاء على صقلية وانتزاعها من العرب. ففى عام ١٠٦٣ م أخذت بيزا تشيد كاتدرائيتها الشهيرة وذلك من الغنائم العربية التى غنمتها عند الاستيلاء على بالرمو كما استخدم المسيحيون بقايا مخلفات المساجد التى هدموها فى بناء كنيسة «بابتيستريوم Baptis-terium» و«كامبانيلا Campanila»؛ وهكذا نجد الكاتدرائية متأثرة بالفن العربى تأثرًا كبيراً وبخاصة باستخدام الرخام الأسود والأبيض فى العقود عند دورانها، وهذا الفن العربى قد استعاره البورجنديون فى الفن الرومانى، ثم الخطوط الرمادية السوداء التى تزخرف الحوائط الخارجية الرخامية الأفقية والزخرفية التى على السطوح، ثم طريقة استخدام العقود السبعة المختلفة. وعند العرب العقود العادية والعقد المدبب والتطعيم العربى المختلف الألوان، والقاعات ذوات الأعمدة وأخرى كثيرة قد اكتسبتها أوربا من العرب المقيمين فى صقلية. فالاتصال مع المدن التجارية الشرقية قوّى الرغبة فى اقتباس كل ما هو عربى، وهكذا نشأ الفن الرومانتيكى الإيطالى الجميل، وكذلك الفن البيزى الذى شمل بيزا وجميع إقليم توسكانا وعبر حدوده.

أما البندقية فقد اقتبست إلى جانب الفن البيزنطى كثيراً من مختلف الفنون العربية، فالمآذن العربية أصبحت فى عصر النهضة أبراج النواقيس فى إيطاليا،

والكومبانيلى «Companili» القائمة قد تأثرت أيضًا بالمئذنة، كما نجد المهندس المعمارى الإنجليزى الشهير «ورين Wren» الذى تأثر بالفن الإسلامى يستغل هذا الأثر الإسلامى فى تشييد أبراج كنائسه، وأخذ الإيطاليون يجمعون بين القباب والأبراج وجعلوا منها قطعة فنية جميلة. كذلك الحال مع المحاريب التى تشبه الأصداف والتى ظهرت فى عصر النهضة والتى هى فى الواقع تقليد للمساجد الإسلامية بمآذنها.

وعند تشييد الأبراج العربية من الأحجار أدخلت فيها معدات حربية كثيرة عاد بها الصليبيون من الشرق، وهذه المعدات العربية قد استخدمت فى تشييد أسوار المدن الألمانية والأبراج البورجندية والقلاع الإنجليزية والحصون الفرنسية. ومن بين هذه الوسائل الحربية العربية المداخل المستديرة التى تعرقل وتعطل القوة الهجومية للعدو، وكذلك الخوارج للدفاع فمثلها مثل الأبراج القائمة على الحوائط إذ هى تمكن من القيام بهجوم أو دفاع جانبى. أما الخوارج الدافقة والتى يسميها الأوربيون «ماخيكوليس Machiculis»، فقد أقبل عليها الأوربيون إقبالا عظيمًا، فهذا النوع من الخوارج عربى أصلى جاهلى، وهو عبارة عن حوامل تبرز من الحائط وفوقها مبنى يشبه الشرفة وفى أرضه فتحة يتدفق منها على العدو الزيت الحار الساخن أو القار. ولم تمض عشرة أعوام على معرفة أوربا لها واشتهارها فى ألمانيا باسم «أنف القار pechnase» حتى استخدمتها فرنسا وإنجلترا فى أربعة أبراج، وعوضًا عن الحواجز الخشبية استخدمت أوربا منذ القرن الرابع عشر، لرفع الأبواب وأبراجها وبخاصة فى القلاع الأسبانية والفرنسية والإنجليزية والسويسرية والألمانية، صفًا من الخوارج المصبوبة تقوم عليها الممرات الواقية المثبتة بالحيطان. وهى تقوم مقام الخوذة من السلاح. وهكذا أصبحنا نجدها من خصائص الأبراج المشيدة للدفاع، وقد انتشرت ما بين اسكتلندة والقسطنطينية، وأصبحت ضرورية لكل برج ولو كحلية زخرفية.

وقد أحضر الصليبيون معهم من الشرق علاوة على ما ذكر، عادة تغطية الأبراج بخوذات من الحجر كما هو مشاهد فى «لارن» ببلجيكا و«روديلزبرج» فى ألمانيا.

فخوذات الأبراج العربية استعارها الصليبيون الألمان من «ورمس» واستخدموها فى كنيستهم المعروفة باسم كنيسة القديس بولس، وللإشارة إلى حربهم الصليبية رسموا سفنهم الصليبية. وكما هو الحال فى قبابهم الرمادية التى تعلوها سماء بلادهم المغطاة بالسحب والغيوم تقوم على سطوح مبانيهم المائلة المنحدرة والممتدة على ضفاف الرين توحى إلى الناظرين إليها بأجنبيتها، فهى تعبر عن هذه الخوذة العربية الحجرية، وهى التى تتدرج من مربعات إلى مثمنات ثم إلى دوائر، وهى التى قلدها الألمان على طول نهر الرين فى «ديتلزهيم Dittelsheim» و«الزهيم Al-sheim» و«جونتر زبلوم Guntersblum» بل حتى فى «شبير Speyer» و«فيتزلار Wetzlar» و«أموریاخ Amorbach».

أما فى إسبانيا ذاتها فقد اختفت آثار العصور العربية الذهبية ولم يبق بها إلا القليل جداً، وآخر آثار الماضى الذهبى التى تحمل بعض الآثار الفنية لمشيديها السالفين: «الحمراء» وقصر السلطان العظيم فى غرناطة وبقايا القلعة الصيفية وقصر طليطلة وغير ذلك وبخاصة برج أشبيلية الذى كان يستخدم قديمًا مرصداً للفلكيين، وهذا البناء لا يقوم على مصاطب مدرجة يستطيع الفارس بلوغها بل على سهل منحدر. أما واجهة البناء ذات الألوان المختلفة اللامعة فكأنها زجاج وتغطيها نوافذ مزدوجة جميلة على أشكال مدببة أو على هيئة أوراق العشب أو حدوة فرس. ومن بقايا الآثار العربية العظيمة فى الأندلس وهذه الثقافة الرفيعة: هذا المسجد العظيم الذى شرع عبد الرحمن الأول فى تشييده فى قرطبة، لكن مما يؤسف له حقًا أن الكنيسة التى بنيت فى داخله تبين لنا عظمة هذا المكان الذى كان قديمًا يشتمل على أكثر من ألف وأربعمائة عمود، وبين العقود التى تشبه حدوة الفرس يتدلى أربعة آلاف وسبعمائة مصباح من الفضة من سقف مصنوع من خشب الأرز المزخرف. ولما جاء هشام الأول وهو الابن المتواضع المحافظ لعبد الرحمن الأول أتم البناء الذى بدأه والده وأضاف إليه المئذنة. والحكم الأول الذى كان واسع الأفق وميالا إلى المرح والسرور ترك المسجد قائمًا كما هو، لكن عبد الرحمن الثانى الذى كان هاويًا للفنون الزخرفية رغب فى إيجاد عمل للعمال العاطلين فشيد كثيراً من المبانى فقرر توسيع المسجد وشيد فيه محرابًا ثانيًا. أما ابنه محمد الأول الذى كان متزمتًا جداً

ومتدينًا، فقد زخرف الحوائط والأبواب وأقام حاجزًا يفصل بين المقصورة التى يصلى فيها الحاكم وبقية المساجد. ثم خلفه عبد الله وكان حاكمًا مستبدًا جاهلا فشيد طريقًا مسقوفًا من القصر الواقع غرب المسجد إلى المقصورة. وجاء بعده الحاكمان الأمويان العظيمان فى الأندلس وهما اللذان جعلا من الإمارة خلافة، وخلافة ناجحة، وهما عبد الرحمن الثالث العظيم والحكم الثانى، وكانا معاصرين للملك هينريش الأول والقيصر أوتو الأعظم. وقد جدد الأمويان المنارة التى هدمها زلزال ووسعا المسجد ناحية الجنوب وشيدا المقصورة الجديدة التى كان يجب تشييدها، كما أقاما أيضًا محرابًا جديدًا. ثم جاء المنصور وكان وصيًا على هشام الثانى فزاد فى المسجد من الجهة الشرقية وقد تطلب هذا هدم بعض المنازل فاضطر إلى تعويض أصحابها.

وهكذا نجد هذا البناء يصاحبه التقدم والرقى إبان حكم الأسرة الأموية، ويعتبر عصرها أزهى العصور الأسبانية، فقد اشتهر بكثرة المبانى كما ارتقت فى عهده الموسيقى.

الموسيقى تساير الحياة

إن الرجل الذى ترك السفينة فى الجزيرة فى ديسمبر ٨٢٢ م، وهذه السفينة التى نقلته من «كويتا» وعبرت المضيق، مضيق جبل طارق، قد استرعى انتباه سائر ركاب السفينة، فقد كان يرتدى قبعة مدببة القمة من الفراء الغالى تغطى شعر رأسه المستدير الذى كان يكسو جبهته ويتدلى حتى حاجبيه بعيدًا عن الأذنين والرقبة، وقد كانت له لحية مهذبة مصبوغة باللون الأحمر وله عينان لامعتان مكتحلتان تشعان ذكاء ويقظة وتفوح منه رائحة عطرية ومعه زوجه الشابة وحولهما أطفال يتصايحون، وبعد شهرين تبين أنه المغنى البغدادى الشهير وقد امتطى صهوة بغل مطهم يحيط به بعض موظفى القصر فى قرطبة.

ولم يكن صاحبنا فى حاجة لأن يهاجر من العاصمة الشرقية، فقد غمره هارون الرشيد بعطفه وشمله بإحسانه، لكن الحقد والحسد والغيرة هدمت سعادة «زرياب» وقوضت عشه، فأستاذه إسحق بن إبراهيم الموصلى، الذى استطاع بمدرسته الموسيقية مضايقة المنتدى الموسيقى فى الكوفة، كان لا يعلم الغناء للجوارى الحسان فقط، بل يهتم بتخريج الموسيقيين من الجنسين راجيًا من وراء هذا أن ينال حظوة عند الخليفة.

فالشاب الكردى الموصلى كان يمتاز بعادات حسنة جدًا، فقد كان يجيد النكتة والحديث إلا أن زرياب إلى جانب لسانه الزلق كان له تفكيره الخاص وكان مثله مثل أستاذه عظمة واعتدادًا بالنفس. ولو أنه كان ينوء تحت أعباء مسئوليات جمة. سأله

الخليفة مرة عن غنائه، فأجاب أنه يستطيع أن يغنى كما يغنى الآخرون، لكن علاوة على هذا يقدر على أداء أشياء لا يقدر عليها غيره، إن فنه يدركه ويقدره الفنانون أو الذين لهم دراية كبرى كدراية أمير المؤمنين؛ ثم استأذن الخليفة أن يسمعه بعض أغانيه التى لم يسمعها من قبل. فأعطى إسحق بن إبراهيم الموصلى تلميذه عوده، فتفقده زرياب كما يتفقد حذاءً قذراً، وقال: إذا شئتم يا مولاى غنيت لكم شيئًا كالذى سيغنيه أستاذى، وسأغنى بمصاحبة عودى. وفى هذا الوقت كان إسحق الموصلى يزداد ألمًا وحقدًا فطلب زرياب أن يستصحب عوده الذى صنعه هو، وبعد استئذان الخليفة أخذ زرياب يغنى قصيدة من تلحينه يمدح فيها أمير المؤمنين.

وقد أعجب الخليفة بها إعجابًا عظيمًا وقرر أن مثل هذه العبقرية يجب أن تصبح حلية يتحلى بها قصره. أما إسحق بن إبراهيم الموصلى فقد تأثر كثيراً من هذه القصيدة لأنه لم يكن يخطر بباله أن مثل هذا النجم سيتلألأ سريعًا، لذلك قال له إسحق لقد خدعتنى خداعًا عظيمًا بكتمانك وخبثك، لقد حاولت أن تطعننى أمام الخليفة. ثم طلب إليه ألا يغنى، وسيدفع له إسحق مالا كثيراً، وإن لم يفعل هذا فسينتقم منه شر نقمة.

ومن ثم نرى الإشاعة تنتشر فى أن أرواحًا تتقمص زرياب وتخبره عن الألحان وتبلغ هذه الشائعة الخليفة الذى أبدى الرغبة فى مشاهدة زرياب، كما قيل للخليفة كذبًا ومينًا إن زرياب مغرور وإنه قد غضب لأن الخليفة لم يمنحه المال الكافى.

ولماذا لا ينجح الشخص الذى نجح لدى هارون الرشيد، عند الحكم الأول فى الأندلس فاستولى عليه السرور وذلك لأن بلبل بغداد قد تركها، وأنه سيغرد فى حدائق قصره. لكن لم يكد المغنى يضع قدميه فى الأندلس، حتى علم أن مرسل الخطاب قد توفى منذ زمن قصير، فكان هذا الخبر صدمة قوية لزرياب حتى فكر فى العودة إلى إفريقيا عندما حضر إليه رسول الخليفة الأموى الجديد الذى جلس على عرش البلاد واسمه عبد الرحمن الثانى، فقد دعاه عبد الرحمن هذا إلى قصره لكى يسطع نجمه فى ردهاته، وأرسل إليه بغلا مطهمًا جعل زرياب يشعر أن القوم فى الأندلس يقدرون فنه.

وبعد أن مضى زرياب ثلاثة أيام فى قصر ضيافة الأمير استراح فيها من وعثاء السفر دعاه عبد الرحمن للمثول بين يديه وعامله الخليفة معاملة كريمة جداً، فقد دفع له مرتبه قبل أن يتبين صوته وفنه كما أخبره الخليفة أنه سيدفع له مرتبًا شهريًا خياليًا هذا عدا الهدايا التى سيمنحها له بين الحين والحين، وبعد أن تعينت المكافأة رجا عبد الرحمن المغنى أن يغنيه أغنية، وبعد سماعها اتضح له أنه كان مصيبًا فى تقديره.

ومع تقدم الزمن نجد زرياب يكشف عن مزاياه وخلاله النبيلة التى تحببه إلى الخليفة وتقربه إليه، فقد كان يتمتع زرياب بذاكرة جبارة، كما كان يحفظ آلاف الأغانى ويحيط بألحانها وأنغامها إحاطة قوية، كذلك كان زرياب عالمًا بالفلك والجغرافيا وكان يجيد الحديث عن البلاد الأجنبية وعادات شعوبها وتقاليد أهلها، وعلاوة على ذلك قد امتاز بروحه الجذابة الفياضة ولباقته ومسلكه. فهذا الرجل الجميل الأنيق حسن البزة كان المثل الأعلى للرجل المهذب فى الذوق الرفيع. وكل شىء يخترعه زرياب يقلده فيه الآخرون، فكان زرياب مثال الأناقة فى قرطبة يحتفظ بشعره طويلا ويفرقه ثم يقصه حول رأسه، فكان زرياب فنانًا أنيقًا يعرف كيف يعنى بملبسه ويجارى أحدث الأزياء التى تساير مختلف فصول السنة، فكان يرتدى الأقمشة الخفيفة ذات الألوان الزاهية الحية الجميلة فى فصل الربيع والأثواب البيضاء الفضفاضة صيفًا ومعاطف الفراء والقلانس شتاء. فقد كان يرتدى آخر ما يتوصل إليه الذوق السليم فى بغداد إبان الشتاء. كذلك نجد المغنى يثور على نظام مائدة الطعام، فقد أوجد أطعمة جديدة وأدخل إلى المطعم الأسبانى طعام الهليون، وهكذا نجد هذا الفنان المحبب إلى الجميع، هذا السيد الأنيق، قد استولى بلطفه وفنه على قلب الأمير وشعبه، حتى إن القوم كانوا يقصدونه لقضاء حاجاتهم. وهكذا نجد عبد الرحمن الثانى، يؤسس معهداً للموسيقيى القصر فى قرطبة، وفى هذا المعهد كان يتعلم الهواة الغناء والموسيقى نظريًا وعمليًا.

وذلك لأن العرب كانوا منذ أقدم العصور شعبًا محبًا للغناء، يعشق الغناء عشقًا لا يدانيه فيه شعب آخر، فالموسيقى كانت تلازم العرب من المهد إلى اللحد، فكل عواطفهم كانوا يحولونها إلى غناء فنجد غناء العمل وفرح اللعب وفرح الحب وألمه

والرغبة الشديدة فى الحرب أو الثأر والحزن على الموتى . ففى العصر الجاهلى تقوم طائفة المغنين والمغنيات ، وفى عصر الاستقرار فى المدن نجد المغنيات اللواتى كن يغنين بمرافقة الآلات الوترية ، فكانت المغنية من مستلزمات الحياة فى البيت مثلها مثل البيانو فى كل غرفة جميلة فى القرن التاسع عشر ، أو مثل المذياع فى كل غرفة جلوس فى القرن العشرين .

ولم تكن تلك الموسيقى من هذا النوع الغريب على آذاننا اليوم والمشهور بنغمته الواحدة ، فالغناء فى النغمة الواحدة نشأ أولا بعد خراب بغداد على يد المغول ، وظهر ربع النغمة ، وهى نغمة ليست عربية أصيلة ، فعلى النقيض من ذلك نجد الأنغام العربية كانت غنية متنوعة مثلها مثل الفن العربى ، كما نجد العرب يستخدمون حتى القرن الثالث عشر سلم النغم الفيثافورى ؛ ويرجح أن هذا السلم النغمى الفيثافورى سلم سامى الأصل ، وقد أثر هذا السلم فى فارس وبيزنطة ، ومن ثم انتقل إلى العرب . ولو أن هذه البضاعة المستوردة من فارس أو بيزنطة لم تعوض العرب موسيقاهم القومية بل طعمت بأصل عربى .

والصفة المميزة لهذه الموسيقى «النغم» (Rhythmus) الذى لا يشترط وجوده فى كل فن من فنون الموسيقى كما قد يتبادر إلى أذهاننا . أما موسيقى الغناء القديمة فمثلها مثل الشعر القديم لا تعرف نغمًا ، كما أن الشعر يعتمد على العروض فقط ، أعنى أنه يقوم على تقاطيع طويلة وقصيرة . وأقدم موسيقى كنسبة ترجع إلى العصور الوسطى مثلا لا تعرف زمنًا للنغم أو عروضًا ، وهى تعتمد عادة على وحدات من الأنغام متصلة إلا أنها وحدات نغمية غير موزعة ، مثل تقسيم الجمل عن طريق الشولات وما إليها ، توزيعًا منتظمًا .

أما البناء الزمنى للنغم فهو شرقى أصيل مع ملاحظة أن الزمن النغمى يساعد على خلق القياس الزمنى الموسيقى وهو يؤدى مباشرة إلى توقيع ، وقد يكون هذا هو أهم شىء موسيقى قدمه العرب لأوربا ، أعنى القياس الزمنى وذلك عن طريق وحدة الزمن النغمى إلى توقيع نجده فى الموسيقى ، وقد عرض لهذه الظاهرة وتلك الخاصية الفيلسوف العربى وصاحب النظريات الموسيقية فى منتصف القرن التاسع

الميلادى ألا وهو الكندى، وقد انتقلت هذه الموسيقى العربية إلى أوربا فى القرن الحادى عشر عن طريق المغنين المتجولين وسبايا الحرب من النساء الأندلسيات. أما نظرية القياس الموسيقى فى المؤلفات الأسبانية العربية فقد غزت القطع الموسيقية اللاتينية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر.

وقد ورثت أوربا فن الموسيقى عن العرب، كما ورثت أيضًا الزخرفة الموسيقية العربية التى نجدها فى النغم، كما يلاحظ فى الموسيقى تمسك العرب بالمبدأ الأفقى الموسيقى، وهكذا نفهم سر غرام العربى بالموسيقى الغنائية، كفن مصاحب للغناء أكثر منها كفن مستقل.

وتدين أوربا للعرب كذلك فى آلاتها الموسيقية، بعد أن سبق أن أهدت بيزنطة إلى أوربا الأرغول والقانون وربما الجنك أيضًا.

واليوم عندما يستخدم قائد الفرقة الموسيقية عصاه عند عزف قطعة موسيقية فإن الآلات الموسيقية التى أمامه ما هى إلا آلات عربية أو بتعبير أدق انحدرت عن آلات عربية كثيرًا ما استعملت لعزف مجموعة فنية جميلة رقيقة من الأنغام، وقد جاءت كثرة هذه الآلات العربية بعد اختبارها اختبارًا دقيقًا عن طريق إسبانيا إلى أوربا، وما زالت محتفظة بأسمائها العربية فمن الآلات الوترية العود والقيثارة والطنبور والسنطير، كذلك الرباب والبوق والناى والمزمار والصاجات والنقارة وغيرها.

ثم نجد الفيلسوف الفارابى الذى كان عالمًا كبيرًا فى النظريات الموسيقية، يخترع فى النصف الأول من القرن العاشر الرباب والقانون، وقد مهدت الآلتان لاختراع البيان الأوربى. وعدا المخترعات الأخرى التى سجلها لنا التاريخ العربى للموسيقى نجد أيضًا «زرياب» الذى تركناه فى قرطبة يجدد فيها تجديدًا عظيمًا، وهذا هو السبب الذى جعله يرفض العزف على عود إسحق بن إبراهيم الموصلى، ورجا الخليفة أن يسمح له بأن يعزف على عوده الخاص الذى زوده بوتر خامس ولحن على عوده ذى الأوتار الخمسة مقدمة له، وقد لقى ذلك إعجاب أمير المؤمنين وحسد معلمه.

وبينما نجد الموسيقيين الأوربيين يعتمدون عند ضبط القانون وما إليه، على الأذن إذ بنا نجد طالب الموسيقى فى مدرسة زرياب يتعلم العزف على رقبة العود، وفى هذه الرقبة نجد ارتفاع النغم وقد قيس قياسًا خاصًا عن طريق جمعها معًا، وهذا من المزايا الكبرى التى تحبب الآلات الموسيقية العربية إلى الأوربيين.

وربما كانت هذه الآلات هى التى دفعت الأوربيين إلى معرفة الإيقاع وإجادته، وهذا قد أدى بدوره إلى خلق أوربا للرباعى والخماسى والثمانى، ولا سيما أن الأوربى ميال بطبعه إلى العمودية، وقد دفعه هذا الاستعداد إلى خلق الموسيقى المتجانسة، وهذه محاولة لم يشعر بها العربى نظرًا لطبيعته الخاصة.

وقد أثرت الموسيقى العربية أيضًا عن طريق النغم الموسيقى العالى الموجود فى صوت الخصيان، كما أثرت أيضًا بأنغامها وأوضاعها الموسيقية الخاصة التى كانت شائعة فى الأندلس فى الفترة الممتدة بين القرنين الثامن والثانى عشر فى الموسيقى الأوربية سواء الفنية منها أو الشعبية، وكان الأثر شديدًا جدًا فى الموسيقى اللاتينية كما يتضح لنا هذا واضحًا من اقتباساتها تعبيرات وخصائص موسيقية عربية، وقد يكون العرب قد تأثروا فى هذا ببعض النظريات اليونانية إلا أنهم كرياضيين وعلماء طبيعة بالفطرة أجروا عليها كثيرًا من الاختبارات والتجارب التى مكنتهم من تنقيحها، وبالرغم من أن هذه النظرية قد جاءت عن علماء لهم شهرتهم الخاصة فإن العرب قد نقحوها وخطوا بها خطوات واسعة وسبقوا اليونان فيما وصلوا إليه أو جاءوا به. فنحن نجد عددًا كبيرًا من علماء الموسيقى العرب قد شاركوا فى هذه الأبحاث، إلا أنه مما يؤسف له حقًا أن ما وصلنا عنهم قليل جدًا، وقد ترجم بعضه. ويدين إلى العلماء العرب من الأوربيين أمثال «جونديسلفوس Gundisal-vus»، و«فنسنت دبوفيه Vincent de Beauvais»، و«يوحنا أجيديوس Joh-sannes»، و«روبرت كيلوردباى Roberdbyt Kilwardby»، و«رامون لل Ram-on Luil»، و«سيمون تونستيده Simon Tunstede»، و«روجير بيكون Roger Bacion» و«آدم فون فولده Adam von Fulda» حيث تأثروا بالعرب وأخذوا عنهم كثيرًا. ويعدّ الإنجليزى «ولتر أودينجتون Walter Odinhgton» العالم العربى ابن

سينا أنه عالم موسيقى من المرتبة الأولى. ومؤلفات الفارابى الموسيقية كانت موضوع عناية ودراسة حتى القرن السابع عشر الميلادى. وقد تعلمت أوربا عن ابن سينا والفارابى العلاقة بين ٥ , ٤ = النغم الثالث الكبير و٦ , ٥ = النغم الثالث الصغير، فقد غيروا صوت النغم الثالث وهو عدم الموافقة فى الألحان وجعلوا منه النغم المألوف إلى آذاننا اليوم أعنى تجانس الألحان. وقد اهتم الجراف السويبى وهو «هرمانوس كونترا كتوس Hermannus Contractus» الذى كان يقطن فى «ريشناو Reichenau» كعالم يقدر العرب وعلومهم تقديرًا عظيمًا، بسائر مؤلفات الكندى وبخاصة ما يتعلق منها بالموسيقى وأخذ عنه كتابة الموسيقى العربية. أما المقاطع «دورم فا سول لا سى» التى يقال عنها إنها من وضع الإيطالى «جويدو فون أريتزو Guido von Arezzo» الذى يقال إنه وضعها حوالى عام ١٠٢٦ م وقد راعى فيها أوائل سطور ترنيمة يوحنا، فالواقع أن المقاطع الموسيقية (در . .) إنما اقتبست من المقاطع النغمية العربية (د) تنطق قديمًا (د) مضمونة ثم (ر) (م) (ص) (ل) (س)، وهذه كثيرًا ما نجدها فى مقطوعات موسيقية لاتينية مشتملة على كثير من المفردات العربية، وهذه المقطوعة اللاتينية ترجع إلى القرن الحادى عشر، وقد وضعت فى جبل «كاسينو» الذى كان يقيم فيه العرب.

وقد عاش المغنى العربى زرياب فى قصر الحاكم الذى كان يقدره ويجله، لذلك كان موضع حسد الكثيرين وحقدهم، وفى مقدمة حاسدية والحاقدين عليه لجمال صوته وأثره البعيد يحيى بن الحكم الملقب لجماله بالغزال. وكان يحيى هذا شاعرًا موهوبًا؛ لذلك عينه الحكم الأول فى بلاطه، وقد حرص يحيى على الاحتفاظ بمكانته فى القصر مدافعًا عنها أمام هذا الأجنبى القادم من بغداد. وهكذا نجد هذين الفنانين يتنافسان، كل يحاول بفنه ومهارته الانتصار على منافسه، وحال عبد الرحمن أن يبعد كلا منهما عن الآخر، فأرسل الغزال سفيرًا له فى القسطنطينية حيث استولى هذا الأندلسى اللبق بأحاديثه وجماله على قلوب الفاتنات وبخاصة القيصرة التى رغبت إليه أن يقيم دائمًا فى القصر، إلا أنه لم يكد يعود إلى قرطبة مغرورًا بهذا التوفيق الذى أحرزه فى القسطنطينية حتى هاجم زرياب المغنى الذى كان قد خلا له الجو فازدادت مكانته، وفى ذلك الوقت كان عبد الرحمن المحب

للسلام يفكر فى إحلال السلام والوئام مع النورمانيين الذين كانوا قد هاجموا أشبيلية، ومنوا بهزيمة قاصمة، فأرسل شاعر قصره الغزال فى صحبة السفارة النورمانية إلى «كوتلند»، وقد أنسته أغانيه الغرامية التى ظل يرددها فى حب امرأة ملك النورمان الحقد والغضب على زرياب.

لكن لما عاد الغزال تبين أن النار التى لم تخمد بعد أصبحت ضعيفة لا تقوى على إعداد الطعام، لذلك قرر مهاجمة زرياب والسخرية منه، فأفقد هذا الموقف الغزال مكانته، فأقصاه عبد الرحمن من قصره ونفاه. وفى الوقت الذى كان مغنى بغداد فى قرطبة تكلل هامته بأوراق الغار، نجح كذلك شاعر قرطبة فى بغداد فى الحصول على شعارات المجد والتكريم بالرغم من أن القوم فى بغداد لم ينظروا إلى الأندلسيين نظرة إعجاب وتقدير.

زخرف العالم الوضاء

إذا فكر العربى فى الأندلس، وإذا حلم بجنة الأرض، فإنما يقصد الأندلس إبان حكم عبد الرحمن الثالث، فإن هذا الأمير الذى أهداه الله إلى الأندلس، كان المثل الأعلى للحاكم فنجح وخلق من أمة متفككة الأوصال - عن طريق الدين والجنس - شعبًا قويًا، أصبح فى خمسين عامًا شعبًا نابغًا متسامحًا سياسيًا وفى طليعة شعوب العالم المتمدين.

وبدهى أن الحياة السياسية حتى ذلك العصر كانت متقلبة، وكذلك كان الخلاف قائمًا فى الداخل بين المفكرين الأحرار وبين المحافظين المتزمتين، لكن كل هذا لم يحل دون ازدهار الحضارة وتطورها.

كذلك الحالة الاقتصادية فى البلاد، فقد أينعت وازدهرت؛ وذلك بفضل نشاط العرب وتجاربهم فى الزراعة والرى. فالعين العربية المجربة تبينت الكنوز المطمورة فى الأرض التى يجب استخراجها والاستفادة منها لرفع مستوى البلاد والنهوض بها. فقد حفر العرب الآبار وزودوها بروافع المياه والسواقى التى يبلغ اتساعها نحو عشرين أو ثلاثين مترًا وكانوا يحصلون على الماء من الجبال ويجمعونه فى أحواض كبيرة يمتد الحوض منها نحو خمسة كيلو مترات، ومن ثم كانوا يجرون المياه فى قنوات كبيرة إلى الأراضى، حيث تخزن فى أحواض ثم تصرف منها فى الحقول، وهكذا نجح العرب فى إرواء الأراضى الجافة الجرداء حتى التلال وأعالى الجبال وجوانبها فسطحوها ورووها وزرعوها، كما تلقى الفلاحون دروسًا فى زراعة

الرمان والخوخ واللوز والمشمش والبرتقال والكستناء والبنان والنخيل والبطيخ والهليون وقصب السكر والقطن ومختلف النباتات وصناعة الكعك من الفاكهة التى كانت تكوّن عنصراً هامًا من صادرات البلاد الأسبانية. وحتى اليوم ما زلنا نجد فى اللغة الأسبانية الخاصة بالزراعة والرى كثيراً من الألفاظ والاصطلاحات العربية. ففى ذلك العصر استغل العرب كل بقعة من الأرض فكان الحقل إلى جوار الحقل كما يصف ذلك المسعودى فى كتابه مروج الذهب. وبفضل العناية بالرى والزراعة وحسن استغلال الأرض إلى صفاء السماء وجودة الجوّ، كانت الأرض أيام عبد الرحمن الثالث تنتج ثلاثة محاصيل أو أربعة من الحبوب فى العام، واستتبعت العناية بالزراعة الاهتمام بتربية الماشية وبخاصة الإبل والخيل، ويكفى العرب فخراً أنهم أصحاب فكرة التلقيح الصناعى وهم أول من استخدمها، وقد أخذ بها العالم الحديث فى القرن العشرين فقط.

ثم فتحت المناجم التى ظلت أكثر من ألف عام لا تستخدم ولا تستغل، فقد سبق أن أخرج الفينيقيون بعض محتوياتها فاستخرجوا منها سنويًا كثيراً من الحديد والنحاس والزئبق، فقامت صناعات عظيمة فنية لا تستطيع أوربا أن تتصورها فعم الرخاء البلاد وارتفع مستوى معيشة السكان، حتى إن كل أندلسى كان يركب بغلا ولا يمشى، كما أدى انخفاض أسعار الخضر والفاكهة وسائر المواد التموينية وارتفاع أجور العمل إلى نزوح كثيرين من الفلاحين العرب والعمال العرب إلى الأندلس فبلغ عدد السكان حوالى عام ٩٥٠ م فى إسبانيا العربية نحو ثلاثين مليونًا، فقامت آلاف القرى حول قرطبة فازدهرت الحياة وأينعت.

ومنذ أن استقلت الأندلس أيام الأمويين عن خلافة بغداد انقطعت الضرائب التى كانت تتدفق من الأندلس إلى شرق العالم العربى وأصبحت تنفق على أهالى الأندلس أنفسهم فساهمت هذه الأموال فى رفع مستوى المعيشة، وبفضل حكمة وحسن تدبير عبد الرحمن، هذا الخليفة العظيم، كان ينفق ثلث إيراد الدولة على الشئون الداخلية والجيش الذى كان يعتبر وقتذاك من أحسن جيوش العالم نظامًا وقوة، كما يذكر ذلك سفير «أوتو الأكبر» وهو رئيس الدير «يوحنا فون جورز»،

والثلث الثانى كان يحتفظ به كرصيد، والثلث الأخير كان ينفقه الخليفة فى تشييد المساجد والقناطر والطرق الحربية وشق الترع، وبذلك كان يخلق عملا لسائر العمال المتعطلين فخلد وحقق أمانيه وأحلامه كما ذكر هو ذلك. وفى عصره الذهبى قامت مدينة الصخرة، مدينة الأحلام، بالقرب من قرطبة وهى فى أبهى حلة لها فقد زخرفت مبانيها وقصورها بالذهب الخالص والرخام والبلور والأبنوس والجواهر الكريمة. كما اشتهرت أيضًا بحدائقها الغناء. ويذكر أن جارية عبد الرحمن المحبوبة تركت عند وفاتها ثروة طائلة ليُفتدى ببعضها كثيرون من أسرى المسلمين الذين وقعوا فى قبضة الإفرنج. لكن جميع الأبحاث والمفاوضات التى قام بها المسلمون مع الإفرنج باءت بالفشل، لذلك ما كان من عبد الرحمن إلا أنه، تحقيقًا لوصية جاريته التى أوقفت ثروتها لافتداء أسرى المسلمين ولم يوفق فى هذا لتعنت الإفرنج، شيد الصخرة وأطلق عليها اسم جاريته تخليدًا لها ولا سيما أنه قد استغل الثروة التى تركتها فيها.

لقد عمل فى الصخرة نحو عشرة آلاف عامل وظلوا يعملون بها زهاء خمسة وعشرين عامًا بدون انقطاع فشيدوا آيات العمارة، حتى قال شاهد عيان: لقد رأيت بها أشهر ما شيدته يد إنسان من مبان عظيمة.

وقال عربى آخر إن قصر الخليفة كان على جانب عظيم من الأبهة والجلال حتى قيل إنه الوحيد من نوعه فى العالم الإسلامى. واعترف أكثر من زائر من مختلف أنحاء المعمورة أنهم لم يروا له مثيلا فى العالم كما لم يعرفوا عظمة وأبهة وفخامة كتلك.

وهذه المنشآت العظيمة لم تلبث أن تركت أثرًا عظيمًا، لا فى العاصمة فقط، بل على امتداد شاطئ الوادى الكبير، وحول المساحات الممتدة بين القرى حيث القصور الشامخة والبيوت الخلوية الجميلة لأصحاب الجاه والسلطان والأثرياء، وحيث دور اللهو والمتنزهات، كما قصد سكان المدن تلك الأماكن استظلالا فى غابات الزيتون والكروم والنخيل والسرو.

وفى المنطقة الممتدة بين «سيرا مورينا Sierra Morena» و«سيرا نيفادا Sierra

«Nevada» التى يجرى فيها الوادى الكبير كان يقوم اثنا عشر ألف قرية من بينها ست عواصم وثمانون مدينة كبرى وثلثمائة متوسطة.

لكن أعظم مدينة كانت لدى الأندلسى هى قرطبة وعلى جوانبها ذوات المروج الخضراء كان ثمان وعشرون ضاحية، وكانت قرطبة إبان حكم عبد الرحمن الأكبر فى منتصف القرن العاشر، من حيث اتساع رقعتها، أكبر مدينة فى الغرب بما فى ذلك أوربا. فعدا مساكن الوزراء والموظفين كانت تحتوى قرطبة على نحو ١١٣٠٠٠ مسكن وستمائة مسجد وثلثمائة حمام وخمسين مستشفى وثمانين مدرسة عامة وسبعة عشر معهدًا تربويًا (وكانت فى القرن التاسع تضم أربعة آلاف طالب شريعة) وعشرين مكتبة عامة، تحتوى على مئات الآلاف من الكتب، فى عصر لم يكن فى أوربا مدينة، عدا القسطنطينية، كانت تتسع لأكثر من ثلاثين ألف سكن. ولم تملك هيئة، من الهيئات مستشفى واحدًا أو مدرسة عليا. ولم توجد بها مكتبة تستحق الذكر أو حمام عمومى. هذا مع الإشارة إلى أن ذلك العصر قد عرف بقذارة الشوارع وعدم رصفها مما ساعد على انتشار الأوبئة والأمراض. والعجيب أن صحيفة كولونيا تكتب فى ٢٨ مارس عام ١٨١٩ مندِدة بإضاءة الشوارع بمصابيح الغاز واصفة هذا الحدث بأنه مرفوض وأنه بدعة تتعارض والتعاليم الدينية، وذلك لأن الله خلق الليل ظلامًا ويجب على البشر ألا يعارضوا ويخالفوا إرادة الله - فى ذلك العصر كانت جميع شوارع قرطبة وحوانيتها البالغ عددها ثمانين ألفًا حوالى عام ٩٥٠ م ليست فقط مرصوفة رصفًا عظيمًا وتنظف بواسطة عربات تجرها الثيران، بل كانت تضاء ليلا بمصابيح مثبتة فى جدران المنازل. وبعد ذلك بقرنين أعنى عام ١١٨٥ قررت باريس كأول مدينة فى أوربا احتذاء حذو المدن العربية فرصفت الشوارع، وجارتها المدن الأوربية الأخرى فى منتصف القرن الثالث عشر.

إن هذا الحدث كغيره من الأحداث يشير إلى اقتباس أوربا الشىء الكثير عن العرب، وقد نقل الأوربيون هذه الأشياء عن طريق الرحالة عبر جبال البرانس، ولو أنه من العجيب حقًا أن المسيحية أو المسيحيين أقاموا مدة فى بلاد السحرة حتى

لا يتهموا بأنهم يقتبسون عن العرب شيئًا! وليست الأوهام هى التى سيطرت على الراهبة العالمة الشاعرة المسماة «روزفيتا Hros witha» والتى كانت مقيمة فى صومعة دير «جندر زهيم Gandersheim» السكسونى عندما علمت بقصة قرطبة ووضعت فيها قصيدة تمدحها: فقالت عنها: «إنها زينة الدنيا وبهجتها، إنها المدينة الحديثة الجميلة الشامخة بأبنيتها، الشهيرة بأفراحها وهى تحوى جميع الأشياء».

وليس اليهود فقط هم الذين قاموا بدور الوسيط ونقلوا الثقافة العربية إلى أوربا بل نجد كثيرين من المسيحيين قد سمعوا بهذه البلاد المباركة، حيث قرطبة وطليطلة ومعالمهما الشهيرة الجديرة بالرؤية والزيارة. ففى أثناء قيام حكومة الأمويين بين القرنين الثامن والحادى عشر أقبل عدد كبير من الطلبة من مختلف أنحاء العالم على إسبانيا طلبًا للعلم وتحصيلا للمعرفة حيث كانت قرطبة النبع الذى لا ينضب.

نعم إن العلوم الأندلسية اعتمدت أول الأمر على العلوم اليونانية، والعلوم التى كانت منتشرة فى شرق العالم العربى، إلا أن هذه العلوم الأندلسية لم تلبث أن وقفت على ساقيها، وذلك بفضل الخليفة الحكم الثانى بن عبد الرحمن. وبعد أن اشتد ساعد المعرفة العربية الأندلسية واستقلت عن غيرها خرجت شخصيات علمية عالمية مثل: ابن رشد وابن زهر وابن طفيل صاحب رسالة حى بن يقظان، هذه القصة الفلسفية التى تعالج الإنسان الطبيعى، وهى التى أتاحت إلى «ديفو Defoe» أن يضع قصة «روبينسون كروزو Rbionson Crusoe»، كما نجد ابن باجه وأبا القاسم والطروغى وابن البيطار وابن فرناس وابن الخطيب والعالم العظيم جدًا ابن خلدون الفيلسوف والمؤرخ الأول ومؤسس علم الاجتماع. ثم نجد الصوفيين ابن عربى وابن سبعين، ويمتاز جميع أولئك العلماء على علماء شرق العالم العربى.

وامتاز الحكم على سابقيه بحبه وشغفه بالعلم ونشره بين طبقات شعبه الذى رفعه والده سياسيًا واقتصاديًا حتى جعله شعبًا مثاليًا لذلك حاول الابن منذ اليوم الأول من توليه الحكم أن يجعله فى طليعة الشعوب الأخرى علميًا وثقافيًا، وامتاز بذلك على أسلافه. فقد أتبع كل مسجد مدرسة، وكانت بكل حى من أحياء المدينة مدرسة خاصة ومئات الآلاف من الكتب التى كانت محفوظة فى المكتبات العامة

وكانت تحت تصرف أفراد الشعب الذين كانوا يستطيعون قراءتها وفهمها، وأراد الحكم شيئًا آخر، فقد أسس فى قرطبة سبعًا وعشرين مدرسة أخرى خاصة بالفقراء وكان يدفع هو نفقات وأجور أعضاء هيئة التدريس.

وقد ساعدت هذا الحاكم العالم فى جميع أوجه نشاط المعرفة فى بلاده، وفى تحقيق رغباته العلمية ـ هذه الثروات الطائلة التى خلفها له والده وأحسن هو إدارتها والتصرف فيها، فأنفق جزءًا كبيرًا منها فى الكتب ونشرها ومساعدة العلماء وفتح المدارس، فكان يرسل بعوثه العلمية إلى مختلف المراكز الثقافية والعلمية لشراء أو نسخ أمهات الكتب فى مختلف العلوم والفنون، وإذا ما أدرك مبعوث الخليفة القرطبى أن عالمًا فى صدد وضع كتاب بادره وقدم إليه المكافأة السخية مقابل حصوله على هذا الكتاب بمجرد الفراغ منه، فقد حدث فعلا أن كثيرًا من المؤلفات التى وضعت فى البصرة أو الموصل قد عرفت وانتشرت فى الأندلس قبل أن تراها بغداد!

وبلغ غرام الحكم بالكتب أن حرص حرصًا شديدًا على شراء الكتب الجديدة وجمعها وقراءتها قبل أن تصل إلى يد غيره لأن حبه لها لم يكن أفلاطونيًا بل واقعيًا، فيقال إن مكتبة قصره كانت تضم (٤٠٠٠٠٠) أربعمائة ألف مجلد قد قرأ جميع ما بها وعلق على بعضها وعلى مؤلفيها، وحقًا كان هذا الخليفة مضرب الأمثال فى العلوم والآداب وسعة الاطلاع، وكان يقصده الأساتذة والعلماء عبر الصحارى والبحار حيث وجدوا عنده الكرم الحاتمى والعلم الذى لا يجاريه فيه أحد، هذا إلى جانب كونه المسامر اللبق. وكانت شخصية هذا الأمير جذابة حتى أقبلت عليه فئات عديدة من كبار العلماء فى العالم الإسلامى بل حتى رجال اللاهوت المسيحى قد تهافتوا عليه، فاكتسب بذلك هذا الخليفة الواسع الاطلاع والأفق، الحليم والواسع الصدر، العالم الأديب، إعجاب كبار رجال الكنيسة الذين توافدوا عليه وانكبوا على دراسة اللغة العربية وآدابها. ولما كان وليًا للعهد كلف الحكم الغوطى الغربى الأسقف «جودمار فون جيرونا Godmar von Gero-na» وضع كتاب باللغة العربية فى تاريخ الإفرنج. كما أن أسقف قرطبة المسمى «ريكديمندوس» الذى كان قد سبق أن أرسله الخليفة عبد الرحمن الثالث عام ٩٥٥ م

سفيراً إلى القيصر أوتو الأكبر ـ هذا الأسقف الذى كان صديقًا لعلماء الطبيعيات العرب، قد وضع كتابًا باسم «راب بن سعيد» الأسقف وأهداه إلى الأمير المسلم الذى كان يرعاه. وموضوع هذه الرسالة: تقسيم الأزمان وإعادة تكوين الأجسام، وقد ترجمها إلى اللاتينية من العربية «جيرهارد فون كريمونا».

والحقيقة أن الحكم لم ينفرد بين حكام الأندلس بتشجيع العلم والعلماء، فنحن نجد المظفر ملك «بادايوز» يضع موسوعة علمية شاملة لمختلف فنون المعارف فى مائة مجلد، كذلك المقتدر ملك «سرجوسه» أظهر نبوغًا عظيمًا فى الفلك والرياضيات والفلسفة، كما كان يقدر العلماء تقديراً عظيمًا. وتقدير العلم سواء عند الأمويين أو غيرهم لم يكن شيئًا نادراً أو مستحدثًا، وعلى النقيض من ذلك فالعالم الذى كان يعينه الأمير فى وظيفة حكومية يجب أن يكون على جانب عظيم من العلم والمعرفة ولم يوجد عالم فى دولته دون وظيفة أو عمل، فكل عالم كان علمه كفيلا لأن يجلسه فى أعلى المناصب وأرفعها وحتى صغار الأمراء الذين جاءوا بعد سقوط الأمويين عام ١٠٣١ وبعد ضياع الخلافة فى قرطبة وأشبيلية وغرناطة والمرايا وسرجوسه كانوا يتنافسون فى تشجيع العلم والأخذ بيد العلماء وبذلك مهدوا لظهور النهضة العلمية الثانية التى ظهرت بعد ذلك فى الأندلس.

وليست العلوم فقط أو الفنون التطبيقية هى التى وجدت إقبال العلماء عليها وتشجيع الأمراء لأصحابها بل الشعر أيضًا، والشعر للعربى كالهواء للإنسان، فقد شجعه الأمراء تشجيعًا منقطع النظير، ومن بين الأمراء من أجاد الشعر إجادة تامة.

شعب من الشعراء

إن الذى يسير فى أمسيات الصيف الحارة فى مرج الفضة، وقد سلط عليه القمر أضواءه الفضية، يقع بصره على شابين مرحين، فهنا نجد السكان، سكان أشبيلية، يبحثون عن أماكن اللهو أو يسيرون فى المتنزهات، وقد أهداها الندى نسيمًا عليلاً على طول الوادى الكبير، إلا أن أحدًا لا يفكر فى أن أحد الشابين الذى يرتدى ثيابًا حريرية مهفهفة هو أبو القاسم محمد، ملك المستقبل.

فهذا الأمير المرح المحبب إلى النفوس كان يجد لذة فى الاختلاط بمختلف طبقات الشعب متنكرًا يرافقه صديقه الذى كان يكبره بتسعة أعوام، وهو ابن عمار. وكان ولى العهد يحب هذا الصديق حبًا شديدًا، لأن ابن عمار كان يجيد الشعر إجادة تامة ولم يكن ليتميز عليه فى الأندلس فى صناعة الشعر إلا ابن زيدون العظيم. وبالرغم من أن ابن عمار كان فقيرًا جدًا، إلا أنه كان مغامرًا، لذلك استولى بشعره على قلب الأمير الذى كان أيضًا شاعرًا، وطالما تنافسا فى قرضه والمطارحة، كان يقول أحدهما بيتًا ويقول الآخر بيتًا يتفق والأول عروضًا وقافية.

ويومًا كانا يسيران يمرحان ويتمتعان باستنشاق هذا النسيم العليل، وقد هب على الشاطئ فحرك سطح الماء وهز الأمواج كرقائق الفضة. فقال المعتمد لصديقه الشاعر: أجز: «صنع الريح من الماء زرد» فأطال ابن عمار الفكرة، ولم يكن فى نظمه للشعر ممن أوتوا البديهة الحاضرة، وكانت امرأة من الغسالات على مقربة منهما، وسمعت ما قاله المعتمد لابن عمار، ولما عجز الأخير عن الإجابة قالت المرأة على البديهة: «أى درع لقتال لو جمد».

فتعجب المعتمد من حسن ما أتت به مع عجز ابن عمار، ونظر إليها فإذا هى حسناء فاتنة، فأعجب بها وأخذ بجمالها، فسألها «أذات زوج هى؟» فقالت: «لا»، فلما ذهبت فى سبيلها قال لخادم كان يتبعه: «سل عن هذه الفتاة واعرف مكان أهلها»، وعلم أنها جارية رميك بن حجاج وأن اسمها اعتماد، فلما عاد إلى قصره استدعى صاحبها واشتراها منه وتزوجها، ومن فرط حبه لها أطلق على نفسه منذ تلك اللحظة اسم «المعتمد»، وبهذا الاسم اشتهر كأكبر شاعر بين جميع ملوك العرب وخلفائهم.

وهكذا تجد الاثنين ينسجمان انسجام الروى فى الشعر أو انسجام القافية، وقد ظل حبهما حيًا مدى حياتهما حتى لقى كل منهما قضاءه الحزين المحتوم.

كما أن قصيدة مطلعها:

أدر الزجاجــة فالنســيم قد انبـرى　　　والنجم قد صرف العنان عن السرى

هى التى آلفت بين المعتمد وصديقه ابن عمار. وقصائد ابن عمار هذا هى التى حررت المعتمد من السجن، حيث نجد ملك إشبيلية وهو المعتضد الذى كان سريع الغضب يأمر بإعدام ولى العهد الذى تسبب بإهماله فى ضياع معركة وهزيمة جيشه. لكن أشعار ابن عمار شفعت له لدى المعتضد الذى اشتهر بالغلظة والقسوة، إلا أنه كان شاعراً يقدر الشعر الرصين وبسببه يعفو عن كل شىء.

فالشعر الجيد قد يفك من الأغلال، وقد عرف هذه الصفة موظف من موظفى المالية فى قرطبة كان قد اختلس أموالا عامة. فقد وجه الخليفة المنصور تهمة إلى هذا الموظف مستنكرًا جرأته وسرقته أموال الخليفة، فاعتذر الموظف بأن القدر أقوى من الإرادة الحسنة، والفقر يضلل الفضيلة، وهكذا استطاع هذا اللص النجاة بفضل مهارته الشعرية، وكان المنصور يستصحب معه فى حروبه أربعين من خيرة شعرائه، وكتب الأدب العربى تفيض بكثير من القصص التى تبين مدى تقدير العربى للشعر وتقديسه.

وقد أبهرت العقلية الشعرية للفيلسوف والطبيب ابن الخطيب، وهو ذلك

الطبيب الذى هدى أوربا إلى أن وباء الطاعون معد، فقربه الأمير إليه وبخاصة أنه أعجب بأسلوبه الجميل فى رسائله إلى سائر الحكام، فعلا شأنه وازدادت شهرته واختص ملك قرطبة بخدماته، كما استطاع مرتين بقصائده الرائعة الاستحواذ على قلب ملك المغرب وعطفه فبادر مرتين إلى إنقاذ تاج هذا الملك الشاب وعرشه.

والقصيدة العصماء تحتل مكانة رفيعة فى شعب يجد فى الشعر ضرورة من ضرورات الحياة اليومية، وأن الحاجة إليه لا تقل عن الحاجة إلى اللغة. والشعر لدى العرب أسلوب من أساليب اللغة التى تهيمن على كل عربى حتى الفلاح فى حقله والعالم فى مدرسته والأميرة فى خدرها. والقصيدة تتدفق من بين الشفاه فى سهولة ودون تكلف ويستخدمها صياد السمك فى الوادى الكبير والصانع فى مصنعه. والعربى يقول الشعر فى كل مناسبة. ويذكر أنه فى إقليم (سيلفيز) كان فلاح يسير خلف الفدان ويرتجل الشعر، ويذكر أن أحد سكان هذا الإقليم من قبيلة بنى الملاح ذهب لعمله مع ابنه الصغير يتمشى على ضفة النهر حيث تنقنق الضفادع فأخذ الوالد يدرب ابنه على قول الشعر؛ ففى الأندلس حيث يدرج الأطفال على صياغة الشعر ويسطرون المجلات بأسماء الشعراء يجعل من العسير الحكم على أشعر الشعراء، ومن هو الشاعر، بينما من السهل الإجابة على أى الملوك وأى الوزراء وأى رجال السيف والعلماء لم يكن شاعراً.

وإذا أراد الإنسان أن يتحدث عن شعب من الشعراء يجب أن يتحدث أولا عن العرب وبخاصة عن العرب الجاهليين، وكذلك الحال عندما نتحدث عن عرب الأندلس إذ كان الشعر لديهم عبارة عن تطور لغوى. إن اللغة العربية تطورت إلى شعر وشعر من نوع خاص أو إلى فن من فنون الشعر الخاصة، فقد تحولت اللغة إلى نغم وقافية.

والخاصية المميزة التى تميز العربية وسائر أخواتها السامية عن الأسرة الهندسية الأوربية مثلا هو مبدأ التثليث فأصول الكلمة ثلاثة صامتة تعبر عن المعنى المشترك، والحروف الصامتة هى التى تتغير فقط، وهى التى تميز بين المعانى المتكافئة والصيغ الصرفية المتنوعة.

لكن استخدام الحركات يخضع لقواعد خاصة، وهذه الحركات واستخدامها سبب من أسباب خلق ألفاظ عديدة جداً تتفق جرسًا وتختلف معنى، كما نجد ألفاظًا تختلف فى حروفها المتحركة أعنى نشأة السجع.

فهذه الصفة التى تمتاز بها العربية والتى تختصها بنغم واضح جلى تتطلب ولا شك قيام شعر مقفى أو نثر مسجوع، فهذه الصفة خاصة بالعربية، والعروض العربى لا اليونانى ولا اللاتينى هو الذى أثر فى الآداب الأوربية والعالمية. وإذا كانت اللغات الجرمانية وعلى الأقل اللغة الألمانية لا تتفق والسجع، فإن اللغة العربية الشرقية نجحت فى القضاء على منافساتها والإبقاء عليها سجينة حتى أصبحت اليونانية وكأنها أجنبية بالنسبة للألمانية والألمان.

لماذا يستخدم الشعراء الألمان اليوم الوزن (الهكساميتر) القديم؟ لماذا لا يقول الشاعر الألمانى غزلا فى هذا الوزن القديم؟ لقد ظلت الترانيم الكنسية الدينية والأشعار الدنيوية زمنًا طويلاً مرتدية ثوبًا لاتينيًا. ولماذا لم يستخدم الشعب الألمانى عندما أخذ يقول الشعر العروض القديم لصياغة هذا الشعر؟ ولماذا فضل عليه العروض العربى؟ هل السبب هو الميل الشديد إلى النغم، وأن الشعر المقفى الذى يكسب الروح قوة ويقظة ـ وإن كان غير مفيد ـ يتفق واستعداد الشعب؟ أو هل كانت هى الحاجة الملحة إلى الموسيقى وليس التقطيع اللغوى للرومان أو الجمود الأجنبى اليونانى حيث يستعاض عنه بالنغم؟ من المؤكد أن أغانى «جوته» و«هينه» كانت شيئًا آخر غير تلك التى جاءتنا لو لم يقرر الذوق الشعبى فنًا شعريًا آخر. والآن نتساءل: كيف بلغ السجع والنغم هذه المكانة العالمية؟

فأول عامل مؤثر جاء من صلوات اليهود فى المعابد فى القرن الأول الميلادى وذلك عن طريق بيزنطة والترانيم المسيحية القديمة والصلوات التى كانت تقام فى الكنيسة الرومانية الشرقية فى الشعر الدينى اللاتينى فى الكنيسة الرومانية الغربية التى كانت صدى للمؤثرات الشرقية. كما نجد رهبانًا مصريين وسوريين وبعض البيزنطيين الذين هربوا إبان النزاع الذى قام حول الصور، قد أقاموا سدًا منيعًا ضد هذا التيار فى الأديرة الأوربية. أما الباباوات المنحدرون من أصل شرقى ومعهم

أنصارهم فقد حرصوا على ترك الطرق مفتوحة، فنجد الأوزان العربية تستخدم إلى جانب الأوزان القديمة المتأخرة زمنًا طويلاً، كذلك نجد نتيجة أخرى لذلك غير موزونة وغير منغمة. ومصدر هذه الظاهرة الشعر الديني. وظلت القافية نحو نصف قرن وأطول غير مطردة، لكن حوالى القرن الحادى عشر أخذت هذه الظاهرة تنتشر بفضل العوامل القوية التى دخلت عليها ودفعتها إلى الأمام. وفى إنجيل «أوتفريد» نجد السجع مستعملا، وقد كان ذلك حوالى عام ٨٦٠ م إذ يظهر للمرة الأولى فى اللغة الشعبية وينافس غيره، لكن ظل زمنًا طويلاً قبل أن يفرض نفسه.

أما التيار الثانى الذى أثر فى الشعر الأوربى فقد جاء عن طريق الشعر الغنائى العربى الصحراوى. وبغتة وبدون تمهيد نجد أنفسنا حوالى القرن الخامس الميلادى أمام شعر كامل موزون مقفى، وهذه الظاهرة تدعو إلى الاستغراب حقًا فكيف نجدها فى هذه الحالة عند شعب يحيا حياة البداوة والحرب، بعيدًا عن مقومات الثقافة والمدنية، فإذ به يصل إلى خلق هذا الشعر الكامل ذى الجانب العظيم من الجمال، إنه شعر بلغ مرحلة من الجمال الفنى لا تدانيها مرحلة، فهو شعر يعبر عن منتهى بلوغ أكبر مرحلة من مراحل الرقى الفكرى.

حقًا إن لغة هذا الشعر تحمس العربى لفظًا ووزنًا، لكن بينما نجد القافية فى الشعر السريانى عبارة عن شيء فريد وحيد إذ بالعربى يستخدمها كعنصر أساسى فى الشعر العربى، وكما هو الحال فى الفن العربى من حيث الزخرفة كذلك القافية التى بها يتم البيت ويقفل، هذا إلى جانب الكيفية التى تستخدم بها فالشاعر العربى يكيفها بعدد لا يحصى من النغم وأبيات تسير على وتيرة واحدة وترتبط معًا برباط النغم.

وهكذا نجد هذه اللغة العربية وما تخلقه من فن شعرى تسترسل فيه الصور الشعرية والمشاعر الإنسانية كالأمواج تدفع الموجة الأخرى إلى اللانهائية، وقد تبلغ القصيدة مائة بيت وتكون وحدة فى الروى ووحدة فى العروض مثل تلك التى قالها امرؤ القيس فى المطر، امرؤ القيس الذى عاش قبل مجيء الرسول بنحو خمسين سنة ومنها:

ديمة هطلاء فيها وطف　　　طبق الأرض يجرى وتدر

ففى هذه القصيدة وهى الصورة الشعرية القديمة حيث تتكرر بها الأنغام ويتكرر الروى أو القافية قدم العربى الصورة الصادقة حقًا للفن العربى فى زخرفة المساحات، وهذا الفن الشعرى يعرف حتى اليوم على أنه قديم. لكن المدارس الشعرية الحديثة كمدرسة أبى نواس فى بغداد، أو مدرسة الشاعر الأعمى الذى عاش فى نهاية القرن التاسع الميلادى فى بلاط الأمويين فى قرطبة، قد حطمت القيود القديمة للشعر العربى والقصيدة العربية وجاءتنا بفنون أخرى جديدة. فالقصيدة مقسمة إلى أدوار مستقلة فى هيئة أغان مع تغيير وتنويع القافية مع الشيء الكثير من البيان والبديع. فمثل هذه الفنون الجديدة أو هذا التطور فى القصيدة العربية ظهر فى إيران على يد الفردوسى وعمر الخيام وآخرين، وانتشر هذا الفن بسرعة ونقله ورردده العرب فى العالم الإسلامى من قرطبة حتى قرى القوقاز ومن طوس ونيسابور فى إيران حتى نهرى النيجر والجنج. لكن هذا الفن الشعرى قد استقبلته أوربا استقبالا حسنًا وحماسيًا فشعراء التروبادور بزعامة الهرزوج «فلهلم التاسع فون أكويتانين Wilhelm IX von Aquitanien» استخدموا هم والشعراء الغزاليون نغمًا عربيًا وقافية عربية كما استخدموا الأدوار العربية والأوزان العربية وخصائص أخرى من خصائص الشعراء الغنائيين الأندلسيين، وكذلك مغنى الدروب أعنى المغنى المتجول. ويتجلى هذا الأثر فى صورة واضحة جلية فى الأغانى الدينية للملك ألفونس الحكيم الذى تأثر بلاطه بالعرب الذين كانوا يحيون فيه أو بالعرب عامة، كما نجد هذا الأثر العربى فى مؤلفات «يوان رويز Juan Ruiz» كبير قساوسة «هيتا» الذى كان منغمسًا فى الحياة الإسلامية والتقاليد الإسلامية كما قال شعرًا وأغانى راقصة لصديقاته بين المغنيات العربيات، كما نجد الأثر العربى فى أغانى عيد الميلاد فى اللغة اللاتينية وفى الأدوار الفرنسية والقصائد.

أما فى إيطاليا فالأثر العربى أشد وأقوى منه عند التروبادور، فهنا فى إيطاليا نجد الأغنية العربية تجد معجبين كثيرين وبخاصة فى الحياة والترانيم الدينية كما هو مشاهد عند القديس «فرنس فون أسيسى Franz von Assis» والفرنسيسكانى «فراجا كابونى دا تودى Fra Jacapone da Todi» الذى كان معاصرًا لدانتى كما فى «دولش ستيل نوفو Dolce stil nuovo»، وعند دانتى نفسه. وأشد ما يكون الشعر

العربى أثرًا فى الشعر الشعبى فى «أومبريان umbrian» و«توسكانا Toscana» والبندقية. فمن الأوزان العربية نشأ الفن المعروف باسم «مدريجال Madrigal» العلمانى وحتى «لو رينسو ده مديشى Lorenzao de Medici» و«مكيافل Machia-vell» قالا الشعر فى أوزان عربية.

وعلاوة على ذلك نجد العرب فى صقلية يؤثرون فى الأغانى الشعبية أثرًا بليغًا ما زلنا حتى اليوم نجده فى إيطاليا، كما أثر العرب فى النوع المعروف باسم «سونيت Sonett» فى شمال إيطاليا.

وحيث يقال الشعر فى مختلف أجزاء الدولة العربية نجد اللغة العربية والأسلوب العربى كما هما عند البدو، لذلك كان العرب يرسلون أولادهم إلى البادية ليتلقنوا عليهم اللغة العربية الخالصة لغة الشعر الفصيح ولو أن أولئك العرب البدو قد خرجوا من بلادهم وانسابوا فى العالم واختلطوا مع شعوب وأجناس أخرى، فإن الشعر العربى ظل محتفظًا بخصائصه ولغته فى مختلف تلك الأقطار التى انتشر فيها العرب.

والشعر العربى شعر غنائى يعبر عادة عن مشاعر شخصية وانطباعات الشاعر نفسه فالقصيدة والحالة هذه عبارة عن عقد من اللآلىء، كما أن الغناء هو الفن السائد فى الشعر كما هو الحال اليوم فى أوربا، وكما أن الملحمة آخذة فى الزوال تدريجيًا.

واللغة تؤثر تأثيرًا منتجًا سواء كانت نثرًا أو شعرًا، ومن هنا نجد الثروة اللغوية العربية غنية جدًا، فقد يعبر البدوى أو المحارب عن أدق المعانى الإنسانية والمشاعر عن طريقها، بخلاف اللغة الألمانية فهى فقيرة فى مفرداتها الموجودة تحت تصرف الشاعر الألمانى، وهى المفردات التى يستخدمها عند وصف شىء بعينه من زواياه المختلفة، بينما نجد ساكن الصحراء بنظره الثاقب وقوة مشاهدته والصبر على التأمل، فضلا عن صفاته التى يمتاز بها، ولو أنها فى عالم الماديات تجعل عالمه محدودًا ـ يتسع هذا العالم أمام إدراكه التنبئى الذى يتميز به وجهه ونظرته التى تتجلى لنا من عينيه. كل هذه الخصائص تترك أثرًا فى الرمل وصرخةً فى الليل

وعبيراً وجرسًا، وهنا ندرك السرور عند بلوغ الهدف والتعبير عن غرضه التعبير الصادق.

ولكى نصور قوة اللغة فى التعبير عن الصور تعبيراً دقيقًا نذكر لامية الشنفرى، وهذا شاعر جاهلى، والشنفرى هنا ثائر على الناس وعلى الله؛ لذلك فهو يهرب إلى حيث الوحوش الضارية والذئاب والضباع فيتخذ منها أصدقاء له.

ومن فرط إعجاب الشعب بهذه اللامية ضمها إلى المعلقات هذه القصائد التى تعتبر من مفاخر الشعر الجاهلى فأجازها وأجاز قائليها. كذلك لنقرأ القرآن الكريم حيث نلمس قوة اللغة وجمال الأسلوب وفصاحته:

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ (العاديات: ١ - ٥). أو قوله تعالى:

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ (التكوير: ١ - ١٩).

وما جاءنا فى الشعر العربى خاصًا بالحيوانات العزيزة لديهم كثير جدًا، كهذا الوصف الجميل فى الفرس ومنه:

غدونا بضاف كالعسيب مجلل   طويناه حينًا فهو شرب ملوح

ولم يقف الشعر عند هذا بل نجد الأندلسى يصف قوسه وصفًا دقيقًا حيًا، كما يعرض ابن شرف لطلوع الشمس فيصورها كما صورها الشاعر الألمانى «موريكه».

إن الخيال العربى لا يعرف حدودًا، فهو عوضًا عن أن يصف الأشياء من ظاهرها يبعث فيها الحياة والحركة فكل زهرة تتفتح فى الظلام وتفتح فاها باحثة عن ضرع

السحابة لتشرب. ثم نجد الشاعر يتنقل من صورة إلى أخرى، فهو يقول إن يدى الربيع قد شيدتا أبراج زهرة الزنزلخت على سيقان عالية، وإنها لأبراج ذوات مجار فضية. وهكذا نجد العربى يخلق فنًا مختلف الألوان يأخذ بالأبصار ويبدو وكأنه أغنية من أغانى الشاعر «موريكه»، ثم نجد انعكاسات شاطئ الوادى الكبير تصور وكأنها معركة تدور رحاها بين الزهور والماء.

إن الموضوعات التى يعالجها هذا الشعر تشبه النفس البشرية فجميع النغمات تعبر عن الأحزان والكآبة والشكوك التى تودى بصاحبها، كما نجد فيها البغض العنيف والحزن العميق والحب الصارخ، هذا جميعه نجده مثلا فى قصيدة شاعر مثل ابن خفاجة كما نجد شعرًا أكثر مرحًا كما هو الحال مع ابن الأبار.

ويقال إن الخليفة المعتضد لما دب إليه المرض وأحس بقرب منيته استدعى مغنيًا يغنيه ليجعل أول ما يبدأ به فألا، فأول ما غنى قصيدة ابن الأبار هذه وفيها:

نطوى الليالى علمًا أن ستطوينا ‏ ‏ ‏ ‏ فشعشعيها بماء المزن واسقينا

فتطير من ذلك ولم يعش بعدها سوى خمسة أيام وقد خلفه ابنه المعتمد زوج اعتماد أو رميكة كما كانت تسمى نفسها، وقد ظل جالسًا على العرش رغمًا من تلبد الجو بالغيوم السياسية زهاء اثنين وعشرين عامًا كانت كلها أيام سعادة وعزة، وقد أحبه العرب حبًا لم يمنحوه إلا للقليلين من أمرائهم، وكان المعتمد معاصرًا لكل من «هينريش الرابع» و«جريجور السابع» و«وليم الفاتح» والجراف «روجير» الأول فى صقلية. وكان المعتمد كما يروى ابن خلكان أكرم وأحسن وأشجع أمير أسبانى، كما كان قصره مزار المسافرين وملتقى العبقريات والكعبة التى تتجه إليها آمال القوم وأمانيهم. وكان يعيش معه فى قصره طبيبه الخاص أبو العلاء بن زهر وهو الثالث من الأسرة الأشبيلية التى اشتهرت بالطب وهى تنتمى إلى قبيلة إياد، هذه القبيلة العربية القديمة، وقد اشتهر ابن زهر هذا بالطب والفلسفة واعتاد أن يكتب بطاقة وصف العلاج على جذاذات قطعها من أسطوانة سميكة أهداها إليه تاجر عراقى ولم تكن إلا قانون ابن سينا، وكانت هذه هى النسخة الأولى التى وصلت إلى الأندلس. وطبيب المعتمد كان والد الطبيب والفيلسوف الشهير ابن زهر وجد طبيب

آخر اشتهر كذلك بالشعر فخرج هذا الحفيد ابن زهر من أشبيلية إلى قصر حاكم مراكش فحدث فى أحد الأيام أن بعض أشعار هذا الطبيب الخاص بالسلطان قد وقعت فى يده ، وفى هذه الأبيات يشكو ابن زهر حنينه إلى ابنه فتأثر السلطان أثراً بليغًا واستدعى سراً أسرة ابن زهر من أسبانيا ورفع لابن زهر مرتبه .

وفى بلاط الأسرة العبادية بأشبيلية عاش أيضًا شاعر عظيم بل من أعظم الشعراء العرب ، ألا وهو ابن زيدون حيث اتخذ من قصرهم ملجأ له ، وكان له ابن وَزَر للمعتمد ، خلفًا للصديق والوزير الأول ابن عمار أكثر الرجال نفوذًا فى القصر ، كما أن المعتمد استمد اسمه من اسم حبيبته اعتماد . وهكذا نجد الشاعر ابن زيدون يجعل من اسم ابنه الوليد نصبًا للحب ، هذا الحب الذى أضناه وأشقاه طوال حياته . وقد حمل هو أثر هذا الشقاء حيث تسمى : أبا الوليد بن زيدون .

وابن زيدون من أشهر عائلات قرطبة والسيدة التى اقترن حظه بها هى الأميرة الأموية الجميلة الشاعرة الشهيرة «ولادة» التى كانت موضع تقدير سائر رجال قرطبة . وكان يحسده ويحقد عليه وزير ابن جهور ، لذلك عكر على ابن زيدون حبه وحياته من زوجه حتى انتهت بمأساة ، فقد وشى هذا الحاسد بهذا الشاعر الممتاز الذى كان قد وقع عليه الاختيار والذى كان يتبوأ مركزًا ممتازًا فى الإدارة والسياسة ، وشى به لدى حاكم قرطبة وشاية سياسية . فوجه ابن زيدون إلى خصمه خطابًا فيه الكثير من التورية السياسية والعبارات القوية حتى جعل خصمه سخرية الجميع ، كما رفع مكانته هو الأدبية ، لكنه فقد عطف رئيسه فزج به فى السجن . ولما لم يجد مفراً من رئيسه صاحب القوة والسلطان هرب ابن زيدون طالبًا الخلاص ، وظل كذلك زمنًا طويلاً ، لكن حبه الشديد لولادة كان يضطره إلى المجازفة بحياته والاقتراب من قرطبة .

ففى خرائب قلعة الصخرة الأموية العظيمة التى هدمها البربر وخربوها ، وحيث الآن ينعق البوم ، كان ابن زيدون يرسل من هناك أشواقه إلى حبيبته التى أحبها كثيراً وخلد هذا الحب فى كثير من قصائده . وانتهى بابن زيدون المطاف إلى قصر ملك أشبيلية حيث تمكن قبل وفاته من خدمة المعتمد عند فتح قرطبة .

وقد انضم إلى عقد أولئك الشعراء شعراء آخرون صقليون تركوا صقلية لما سقطت فى يد النورمان ومنهم «أبو العرب» و«ابن حمديس» وكان النجم المتألق فى هذا العقد الملك الشاعر المعتمد فقد جذبت شاعريته الكثيرين وتفوقت عليهم، وقد اشتهر المعتمد كذلك بالشعر الغرامى الغزلى فتغزل فى «رميكة» فوصف نفسه بأنه عبد الجميلات الفاتنات، وقد أفرد كثيراً من غزلياته فى وصفهن ووصف جمالهن وكان شعره كأنه قد صيغ من أحجار كريمة تضىء كالبلور والماس. وشعره يبين الروح العربية وطبيعتها الرشيقة الرقيقة، وهذا ما جعل منه شاعراً فحلا.

ثم جاء المسيحيون طامعين فى الاستيلاء على الأندلس، لذلك سارع الأمراء الأندلسيون واستدعوا يوسف الحاكم البربرى لمراكش ليساهم تحت إمرة المعتمد فى رد المسيحيين فنشبت معركة بين المسلمين والمسيحيين أبلى فيها المعتمد بلاء حسنًا، كما حارب حرب الأبطال المغاوير وهزم المسيحيين شر هزيمة.

ورجع يوسف إلى مراكش «وفى نفسه من أمر الجزيرة المقيم المقعد» كما يقول المراكشى، وقال لبعض ثقاته من وجوه أصحابه: «كنت أظن أنى قد ملكت شيئًا، فلما رأيت تلك البلاد صغرت فى عينى مملكتى، فكيف الحال فى تحصيلها».

ورأى أصحابه أن يشيروا عليه برأى يجعل الاستيلاء عليها ميسوراً إلى حد كبير، وأغلب الظن أنهم كانوا مثله يطمعون فى امتلاكها فسير حملة واستولى عليها. ويصف الفتح المعتمد يوم سقوط أشبيلية فى يد المرابطين بقوله: «ولما انتشر الداخلون فى البلد وأوهنوا القوى والجلد، ويتوقد عند انتضائه، فلقيهم فى رحبة القصر، وقد ضاق بهم فضاؤها، وتضعضعت من رحبتهم أعضاؤها، فحمل فيهم حملة صيرتها فرقًا، وملأتهم فرقًا، وما زال يوالى عليهم الكر، حتى أوردهم النهر، وما بهم جواد، وأودعهم حشاه كأنهم له فؤاد، ثم انصرف وقد أيقن بانتهاب ماله، وذهاب ملكه وارتحاله، وعاد إلى قصره واستمسك به يومه وليلته مانعًا لحوزته، دافعًا للذل من عزته، وقد عزم على أفظع أمر، وقال بيدى لا بيد عمرو، ثم صرف تقاه، عما كان نواه، فنزل من القصر بالقسر، إلى قبة الأسر، فقيد للحين، وحان له يوم شر ما ظن أنه يحين، ولما قيدت قدماه، وبعدت عنه رقبة الكبة ورحماه قال يخاطبه:

وبعد أن كبله يوسف نقله وأسرته فى سفينة فبكاه شعبه على ضفاف الوادى الكبير ولطم النساء وجوههن، ونقل المعتمد وأسرته من طنجة إلى مكناس جنوبًا حتى «أغمات»، ومن ثم عزل عن باقى أفراد أسرته ليمضى حياته فى السجن.

وهكذا نجد المعتمد يقضى آخر سنى حياته فى البؤس والشقاء، وإن أصبح شاعراً مفلقًا بل أعظم شاعر أندلسى، وتوفى وورى اللحد كسير النفس شقى الفؤاد بعد أن رثى نفسه قبل وفاته بكثير من المراثى التى تعتبر من أشهر ما قيل فى هذا الفن سواء فى الجاهلية أو الإسلام. فقد ظل فى السجن خمس سنوات قاسى فيها ويلات الذل والسجن والمرض وفى عام ١٠٩٥ ترك الحياة وهو ابن خمس وخمسين سنة، ودفن إلى جانب «رميكة» فى «أغمات».

وفى أوائل القرن الثانى عشر خرج رجل من أشبيلية مخترقًا الصحراء العربية فلقى ترحيبًا عظيمًا من أفراد قبيلة لخم. وفى إحدى الليالى أصابه أرق فخرج من خيمته وأخذ يتطلع إلى السماء المليئة بالنجوم ورأى فى القمر الوضاء ما ذكّره بسيده السابق فأخذ يردد بعض الأشعار.

وفى هذه اللحظة فتح باب الخيمة التى كان فيها وخرج منها رئيس القبيلة وسأله: لمن هذه الأشعار الواضحة كالنهر العذبة كالمرج الذى سقاه ماء المطر؟ إنها أشعار حلوة كصوت الغانية وقد حلت عنقها بقلادة من الذهب. إنها أشعار قوية لها رنين يشبه صوت البعير. وحكم البدرى على اللغة يعتد به كمرجع من مراجع جودة اللغة والشعر وهو حكم يغاير حكم سكان المدن.

فأجاب الرجل الأشبيلى أنه لملك ملك على وطنه من العباديين ومن قبيلة اللخميين، فامتلأ رئيس القبيلة فخاراً وعجبًا إذ اكتشف مأثرة أخرى من مآثر قبيلته فنادى الشيخ أفراد قبيلته وأخبرهم ما يشرفهم أن شاعراً عظيمًا قد ظهر منهم. وهكذا نجد الأشبيلى يقص على كل القبيلة خبر ملكه الشاعر العظيم الكريم الذى كان فارسًا عظيمًا لا يخاف الموت ولا يخشاه، وأميراً كريمًا لا يجارى فى كرمه، ولما انتهى من الخبر امتطى البدو الخيل فرحين فخورين ليحتفلوا بهذا الخبر فاهتزت

الأرض تحت أقدامهم تحية للملك الشاعر وهو من قبيلتهم؛ وبعد ذلك بمائتين وخمسين عامًا رحل حاج مخترقًا مراكش وكان وزير ملك غرناطة، وهذا الحاج هو ابن الخطيب الطبيب ومكتشف وباء الطاعون فأدى به طريقه إلى «أغمات» إلى قبر المعتمد واعتماد، وذلك فى سفح تل تكسوه زهرة اللوتس وعندما وقف أمام القبور المهدمة الموحشة وعيناه تذرفان الدموع ارتجل أبياتًا منها:

قد زرت قبرك عن طوع بأغمات رأيت ذلك من أولى المهمات

وذيل الكتاب بقوله إنه سيعود إليها «إن شاء الله ربى» أو شاء ابن عمار.

ولما علم ابن عمار بالأمر وجه إليه أبياتًا منها:

مولاى عندى لما تهوى مساعدة كما يتابع خطف البارق السارى

والمعتمد يعرف تمامًا أن الصديق يدرك تمامًا الإدراك مدى حبه لاعتماد، وأن هذا الحب جعل منه عبدًا لاعتماد. وبالرغم من أنها لم تكن مثقفة ثقافة عالية أو تربت تربية خاصة إلا أنها سحرته وقد ملك كل ما فيها قلبه. إنها ذكية نبيهة وشاعرة موهوبة، هذا فضلا عن مرحها وطفولتها وما يبدو منها أحيانًا من دلع ودلال. ففى أحد أيام شهر فبراير شاهدها تبكى فى أحد نوافذ القصر وهى تشاهد الثلج يتساقط من السماء فسألها المعتمد عن سبب بكائها فأجابته: «إنك طاغية جبار غشوم، انظر إلى جمال ندف الثلوج البارقة اللينة العالقة بغصون الأشجار، وأنت أيها الناكر للجميل لا يخطر ببالك أن توفر لى مثل هذا المنظر الجميل كل شتاء ولا تصحبنى إلى بلد يتساقط فيه الثلج فى الشتاء» فسارع المعتمد وجفف دموعها قائلاً: «لا تحزنى ولا تستسلمى لليأس يا سلوة النفس ومنية القلب فإنى أعدك وعدًا صادقًا أنك سترين هذا المنظر الذى أدخل على قلبك السرور كل شتاء، وأمر بزرع أشجار اللوز على جبل قرطبة حتى إذا نور زهره بدت الأشجار وكأنها محملة بقطع الثلج الناصعة البياض.

ومن مشهور أخبارها مع المعتمد القصة المعروفة فى قولها: «ولا يوم الطين»، وذلك أنها رأت الناس يمشون فى الطين فاشتهت المشى فيه فأمر المعتمد فسحقت أشياء من الطيب وذرت فى ساحة القصر حتى عمته ثم نصبت الغرابيل وصب فيها

ماء الورد على أخلاط الطبيب وعجنت بالأيدى حتى عادت كالطين وخاضتها مع جواريها، وغاضبها فى بعض الأيام فأقسمت أنها لم تر منه خيرًا قط فقال لها: «ولا يوم الطين» فاستحيت واعتذرت.

وكان المعتمد متيما باعتماد لا يتردد فى الركوع أمامها واسترضائها، لم يكن يهمه أنها كانت فتاة من الشعب، وأنها ولدت فى أفقر الأحياء بينما ولد هو فى قصر، كذلك كان حال الحاكم الأموى «الحكم الأول» حوالى عام ٨٠٠ م حيث كان أميرًا على الأندلس. فبالرغم من قسوته وجبروته كان أمام جميلات قصره ضعيفًا كالأسير الذليل، كذلك كان فى شرق العالم الإسلامى الخليفة هارون الرشيد وخليفة قرطبة سليمان حفيد عبد الرحمن الأكبر.

إن الشعب العربى شعب شعراء وغزلياته لم تكن رياء ونفاقًا بل حقيقة تعبر عن شعور حقيقى، وإن الضعف أمام الحبيبة لم يكن أقل من الخضوع والتوسل إلى الله وإن صلة الإنسان بحبيبته لم تكن تخالف صلته بخالقه.

إن العربى فى صحرائه التى لا تعرف إلا اللانهائية كان يدرك تفاهته بالنسبة للبيئة التى يعيش فيها وضعف قواه وإرادته، كما يؤمن بأن وجوده يتوقف على إرادة القوى العظيم، لذلك وصف الله بأنه الرحمن الرحيم، وهاتان هما أهم صفاته، ولن يستطيع إنسان بلوغ رحمة الله إلا عن طريق التواضع والاستسلام له، لذلك كان المسلمون الحقيقيون هم «المسلّمين» وعن طريق التواضع يفرق بين المؤمن وغير المؤمن. الإسلام هو الاستسلام لله وإرادته وأن يصير الإنسان عبدًا لله. فهذه الصفات التى يتصف بها الحب الإلهى، انعكست على الشعر العربى الغزلى، وهذه الظاهرة ندركها حتى فى الغزل الجاهلى. ولعل من أقدم وأنبل أنواع الحب والغزل ذلك النوع المعروف باسم الحب العذرى نسبة إلى قبيلة بنى عذرة الذين يموتون عندما يحبون. وهذا النوع قد يشبه الحب الأفلاطونى عند اليونان، وكان لهذا الحب الأفلاطونى فى أوربا الأوقات الخاصة وذلك عندما يجد العرب نوعًا من الحب الذى يتحكم فيه العقل، وقد انتشر على طول حدود العالم الإسلامى حيث انتشر هذا الحب العذرى، فنجد أمثال جميل بثينة يغنى فى الحب أى حب بثينة، حيث

يعتقد أنها له وأنه لها منذ أول الخليقة، وهى فكرة تذكرنا بحب «جوته» للسيدة «فون شتين».

إلا أن المحبين لا يتغلب كل منهما على قبيلته والموقف العدائى لكل قبيلة من الأخرى. لكن حبه يقضى على الزمان والمكان، إنه حب قوى عنيف إلا أنه بالرغم من ذلك قنوع متواضع حيث يتوسل إلى حبيبته التى لا ينالها معتقداً أنها له ولا لشىء أرضى حتى الموت يربطه ويتصل به أو يقضى على هذا الحب.

وهناك نوع آخر من الحب هو ذلك الذى نجده بين الحارث بن عوف شيخ قبيلة مرة وبين بهيسة، وبالرغم من قوة الحارث كان يضعف ويخضع لحبيبته التى كانت فى حين لآخر تريد أن تفرض عليه إرادتها وقوتها.

وحوالى عام ٨٠٠م نجد هذا النوع من الحب العذرى حب جميل نجده عند عباس ابن الأحنف فى قصر هارون الرشيد لإحدى جوارى هارون الرشيد مثلها مثل عباس بن الأحنف ذاته، إلا أنها تتفوق عليه لجمالها وعفتها؛ لذلك قال إذا عبد إنسان كائنًا لجماله فملكتى يجب أن تكون إلهًا. وبالرغم من أنها جارية عادية فإنه كان يقدسها كما لو أنها كائن سماوى رحمته أوقست عليه، وكما أن المسلم عبدالله فهو عبدها المخلص الأمين. وكانت الحبيبة تسيطر على فؤاده، واستسلامه لها هو الذى يرفعه ويسمو به.

أما «أوفيد» العرب فى الغزل فهو على بن حزم (٩٩٤ ـ ١٠٦٤) ولو أنه أصلا من أسرة غوطية غريبة اعتنق الجيل الرابع منها الإسلام، وكان يعيش عيشة عربية وتزوج عربية وتقلد أسمى المناصب فى بلاط قرطبة، ويدعى العرب أنه زور فى نسبه، وأنه يقول إنه انحدر من مولى أعتقه الخلفاء الأمويون فى دمشق. ومثل هذه الأخبار ليست نادرة، لكن النادر حقًا أن دخيلا على العرب تتقمصه الروح العربية والعقلية العربية مثل ابن حزم، هذا الشاعر الغزلى العذرى وإلى جانب ذلك كان فيلسوفًا وصوفيًا، ففى كتابه الشهير حول الحب نظريًا وعمليًا، والمعروف باسم «طوق الحمامة» يعترف بأن الاستسلام للحبيب موقف يعجز الوصف عن تصويره، وتخرس الألسنة عن التعبير عنه كما سبق أن تبينا هذا من عباراته وشعره.

فهذا الحب العذرى نجده أيضًا فى الأندلس وقد عبر عنه ابن حزم بقوله : «ثم هجر يوجبه العتاب لذنب يقع من المحب ، وهذا فيه بعض الشدة لكن فرحة الرجعة وسرور الرضى يعدل ما مضى ، فإن لرضى المحبوب بعد سخطه لذة فى القلب لا تعدلها لذة وموقفًا من الروح لا يفوقه شىء من أسباب الدنيا ، وهل شاهد مشاهد أو رأت عين أو قام فى فكر ألذ وأشهى من مقام قد قام عنه كل رقيب وبعد عنه كل بغيض وغاب عنه كل واش واجتمع فيه محبان قد تصارما لذنب وقع من المحب منهما وطال ذلك قليلا وبدأ بعض الهجر ولم يكن ثم مانع من الإطالة للحديث فابتدأ المحب فى الاعتذار والخضوع والتذلل والأدلة بحجته الواضحة من الإدلال والإذلال والتذمم بما سلف فطورًا يدلى ببراءته وطورًا يرد بالعفو ويستدعى المغفرة ويقر بالذنب ولا ذنب له ، والمحبوب فى كل ذلك ناظر إلى الأرض يسارقه اللحظ الخفى ، وربما أدامه فيه ثم يبسم مخفيًا لتبسمه وذلك علامة الرضى ، ثم ينجلى مجلسهما عن قبول العذر ويقبل القول . وامتحت ذنوب النقل وذهبت آثار السخط ووقع الجواب بنعم وذنبك مغفور ، ولو كان فكيف ولا ذنب وختما أمرهما بالوصل الممكن وسقوط العتاب والإسعاد وتفرقا على هذا . هذا مكان تتقاصر دونه الصفات وتتلكن بتحديده الألسنة . ولقد وطئت بساط الخلفاء وشاهدت محاضر الملوك ، فما رأيت هيبة تعدل هيبة محب لمحبوبه ، ورأيت تمكن المتغلبين على الرؤساء وتحكم الوزراء وانبساط مدبرى الدول ، فما رأيت أشد تبجحًا ولا أعظم سرورًا بما هو فيه من محب أيقن أن قلب محبوبه عنده ووثق بميله إليه وصحة مودته له . وحضرت مقام المعتذرين بين أيدى السلاطين ومواقف المتهمين بعظيم الذنوب مع المتمردين الطاغين فما رأيت أذل من موقف محب هيمان بين يدى محبوب غضبان قد غمره السخط وغلب عليه الجفاء ، ولقد امتحنت الأمرين وكنت فى الحالة الأولى أشد من الحديد وأنفذ من السيف لا أجيب إلى الدنية ولا أساعد على الخضوع ، وفى الثانية أذل من الرداء وألين من القطن أبادر إلى أقصى غايات التذلل لو نفع وأغتنم فرصة الخضوع لو نجع وأتحلل بلسانى فأغمص على دقائق المعانى ببيانى وأفنن القول فنونًا وأتصدى لكل ما يوجب الترضى» .

وأقوى من هذا ويتفق لفظًا وتصويرًا عرض المرأة المثالية التى ترتفع حتى تبلغ

مستوى الآلهة بين «دانتى» وابن عربى (١١٦٥ ـ ١٢٤٠). وليس صدفة أن هذا الصوفى الأندلسى من مرسية الذى كان معاصراً لفريدريش الثانى، والذى عاش مائة عام سبقت الشاعر الإيطالى اللاهوتى، قد اقتبس «دانتى» الشىء الكثير من مؤلفاته فحب «دانتى» «بباتريس» أخذ يتطور فى عقلبته حتى جاء بها إلى الجنة، ومن ثم أخذ ينتقل من مرحلة إلى أخرى، فصوره مأخوذة عن ابن عربى، بل حتى بباتريس لها سابقتها وهى الجميلة «نظام» ابنة ابن رستم فى مكة فقد اتخذها مصدر وحيه الشعرى فى ديوانه، إنها معقد آماله ومصدر تفكيره وإن كل اسم اختاره يشير إليها وكل بيت فى الرثاء لها إلا أنه كان يذكر دائمًا أن الله هو مصدر الوحى والإلهام لأنه يجب على الإنسان أن يؤثر الآجلة على العاجلة، وقد اقحم شراح بن عربى وخصومه فى شعره الصوفى ما قاله فى نظام، ويعبر حقيقة عن حبه العذرى الظاهر كما فعل «دانتى» فيما بعد.

فالرفع من مكانة المرأة العربية والسمو بها إلى مكانة قريبة من الذات الإلهية دليل قوى بالرغم من انتشار نظام الحريم على مكانتها الحرة فى المجتمع. فالنساء الأندلسيات كن يتمتعن بقسط وافر من المساواة وكن يساوين الرجال كما كان لهن حظ وافر من الحرية والعمل فى المجتمعات سواء كن من السيدات أو فتيات عاديات بل حتى الجوارى كن بفضل هذه الحرية التى يتمتعن بها يتساوين مع الرجال فى الحياة العامة. فقد شاركنهم الحياة العقلية فألفن كتبًا علمية كما قلن الشعر وكتبن النثر وألقين الخطب وتفنن فى مختلف فنون الشعر حتى الغزل فعبرن عن حبهن وكن وحالهن هكذا يشبهن تمامًا الجاهليات. وقد جاءتنا أخبار ستين سيدة اشتهرن بقول الشعر، كما وصلنا ديوان كامل لشاعرة من الشاعرات الشهيرات. والتاريخ الأندلسى يعرف أسماء شاعرات عديدات بلغن فى قولهن الشعر صيتًا بعيداً، ومن بينهن هذه الجميلة التى نبغت فى إجادة الشعر والعزف على العود. وكذلك الشاعرة العظيمة حفصة التى اشتهرت بحبها للشاعر أبى جعفر وذاع صيتها وصيت هذا الحب فى جميع أنحاء الأندلس. ثم نجد الأميرة «أمر الكرام» والمغنية التى غنت أمير الأندلس الولهان المسمى المنصور حيث أبانت عن حبها دون خجل لوزيره، ولما أدركت غيرته عليها وغضبه انتقدت نفسها ببيت شعر.

ومن بين شهيرات الشاعرات الأميرة «ولادة» وقد ذكر عنها عربى أنها كانت أول عربية سيدة فى عصرها فقد كانت سافرة تحتقر الحجاب فضلا عن طبيعتها الملتهبة، وكانت هذه خير وسيلة تظهر فيها طبيعتها وطبائعها الظاهرة والخافية، فضلا عن جمال وجهها وحميد أخلاقها وصفاتها، وقد كان بيتها فى قرطبة ملتقى الأشراف الذين كانوا يتنافسون فى إنشاد الشعر، كما قصده العلماء والكتاب واشتهرت بالكرم وحسن الأخلاق وحدة الذهن.

تحت رعاية مثل هذه الأديبة الشاعرة انتشر الشعر العربى الغزلى الأندلسى فتخطى الحدود إلى أوربا، وإلى مثل هذه السيدة وجه الصوفى ابن الفارض غزله وشعره وقصيدته التى مطلعها:

ته دلالاً فأنت أهل لذاكا وتحكم فالحسن قد أعطاكا

إن أوربا لم تعرف فى تاريخها مثل هؤلاء الناس. لم يظهر فى أوربا شاعر عبَّر عن حبه بهذه الطريقة، لم تعرف أوربا محبًا ركع أمام حبيبته وسجد على أعتابها راجيًا رضاها. لم يسلك هذا المسلك أمثال «أنا كريون» أو «ثيوكريت» أو «سافو» أو «أفلاطون»، فهؤلاء لم يعرفوا الخضوع والخشوع أمام هذه الحبيبة التى تتمتع بهذا الحب الإلهى. هذه الحبيبة التى تتوقف الحياة أو الموت عليها. كذلك لم يعرف «أوفيد» بالرغم من أنه كان أستاذ الشعر الغرامى هذا النوع العربى. وكذلك الحال مع الشعراء الجرمان وتقديمهم للمرأة، فقد كان يعتمد على المساواة بين الرجل والمرأة أو احتقار ابنة حواء الخاطئة، فكيف حدث أن ظهر فى جنوب فرنسا أولا الهرزوج فلهلم التاسع هرزوج (إكويتانين وبواتييه) ومعه بغتة جيش من المغنين يغنون أغانى تدل على أنهم العبيد المخلصون والخدم الأوفياء للسيدة، وأنهم بخضوعهم وتواضعهم وطاعتهم يبلغون عطف السيدة ولو أنها فى الحقيقة كائن غير ذى شخصية؟

إن المرأة قد خضعت لقوة الرجل ربما بسبب خطيئتها، والكنيسة تحتقر المرأة لأن احترامها يتعارض والذات الإلهية وبخاصة الزوجة ليست هذه التى لم يصبها العار عار اتصالها برجل بل هى عذراء، فالآن أصبحت وللمرة الأولى تخاطب وتعامل

وكأنها كائن سماوى قريب من الله أو شبيهة به بل كنائبة عن الله بل يصلى لها وكأنها إله فهى تخاطب بعبارة «السيدة المحترمة» «الرحيمة» «العطوف» وهى التى تمنح الرحمة للفارس المتواضع، وحتى الشعر الدينى كان يخاطب «أم الله» على أنها الخادمة المطيعة و«خادمة السيد». بدأت النظرة إليها تتغير فأصبحت تخاطب بعبارة «الحبيبة، السيدة الوقور» وهى التى يجثو تحت قدميها العظماء وبعطفها يرتفع مقدارهم.

فهذه الفكرة أخذت تنتشر مثل الزوبعة أو الإعصار فى المجتمعات الموجودة فى الأقاليم ومنها إلى مختلف أرجاء فرنسا فإيطاليا فصقلية فالنمسا فألمانيا. إن الألفاظ أصبحت كأوراق الشجر تشبه فى عروضها وقافيتها أصولها العربية، وفى أول العهد كانت عادة إخفاء اسم الحبيبة سائدة كما هو الحال عند عباس بن الأحنف، ويعوض عن اسمها باسم آخر مصطنع، وقد يكون اسم ذكر كما نجد كثيراً من مميزات الشعر العربى الغنائى.

لكن يجب أن نذكر هنا أن الشيء الأصيل عند العربى أصبح هنا فى أوربا شيئًا مستحدثًا فعندما يؤكد التروبادور أنه لا يوجد شيء يسعده مثل صيرورته فى قبضتها وتحت سلطانها وأن يصير عبدًا لها، تعتبر مثل هذه التعبيرات عبارة عن ألفاظ شعرية فقط، وذلك لأن مكانه قائلها كفارس أو سيد لا تقل اجتماعيًا عن زوجها فهى عبارة من عبارات الآداب التى تستخدم عادة بين الرجال والنساء فى المجتمعات. أما الخضوع العربى فما هو إلا نصائح كنصائح «أوفيد» وهى عرض خدمات النساء أو إظهار التقدير لهن بخلاف الحال فى أوربا حيث تعتبر هذه المعاملة من مقومات المجتمع بين الرجال والنساء. وقد اهتدى العالم «بورداخ» إلى أن الشعر الغزلى الغنائى الأندلسى هو أصل الأوربى، وهذا الرأى ما زال إلى يومنا قائمًا. ومثل هذا الفن الأدبى العربى يمثل الثروات العقلية الأخرى التى وجدت طريقها إلى أوربا. وموقع الأندلس جغرافيًا وسياسيًا ساعدها على القيام بهذه الرسالة.

المسالك فى أوربا

إن مقدرة ملك قسطيليا وليون على لعبة الشطرنج يعتبرها ابن عمار، صديق المعتمد ووزيره الأول، شيئًا بدهيًا، وذلك بسبب كثرة الاتصالات بين الملوك المسلمين والمسيحيين وجرأة «ألفونس» السادس على اللعب قد اكتسبها من زياراته المتعددة لقصر الكافر «لعنة الله عليه»(!!) إلا أن هزيمته أمام العربى كانت شيئًا طبيعيًا، فالعربى ماهر جدًا فى لعبة الشطرنج العربية وهذا شىء بدهى ومؤكد حتى كان فى استطاعته أن يراهن بمملكة إشبيلية، وقد خسر ألفونس السادس ملك قسطيلية وليون اللعبة، وهكذا أنقذت دولة المعتمد مرة أخرى ليس عن طريق السلاح بل بالعقل، وهكذا ترك ابن عمار خيمة العدو وخلفه خدمه يحملون لوح الشطرنج عائدًا إلى داره منتصرًا.

فقال باحتقار: نصف عربى!

لقد اعتاد الإنسان أن يشاهد عربيًا عند الجيران المسيحيين بعد أن أغلق المسيحيون دورهم فى وجه العرب فى القرن الأول من دخول المسلمين الأندلس، تعصبًا منهم ضد العرب والمسلمين لكن لم يمض زمن طويل حتى تغيرت الأوضاع وتلاشى التعصب المسيحى ضد المسلمين؛ وذلك بسبب المنازعات الداخلية واحتياج كل إلى مساعدة خارجية، وإلى من سيلجأ أحدهم إذا ما فقد عرشه واضطر إلى ترك بلاده؟

ومن يساعد ذلك الذى فقد تاجه فى سبيل استرداده؟ لذلك اضطر المسيحيون فى نهاية الأمر إلى عقد محالفات مع المسلمين. ولا ينسى اليوم الذى نجد فيه السيدة

الشجاعة «توتا فون نافارا» الملكة الأم ومعها ابنها الملك «جارسياس» والملك العظيم الجسم «سنخو فون ليون» الذى فقد عرشه بسبب جسمه السمين جدًا المريض - يقصدون قصر الخليفة، هذا القصر العظيم جدًا والمعروف باسم الصخرة، وألقى هذا الملك بنفسه تحت أقدام عبدالرحمن يرجوه مساعدته عسكريًا وأن يقدم له طبيبًا، وهذا الطبيب يجب أن يكون الوحيد فى فنه وفى قرطبة.

ثم نجد كيف أن «سنخو» قد شفى وأصبح نحيفًا ونجح فى طرد مغتصب عرشه وهو «أوردوجنو» الرابع، وأن الأخير لجأ إلى الحكم الثانى راجيًا مساعدته وقد تزيا بزى عربى حتى إن الإنسان لا يفرق بينه وبين عربى، وجدث أن عبيد الله بن قاسم كبير أساقفة طليطلة والوليد بن خيسران قاضى المسيحيين فى قرطبة قد التقيا من قبل بالملك المخلوع «أوردوجنو» فى دار الضيافة الملكية وعلماء التقاليد العربية الملكية وكلاهما كانا يلبسان لباسًا عربيًا من غطاء الرأس حتى القدمين، وكذلك كان يتسميان بأسماء عربية وكانا يعظان من الإنجيل وفى لغة عربية، إذ إن الإنجيل كان عبارة عن ترجمة عربية قام بها رئيس الأساقفة «يوحنا الأشبيلى»، كما كان أولئك يجيدون الغناء العربى، ولم يجد أحد من المسيحيين فى هذا عيبًا، وبعد مائة عام من ذلك التاريخ نجد أسقف قرطبة المسمى «ألفارو» يشكو من أن كثيرين من أبناء عقيدته يقرأون أشعار وقصص العرب، كما يدرسون كتب رجال الدين المسلمين وكذلك كتب فلاسفتهم ليس لنقدها والرد عليها بل لدراستها وحفظها ولكى يتمكنوا من الحديث فى عربية فصحى. وأين يوجد الآن الشخص الذى يستطيع فهم وقراءة التفاسير اللاتينية للكتاب المقدس من غير رجال الكنيسة؟ من منهم يدرس الأناجيل والأنبياء والرسل؟ آه إن جميع شباب المسيحيين وبخاصة الأذكياء لا يعرفونها بعكس اللغة العربية التى يجيدونها. كما يلتهمون العلوم العربية وينفقون الأموال الطائلة فى سبيل اقتناء هذه الكتب وتكوين المكتبات ويعلنون صراحة عظمة هذه الآداب العربية. لكن إذا ما حدثهم متحدث عن الكتب المسيحية أجابوه فى سخرية واحتقار أن هذه الكتب لا تستحق الالتفات إليها. وا أسفاه لقد نسى المسيحيون كل شىء مسيحى حتى لغتهم، ولا يوجد إنسان واحد بين الآلاف منهم من يستطيع

كتابة خطاب لاتينى بينما نجد العدد العديد منهم يجيد العربية شعراً ونثراً بل أحيانًا يبزون العرب.

فكيف لا يستولى الإعجاب على الإسبانى الذى يشاهد ويدرك مثل هذا الرقى وهذه الثقافة وتلك الحضارة والمدنية التى تشكل حياته تشكيلا جديداً؟ كيف يستطيع الإسبانى التخلص من قوة عدوه وجبروت هذه المكانة الرفيعة التى يتمتع بها عدوه كان لزامًا على الإسبانى أى يكافح جهد حياته للمحافظة على نفسه، فقد أثرت هذه البيئة وتلك الظروف مجتمعة عليه وبدون أن يشعر سواء فى مظهره الخارجى أو شعوره الداخلى. ففى عصور الكفاح بين الشعبين أى بين العرب وخصومهم سيطر الإسلام على كثير من خصائص النفسية الإسبانية وكيفها تكييفًا خاصًا. ومنذ ذلك الحين أخذت الروح الإسبانية تظهر بطبيعتها الجديدة العلمية، تؤمن بحياة جديدة ومذاهب جديدة وبخاصة أنها ظلت نحو ٧٥٠ عامًا وهى فى جو مسيحى إسلامى يتنافر حينًا ويتلاءم حينًا آخر.

ثم نجد «أوروجنو» وقد شاهد فى القصر الأموى ما أبهره وأذهله يعود ثانية إلى بلده ويقرر أنه شخصيًا قد وضع نفسه فى خدمة أمير المؤمنين، ثم نجد القلاع والمدن تستبدل سيداً بسيد وحاكمًا بحاكم وثقافة بثقافة، كما نجد جيوشًا مسيحية تحارب إلى جانب المسلمين ويكسبون معركة عام ١٠١٠م لصالح الخليفة، كما قتل ثلاثة أساقفة فى سبيل أمير المؤمنين. وأيام المنصور وهو من أقوى الحكام الذين عرفتهم الأندلس يقبل عدد كبير من الفرسان المسيحيين من جانب جبال البرنات وينضمون تحت ألويته، كما نجد بعض أبناء ملوك إسبانيا الذين كانوا رهائن يبدون دهشتهم من الموسيقى التى يسمعونها والرقص الذى يرونه وأغانى مغنى المنصور كما أعجبوا أيضًا بالحياة العربية فى قصور الخلفاء والأمراء، كما نجد أبناء الأمراء يأتون بعاداتهم ومعلوماتهم وأغانيهم وأشعارهم إلى القلاع القائمة فى شمال إسبانيا. ومنذ زمن قصير كان ابن عمار ضيفًا على الجراف «ريموندير ينجار» الثانى حيث كانت النقود المستعملة هناك نقوداً عربية الرسم والتقليد، كما أكدت زيارته الحلف الهجومى ضد أمير «مرسية»، حيث قدم الجراف حفيده رهينة وحصل هو على رشيد الصغير ابن المعتمد.

ثم نجد الملك ألفونس السادس الذى كان يلاعب ابن عمار الشطرنج يحيا حياة عربية ؛ لأنه فقد بلاده وعرشه على يد أخيه الطموح ولجأ ألفونس هذا إلى العرب فآووه، فأثر هذا فى الملك الشاب تأثيرًا بليغًا. فنجد يحيى مأمون ملك طليطلة يضم إليه هذا الفتى سنوات عديدة ويعامله كما لو كان ابنه الخاص كرمًا وحسن معاملة وعطفًا ومنحه قصرًا وعين له حاشية ورصيدًا وجميع ما يكفل له حياة سعيدة مستقرة لذيذة، وعندما تمكن ملك قسطيلية بعد حرب دامت خمس سنوات من الاستيلاء على طليطلة افتخر بهذا الفتح وأطلق على نفسه حاكم أتباع الديانتين، وكان يستولى أيضًا على أشبيلية وقد بلغ به إعجابه بما حصل عليه أن تزوج بعربية وعاد بها إلى بلده، وقد حقق أمنيته عندما زوجه أكبر حكام الأندلس (المعتمد) الذى ينتمى إلى قبيلة عربية عريقة كبرى بناته البالغة من العمر عشرين عامًا واسمها «سيدة» ويعتقد الأسبان أنها كانت على جانب عظيم من الرقة والرشاقة. هكذا تصورها الملك الذى كان فى تلك اللحظة قد توفيت زوجته وهذه الرشيقة الرفيعة ما هى إلا ابنة «رميكة» التى أصبحت الملكة الصغيرة الجديدة، وقد جاءت ومعها كثير من معالم الحياة العربية الراقية فى ذلك الوقت وقدمتها للقصر الملكى فى قسطيلية. و«سيدة» هى العربية الوحيدة بين زوجاته الست الشرقيات اللواتى قدمهن له رئيس دير «كلونى»، كما قدم له زوجاته غير الشرعيات. وقد ولدت «سيدة» للملك ألفونس السادس ملك قسطيلية وليًا للعهد. لكن «سنخو» الصغير الذى كان موضع فخر والده خر قتيلا وهو لم يبلغ الحادية عشرة فى معركة حارب فيها ببطولة لا تتناسب وسنه، وكانت هذه المعركة ضد البربر الذين كانوا أيضًا أعداء جده. أما بناته فقد زوجهن ألفونس بناء على توجيه رئيس الدير المسمى هوجو الأكبر رئيس دير «كلونى» إلى أمراء بوورجنديين وفرنسيين. كما أن ابنته «ألفيرا» كانت أول زوجة للملك روجير الثانى ملك صقلية. وهكذا نجد العلاقة الودية القلبية واتباع سياسة الزواج، تعتبر القنطرة التى تعبر عليها الثقافة والحضارة.

والزواج بين فرسان شمال إسبانيا والأندلس أو حتى بين طبقات الشعب كان شيئًا عاديًا مألوفًا، فقد اقترن شاعر أسبانى بمغنية عربية وتوجه معها حيث أقاما فى وطنها غرناطة واعتنق الإسلام، كما وقع كذلك فى حب أختها التى تزوجها أيضًا.

وبعد ثلاثة عشر عامًا عاد إلى قسطيلية ومعه زوجتاه وعدد من الأطفال الذين يتكلمون العربية؛ هذا إلى جانب الشعر والغناء والأدب الأندلسى، وشرع يدخل الأغانى العزلية والدينية وغيرها إلى قسطيلية وأدبها. وهناك عدد كبير من الطرق التى تسربت منها الآداب والعلوم والثقافة الأندلسية إلى شمال إسبانيا حيث عبرت البرنات فنحن نجد عربًا يستخدمهم ملوك مسيحيون فى تربية أبنائهم كما هو الحال مع ملك «أرجون»، وقد استعان بهم المسيحيون كأطباء وكتَّاب فى القصور الملكية، كما نجد موظفين عربًا فى برشلونة وبورجوس ولشبونة حيث يقومون بدور إدخال واستخدام التقاليد والعادات العربية الملكية. وبعد أن تم فتح الأندلس على يد المرابطين من البربر والموحدين الذين وفدوا من إفريقيا هاجر عدد كبير من المسيحيين المستعربين الذين اشتهروا باسم «موتزاراير» بالآلاف من الأندلس إلى قسطيلية و«أرجون» حيث كان ينظر إليهم القوم كمثل أعلى للحضارة والرقى والمدنية، وأخذوا يقلدونهم كما قلدوا المسلمين الذين كانوا قد وقعوا فى الأسر أو المسيحيين الذين سبق أن أسرهم المسلمون. لكن إسبانيا المسيحية لم تتجه إلى الجنوب أيضًا بل نجد كثيرًا من الطرق والوسائل سواء كانت دينية أو سياسية أو تجارية أو روابط النسب والقرابة تربط بين أولئك الأسبان وبين الدول الأوربية الشمالية المتاخمة لهم. فجبال البرنات ليست حدودًا فاصلة كما أنها لا تساعد على التبادل بين إسبانيا العربية وأوربا.

وعندما هاجم ألفونس السادس عام ١٠٨٥ طليطلة اشترك عدد كبير من الفرسان الألمان والإيطاليين والفرنسين فى هذا الحصار كما قاموا بكثير من أعمال السلب والنهب والتخريب لثانية المدن العربية وعادوا إلى أوطانهم ومعهم هذه الذكريات. وأول أسقف لطليطلة كان قد عينه رئيس دير «كلونى» وكان رؤساء كاتدرائية ورهبانه من الفرنسيين. كما نجد الأسقف «ريموند» يؤسس مدرسة للترجمة تحتوى على مجموعة عظيمة جدًا من ثمار العقلية العربية سواء فى العلوم أو الآداب، وقد ظلت هذه المدرسة مركز الثقل عدة قرون حيث كان يقصدها الطلاب والعلماء من مختلف البلاد الأوربية. وفى عام ١١٤٧ سقطت لشبونة، وكان المحاصرون من الإنجليز والألمان والفرنسيين، وإلى الألمان يرجع الفضل فى

إحراز النصر. وتقلد إنجليزى من «هستينجز» أول وظيفة كأسقف للشبونة. أما المدينة فقد أصبحت من نصيب الملك «ألفونسو أنريكو» لكن الأسلاب الكثيرة سلمت إلى الأجانب حسب اتفاق تم مع المسلمين. كذلك نعلم أنه أعتق الفرنسيين والألمان والبورجنديين والصقالبة الذين كانوا مستعبدين فى الأندلس، وكثرت الأقاويل حولهم حول أقاربهم الذين كانوا يزورونهم رغبة فى التحصيل والعلم فى قرطبة وسرجوسة والماريا. فقد نقل هؤلاء كثيراً من ضروب الثقافة والحضارة العربية عبر جبال البرنات كما نقلها تجار من ليون وكونستنس وجنوه ونورنبرج، فقد كان هؤلاء التجار يقصدون سنويًا الأسواق التجارية الأندلسية. كذلك انتقلت هذه الحضارة الأندلسية إلى أوربا عن طريق ملايين الحجاج المسيحيين الذين كانوا يفدون من جنوب إسبانيا ومن جميع الجهات الأوربية مارين بفرنسا حيث الطريق المعروف باسم «فيافرنسينيا» فى بلاد يعقوب إلى سنتياجو ده كومبوستيلا، وكان أولئك الحجاج كثيراً ما يقصدهم التجار من مختلف الجنسيات ويقيمون محطات تجارية على طول الطريق الذى يسير فيه الحجاج. ومن أشهر الجماعات التجارية جماعة من البسك والبريتونين والألمان والإنجليز والبورجنديين والنورمان والبروفنسال واللومبارديين، وآخرين من طولوز، كما نجد تجاراً آخرين كثيرين من مختلف الأجناس ويرطنون مختلف اللغات. وقد وصلتنا وثيقة عثر عليها فى دير. ثم نجد عدداً كبيراً من الرهبان والقسس والفرسان والتجار الذين كانوا يفدون بدون انقطاع من فرنسا وبورجوند حيث يغمرون شبه جزيرة إيبيريا، وكما يقول المثل إذا اختصم اثنان فرح الثالث لأنه هو الذى سيكسب.

ومن رسل نقل الحضارة الأندلسية إلى أوربا أيضًا اليهود كتجار وأطباء وعلماء فى العلوم العربية، فقد نقلوها بمختلف أنواعها وفروعها إلى أوربا، كما ساهموا فى أعمال الترجمة فى طليطلة. وكذلك عن هذا الطريق وصلت أوربا قصص عربية كثيرة ودخلت، بعد أن ارتدت رداءً جديداً، فى القصص الأوربى والأساطير والأشعار.

أما الدور الهام فى نقل فن الغناء العربى إلى القصور الملكية المسيحية فقد قام به

الجوارى اللواتى كانت تحرص القصور الملكية المسيحية على الاحتفاظ بهن للموسيقى والغناء والرقص والسمر. وليس فقط فى القصور الملكية بل فى قصر «جراف» فى «بورجوس» حيث يذكر رحالة من «بويمن» ما ملخصه أن سيدات جميلات كنّ يتحلين كما تتحلى المسلمات وكن فى الطعام والشراب يتبعن عادات وتقاليد إسلامية وهن يرقصن رقصًا جميلا حسب الطريقة الإسلامية. هكذا دوَّن كاتب سر البارون فون روتزميتال فى مذكرة سيده وجميعهن سمر البشرة سود العيون، وكن يأكلن ويشربن قليلا وكن يجبن سيدى فى أدب جم وكن مع الألمان على جانب عظيم من التقدير. والمغنيات العربيات يتمتعن بتقدير وحب عظيمين حتى إنهن عند فتح البلاد كن يجلبن بكثرة.

وهكذا حدث أيضًا عام ١٠٦٤، فقد ظهر فى جنوب جبال البرنات رسول البابا الإسكندر الثانى والقائد الأعلى للجيش الرومانى، وهو يتكون من جنود نورمانيين وفرنسيين وبورجنديين. لقد ظهروا مباشرة أمام «بارباسترو» المدينة العربية الحصينة وبعد مقاومة فاشلة استسلم المدافعون بعد تأمينهم على ترك الحصن لكن لم يكد الجنود العرب يتركون أبواب الحصن حتى قتلهم الأعداء جنديًا جنديًا، ولما حاول المدنيون العرب حسب الوعد الذى وعده العدو للجنود ترك المدينة، انقض عليهم العدو ذبحًا وقتلا حتى أفناهم جميعهم، وكان عددهم يتجاوز ستة آلاف شخص صعدت دماؤهم إلى خالقهم تشكو غدر العدو. أما النساء فقد سبين واقتسمهن العدو المسيحى وكان عددهن كبيرًا جدًا. أما مندوب البابا فقد أخذ معه إلى إيطاليا وروما أكثر من ألف سبية عربية. وفى عام ١٠٦٤ نجد الدعاية الثقافية تبلغ أوجها ذلك لأن ألف سبية أخرى من العذارى العربيات والسيدات قد نقلن إلى نورمانديا وإلى بروفينس وإلى أكوبتانيا. وكان أحد المنتصرين عاد تصحبه الموسيقى والأغانى والسبايا اللواتى سباهن فى حربه الصليبية إلى «بارباسترو». كان هذا المنتصر الذى عاد إلى قصره هو الهرزوج فلهلم الثامن من أكويتانيا وهو جراف بواتييه، وهذا النبيل الفرنسى كانت له علاوة على هذا أسرة تسترعى الالتفات فعن طريق ابنته «إينيتس» أصبح حما الملك ألفونس السادس ملك قسطيلية الذى كان نصف عربى وكان كما نعلم بعد وفاة «إينيتس» قد تزوج «سيدة» ابنة أكبر شاعر أندلسى وشاعر

غزلى، وقد نشأت وترعرت فى قصر أبيها الملكى. أما الابن فقد أصبح منذ عام ١٠٧١ خلف الهرزوج فلهلم الثامن، وعلاوة على ذلك صهر ألفونس وسيدة وأخيراً فهو زوج أميرة من أرجون، وهذا الصهر هو فى الواقع فلهلم التاسع أول شاعر تروبادور مشهور.

أما كلمة «تروبادور» كما يرى العلماء اليوم فهى الكلمة العربية «طرب» ومنها اشتق اسم الرجل وهو ينشد أغانيه فى عروض عربى وقافية عربية هى عروض وقافية الأغانى العربية، كما كان يغنيها وينشدها المغنى العربى الشهير ابن قزمان الذى توفى عام ١٠٦٠م، وقد أصبح بعد أن كان شاعر القصر فى «بادايوز» مغنيًا متنقلا فى الشوارع ومعه قرد إلا أن أزجاله فى اللغة الدارجة ترجع إلى الأندلسية القديمة. وقد أصبحت فنًا من فنون الشعر وانتشرت داخل البلاد وخارجها وأضحت فنًا جديداً محبباً إلى الناس فى قسطيلية حيث أثرت أثرًا بعيداً فى فنونها الشعرية، فنشأ الفن المعروف باسم «فيلنشيشو Vimllancico». وفى عام ١٠٦٤ أحضر الهرزوج والعجوز مئات الفاطمات والعائشات والحبيبات من «بارباسترو» إلى «بواتييه» وكان ذلك فى الوقت الذى أصبح فيه الابن كما يصوره مؤرخ عاصره «من أكبر رجال القصور فى العالم ومن أعظم الذين يجرون وراء النساء فهو فارس يجيد القتال والغزل». فإذا اهتدى باحث فى غزلياته إلى بيت فى اللهجة الإسبانية العربية أدرك مدى الأثر الذى تركته الثقافة العربية هناك.

وفى غرب أوربا سواء فى «أكويتانيا» أو «بروفينس» أو «بنجويدوك» كانت الأرض خصبة حقًا لنمو الحضارة العربية وازدهارها، فقد انتشرت هناك وأينعت لمدة جيلين وثلاثة وأربعة طيلة امتداد الفتوحات الإسلامية فى «أكويتانيا» و«بروفينس» بما فى ذلك إقليم الريفيرا، وهذه الثقافة العربية لم تنحسر عن تلك الأقاليم دون أن تترك أثرًا. وأخيراً نجد اتجاهًا يقول إن لقيطًا وجد على باب دير «أوريلاك» وأصبح عام ٩٩٩ بابا فى روما كان ابنًا عربيًا. وكيفما كان الحال فإن الفترة الممتدة من ٨٩٠ حتى ٩٧٥ كانت تعيش فى «بروفينس» وغرب الألب مستعمرات مسلمة، وكثيراً ما كانت تنضم إليها أسرات جديدة قادمة من إسبانيا

وإفريقيا. وكما تزوج «فلهلم فون أكويتانيا» تزوج القيصر فريدريش الثانى، فزواج الأول كان أميرة من «أرجون»، كما أن «كونستنزا» الشقراء جاءت معها وصيفات إسبانيات وتروبادور وخمسمائة فارس. وكان هؤلاء الفرسان تحت قيادة أخيها «ألفونس فون بروفينس»، وذلك عند زواجها بفريدريش الثانى. ففى ذلك الوقت كانت تتدفق الحضارة والثقافة العربية من إسبانيا والبروفينس على صقلية حيث كانت توجد أيضًا هذه الثقافة العربية. وهنا فى صقلية ندرك ظاهرة جديدة إذ بينما نجد الحب العذرى فى بروفينس وجنوب فرنسا عبارة عن تقاليد وعادات اجتماعية، وفيه نجد المرأة النبيلة هى التى يخضع أمامها ويركع النبيل المحب الولهان، إذ بنا فى صقلية السيدة التى يركع أمامها المحب هى تلك التى تعتقد أنها أهل لذلك. والقيصر نفسه وأبناؤه كانوا يحبون ومعهم جماعة من الشعراء يؤلفون الغزليات ويتفننون فى الغناء، وكما كان الحال فى بروفينس وألمانيا أخذوا هنا فى صقلية يعنون بقول الشعر فى اللهجة المحلية وهذه بدورها أصبحت الخلية للشعر الإيطالى القديم، وفى وقت قصير قال بترارك»: «لقد أصبح فن قول الشعر كما ولد من جديد فى صقلية فهو ينتشر تدريجيًا لا فى إيطاليا فقط بل خارجها أيضًا»: وقال «دانتى»: «لذلك أصبح كل شىء ألفه أجدادنا فى اللغة المحلية يدعى صقليًا».

ففى أشعار هاتين العبقريتين الإيطاليتين «بترارك» و«دانتى» نجد حقائق هامة جدًا وهى الاتفاق التام مع أشعار العرب، وهذا الاتفاق وقع عند بترارك تلقائيًا دون تعمد ويرجح فى«بولونيا» والأوساط الشعرية التى كانت ملتفة حول الملك الأسير «أنزيو» بن فريدريش الثانى الذى هو من أم ألمانية. وإذا كان الأثر العربى تلقائيًا عند «بترارك» فعند «دانتى» جاء عن طريق اهتمامه واطلاعه على الشعر العربى والقصص الإسلامى والصوفية الأندلسية وفلسفة ابن رشد، وبينما نجد هذا الأثر أيضًا عند «بترارك»، وبخاصة فى الشعر الغزلى العربى القديم، نجد الوسائل التى أعانت «دانتى» على التأثر بالثقافة العربية كثيرة جدًا منها القرآن الكريم ومؤلفات ابن عربى.

وفى الوقت نفسه نجد تياراً قويًا يأتى من جنوب فرنسا إلى قلب أوربا إلى ألمانيا ويؤثر تأثيراً قويًا فى أولئك الذين يؤمنون بالحياة الثانية، وأولئك الذين يفضلونها على الحياة الدنيا، وبذلك كانت هذه التعاليم مصدر بعث عصر جديد. وهكذا نجد فجر عهد جديد يبزغ ويدعو إلى المثالية الخلقية واستتبع هذا ظهور شعر جديد عظيم موضوعه الحب النبيل حب الفروسية. إن هذه الفكرة فكرة ثورية، ويكاد الإنسان لا يصدقها فى هذا الزمن إذ إن المرأة بالنسبة لأنوثتها مصدر خطيئة وتغرى بارتكابها وعصيان الله.

والآن نجد المرأة المضطهدة عقليًا وجسمانيًا تخرج من هذا الوضع الدنىء التعس حيث كان ينظر إليها على أنها وسيلة الشيطان للتنكيل بالرجل وإبعاده عن السير فى الطريق المستقيم، فالمرأة أصبحت الآن ينظر إليها على أنها سيدة رفيعة يركع أمامها الرجال راجين رضاءها.

وهذه الظاهرة الجديدة قد ازدهرت وانتشرت، وإن تكن قد اختفت فإن بذورها ما زالت موجودة، وهكذا أصبحنا نجد بين عصر وآخر عصوراً مظلمة يقوى فيها خصوم المرأة أولئك الرجال المغرورون الذين يعتقدون أن حواء هى مصدر سقوط الرجل فى الخطيئة، كما نجد عصراً تقدس فيه المرأة، وهذا العصر متأثر ولا شك بالعرب ونظرتهم إلى المرأة، وقد تأثر بهذا الشعور الجرمان.

وفى ٢ يناير ١٤٩٢ رفع الكاردينال «د. بيدرو جوانزاليس ده مندوزا» الصليب على الحمراء، وهى القلعة الملكية للأسرة النصرية، وكان ذلك إعلانًا بانتهاء حكم العرب على أسبانيا.

فهنا فى غرناطة كانت قد انتهت العروبة فى الأندلس إذ كانت قد شاخت وبلغت نهايتها، فقد قضى على قرطبة وبلنسية وأشبيلية والأقاليم الأخرى التى منيت بالهزيمة. وبضياع سيادة العرب وحكمهم انتهت هذه الحضارة العظيمة التى بسطت سلطانها على القارة الأوروبية طيلة العصور الوسطى، كما انتهت كذلك المدنية والحضارة التى ظهرت عظمتها ومكانتها فى الإدارة والتنظيم ورفع مستوى حياة

الشعب، إلى جانب الثراء الذى بلغته المدن ووفرة إنتاجها وتنوع صناعاتها وإصلاح أراضيها وإعدادها للزراعة، فازدادت المحاصيل وعم الرخاء وتنوعت الفنون وازدهرت الآداب وكثر قادة الفكر.

وقد احترمت لحد ما المسيحية المنتصرة للاتفاقيات التى تمت بينها وبين المسلمين وظل هذا الاحترام قائمًا مدة ثمانى سنوات، وذلك بفضل كبير الأساقفة «تالافيرا» وتسامحه وإعجابه بالعرب وعظيم تقديره لهم، وقد أثر عنه أنه كان يقول: تنقص العرب عقيدة الأسبان، وتنقص الأسبان الأعمال الطبية التى يتصف بها العرب، وهذه الأعمال تنقص الأسبان لتجعل منهم مسيحيين حقيقيين، وقد وقع فى ذلك الوقت ما أكد رأى كبير الأساقفة وأيده، ففى عهد خلفه كبير الأساقفة «يوان كيمينيس» وقعت أحداث قضت على المسلمين وبقايا ثقافتهم وحضارتهم، وتعرضوا لاضطهادات شنيعة، فقد حرم عليهم الإسلام وتعاليمه وأوامره كما حرم عليهم استخدام لغتهم العربية، وحتى نطق كلمة عربية أو أغنية عربية أو شعر عربى. كما حرموا عليهم أيضًا حتى العزف على الآلات الموسيقية العربية واستخدام الأسماء العربية وارتداء لباسهم القومى وزيارة الحمامات، وفرضت المسيحية على من يخالف هذا من المسلمين أشد العقوبات من سجن وطرد وحرق، والمسلم على قيد الحياة.

أما الذى تبقى من كنوز العرب وآثارهم بعد أعمال السلب والنهب والتخريب التى قام بها المسيحيون أو البربر - أما ما تبقى من كتب أدبية وعلمية فقد جمعه رجال الكنيسة من دور الكتب وقدموه طعامًا للنيران، اللهم إلا بعض المؤلفات الطبية فقد استثنيت من الحرق، وهكذا انتصر كبير الأساقفة وأنصاره وأنقذوا هذه الكتب، بينما أحرقت كتب يتجاوز عددها المليون والخمسة آلاف كتاب، وهى ثمار حضارة وثقافة عاشت ثمانية قرون.

هذه هى آخر قصيدة قيلت وأنشدها شعب يحب الشعر، هذه آخر قصيدة قيلت على أرض إسبانيا وهذه القصيدة أرفقت بالخطاب الذى أرسل إلى الإخوة فى

شمال إفريقيا طلبًا للعون والمساعدة، وهى للعلامة خاتمة أدباء الأندلس أبى صالح بن شريف الرندى ومطلعها:

لكل شىء إذا ما تم نقصان فلا يغر بطيب العيش إنسان

وهكذا نجد إسبانيا التى كانت أينع وأرقى بلاد العالم تخلو من سكانها العرب وتصبح صحراء جرداء، وبذلك تم النصر على العروبة، وذلك عن طريق مختلف أنواع العذاب والاضطهاد من حرق وقتل وتعذيب.

الخاتمــــة

تقوست ظهورهم على صهوات الجياد حتى قاربت جباههم أعراف الخيول، وقد لوحت الشمس وجوههم وبأيديهم السيوف مسلولة يكرون على البلاد التى هجرها أهلها. وتحت سيقان خيولهم تقوست الأرض ألمًا ووجعًا. أما الحقول فقد تخربت والبيوت تهدمت، والأعشاب أحرقتها بصقة أبناء الصحراء.

هذه الصورة هى التى تصورها الكتب المدرسية فى ألمانيا إذا لم ينجح كارل مارتل فى إيقاف الزحف العربى الذى ترتب عليه إنقاذ أوربا المسيحية. ويتصل بهذه العبارة أيضًا ما يقال من أن العرب هم الوسيلة إلى إهداء الأوربيين التراث اليونانى. لكن هل حقيقة أن كارل فى حربه هذه كان يعتقد أنه منقذ أوربا؟ حقًا إنه تملكته الخديعة عندما علم فى الصباح بعد معركة غير فاصلة أن العدو انسحب حتى جنح الظلام. إن كارل ليس المنتصر على العرب بل هو الذى سخر السكسونيين والفريزيين والألمان، ولذلك لقبه معاصروه بأنه البطل صاحب المطرقة كما أن معاركه التى خاضها ضد العرب بعد ذلك عند «بواتييه» و«أفينيون» و«نيميس» و«مارسيليا» و«ناربون» التى حاصرها دون جدوى، كل هذه المعارك ميزته وفضلته على جميع الذين جاءوا بعده، وعندما أراد القيصر «لودفيج القديس» تمجيد أعمال أسلافه اعتبر إخضاع الفريزيين عملا من أهم أعمال جده؛ لذلك رسمه على جدران «فلس» و«أنجيلهم». كذلك الكنيسة لم تر فى «بواتييه» منقذًا للمسيحية بل لعنته وقالت عنه إنه لص الكنائس، فقد سرق ممتلكات الكنائس والأديرة وكوَّن من أملاكها وأموالها جيشًا كما منح أراضيها لفرسانه؛ لذلك فإن قبره خال وكأنه قطعة فحم، لأن الشيطان نقل جثمانه إلى جهنم!

وربما لا نبالغ فى تصوير ما وقع عند «بواتييه». إن مؤرخًا بلجيكيًا يقرر أنه لم

يكن هناك فيما يرجح أكثر من الحيلولة دون القيام ببعض أعمال التخريب والتدمير. فهل عام ٧٣٢م كان حقًا هو الفيصل بين سيادة المسيحية أو الإسلام أو مسيحية طليقة حرة بعيدة عن سيطرة روما أو مسيحية مرتبطة بروما؟ فى عام ٧٣٢م كان كل شيء مائعًا غير مستقر. فى هذا العام الفيصل أعنى عام ٧٣٢م أرسل جريجور الثالث وهو سورى إلى كبير الأساقفة أمرًا لإخضاع سكان «هيسين» و«تورينجين» إلى روما. بينما فى عام ٧٣٨م تقدم كارل مارتل من جديد ضد العرب، كذلك أخضع كبير الأساقفة أيضًا رجال الدين فى بافاريا إلى الكرسى البابوى، كما أدخل نظام الكنيسة الرومانى إلى ألمانيا.

وماذا تكون النتيجة لو أن هذه الحادثة انتهت بنتيجة أخرى؟ حقًا إن أوربا كانت لابد أن تصبح أوربا أخرى ولا يستطيع إنسان أن يتكهن ويقول غير هذا. هل كانت ستصبح أردأ أم أحسن، أوربا بربرية أو إنسانية، أوربا أتعس أم أسعد. إن ترجيح رأى على آخر غير مجد وليس هذا موضوع كتابة التاريخ أو هدف هذا الكتاب.

وبالرغم من هذا فإن المورخين كثيرًا ما حاولوا معالجة هذا الموضوع والإجابة عليه، وقد أجابوا إجابة تكاد تكون حقيقة لا شك فيها ولا ترجيح، لذلك فهى من هذه الناحية تضطرنا إلى النظر إليها من زاوية جديدة. لا يوجد كتاب تاريخ لا يحاول مؤلفه إلا أن يذكر أن انتصار كارل مارتل أنقذ المسيحية أو بتعبير آخر أنقذ أوربا أو المدنية الأوربية، وحافظ عليها من الضياع. أما المثل الذى تقدمه إسبانيا لنا فيشير إلا أن البلاد الواقعة على هذا الجانب من البرنات ظلت محتفظة - إلى جانب الدين الوحيد الحقيقى - بعقائدها، وقد ظلت هذه العقائد المسيحية قائمة طيلة أيام الحكم العربى، أعنى ثمانية قرون، وأن أحدًا من المسلمين الحاكمين لم يفكر فى القضاء على المسيحية أو محاربتها. كما أن مثل أسبانيا يدلنا أيضًا أن بلدًا فقيرًا معدمًا مستعبدًا أصبح فى غضون مائتى عام تحت حكم العرب بلدًا غنيًا ارتفع فيه مستوى مختلف طبقاته، كما انتشر التعليم وازدهرت الثقافة بين سائر طبقات شعبه، وبفضل هذه الثقافة الرفيعة وتلك الحضارة المزدهرة أصبحت إسبانيا علميًا وفنيًا أرقى من سائر الدول الأوربية. فقد أصبحت مثلا يحتذى ونبعًا يقصده طلاب

العلم من كل فج، وظلت إسبانيا حاملة لواء العلم والمعرفة زهاء خمسمائة عام حتى قضى عليها بسبب الضربات التى وجهت إليها من الخارج.

نعم إن التاريخ لا يعرف «لو» أو «إذا» إنما يعرف الحقيقة والواقع. وفى أوربا أو على أطرافها حيث عاش الإسلام، ترك هذا الإسلام أحسن الآثار وأجلها. لقد خلق الإسلام وضعًا سياسيًا عالميًا جديدًا، فقد حطم حوض البحر الأبيض المتوسط، وبذلك خلق أوربا خلقًا جديدًا ونقل مركز الثقل السياسى من البحر الأبيض المتوسط إلى جرمانيا وأصبح الرين وحوضه، وليس جنوب أوربا، مركزًا أو نقطة ارتكاز السياسة العالمية.

وتكوين جيوش الفرسان واستخدام نظام التمليك هما الإجابة الجرمانية على التحدى العربى. ثم أوجدت ألمانيا نظام الفرسان «الفتوة» الدينى وكان يقابل نظام الرباط عند المسلمين، والحملات الصليبية والفيكينج ضد فلسطين مشبعة بالفكرة الإسلامية «الجهاد».

لكن انتصار الإسلام وزحفه المقدس ومكانته الرفيعة التى تمتع بها، هدد الكنيسة وهدد رغبتها فى سيادة العالم. والإسلام هو الذى أنقذ الكنيسة من الضياع. لقد اضطر الإسلام الكنيسة المسيحية إلى العناية بالعلوم الدينية والأخلاقية وكل ما من شأنه تقويتها وشد أزرها ضد خصومها. أما المقاطعة العلمية والاقتصادية التى فرضتها أوربا ضد العالم الإسلامى، فقد عادت بأوخم العواقب على أوربا نفسها وتركت أثرًا سيئًا جدًا على الأوربيين لعدة قرون، وفى اللحظة التى قامت فيها العلاقات واستؤنفت بين الشرق والغرب أخذت تنتعش أوربا التى لم تكد تنهل من ينابيع العلوم العربية ومن فنون العرب وعلومهم ووسائل العناية الصحية والإدارية حتى استيقظ الوعى الأوربى بعد أن ظل جامدًا قرونًا عديدة، وأخذت أوربا تنهض وترتقى نهضة غير منتظرة سواء فى دروب الحياة أو الفنون وغيرها وانتعشت انتعاشًا جميلا.

والواقع أن التعصب الدينى وعدم التسامح كانا دائمًا من أعدى أعداء الشعوب

فالعزلة عدو الحياة والنمو والتطور، ثم إن تبادل الثقافة بين الشرق والغرب إلى جانب الاحترام المتبادل إلى التعاون والتصافى أدى جميع هذا إلى تفتق العبقريات، وإذا تغاضينا عن بعض حالات التشاحن والبغضاء التى وقعت بين العرب والأوربيين أحيانًا، فإن تعاون الشرق والغرب سيكون خيرًا وبركة للعالم أجمع .

تعليقات المترجم

قرتمن

١ ـ شغل هذا اللفظ منذ القدم البيطريين العرب، فعرض له ابن البيطار فذكر موطنه ورأى المتقدمين من عرب ويونان، ثم وصفه وصفًا يكاد يكون صورة توضحه دون لبس. فهذا النبات يعرف بمالقة ببلاد الأندلس باسم «قرن الأيل» ويقول ديسقوريديس إنه نبات لاحق بالصنف من الشجر المسمى «بهنش» وهو نبات طوله نحو ذراع ينبت فيما بين الصخور فى سواحل البحر وورقه حسن الاجتماع غير متفرق وفيه لزوجة ولونه إلى البياض وهو شبيه بورق البقلة الحمقاء إلا أنه أكبر منه وأطول وأعرض وطعمه إلى الملوحة وله زهر أبيض وحمل شبيه ببزر النبات المسمى (لينا بوطس) وهو رخو طيب الرائحة مستدير، إذا جف يقلع ويظهر فى جوفه بزر شبيه بحب الحنطة أحمر وأبيض وله فى أصله ثلاثة عروق أو أربعة أغلظها مثل غلظ أصبع طيب الرائحة والطعم. . » ابن البيطار مادة قرتمن.

وعرض لهذا اللفظ مجمع اللغة العربية فذكر فى ص ٤٦٠ من مصطلحاته «حب الهال وعند العامة حبهان».

قرنفل

نبات يستخرج منه الزيت المعروف باسمه ويستخدم فى العطور وغيرها وقد عرفته العربية منذ الجاهلية فذكره أمرؤ القيس فى معلقته إذ قال:

إذا قامتا تضوع المسك منهما نسيم الصبا جاءت بربا القرنفل

والجدير بالذكر أن ابن سيده جـ ١١ ص ١٩٦ قد عرض لهذا اللفظ فى صيغه الأخرى، فذكر «أبو حنيفة» ويقال طيب مقرفل ومقرنف لم يستدل سيبويه على زيادة النون فى قرنفل «بمقرفل» الذى ذكره، إنما استدل على زيادة النون فيها بأنه ليس فى الكلام مثل سفرجل فيكون هذا ملحقًا به.

ونجد هذا اللفظ فى اليونانية «كروفلون» وفى سائر اللغات الأوربية، ففى الألمانية القديمة «جروفيل jeroffel»، والفرنسية «جيرفيل girofle»، والإيطالية «جاروفولو garofolo» و«كاريوفيلو cariofille» وغيرها.

جوز الطيب

ذكره ابن البيطار فى مادة «جوزبوا» فقال: «وهو جوز الطيب». «ابن سينا» هو جوز فى قدر العفص سهل الكسر رقيق القشر طيب الرائحة.. يؤتى به من بلاد الهند.

وقد أطلقت عليه اللغات الأوربية لفظًا عربيًا آخر لشبهة فى النكهة، فهو فى الألمانية مسكات musqat والإنجليزية amusk، فسائر اللغات الأوربية من المادة العربية «مسك».

برسيفال

بطل قصصى من أبطال العصور الوسطى فى أوربا.

قهــوة

٢ ـ إن الصيغة الأوربية تشير إلى أنها مأخوذة عن التركية حيث نجد «قهفه `Qahce» وفى التركية الأرمنية «كيف `Kaife» و«غيف `Ghaife». أما لفظ «قهوة» فى

العربية فيدل أصلا على «الخمر» وربما يعتقد أن الشيخ الشاذلى هو الذى أدخل هذا الشراب إلى بلاد العرب الجنوبية. وما يزال اسمه منتشراً هنا فى مصر: «قهوة شاذلى» وفى بلاد الحبشة. ولفظ «قهوة» قد يتصل بإقليم «كفا Kaffa» فى شرق إفريقيا حيث تنبت القهوة بريا، ومنها انتقلت إلى بلاد العرب الجنوبية. ويطلق سكان إقليم «كفا» على هذا النبات «بن» ويرجح أنه انتقل منها إلى العربية، ومن ثم إلى الألمانية «بونه Bohne»، أى «حبة البن»، ومن ثم نجد هذا اللفظ يكون مع كثير من المفردات الألمانية كلمات مركبة للتعبير عن معان مشتركة مثل «كافاهوس kaffeehajns»، أى «دار شراب القهوة» وغير ذلك..

وما وقع فى الألمانية تجده أيضًا فى مختلف اللغات الأوربية.

مات

٣ ـ انتقل هذا اللفظ مع لعبة الشطرنج حيث يقال (شاه مات) ففى الألمانية نجد «شمخات Schachmatt»، ولم يقف أمر هذا اللفظ عند هذا بل نجد اللغة الألمانية تكوِّن منه عدة صيغ مثل: «ماتهيت Mattheit» و«ماتيشكيت Mattig- keit»، أى الموت فى معنى الضعف.

الشك

٤ ـ الشكة السلاح وقيل الشكة ما يلبس من السلاح، ومن ثم قيل شاك فى سلاحه أى داخل فيه. وكل شىء أدخلته فى شىء فقد شككته، و... شاك السلاح وقد شك فيه فهو يشك شكًا أى لبسه تمامًا فلم يدع منه شيئًا. والشَّك: الحالة التى تُلْبِس ظهور الشيئَيْن.

وقد انتقل هذا اللفظ من العربية إلى اللغات الأوربية فهو فى الإسبانية «جاكو Jaco»، ومن ثم انتقل من إسبانيا فى القرن الرابع عشر إلى الفرنسية «جاك Jaque» فى معنى درع، ثم لباس أو لباس ضيق.

وفى القرن الخامس عشر ظهرت الصيغة المصغرة «جاكيت Jaquette» بمعنى لباس للفلاح، وفى القرن التاسع عشر نجد «جاكيت Jakett» تستخدم فى المعنى الحديث.

وفى الألمانية نجد اللفظ «جاكيه Jacke»، وكذلك «جاكيت Jakett»، وغالبًا ما تنطق «شكيت Schaket». ولا تقتصر الألمانية على استخدام هذا اللفظ مفردًا بل مركبًا أيضًا ومجازيًا.

وفى الإنجليزية ما زلنا نجد لفظ «جاك Jack» فى معنى درع، بينما لفظ «جاكيت Jacket» فى المعنى الحديث.

الصفة

٥ - تحدثنا معاجمنا اللغوية فى مادة «صفف» أن صفة الرحل والسرج هى التى تضم العرقوتين والبدادين من أعلاهما وأسفلهما، والجمع صفف على القياس. . . وهى للسرج بمنزلة المثيرة من الرحل. فما ذكرت وجاء فى المعاجم: الصفة هى الوسادة أو الحشية التى توضع فى السرج أو الرحل. ومن ثم نجد هذا اللفظ يتطور إلى مختلف المعانى التى تتصل بالجلوس، فالصفة الظلة والصفة من البنيان شبه البهو الواسع الطويل السمك وبالصفة الظلة.

وعن العربية انتقل اللفظ إلى الفرنسية ومنها فى القرن الثامن عشر إلى الألمانية فسائر اللغات الأوربية، حيث نجد (Sofa) بمعنى الصفة أو الأريكة.

مطرح Matraize

٦ - وهذا لفظ آخر عربى الأصل من مادة «طرح»، حيث نجد الشىء الطريح، أى المطروح، والمطرح هو المكان الذى يستريح فيه الإنسان أو الوسادة. وقد انتقل هذا اللفظ أولا إلى الأسرة اللغوية الرومانية حيث نجده فى الإسبانية والبرتغالية

«المدركوه Almadraque» ومنها إلى الفرنسية «ماتيلاس Matilas» فالإيطالية «ماتيرتسو Materazzo».

قرمزى

٧- أى الأحمر القانى نسبة إلى الحشرة المعروفة فى اللغات الفارسية والتركية والعربية «قرمز»، وعن الأخيرة انتقل هذا اللفظ إلى الإيطالية «قرميسينو Car-mesino».

وفى القرن الخامس عشر رحل اللفظ إلى ألمانيا فاللغات الأوربية الأخرى، فهو فى الفرنسية والألمانية «كرمين أو كرميزين Karmin»، وفى الإنجليزية «كريمزون Crison» أو «كرمين Carmin» واللغات الأخرى.

قنـــاد

٨- القند والقندة والقنديد كله عصارة قصب السكر إذا جمد ومنه يتخذ القانيد، وسويق مقنود ومقند معمول بالقنديد. قال ابن مقبل:

أشاقك ركب ذو بنات ونسوة بكرمان يعتقن السويق المقندا

والقند عسل قصب السكر، والقنديد الخمر. قال الأصمعى هو مثل الأسفنط وأنشد: كأنها فى سياع الدن قنديد.

وذكره الأزهرى فى الرباعى، وقيل القنديد عصير عنب يطبخ ويجعل فيه أفواه من الطيب. هذا بعض ما جاء فى لسان العرب.

ومن العربية انتقل إلى الإيطالية «كنديرى Candy» والفرنسية «كندير Can-dire».

وفى القرن الثامن عشر انتقل إلى ألمانيا، حيث يستخدم فى مثل «كونديتور Kon-

ditor»، أى قناد وسائر مشتقاتها. كذلك الحال فى مختلف اللغات الأوربية وبخاصة الإنجليزية، حيث نجد «كندى Candy».

مستقة

٩ - المساتق فراء طوال الأكمام واحدتها مستقة. قال أبو عبيدة أصلها بالفارسية (مشته) فعربت، قال الشاعر:

إذا لبست مساتقها غنى فياويح المساتق ما لقينا

فهذا اللفظ العربى الفارسى انتقل فى القرن الثالث عشر إلى الألمانية، حيث نجد «متزه Mutze» حتى أصبحنا فى القرن الخامس عشر نجد صيغًا أخرى مثل «متسه Mutze»، والأخيرة هى الصيغة المستخدمة اليوم لغطاء الرأس.

قطنية

١٠ - شق هذا اللفظ «قطن» طريقه إلى أوربا فى القرن الثالث عشر، حيث نجد «قطون Ratun»، وهو عبارة عن ثوب من القطن، وقد تطور من «قطوين Co-toin» إلى «كيتل Kittel» وفى ألمانية وسط ألمانيا نجد أيضًا «كيتيل Kietel».

طاسه

١١ - عن الفارسية «طشت» انتقلت إلى العربية «طاس» ومنها إلى الإيطالية «طسا Tazza» أو «تتسا Tatse» والفرنسية «طاس Tasse» فسائر اللغات، ففى الإنجليزية «طاس Tass»، أى جرعة من الكونياك والألمانية «طاسه Tasse».

١٢ - راجع رقم ٢.

سكر

١٣ ـ عن العربية انتقل إلى أوربا فى العصور الوسطى، واللفظ أصلا فيما يعتقد من الهند وقد استعارته عنها فى العصور القديمة اللاتينية فنجد فيها «ساخارم Saccharum» ومنها «سخارين Sacchain»، فأصبحنا نجد اليوم اللفظ القديم يدل غالبًا على المستخرجات العلمية من أملاح وأحماض، بينما يستخدم اللفظ العربى للدلالة على النوع العادى المستعمل فى الشراب والطعام.

غرافة

١٤ ـ الغراف مكيال ضخم مثل الجراف وعن العربية الإسبانية إلى الفرنسية «كاراف Carafe» والإنجليزية «كاراف Carafe» والإيطالية «كارافا Caraffa» والإسبانية «غرافة Garrafa».

ليمون

١٥ ـ ثمار شجرة تعرف بنفس الاسم، وهى من أشجار الموالح فارسية الأصل «ليمون»، ثم انتقلت إلى العربية. ومنها إلى مختلف اللغات الأوربية، حيث نجد: «ليمونادة» أو «ليموناته» عصير الليمون المحلى بالسكر الإيطالية «ليموناته Limonote»، ثم عادت هذه الصيغة إلى العربية.

الكحول

١٦ ـ من الكلمة العربية «كحل»، وهى المادة المستخدمة لتلوين رمش العين، ولما كان تحضير هذه المادة يتطلب أحيانًا روح الخمور عمم استخدام هذا اللفظ وأطلق على روح الخمر «الكحول».

وعن العربية انتقل اللفظ إلى كثير من اللغات الأوربية فنجد فى الإنجليزية

«الكحول Alcooll» والفرنسية «الكول Alcool» والألمانية «الكحول Alkohol».
ولم تقف اللغات الأوربية عند هذا اللفظ بل صاغت منه ألفاظًا أخرى تتحدث عنها المعاجم اللغوية الأجنبية المختلفة.

برقوق

١٧ - فاكهة واللفظ يونانى الأصل «بريكوكا» وفى اللاتينية «بريكوك praecox»، أى الذى ينضج مبكرًا، وانتقلت المادة إلى الأرامية «برقوقيا» فالعربية «برقوق».

وعن العربية انتقل هذا اللفظ فى العصور الوسطى إلى كثير من اللغات الأوربية حيث تجد فى الألمانية «إبريكوز Apricose» وفى الإنجليزية «إبريكو Apricot». وقديمًا استخدمت الإنجليزية صيغة «إبريكوك Apricock»، وقد أخذت عن العربية الإسبانية «البرقوق».

البنان

١٨ - أصبع اليد؛ وقد أطلق فى العربية الإسبانية على الفاكهة المعروفة اليوم عندنا باسم الموز. وإطلاق لفظ بنان عليها يرجع إلى الشبه القوى بين هذه الفاكهة وأصبع اليد. وهناك رأى يقول: إن لفظ «بنان» لفظ غانى يطلق على هذه الفاكهة، ويعتقد أن العرب الأسبانيين أحضروا هذه الفاكهة من غانا. أما لفظ «موز» فهندى، وقد انتقل عن طريق العرب الذين جلبوا هذه الفاكهة من الهند قبل أن تكتشف أوربا الطريق البحرى.

شربات

١٩ - من العربية «شرب»، ومن ثم انتقلت الكلمة إلى التركية ومنها إلى سائر اللغات الأوربية التى لم تكتف باللفظ ومدلوله الأصلى بل اشتقت منه مفردات أخرى فعن طريق الإيطالية شق اللفظ طريقه إلى الألمانية وأصبحنا نجد فيه اليوم

«سيروب Sirup» وفى الإنجليزية «سيروب Sirup (Syrup)» للماء المحلى بالسكر، وقد يمزج ببعض العقاقير الطبية لاستخدامه كدواء، كما نجد فى الفرنسية «سيروب Sirop».

نارنج - أورنج

٢٠ ـ لفظ «نارنج» فارسى عربى، ومن ثم انتقل إلى الإسبانية «نارنجا Naringa» والبرتقالية «لارنجا Laranja» أى «أورنجا Orange» وهى البرتقالة المرة. أما الحلوة فقد جاء بها البرتقاليون بعد عام ١٥٠٠ م من جنوب الصين إلى أوربا ومن هنا ندرك سر تسمية هذه الفاكهة فى شمال ألمانيا بلفظ «إبفيل سينه Ap-felesine» أى تفاحة الصين. وفى الهولندية «سيناس إيبل Sinaasappel» والهولنديون هم الذين أحضروها إلى شمال ألمانيا حوالى عام ١٧٠٠م؛ لذلك ما زال شمال ألمانيا يستخدم هذا اللفظ بخلاف الجنوب.

لكن هناك لغات أوربية أخرى أطلقت على هذه الفاكهة لفظ «برتقالو portogal-lo» نسبة إلى دولة البرتقال. كما نجد نفس اللفظ فى الشرق العربى.

الخرشوف

٢١ ـ من العربية الخرشوف انتقل اللفظ إلى الإسبانية «الخرشوف Alcarchofa» فالإيطالية القديمة «أرتيشيوكو Articiocco» محرفة من «الخرشيوفو Alcar-cioffo» وفى الإنجليزية «أرتيشوك Artichoke» والألمانية «أرتيشوك Arti-chok» والفرنسية «أرتيشو Artichaut».

بـــرد

٢٢ ـ البردة الثوب الذى يقى الجسم التقلبات الجوية ويحفظ له حرارته الطبيعية ثم جرت العادة بلف شواء الطيور بغلالة من الدهن فيبدو الطير وكأنه يرتدى بردة، والعيش البارد الهنىء الطيب:

قليلة لحم الناظرين يزينها　　　شباب ومخفوض من العيش بارد

ثم انتقل اللفظ إلى العربية الإسبانية بمختلف معانيه فهو البردة والدرع والسرج ومن ثم انتقل إلى الفرنسية «بردة barde»، بمعنى الشواء المغلف بالبردة، أعنى الشواء المبرد، والدرع. وفى الإنجليزية نجد «برد Bard» والألمانية «برده Barde».

أرز

٢٣ـ همزته زائدة وفيه لغات أرز ورز ورنز. وفى الآرامية روزا أو أوروزا أو رزا أو أورز، ومنها انتقل اللفظ إلى العربية، ومنها إلى مختلف اللغات الأوربية.

سبانخ

٢٤ـ نبات معروف فى الفارسية العربية «أسبناخ أو سبانخ»، ثم انتقل اللفظ إلى سائر اللغات الأوربية، ففى الإنجليزية «شبيناخ Spinach» أو «شبيناج Spin-age»، وفى الفرنسية القديمة «أسبيناخ» أو «أسبناج Espinache» والألمانية «شبينات Spinat».

(راجع ابن البيطار مادة اسفاناخ ويقال الزانخ).

القرفة

٢٥ـ من الحاصلات الزراعية لجزر الملايو واسمها فى لغة هذه الجزر «كجايو = خشب + مانيس = حلو» فلفظ «كايومانيس» معناه الخشب الحلو. ثم انتقل هذا اللفظ إلى الفينيقية «كينامون»، ومنها إلى اليونانية «كينامون» فاللاتينية «كيناموم Cinnamum»، ومنها إلى الألمانية القديمة «سينامين Sinamin»، ومن ثم أصبحت «زيناميم Zinemin» أو «زينمنت Zinment» ثم «زمت Zimt».

العرق

٢٦ ـ هو العرق فى العربية، ومن ثم أطلق على الخمر المستخرج من التمر، ثم استخدمه العرب وأطلقوه على كل معسكر، وقد انتشر هذا اللفظ فى مختلف اللغات الأجنبية كما أطلق على كثير من المشروبات الروحية وبخاصة فى منغوليا وأمريكا. وفى الهند يطلق بخاصة على المشروبات الكحولية المستخرجة من الأرز أو قصب السكر.

وقد انتقل إلى الإنجليزية، حيث نجد «أرك Arrack» أو «Arak» وهو اسم يطلق على أى معسكر، وبخاصة ذلك المستخرج من جوز الهند أو الأرز والسكر.

مخا

٢٧ ـ مخا ميناء يمنى يقع على البحر الأحمر، وكان قديمًا أشهر ميناء لتصدير البن فأصبح علمًا على هذه القهوة الشرقية.

ديوان

٢٨ ـ كتاب أو مصلحة من مصالح الحكومة أو مقعد.

واللفظ الفارسى الأصل، ومن ثم انتقل إلى العربية التى تنوعت فى استخدامه ومنها انتقل إلى كثير من اللغات الأوربية.

تسفتشجين Zwetschgen

٢٩ ـ وهو الدراق الدمشقى prunum damascenum إلا أن اللفظ أقدم فى الشام من نزوح العرب إليها فاللفظ غير عربى ولا يعرف أصله، ومن دمشق انتقل إلى ألمانيا.

Bergamotte **بيج أرمودى** Begarmudy

٣٠ـ لفظ تركى معناه «كمثرى البك»، ومن ثم أطلق هذا اللفظ المركب على نوع ممتاز من الكمثرى، ومن ثم انتقل إلى الإيطالية «برجاموتا Bergamotta»، ثم إلى الفرنسية «برجاموت Bergamote»، وأخيراً إلى الألمانية «برجاموت بيرنين Bergamotte Birnen».

٣١ـ (انظر ٢٨).

عثمانى

٣٢ـ صفة منخفضة واللفظ نسبة إلى الاسم العربى «عثمان»، ومن العربية إلى التركية ومنها إلى كثير من اللغات الأوربية كالإيطالية والفرنسية والألمانية.

قبة

٣٣ـ بناء سقف مستدير مقعر معقود بالحجارة أو الآجر، وقد اختلف القوم حول أصل هذا اللفظ ومعناه فى اللغة العربية وذلك لاشتراك الأسرتين اللغويتين العربية والهندية الأوربية فيه.

ولفظ (قبة) هذا دخيل فى العربية الشمالية وهو سريانى أصله «قوبا» أو «قوبثا» وقد استعارته عنها بعض اللغات السامية الأخرى، فهو فى العبرية «قبث»، وفى المندعية «قومبا» أو «قومبثا».

وقد نقل العرب هذا الفن من البناء إلى إسبانيا حيث نجد «القوفن Alkoven». ولم يقف انتشار هذا الفن عند شبه جزيرة إيبريا بل سرعان ما نجده ينتشر فى سائر أنحاء أوربا من جديد بعد أن سبق لها أن عرفته عن طريق اليونان. ومع هذا الفن غزا مدلوله اللغات الأوربية. ففى اللاتينية «كوبا Cupa» وفى الإيطالية «كوبولا Cupola» والألمانية «كوبل Kuppel» والفرنسية «كوبول Coupole» والإنجليزية «كوبولا Cupola».

وهل كان يخطر ببالنا أن هذا اللفظ العربى القديم يترك هذا الأثر العظيم فيتعدى ما وضع له، ويفرض نفسه على كل شىء جمعته به رابطة ما ولو كانت رابطة الشكل فقط، فنجده فى «كب Cup» الإنجليزية و«كوب Coupe» الفرنسية و«كوبا Coppa» الإيطالية بمعنى «فنجال»، ثم تأتى العربية وتستعير من الإيطالية أو الفرنسية أو منهما معًا لفظ «كبايا» فى المعنى المتداول بيننا؟!

ولم يقف أثر هذا اللفظ عند هذا الحد بل نراه يبسط نفوذه فى اللغة الألمانية فيحتل منطقة واسعة من مناطقها اللغوية فنجد «كوبشن Koppchen» (شن: علامة التصغير) بمعنى فنجال و«كبا Koppe» قمة الجبل و«كيف Kopf» رأس.

شطرنج

٣٤ـ لعبة شهيرة يلعبها اثنان عادة. ولفظ شطرنج هندى فهو فى السنسكريتية (تشطورنجا)، أعنى أربعة أقسام أى جيش، ومنها انتقل إلى الفارسية فالعربية.

ففى النص الفهلوى: (مادهيجن شطرنج) نقرأ خبرًا عن الملك الهندى «ديوسرم» الذى أرسل إلى كسرى أنو شروان هذه اللعبة المكونة من ستة عشر شخصًا من الزمرد، ومثل هذا العدد من الياقوت، ولعل أقدم إشارة عربية إلى هذه اللعبة قول ابن المعتز:

وحيطان كشطرنج صفوف فما تنفك تضرب شاه ماتا

ويذكر اليعقوبى فى تاريخه (جـ ١. ص ـ ١٠٣. طبع أوربا): فاجتمعوا على حكيم من حكمائهم ـ يقصد حكماء الهند ـ يقال له «قفلان»، وكان ذا حكمة وفطنة ورأى فذكروا ذلك له فقال: أنظرونى ثلاثًا؛ ففعلوا ذلك وخلا مفكرًا ثم قال لتلميذ له: أحضرلى نجارًا وخشبًا من لونين مختلفين أبيض وأسود: فصور صورة الشطرنج وأمر النجار فنجرها، ثم قال له أحضر لى جلدًا مدبوغًا، فأمره أن يخط فيه أربعة وستين بيتًا ففعل ذلك فنصب ناحية، ثم تجاولا حتى فهماها فأحكماها، ثم قال

لتلميذه: هذه حرب بلا ذهاب أنفس، ثم حضره أهل المملكة فأخرجها لهم فلما رأوها علموا أنها حكمة لا يهتدى لها أحد.

شيكيش Scheckig

٣٥ ـ لفظ منسوب إلى كلمة «شيك = شاه = شطرنج»، وهو يعبر عن لوحة الشطرنج المشكلة الألوان، ومن ثم أطلق اللفظ على الشخص المتلون كأنه رقعة الشطرنج.

قفة

٣٦ ـ «قفة» = سلة

لفظ عربى قديم فهو فى الأكادية «قف» بمعنى صندوق أو قفص، ثم انتقل إلى اليهودية الأرامية «قوفتا» ومنها إلى العربية.

وقد انتقل هذا اللفظ إلى أوربا عن طريقين طريق شرق أوربا فنجده فى اليونانية «كوفينوس Kofinos» ومنها إلى اللاتينية «كوفينوس Cophinus». وعن طريق إسبانيا حيث العرب بالأندلس نجد اللفظ العربى الإسبانى «قفة Cofe أو Cofa». والإيطالية «قفة Coffa». وفى الفرنسية نجد «قف Couffe».

ولم يقف هذا اللفظ عند هذه اللغات فنجد فى الإنجليزية «كوفير Coffer» والألمانية «كوفير Koffer».

وقد تفننت كل لغة من هذه اللغات فى هذه المادة فصاغت منها مختلف الصيغ التى حفظتها لنا معاجمها.

صفى

٣٧ ـ اسم مدينة مراكشية تقع بين الدار البيضاء وأغادير، وقد اشتهرت منذ القدم

بدباغة جلود الماعز والضأن، وإليها تنسب الجلود الجيدة والمعروفة فى اللغة الألمانية باسم «صفيان Safian».

وقد انتقل هذا اللفظ إلى كثير من اللغات الأوربية فغير الألمانية «صفيان» نجد الإنجليزية «صفيان Saffian» والروسية «صفيانو Safianu».

ومما يؤيد صحة نسبة هذا الجلد إلى مدينة «صفى»، وأنه ليس من اللفظ الفارسى «سختيان» أن الفرنسية تطلق عليه اسم «ماروكين Maroquin» أى مراكشى.

٣٨ـ انظر ٣٧ = مراكشى.

جدامس Gamasche

٣٩ـ مدينة فى طرابلس بالقرب من الحدود الجزائرية، وقد اشتهرت بصناعة هذه الوسيلة الواقية للساق.

جــلا

٤٠ـ يستخدم هذا اللفظ حقيقة أو مجازًا للتعبير عن اللمعان، ومن ثم انتقل عن طريق إسبانيا إلى فرنسا حيث نجد لفظ «جلا Gala» بمعنى احتفال. عيد مأدبة. وليمة. ومن ثم تطور هذا اللفظ إلى معان عديدة منها «جالنت Galant» أى أديب. أنيق. مستقيم. والاسم منها «جالنترى Galanterie».

وقد تطور هذا اللفظ فى اللغة الألمانية، حيث نجد «جالن Galant» أى عشيق أو شهم. مهذب.

كذلك الحال فى الإنجليزية وغيرها من اللغات الأوربية، حيث نجد هذا اللفظ ومشتقاته مستخدمًا فى سائر المعانى.

بركان Berkan **أو** Barchent

٤١ ـ نسيج خشن من شعر الماعز أو صوف الضأن أو وبر الجمال. واللفظ فارسى الأصل، وعن العربية انتقل اللفظ إلى مختلف اللغات الأوربية، وقد يتصل به لفظ «بركال perkal» لهذا النوع من القماش المنتشر اليوم.

قطن

٤٢ ـ العربية «قطن».

موصلى Musselin

٤٣ ـ نسبة إلى مدينة الموصل بالعراق.

مخير Mohair

٤٤ ـ قماش صوف خشن عرف فى ألمانيا باسم «مخير mohair» وعن العربية انتقل اللفظ إلى البلاد الصقلية، ثم عاد إلى ألمانيا ثانية فكثير من الدول الأوربية، حيث نجد «مورا moire ومهير mokair».

الشف Chiffon

٤٥ ـ الشف والشف الثوب الرقيق، وقيل الستر الرقيق يرى ما وراءه، وجمعها شفوف.

زانهن الشفوف ينضحن بالمسك وعيش معانق وحرير

وقد انتقل من العربية إلى كثير من اللغات الأجنبية، حيث نجد «شيفون Chif- fon».

زيتونى Satin

٤٦ ـ انتقلت هذه الكلمة من العرب إلى الأسبان ومنهم إلى الفرنسيين، حيث نجد لفظ «ساتين Satin»، ومن ثم انتقلت إلى مختلف اللغات الحية. ولفظ «زيتونى» العربى نسبة إلى مدينة صينية كان العرب يجلبون منها الحرير.

تفت

٤٧ ـ قماش حريرى رقيق واللفظ فارسى تركى، ومن ثم انتقل إلى العربية، ومعناه فى الفارسية «النسيج»، ثم إلى مختلف اللغات الحية فهو فى الألمانية «تفت Taft» وفى الفرنسية «تفتس Taftas» والإنجليزية «تفتا Taff» وغيرها.

أطلس

٤٨ ـ الأطلس الناعم الملمس.

الدمشقى

٤٩ ـ نسبة إلى دمشق.

زعفرانى Safran

٥٠ ـ انتقل هذا اللفظ من العربية إلى جنوب إيطاليا ففرنسا وألمانيا، ومن ثم انتشر فى مختلف اللغات الحية، ففى الإنجليزية «سفرون affron» ومشتقاته فى الإنجليزية وغيرها من اللغات.

ليلا Lila

٥١ ـ العربية «ليلك»، ومنها إلى الإسبانية «ليلك» فالفرنسية «ليلاس Lilas»، وهو فى الأصل اسم لشجرة هندية، ثم استعير اللفظ للتعبير عن اللون.

ترياق. درياق Roge

٥٢ ـ الترياق دواء مركب واللفظ يونانى الأصل «ترياكة Theriak»، ومنها إلى الأرامية «ترياقا» أو «توريقى» أو «تريقى» ومنها إلى العربية. وقد انتقل هذا اللفظ إلى اللغات الأوربية عن طريق العرب.

٥٣ ـ انظر رقم ١.

جنزبيل. زنجبيل

٥٤ ـ بقلة يقال لها فلفل الماء لأنها حريفة.

واللفظ سنسكريتى «سرنجفيرا Crngavera»، ثم استعارته الآرامية «زنجبيل» فالعربية زنجبيل، ثم انتقل اللفظ إلى اللغات الأوربية، ففى الألمانية «انجفير Ing-wer» والإنكليزية «جنجير Ginger» والإنجليزية القديمة «جنجيبير Gingiber».

ويلاحظ أن صيغة اللفظ فى اللاتينية هى «زنجيبير Zingiber»، وكذلك اليونانية.

كمون

لفظ عربى قديم فهو فى الأشورية «كمون»، وفى العربية «كمون» والبونية «كمان» ومنها إلى اليونانية «كمينون Kyminon» فسائر اللغات الأوربية.

زعفران

٥٥ ـ انظر ٥٠.

كافـــور

٥٦ ـ نبت طيب موطنه جزر فورموزا واسم الشجرة فى اللاتينية «كمفورا Campho-ra» وفى الهندية القديمة «كارفورا»، ثم وقع إدغام فصارت الكلمة «كفورا» وانتقلت إلى العربية «كافور»، ومنها إلى مختلف اللغات الحية.

بنزين

٥٧ ـ سائل لوقود السيارات. عربى «لبان جاوى»، ثم انتقل إلى اللغات الأوربية «بنزو Benzoe»، ولما جرت العادة قديمًا أن يستخرج سائل البنزين عن طريق تسخين حامض البنزو، أطلق العلماء على السائل المستخرج منه «بنزين» وهكذا أصبحنا نجد هذا اللفظ فى صيغته الجديدة فى مختلف اللغات العالمية.

قلى Kali

٥٨ ـ اللفظ العربى الدال على «البوتاس»، وقد استعارته معظم اللغات الأجنبية وتصرفت فيه فصاغت منه عدة صيغ.

نطرون

٥٩ ـ اللفظ مصرى قديم «نتر» وعن المصرية القديمة انتقل اللفظ إلى اليونانية «نطرون Natron»، وهو نوع من البورق «راجع مادة بورق» عند ابن البيطار.

صداع Soda

٦٠ ـ كانت الصودا تستخرج من أعشاب بعض الشواطئ الإسبانية، وتستخدم كعلاج لوجع الرأس أى الصداع فسميت الصودا باسم المرض.

بورق Borax

٦١ ـ لفظ فارسى الأصل «بوريه» واستعاره العرب وأصبح «بورق»، وعن العربية انتقل إلى مختلف اللغات الأوربية. وقد عرض لهذه المادة ابن البيطار فى مادة بورق.

سكرين Saccharin

راجع مادة سكر.

عنبر

٦٢ ـ عربى ويرجح أنه من إفريقيا الشرقية، ثم انتقل إلى كثير من اللغات العالمية.

لك

٦٣ ـ انتقل من الهندية إلى الفارسية، ومنها إلى العربية فسائر اللغات الأوربية Lack.

النيلة

٦٤ ـ مادة زرقاء اللون تستخدم فى الصباغة هندية الأصل، ومن ثم انتقلت إلى العربية ومنها إلى الأوربية، حيث نجد «أنيلين Anilin».

قــز

٦٥ ـ القز أبريسم، وقيل ضرب منه أو ما يسوى منه الأبريسم. واللفظ فارسى الأصل ثم انتقل إلى الآرامية «قز» أى شعر ومنها إلى العربية، ومن الأخيرة

انتقل إلى مختلف اللغات الأوربية ففى الفرنسية «قز Gaze» أى حجاب. واعتقد القوم خطأ أنه نسبة إلى مدينة غزة، والواقع أن هذه المدينة لم تشتهر بصناعته أو الاتجار فيه.

طلق Talkum

٦٦ ـ دواء إذا طلى به منع حرق النار.

بطـــن

٦٧ ـ استعير من بطن الإنسان وأطلق على الملابس المبطنة «بطن»، ومن ثم انتقل اللفظ من العربية إلى الألمانية «بطن Watten»، ثم استخدم كذلك للدلالة على القطن الطبى Watte.

خلنجان

نبت قريب من الزنجبيل وهو صينى الأصل، ومن ثم انتقل حوالى عام ٨٧٥ م إلى الجزيرة العربية، وقبل القرن الثانى عشر نقله العرب إلى أوربا.

مـــــر

يذكر ابن البيطار فى مادة «مر»: صمغ شجرة ومنه تخرج الميعة السائلة، وهو مر وبسبب مرارته يقتل الديدان والأجنة ويخرجها، وهو يجلو العين لذلك يخلط فى الأكحال التى تتخذ للقروح.

ثم استعارت اليونانية هذا اللفظ العربى القديم وأصبح «مرا mvrra»، ومن ثم انتقل اللفظ العربى فى العصور الوسطى إلى كثير من اللغات الأجنبية.

٦٨ ـ ابن خرداذبه: المسالك والممالك. ص ١١.

سمسار

٧٠ـ وسيط وبائع. واللفظ فارسى «سبسار»، ثم انتقل إلى الآرامية «سفسرا»، ومنها إلى العربية «سمسار»، ثم انتقل اللفظ العربى إلى كثير من اللغات الأجنبية Senaal سنسال.

٧١ـ راجع رقم ٤١.

جبة

٧٢ـ هذا الثوب العرب الفضفاض قد استعارته اللغات الأوربية وأطلقته على جبة السيدات المستعملة حتى يومنا هذا. ففى الألمانية نجد «جبة Juppe»، وقد استعارتها عن طريق إيطاليا حيث نجد «جبة Guippa» ومن ثم انتقلت إلى مختلف اللغات الحية.

داو

٧٣ـ أوداوة لفظ هندى الأصل ثم استعارته الفارسية «داو» ومنها إلى العربية «داو» أو «داوة»، وهو عبارة عن سفينة تمخر عباب البحر الأحمر من جدة إلى السويس. وقد عرض لها الجبرتى فذكرها. وفى غير البحر الأحمر نجد هذه السفينة فى جنوب اليمن والخليج العربى والمحيط الهندى تعمل لا فى نقل البضائع فقط بل استخدمها العرب قديمًا فى الحروب أيضًا.

وعن العربية انتقل هذا اللفظ إلى الإنجليزية حيث نجد «دو D (h) ow أو داو D (h) au».

دنجية

٧٤ـ سفينة كثيرة الاستخدام فى البصرة .

قربلة

٧٥ـ أو قربيلة سفينة خاصة بنقل الخيول ، وقد تكون إسبانية الأصل ، وعن طريق العرب انتقل هذا اللفظ إلى كثير من اللغات الأجنبية .

فلوكة

٧٦ـ فلوكة أو فلوقة ، اختلفت الآراء حول أصل هذه الكلمة ، ويرجح أنها العربية «فلك» ، وقد انتقلت إلى كثير من اللغات الأوربية فهى فى الإنجليزية «فلوكة Felucca» والإيطالية «فلوكة fetuca» والألمانية «فلوكة Feluke» .

ميزان

٧٧ـ من مادة «وزن» فى العربية أى حافظ توزيع الثقل للجسم فلفظ «ميزان» عبارة عن الشراع الخلفى فى السفينة وهو الذى يحافظ على توزيع ثقلها بالنسبة للريح . وقد انتقل هذا اللفظ فى العصور الوسطى إلى الإيطالية ، حيث نجد «مزان mezzana» وفى الألمانية «بزان Besahn» .

الحبل

٧٨ـ انتقل هذا اللفظ إلى مختلف اللغات الأوربية ، ففى الإنجليزية «كابل Cable» والألمانية Kabel والفرنسية Gable وهلم جرا .

دار الصناعة Arsenal

٧٩ـ انتقل اللفظ إلى الإيطالية مرتين مرة عن طريق البندقية ، حيث نجد «أرسينالا

«Arsenale» وأخرى بواسطة جنوه، حيث نجد «دار صينا Darsena». كما انتقل إلى مختلف اللغات الأوربية الأخرى ففى الألمانية «أرسينال Arsenal» والإنجليزية «أرسينال Arsenal».

أمير البحر

٨٠ـ انتقل إلى اللغات الأوربية حيث نجد صيغة «أدميرال Admiral».

قلفاط

٨١ـ ٨٢ـ من لفظ «قلف» العربى التركى ومعناه «مقدم» العمال أو الفرقة، ثم انتقل إلى اليونانية «كالافاتيس Kalafates»، أى عامل بالسفينة. ثم يرجح أن صيغة «قلفط» فى العربية دخلت من اليونانية بمعنى يعمل فى السفن فأصبحنا نجد «قلفاط وقلفاطى».

عوارية

٨٣ـ ما يصيب السفينة فى البحر من عوار.

وقد انتقل هذا اللفظ قديمًا إلى الإيطالية Avaria، ومنها إلى الألمانية Havraia، ثم إلى غيرها من لغات.

كبر. كبّار. قبّار

٨٤ـ نوع من التوابل.

وقد انتقل اللفظ من العربية إلى الفرنسية Capre، ومنها إلى الألمانية Kaper فغيرها من اللغات.

٨٥ـ راجع رقم ١٥.

ياسمين

٨٦ ـ فارسية وانتقلت إلى العربية فسائر اللغات الأوربية .

ورد

٨٧ ـ لا غرابة فى أن نجد هذا اللفظ فى مختلف اللغات قديمها وحديثها ، فهذه الزهرة محببة منذ عرفها الإنسان .

وقد عرفت اسمها الأكادية حيث نجد «مردين» «وردين» ، ثم نجده قسمة بين مجموعتين مختلفتين من اللغات المجموعة السامية الحامية والمجموعة الهندية الأوربية . وقد تصرفت كل أسرة من الأسرتين فى اللفظ التصرف الذى يتفق وطبيعتها .

فمن الأكادية انتقل إلى اليونانية رودون Wrodon فاللاتينية روزا Rosa فسائر اللغات الأوربية .

هذا فيما يتصل بالأسرة الهندية الأوربية . أما لغاتنا السامية فيرجح أن اللفظ انتقل من الأكادية إلى الفارسية القديمة (يرجح عن طريق الآرامية) «ورد» ومن ثم إلى العربية . فمن كان يدرى أن لفظ «روز Rose» هو : وردة ، وأن هذا اللفظ يصبح فى اللغات عامة مصدرًا لكثير من الأسماء المركبة أو المشتقة منه .

خيرى البر

٨٨ ـ هى الزهرة المعروفة الآن باسم توليب Tulipe .

أسليح

٨٩ ـ شجيرة ذات أزهار جميلة تزهر فى الربيع . وقد يطلق عليها أيضًا : بليحاء ، وفاغية ، وهى فى اللغات الأوربية الحديثة Reseda .

فورسيسيا

٩٠ـ شجيرة تزهر فى الربيع من أشجار الزينة، واللفظ إفريقى الأصل فورسيس Forayth.

بلد شين

٩١ـ قماش مزخرف يستخدم فى مختلف الأغراض الهامة وتضعه الكنيسة على المذبح ووطنه الأصلى : بغداد، ويرجح أن هذا اللفظ هو تحريف اللفظ : بغداد الذى حورته الإيطالية إلى «بلد شينو Baldacchino» من الاسم الإيطالى بلد شو Baldacco أى بغداد.

وعن طريقها انتقل اللفظ إلى سائر اللغات الأوربية.

بلوزه Bluse

٩٢ـ اشتهرت المدينة المصرية القديمة «بلوزيوم» بصناعة نوع من المعاطف المصبوغة بالنيلة، وقد ذاع انتشار هذا اللباس حتى استخدمه رجال الحروب الصليبية وارتدوه فوق ملابسهم. واستعارت أوربا من اللباس اسمه فأصبحنا نجد «بلوزيا pelusia» فى لاتينية العصور الوسطى. ثم بلغت الكلمة فرنسا وإنجلترا حيث نجد «بلوز Blouse».

وفى عام ١٨٢٧ انتقل اللفظ من فرنسا إلى ألمانيا معبراً عن ثوب جديد من ثياب النساء، ولم يقف عند ألمانيا بل انتشر شمالا حتى بلغ الدنيمارك والسويد فأصبحنا نجد «بلوزه Bluse» و«بلوز Blus».

ومنذ الثورة البلجيكية التى نشبت عام ١٨٣١ أصبح للفظ «بلوزه» معنى لباس العامل الذى أطلق عليه اسم «بلوزمان Blusenmann».

جبـــة

٩٣ ـ من النادر أن نجد لفظًا عربيًا قام برحلة فى العالم قيام هذا اللفظ العربى، وهو فى كل بلد يتطور حسب الزمان والمكان.

فقد انتقل فى العصور الوسطى إلى إيطاليا، حيث نجد «Guippa»، ومنها انتقل حوالى ١٢٠٠ م إلى شمال ألمانيا فنجد Juppe أو Schope أو Tjoppe، ومنها إلى مختلف اللغات، وإن كان يغلب على نوع من ملابس النساء المعروف لنا اليوم.

الفهرس

الفهرس

هذا الكتاب

هو أشهر الدراسات الغربية الحديثة التي عُـنِـيَتْ بتاريخ العلوم العربية فى فترة ازدهارها. وتنبع أهميته من كَوْنه قد عرض تاريخ العلم العربي بحَيْدَة شديدة وإنصاف بالغ دون تَجَنٍّ أو انتقاص من قَدْره كذلك الذي عهدناه في كثير من الكتابات الاستشراقية خلال الفترة الأخيرة. وليس هذا فحسب، بل إنه يقدم أيضًا كثيرًا من دلالات العبقرية لعديد من العلماء العرب الذين جَهلْنا سِيَرَهم وأعمالَهم في غَمْرَة أحداث الفترة المظلمة من تاريخنا إبّان سنوات الاستعمار التركي والصراع العربي الأوربي.

أما مؤلفة الكتاب فغنية عن التعريف. إنها «صديقة العرب»، «شمس الله»، «سيجريد هونكه».. المستشرقة الألمانية ذائعة الصِّيت، والتى صرفت وقتها وجهدَها البحثي كله طوال حياتها للدفاع عن التراث العربي وقضاياه.

إن هذا الكتاب مرجع ثمين لا يستغني عنه أي قارئ عربي؛ ولهذا رأت «دار العالم العربي» أن تعيد إصداره في طبعة قشيبة ليكون تذكرة لكل مواطن عربي بتاريخ أمته التليد وأمجاد ماضيها، وحافزًا له في الوقت نفسه على أن يصل مجد الماضي بإنجاز الحاضر.



6 224000 858322